

# نفساير إلى السَّعَوِ

أو

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

لقاضي القضاة أبي السعود بن محمد العمادي الحنفي

٨٩٨٢ - ٨٩٠٠

تحقيق

عميد الفادر أحمد عطا

نَفْسِيرُ إِلَى السَّعْوِ  
أَوْ  
إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ إِلَى مَزَايَا الْكِتَابِ الْكَرِيمِ

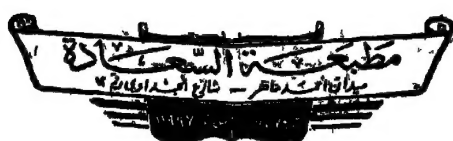
لقاضى القضاة أبى السعود بن محمد العمادى الحنفى

٥٩٠٠ — ٥٩٨٢

تَحْقِيقُ  
عَبْدِ الْفَادِرِ أَحْمَدَ عَطَا

الْجَزْءُ الرَّابِعُ

بطلب من الناشر  
مكتبة الرياض الحديثة  
بالرياض



# بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحج

مكية إلا حديث آيات من ( هذان خصمان ) إلى ( صراط الحميد )  
وهي ثمان وسبعون آية

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( يا أيها الناس اتقوا ربكم ) خطاب يعم حكمه المكلفين عند النزول  
ومن سينتظم في سلكهم بعد من الموجودين القاصرين عن رتبة التكليف  
والحادئين بعد ذلك إلى يوم القيامة وإن كان خطاب المشافهة مختصا بالفريق  
الأول على الوجه الذي مر تقريره في مطلع سورة النساء ولفظ الناس ينتظم  
الذكور والإناث حقيقة وأما صيغة جمع المذكور فواردة على نهج التخليب لعدم  
تناولها للإناث حقيقة إلا عند الحنابلة والمأثور به مطلق التقوى الذي هو  
التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك ويندرج فيه الإيمان بالله واليوم الآخر  
حسبا وزد به الشرع اندراجا أوليا والمرضى لعنوان الربوبية المنبئة عن  
المساكنية والتربية مع الإضافة إلى ضمير مخاطبين لتأييد الأمر وتأكيدهم لإيجاب  
الامتثال به ترهيبا وترغيبا أي احذروا عقوبة مالك أموركم ومريكم وقوله  
تعالى : ( إن زلزلة الساعة شيء عظيم ) تعطيل لموجب الأمر بذكر بعض عقوباته  
الهائلة فإن ملاحظة عظمتها وهولها وفظاظة ما هي عن مباديته وتقدماته من  
الأحوال والأحوال التي لا تلحق منها شئ من التدريع بلباس التقوى مما يوجب  
مزید الاعتناء بملازمة ملازمة حاله والزلزلة التعريبك الشديد والإخراج  
العنيف بطريق التكرير بحيث يزيل الاشتباه من مقارنها ويخرجها عن مراكرها  
وإضافتها إلى الساعة إما إضافة المصدر إلى فاعله على المجاز الحكيم كأنها هي  
التي تزلزل الأشياء أو إضافته إلى الطرف إما بإجرائه مجرى المفعول به أنشأ



أو بتقدير في كما في قوله تعالى : ( بل مكر الليل والنهار ) وهى الزلزلة المذكورة في قوله تعالى : ( إذا زلزلت الأرض زلزالها ) عن الحسن : أنها تكون يوم القيامة وعن ابن عباس رضى الله عنهما زلزلة الساعة قيامها ، وعن علقمة والشعبي : أنها قبل طلوع الشمس من مغربها ، بإضافتها إلى الساعة حينئذ لكونها من أشراطها ، وفي التعبير عنها بالشيء ليذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها والعبارة ضيقة لا تعيظ بها إلا على وجه الإيهام وقوله تعالى :

(( يوم ترونها )) منتصب بما بعده قدم عليه اهتماما به والضمير للزلزلة أى وقت رؤيتكم إياها ومشاهدتكم لهول مطالعها (( تذهل كل مرضعة )) أى مباثرة للإرضاع (( عما أَرْضَعَتْ )) أى تغفل وتذهل مع دهشة عما هى بصدد إرضاعه من طفلها الذى ألقته<sup>(١)</sup> ثديها والتعبير عنه بما دون من لنا كيد الذهول وكونه بحيث لا يخطر ببالها أنه ماذا لا أنها تعرف شيئته لكن لا تدري من هو بخصوصه وقيل ما مصدرية أى تذهل عن إرضاعها والأول أدل على شدة الهول وكال الانزعاج . وقرئ تذهل من الإذهال مبنياً للمفعول أو مبنياً للفاعل مع نصب كل ، أى تذهلها الزلزلة (( وتضع كل ذات حمل حملها )) أى تلقى جنينها لغير تمام كما أن المرضعة تذهل عن ولدها لغير فطام وهذا ظاهر على قول علقمة والشعبي وأما على ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فقد قيل إنه تمثيل لتحويل الأمر وفيه أن الأمر حينئذ أشد من ذلك وأعظم وأهول مما يوصف وأطم وقيل : لأن ذلك يكون عند النفخة الثانية ، فإنهم يقومون على ما صنعوا فى النفخة الأولى فتقوم المرضعة على إرضاعها والحامل على حملها ولا ريب فى أن قيام الناس من قبورهم بعد النفخة الثانية لا قبلها حتى يتصور ما يذكر (( وتروى الناس )) بفتح النون والراء على خطاب كل أحد من المخاطبين بروية الزلزلة والاختلاف بالجمعية والإفراد لما أن المرئى فى الأول هى الزلزلة

التي يشاهدها الجميع وفي الثاني حال من عدل المخاطب منهم فلا بد من إفراذ المخاطب على وجه يعم كل واحد منهم لكل من غير اعتبار اتصافه بتلك الحالة فإن المراد بيان تأثير الزلزلة في المرتضى لا في الرأى. باختلاف مشاعره لأن مداره حقيقة رؤيته للزلزلة لا لغيرها كما أنه قيل ويصير الناس سكارى إلخ وإنما أوتر عليه ما في التنزيل للإيذان بكمال ظهور تلك الحالة فيهم وبلوغها من الجلاء إلى حد لا يكاد يخفى على أحد أي يراهم كل أحد (سكارى) أي كأنهم سكارى (وما هم بسكارى) حقيقة (ولكن عذاب الله شديد) فيهم فهم هوله ويطير عقولهم ويسلب تمييزهم فهو الذي جعلهم كما وصفوا وقرىء ترى بضم التاء وفتح الراء مسندا إلى المخاطب من رأيتك قائما أو رؤيتك قائما والناس منصوب أي تظنهم سكارى وقرىء برفع الناس على إسناد الفعل المجهول إليه والتأنيث على تأويل الجماعة وقرىء ترى بضم التاء وكسر الراء أي ترى الزلزلة الخلق جميع الناس سكارى وقرىء سكرى وسكرى كعطشى وجوعى لإجراء المسكر مجرى العطال .

(ومن الناس) كلام مبتدأ جرى به لئلا يبين عظم شأن الساعة المنبئة عن البعث بياناً لحال بعض المنكرين لها ومحل الجار الرفع على الابتداء إما بحمله على المعنى أو بتقدير ما يتعلق به كما مر مرارا أي وبعض الناس أو وبعض كائن من الناس (من يجادل في الله) أي في شأنه تعالى ويقول فيه ما لا خير فيه من الأباطيل وقوله تعالى (بغير علم) حال من ضمير يجادل موضحة لما يشعر بها المجادلة من الجهل أي ملايسا بغير علم . روى أنها نزلت في النضر بن الحرث وكان جدلاً يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين ولا بعث بعد الموت وهي عامة له ولا ضرابه من العتاة المتمردين (ويتبع) أي فيما يتعاطاه من المجادلة أو في كل ما يأتي وما يذر من الأمور الباطلة التي من نجلتها ذلك (كل شيطان مريد) عات متمرد متجرد للفساد وأصله العرى المنبئ عن التحض له كالشمر ولعله مأخوذ من تجرد المصارعين عند المصارعة قال الزجاج المريد والمارد المرتقع الأملس والمراد إما رؤساء الكفرة الذين يدعون من

دونهم إلى الكفر وإما إبليس وجنوده ﴿وقوله تعالى ﴿كتب عليه﴾ أى على الشيطان صفة أخرى له وقوله تعالى ﴿أنه﴾ فاعل كتب والضمير للشان أى رقم به لظهور ذلك من حاله أن الشان ﴿من تولاه﴾ أى اتخذه وليا وتبعه ﴿فإنه يضله﴾ بالفتح على أنه خير مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف. والجملة جواب الشرط إن جعلت من شرطية وخبر لها إن جعلت موصولة متضمنة لمعنى الشرط أى من تولاه فيشأنه أن يضله عن طريق الجنة أو طريق الحق أو فحق أنه يضله قطعاً وقيل فإنه معطوف على أنه وفيه من التعسف ما لا يخفى. وقيل وقيل بما لا يخلو عن التحمل والتأويل وقرئ فإنه بالكسر على أنه خبر لمن أو جواب لما وقرئ بالكسر فيهما على حكاية المكتوب كما هو مثل ما فى قولك كتبت إن الله يأمر بالعدل والإحسان أو على إضمار القول أو تضمين الكتب معناه على رأى من يراه ﴿ويهديه إلى عذاب السعير﴾ بحمله على مباشرة ما يودى إليه من السيئات .

### الرد على منكرى البعث

﴿يا أيها الناس﴾ إثر ما حكى أحوال المجادلين بغير علم وأشير إلى ما يؤول إليه أمرهم أقيمت الحجة الدالة على تحقق ما جادلوا فيه من البعث ﴿إن كنتم فى ريب من البعث﴾ من إمكانه وكونه مقدوراً له تعالى أو من وقوعه وقرئ من البعث بالتحريك كالجلب فى الجلب والتعبير عن اعتقادهم فى حقه بالريب مع التنكير المنبئ عن القلة مع أنهم جازمون باستحالته وإيراد كلمة الشك مع تقرير حالهم فى ذلك وإثبات ما عليه النظم الكريم على أن يقال إن ارتبتم فى البعث فقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى ﴿ولإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ ﴿فإننا خلقناكم﴾ أى فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليؤول ريبكم ، فإننا خلقناكم أى خلقنا كل فرد منكم ﴿من تراب﴾ [فى] <sup>(١)</sup> ضمن خلق آدم منه خلقاً لإجمالية

فإن خلق كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام إذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجماليا مستتبها لجرى أنوارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب خلقا للكل منه كما مر تحقيقه مرارا (ثم من نطفة) أى ثم خلقناكم خلقا تفصيليا من نطفة أى من منى من النطف الذى هو الصب (ثم من علقه) أى قطعة من الدم جامدة متكونة من المنى (ثم من مضغة) أى قطعة من اللحم متكونة<sup>(١)</sup> من العلقه وهى فى الأصل مقدار ما يمتصغ (خلقته) بالجر صفة مضغة أى مستبينة الخلق مصورة (وغير خلقته) أى لم يستبن خلقها وصورتها بعد والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولا قطعة لم يظهر فيها شيء من الأعضاء ثم ظهرت بعد ذلك شيئا فشيئا وكان مقتضى الترتيب السابق المبني على التدرج من المبادئ البعيدة إلى القريبة أن يقدم غير المخلقة على المخلقة وإنما أخرت عنها لأنها عدم المصلحة هذا وقد فسرنا بالمسواة وغير المسواة وبالتامة وبالساقطة وليس بذلك وفى جعل كل واحدة من هذه المراتب مبدأ لخلقهم لا لخلق ما بعدها من المراتب كما فى قوله تعالى (ثم خلقنا البطينة علقه فخلقنا العلقه مضغة) الآية مزيد دلالة على عظيم قدرته تعالى وكسر لسورة استبعادهم .

(لنبين لكم) متعلق بخلقنا وترك المفعول لتفخيمه كما وكيفا أى خلقناكم على هذا النمط البديع ليبين لكم بذلك ما لا تحصره العبارة من الحقائق والدقائق التى من جملتها سر البعث فإن من تأمل فيما ذكر من الخلق التدرجى تأملا حقيقيا جزم جزما ضروريا بأن من قدر على خلق البشر أولا من تراب لم يشم رائحة الحياة قط وإنشائه على وجه مصحح لتوليد مثله مرة بعد أخرى بتصرفه فى أطوار المخلقة وتحويله من حال إلى حال مع ما بين تلك الأطوار والأحوال من المخالفة والتباين فهو قادر على إعاجبه بل هو أهون فى القياس نظرا إلى الفاعل والقابل وقرئ ليبين بطريق الالتفات وقوله تعالى (ونقر فى الأرحام ما نشاء)

استئناف مسوق لبيان حالهم بعد تمام خلقهم وعدم نظم هذا وما عطف عليه في سلك الخلق المخلل بالتبيين مع كونهما من متجهات ومن مبادئ التبيين أيضا لما أن دلالة الأول على كمال قدرته تعالى على جميع المقدورات التي من جملتها البعث المبحوث عنه أجلى وأظهر أى ونحن نقر في الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقره فيها .

(( إلى أجل مسمى )) هو وقت الوضع وأدناه ستة أشهر وأقصاه سنتان وقيل أربع سنين وفيه إشارة إلى أن بعض ما في الأرحام لا يشاء الله تعالى إقراره فيها بعد تكامل خلقه فتسقطه والتعرض للإزلاق لا يناسب المقام لأن الكلام فيما جرى عليه أطوار الخلق وهذا صريح في أن المراد بغير المخلقة ليس من ولد ناقصا أو معييا وأن ما فصل إلى هنا هي الأطوار المتواردة على المولود قبل الولادة وقرىء يقر بالياء ونقر ويقر بضم القاف من قررت المام إذا صببته (( ثم نخر جكم )) أى من بطون أمهاتكم بعد إقراركم فيها عند تمام الأجل المسمى (( طفلا )) أى حال كونكم أطفالا والأفراد باعتبار كل واحد منهم أو بإرادة الجنس المنتظم للواحد والمتعدد وقرىء يخرجكم بالياء وقوله تعالى :

(( ثم لتبلغوا أشدكم )) علة لنخر جكم معطوفة على علة أخرى له مناسبة لها كأنه قيل ثم نخر جكم لتكبروا شيئا فشيئا ثم لتبلغوا كمالكم في القوة والعقل والتمييز وقيل التقدير ثم نمهلهم لتبلغوا الخ وما قيل لأنه معطوف على نبين مخل بحزالة النظم الكريم هذا وقد قرىء ما قبله من الفعلين بالنصب حكاية وغيبة فهو حينئذ عطف على نبين مثلما والمعنى خلقناكم على التدرج المذكور لغايتين مترتبتين عليه إحداهما أن نبين شئوننا والثانية أن نقركم في الأرحام ثم نخرجكم صغارا ثم لتبلغوا أشدكم وتقديم التبيين على ما بعده مع أن حصوله بالفعل بعد الكل للإيذان بأنه غاية الغايات ومقصود بالذات وإعادة اللام ههنا مع تجريد الأولين عنها للإشعار بأصالته في الغرضية بالنسبة إليهما إذ عليه يدور التكليف المؤدى إلى السعادة والشقاوة وإثارة البلوغ مسندا إلى المخاطبين على التبليغ مسندا إليه تعالى كالأفعال السابقة لأنه المناسب لبيان حال اتصافهم بالكمال



واستقلالهم بمبدئية الآثار والأفعال والأشياء من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالأسدة والقنود وكأنها حين كانت شدة في غير شيء بتيت على لفظ الجمع (ومنكم من يتوفى) أى بعد بلوغ الأشد أو قبله وقرئ يتوفى مبنيًا للفاعل أى يتوفاه الله تعالى (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) وهو الهرم والخرف وقرئ يسكون الميم وإبراء الرد والتوفى على صيغة المبني للمفعول للجري على سنن الكبرياء لتعين الفاعل (شكلاً يعلم من بعد علم) أى علم كثير (شيئاً) أى شيئاً من الأشياء أو شيئاً من العلم مبالغة في انتقاص علمه وينكر ما عرّفه ويعجز عما قدر عليه وفيه من التنبيه على صحة البعث ما لا يخفى.

(وترى الأرض هامدة) حجة أخرى على صحة البعث والخطاب لكل أحد من يتأني منه الرؤية وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وهي بهيرية وهامدة حال من الأرض أى ميتة يابسة من همدت النار إذا صارت رماداً (فإذا أنزلنا عليها الماء) أى المطر (اهتزت) تحركت بالنبات (وربت) انتفخت وازدادت ، وقرئ ربات أى ارتفعت (وأنبئت من كل زوج) أى صنف (بهيج) حسن رائق يسر ناظره (ذلك بأن الله هو الحق) كلام مستأنف جرى به لئلا يتحقق حقيقة البعث وإقامة البرهان عليه من العالمين الإنسانى والنباتى لبيان أن ذلك من آثار ألوهيته تعالى وأحكام شئونه الذاتية والوصفية والفعلية وأن ما ينكرون وجوده بل إمكانه من إتيان الساعة والبعث من أسباب تلك الآثار العجيبة التي يشاهدونها فى الأنفس والآفاق ومبادئ صدورها عنه تعالى وفيه من الإيذان بقوة الدليل وأصالة المدلول فى التحقيق وإظهار بطلان إنكاره ما لا يخفى فإن إنكار تحقق السبب مع الجزم بتحقيق المسبب مما يقضى بطلانه بنسبة العقول والمراد بالحق هو الثابت الذى يحق ثبوته لا محالة لكونه لذاته لا الثابت مطلقاً وذلك إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان على أطوار مختلفة وتصريفه فى أحوال متباينة وإحياء الأرض بعد موتها وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته فى الكمال وهو مبتدأ خبره

الحجار والمجرور أى ذلك الصنع البديع حاصل بسبب أنه تعالى هو الحق وحده فى ذاته وصفاته وأفعاله المحقق لما سواه من الأشياء ( وأنه يحيى الموتى ) أى شأنه وعادته وإحيائها وحاصله أنه تعالى قادر على إحيائها بدماء وإعادة وإلا لما أحيا النطفة والأرض الميتة مرارا بعد مرار وما تفيد صيغة المضارع من التجديد إنما هو باعتبار تعلق القدرة ومتعلقها لا باعتبار نفسها ( وأنه على كل شىء قدير ) أى مبالغ فى القدرة وإلا لما أوجد هذه الموجودات الفاتنة للحصر التى من جملتها ما ذكر وأما الاستدلال على ذلك بأن قدرته تعالى لذاته الذى نسبته إلى السكل سواء فلما دلت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات لزم اقتداره على إحياء كلها فنشؤه الغفول عما سبق له النظم الكريم من بيان كون الآثار الخاصة المذكورة من فروع القدرة العظمة التامة ومسبباتها وتخصيص إحياء الموتى بالذكر مع كونه من جملة الأشياء المقدور عليها للتصريح بما فيه النزاع والدفع فى نحو المنكرين وتقديمه لإبراز الاعتناء به .

( وأن الساعة آتية ) أى فيما سيأتى وإيثار صيغة الفاعل على الفعل للدلالة على تحقق إتيانها وتقرره البتة لاقتضاء الحكمة إتياء لا محاله وتعليله بأن التغير من مقدمات الانصرام وطلائعه مبنى على ما ذكر من الغفول وقوله تعالى ( لا ريب فيها ) إما خبر ثان لأن أو حال من ضمير الساعة فى الخبر ومعنى نفي الريب عنها أنها فى ظهور أمرها وضوح دلالتها التكوينية والتنزيلية بحيث ليس فيها مظنة أن يرتاب فى إتيانها حسبا مر فى مطلع سورة البقرة والجملة عطف على المجرور بالباء كما قبلها من الجملتين داخلة مثلها فى حين السببية وكذا قوله عز وجل ( وأن الله يبعث من فى القبور ) لكن لا من حيث أن إتيان الساعة وبعث الموتى مؤثران فيما ذكر من أذاعيله تعالى تأثير القدرة فيها بل من حيث إن كلا منهما سبب داع له عز وجل بموجب رأفته بالعباد المبنية على الحكم البالغة إلى ما ذكر من خلقهم ومن إحياء الأرض الميتة على نمط بديع صالح للاستشهاد به على مكانهما ليتأملوا فى ذلك ويستدلوا به على وقوعهما لا محالة ويصدقوا بما

ينطق بهما من الوحي المبين وينالوا به السعادة الأبدية ولولا ذلك لما فعل  
تعالى ما فعل بل لما خلق العالم رأسا وهذا كما ترى من أحكام حقيقته تعالى  
في صفاته وكونها في غاية السكال وقد جعل إتيان الساعة وبعث من في القبور  
ليكونهما من روافد الحكمة كناية عن كونه تعالى حكيمًا كما أنه قيل ذلك بسبب  
أنه تعالى قادر على إحياء الموتى وعلى كل مقدور وأنه حكيم لا يخلف ميعاده  
وقد وعد بالساعة والبعث فلا بد أن يفي بما وعد وأنت خير بأن مآله الاستدلال  
بحكمته تعالى على إتيان الساعة والبعث وليس الكلام في ذلك بل إنما هو في  
سببتهما لما هو من خلق الإنسان وإحياء الأرض فاعمل وكن على الحق المبين  
وقيل قوله تعالى (وأن الساعة آتية) ليس معطوفا على المجرور بالباء ، ولا داخلا  
في حيز السببية بل هو خبر والمبتدأ محذوف لفهم المعنى والتقدير والأمر أن  
الساعة آتية وأن الثانية معطوفة على الأولى وقيل المعنى ذلك لتعلموا بأن الله هو  
الحق الآيتين .

### الراسخون في الكفر والمذنبون فيه

(ومن الناس من يجادل في الله) هو أبو جهل بن هشام حسبما روى  
عن ابن عباس رضي الله عنهما وقيل هو من يتصدى لإضلال الناس وإغوائهم  
كأننا من كان كما أن الأول من يقلدهم على أن الشيطان عبارة عن المضل المغوى  
على الإطلاق (بغير علم) متعلق بمحذوف وقع حالا من ضمير يجادل أى  
كأننا بغير علم والمراد العلم الضروري كما أن المراد بالهدى في قوله تعالى (ولا  
هدى) هو الاستدلال والنظر الصحيح الهادى إلى المعرفة (ولا كتاب منير)  
وحى يظهر للحق أى يجادل في شأنه تعالى من غير تمسك بمقدمة ضرورية  
ولا بحجة نظرية ولا ببرهان منمى كما في قوله تعالى (ويعبدون من دون الله مالم  
ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم) وأما ما قيل من أن المراد به المجادل الأول  
والتركيب للتأكيد والتمهيد لما بعده من بيان أنه لا سند له من استدلال أو وحى  
فلا يساعده النظم الكريم ، كيف لا وإن وصفه باتباع كل شيطان موصوف

بما ذكر يغنى عن وصفه بالعرء عن الدليل العقلي والسمعى ﴿ثانى عطفه﴾  
 حال أخرى من فاعل يجادل أى عاطفا لجانبه وطاويا كشحه معرضا متكبرا  
 فإن ثنى العطف كناية عن التكبر وقرىء بفتح العين أى مانعا لتعطفه .  
 ﴿ليضل عن سبيل الله﴾ متعلق بيجادل فإن غرضه الإضلال عنه وإن  
 لم يعترف بأنه إضلال والمراد به إما الإخراج من الهدى إلى الضلال فالمفعول  
 من يجادله من المؤمنين أو الناس جميعاً بتغليب المؤمنين على غيرهم وإما التثبیت  
 على الضلال أو الزيادة عليه مجازاً فالمفعول هم الكفرة خاصة وقرىء بفتح الياء  
 وجعل ضلاله غاية لجذاله من حيث أن المراد به الضلال المبين الذى لا هداية له  
 بعده مع تمكنه منها قبل ذلك ﴿له فى الدنيا خزى﴾ جملة مستأنفة مسروقة لبيان  
 نتيجة ما سلكه من الطريقة أى ثبت له فى الدنيا بسبب ما فعله خزى وهو  
 ما أصابه يوم بدر من القتل والصغار ﴿ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾  
 أى النار المحرقة .

﴿ذلك﴾ أى ما ذكر من العذاب الدنيوى والأخروى وما فيه من معنى  
 البعد للإيذان بكونه فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره قوله  
 تعالى ﴿بما قدمت يدك﴾ أى بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصى وإسناده  
 إلى يديه لما أن الاكتساب عادة يكون بالأيدي والالتفات لتأكيد الوعيد وتشديد  
 التهديد وحمل أن فى قوله عز وعلا ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ الرفع على  
 أنه خبر مبتدأ أى والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم  
 والتعبير عن ذلك بنفى الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعاً على ما تقرّر  
 من قاعدة أهل السنة فضلاً عن كونه ظلماً بالغا قد مر تحقيقه فى سورة آل عمران  
 والجملة اعتراض تذييل<sup>(١)</sup> مقرر لمضمون ما قبلها وأما ما قيل من أن محل أن هو  
 الجر بالعطف على ما قدمت فقد عرفت حاله فى سورة الأنفال ﴿ومن الناس  
 من يعبد الله على حرف﴾ شروع فى بيان حال المذنبين إثر بيان حال المجاهرين

أى ومنهم من يعبد [سبحانه] (٢) وتعالى على طرف من الدين لا ثبات له فيه كالذى  
يتحرف إلى طرف الجيش فإن أحس بظفر قر وإلا فر (فإن أصابه خير) .  
أى دينوى من الصحة والسعة (اطمأن به) أى ثبت على ما كان عليه ظاهراً  
لأنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين الذين لا يلويهم عنه صارف ولا يثنهم عاطف  
(وإن أصابته فتنة) أى شئ يفتن به من مكروه يعتريه فى نفسه أو أهله أو ماله  
(انقلب على وجهه) روى أنها نزلت فى أعراب قدموا المدينة وكان أحدهم  
إذا صح بدنه وتنجت فرسه مهراً سرياً وولدت امرأته ولداً سوياً وكثر ماله  
وما شئته قال بما أصبت منذ دخلت فى دينى هذا إلا خيراً واطمأن وإن كان الأمر  
بغيره قال ما أصبت إلا شراً وانقلب وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه  
أن يهودياً أسلم فأصابته مصائب فتشام بالإسلام فأتى النبي عليه الصلاة والسلام  
فقال أقاتى فقال عليه السلام إن الإسلام لا يقال فنزلت وقيل نزلت فى المؤلفة  
قلوبهم .

(خسر الدنيا والآخرة) فقدما وضيعهما بذهاب عصمته وجبوط عمله  
بالارتداد وقرىء خاسر بالنصب على الحال والرفع على الفاعلية ووضع الظاهر  
موضع الضمير تنصيصاً على خسارته أو على أنه خبر مبتدأ محذوف (ذلك)  
أى ما ذكر من الخسران وما فيه من معنى البعد للإيذان بكونه فى غاية ما يكون  
(هو الخسران المبين) الواضح كونه خسراناً إذ لا خسران مثله (يدعو من  
دون الله) استئناف مبين لعظم الخسران أى يعبد متجاوزاً عبادة الله تعالى  
(ما يضره) إذا لم يعبد (وما لا ينفعه) لأن عبده أى جماداً ليس من شأنه  
النفع كما يلوح به تكرير كلمة ما (ذلك) الدعاء (هو الضلال البعيد)  
عن الحق والهدى مستعار من ضلال من أبعد فى التيه ضالاً عن الطريق (يدعو  
لمن ضره أقرب من نفعه) استئناف مسوق لبيان مآل دعائه المذكور وتقرير  
كونه ضلالاً بعيداً مع إزاحة ما عسى يتوهم من نفى الضرر عن معبوده بطريق



المباشرة نفيه عنه بطريق التصييب أيضا فالدعاء بمعنى القول واللام داخله على الجملة الواقعة مقولا له ومن مبتدأ وضره مبتدأ ثان خبره أقرب والجملة صلة للمبتدأ الأول وقوله تعالى ﴿لبئس المولى ولبئس العشير﴾ بحواب لقسم مقدر هو جوابه خبر للمبتدأ الأول وإيثار من على ما مع كون معبوده جمادا وإبراد صيغة التفضيل مع غلوه عن النفع بالمرة للجملة التقية تقبيح حاله والإيمان في ذمه أى يقول ذلك الكافر يوم القيامة بدعاء وصرائح حين يرى تضرره بمعبوده ودخوله النار بسببه ولا يرى منه أثر النفع أصلا لمن ضره أقرب من نفعه والله لبئس الناصر هو ولبئس الصاحب هو فكيف بما هو ضرر محض عار عن النفع بالكلية ويجوز أن يكون يدعوه الثانى إعادة للأول لأننا كيدا له فقط بل وتمهيدا لما بعده من بيان سوء حال معبوده لإثبات بيان سوء حال عبادته بقوله تعالى (ذلك هو الضلال البعيد) كأنه قيل من جهته تعالى بعد ذكر عبادته لما لا يضره ولا ينفعه يدعو ذلك ثم قيل لمن ضره أقرب من نفعه والله لبئس المولى ولبئس العشير فكلمة من وصيغة التفضيل للتهكم به وقيل اللام زائدة ومن مفعول يدعو ، ويؤيده القراءة بغير لام أى يعبد من ضره أقرب من نفعه وإيراد كلبة من وصيغة التفضيل تهكم به أيضا والجملة القسمية مستأنفة .

﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات﴾ استئناف جرى به لبيان كمال حسن حال المؤمنين العابدين له تعالى وأن الله عز وجل يتفضل عليهم بما لا غاية ورايه من أجل المنافع وأعظم الخيرات لإثبات بيان غاية سوء حال الكفرة وما ألهم من فريق المجاهرين والمذبذبين وأن معبودهم لا يجديهم شيئا من النفع بل يضرهم مضره عظيمة وأنهم يعترفون بسوء ولايته وعشرته ويدعونه مذمة تامة وقوله تعالى ﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ صفة بجنات فإن أريد بها الأشجار الكثيرة الساترة لما تحتها لجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وإن أريد بها الأرض فلا بد من تقدير مضاف أى من تحت أشجارها ، وإن جعلت عبارة عن مجموع الأرض والأشجار فاعتبار التحتية بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحح لإطلاق اسم الجنة على الكل كما مر تفصيله في أوئل سورة

البقرة وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تعطيل لما قبله وتقرير له بطريق التحقيق أى يفعل البقرة كل ما يريد من الأفعال المقتضية للائقة المبنية على الحكم الواقعة التى من جعلها إجابة من آمن به وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم وعقاب من أشرك به وكذب برسوله عليه السلام ولما كان هذا من آثار نصرته تعالى له عليه السلام عقب بقوله عز وجل :

﴿مَنْ كَانَ يَظُنْ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ تحقيقاً لها وتقريراً لقبولها على أبلغ وجه وأكده وفيه إيحاء سبارع والخصاص رائع والمغنى أنه تعالى ناصر لرسوله في الدنيا والآخرة لا محالة من غير ضار ولا يلوية ولا عاطف يثنيه فمن كان يغيظه ذلك من أعاديته وحسادته ويظن أن لن يفتله تعالى بسبب مدافعتة ببعض الأمور ومباشرة ما يردده من المسكيات فليبالغ في استغراق المجهود وليجاوز في الجد كل حد معهود فقصارى أمره وعاقبة مكره أن يفتحق عتقا بما يرى من ضلال مساعيه وعدم إنتاج مقدماته ومبادئه ﴿فليمدد بسبب إلى السماء﴾ فليمدد جبلا إلى سقف بيته ﴿ثم ليقطع﴾ أى ليختنق من قطع إذا اختنق لأنه يقطع نفسه بحبس بخاريه وقيل ليقطع الجبل بعد الاختناق على أن المراد به فرض القطع وتقديره كما أن المراد بالنظر في قوله تعالى : ﴿فلينظر هل يذهب كيداه ما يغيظ﴾ تقدير النظر وتصويره أى فليصور في نفسه النظر هل يذهب كيداه ذلك الذى هو أقصى ما انتهت إليه قدرته في باب المضادة والمضارة ما يغيظه من النهرة كلا ويجوز أن يراد فلينظر الآن أنه إن فعل ذلك هل يذهب ما يغيظه ، وقيل المعنى فليمدد جبلا إلى السماء المظلة وليصعد عليه ثم ليقطع الوحي وقيل ليقطع المسافة حتى يبلغ عنانها فيجتهد في دفع نضره ويأباه أن مساق النظم الصريح يبان أن الأمور المحترضة على تقدير وقوعها وتحققها بهزل من إذهاب ما يغيظوه في البرهان لا معنى لفرض وقوع الأمور المستعنة وترتيب الأمر بالنظر عليه لا سيما قطع الوحي فإن فرض وقوعه غل بالمرام قطعاً وقيل كان قوم من المسلمين أشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطلون ما وعد الله رسوله عليه الصلاة والسلام من النصر وآخرين بمن بالمشركون

يريدون اتباعه عليه السلام ويخشون أن لا يثبت أمره فنزلت وقد فسر النصر بالرزق فالله تعالى لا تنال إلا بمشيئته تعالى فلا بد للعبد من الرضا بقسمته فمن ظن أن الله تعالى غير رازقه ولم يصبر ولم يستسلم فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فإن ذلك لا يغلب القسمة ولا يرد مرزوقاً (وكذلك) أى مثل ذلك الإنزال البديع المنطوى على الحكم البالغة (أنزلناه) أى القرآن الكريم كله وقوله تعالى : (آيات بينات) أى واضحات الدلالة على معانيها الرائقة حال من الضمير المنسوب مبينة لما أشير إليه بذلك (وأن الله يهدي) به ابتداء أو يثبت على الهدى أو يزيد فيه (من يريد) هدايته أو تثبته أو زيادته فيها وحمل الجملة إما الجر على حذف الجار أو متعلق بمحذوف مؤخر أى ولأن الله يهدي من يريد أنزله كذلك أو الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى والأمر أن الله يهدي من يريد هدايته .

### الله يفصل بين الناس في الآخرة

(إن الذين آمنوا) أى بما ذكر من الآيات البينات بهداية الله تعالى أو بكل ما يجب أن يؤمن به فيدخل فيه ما ذكر دخولا أولياً (والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس) قيل هم قوم يعبدون للنار وقيل الشمس والقمر وقيل هم قوم من النصارى اعتزلوا عنهم ولبسوا المسوح وقيل أخذوا من دين النصارى شيئاً ومن دين اليهود شيئاً وهم القائلون بأن للعالم أصليين نورا وظلمة (والذين أشركوا) هم عبدة الأصنام وقوله تعالى (إن الله يفصل بينهم يوم القيامة) في حين الرفع على أنه خبر لإن السابقة وتصدير طرفي الجملتين بحرف التحقيق لزيادة التقدير والتأكيد أى يقضى بين المؤمنين وبين الفرق الخمس المنتفكة على ملة الكفر بإظهار الحق من المبطل وتوفية كل منها حقه من الجزاء بإثابة الأول وعقاب الثاني بحسب<sup>(١)</sup> استحقاق أفراد كل منها وقوله تعالى (إن الله

على كل شيء شهيد ﴿ تعليل لما قبله من الفصل أى عالم بكل شيء من الأشياء ومراقب لأحواله ومن قضيته الإحاطة بتفاصيل ما صدر عن كل فرد من أفراد الفرق المذكورة وإجراء جزائه اللائق به عليه وقوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ﴾ الخ بيان لما يوجب الفصل المذكور من أعمال الفرق المذكورة مع الإشارة إلى كيفيته وكونه بطريق التعذيب والإثابة والإكرام والإهانة إثر بيان ما يوجب من كونه تعالى شهيدا على جميع الأشياء التى من جملتها أجوالهم وأفعالهم والمراد بالرؤية العلم عبر عنه بها إشعاراً بظهور المعلوم والخطاب لكل أحد من يتأتى منه الرؤية بناء على أنه من الجلاء بحيث لا يخفى على أحد والمراد بالسجود هو الانقياد التام لتدبيره تعالى بطريق الاستعارة المبلية على تشبيهه بأكل أفعال المكلف فى باب الطاعة إذانا بكونه فى أقصى مراتب التسخر والتذل لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء سواء جعلت كلمة عامة لغيرهم أيضا وهو الأنسب بالمقام لإفادته شمول الحكم لكل ما فيهما بطريق القرار فيهما أو بطريق الجزئية منهما فيكون قوله تعالى :

﴿ والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ﴾ لإفرادها بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها عادة أو جعلت خاصة بالعقلاء لعدم شمول سجود الطاعة لكلهم حسبما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ وكثير من الناس ﴾ فإنه مرتفع بفعل مضمربدل عليه المذكور أى ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ومن قضيته انتفاء ذلك عن بعضهم وقيل هو مرفوع على الابتداء حذف خبره ثقة بدلالة خبر قسيمه عليه نحو حق له الثواب والأول هو الأولى لما فيه من الترغيب فى السجود والطاعة وقد جوز أن يكون من الناس خبرا له أى من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون والمتقون وأن يكون قوله تعالى ﴿ وكثير ﴾ معطوفا على كثير الأول للإيذان بغاية الكثرة ثم يخبر عنهم باستحقاق العذاب كأنه قيل وكثير وكثير من الناس ﴿ شق عليه العذاب ﴾ ( ٢ - أبو السعود - الرابع )

أى بكفره واستعصائه وقرىء حق بالضم وحقا أى حق عليه العذاب حقا  
 ﴿ومن بين الله﴾ بأن كتب عليه الشقاوة حسبا عليه من صرف اختياره إلى  
 الشر ﴿فأله من مكرم﴾ يكرمه بالسعادة وقرىء بفتح الراء على أنه مصدر  
 ميمى ﴿إن الله يفعل ما يشاء﴾ من الأشياء التى من جملتها الإكرام والإهانة .  
 ﴿هذان﴾ تعيين لطرفى الخصام وإزاحة لما عسى يتبادر إلى الوم من كونه  
 بين كل واحدة من الفرق الست وبين البواقى وتحرير لمحله أى فريق المؤمنين  
 وفريق الكفرة المنتقم إلى الفرق الخمس ﴿خصيان﴾ أى فريقان مختصان وإنما  
 قيل ﴿اختصموا فى ربهم﴾ حملا على المعنى أى اختصموا فى شأنه عز وجل  
 وقيل فى دينه وقيل ذاته وصفاته والكل من شئونه تعالى فإن اعتقاد كل من  
 الفريقين بحقية ما هو عليه وبطلان ما عليه صاحبه وبناء أقواله وأفعاله عليه  
 خصومة للفريق الآخر وإن لم يجر بينهما التحاور والخصام وقيل تخاصمت اليهود  
 والمؤمنون فقالت اليهود نحن أحق بالله وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال  
 المؤمنون نحن أحق بالله منكم آمنا بمحمد وبنبيكم وبما أنزل الله من كتاب وأتم  
 تعرفون كتابنا ونبينا ثم كفرتم به حسدا فنزلات ﴿فالذين كفروا﴾ تفصيل  
 لما أجمل فى قوله تعالى (يفصل بينهم يوم القيامة) ﴿قطعت لهم﴾ أى قدرت على  
 عقابهم وقرىء بالتخفيف ﴿ثياب من نار﴾ أى نيران هائلة تحيط بهم  
 لحاطة الثياب بلائسها ﴿يصب من فوق رؤوسهم الحميم﴾ أى الماء الحار الذى  
 انتهت حرارته قال ابن عباس رضى الله عنهما لو قطرت قطرة منها على جبال  
 الدنيا لأذابتها والجملة مستأنفة أو خبر ثان للدصول أو حال من ضمير لهم  
 ﴿يصر به﴾ أى يذاب ﴿ما فى بطونهم﴾ من الأمعاء والأحشاء وقرىء يصر  
 بالتشديد ﴿والجلود﴾ عطف على ما وتأخيره عنه إلمراعاة الفواصل وللإشعار  
 بنجاسة شدة الحرارة بإيها أن تأثيرها فى الباطن أقدم من تأثيرها فى الظاهر مع  
 أن ملائستها على العكس والجملة حال من الحميم .

﴿ولهم﴾ للكفرة أى لتعذيبهم وأجلهم ﴿مقامع من حديد﴾ جمع مقمعة  
 وهى آلة القمع ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها﴾ أى أشرفوا على الخروج من



«النار ودنوا منه حسبا يروى أنها تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقلع فهووا فيها سبعين خريفاً (من غم) أى من غم شديد من غيومها وهو بدل اشتغال من الهاء بإعادة الجار والرابط محذوف كما أشير إليه أو مفعول له للخروج (أعبدوا فيها) أى في قعرها بأن ردوا من أعاليها إلى أسافلها من غير أن يخرجوا منها (وذوقوا) على تقدير قول معطوف على أعبدوا أى وقيل لهم (عذاب الحريق) أى الغليظ من النار المنتشر العظيم بالإهلاك (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار) بيان لحسن حال المؤمنين إثر بيان سوء حال الكفرة وقد غير الأسلوب فيه بإسناد الإدخال إلى الله عز وجل وتصدير الجملة بحرف التحقيق لإذنا بكال حباينة حالهم لحال الكفرة وإظهار المزيد العناية بأمر المؤمنين ودلالة على تحقيق مضمون الكلام (يحلون فيها) على البناء للمفعول بالتشديد من التحلية وقرئ بالتخفيف من الإحلاء بمعنى الإلباس أى يحلبهم الملائكة بأمره تعالى وقرئ يحلون من حلية المرأة إذا لبست حليتها ومن في قوله تعالى (من أساور) إما للتبويض أى بعض أساور وهى جمع أسورة جمع سوار أو للبيان لما أن ذكر التحلية مما ينبىء عن الحلى المبهى وقبل زائدة وقبل نعت للمفعول محذوف ليحلون فإنه بمعنى يلبسون (من ذهب) بيان للأساور (ولؤلؤا) عطف على محل من أساور أو على المفعول المحذوف أو منصوب بفعل مضمحل يدل عليه يحلون أى يؤثرون وقرئ بالجر عطفاً على أساور وقرئ لؤلؤا بقلب الهمزة الثانية واوا ولوليا بقلبها ياء بعد قلبهما واوا وليليا بقلبها ياء (ولباسهم فيها حرير) غير الأسلوب حيث لم يقل ويلبسون فيها حريرا لكن لا للدلالة على أن الحرير شيأهم المعتادة أو لجرد المحافظة على هيئة الفواصل بل للإيدان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غنى عن البيان إذ لا يمكن عزلهم عنه وإنما المحتاج إلى البيان أن لباسهم ماذا بخلاف الأساور واللؤلؤ فإنها ليست من اللوازم الضرورية فجعل بيان تحليتهم بها مقصودا بالذات ولعل هذا هو الباعث إلى تقديم بيان التحلية على بيان حال اللباس.

(وهدوا إلى الطيب من القول) وهو قولهم الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض ننبأ من الجنة الآية (وهدوا إلى صراط الحميد) أى المحمود نفسه أو عاقبته وهو الجنة ووجه التأخير حيثئذ أن ذكر الحمد يستدعى ذكر المحمود (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله) ليس المراد به حالا ولا استقبالا وإنما هو استمرار الصد ولذلك حسن عطفه على الماضى كما فى قوله تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله) وقيل هو حال من فاعل كفروا أى وهم يصدون وخبر إن محذوف لدلالة آخر الآية الكريمة عليه فإن من ألحد فى الحرم حيث عوقب بالعذاب الأليم فلائذ يعاقب من جمع إليه الكفر والصد عن سبيل الله بأشد من ذلك أحق وأولى (والمسجد الحرام) عطف على سبيل الله قيل المراد به مكة بدليل وصفه بقوله تعالى (الذى جعلناه للناس) أى كائنا من كان من غير فرق بين مكى وآفاق (سواء العاكف فيه والباد) أى المقيم والطارىء وسواء أى مستويا مفعول ثان لجعلناه والعاكف مرتفع به واللام متعلق به ظرف له وفائدة وصف المسجد الحرام بذلك زيادة تشنيع الصادين عنه وقرىء سواء بالرفع على أنه خبر مقدم والعاكف مبتدأ والخلة مفعول ثان للجعل وقرىء العاكف بالجر على أنه بدل من الناس (ومن يرد فيه) بما ترك مفعوله ليتناول كل متناول كأنه قيل ومن يرد فيه مراداه (يألحاد) بعدول عن القصد (بظلم) بغير حق وهما حالان مترادفان أو الثانى بدل من الأول بإعادة الجار أو صلة له أى ملحدا بسبب الظلم كالإشراك واقتراف الآثام (نذقه من عذاب أليم) جواب لمن

### إبراهيم وتشريع الحج

(ولذِ بوأننا) يقال بوأه منزلا أى أنزله فيه ولما لزمه جعل الثانى مباءة للأول وقيل (لإبراهيم مكان البيت) وعليه مبنى قول ابن عباس رضى الله عنهما جعلناه أى اذكر وقت جعلنا مكان البيت مباءة له عليه السلام أى مرجعا يرجع إليه للعبادة والعبادة وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أن المقصود

تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيانه غير مرة وقيل اللام زائدة ومكان  
 ظرف كما في أصل الاستعمال أى أنزلناه فيه قيل رفع البيت إلى السماء أيام  
 الطوفان وكان من ياقوته حمراء فأعلم الله تعالى إبراهيم عليه السلام مكانه بريح  
 أرسلها يقال لها الحجوج كُنست ماحوله فبناه على أسه القديم روى أن السكبة  
 الكريمة بنيت خمس مرات لإحداها بناء الملائكة وكانت من ياقوته حمراء ثم  
 رفعت أيام الطوفان والثانية بناء إبراهيم عليه السلام والثالثة بناء قريش في  
 الجاهلية وقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا البناء والرابعة بناء  
 ابن الزبير والخامسة بناء الحجاج وقد أوردنا ما في هذا الشأن من الأقاويل في  
 تفسير قوله تعالى ( ولذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت ) وأن في قوله تعالى  
 ﴿ أن تشرك بي شيئاً ﴾ مفسرة لبوأنا من حيث أنه متضمن لمعنى تعبدنا لأن  
 التبوته للعبادة أو مصدرية موصولة بالنهى وقد مر تحقيقه في أوائل سورة هود  
 أى فعلنا ذلك لثلاث تشرك بي في العبادة شيئاً ﴿ وطهر يتيق للطائفين والقائمين  
 والركع السجود ﴾ أى وطهر بينى من الأوثان والأقدار لمن يطوف به ويعصى  
 فيه ولعل التعبير عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء  
 ذلك فكيف وقد اجتمعت وقرىء يشرك بالياء .

﴿ وأذن في الناس ﴾ أى ناد فيهم وقرىء أذن ﴿ بالحج ﴾ بدعوة الحج  
 والامر به روى أنه عليه السلام صعد أبا قبيس فقال يا أيها الناس حجوا بيت  
 ربكم فأسمعه الله تعالى من في أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق  
 والمغرب من سبق في علمه تعالى أن يحج وقيل الخطاب لرسول الله عليه وسلم  
 أمر بذلك في حجة الوداع ويأباه كون السورة مكية ﴿ يأتوك ﴾ جواب  
 للأمر ﴿ رجالاً ﴾ أى مشاة جمع راجل كقيام جمع قائم وقرىء بعضهم الرأه  
 وتخفيف الجيم وتشديده ورجالى كعجالى ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ عطفت على  
 رجالاً أى ركبانا على كل بعير مهزول أتعبه بعد الشقة فزله أو زاد هزاله  
 ﴿ يأتين ﴾ صفة لضاير محمولة على المعنى وقرىء يأتون على أنه صفة للرجال  
 والركبان أو استئناف فيكون الضمير للناس ﴿ من كل فج ﴾ طريق واسع

(عميق) بعيد وقرىء معيق يقال بشر بعيدة العمق وبعيدة المعق كالجذب والجذب .

(ليشهدوا) متعلق بياتوك لا بأذن أى ليحضرُوا (منافع) ع  
الخطر كثيرة العدد أو نوعاً من المنافع الدينية والدنيوية المختصة بهذه الـ  
واللام فى قوله تعالى (لم) متعلق بمحذوف هو صفة لمنافع أى منافع  
لم (ويذكروا اسم الله) عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها وفى جعله  
للإتيان إيدان بأنه الغاية القصوى دون غيره وقيل هو كناية عن الذبح  
لا ينفك عنه (فى أيام معلومات) هى أيام النحر كما ينبى عنه قوله  
(على مارزقهم من بهيمة الأنعام) فإن المراد بالذكر ما وقع عند الذبح  
هى عشر ذى الحجة قد علق الفعل بالمرزوق وبين بالبهيمة تحريضا على التفات  
وتنبها على الذكر (فسكروا منها) التفات إلى الخطاب والفاء فصيحة عا  
مدخولها<sup>(١)</sup> على مقدر قد حذف للإشعار بأنه أمر محقق غير محتاج إلى التمهيد  
به كما فى قوله تعالى (فانفجرت) أى فاذا ذكروا اسم الله على ضحاياكم فسكروا  
لحومها والأمر للإباحة وإذاحة ما كانت عليه أهل الجاهلية من النحر فى  
للندب إلى مواساة الفقراء ومساواتهم (وأطعموا البائس) أى الذى أد  
بؤس وشدة (الفقير) المحتاج وهذا الأمر للوجوب وقد قيل :  
الأول أيضاً .

(ثم ليقتضوا تفهمهم) أى ليؤدوا لإزالة وسخهم أوليحكموها بقص الشا  
والأظفار وتنف الإبط والاستحداد عند الإحلال (وليوفوا نذورهم)  
ما يندرون من البر فى حجهم وقيل مواجب<sup>(٢)</sup> الحج وقرىء بفتح الواو وث  
الفاء (وليطوفوا) طواف الركن الذى به يتم التحلل فإنه قرينة قضاء الذ

(١) فى ١٠ : عطفت مدخولها

(٢) أى واجبات الحج من الدماء وغيرها .

وقيل طواف الوداع (بالييت العتيق) أى القديم فإنه أول بيت وضع للناس أو المعتق من تسلط الجبارة فكأن من جبار سار إليه لهدمه فقصمه الله عز وجل وأما الحجاج الثقل فإِنما قصد إخراج ابن الزبير رضى الله عنهما منه لا التسلط عليه .

(ذلك) أى الأمر ذلك وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين أو بين وجهي كلام واحد (ومن يعظم حرمات الله) أى أحكامه وسائر ما لا يحل هتكه بالعلم بوجوب مراعاتها والعمل بموجبه وقيل الحرم وما يتعلق بالحج من التكليف وقيل الكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام (فهو المحرم) أى فالتعظيم خير له ثوابا (عند ربه) أى فى الآخرة والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير من لتشريفه والإشعار بعلّة الحكم (وأحل لكم الأنعام) وهى الأزواج الثمانية على الإطلاق فقوله تعالى (إلا ما يتلى عليكم) أى إلا ما يتلى عليكم آية تحريره استثناء متصل منها على أن ما عبارة عما حرم منها لعارض كالهيئة وما أهل به لغير الله تعالى والجملة اعتراض جىء به تقريراً لما قبله من الأمر بالأكل والإطعام ودفعاً لما عسى ينوهم أن الإحرام يحرمه كما يحرم الصيد وعدم الاكتفاء ببيان عدم كونها من ذلك القليل بحمل الأنعام على ما ذكر من الضحايا والهدايا المعهودة خاصة لئلا يحتاج إلى الاستثناء المذكور إذ ليس فيها ما حرم لعارض قطعاً لمراعاة حسن التخلّص إلى ما بعده من قوله تعالى (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) فإنه مترتب على ما يفيدُه قوله تعالى ومن يعظم حرمات الله من وجوب مراعاتها والاجتناب عن هتكها ولما كان بيان حل الأنعام من دواعى التعاطى لا من مبادئ الاجتناب عقب بما يوجب الاجتناب عنه من المحرمات ثم أمر بالاجتناب عما هو أقصى الحرمات كأنه قيل ومن يعظم حرمات الله فهو خير له والأنعام ليست من الحرمات فإنها مأللة لكم إلا ما يتلى عليكم آية تحريره فإنه مما يجب الاجتناب عنه فاجتنبوا ما هو معظم الأمور التى يجب الاجتناب عنها وقوله تعالى (واجتنبوا قول الزور) تعميم بعد تخصيص فإن عبادة



الأوثان رأس الزور كأنه لما حث على تعظيم الحرمات أتبع ذلك ردا لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب ونحوهما والافتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك وقيل شهادة الزور لما روى أنه عليه السلام قال عدلت شهادة الزور الإشراف بالله تعالى ثلاثا وتلا هذه الآية والزور من الزور وهو الانحراف كالإفك المأخوذ من الأفك الذي هو القلب والصرف فإن الكذب منحرف مصروف عن الواقع وقيل هو قول أهل الجاهلية في تلييتهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك .

( حنفاء لله ) مائلين عن كل دين زانغ إلى الدين الحق مخلصين لله تعالى ( غير مشركين به ) أى شيئا من الأشياء فيدخل في ذلك الأوثان دخولا أوليا وهما حالان من واو فاجتلبوا ( ومن يشرك بالله ) جملة مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الاجتناب عن الإشراف والظهار الاسم الجليل لإظهار كمال قبس الإشراف ( فكأنما خر من السماء ) لأنه ( مسقط )<sup>(١)</sup> من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر ( فتخطفه الطير ) فإن الأهواء المردية توزع أفكاره وقرى فتخطفه بفتح الخاء وتشديد الطاء وبكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما وأصلهما تخطفه ( أو تهوى به الريح ) أى تسقطه وتقذفه ( في مكان سحيق ) بعيد فإن الشيطان قد طوح به في الضلالة وأوللتخير كما في أو كهيبت أوللتنويح ويجوز أن يكون من باب التشبيه المركب فيكون المعنى ومن يشرك بالله فقد هلك نفسه هلاكا شبيها بهلاك أحد الهاالكين ( هنا )<sup>(٢)</sup> ( ذلك ) أى الأمر ذلك أو امتثلوا ذلك ( ومن يعظم شعائر الله ) أى الهدايا فإنها من معالم الحج وشعائره تعالى كما ينبىء عنه والبدن جعلناها لكم من شعائر الله وهو الأوفق لما بعده وتعظيمها اعتقاد أن التقرب بها من أجل القربات وأن يختارها حسانا سمانا غالية الأثمان روى أنه عليه الصلاة والسلام أهدى مائة بدنة فيها

(١) سقطت من ١٠ .

(٢) سقطت من ط .

جل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب وأن عمر رضى الله عنه أهدى نجبية  
 حلبت منه بثلاثمائة دينار ﴿ فإنها ﴾ أى فإن تعظيمها ﴿ من تقوى القلوب ﴾  
 أى من أفعال تقوى تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات والعائد إلى من أو فإن  
 تعظيمها ناشئ من تقوى القلوب وتخصيصها بالإضافة لأنها مرا كز التقوى التى  
 إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها فى سائر الأعضاء ﴿ لكم فيها ﴾ أى فى  
 الهدايا ﴿ منافع ﴾ هى درها ونسلها وصوفها وظهرها ﴿ إلى أجل مسمى ﴾  
 هو وقت نحرها والتصدق بلحمها والأكل منه ﴿ ثم محلها ﴾ أى وجوب  
 نحرها أو وقت نحرها منتهية ﴿ إلى البيت العتيق ﴾ أى إلى ما يليه من الحرم  
 ومن ثم للواخي الزماني أو الرئبى أى لكم فيها منافع دينوية إلى وقت نحرها ثم  
 منافع دينية أعظمها فى النفع محلها أى وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها  
 إلى البيت العتيق أى منتهية إليه هذا وقد قيل المراد بالشعار مناسك الحج  
 ومعالمه والمعنى لكم فيها منافع بالأجر والثواب فى قضاء المناسك وإقامة شعائر  
 الحج إلى أجل مسمى هو انقضاء أيام الحج ثم محلها أى محل الناس من إحرامهم  
 إلى البيت العتيق أى منتهى إليه بأن يطوفوا به طواف الزيارة يوم النحر بعد  
 قضاء المناسك فإضافة المحل إليها لأدنى ملازمة .

﴿ ولكل أمة ﴾ أى لكل أهل دين ﴿ جعلنا منسكا ﴾ أى متعبدا وقربانا  
 يتقربون به إلى الله عز وجل وقرىء بكسر السين أى موضع نسك وتقديم  
 الجار والمجرور على الفعل للتخصيص أى لكل أمة من الأمم جعلنا منسكا  
 لا لبعض دون بعض ﴿ ليدكروا اسم الله ﴾ خاصة دون غيره ويجعلوا نسكهم  
 لوجهه الكريم علل الجعل به تنبها على أن المقصود الأصل من المناسك تذكر  
 المعبود ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ عند ذبحها وفيه تنبيه على أن القربان  
 يجب أن يكون من الأنعام والخطاب فى قوله تعالى ﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ لكل  
 تغليبا والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن جعله تعالى لكل أمة من الأمم  
 منسكا بما يدل على وحدانيته تعالى وإنما قيل إله واحد ولم يقل واحد لما أن  
 المراد بيان أنه تعالى واحد فى ذاته كما أنه واحد فى إلهيته لكل والفاء فى قوله

تعالى ﴿ فله أسبلوا ﴾ لترتيب ما بعدها من الأمر بالإسلام على وحدانيته تعالى وتقديم الجار والمجرور على الأمر للقصر أى فإذا كان إلهكم إلهاً واحداً فأخلصوا له التقرب أو الذكر واجعلوه لوجهه خاصة ولا تشوبوه بالشرك ﴿ وبشر المخبتين ﴾ تجريد الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أى المتواضعين أو المخلصين فإن الإخبات من الوظائف الخاصة بهم .

﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ منه تعالى لإشراق أشعة جلاله عليها ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ من مشاق التكليف ومؤنات النوائب ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ فى أوقاتها وقرىء بنصب الصلاة على تقدير النون وقرىء والمقيمى الصلاة على الأصل ﴿ وعما رزقناهم ينفقون ﴾ فى وجوه الخيرات ﴿ والبدن ﴾ بضم الباء وسكون الدال وقرىء بضمها وهما جمعاً بدنة وقيل الأصل ضم الدال كخشب وخشبة والتسكين تخفيف منه وقرىء بتشديد النون على لفظ الوقف وإنما سميت بها الإبل لعظم بدنها مأخوذة من بدن بدانة وحيث شاركها البقرة فى الإجزاء عن سبعة بقوله صلى الله عليه وسلم البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة جعلاً فى الشريعة جلساً واحداً وانتصابه بمضمر يفسره ﴿ جعلناها لكم ﴾ وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ والجملة خبره وقوله تعالى ﴿ من شعائر الله ﴾ أى من أعلام دينه التى شرعها الله تعالى مفعول ثان للجعل ولكم ظرف لغو متعلق به وقوله تعالى ﴿ لكم فيها خير ﴾ أى منافع دنيوية ودنيوية جملة مستأنفة مقررة لما قبلها .

﴿ فاذكروا اسم الله عليها ﴾ بأن تقولوا عند ذبحها الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك ﴿ صواف ﴾ أى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن وقرىء صوافن من صفن الفرس إذا قام على ثلاث وعلى طرف سبيل الرابعة لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث وقرىء صوافنا بإبدال التثنية من حرف الإطلاق عند الوقف وقرىء صوافى أى خيولهم لوجه الله عز وجل وصواف على لغة من يسكن الياء على الإطلاق كما فى قوله :

• لعل أرى باقى الحداثان •

(فإذا وجبت جنوبها) سقطت على الأرض وهو كناية عن الموت (فكلوا منها وأطعموا القانع) الراضى بما عنده من غير مسألة ويؤيده أنه قرىء القنع أو السائل من قنع إليه فتوعا إذا خضع له فى السؤال (والمعتر) أى المتعرض للسؤال وقرىء المسترى يقال عره وعراه واعتراه واعتراه (كذلك) مثل ذلك التسخير البديع المفهوم من قوله تعالى (سخرناها لكم) مع كمال عظيمها ونهاية قوتها فلا تستعصى عليكم حتى تأخذونها منقادة فتعلقونها وتحبسونها صافة قوائمها ثم تطعنون فى لبانها (لعلكم تشكرون) لتشكروا لإنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص .

(إن ينال الله) أى أن يبلغ مرضاته ولن يقع منه موقع القبول (لحومها) المتصدق بها (ولا دماؤها) المهرقة بالنحر من حيث أنها لحوم ودماء (ولكن يناله التقوى منكم) ولكن يصيبه تقوى قلوبكم التى تدعوكم إلى الامتثال بأمره تعالى وتعظيمه والتقرب إليه والإخلاص له وقيل كان أهل الجاهلية ياطخون الكعبة بدماء قرابينهم فهم به المسلمون فزلت (كذلك سخرها لكم) تكرير للتذكير والتعليل بقوله تعالى (لتكبروا الله) أى لتعرفوا عظمتة بأقداره على ما لا يقدر عليه غيره فتوحده بالكبرياء وقيل هو التكبير عند الإحلال أو الذبح (على ما هداكم) أى أرشدكم إلى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها وما مصدرية أو موصولة أى على هدايته إياكم أو على ما هداكم إليه وعلى متعلقة بتكبروا لتضمنه معنى الشكر (وبشر المحسنين) أى المخلصين فى كل ما يأتون وما يذرون فى أمور دينهم (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) كلام مستأنف مسوق لتوطين قلوب المؤمنين ببيان أن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم بحيث لا يقدر على صدمهم عن الحج ليتفرغوا إلى أداء مناسكه وتصديره بكلمة التحقيق لإبراز الاعتناء التام بمضمونه وصيغة المفاعلة إما للبالغة أو للدلالة على تكرار الدفع فإنها قد تجرد عن وقوع الفعل المتكرر من الجانبين فيبقى تكرره كما فى الممارسة أى يبالغ فى دفع غائلة المشركين وضررهم الذى من جملة الصد

عن سبيل الله مبالغة من يغالب فيه أو يدفعها عنهم مرة بعد أخرى حسبما تجدد منهم القصد إلى الإضرار بالمسلمين كما في قوله تعالى (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطلقها الله) وقرئ يدفع والمفعول محذوف وقوله تعالى ﴿إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾ تعليل لما في ضمن الوعد الكريم من الوعيد للشركين وإيدان بأن دفعهم بطريق القهر والخزي ونفي المحبة كناية عن البغض أى أن الله يبغض كل خوان في أماناته تعالى وهى أوامره ونواهيه أو في جميع الأمانات التى هى معظمها كفور لنعمته وصيغة المبالغة فهما لبيان أنهم كذلك لا لتقييد البغض بنهاية الحيانة والكفر أو للمبالغة في نفي المحبة على اعتبار النفي أولاً وإيراد معنى المبالغة ثانياً .

(أذن) أى رخص وقرئ على البناء للفاعل أى أذن الله تعالى ﴿للذين يقاتلون﴾ أى يقاتلهم المشركون والمأذون فيه محذوف لدلالة المذكور عليه فإن مقاتلة المشركين إياهم دالة على مقاتلتهم إياهم دلالة نيرة وقرئ على صيغة المبنى للفاعل أى يريدون أن يقاتلوا المشركين فيما سيأتى ويحرصون عليه فدلالته على المحذوف أظهر ﴿بأنهم ظلموا﴾ أى بسبب أنهم ظلموا وهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم كان المشركون يؤذونهم وكانوا يأتونه عليه السلام بين مضروب ومشجوج ويتظلمون إليه فيقول عليه السلام «اصبروا فإنى لم أؤمر بالقتال ، حتى هاجروا فأنزلت وهى أول آية نزلت في القتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية ﴿ولأن الله على نصرهم لقدير﴾ وعد لهم بالنصر وتأكيد لما مر من العدة الكريمة بالدفع وتصريح بأن المراد به ليس مجرد تخليصهم من أيدي المشركين بل تغليبهم وإظهارهم عليهم والإخبار بقدرته تعالى على نصرهم واردة على سنن الكبرياء وتأكيده بكلمة التحقيق واللام لمزيد تحقيق محضتهم وزيادته توطين نفوس المؤمنين وقوله تعالى :

(الذين أخرجوا من ديارهم) في حيز الجر على أنه صفة للوصول الأول أو بيان له أو بدل منه أو في محل النصب على المدح أو في محل الرفع بإضمار حيث بدأ والجملة مرفوعة على المدح والمراد بديارهم مكة المعظمة (بغير حق) متعلق

بأخرجوا أى أخرجوا بغير ما يوجب إخراجهم وقوله تعالى ﴿إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ بدل من حق أى بغير موجب سوى التوحيد الذى ينبغى أن يكون موجبا للإقرار والتمكين دون الإخراج والتسيير لكن لا على الظاهر بل على طريقة قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم      بهن فلول من قراع الكتائب

وقيل الاستثناء منقطع ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ بتسليط المؤمنين على الكافرين فى كل عصر وزمان وقرىء دفاع ﴿هدمت﴾ لحربت <sup>بالمسيح</sup> على أهل الملل وقرىء هدمت بالتخفيف ﴿صوامع﴾ للرهبانة ﴿وبيع﴾ للنصارى ﴿وصلوات﴾ أى وكنائس لليهود سميت بها لأنها يصلى فيها وقيل أصلها صلواتا بالعبرية فحربت ﴿ومساجد﴾ للمسلمين ﴿يذكر فيها اسم الله كثيرا﴾ أى ذكر كثيرا أو وقتا صفة مادحة للمساجد خصت بها دلالة على فضلها وفضل أهلها وقيل صفة للأربع وليس كذلك فإن بيان ذكر الله عز وجل فى الصوامع والبيع والكنائس بعد انتساخ شرعيتها بما لا يقتضيه المقام ولا يرتضيه الأفهام ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ أى وبالله لينصرن الله من ينصر أوليائه أو من ينصر دينه ولقد أنجز الله عز سلطانه وعده حيث سلب المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورشهم أرضهم وديارهم ﴿لأن الله لقوى﴾ على كل ما يريد من مراداته التى من جملتها نصرهم ﴿عزيز﴾ لا يمانعه شيء ولا يدافعه .

﴿الذين إن مكنام فى الأرض أقاموا الصلوة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ وصف من الله عز وجل للذين أخرجوا من ديارهم بما سيكون منهم من حسن السيرة عند تمكينه تعالى إياهم فى الأرض وإعطائه إياهم زمام الأحكام منبئ عن عدة كريمة على أبلغ وجه وألطفه وعن عثمان رضى الله عنه هذا والله ثناء قبل بلاء يريد أنه تعالى أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا قالوا وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين

لأنه تعالى لم يعط التمكن ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة غيرهم من المهاجرين .  
ولاحظ في ذلك للأنصار والطلقاء وعن الحسن رحمه الله هم أمة محمد صلى الله  
عليه وسلم وقيل الذين بدل من قوله من ينصره ( والله ) خاصة ( عاقبة  
الأمور ) فإن مرجعها إلى حكمه وتقديره فقط وفيه تأكيد للوعد بإظهار  
أوليائه وإعلاء كلمته .

تسليّة لرسول الله صلى الله عليه وسلم

( وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح ) تسليّة لرسول الله صلى الله  
عليه وسلم متضمنة للوعد الكريم يهلك من يعاديه من الكفرة وتعيين لكيفية  
نصره تعالى له الموعود بقوله تعالى ولينصرن الله من ينصره وبيان لرجوع  
عاقبة الأمور إليه تعالى وصيغة المضارع في الشرط مع تحقق التكذيب لما أن  
المقصود تسليته عليه السلام عما يترتب على التكذيب من الحزن المتوقع أى وإن  
تحزن على تكذيبهم إياك فأعلم أنك است بأوحدى في ذلك فقد كذبت قبل  
تكذيب قومك إياك قوم نوح ( وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط  
وأصحاب مدين ) أى رسلهم ممن ذكر ومن لم يذكر وإنما حذف السكّال ظهور  
المراد أولاً لأن المراد نفس الفعل أى فعلت التكذيب قوم نوح إلى آخره  
( وكذب موسى ) غير النظم الكريم بذكر المفعول وبناء الفعل له لأن  
قومه بنو إسرائيل وهم لم يكذبوه وإنما كذبه القبط لما أن ذلك إنما يقتضى عدم  
ذكرهم بعنوان كونهم قوم موسى لا بعنوان آخر على أن بنى إسرائيل أيضاً قد  
كذبوه مرة بعد أخرى حسبما نطق به (١) قوله تعالى ( لن تؤمن لك حتى نرى  
الله جهرة ) ونحو ذلك من الآيات الكريمة بل للإيدان بأن تكذيبهم له كان  
في غاية الشناعة لكون آياته في كمال الوضوح وقوله تعالى ( فأملت للكافرين )  
أى أمليتهم حتى انصرفت حبال آجالهم والفاء لترتيب إمهال كل فريق من فرق

(١) في الأصل : ينطق به

المكذبين على تكذيب ذلك الفريق. لا لترتيب إمهال الكل على تكذيب الكل ووضع الظاهر موضع الضمير العائد إلى المكذبين لنهم بالكفر والتصریح بمكذبي موسى عليه السلام حيث لم يذكروا فيما قبل صريحا (ثم أخذتهم) أى أخذت كل فريق من فرق المكذبين بعد انقضاء مدة إملائه وإمهاله (فكيف كان تكبير) أى إنكارى عليهم بالإهلاك أى فكان ذلك فى غاية ما يكون من الهول والفضاعة وقوله تعالى :

(فكأن من قرية) منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (أهلكناها) أى فأهلكنا كثيرا من القرى يهلك أهلها والجملة بدل من قوله تعالى (فكيف كان تكبير) أو مرفوع على الابتداء وأهلكنا خبره أى فكثير من القرى أهلكناها وقرى. أهلكتها على وفق قوله تعالى (فألميت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان تكبير) (وهى ظالمة) جملة حالية من مفعول أهلكنا وقوله تعالى (ففى خاوية) عطف على أهلكناها لاعلى وهى ظالمة لأنها حال والإهلاك ليس فى حال خوائها فعلى الأول لا محل له من الإعراب كالمعطوف عليه وعلى الثانى فى محل الرفع لعطفه على الخبر والخواء إما بمعنى السقوط من خوى النجم إذ سقط فالمعنى فى ساقطة حيطانها (على عروشها) أى سقوفها بأن تعطل بنيانها فثرت سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف وإسناد السقوط على العروش إليها لتزيل الحيطان منزلة كل البنيان لكونها عمدة فيه وإما بمعنى الخلو من خوى المنزل إذا خلا من أهله فالمعنى فى خالية مع بقاء عروشها وسلامتها فتكون على بمعنى مع ويجوز أن يكون على عروشها خبرا بعد خبر أى فى على عروشها أى قائمة مشرفة على عروشها على معنى أن السقوف سقطت إلى الأرض وبقيت الحيطان قائمة فى مشرفة على السقوف الساقطة وإسناد الإشراف إلى الكل مع كونه حاو الحيطان لما مر آنفا (وبئر معطلة) عطف على قرية أى وكم بئر عامرة فى البوادرى تركت لا يستقى منها طلاك أهلها وقرىء بالتخفيف من أعطله بمعنى عطله (وقصر مشيد) مرفوع البنيان أو يخصص لمخيلناه عن ساكنيه وهذا يؤيد كون معنى خاوية على عروشها خالية مع بقاء



عروشها وقيل المراد بالبئر بئر بسفح جبل بحضرموت وبالقصر قصر مشرف على قلته كانا لقوم حنظلة بن صفوان من بقايا قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعظلهما .

(أفلم يسيروا في الأرض) حث لهم أن يسافروا ليروا مصارع المهلكين فيعتبروا وهم وإن كانوا قد سافروا فيها ولكنهم حيث لم يسافروا للاعتبار جعلوا غير مسافرين فخثوا على ذلك والفاء لعطف ما بعدها على مقدر يقتضيه أى أغفلوا فلم يسيروا فيها (فتسكون لهم) بسبب ما شاهدوه من مواد الاعتبار ومظان الاستبصار (قلوب يعقلون بها) يجب أن يعقل من التوحيد (أو آذان يسمعون بها) ما يجب أن يسمع من الوحي أو من أخبار الأمم المهلكة من يجاورهم من الناس فإنهم أعرف منهم بحالهم (فإنها لا تعمى الأبصار) الضمير للقصة أو مبهم يفهمه الإبصار وفي تعمي ضمير راجع إليه وقد أقيم الظاهر مقامه (ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) أى ليس الخلل في مشاعرهم وإنما هو في عقولهم باتباع الهوى والانهماك في الغفلة وذكر الصدور للتأكيد ونفى توهم التجوز وفضل التنبية على أن العمى الحقيقي ليس المتعارف للخلق يختص بالبصر قيل لما نزل قوله تعالى (ومن كان في هذه أعمى) قال ابن أم مكتوم يا رسول الله أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى ؟

(ويستعجلونك بالعذاب) كانوا منكروين لحجج العذاب المتوعد به أشد الإنكار وإنما كانوا يستعجلون به استهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وتعجيزا له على زعمهم فحكي عنهم ذلك بطريق التخطئة والاستنكار فقوله تعالى (ولن يخلف الله وعده) إما جملة حالية جىء بها البيان بطلان إنكارهم لحججه في ضمن استعجالهم به وإظهار خطأهم فيه كأنه قيل كيف ينكرون حجج العذاب الموعود والحال أنه تعالى لا يخلف وعده أبدا وقد سبق الوعد فلا بد من حججه حتما أو اعتراضية مبينة لما ذكر وقوله تعالى : (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) جملة مستأنفة إن كانت الأولى حالية ومعطوفة عليها إن كانت اعتراضية سبقت ليان خطئهم في الاستعجال المذكور ببيان كمال سعة ساحة

حلته تعالى ووقاره وإظهار غاية ضيق عظمهم المستتبع لكون المدة القصيرة عنده تعالى مددا طوالا عندهم حسبما ينطق به قوله تعالى (لأنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) ولذلك يرون مجيئه بعيدا ويتخذونه ذريعة إلى إنكاره ويحترثون على الاستعجال به ولا يدرون أن معيار تقدير الأمور كلها وقوعا وأخبارا ما عنده تعالى من المقدار وقراءة يعدون على صيغة الغيبة أى يعمده المستعجلون أوفق لهذا المعنى وقد جعل الخطاب في القراءة المشهورة لهم أيضا بطريق الالتفات لكن الظاهر أنه للرسول عليه السلام ومن معه من المؤمنين وقيل المراد بوعده تعالى ما جعل لهلاك كل أمة من موعيد معين وأجل مسمى كما في قوله تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجلهم العذاب) فتكون الجملة الأولى حالية كانت أو اعتراضية مبينة لبطلان الاستعجال به ببيان استحالة مجيئه قبل وقته الموعود والجملة الأخيرة بيانا لبطلانه ببيان ابتناء على استتالة ما هو قصير عنده تعالى على الوجه الذى مر بيانه فلا يكون فى النظم الكريم حينئذ تعرض لإنكارهم الذى دسوه تحت الاستعجال بل يكون الجواب مبنيًا على ظاهر مقامهم ويكتفى فى رد إنكارهم ببيان عاقبة من قبلهم من أمثالهم هذا وحمل المستعجل به على عذاب الآخرة وجعل اليوم عبارة عن يوم العذاب المستطال لشدة أوعن أيام الآخرة الطويلة حقيقة أو المستتالة لشدة عذابها عما لا يساعده سباق النظم الجليل ولا سياقه فإن كلاهما ناطق بأن المراد هو العذاب الدنيوى وأن الزمان المعتد هو الذى مر عليهم قبل حلوله بطريق الإملال لا الزمان المقارن له ألا يرى إلى قوله تعالى :

(وكان من قرية) الخ فإنه كما سلف من قوله تعالى (فأملت للكافرين ثم أخذتهم) صريح فى أن المراد هو الأخذ العاجل الشديد بعد الإملال المديد أى وكم من أهل قرية فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فى الإعراب ورجع الضمائر والأحكام مبالغة فى التعميم والتحويل (أملت لها) كما أملت لهؤلاء حتى أنكروا مجيئ ما وعدوا من العذاب واستعجلوا به استهزاء برسولهم (٣ - أبو السعود ٤٤ راجع)

كما فعل هؤلاء ﴿ وهي ظالمة ﴾ جملة حالية مفيدة لكمال حمله تعالى ومشعرة بطريق التعريض بظلم المستعجلين أى أمليت لها والحال أنها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة كدأب هؤلاء ﴿ ثم أخذتها ﴾ بالعذاب والشكال بعد طول الإملاء والإمهال وقوله تعالى ﴿ وإلى المصير ﴾ اعترض تذييل<sup>(١)</sup> مقرر لما قبله ومصرح بما أفاده ذلك بطريق التعريض من أن مال أمر المستعجلين أيضاً ما ذكر من الأخذ الويل أى إلى حكمى مرجع الكل جميعا لا إلى أحد غيرى لا استقلالاً ولا شركة فافعل بما يليق بأعمالهم ﴿ قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴾ أنذركم لإنذارا بينا بما أوحى من أنباء الأمم المهلكة من غير أن يكون لى دخل فى إتيان ما توعدونه من العذاب حتى تستعجلونى به والاقصصار على الإنذار مع بيان حال الفريقين بعده لما أشير إليه من أن مساق الحديث للشركين وعقابهم وإنما ذكر المؤمنون وثوابهم زيادة فى غيظهم ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ﴾ لما نذر منهم من الذنوب ﴿ وورق كريم ﴾ هى الجنة والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله ويحوز كلالته ﴿ والذين سعوا فى آياتنا معاجزين ﴾ أى سابقين أو مسابقين فى زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم وأصله من عاجزه وعجزه فأعجزه إذا سبقه فسبقه لأن كلا من المتسابقين يريد إعجاز الآخر عن اللحاق به وقرئ معجزين أى مبطين الناس عن الإيمان على أنه حال مقدرة ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من السعى والمعاجزة ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ أى لازموا النار الموقدة وقبل هو اسم دركة من دركاتها .

### إلقاء الشيطان فى أمنيات الرسل

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ﴾ الرسول من بعثه الله تعالى بشريعة جديدة يدعو الناس إليها والنبي يعمه ومن بعثه لتقرير شريعة سابقة

(١) فى ١١ تقرير تذييل .

كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ولذلك شبه عليه السلام علماء أمته بهم فالنبي أعم من الرسول ويدل عليه أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن الأنبياء فقال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً قيل فحكم الرسول منهم فقال ثلثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا وقيل الرسول من جمع إلى المعجزة كتاباً منزلاً عليه والنبي يقال له ولمن يوحى إليه في المنام ﴿إلا إذا تمنى﴾ أى هياً في نفسه ما يهواه ﴿ألقى الشيطان في أمنيه﴾ في تشبيهه ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه السلام وإنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ فيبطله ويذهب به بعصيته عن المكون إليه وإرشاده إلى ما يريجه ﴿ثم يحكم الله آياته﴾ أى يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق في شئون الحق وصيغة المضارع في الفعلين للدلالة على الاستمرار والتجدد وإظهار الجلالة في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإيدان بأن الألوهية من موجبات أحكام آياته الباهرة ﴿والله عليم﴾ مبالغ في العلم بكل ما من شأنه أن يعلم ومن جملته ما صدر عن العباد من قول وفعل عمداً أو خطأ ﴿حكيم﴾ في كل ما يفعل والإظهار هنا أيضاً لما ذكر مع ما فيه من تأكيد استقلال الاعتراض التذييل قيل حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت وقيل تمنى لحرصه على إيمان قومه أن ينزل عليه ما يقربهم إليه واستمر به ذلك حتى كان في ناديم فنزلت عليه سورة النجم فأخذ يقرؤها فلما بلغ ومائة الثالثة الأخرى وسوس إليه الشيطان حتى سبق لسانه سهواً إلى أن قال تلك الغرائق العلا وإن شفاعتهن لمترجى ففرح به المشركون حتى شايعوه بالسجود لما سجد في آخرها بحيث لم يبق في المسجد مؤمن ولا مشرك إلا سجد ثم نهى جبريل عليه السلام فاعتم به فعزاه الله عز وجل بهذه الآية وهو مردود عند المحققين ولئن صح فابتلاه يتميز به الثابت على الإيمان عن المتزلزل فيه وقيل تمنى بمعنى قرأ كقوله :

تمنى كتاب الله أول ليلة تمنى داود الزبور على رسل

وأمنيه قراءته وإلقاء الشيطان فيها أن يتكلم بذلك رافعا صوته بحيث

ظن السامعون أنه من قراءة النبي عليه السلام وقدرد بأنه أيضاً يخل بالوثوق بالقرآن ولا يندفع بقوله تعالى ( فيفسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته ) لأنه أيضاً يحتمله وفي الآية دلالة على جواز السهو من الانبياء عليهم السلام وتطرق الوسوسة اليهم ﴿ ليجعل ما يلقي الشيطان ﴾ علة لما ينهى عنه ما ذكر من الإلقاء الشيطان من تمكينه تعالى إياه من ذلك في حق النبي عليه السلام خاصة كما يعرب عنه سياق النظم الكريم لما أن تمكينه تعالى إياه من الإلقاء في حق سائر الأنبياء عليهم السلام لا يمكن تعليله بما سيأتى وفيه دلالة على أن ما يلقيه أمر ظاهر يعرفه المحق والمبطل ﴿ فتنة للذين في قلوبهم مرض ﴾ أى شك ونفاق كما في قوله تعالى ( في قلوبهم مرض ) الآية ﴿ والقاسية قلوبهم ﴾ أى المشركين ﴿ وإن الظالمين ﴾ أى الفريقين المذكورين فوضع الظاهر موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم مع ما وصفوا به من المرض والقساوة ﴿ لنى شقاق بعيد ﴾ أى عداوة شديدة ومخالفة تامة ووصف الشقاق بالبعد مع أن الموصوف به حقيقة هو معروضه للبالغة والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله .

﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه ﴾ أى القرآن ﴿ الحق من ربك ﴾ أى هو الحق النازل من عنده تعالى وقيل ليعلموا أن تمكين الشيطان من الإلقاء هو الحق المتضمن للحكمة البالغة والغاية الجميلة لأنه مما جرت به عادته في جنس الإنس من لدن آدم عليه السلام فليثبت لا حاجة إلى تخصيص التمكين فيما سبق بالإلقاء في حقه عليه السلام لكن ياباه قوله تعالى ﴿ فيؤمنوا به ﴾ أى بالقرآن أى يثبتوا على الإيمان به أو يزدادوا إيماناً برد ما يلقي الشيطان فتخت له قلوبهم بالانقياد والخشية والإذعان لما فيه من الأوامر والنواهي ورجع الضمير لاسم الثاني إلى تمكين الشيطان من الإلقاء مما لا وجه له ﴿ وإن الله لهادى الذين آمنوا ﴾ أى في الأمور الدينية خصوصاً في المداحض والمشكلات التى من جملتها ما ذكر ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ هو النظر الصحيح الموصل <sup>(١)</sup> إلى الحق الصريح والجملة اعتراض مقرر لما قبله .

﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية﴾ أى فى شك وجدال ﴿منه﴾ أى من القرآن وقيل من الرسول صلى الله عليه وسلم والأول هو الأظهر بشهادة ما سبق من قول تعالى ﴿ثم يحكم الله آياته﴾ وقوله تعالى ﴿إنه الحق من ربك فيؤمنوا به﴾ وما لحق من قوله تعالى ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ وأما تجويز كون الضمير لما ألقى الشيطان فى أمنيه فما لا مساغ له لأن ذلك ليس من هزائهم التى تستمر إلى الأمد المذكور بل إنما هى مريتهم فى شأن القرآن ولا يمدى حل من على السببية دون الابتدائية لما أن مريتهم المستمرة كما انها ليست مبتدأة من ذلك ليست ناشئة منه ضرورة أنها مستمرة منهم من لدن نزول القرآن الكريم .

﴿حتى تأتهم الساعة﴾ أى القيامة نفسها كما يؤذن قوله تعالى ﴿بغتة﴾ أى فجأة فإنها الموصوفة بالإتيان كذلك لا أشراطها وقيل الموت ﴿أو يأتهم عذاب يوم عقيم﴾ أى يوم لا يوم بعده كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام فما لا يوم بعده يكون عقيما والمراد به الساعة أيضا كأنه قيل أو يأتهم عذابها فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل ولا سبيل إلى حمل الساعة على أشراطها لما عرفته وأما ما قيل من أن المراد يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر سمى به لأن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كائنهن عقم لم يلدن أو لأن المقاتلين أبناء الحرب فإذا قتلوا صارت عقيما أى ثكلى فوصف اليوم بوصفها اتساعا أو لأنه لاخير لهم فيه ومنه الريح العقيم لما لم ينشئ مطرا ولم يلقح شجرا أو لأنه لا مثل له لقتال الملائكة عليهم السلام فيه فما لا يساعده سياق النظم الكريم أصلا كيف لا وأن تخصيص الملك والتصرف السكلى فيه بالله عز وجل ثم بيان ما يقع فيه من حكمه تعالى بين الفريقين بالنواب والعذاب الآخرويين يقضى بأن المراد به يوم القيامة قضاء بيننا لا ريب فيه .

﴿الملك﴾ أى الساطان الفاهر والاستيلاء التام والتصرف على الإطلاق ﴿يومئذ﴾ وحده بلا شريك أصلا بحيث لا يكون فيه لأحد تصرف من التصرفات فى أمر من الأمور لا حقيقة ولا مجازا ولا صورة ولا معنى كما

في الدنيا فإن للبعض فيها تصرفا صوريا في الجملة وليس التنوين نائبا عما تدل عليه الغاية من زوال مريتهم كما قيل ولا عما يستلزمه ذلك من إيمانهم كما قيل لما أن القيد المعتبر مع اليوم حيث وسط بين طرفي الجملة يجب أن يكون مدارا لحكمها أعني كون الملك لله عز وجل وما يتفرع عليه من الإثابة والتعذيب ولا ريب في أن إيمانهم أو زوال مريتهم ليس مما له تعلق بما ذكر فضلا عن المدارية له فلا سبيل إلى اعتبار شيء منهما مع اليوم قطعا وإنما الذي يدور عليه ما ذكر إتيان الساعة التي هي منتهى تصرفات الخلق ومبدأ ظهور أحكام الملك الحق جل جلاله فإذا هو نائب عن نفس الجملة الواقعة غاية لمريتهم فالمعنى الملك يوم إذ تأنى الساعة أو عذابها الله تعالى وقوله تعالى ﴿ يحكم بينهم ﴾ جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الأخبار يكون الملك يومئذ لله كأنه قيل فاذا يصنع بهم حيث يشاء فويل يحكم بين فريق المؤمنين به والممارين فيه بالمجازاة وقوله تعالى ﴿ فالذين آمنوا ﴾ الخ تفسير للحكم المذكور وتفصيل له أي فالذين آمنوا بالقرآن الكريم ولم يماروا فيه ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ امتثالا بما أمروا في تضاعيفه ﴿ في جنات النعيم ﴾ أي مستقرون فيها ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أي أصروا على ذلك واستمروا ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة من الكفر والتكذيب وما فيه من معنى البعد للإيدان بعد منزلتهم في الشر والفساد أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الكفر والتكذيب وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ لهم عذاب ﴾ جملة اسمية من مبتدأ وخبر مقدم عليه وقعت خبر لأولئك أولهم خبر لأولئك وعذاب مرتفع على الفاعلية بالاستقرار في الجار والمجرور لاعتماده على المبتدأ وأولئك مع خبره على الوجهين خبر للموصول وتصديره بالقاء للدلالة على أن تعذيب الكفار بسبب أعمالهم السيئة كما أن تجريد خبر الموصول الأول عنها للإيدان بأن إثابة المؤمنين بطريق التفضيل لا لإيجاب الأعمال الصالحة إياها وقوله تعالى ﴿ مدين ﴾ صفة لعذاب مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة وفيه من المبالغة من وجوه شتى ما لا يخفى ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ﴾ أي في الجهاد حسبما يلوح به قوله تعالى

(ثم قتلوا أو ماتوا) أى فى تضاعيف المهاجرة وعمل الوصول الرفع على الابتداء وقوله تعالى ﴿ليرزقنهم﴾ جواب لقسم محذوف والجملة خبره ومن منع وقوع الجملة القسمية وجوابها خبرا للابتداء يضمر قولاً هو الخبر والجملة محكية وقوله تعالى ﴿رزقا حسنا﴾ إما مفعول ثان على أنه من باب الرعى والذبح أى مرزوقا حسنا أو مصدر مؤكد والمراد به ما لا ينقطع أبداً من نعم الجنة وإنما سوى بينهما فى الوعد لاستوائهما فى القصد وأصل العمل على أن مراتب الحسن متفاوتة فيجوز تفاوت حال المرزوقين حسب تفاوت الأرزاق الحسنة وروى أن بعض أصحاب النبي عليه السلام قالوا يابى الله هؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك فنزلت وقيل نزلت فى طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة فبعضهم المشركون فقاتلهم ﴿وإن الله لهو خير الرازقين﴾ فإنه يرزق بغير حساب مع أن ما يرزقه لا يقدر عليه أحد غيره والجملة اعتراض تذييل مقرر لما قبله وقوله تعالى ﴿ليدخلهم مدخلا يرضونه﴾ بدل من قوله تعالى ﴿ليرزقنهم الله﴾ أو استئناف مقرر لمضمونه ومدخلا إما اسم مكان أريد به الجنة فهو مفعول ثان للإدخال أو مصدر ميمي أ كد به ففعله قال ابن عباس رضى الله عنهما إنما قيل يرضونه لما أنهم فيها يرون ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيرضونه ﴿وإن الله لعليم﴾ بأحوالهم وأحوال معاديبهم ﴿حليم﴾ لا يعاجلهم بالعقوبة .

(ذلك) خبر مبتدأ محذوف أى الأمر ذلك والجملة لتقرير ما قبله والتنبيه على أن ما بعده كلام مستأنف ﴿ومن عاقب بمثل ما عوقب به﴾ أى لم يزد فى الاقتصاص وإنما سمي الابتداء بالعقاب الذى هو جزاء الجنائية للمشاكلة أو لكونه سبباً له ﴿ثم بغى عليه﴾ بالمعاودة إلى العقوبة ﴿لينصرن الله﴾ على من بغى عليه لا محالة ﴿إن الله لعفو غفور﴾ أى مبالغ فى العفو والغفران فيعفو عن المنتصر ويغفر له ما صدر عنه من ترجيع الانتقام على العفو والصبر المندوب إليهما بقوله تعالى (ولمن صبر وغفر إن ذلك) أى ما ذكر من الصبر والمغفرة (إن)



عزم الأمور) فإن فيه حثاً علينا على العفو والمغفرة فإنه تعالى مع كمال قدرته لما كان يعفو ويغفر فغيره أولى بذلك وتبليها على أنه تعالى قادر على العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده ﴿ذلك﴾ إشارة إلى النصر وما فيه من معنى البعد للإيدان بعلو رتبته وعمله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى ﴿بأن الله يوجل الليل في النهار ويوجل النهار في الليل﴾ أى بسبب أنه تعالى من شأنه وسنته تغليب بعض مخلوقاته على بعض والمداولة بين الأشياء المتضادة وعبر عن ذلك بإدخال أحد الملوك في الآخر بأن يزيد فيه ما ينقص عن الآخر أو بتحصيل أحدهما في مكان الآخر أو بتحصيل أحدهما في مكان الآخر لسكونه أظهر المواد وأوضحها ﴿ولأن الله سميع﴾ بكل المسموعات التي من جملتها قول المعاقب ﴿بصير﴾ بجميع المبصرات ومن جملتها أفعاله ﴿ذلك﴾ أى الاتصاف بما ذكر من كمال القدرة والعلم وما فيه من معنى البعد لما مر آنفاً وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿بأن الله هو الحق﴾ الواجب لذاته الثابت في نفسه وصفاته وأفعاله وحده فإن وجوب وجوده ووحدته يقتضيان كونه مبدأ لكل ما يوجد من الموجودات علماً بكل المعلومات أو الثابت إلهية فلا يصلح لها إلا من كان عالماً قادراً ﴿وأن ما يدعون من دونه﴾ لها وقرىء على البناء للمفعول على أن الواو لما فاتته عبارة عن الآلهة وقرىء بالتاء على خطاب المشركين ﴿هو الباطل﴾ أى المعلوم في حد ذاته أو الباطل ألوهيته ﴿وأن الله هو العلي﴾ على جميع الأشياء ﴿الكبير﴾ عن أن يكون له شريك لا شيء أعلى منه شأنًا وأكبر سلطاناً ..

﴿لم تر أن الله أنزل من السماء ماء﴾ استفهام تقريرى كما يفصح عنه الرفع في قوله تعالى ﴿فتصبح الأرض مخضرة﴾ بالعطف على أنزل وإيثار صيغة الاستقبال للإشعار بتجدد أثر الإنزال واستمراره أو لاستحضار صورة الأخضر واليابس ﴿الإن الله لطيف﴾ يصل لطفه أو عليه إلى كل ما جل ودق ﴿خبير﴾ بما يليق من الأدب الحسنة ظاهراً وباطناً ﴿له ما في السموات والأرض﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً ﴿ولأن الله هو الغنى﴾ عن كل شيء ﴿الحميد﴾ المستوجب

للحمد بصفاته وأفعاله ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض﴾ أى جعل ما فيها من الأشياء مذلة لكم معدة لمنافعكم تنصرفون فيها كيف شئتم فلا أصلب من الحجر ولا أشد من الحديد ولا أهيب من النار وهى مسخرة لكم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم لتسهيل المسرة والتشويق إلى المؤخر ﴿والفلك﴾ عطف على ما أو على اسم أن وقرىء بالرفع على الابتداء ﴿تجرى فى البحر بأمره﴾ حال من الفلك على الأول وخبر على الآخرين ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ أى من أن تقع أو كراهة أن تقع بأن خلقها على هيئة متداعية إلى الاستمساك ﴿إلا ياذنه﴾ أى بمشيئته وذلك يوم القيامة وفيه رد لاستمساكها بذاتها فإنها مساوية فى الجسمية لساير الأجسام القابلة لليل الهابط فتقبله كقبول غيرها ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ حيث هم أسباب معاشهم وفتح عليهم أبواب المنافع وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية .

﴿وهو الذى أحياكم﴾ بعد أن كنتم جمادا عناصر ونظما حسبما فصل فى مطالع السورة الكريمة ﴿ثم يميتكم﴾ عند مجئ آجالكم ﴿ثم يحييكم﴾ عند البعث ﴿إن الإنسان لكفور﴾ أى جحود للنعم مع ظهورها وهذا وصف للجنس بوصف بعض أفرادهم ﴿لكل أمة﴾ كلام مستأنف جرى به لجزر معاصريه عليه السلام من أهل الأديان السماوية عن منازعته عليه السلام ببيان حال ما تمسكوا به من الشرائع وإظهار خطئهم فى النظر أى لكل أمة معينة من الأمم الخالية والباقية ﴿جعلنا﴾ أى وضعنا وعينا ﴿منسكا﴾ أى شريعة خاصة لا أمة أخرى منهم على معنى عينا كل شريعة لأمة معينة من الأمم بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى لا استقلالاً ولا اشتراكاً وقوله تعالى ﴿هم ناسكوه﴾ صفة لمنسكاهم مؤكدة للقهر المستفاد من تقديم الجار والمجرور على الفعل والضمير لكل أمة باعتبار خصوصها أى تلك الأمة المعينة ناسكوه والعاملون به لا أمة أخرى فالأمة التى كانت من مبعث موسى عليه السلام إلى مبعث عيسى عليه السلام منسكهم التوراة هم ناسكوها والعاملون بها لا غيرهم

والتي كانت من مبعث عيسى إلى مبعث النبي عليهما السلام منسكهم الإنجيل هم فاسكوه والعاملون به لا غيرهم وأما الألة الموجودة عند مبعث النبي عليه السلام ومن بعدهم من الموجودين إلى يوم القيامة فهم أمة واحدة منسكهم الفرقان ليس إلا كما مر في تفسير قوله تعالى ( لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ) والفاء في قوله تعالى ( فلا ينازعك في الأمر ) لترتيب النهي أو موجهه على ما قبلها فإن تعيينه تعالى لكل أمة من الأمم التي من جعلتهم هذه الألة شرعية مستقلة بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعته المعينة لها موجب لطاعة هؤلاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم منازعتهم إياه في أمر الدين زعماءهم أن شريعتهم ما عين لا بائهم الأولين من التوراة والإنجيل فإنهما شريعتان لمن مضى من الأمم قبل انتساخها<sup>(١)</sup> وهؤلاء أمة مستقلة منسكهم القرآن المجيد فحسب والنهي إما على حقيقته أو كناية عن نفيه عليه السلام عن الالتفات إلى نزاعهم المنهي على زعمهم المذكور وأما جعله عبارة عن نفيه عليه السلام عن منازعتهم فلا يساعده المقام وقرئ فلا يزعرك على تهيجه عليه السلام والمبالغة في تثبيته وأيا ما كان فمحل النزاع ما ذكرناه وتخصيصه بأمر الفسائك وجعله عبارة عن قول الخواصين وغيرهم للمسلمين ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله تعالى مما لا سبيل إليه أصلا كيف لا وأنه يستدعى أن يكون أكل الميتة وسائر ما يدينونه من الأباطيل من جملة المناسك التي جعلها الله تعالى لبعض الأمم ولا يرتاب في بطلانه عاقل ( وادع ) أي وادعهم أو وادع الناس كافة على أنهم داخلون فيهم دخولا أوليا ( إلى ربك ) إلى توحيد عبادته حسبما بين لهم في منسكهم وشريعتهم ( إنك لعلى هدى مستقيم ) أى طريق موصل إلى الحق سوى والمراد به إما للدين والشرعة أو أدلتها .

( وإن جادلوك ) بعد ظهور الحق بما ذكر من التعقيب ولزوم الحجمة عليهم ( قل ) لهم على سبيل الوعيد ( الله أعلم بما تعملون ) من الأباطيل

(١) في ٢٥ نسختها

التي من جعلتها المجادلة ﴿الله يحكم بينكم﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين  
 ﴿يوم القيامة﴾ بالثواب والعقاب كما فصل في الدنيا بالحجج والآيات ﴿فيما  
 كنتم فيه تختلفون﴾ من أمر الدين ﴿ألم تعلم﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله  
 والاستفهام للتقرير أي قد علمت ﴿أن الله يعلم ما في السماء والأرض﴾ فلا  
 يخفى عليه شيء من الأشياء التي من جعلتها ما يقوله الكفرة وما يعملونه ﴿إن  
 ذلك﴾ أي ما في السماء والأرض ﴿في كتاب﴾ هو اللوح قد كتب فيه قبل  
 حدوثه فلا يملك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له ﴿إن ذلك﴾ أي ما ذكر  
 من العلم والإحاطة به وإثباته في اللوح أو الحكم بينكم ﴿على الله يسير﴾  
 فإن علمه وقدرته مقتضى ذاته فلا يخفى عليه شيء ولا يصير عليه مقدور .

﴿ويعبدون من دون الله﴾ حكاية لبعض أباطيل المشركين وأحوالهم  
 الدالة على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم من بناء أمر دينهم على غير مبنى  
 من دلائل سمعى أو عقلى وإعراضهم عما ألقى عليهم من سلطان بين هو أساس  
 الدين وقاعدته أشد إعراض أي يعبدون متجاوزين عبادة الله ﴿مالم ينزل به﴾  
 أي بجواز عبادته ﴿سلطانا﴾ أي حجة ﴿وما ليس لهم به﴾ أي بجواز عبادته  
 ﴿علم﴾ من ضرورة العقل أو استدلاله ﴿وما للظالمين﴾ أي الذين ارتكبوا  
 مثل هذا الظلم العظيم الذى يقضى ببطلانه وكونه ظلما بديهى العقول ﴿من نصير﴾  
 يساعدهم بنصرة مذهبهم وتقرير رأيهم أو بدفع العذاب الذى يعترهم بسبب  
 ظلمهم ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾ عطاف على يعبدون وما بينهما اعتراض  
 وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجديدى ﴿بينات﴾ أي حال كونها  
 واضحات الدلالة على العقائد الحق والأحكام الصادقة أو على بطلان ما هم  
 عليه من عبادة الأصنام أو على كونها من عند الله عز وجل ﴿تعرف في وجوه  
 الذين كفروا المنكر﴾ أي الإنكار كالملكوم بمعنى الإكرام أو الفطيع من  
 التجهم والبسور أو الشر الذى يقصدونه بظهور مخايله من الأوضاع والبيئات  
 وهو الأنسب بقوله تعالى : ﴿يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾  
 أي يثبون ويبطشون بهم من فرط الغيظ والغضب لأباطيل أخذوها تقليدا .

وهل جهالة أعظم وأظلم من أن يعبدوا ما لا يوههم صحة عبادته شيء ما أصلا بل يقضى بطلانها العقل والنقل ويظهروا لمن يهديهم إلى الحق البين بالسلطان المبين مثل هذا المنكر الشنيع كلا ولهذا وضع الذين كفروا موضع الضمير .

(قل) ردا عليهم وإقناطا عما يقصدونه من الإضرار بالمسلمين (أفأنتبكم) أي أأعاطبكم فأخبركم (بشر من ذلكم) الذي فيكم من غيظكم على التالين وسطوتكم بهم أو عما تبغونهم من الغوائل أو عما أصابكم من الضجر بسبب ما تلوه عليكم (النار) أي هو النار على أنه جواب لسؤال مقدر كأنه قيل ما هو وقيل هو مبتدأ خبره قوله تعالى : (وعدها الله الذين كفروا) وقرئ النار بالنصب على الاختصاص وبالجر بدلا من شرفتكون الجملة الفعلية استئنافا كالوجه الأول أوحالا من النار بإحضار قد (وبئس المصير) النار (يا أيها الناس ضرب مثل) أي بين لكم حال مستغربة أو قصة بدیعة رائعة حقيقة بأن تسمى مثلا وتسير في الأمصار والأعصار أو جعل لله مثل أي مثل في استحقاق العبادة وأريد بذلك ما حكى عنهم من عبادتهم للأصنام (فاستمعوا له) أي للمثل نفسه استماع تدبر وتفكر أو فاستمعوا لأجله ما أقول فقله تعالى :

(إن الذين تدعون من دون الله) الخ بيان للمثل وتفسير له على الأول وتعليل لبطلان جعلهم الأصنام مثل الله سبحانه في استحقاق العبادة على الثاني وقرئ : ياء الغيبة مبنيًا للفاعل ومبنيًا للمفعول والراجع إلى الموصول على الأولين محذوف (لن يخلقوا ذبابا) أي لن يقدروا على خلقه أبدا مع صغره وحقارته فإن لن بما فيها من تأكيد النفي دالة على منافاة ما بين المنفى والمنفى عنه (ولو اجتمعوا له) أي لخلقهم وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة مبطونة على شرطية أخرى محذوفة ثقة بدلالة هذه عليها أي لو لم يجتمعوا عليه لن يخلقوه ولو اجتمعوا له لن يخافوه كما مر تحقيقه مرارا (١) وهما في موضع

الحال كأنه قيل لن يخلقوا ذبابا على كل حال ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئا ﴾ بيان لعجزهم عن الامتناع عما يفعل بهم الذباب بعد بيان عجزهم عن خلقه أى إن يأخذ الذباب منهم شيئا ﴿ لا يستنقذوه منه ﴾ مع غاية ضعفه ولقد جهلوا غاية التعجيل فى إشرألكم بالله القادر على جميع المقدورات المتفرد بإيجاد كافة الموجودات تماثيل هى أعجز الأشياء وبين ذلك بأنها لا تقدر على أقل الأحياء وأذلها ولو اتفقوا عليه بل لا تقوى على مقاومة هذا الأقل الأذل وتعجز عن ذبه عن نفسها واستنقاذ ما يختطفه منها قيل كانوا يطيبونها بالطيب والعسل ويلقون عليها الأبواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ أى عابد الصنم ومعبوده أو الذباب الطالب لما يسلبه من الصنم من الطيب والصنم المطلوب منه ذلك أو الصنم والذباب كأنه يطلبه ليستنقذه منه ما يسلبه ولو حققت وجدت الصنم أضعف من الذباب بدرجات وعابده أجهل من كل جاهل وأضل من كل ضال ﴿ ما قدروا الله حق قدره ﴾ أى ما عرفوه حق معرفته حيث أشركوا به وسموا باسمه ما هو أبعد الأشياء عنه مناسبة ﴿ إن الله لقوى ﴾ على خلق الممكنات بأسرها وإفناء الموجودات عن آخرها ﴿ عزيز ﴾ غالب على جميع الأشياء وقد عرفت حال آلهتهم المقهورة لأذلها العجزة عن أقلها والجملة تعليل لما قبلها من نفى معرفتهم له تعالى ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ﴾ يتوسطون بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم السلام بالوحي ﴿ ومن الناس ﴾ وهم المختصون بالنفوس الزكية المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون بكلا العالمين الروحاني والجسماني يتلقون من جانب ويلقون إلى جانب ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل إلى جانب الحق فيدعونهم إليه تعالى بما أنزل عليهم ويعلمونهم شرائعه وأحكامه كأنه تعالى لما قرر وحدانيته فى الألوهية ونفى أن يشاركه فيها شيء من الأشياء بين أن له عبادا مصطفين للرسالة يتوسل بإجابتهم والافتداء بهم إلى عبادته عز وجل وهو أعلى الدرجات وأقصى الغايات لمن عدها من الموجودات تقريرا للنبوة وتزييفا لقولهم ﴿ لو شاء الله لآنزل ملائكة ﴾ وقولهم ﴿ ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفا ﴾ وقولهم ﴿ الملائكة بنات الله ﴾

وغير ذلك من الأباطيل ﴿إن الله سميع بصير﴾ عليم بجميع المسموعات  
 والمبصرات فلا يخفى عليه شيء من الأقوال والأفعال ﴿يعلم ما بين أيديهم  
 وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور﴾ لا إلى أحد غيره لا اشتراكا ولا استقلالا  
 ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا﴾ أى فى صلواتكم أمرهم بهما لما أنهم  
 ما كانوا يفعلونها أول الإسلام أو صلوا عبر عن الصلاة بهما لأنها أعظم  
 أركانها أو اخضعوا لله تعالى وخروا له سجدا ﴿واعبدوا ربكم﴾ بسائر ما تعبدكم  
 به ﴿وافعلوا الخير﴾ وتحروا ما هو خير وأصلح فى كل ما تأتون وما تذكرون  
 كنوافل الطاعات وصلة الأرحام ومكارم الأخلاق ﴿لعلكم تفلحون﴾  
 أى افعلوا هذه كلها وأتمم راجون بها الفلاح غير متيقنين له واثقين بأعمالكم  
 وبالأية آية بحجة عند الشافعى رحمه الله لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود ولقوله  
 عليه الصلاة والسلام فضلت سورة الحج بسجدة من لم يسجد بها فلا يقرأها  
 ﴿وجاهدوا فى الله﴾ أى لله تعالى ولأجله أعداء دينه الظاهرة كأهل الزيغ  
 والباطنة كالهموى والنفس وعنه عليه الصلاة والسلام أنه رجع من غزوة تبوك  
 فقال رجعتنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ﴿حق جهاده﴾ أى جهادا  
 فيه حقا خالصا لوجهه فمكس وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة كقولك هو حق  
 بعالم وأضيف الجهاد إلى الضمير اتساعا أو لأنه مختص به تعالى من حيث أنه  
 يفعل لوجهه ومن أجله ﴿هو اجتباكم﴾ أى هو اختاركم لدينه ونصرته لا غيره  
 وفيه تفضيله على ما يقتضى الجهاد ويدعو إليه ﴿وما جعل عليكم فى الدين من  
 حرج﴾ أى ضيق بتشكيف ما يشق عليكم إقامته إشارة إلى أنه لا مانع لهم عنه  
 ولا عند لهم فى تركه أو إلى الرخصة فى إغفال بعض ما أمرهم به حيث يشق  
 عليهم لقوله عليه الصلاة والسلام إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وقيل  
 ذلك بأن جعل لهم من كل ذنب مخرجا بأن رخص لهم فى المضايق وفتح لهم  
 باب التوبة وشجع لهم الكفار بدينهم فى حقوقهم والأروش والديات فى حقوق  
 الدين ﴿فلا يؤفككم إبراهيم﴾ تعجب على المفسر بفعل هل عليه مضمون ما قبله  
 يخفف البطون إلى موضع عليكم حينكم تؤمنون ملة أيكم أو على الإغراء أو على

الاختصاص وإنما جعله أباهم لأنه أبورسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كالآب  
لأمته من حيث أنه سبب لحياتهم الأبدية ووجودهم على الوجه المعتد به في  
الآخرة أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته عليه الصلاة والسلام فغلبوا على  
غيرهم (هو سماكم المسلمين من قبل) في الكتب المتقدمة .

(وفي هذا) أى في القرآن والضمير لله تعالى ويؤيده أنه قرىء الله سماكم  
أو لإبراهيم وتسميتهم بالمسلمين في القرآن وإن لم تكن منه عليه الصلاة والسلام  
كانت بسبب تسميته من قبل في قوله (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) وقيل وفي هذا  
تقديره وفي هذا بيان تسميته لإياكم المسلمين (ليكون الرسول) يوم القيامة  
بمتعلق بسماكم (شهادة عليكم) بأنه بلغكم فيدل على قبول شهادته لنفسه  
اعتمادا على عصمته أو بطاعة من أطاع وعصيان من عصى (وتكونوا  
شهداء على الناس) بتبليغ الرسل إليهم (فأقيموا الصلوة وآتوا الزكاة)  
أى فتقربوا إلى الله بأنواع الطاعات وتخصيصهما بالذكر لإناقتهما وفضلهما  
(واعتصموا بالله) أى ثقوا به في مجامع أموركم ولا تطلبوا الإعانة والنصرة  
إلا منه (هو مولاكم) ناصركم ومتولى أموركم (فنعم المولى ونعم النصير)  
هو إذ لا مثل له في الولاية والنصرة بل لاولى ولا نصير في الحقيقة سواء  
عز وجل عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحج أعطى من الأجر  
كحجة حجها وعمره اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقى .



## ﴿سورة المؤمنين﴾

مكية وهي عند البصريين مائة وتسع عشرة آية  
وعند الكوفيين مائة وثمانى عشرة آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

من دلائل الإيمان

(قد أفلح المؤمنون) الفلاح الفوز بالمرام والنجاة من المكروه وقيل البقاء في الخير والإفلاح الدخول في ذلك كإبشار الذي هو الدخول في البشارة وقد يجيء متعدياً بمعنى الإدخال فيه وعليه قراءة من قرأ على البناء للمفعول وكلية قد ههنا لإفادة ثبوت ما كان متوقع الثبوت من قبل لامتوقع الإخبار به ضرورة أن المتوقع من حال المؤمنين ثبوت الفلاح لهم لا الإخبار بذلك فالمعنى قد فازوا بكل خير ونجوا من كل ضير حسبما كان ذلك متوقفاً من حالهم فإن إيمانهم وما تفرع عليه من أعمالهم الصالحة من دواعي الفلاح بموجب الوعد الكريم خلا أنه إن أريد بالإفلاح حقيقة الدخول في الفلاح الذي لا يتحقق إلا في الآخرة فالإخبار به على صيغة الماضي للدلالة على تحققه لا محالة بتنزيله منزلة الثابت وإن أريد كونهم بحال تستتبعه البتة فصيغة الماضي في محلها وقرئ أفلحوا على الإيهام والتفسير أو على أكلوني البراغيث وقرئ أفلح بضمة اكتفى بها عن الواو كما في قول من قال :

\* ولو أن الأطلبا كان حولي \*

والمراد بالمؤمنين إما المصدقون بما علم ضرورة أنه من دين نبينا صلى الله عليه وسلم من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرهما فقوله تعالى : ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ وما عطف عليه صفات مخصصة لهم وإما الآتون بفروعه أيضاً كما ينبىء عنه إضافة الصلاة إليهم فهي صفات موصية أو مادية لهم حسب اعتبارها ذكر في حين الصلة من المعاني مع الإيمان إجمالاً أو تفصيلاً

كما مر في أوائل سورة البقرة والخشوع والخوف والتذلل أى خائفون من الله عز وجل متذللون لهم لمزمون أبصارهم مساجدهم روى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فلما نزلت روى يبصره نحو مسجده وأنه رأى مصليا يعبث بلحيته فقال لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه .

(والذين هم عن اللغو) أى عما لا يعينهم من الأقوال والأفعال (معرضون) أى في عامة أوقاتهم كما ينبى عنه الاسم الدال على الاستمرار فيدخل في ذلك إعراضهم عنه حال اشتغالهم بالصلاة دخولا أوليا ومدار إعراضهم عنه ما فيه من الحالة الداعية إلى الإعراض عنه لا مجرد الاشتغال بالجد في أمور الدين كما قيل فإن ذلك ربما يوهم أن لا يكون في اللغو نفسه ما يجرهم عن تعاطيه وهو أبلغ من أن يقال لا يلهون من وجوه جمل الجملة اسمية وبناء الحكم على الضمير والتعبير عنه بالاسم وتقديم الصلاة عليه وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على تباعدهم عنه رأسا مباشرة وتسببا وميلا وحضورا فإن أصله أن يكون في عرض غير عرضه .

(والذين هم للزكاة فاعلون) وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة للدلالة على أنهم بلغوا الغاية القاصية من القيام بالطاعات البدنية والمالية والتجنب عن المحرمات وسائر ما توجب المروءة اجتنابه وتوسيط حديث الإعراض بينهما لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة والزكاة مصدر لأنه الأمر الصادر عن الفاعل لا المحل الذى هو موقعه ومعنى الفعل قدم تحقيقه في تفسير قوله تعالى (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) ويجوز أن يراد بها العين على تقدير المضاف (والذين هم لفروجهم حافظون) مسكون لها فالاستثناء في قوله تعالى (إلا على أزواجهم) من نبي الإرمال الذى ينبى عنه الحفظ أى لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهم وفيه إيدان بأن قوتهم الشهوية داعية لهم إلا ما لا يخفى وأنهم حافظون لها من استيفاء مقتضاها وبذلك يتحقق كمال العفة ويجوز أن تكون على بمعنى من وإليه ذهب الفراء كما في قوله تعالى (إذا اكتالوا على الناس)

أى حافظون لها من كل أحد إلا من أزواجهم وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع  
 حالا من ضمير حافظون أى حافظون لها فى جميع الأحوال إلا حال كونهم والين  
 أو قوامين على أزواجهم وقيل بمحذوف يدل عليه غير ملومين كأنه قيل يلامون  
 على كل مباشر إلا على ما أطلق لهم فإنهم غير ملومين وحمل الحفظ على القصر  
 عليهن ليكون المعنى حافظون فروجهن على الأزواج لا يتعداهن ثم يقال غير  
 حافظين إلا عليهن تأكيداً على تأكيد تكلف على تكلف (أو ما ملكت أيمانهم)  
 أى سراريهم عبر عنهم بما إجرأ لهم للملوكتين بجرى غير العقلاء أو لأنوثتهن  
 المنبئة عن القصور وقوله تعالى (فإنهم غير ملومين) تعليل لما يفيد الاستثناء  
 من عدم حفظ فروجهن منهن أى فإنهم غير ملومين على عدم حفظها منهن  
 (فن ابتنى وراء ذلك) الذى ذكر من الحد المتسع وهو أربع من  
 الحرائر أو ما شاء من الإماء (فأولئك هم العادون) السكاملون فى العدوان  
 المتناهون فيه وليس فيه ما يدل حتماً على تحريم المتعة حسبما نقل عن القاسم  
 ابن محمد فإنه قال : إنها ليست زوجة له فوجب ألا تحمل له أما إنها ليست زوجة  
 له فلائها لا يتوارثان بالإجماع ولو كانت زوجة له لحصل التوارث لقوله تعالى  
 (ولكم نصف ما ترك أزواجكم) فوجب أن لا تحمل لقوله تعالى (إلا على  
 أزواجهم) لأن لهم أن يقولوا إنها زوجة له فى الجملة وأما إن كل زوجة ترث  
 فهم لا يسلمونها وأما ما قيل من أنه إن أريد لو كانت زوجة حال الحياة لم  
 يفد وإن أريد بعد الموت فالملازمة ممنوعة فليس له معنى يحصل نعم لو عكس  
 لكان له وجه (والذين هم لأماناتهم وعهدهم) لما يؤتمنون عليه ويماهدون  
 من جهة الحق أو الخلق (راعون) أى قائمون عليها حافظون لها على وجه  
 الإصلاح وقرىء لأماناتهم (والذين هم على صلواتهم) المفروضة عليهم  
 (يحافظون) يواظبون عليها ويؤدونها فى أوقاتها ولفظ الفعل فيه لما فى  
 فى الصلاة من التجدد والتكرار وهو السر فى جمعها وليس فيه تكرير لما أن  
 الخشوع فى الصلاة غير المحافظة عليها وفصلهما للإيدان بأن كلا منهما فضيلة  
 مستقلة على حياها ولو قرنا فى الذكر لربما توهم أن مجموع الخشوع والمحافظة

فضيلة واحدة ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات وإيثارها<sup>(١)</sup> على الإضمار للإشعار بامتيازهم بها عن غيرهم ونزولهم منزلة المشار إليه حسا وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقتهم وبعد درجاتهم في الفضل والشرف أى أولئك المنعوتون بالنعوت الجميلة المذكورة ﴿ هم الوارثون ﴾ أى الأحقاء بأن يسموا وراثا دون من عداهم ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكراثمهما ﴿ الذين يرثون الفردوس ﴾ بيان لما يرثونه وتقيد للوراثاة بعد إطلاقها وتفسيرها بعد إلباسها تفخيما لشأنها ورفعها لمحلها وهى استعارة لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم حسبا يقتضيه الوعد الكريم للبالغه فيه وقيل لأنهم يرثون من الكفار منازلهم فيها حيث فوتوها على أنفسهم لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلا في الجنة ومنزلا في النار ﴿ هم فيها ﴾ أى في الفردوس والتأنيث لأنه اسم للجنة أو لطبقتهم العليا وهو البستان الجامع لأصناف الثمر روى أنه تعالى بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك الأذفر وفى رواية ولبنة من مسك مذرى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الزمان ﴿ خالدون ﴾ لا يخرجون منها أبدا والجملة إما مستأنفة مقررة لما قبلها وإما حال مقدرة من فاعل يرثون أو مفعوله إذ فيها ذكر كل منهما ومعنى الكلام لا يموتون ولا يخرجون منها .

#### خلق الإنسان

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ شروع في بيان مبدأ خلق الإنسان وتقلبه في أطوار الخلقة وأدوار الفطرة بيانا إجماليا لإثر بيان حال بعض أفراد السعداء واللام جواب قسم والواو ابتدائية وقيل عاطفة على ما قبلها والمراد بالإنسان الجنس أى وبالله لقد خلقنا جنس الإنسان في ضمن خلق آدم عليه السلام خلقا إجماليا حسبا تحققتة في سورة الحج وغيرها وأما كونه مخلوقا من سلالات جعلت نطقا بعد أدوار وأطوار فبعيد ﴿ من سلالة ﴾ السلالة ما سل من الشيء

(١) أى وإيثار اسم الإشارة على الضمير .

واستخرج منه فإن فعالة اسم لما يحصل من الفعل فتارة تكون مقصودا منه كالخلاصة وأخرى غير مقصود منه كالقلامة والكناسة والسلالة من قبيل الأول. فإنها مقصودة بالسل ومن ابتدائية متعلقة بالخلق ومن في قوله تعالى ﴿من طين﴾ بيانية متعلقة بمحذوف وقع صفة لسلالة أى خلقناه من سلالة كائنة من طين ويجوز أن تتعلق بسلالة على أنها بمعنى مسلوقة فهى ابتدائية كالأولى وقبل المراد بالإنسان آدم عليه السلام فإنه الذى خلق من صفوة سلت من الطين وقد وقفت على التحقيق ﴿ثم جعلناه﴾ أى الجنس باعتبار أفراد المغايرة لآدم عليه السلام أو جعلنا نسله على حذف المضاف إن أريد بالإنسان آدم عليه السلام ﴿نطفة﴾ بأن خلقناه منها أو ثم جعلنا السلالة نطفة والتذكير بتأويل الجوهر أو المسلول أو الماء ﴿فى قرار﴾ أى مستقر وهو الرحم عبر عنها بالقرار الذى هو مصدر مبالغة وقوله تعالى ﴿مكين﴾ وصف لها بصفة ما استقر فيها مثل طريق سائر أو بمكانتها فى نفسها فإنها مكنت بحيث هى وأحرزت .

﴿ثم خلقنا النطفة علقة﴾ أى دما جامدا بأن أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء ﴿نخلقنا العلقة مضغة﴾ أى قطعة لحم لا استبانة ولا تمايز فيها ﴿نخلقنا المضغة﴾ أى غالبها ومعظمها أو كلها ﴿عظاما﴾ بأن صلبناها وجعلناها عمودا للبدن على هيئات وأوضاع مخصوصة تقتضها الحكمة ﴿فكسونا العظام﴾ المعهودة ﴿لحما﴾ من بقية المضغة أو مما أنبتنا عليها بقدرتنا مما يصل إليها أى كسونا كل عظم من تلك العظام ما يليق به من اللحم على مقدار لائق به وهيئة مناسبة له واختلاف العواطف للتنبيه على تفاوت الاستحالات وجمع العظام لاختلافهما وقرئ على التوحيد فهما اكتفاء بالجنس وبتوحيد الأول فقط وبتوحيد الثانى فحسب ﴿ثم أنشأناه خلقا آخر﴾ هى صورة البدن أو الروح أو القوى بنفخه فيه أو المجموع وثم لكمال التفاوت بين الخلقين واحتج به أبو حنيفة رحمه الله على أن من غصب بيضة فأفرخت عنده لزمه ضمان البيضة لا الفرخ لأنه خلق آخر .

﴿فتبارك الله﴾ فتعالى شأنه فى علمه الشامل وقدرته الباهرة والالتفات

إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة والإشعار بأن ما ذكر من  
الآفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية وللإيدان بأن حق كل من سمع ما فصل  
من آثار قدرته عز وعلا أو لاحظته أن يسارع إلى التكلم به لإجلال وإعظاما  
لمشؤونه تعالى ﴿ أحسن الخالقين ﴾ بدل من الجلالة وقيل نعت بناء على أن  
الإضافة ليست لفظية وقيل خبر مبتدأ محذوف أى هو أحسن الخالقين خلقا  
أى المقدرين تقديرا حذف المميز لدلالة الخالقين عليه كما حذف المأذون فيه  
فى قوله تعالى (أذن للذين يقاتلون) لدلالة الصلة عليه أى أحسن الخالقين خلقا  
فالحسن للخلق قيل نظيره قوله عليه الصلاة والسلام إن الله جميل يحب الجمال  
أى جميل فعله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعا فاستمكن  
روى أن عبد الله بن أبى سرح كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى  
فلما انتهى عليه الصلاة والسلام إلى قوله خلقا آخر سارع عبد الله إلى النطق به  
قبل إملائه عليه الصلاة والسلام فقال اكتبه هكذا نزلت فشك عبد الله فقال  
إن كان محمد يوحى إليه فأنا كذلك فلهحق بمكة كافر أثم أسلم يوم الفتح وقيل مات  
على كفره وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لما نزلت  
هذه الآية قال عمر رضى الله عنه فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم هكذا نزل يا عمر وكان رضى الله عنه يفتخر بذلك ويقول  
وافقت ربى فى أربع الصلاة خلف المقام وضرب الحجاب على النسوة وقولى  
لهن أو ليبدله الله خيرا منكن فنزل قوله تعالى (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله)  
الآية والرابع فتبارك الله أحسن الخالقين أنظر كيف وقعت هذه الواقعة سببا  
لسعادة عمر رضى الله عنه وشقاوة ابن أبى سرح حسبا قال تعالى (يضل به كثيرا  
ويهدى به كثيرا) لا يقال فقد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن وذلك قاذح  
فى إعجازه لما أن الخارج عن قدرة البشر ما كان مقدار أقصر السور على أن إعجاز  
هذه الآية الكريمة منوط بما قبلها كما تعرب عنه الفاء فإنها اعتراض تذييلي مقرر  
لمضمون ما قبله ﴿ ثم إنكم بعد ذلك ﴾ أى بعد ما ذكر من الأمور العجيبة  
حسبا ينبى عنه ما فى اسم الإشارة من معنى البعد المشعر بعلو رتبة المشار إليه

وبعد منزلته في الفضل والكمال وكونه بذلك ممتازا منزلا منزلة الأمور الحسية ﴿لميتون﴾ لصارتون إلى الموت لا محالة كما تؤذن به صيغة النعت الدالة على الثبوت دون الحدوث الذي تفيد صيغة الفاعل وقد قرىء ﴿لما تتون﴾ ثم إنكم يوم القيامة ﴿أى عند النفخة الثانية﴾ تبعثون ﴿من قبوركم للحساب والمجازاة بالثواب والعقاب﴾ .

﴿ولقد خلقنا فوقكم﴾ بيان لخلق ما يحتاج إليه بقاؤهم إثر بيان خلقهم أى خلقنا في جهة العلو من غير اعتبار فوقيتها لهم لأن تلك النسبة إنما تعرض لها بعد خلقهم ﴿سبع طرائق﴾ هي السموات السبع سميت بها لأنها طوارق بعضها فوق بعض مطارقة النعل فإن كل ما فوقه مثله فهو طريقة أو لأنها طرائق الملائكة أو الكواكب فيها مسيرها ﴿وما كنا عن الخلق﴾ عن ذلك المخلوق الذي هو السموات أو عن جميع المخلوقات التي هي من جملتها أو عن الناس ﴿غافلين﴾ مهملين أمرها بل نحفظها عن الزوال والاختلال وندير أمرها حتى تبلغ منتهى ما قدر لها من الكمال حسبما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة ويصل إلى ما في الأرض منافعها كما يفيء عنه قوله تعالى ﴿وأنزلنا من السماء ماء﴾ هو المطر أو الأنهار النازلة من الجنة قيل هي خمسة أنهار سيحون نهر الهند وجيحون نهر بلخ ودجلة والفرات نهر العراق والنيل نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة فاستودعها الجبال وأجراها في الأرض وجعل فيها منافع للناس في فنون معاشهم ومن ابتدائية متعلقة بأنزلنا وتقديما على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر والعدول عن الإضمار لأن الإنزال لا يعتبر فيه عنوان كونها طرائق بل مجرد كونها جهة العلو ﴿بقدر﴾ بتقدير لا تائق لاستجلاب منافعهم ودفع مضارهم<sup>(١)</sup> أو بمقدار ما علينا من حاجاتهم ومصالحهم ﴿فأسكنناه في الأرض﴾ أى جعلناه ثابتا قارا فيها ﴿ولما على ذهاب به﴾ أى إزاتته بالإفساد أو التمهيد أو التغيرير بحيث

(١) في ١٠ : لاستجلاب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم .

يتعذر استنباطه ﴿لقادرون﴾ كما كنا قادرين على إزاله وفي تنكير ذهاب  
إيماء إلى كثرة طرقه ومبالغة في الإبعاد به ولذلك جعل أبلغ من قوله تعالى (قل  
أرايتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتكم بماء معين) ﴿فأنشأنا لكم به﴾ أى  
بذلك الماء .

﴿جنات من نخيل وأعناب لكم فيها﴾ في الجنات ﴿فواكه كثيرة﴾  
تتفككون بها ﴿ومنها﴾ من الجنات ﴿تأكلون﴾ تغذيا أو ترزقون وتحصلون  
معاشكم من قولهم فلان يأكل من حرفته ويجوز أى يعود الضميران للنخيل  
والأعناب أى لكم في ثمراتها أنواع من الفواكه الرطب والعنب والتمر والزبيب  
والعصير والدبس وغير ذلك وطعام تأكلونه ﴿وشجرة﴾ بالنصب عطف على  
جنات وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف دل عليه ما قبله أى وما أنشأ  
لكم به شجرة وتخصيصها بالذكر من بين سائر الأشجار لاستقلالها بمنافع  
معروفة قيل هى أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقوله تعالى ﴿تخرج من طور  
سيناء﴾ وهو جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة وقيل بفلسطين ويقال له  
طور سينين فإما أن يكون الطور اسم الجبل وسيناء اسم البقعة أضيف إليها أو  
الركب منها علم له كأمري القيس ومنع صرفه على قراءة من كسر السين للتعريف  
والعجمة أو التأنيث على تأويل البقعة لا للآلف لأنه فيعال كديعاس من السناء  
بالمدة وهو الرفعة أو بالقصر وهو النور أو ملحق بفعال كلباء من السين إذ لا  
فعلاء بالآلف التأنيث بخلاف سيناء فإنه فيعال ككيسان أو فعلاء كصحراء إذ  
لافعال في كلامهم وقرىء بالكسر والقصر والجملة صفة لشجرة وتخصيصها  
بالخروج منه مع خروجها من سائر البقاع أيضا لتعظيمها ولأنه المنشأ الأصلي  
لها وقوله تعالى ﴿تثبت بالدهن﴾ صفة أخرى لشجرة والياء متعلقة بمحذوف  
وقع حالا منها أى تثبت ملتبسة به ويجوز كونها صلة معدية أى تثبت بمعنى  
تتضمنه وتحصله فإن النبات حقيقة صفة للشجرة ولا للدهن وقرىء تثبت من  
الإفعال وهو إما من الإنبات بمعنى النبات كما في قول زهير :  
رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم قطينا لهم حتى إذا أنبت البقل



أو على تقدير تنبت زيتونها ملتبسا بالدهن وقرىء على البناء للفعول وهو كالأول وتثمر بالدهن وتخرج بالدهن وتنبت بالدهان ﴿ وصبغ للآكلين ﴾ معطوف على الدهن جار على إعرابه عطف أحد وصفى الشيء على الآخر أى تنبت بالشئ الجامع بين كونه دهنا يدهن به ويسرج منه وكونه إداما يصبغ فيه الخبز أى يغمس فيه للائتمام وقرىء وصباغ كدباغ فى دىغ .

﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة ﴾ بيان النعم الفائضة عليهم من جهة الحيوان إثر بيان النعم الواصلة إليهم من جهة الماء والنبات وقد بين أنها مع كونها فى نفسها نعمة يلتفتون بها على وجوه شتى عبرة لا بد من أن يعتبروا بها ويستدلوا بأحوالها على عظيم قدرة الله عز وجل وسابغ رحمته ويشكروه ولا يكفروه وخص هذا بالحيوان لما أن محل العبرة فيه أظهر مما فى النبات وقوله تعالى : ﴿ نسقيكم بما فى بطونها ﴾ تفصيل لما فيها من مواقع العبرة وما فى بطونها عبارة إما عن الألبان فمن تبعية وتبعية والمراد بالبطون الجوف أو عن العلف الذى يتكون منه اللبن فمن ابتدائية والبطون على حقيقتها وقرىء بفتح النون وبالتاء أى تسقيكم الأنعام ﴿ ولكم فيها منافع كثيرة ﴾ غير ما ذكر من أصوافها وأشعارها ﴿ ومنها تأكلون ﴾ فتتذفون بأعيانها كما تتذفون بما يحصل منها ﴿ وعليها ﴾ أى على الأنعام فإن الحمل عليها لا يقتضى الحمل على جميع أنواعها بل يتحقق بالحمل على البعض كالإبل ونحوها وقيل المراد هى الإبل خاصة لأنها هى المحمول عليها عندهم والمناسب للفلك فإنها سفائن البر قال ذو الرمة :

• سفينة بر تحت خدى زمامها •

فالضمير فيه كما فى قوله تعالى : ﴿ وبعولتهن أحق بردهن ﴾ وعلى الفلك يحملون ﴿ أى فى البر والبحر وفى الجمع بينها وبين الفلك فى إيقاع الحمل عليها مبالغة فى تحملها للحمل وهو الداعى إلى تأخير ذكر هذه المنفعة مع كونها من المنافع الحاصلة منها عن ذكر منفعة الآكل المتعلقة بعينها .

## إهمال الأمم السابقة للاعتبار

﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ﴾ شروع في بيان إهمال الأمم السابقة وتركهم النظر والاعتبار فيما عدد من النعم الفائتة للحصر وعدم تذكريهم بتذكير رسلكم وما حاق بهم لذلك من فتون العذاب تحذيرا للمخاطبين وتقديم قصة نوح عليه السلام على سائر القصص عما لا يخفى وجهه وفي إيرادها لآثر قوله تعالى (وعلى الفلك تحملون) من حسن الموقع مالا يوصف والواو ابتدائية واللام جواب قسم محذوف وتصدير القصة به لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها أى وبالله لقد أرسلنا نوحا الخ ونسبه الكريم وكيفية بعثه وكية لبثه فيما بينهم قد مر تفصيله في سورة الأعراف وسورة هود ﴿ فقال ﴾ متعظفا عليهم ومستميلا لهم إلى الحق ﴿ يا قوم اعبدوا الله ﴾ أى اعبدوه وحده كما يفصح عنه قوله تعالى في سورة هود (أن لا تعبدوا إلا الله) وترك التقييد به للإيذان بأنها هى العبادة فقط وأما العبادة بالإشراك فليست من العبادة فى شىء رأسا وقوله تعالى : ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ استئناف مسوق لتعليل العبادة المأمور بها أو لتعليل الأمر بها وغيره بالرفع صفة لاله باعتبار محله الذى هو الرفع على أنه فاعل أو مبتدأ خبره لكم أو محذوف ولكم للتخصيص والتبيين أى مالكم فى الوجود أو فى العالم إله غيره تعالى وقرىء بالجر باعتبار لفظه ﴿ أفلا تتقون أنفسكم عذابه الذى يستوجبه ما أتم عليه من ترك عبادته تعالى كما يفصح عنه قوله تعالى (إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وقوله تعالى (عذاب يوم أليم) وقيل أفلا تخافون أن ترفضوا عبادة الله الذى هو ربكم الخ وليس بذلك وقيل أفلا تخافون أن يزيل عنكم نعمه الخ وفيه ما فيه والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والفاء للمعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أتعرفون ذلك أى مضمون قوله تعالى (مالكم من إله غيره) فلا تتقون عذابه بسبب إشراككم به فى العبادة مالا يستحق الوجود لولا إيجاد الله تعالى إياه فضلا عن استحقاق العبادة فالمنكر عدم الاتقاء مع تحقق ما يوجبه أو ألا تلاحظون ذلك فلا تتقونه فالمنكر كلا الأمرين

فالمبالغة حينئذ في الكمية وفي الأول في الكيفية ﴿ فقال الملائكة ﴾ أى الأشراف ﴿ الذين كفروا من قومه ﴾ وصف الملائكة بما ذكر مع اشتراك الكل فيه للإيدان بكمال عراقتهم في الكفر وشدة شكيمتهم فيه أى قالوا لعوامهم ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم ﴾ أى في الجنس والوصف من غير فرق بينكم وبينه وصفوه عليه السلام بذلك مبالغة في وضع رتبته العالية وحطها عن منصب النبوة ﴿ يريد أن يتفضل عليكم ﴾ أى يريد أن يطلب الفضل عليكم ويتقدمكم بأداء الرسالة مع كونه مثلكم وصفوه بذلك لإغضابا للمخاطبين عليه عليه السلام وإغراء لهم على معاداته عليه السلام وقوله تعالى :

﴿ ولو شاء الله لآنزل ملائكة ﴾ بيان لعدم رسالة البشر على الإطلاق على زعمهم الفاسد بعد تحقيق بشريته عليه السلام أى لو شاء الله تعالى لإرسال الرسول لأرسل رسلا من الملائكة وإنما قيل لأنزل لأن إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال فمفعول المشيئة مطلق الإرسال المفهوم من الجواب لأنفس مضمونه كما في قوله تعالى (ولو شاء لهداكم) ونظائره ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ أى بمثل هذا الكلام الذى هو الأمر بعبادة الله خاصة وترك عبادة ما سواه وقيل بمثل نوح عليه السلام في دعوى النبوة ﴿ فى آياتنا الأولين ﴾ أى الماضين قبل بعثته عليه السلام قالوه إما لكونهم وآبائهم فى فترة متطاولة وإما لفرط غلوم فى التكذيب والعناد وانهما كهم فى النى والفساد وأياما كان فقوهم هذا ينبى أن يكون هو الصاد عنهم فى مبادئ دعوته عليه السلام كما تنبى عنه الفاء فى قوله تعالى (فقال الملائكة) الخ وقيل معناه ما سمعنا به عليه السلام أنه نبي فالمراد بآبائهم الأولين الذين مضوا قبلهم فى زمن نوح عليه السلام وقوهم المذكور هو الذى صدر عنهم فى أواخر أمره عليه السلام وهو المناسب لما بعده من حكاية دعائه عليه السلام وقوهم ﴿ إن هو ﴾ أى ما هو ﴿ إلا رجل به جنة ﴾ أى جنون أو جن يخيلونه ولذلك يقول ما يقول ﴿ فتربصوا به ﴾ أى احتملوه واصبروا عليه وانتظروا ﴿ حتى حين ﴾ لعله يفى بما فيه محمول حينئذ على ترمى أحوالهم فى المكابرة والعناد وإضرابهم عما وصفوه

عليه السلام به من البشرية وإرادة التفضل إلى وصفه عليه السلام بما ترى وهم يعرفون أنه عليه السلام أرجح الناس عقلاً وأرزنهم قولاً وعلى الأول على تناقض مقالاتهم الفاسدة قاتلهم الله أنى يؤفكون .

( قال ) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية كلام الكفرة كأنه قيل فإذا قال عليه السلام بعد ماسع منهم هذه الأباطيل فليل قال لما رآهم قد أصرروا على الكفر والتكذيب وتماحوا في الغواية والضلال حتى يش من إيمانهم بالكلية وقد أوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ( رب انصرنى ) ياهلاكهم بالمرّة فإنه حكاية إجمالية لقوله عليه السلام ( رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ) الخ ( بما كذبون ) أى بسبب تكذيبهم لىأى أو بدل تكذيبهم ( فأوحينا إليه ) عند ذلك ( أن اصنع الفلك ) أن مفسرة لما فى الوحى من معنى القول ( بأعيننا ) ملتبساً بحفظنا وكلاءنا كأن معه عليه السلام منه عز وعلا حفاظاً وحراساً يكلّونه بأعينهم من التعدى أو من الزيغ فى الصنعة ( ووحينا ) وأمرنا وتعليمنا لكيفية صنعها والفاء فى قوله تعالى ( فإذا جاء أمرنا ) لترتيب مضمون ما بعدها على تمام صنع الفلك والمراد بالأمر العذاب كما فى قوله تعالى ( لا عاصم اليوم من أمر الله ) لا الأمر بالركوب كما قيل وبمجيئه كمال اقترابه أو ابتداء ظهوره أى إذا جاء لآثر تمام الفلك عذابنا وقوله تعالى ( وفار التنور ) عطف بيان لمجيء الأمر روى أنه قيل له عليه السلام إذا فار الماء من التنور أركب أنت ومن معك وكان تنور آدم عليه السلام فصار إلى نوح عليه السلام فلما نبع منه الماء أخبرته امرأته فركبوا واختلف فى مكانه فقيل كان فى مسجد الكوفة أى فى موضعه عن يمين الداخل من باب كندة اليوم وقيل كان فى عين وردة من الشام وقد مر تفصيله فى تفسير سورة هود عليه السلام ( فاسلك فيها ) أى أدخل فيها يقال سلك فيه أى دخل فيه وسلكه فيه أى أدخله فيه ومنه قوله تعالى ( ما سلككم فى سقر ) ( من كل ) أى من كل أمة ( زوجين ) أى فردين مزدوجين كما يعرب عنه قوله تعالى ( اثنين ) فإنه نص فى الفردين دون الجمع أو الفريقين وقرئ بالإضافة على أن المفعول

اثنين أى من كل أمتى زوجين وهما أمة الذكر وأمة الأنثى كالجمال والنوق والحصن والرمك وهذا صريح فى أن الأمر كان قبل صنعه الفلك وفى سورة هود (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين) فالوجه أن يحمل إما على أنه حكاية لأمر آخر تنجيزى ورد عند فوران التنور الذى ينط به الأمر التعليق اعتناء بشأن المأمور به أو على أن ذلك هو الأمر السابق بعينه لمكن لما كان الأمر التعليق قبل تحقق المعلق به فى حق إيجاب المأمور به بمنزلة العدم جعل كأنه إنما حدث عند تحققه فحكى على صورة التنجيز وقد مر فى تفسير قوله تعالى (وإذ قلنا للبلائكة اسجدوا لآدم) .

(وأهلك) منصوب بفعل معطوف على فاسلك لا بالعطف على زوجين أو اثنين على القراءتين لأدائه إلى اختلال المعنى أى واسلك أهلك والمراد به أمراته وبنوه وتأخير الأمر بإدخالهم عما ذكر من إدخال الأزواج فيها لكونه عريقا فيما أمر به من الإدخال فإنه يحتاج إلى موازنة الأعمال منه عليه السلام بل إلى معاونة من أهله وأتباعه وأمام فإنما يدخلونها باختيارهم بعد ذلك ولأن فى المؤخر ضرب تفصيل بذكر الاستثناء وغيره فتقديمه يؤدى إلى الإخلال بتجاوب أطراف النظم الكريم (إلا من سبق عليه القول منهم) أى القول بإهلاك الكفرة وإنما جرى على لكون السابق ضارا كما جرى باللام فى قوله تعالى (إن الذين سبقتم من الحسن) لكونه نافعا (ولا تخاطبني فى الذين ظلموا) بالدعاء لإنجائهم (إنهم مفرقون) تعليل للنهى أو لما ينبى عنه من عدم قبول الدعاء أى إنهم مقضى عليهم بالإغراق لا بحالة لظلمهم بالإشراك وسائر المعاصى ومن هذا شأنه لا يشفع له ولا يشفع فيه كيف لا وقد أمر بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله تعالى (فإذا استويت أنت ومن معك) أى من أهلك وأشياحك (على الفلك فقل الحمد لله الذى نجاننا من القوم الظالمين) على طريقة قوله تعالى (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) (وقل رب أنزلنى) فى السفينة أو منها (منزلا مباركا) أى أنزلا أو موضع أنزال يستتبع خيرا كثيرا وقرىء منزلا أى موضع نزول (وأنت خير المنزلين)

أمر عليه السلام بأن يشفع دعاءه بما يطابقه من ثنائه عز وجل توسلا به إلى الإجابة وإفراده عليه السلام بالأمر مع شركة الكل في الاستواء والنجاة لإظهار فضله عليه السلام والإشعار بأن في دعائه وثنائه مندوحة عما عداه .

(إن في ذلك) الذي ذكر مما فعل به عليه السلام وبقومه (آيات) جليلة يستدل بها أولو الأبصار ويعتبر بها ذوو الاعتبار (وإن كنا لمبتلين) لأن مغفلة من أن واللام فارقة بينها وبين النافية وضمير الشأن محذوف أى وإن الشأن كذا مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويتذكر كقوله تعالى (ولقد تركناها آية فهل من مدكر) (ثم أنشأنا من بعدهم) أى من إهلاكم (قرنا آخرين) هم عاد حسبما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وعليه أكثر المفسرين وهو الأوفق لما هو المعمود في سائر السور الكريمة من إيراد قصتهم لإثر قصة قوم نوح وقيل هم ثمود (فأرسلنا فيهم) جعلوا موضعا للإرسال كما في قوله تعالى (كذلك أرسلناك في أمة) ونحوه لا غاية له كما في مثل قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه) للإيذان من أول الأمر بأن من أرسل إليهم لم يأتهم من غير مكانهم بل إنما نشأ فيما بين أظهرهم كما ينبى عنه قوله تعالى : (رسولا منهم) أى من جملتهم نسباً فإنهما عليهما السلام كانا منهم وأن في قوله تعالى (أن اعبدوا الله) مفسرة لأرسلنا لتضمنه معنى القول أى قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله تعالى وقوله تعالى (ما لكم من إله غيره) تعليل للعبادة المأمور بها أو للأمر بها أولو جوب الامتثال به (أفلا تتقون) أى عذابه الذى يستدعيه ما أتم عليه من الشرك والمعاصي والكلام فى العطف كالذى مر فى قصة نوح عليه السلام .

(وقال الملائكة من قومه) حكاية لقولهم الباطل لإثر حكاية القول الحق الذى ينطق به حكاية إرسال الرسول بطريق العطف على أن المراد حكاية مطلق تسكديهم له عليه السلام إجمالا لا حكاية ما جرى بينه عليه السلام وبينهم من المحاوراة والمقابلة تفصيلا حتى يحكى بطريق الاستئناف المبني على السؤال

كما ينبى عنه ما سياتى من حكاية سائر الأمم أى وقال الأشراف من قومه ﴿الذين كفروا﴾ فى محل الرفع على أنه صفة للبلأ وصفوا بذلك ذما لهم وتنبىها على غلوم فى الكفر وتأخيرهم عن من قومه لعطف قوله تعالى ﴿وكذبوا بقاء الآخرة﴾ وما عطف عليه على الصلة الأولى أى كذبوا بقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب أو بمعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث ﴿وأترفاهم﴾ ونعمناهم ﴿فى الحياة الدنيا﴾ بكثرة الأموال والأولاد أى قالوا لأعقابهم مضلين لهم ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾ أى فى الصفات والأحوال ولا يثار مثلكم على مثلنا للبالغة فى تهوين أمره عليه السلام وتوهينه ﴿يا كل مما نأكلون منه ويشرب مما تشربون﴾ تقرير للمعائلة وما خبرية والعائد إلى الثانى منصوب محذوف أو مجرور وقد حذف مع الجار لدلالة ما قبله عليه ﴿ولئن أطعتم بشرا مثلكم﴾ أى فيما ذكر من الأحوال والصفات أى إن امتثلتم بأوامره ﴿إنكم إذا﴾ أى على تقدير الاتباع ﴿لخاسرون﴾ عقوبتهم ومغبونون فى آرائهم حيث أذلتهم أنفسهم أى أنظر كيف جعلوا أتباع الرسول الحق الذى يوصلهم إلى سعادة الدارين خسرا دون عبادة الأصنام التى لا خسران وراءها حقائهم الله أنى يؤفكون وإذا واقع بين اسم إن وخبرها لتأكيد مضمون الشرط والجملة جواب لقسم محذوف قبل إن الشرطية المصدرة باللام الموطئة أى وبالله لئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون ﴿أيعدكم﴾ استئناف مسوق لتقرير ما قبله من اتباعه عليه السلام بإنكار وقوع ما يدعونه إلى الإيمان واستبعاده ﴿أنكم إذا متم﴾ بكسر الميم من مات يمات وقرىء بضمها من مات يموت ﴿وكنتم ترابا وعظاما﴾ نخرة مجردة عن اللحوم والأعصاب<sup>(١)</sup> أى كان بعض أجزائكم من اللحم ونظائره ترابا وبعضها عظاما وتقديم التراب لعراقته فى الاستبعاد وانقلابه من الأجزاء البادية أو كان متقدموكم ترابا صرفا ومتأخروكم عظاما وقوله تعالى ﴿أنكم﴾ تأكيد للآول لطول الفصل بينه

وبين خبره الذى هو قوله تعالى ﴿مخرجون﴾ أى من القبور أحياء كما كنتم وقيل أنكم مخرجون مبتدأ وإذا متم خبره على معنى إخراجكم إذا متم ثم أخبر بالجملة على أنكم وقيل رفع أنكم مخرجون بفعل هو جزاء الشرط كأنه قيل إذا متم وقع إخراجكم ثم أوقعت الجملة الشرطية خبراً عن أنكم والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم هو الأول وقرئ أيعدكم إذا متم الخ

﴿هيات هيات﴾ تكرير لتأكيد البعد أى بعد الوقوع أو الصحة ﴿لما توعدون﴾ وقيل اللام لبيان المستبعد ما هو كما فى هيت لك كأنهم لما صرتوا بكلمة الاستبعاد قيل لما هذا الاستبعاد ف قيل لما توعدون وقيل هيات بمعنى البعد وهو مبتدأ خبره لما توعدون وقرئ بالفتح منونا للتكثير وبالضم منونا على أنه جمع هية وغير منون تشبيهاً بقبل وبالكسر على الوجهين وبالسكون على لفظ الوقف وإبدال التاء هاء ﴿إن هى إلا حياتنا الدنيا﴾ أصله إن الحياة إلا حياتنا فأقيم الضمير مقام الأولى لدلالة الثانية عليها حذراً من التكرار وإشعاراً بإغنائها عن التصريح كما فى هى النفس تتحمل ما حملت وهى العرب تقول ما شئت وحيث كان الضمير بمعنى الحياة لدلالة على الجنس كانت إن النافية بمنزلة لا النافية للجنس وقوله تعالى ﴿نموت ونحيا﴾ جملة مفسرة لما ادعوه من أن الحياة هى الحياة الدنيا أى يموت بعضنا أو يولد بعض إلى انقراض العصر ﴿وما نحن بمبعوثين﴾ بعد الموت ﴿إن هو﴾ أى ما هو ﴿إلا رجل افترى على الله كذباً﴾ فيما يدعيه من إرساله وفيما يعدنا من أن الله يبعثنا ﴿وما نحن له بمؤمنين﴾ بمصدقين فيما يقوله ﴿قال﴾ أى هود عليه السلام عند يأسه من إيمانهم بعد ما سلك فى دعوتهم كل مسلك منصرفاً إلى الله عز وجل ﴿رب انصرنى﴾ وانتقم لى منهم ﴿بما كذبون﴾ أى بسبب تكذيبهم لإياى وإصرارهم عليه

﴿قال﴾ تعالى إجابته لدعائه وعدة بالقبول ﴿عما قليل﴾ أى عن زمان قليل وما مزيدة بين الجار والمجرور لتأكيد معنى القلة كما زيدت فى قوله تعالى ﴿فما رحمة من الله﴾ أو نكرة موصوفة أى عن شيء قليل ﴿ليصبحن نادمين﴾



على ما فعلوه من التكذيب وذلك عند معاينتهم للذاب ( فأخذتهم الصيحة )  
لعلهم حين أصابتهم الريح العقيم أصدبوا في تضاعيفها بصيحة هائلة أيضا وقد  
روى أن شداد بن عاد حين تم بناء إرم سار إليها بأهله فلما دنا منها بعث الله عليهم  
صيحة من السماء فهلكوا وقيل الصيحة نفس العذاب والموت وقيل هي العذاب  
المصطم قال قائلهم :

صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدها على الأذقان  
( بالحق ) متعلق بالأخذ أى بالأمر الثابت الذى لا دفاع له أو بالعدل من  
الله تعالى أو بالوعد الصدق ( فجعلناهم غناء ) أى كغناء السيل وهو حميله  
( فبعداً للقوم الظالمين ) لإخبار أو دعاء وبعداً من المصادر التى لا يكاد  
يستعمل ناصبها والمعنى بعدوا أى هلكوا واللام لبيان من قيل له بعداً  
ووضع الظاهر موضع الضمير للتعليل ( ثم أنشأنا من بعدهم ) أى بعد هلاكهم  
( قرونا آخرين ) هم قوم صالح ولوط وشعيب عليهم السلام وغيرهم  
( ما تسبق من أمة أجلها ) أى ما تتقدم أمة من الأمم المهلكة الوقت الذى  
عين هلاكهم أى ما تهلك أمة قبل مجئ أجلها ( وما يستأخرون ) ذلك لأجل  
بساعة وقوله تعالى :

( ثم أرسلنا رسلنا ) عطف على أنشأنا لكن لا على معنى أن إرسالهم  
متراخ عن إنشاء القرون المذكورة جميعاً بل على معنى أن إرسال كل رسول  
متأخر عن إنشاء قرن مخصوص بذلك الرسول كأنه قيل ثم أنشأنا من بعدهم  
قرونا آخرين قد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولا خاصا به والفصل بين  
المعطوفين بالجملة المعترضة الناطقة بعدم تقدم الأمم أجلها المضروب هلاكهم  
للسارعة إلى بيان هلاكهم على وجه إجمالى ( تترى ) أى متواترين واحدا  
بعد واحد من الوتر وهو الفرد والتاء بدل من الواو كما فى تولج وينقوا  
والآلف للتأنيث باعتبار أن الرسل جماعة وقرىء بالتنوين على أنه مصدر  
بمعنى الفاعل وقع حالا وقوله تعالى ( كلما جاء أمة رسولها كذبوه ) استئناف  
مبين لمجئ كل رسول لأمرته ولما صدر عنهم عند تبليغ الرسالة والمراد بالمجئ

لما التبليغ وإما حقيقة المجيء للإيمان بأنهم كذبوه في أول الملاقاة وإضافة الرسول إلى الأمة مع إضافة كلهم فيما سبق إلى نون العظمة لتحقيق أن كل رسول جاء أمته الخاصة به لا أن كلهم جاءوا كل الأمم والإشعار بكل شناعتهم وضلالهم حيث كذبت كل واحدة منهم رسولها المعين لها وقيل لأن الإرسال لا تقبل بالمرسل والمجيء بالمرسل إليهم (فأتبعنا بعضهم بعضاً) في الهلاك حسبما تبع بعضهم بعضاً في مباشرة أسبابه التي هي الكفر والتكذيب وسائر المعاصي (وجعلناهم أحاديث) لم يبق منهم إلا حكايات يعتبر بها المعتبرون وهو اسم جمع للحديث أو جمع أحداثه وهي ما يتحدث به تلميذاً كعاجيب جمع أعجوبة وهي ما يتعجب منه أي جعلناهم أحاديث يتحدث بها تلميذاً وتعجباً (فبعداً لقوم لا يؤمنون) اقتصر ههنا على وصفهم بعدم الإيمان حسبما اقتصر على حكاية تكذيبهم إجمالاً وأما القرون الأولون فحيث نقل عنهم ما مر من الغلو وتجاوز الحد في الكفر والعدوان وصفوا بالظلم.

(ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا) هي الآيات التسع من اليد والعصا والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والطاعون والامساخ لعد فلق البحر منها إذ المراد هي الآيات التي كذبوها واستكبروا عنها (وسلطان مبين) أي حجة واضحة ملزمة للخصم وهي إما العصا وإفرادها بالذكر مع اندراجها في الآيات لما أنها أم آياته عليه الصلاة والسلام وأولاهما وقد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها نعباناً وتلقفها لما أفكته السحرة حسبما فصل في تفسير سورة طه وأما التعرض لانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها وحراستها وصيرورتها شجرة خضراء مثمرة ودلوها ورشاً وغير ذلك مما ظهر منها من قبل ومن بعد في غير مشهد فرعون وقومه فغير ملائم لمقتضى المقام وإما نفس الآيات كقوله إلى الملك القرم وابن الهمام الخ عبر عنها

بذلك على طريقة العطف تليها على جمعها لعنوانين جليلين وتنزيلا لتغايرهما منزلة التغاير الذاتى .

(إلى فرعون وملئه) أى أشراف قومه خصوا بالذكر لأن إرسال بنى إسرائيل منوط بأرائهم لا بأراء أعقابهم (فاستكبروا) عن الانقياد وتمردوا (وكانوا قوما عالين) متكبرين متمردين (فقالوا) عطف على استكبروا وما بينهما اعتراض مقرر للاستكبار أى كانوا قوما عادتهم الاستكبار والتمرد أى قالوا فيما بينهم بطريق المناصحة (أؤمن لبشرين مثلنا) نئى البشر لأنه يطلق على الجمع كما فى قوله تعالى (فأما ترين من البشر أحدا) ولم يثن المثل نظرا إلى كونه فى حكم المصدر وهذه القصص كما ترى تدل على أن مدار شبه المنكرين للنبوة قياس حال الأنبياء على أحوالهم بناء على جهلهم بتفاصيل شؤون الحقيقة البشرية وتباين طبقات أفرادها فى مراتب السكال وماوى نقصان بحيث يكون بعضها فى أعلى عليين وهم المختصون بالنفوس الزكية المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون لصفاء جواهرهم بكلا العالمين الروحانى والجسمانى يتلقون من جانب ويلقون من جانب ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل إلى جانب الحق وبعضها فى أسفل سافلين كأولئك الجبهة الذين هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا (وقومهما) يعنون بنى إسرائيل (لنا عابدون) أى خادمون منقادون لنا كالعبيد وكانهم قصدوا بذلك التعريض بشأنهما عليهما الصلاة والسلام وحط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية واللام فى لنا متعلقة بعابدون وقدمت عليه رعاية للفواصل والجملة حال من فاعل تؤمن مؤكدة لإنكار الإيمان لهما بناء على زعمهم الفاسد المؤسس على قياس الرياسة الدينية على الرياسات الدنيوية الدائرة على التقدم فى نيل الحظوظ الدنية من المال والجاه كدأب قريش حيث قالوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وجهلهم بأن مناط الاصطفاء للرسالة هو السبق فى حيازة ما ذكر من النعوت العلية وإحراز الملكات السنية جملة واكتسابا

(فكذبوهما) أى فتموا على تكذيبهما وأصروا واستكبروا استكباراً  
(فكانوا من المهلكين) بالفرق في بحر قلزم .

(ولقد آتينا) أى بعد إهلاكهم وإنجاء بنى إسرائيل من ملكتهم  
(موسى الكتاب) أى التوراة وحيث كان إيتاؤه عليه الصلاة والسلام إليها  
الإرشاد قومه إلى الحق كما هو شأن الكتب الإلهية جعلوا كأنهم أوتوها فقل  
(لعلهم يتدنون) أى إلى طريق الحق بالعمل بما فيها من الشرائع والأحكام  
وقيل أريد آتينا قوم موسى لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه كما في قوله  
تعالى (على خوف من فرعون وملئهم) أى من آل فرعون وملئهم ولا سبيل إلى  
عود الضمير إلى فرعون وقومه لظهور أن التوراة إنما نزلت بعد إغراقهم لبنى  
إسرائيل وأما الاستشهاد على ذلك بقوله (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد  
ما أهلكنا القرون الأولى) فما لا سبيل إليه ضرورة أن ليس المراد بالقرون  
الأولى ما يتناول قوم فرعون بل من كان [قبلهم]<sup>(١)</sup> من الأمم المهلكة خاصة  
كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط كما سيأتى في سورة القصص  
(وجعلنا ابن مريم وأمه آية) وآية آية دالة على عظيم قدرتنا بولادته منها من  
غير مسيس بشر فالآية أمر واحد نسب إليهما أو جعلنا ابن مريم آية بأن تكلم  
بني المهد فظهرت منه معجزات جمّة وأمه آية بأنها ولدت من غير مسيس فعذفت  
الأولى لدلالة الثانية عليها والتعبير عنهما بما ذكر من العناوين وهما كونه عليه  
الصلاة والسلام ابنها وكونها أمه عليه الصلاة والسلام للإيذان من أول الأمر  
بحيثية كونهما آية فإن نسبته عليه الصلاة والسلام إليها مع أن النسب إلى الآباء  
دالة على أن لا أب له أى جعلنا ابن مريم وحدها من غير أن يكون له أب وأمّه  
التي ولدته خاصة من غير مشاركة الأب آية وتقديمه عليه الصلاة والسلام  
لأصالته فيما ذكر من كونه آية كما أن تقديم أمه في قوله تعالى (وجعلناها وابنها  
آية للعالمين) لأصالتها فيما نسب إليها من الإحسان والنفخ .

﴿وآويناها إلى ربوة﴾ أى أرض مرتفعة قيل هى إيليا أرض يدت المقدس فإنها مرتفعة وأنها كبد الأرض وأقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا على ما يروى عن كعب وقيل دمشق وغولتها وقيل فلسطين والرمة وقيل مصر فإن قراها على الربا وقرى بكسر الراء وضمها وربوة بالكسر والعجم ﴿ذات قرار﴾ مستقر من أرض منبسطة سهلة يستقر عليها ساكنوها وقيل ذات ثمار وزروع لأجلها يستقر فيها ساكنوها ﴿ومعين﴾ أى وماء معين ظاهر جار فعيل من معن الماء إذا جرى وأصله الأبعاد فى المشى أو من الماعون وهو النفع لأنه نفاع أو مفعول من عانه إذا أدركه بالعين فإنه لظهوره يدرك بالعيون وصف ماؤها بذلك للإيدان بكونه جامعا لفنون المنافع من الشرب وسقى ما يسقى من الحيوان والنبات بغير كلفة والتزده بمنظره الموق ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات﴾ حكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه الإجمال لما خاطب به كل رسول فى عصره جىء بها لإثـر حكاية لإيواء عيسى عليه السلام وأمه إلى الربوة لإيداننا بأن ترتيب مبادئ التـنعم لم يكن من خصائصه عليه السلام بل لإباحة الطيبات شرع قديم جرى عليه جميع الرسل عليهم السلام ووصفوا به أى وقلنا لكل رسول كل من الطيبات وأعمل صالحا فغير عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرسـل بصيغة الجمع عند الحكاية لإجمالاً للإيجاز وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهابنة من رفض الطيبات ما لا يخفى وقيل حكاية لما ذكر لعيسى عليه السلام وأمه عند إيوائهما إلى الربوة ليقنتـدا بالرسـل فى تناول ما رزقا وقيل نداء وخـطاب له والجمع للتعظيم وعن الحسن وبجاهد وقتادة والسدى والكـلبى رحمهم الله تعالى أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده على دأب العرب فى مخاطبة الواحد بلفظ الجمع وفيه إبانة لفضله وقيامه مقام الملك فى حيازة كمالاتهم والطيبات ما يستطاب ويستلذ من مباحات المأكـل والفواكه حسبما ينبـو عنه سياق النظم الكريم فالأمر للترفيه ﴿واعملوا صالحا﴾ أى عملا صالحا فإنه المقصود منكم والمنافع عند ربكم ﴿لأنى بما تعملون﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة ﴿عليهم﴾ فأجازيكم عليه .

﴿ وإن هذه ﴾ استئناف داخل فيما خوطب به الرسل عليهم السلام على الوجه المذكور مسوق لبيان أن ملة الإسلام والتوحيد بما أمر به كافة الرسل عليهم السلام والأمم وإنما أشير إليها بهذه للتنبيه على كمال ظهور أمرها في الصحة والسداد وانتظامها بسبب ذلك في سلك الأمور المشاهدة ﴿ أمتكم ﴾ أى ملتكم وشريعتكم أيها الرسل ﴿ أمة واحدة ﴾ أى ملة وشريعة متحدة في أصول الشرائع التى لا تبدل بتبديل الأعصار وقيل هذه إشارة إلى الأمم المؤمنة للرسل ، والمعنى إن هذه جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد في العبادة ﴿ وأنا ربكم ﴾ من غير أن يكون لى شريك فى الربوبية وضمير المخاطب فيه وفى قوله تعالى <sup>(١)</sup> ﴿ فاتقون ﴾ أى فى شق العصا والمخالفة بالإخلال بمواجب ما ذكر من اختصاص الربوبية بى للرسل والأمم جميعا على أن الأمر فى حق الرسل للتبليغ والإلهاب وفى حق الأمم للتحذير والإيجاب والفاء لترتيب الأمر أو وجوب الامتثال به على ما قبله من اختصاص الربوبية به تعالى واتحاد الأمة فإن كلا منهما موجب للاتقاء حتما وقرئ وأن هذه بفتح الهمزة على حذف اللام أى ولأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون أى إن تتقون فاتقون كما مر فى قوله تعالى ( وإياى فارهبون ) وقيل على العطف على ما ، أى إني أعلم بأن أمتكم أمة الخ وقيل على حذف فعل عامل فيه أى واعلموا أن هذه أمتكم الخ وقرئ وأن هذه على أنها مخففة من أو ﴿ فتقطعوا أمرهم ﴾ حكاية لما ظهر من أمم الرسل بعدهم من مخالفة الأمر وشق العصا والضمير لما دل عليه الأمة من أربابها أو لها على التفسيرين والفاء لترتيب عصيانهم على الأمر لزيادة تقييح حالهم أى تقطعوا أمر دينهم مع اتحادهم وجعلوه قطعا متفرقة وأديانا مختلفة ﴿ بينهم زبرا ﴾ أى قطعا جمع زبور بمعنى الفرقة ويؤيده قراءة زبرا بفتح الباء جمع زبرة وهو حال من أمرهم أو من واو تقطعوا أو مفعول ثان له فإنه متضمن لمعنى جعلوا وقيل كتبوا فيكون مفعولا ثانيا أو حالا من أمرهم على

تقدير المضاف أى مثل زبر وقرىء بتخفيف الباء كرسل فى رسل ﴿كل حزب﴾ من أولئك المتحزبين ﴿بما لديهم﴾ من الدين الذى اختاروه ﴿فرحون﴾ معجبون معتقدون أنه الحق .

﴿فذرهم فى غمرتهم﴾ شبه ما هم فيه من الجهالة بالماء الذى يغمر القامة لأنهم مغمورون فيها لا عبون بها وقرىء غمراتهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والفاء لترتيب الأمر بالترك على ما قبله من كونهم فرحين بما لديهم فإن انهماكهم فيما هم فيه وإصرارهم عليه من متخايل كونهم مطبوعا على قلوبهم أى اتركهم على حالهم ﴿حتى حين﴾ هو حين قتلهم أو موتهم على الكفر أو عذابهم فهو وعيد لهم بعذاب الدنيا والآخرة وتسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى له عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيرهم وفى التنكير والإبهام ما لا يخفى من التحويل ﴿أيحسبون أنما نمدمهم به﴾ أى نعطيهم إياه ونجعله مددا لهم فما موصولة وقوله تعالى ﴿من مال وبنين﴾ بيان لها وتقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه قدم وجهه فى سورة الكهف لا خبر لأن وإنما الخبر قوله تعالى ﴿يسارع لهم فى الخيرات﴾ على حذف الراجع إلى الاسم أى أيحسبون أن الذى نمدمهم به من المال والبنين يسارع به لهم فيما فيه خيرهم ولا كرامهم على أن الهمة لإنكار الواقع واستقباحه وقوله تعالى ﴿بل لا يشعرون﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى كلا لا نفعل ذلك بل هم لا يشعرون بشئ أصلا كالبهائم لا فطنة لهم ولا شعور ليتأملوا ويعرفوا أن ذلك الإمداد استدراج لهم [ واستجرار ]<sup>(١)</sup> إلى زيادة الإثم وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات وقرىء يمدمهم على الغيبة وكذلك يسارع ويسرع ويحتمل أن يكون فيها ضمير الممد به وقرىء يسارع مبنيا للفعول .

﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ استئناف مسوق لبيان من له

المسارعة في الخيرات إثر اقنات الكفار عنها وإبطال حسابهم الكاذب أى من خوف عذابه حذرون ﴿والذين هم بآيات ربهم﴾ المنصوبة والمنزلة ﴿يؤمنون﴾ بتصدق مدلولها ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ شركا جليا ولا خفيا ولذلك أخر عن الإيمان بالآيات والتعرض لعنوان الربوبية في المواقع الثلاثة للإشعار بعلميتها للإشفاق والإيمان وعدم الإشراك ﴿والذين يؤتون ما آتوا﴾ أى يعطون ما أعطوه من الصدقات وقرىء يأتون ما أتوا أى يفعلون ما فعلوه من الطاعات وأياما كان فصيغة الماضى في الصلة الثانية للدلالة على التحقق كما أن صيغة المضارع في الأولى للدلالة عن الاستمرار ﴿وقلوبهم وجلة﴾ حال من فاعل يؤتون أو يأتون أى يؤتون ما آتوه أو يفعلون من العبادات ما فعلوه والحال أن قلوبهم خائفة أشد الخوف ﴿أنهم إلى ربهم راجعون﴾ أى من أن رجوعهم إليه عز وجل على أن مناط الوجل ألا يقبل منهم ذلك ولا يقع على الوجه اللائق فيؤاخذوا به حيثئذ لا مجرد رجوعهم إليه تعالى وقيل لأن مرجعهم إليه تعالى والموصولات الأربعة عبارة عن طائفة واحدة متصفة بما ذكر في حين صلاتها من الأوصاف الأربعة لا عن طوائف كل واحدة منها متصفة بواحد من الأوصاف المذكورة كأنه قيل (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) و﴿آيات ربهم يؤمنون﴾ الخ وإنما كرر الموصول إيذانا باستقلال كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حياها وتنزيلا لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بها وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد رتبهم في الفضل أى أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة خاصة دون غيرهم ﴿يسارعون في الخيرات﴾ أى في نيل الخيرات التي من جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة كما في قوله تعالى ﴿فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾ وقوله تعالى ﴿وآتيناهم أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ فقد أثبت لهم ما نقي عن أضدادهم خلا أنه غير الأسلوب حيث لم يقل أولئك نسارع لهم في الخيرات بل أسند المسارعة إليهم لإيماء إلى كمال



استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم وإيثار كلمة في على كلمة إلى للإيذان بأنهم متقبلون في فنون الخيرات لا أنهم خارجون عنها متوجون إليها بطريق المسارعة كما في قوله تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة) الآية (وهم لها سابقون) أى إياها سابقون واللام لتقوية العمل كما في قوله تعالى (هم لها عاملون) أى ينالونها قبل الآخرة حيث عجّلت لهم في الدنيا وقبل المراد بالخيرات الطاعات والمعنى يرغبون في الطاعات والعبادات أشد الرغبة وهم لأجلها فاعلمون السبق أو لأجلها سابقون الناس والأول هو الأولى .

(ولا نكلف نفسا إلا وسعها) جملة مستأنفة سيقت للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدى إلى نيل الخيرات ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة أى عادتنا جارية على أن لا نكلف نفسا من النفوس إلا ما في وسعها على أن المراد استمرار النفي بمعونة المقام لا نفي الاستمرار كما مر مرارا أو للترخيص فيما هو مصر عن درجة أعمال أولئك الصالحين ببيان أنه تعالى لا يكلف عباده إلا ما في وسعهم فإن لم يبلغوا في فعل الطاعات مراتب السابقين فلا عليهم بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وسعهم قال مقاتل من لم يستطع القيام فليصل قاعدا ومن لم يستطع القعود فليوم بإيماء وقوله تعالى (ولدينا كتاب) الخ تنمة لما قبله ببيان أحوال ما كلفوه من الأعمال وأحكامها المترتبة عليها من الحساب والثواب والعقاب والمراد بالكتاب صحائف الأعمال التى يقرءونها عند الحساب حسبها يعرب عنه قوله تعالى (ينطق بالحق) كقوله تعالى (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) أى عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل أحد على ما هي عليه أو أعمال السابقين والمقتصدين جميعا لا أنه أثبت فيه أعمال الأولين وأهمل أعمال الآخرين فقيه قطع معذرتهم أيضا وقوله بالحق متعلق بينطق أى يظهر الحق المطابق للواقع على ما هو عليه ذاتا ووصفا ويبينه للناظر كما يبينه النطق ويظهره للسامع فيظهر بهالك جلائل أعمالهم ودقائقها ويرتب عايبا أجزيتها إن خيرا بخير وإن شرا قشر وقوله تعالى (وهم لا يظلمون) بيان لفضله تعالى وعدله في الجزاء إثر

بيان لطفه في التكليف وكتب الأعمال أى لا يظلمون في الجزاء بنقص ثواب أو  
 بزيادة عذاب بل يحزون بقدر أعمالهم التى كلفوها ونطقت بها صحائفها بالحق  
 وقد جوز أن يكون تقريراً لما قبله من التكليف وكتب الأعمال أى لا يظلمون  
 بتكليف ما ليس فى وسعهم ولا بعدم كتب<sup>(١)</sup> بعض أعمالهم التى من جملتها  
 أعمال المقتصدى بناء على قصورها عن درجة أعمال السابقين بل يكتب كل منها  
 على مقاديرها وطبقاتها والتعبير عما ذكر من الأمور بالظلم مع أن شيئاً منها  
 ليس بظلم ما تقرر من أن الأعمال الصالحة لا توجب أصل الثواب فضلاً عن  
 لموجب مرتبة معينة منه حتى تعد الإثابة بما دونها نقصاً وكذلك الأعمال السيئة  
 لا توجب درجة معينة من العذاب حتى بعد التعذيب بما فوقها زيادة وكذا  
 تكليف ما فى الوسع وكتب الأعمال ليس بما يجب عليه سبحانه حتى يعد  
 تركها ظلماً لكمال تزيه ساحة سبحانه عنها بتصويرها بصورة ما يستحيل صدوره  
 عنه تعالى وتسميتها باسمه ، وقوله تعالى :

﴿ بل قلوبهم فى غمرة من هذا ﴾ إضراب عما قبله والضمير للكفرة لا للكل  
 كما قبله أى بل قلوب الكفرة فى غفلة غامرة لها من هذا الذى بين فى القرآن  
 من أن لديه تعالى كتاباً ينطق ويظهر لهم أعمالهم السيئة على رؤوس الأشهاد  
 فيجزون بها كما ينبىء عنه ما سيأتى من قوله تعالى (قد كانت آياتى تتلى عليكم) الخ  
 وقيل ما عليه أولئك الموصوفون بالأعمال الصالحة (ولهم أعمال) سيئة كثيرة  
 ﴿ من دون ذلك ﴾ الذى ذكر من كون قلوبهم فى غفلة عظيمة عما ذكر وهى  
 فنون كفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ما سيأتى من طعنهم فى القرآن حسبما ينبىء  
 عنه قوله تعالى (مستكبرين به سامراً تهجرون) وقيل متخلفة لما وصف به المؤمنون  
 من الأعمال الصالحة المذكورة فيه أنه لامية وفى وصف أعمالهم الحبيثة بالتخلف  
 للأعمال الحسنة للمؤمنين وقيل متخلفة عما عليه من الشرك ولا يخفى بعده  
 لعدم جريان ذكره ﴿ هم لها عاملون ﴾ مستمررون عليها معتادون فعلها صارون  
 بها لا يكادون يبرحونها .

﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم ﴾ أى متنعمهم وهم الذين أهدم الله تعالى بما ذكر من المال والبنين وحقى مع كونها غاية لأعمالهم المذكورة مبدأ لما بعدها من مضمون الشرطية أى لا يزالون يعملون أعمالهم إلى حيث إذا أخذنا رؤسهم ﴿ بالعذاب ﴾ قيل هو القتل والأسر يوم بدر وقيل هو الجوع الذى أصابهم حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف فقحطوا حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة والأولاد وألحق به العذاب الآخروى إذ هو الذى يفاجئون عنده الجوار فيجربون بالرد والإقنات عن النصر وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جوار حسبما ينبىء عنه قوله تعالى (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لرهبهم وما يتضرعون) فإن المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يوم بدر من القتل والأسر حتماً وأما عذاب الجوع فإن أبا سفيان وإن تضرع فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن لم يرد عليه بالإقنات حيث روى أنه عليه الصلاة والسلام قد دعا بكشفه فكشف عنهم ذلك ﴿ إذا هم يجارون ﴾ أى فاجؤا الصراخ بالاستغاثة من الله عز وجل كقوله تعالى (فإليه تجارون) وهو جواب الشرط وتخصيص مترفيهم بما ذكر من الأخذ بالعذاب ومفاجأة الجوار مع عمومه لغيرهم أيضاً لغاية ظهور انعكاس حالهم وانعكاس أمرهم وكون ذلك أشق عليهم ولأنهم مع كونهم متمنعين محميين بحماية غيرهم من المنعة والحشم حين يقو ما لقوا من الحالة الفظيعة فلأن يلقاها من عداهم من الحماة والخدم أولى وأقدم ﴿ لا تجاروا اليوم ﴾ على إضمار القول مسوقاً لردهم وتبكيتهم وإقناتهم مما علقوا به أطعامهم الفارغة من الإغاثة والإعانة من جهته تعالى وتخصيص اليوم بالذكر لتحويله والإيذان بتقويتهم وقت الجوار وقد جاوز كونه جواب الشرط وأنت خير بأن المقصود الأصل فى الجملة الشرطية هو الجواب فيؤدى ذلك إلى أن يكون مفاجأتهم إلى الجوار غير مقصود أصلى وقوله تعالى ﴿ لأنكم منا لا تنصرون ﴾ تعليل للنهى عن الجوار ببيان عدم إفادته ونفعه أى لا يلحقكم من جهتنا نصرة تنجيكم مما دهمكم وقيل لا تغاثون ولا تمنعون منا ولا يساعده سباق

الغظم الكريم لأن جوارهم ليس إلى غيره تعالى حتى يرد عليهم بعدم منصوريتهم من قبله ولا سياقه فإن قوله تعالى :

(وقد كانت آياتي تتلى عليكم) الخ صريح في أنه تعليل لما ذكرنا من عدم لحوق النصر من جهته تعالى بسبب كفرهم بالآيات ولو كان النصر المنفي متوهما من الغير لعل بعجزه وذله أو بعزة الله تعالى وقوته أي قد كانت آياتي تتلى عليكم في الدنيا (فكنتم على أعقابكم تنكصون) أي تعرضون عن سماعها أشد الإعراض فضلا عن تصديقها والعمل بها والنكوص الرجوع فهقري (مستكبرين به) أي بالبيت الحرام أو بالحرم والإضرار قبل الذكر لاشتهار استكبارهم واقتخارهم بأنهم خدامه وقوامه أو بكتباي الذي عبر عنه آياتي على تضمين الاستكبار معنى التكذيب أو لأن استكبارهم على المسلمين قد حدث بسبب استماعه ويجوز أن تتعلق الباء بقوله تعالى (سامرا) أي تسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه حيث كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا وشعرا والسامر كالحاضر في الإطلاق على الجمع وقيل هو مصدر جاء على لفظ الفاعل وقرئ سمرأ وسمارأ وأن تتعلق بقوله تعالى (تهجرون) من الهجر بالفتح بمعنى الهذيان أو الترك أي تهذون في شأن القرآن أو تتركونه أو من الهجر بالضم وهو الفحش ويؤيده قراءة تهجرون من أهر في منطقه إذا أفحش فيه وقرئ تهجرون من هجر الذي هو مبالغة في هجر إذا هذى .

(أفلم يدبروا القول) الهمة لإنكار الواقع واستقبحه والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أي أفعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر فلم يدبروا القرآن ليعرفوا بما فيه من إعجاز النظم وصحة المدلول والإخبار عن الغيب أنه الحق من ربهم فيؤمنوا به فضلا عما فعلوا في شأنه من القبايح وأم في قوله تعالى (أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين) منقطعة وما فيها من معنى بل للإضراب والانتقال عن التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بآخر والهمة لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع أي بل أجاءهم من الكتاب ما لم

يأت آباءهم الأولين حتى استبدعوه واستبعدوه فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلal يعني أن يحىء الكتب من جهته تعالى إلى الرسل عليهم السلام سنة قديمة له تعالى لا يكاد يتسنى إنكاره وأن يحىء القرآن على طريقته فمن أين ينكرونه وقيل أم جاءهم من الأمن من عذابه تعالى ما لم يأت آباءهم الأولين كإسماعيل عليه السلام وأعقابه من عدنان وقحطان ومضر وربيعة وقيس والحارث ابن كعب وأسد بن خزيمه وتيم بن مرة وتبع وضبة بن أد فآمنوا به تعالى وبكتبه ورسله وأطاعوه ﴿أم لم يعرفوا رسولهم﴾ إضراب وانتقال من التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بوجه آخر والهمزة لإنكار الوقوع أيضاً أى بل ألم يعرفوه عليه السلام بالأمانة والصدق وحسن الأخلاق وكال العلم مع عدم التعلم من أحد وغير ذلك مما حازه من الكجالات اللاتقة بالأنبياء عليهم السلام ﴿فهم له منكرون﴾ أى جاحدون بنبوته فجحدوا بها مترتب على عدم معرفتهم بشأنه عليه السلام ومن ضرورة انتفاء المبني بطلان ما بنى عليه أى فهم غير عارفين له عليه السلام فهو تأكيد لما قبله .

### توبيخ الكفار

﴿أم يقولون به جنة﴾ انتقال إلى توبيخ آخر والهمزة لإنكار الواقع كالأولى أى بل يقولون به جنة أى جنون مع أنه أرجح الناس عقلاً وأقبحهم ذهنًا وأقبحهم رأياً وأوفرهم رزاة ولقد روعى فى هذه التوبيخات الأربعة التى أثنان منها متعلقان بالقرآن والباقيان به عليه السلام الترقى من الأدنى إلى الأعلى حيث وبخوا أو لا بعدم التدبر وذلك يتحقق مع كون القول غير متعرض له بوجه من الوجوه ثم وبخوا بشيء لو انصف به القول لكان سبباً لعدم تصديقهم به ثم وبخوا بما يتعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام من عدم معرفتهم به عليه الصلاة والسلام وذلك يتحقق بعدم المعرفة بخير ولا شر ثم بما لو كان فيه عليه الصلاة والسلام ذلك لقدح فى رسالته عليه الصلاة والسلام ﴿بل جاءهم بالحق﴾ إضراب عما يدل عليه ماسبق أى ليس الأمر كما زعموا فى حق القرآن

والرسول عليه الصلاة والسلام بل جاءهم عليه الصلاة والسلام بالحق أى الصدق الثابت الذى لا محيد عنه أصلاً ولا مدخل فيه للباطل بوجه من الوجوه ﴿وأكثرهم للحق﴾ من حيث هو حق أى حق كان لا لهذا الحق فقط كما ينبغي عنه الإظهار فى موقع الإضمار ﴿كاهون﴾ لما فى جبلتهم من الزيغ والانحراف المناسب للباطل ولذلك كرهوا هذا الحق الأبلغ وزاغوا عن الطريق الأنهج وتخصيص أكثرهم بهذا الوصف لا يقتضى إلا عدم كراهة الباقين لكل حق من الحقوق وذلك لا ينافى كراهتهم لهذا الحق المبين فتأمل وقيل تقييد الحكم بالأكثر لأن منهم من ترك الإيمان استنكافاً من توبيخ قومه أو لقلة فطنته وعدم تفكره لا لكراهته الحق وأنت خير بأن تعرض لعدم كراهة بعضهم للحق مع اتفاق الكل على الكفر به عما لا يساعده المقام أصلاً .

﴿ولو اتبع الحق أهواءهم﴾ استئناف مسوق لبيان أن أهواءهم الزائفة التى ما كرهوا الحق إلا لعدم موافقته إياها مقتضية للطامة أى لو كان ما كرهوه من الحق الذى من جملته ما جاء به عليه السلام موافقاً لأهوائهم الباطلة ﴿لفسدت السموات والأرض ومن فىهن﴾ وخرجت عن الصلاح والانتظام بالسكينة لأن مناط النظام ليس إلا ذلك وفيه من تنويه شأن الحق والتذية على سمو مكانه ما لا يخفى وأما ما قيل لو اتبع الحق الذى جاء به عليه السلام أهواءهم وانقلب شركاً لجاء الله تعالى بالقيامة ولأهلك العالم ولم يؤخر فقيه أنه لا يلائم فرض مجيئه عليه السلام به وكذا ما قيل لو كان فى الواقع إلهان لا يناسب المقام وأما ما قيل لو اتبع الحق أهواءهم لخرج عن الإلهية فما لا احتمال له أصلاً ﴿بل أتيناهم بذكرهم﴾ انتقال من تشليعهم بكراهة الحق الذى به يقوم العالم إلى تشنيعهم بالإعراض عما جبل عليه كل نفس من الرغبة فيما فيه خيرها والمراد بالذكر القرآن الذى هو غفرهم وشرفهم حسبما ينطق به قوله تعالى (ولنه لذكر لك ولقومك) أى بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذى كان يجب عليهم أن يقبلوا عليه أكل إقبال ﴿فهم﴾ بما فعلوه من الشكوص ﴿عن ذكرهم﴾ أى غفرهم وشرفهم خاصة ﴿معرضون﴾ لا عن غير ذلك مما لا يوجب الإقبال عليه والاعتناء به .

وفي وضع الظاهر موضع الضمير مزيد تشنيع لهم وتقريع والفاء لترتيب ما بعدها من إعراضهم عن ذكرهم على ما قبلها من إيتاء ذكرهم لا لترتيب الإعراض على الإيتاء مطلقا فإن المستتبع لكون إعراضهم إعراضا عن ذكرهم هو إيتاء ذكرهم لا الإيتاء مطلقا وفي إسناد الإتيان بالذكر إلى نون العظمة بعد إسناده إلى ضميره عليه الصلاة والسلام تنويه لشأن النبي عليه الصلاة والسلام وتبنيه على كونه بمثابة عظيمة منه عز وجل وفي إيراد القرآن الكريم عند نسبته إليه تعالى بعنوان الذكر من النسكئة السرية والحكمة العبقريّة ما لا يخفى فإن التصريح بحقيقته المستلزمة لحقيقة من جاء به هو الذي يقتضيه مقام حكاية ما قاله المبطلون في شأنه وأما التشريف فإنما يليق به تعالى لا سيما رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد المشرفين وقيل المراد بالذكر ما تمنوه بقولهم لو أن عندنا ذكرا من الأولين وقيل وعظهم وأيد ذلك بأنه قرئ بذكرهم والتشنيع على الأولين أشد فإن الإعراض عن وعظهم ليس في مثابة إعراضهم عن شرفهم أو عن ذكرهم الذي يتمنونه في الشناعة والقباحة .

(أم تسألهم) انتقال من توبيخهم بما ذكر من قوله (أم يقولون به جنة) إلى التوبيخ بوجه آخر كأنه قيل أم يزعمون أنك تسألهم عن أداء الرسالة (خرجنا) أي جمعا فلاجل ذلك لا يؤمنون بك وقوله تعالى ﴿فخرج ربك خير﴾ أي رزقه في الدنيا وثوابه في الآخرة تعليل لنفي السؤال المستفاد من الإنكار أي لا تسألهم ذلك فإن ما رزقك الله تعالى في الدنيا والعقب خير لك من ذلك وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من تعليل الحكم وتشريفه عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى والخرج بإزاء الدخول يقال لكل ما تخرجه إلى غيرك والخرج غالب<sup>(١)</sup> في الضريبة على الأرض وقيل الخرج ما تبرعت به والخرج ما لزمك وقيل الخرج أخص

من الخراج ففي النظم الكريم إشعار بالكثرة وال لزوم وقرىء خرجا فخرج  
 وخراجا فخراج ﴿ وهو خير الرازقين ﴾ تقرير لخيرية خراجه تعالى ﴿ وإنك  
 لتدعوهم إلى صراط مستقيم ﴾ تشهد العقول السليمة باستقامته ليس فيه شائبة  
 اعوجاج توهم اتهامهم لك بوجه من الوجوه ولقد ألزهم الله عز و علا وأزاح  
 عنهم في هذه الآيات حيث حصر أقسام ما يؤدي إلى الإنكار والانتهاك وبين  
 انتفاء ما عدا كراهتهم للحق وقلة فظنهم ﴿ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾  
 وصفوا بذلك تشبيها لهم بما هم عليه من الانهماك في الدنيا وزعمهم أن لا حياة  
 إلا الحياة الدنيا وإشعارا بعلة الحكم فإن الإيمان بالآخرة وخوف ما فيها من  
 الدواهي من أقوى الدواعي إلى طلب الحق وسلوك سبيله ﴿ عن الصراط ﴾  
 أى عن جنس الصراط ﴿ لنا كبون ﴾ لعادلون فضل عن الصراط المستقيم الذى  
 تدعوم إليه والاول أدل على كمال ضلالهم وغاية غوايتهم لما أنه ينبىء عن كون  
 ما ذهبوا إليه بما لا يطلق عليه اسم الصراط ولو كان معوجا ﴿ ولو رحمناهم  
 وكشفنا ما بهم من ضر ﴾ أى قحط وجذب .

﴿ للجوا ﴾ لتنادوا ﴿ فى طغيانهم ﴾ إفراطهم فى الكفر والاستكبار وعداوة  
 الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ﴿ يعمهون ﴾ أى عامين عن الهدى  
 روى أنه لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي ولحق باليامة ومنع الميرة عن أهل مكة  
 وأخذهم الله تعالى بالسنين حتى أكلوا العلهز جاء أبو سفيان إلى رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم فقال له أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة  
 للعالمين قال بلى فقال قتلت الآباء بالسيف والآباء بالجوع فنزلت والمعنى  
 لو كشفنا عنهم ما أصابهم من القحط والهزال برحمتنا إياهم ووجدوا الخصب  
 لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والاستكبار ولذهب عنهم هذا التملق  
 والإبلاس وقد كان كذلك ، وقوله تعالى :

﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب ﴾ استئناف مسوق للاستشهاد على مضمون  
 الشرطية والمراد بالعذاب ما نالههم يوم بدر من القتل والأسر وما أصابهم من



فنون العذاب التي من جملتها القحط المذكور واللام جواب قسم محذوف أى وبالله  
لقد أخذناهم بالعذاب ﴿فما استكانوا لربه﴾ بذلك أى لم يخضعوا ولم  
ينذلوا على أنه إما استفعال من السكون لأن الخاضع ينتقل من كون إلى كون  
أو افتعال من السكون قد أشبعت فتحته كمنتزاح في منتزح بل أقاموا على ما كانوا  
عليه من العتو والاستكبار وقوله تعالى ﴿وما يتضرعون﴾ اعتراض مقرر  
لمضمون ما قبل أى وليس من عادتهم التضرع إليه تعالى ﴿حتى إذا فتحنا عليهم  
بابا ذا عذاب شديد﴾ هو عذاب الآخرة كما يفى عنه التحويل بفتح الباب  
والوصف بالشدة وقرىء فتحنا بالتشديد ﴿إذا هم فيه مبلسون﴾ أى متحIRON  
آيسون من كل خير أى مخاضهم بكل محنة من القتل والأسر والجوع وغير  
ذلك فما روى منهم لين مقادة وتوجه إلى الإسلام قط وأما ما أظهره أبو سفيان  
فليس من الاستكانة له تعالى والتضرع إليه تعالى في شيء وإنما هو نوع  
خنوع إلى أن يتم غرضه خاله كما قيل إذا جاع ضغا وإذا شبع طغا وأكثرهم  
مستمرون على ذلك إلى أن يروا عذاب الآخرة خيفتذ يلسون وقيل المراد  
بالباب الجوع فإنه أشد وأعم من القتل والأسر والمعنى أخذناهم أولا بما جرى  
عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرههم فما وجد منهم تضرع واستكانة  
حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أطم وأتم فأبأسوا الساعة وخضعت  
رقابهم وجاءك أعتاهم وأشددهم شكيمة في العناد يستعطفك ، والوجه  
هو الأول .

﴿وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار﴾ لتشاهدوا بها الآيات التنزيلية  
والتكوينية ﴿والأفئدة﴾ لتفكروا بها فيما تشاهدونه وتعتبروا اعتبارا لا ثقا  
﴿قليلما تشكرون﴾ أى شكرا قليلا غير معتد به تشكرون تلك النعم الجليلة  
لما أن العمدة في الشكر صرف تلك القوى التي هي في أنفسها نعم باهرة إلى  
ما خلقت هي له وأنتم تخلون بذلك لإخلاا عظيما ﴿وهو الذى ذرأكم في  
الارض﴾ أى خلقكم وبشكم فيها بالتناسل ﴿ولإيه تحشرون﴾ أى تجمعون  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ بعد تفرقكم لا إلى غيره فإلهم لا تؤمنون به ولا تشكرونه

( وهو الذى يحيى ويميت ) من غير أن يشاركه فى ذلك شئ من الاشياء  
 ( وله ) خاصة ( اختلاف الليل والنهار ) أى هو المؤثر فى اختلافهما أى  
 تعاقبهما أو اختلافهما ازديادا وانقصا أو لأمره وقضائه اختلافهما  
 ( أفلا تعقلون ) أى ألا تفكرون فلا تعقلون أو أتفكرون فلا تعقلون  
 بالنظر والتأمل أن السكل منا وأن قدرتنا تم جميع الممكنات التى من جملتها البعث  
 وقرىء يعقلون على أن الالتفات إلى الغيبة لحكاية سوء حال المخاطبين لغيرهم  
 وقيل على أن الخطاب الأول لتغليب المؤمنين وليس بذلك ( بل قالوا ) عطف  
 على مضمرة يقتضيه المقام أى فلم يعقلوا بل قالوا ( مثل ما قال الأولون ) أى  
 آباؤهم ومن دان بدينهم ( قالوا أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون )  
 تفسير لما قبله من المبهمة وتفصيل لما فيه من الإجمال وقد مر الكلام فيه ( لقد  
 وعدنا نحن وآباؤنا هذا ) أى البعث ( من قبل ) متعلق بالفعل من حيث  
 إسناده إلى آباؤهم لا إليهم أى ووعد آباؤنا من قبل أو بمحذوف وقع حالا من  
 آباؤنا أى كائنين من قبل .

( إن هذا ) أى ما هذا ( إلا أساطير الأولين ) أى أكاذيبهم التى  
 سطورها جمع أسطورة كأحدثة وأعجوبة وقيل جمع أسطار<sup>(١)</sup> جمع سطر  
 ( قل لمن الأرض ومن فيها ) من المخلوقات تغلبا للعلاء على غيرهم ( إن  
 كنتم تعلمون ) جوابه محذوف ثقة بدلالة الاستفهام عليه أى إن كنتم تعلمون  
 شيئا ما فأخبروني به فإن ذلك كاف فى الجواب وفيه من المبالغة فى وضوح  
 الأمر وفى تجهيلهم ما لا يخفى أو إن كنتم تعلمون ذلك فأخبروني وفيه استهانة  
 بهم وتقرير لجهلهم ولذلك أخبر بحواهم قبل أن يجيبوا حيث قيل ( سيقولون  
 لله ) لأن بديهة العقل تضطرهم إلى الاعتراف بأنه تعالى خالقها .  
 ( قل ) أى عند اعترافهم بذلك تبكيثا لهم ( أفلا تذكرون ) أى  
 أتعلمون ذلك أو تقولون ذلك فلا تتذكرون أن من فطر الأرض وما فيها ابتداء

(١) فى ١٠ سطر . خطأ

( ٦ - أبو السعد - الرابع )

قادر على إعادتها ثانياً فإن اليده ليس بأهون من الإعادة بل الأمر بالعكس في قياس العقول وقرىء تنذكرون على الأصل ﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴾ أعيد الرب تنويعاً لشأن العرش ورفعاً لمجده عن أن يكون تبعاً للسموات وجوداً وذكره ولقد روعى في الأمر بالسؤال الترقى من الأدنى إلى الأعلى ﴿ سيقولون لله ﴾ باللام نظراً إلى معنى السؤال فإن قولك من ربه ولمن هو في معنى واحد وقرىء هو وما بعده بغير لام نظراً إلى لفظ السؤال .

﴿ قل ﴾ لإخاماً لهم وتوبيخاً ﴿ أفلا تتقون ﴾ أى أتعلون ذلك ولا تقون أنفسكم عقابه بعدم العمل بموجب العلم حيث تكفرون به وتذكرون البعث وتثبتون له شريكاً فى الربوبية ﴿ قل من يده ملكوت كل شيء ﴾ بما ذكر وما لم يذكر أى ملكة التام القاهر وقيل خزائنه ﴿ وهو يحير ﴾ أى يغيب غيره إذا شاء ﴿ ولا يحار عليه ﴾ أى ولا يغيب أحد عليه أى لا يمنع أحد منه بالنصر عليه ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أى شيئاً ما أو ذلك فأجيبوني على ما سبق ﴿ سيقولون لله ﴾ أى لله ملكوت كل شيء وهو الذى يحير ولا يحار عليه ﴿ قل فأنى تسحرون ﴾ أى فمن أين تخذعون وتصرفون عن الرشد مع علمكم به إلى ما أتم عليه من النى فإن من لا يكون مسحوراً مختل العقل لا يكون كذلك ﴿ بل أتيناكم بالحق ﴾ الذى لا يحيد عنه من التوحيد والوعد بالبعث ﴿ ولأنهم لكاذبون ﴾ فيما قالوا من الشرك وإنكار البعث ﴿ ما اتخذ الله من ولد ﴾ كما يقوله النصارى والقائلون إن الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿ وما كان معه من إله ﴾ يشاركه فى الألوهية كما يقوله عبدة الأوثان وغيرهم ﴿ إذن لذهب كل إله بما خلق ﴾ جواب لمحاجتهم وجزاء لشرط قد حذف لدلالة ما قبله عليه أى لو كان معه آلهة كما يزعمون لذهب كل واحد منهم بما خلقه واستبد به وأما ما ملكه عن مالك الآخرين ووقع بينهم التغالب والتحارب كما هو الجارى فيما بين الملوك ﴿ ولعلا بعضهم على بعض ﴾ فلم يكن بيده وحده ملكوت كل شيء وهو باطل لا يقول به عاقل قط مع قيام البرهان على استناد

جميع الممكنات إلى واجب الوجود واحد بالذات ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ أى يصفونه من أن يكون له أدداد وأولاد ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ بالجر على أنه بدل من الجلالة وقيل صفة لها وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وأياما كان فهو دليل آخر على انتفاء الشريك بناء على توافقه في تفرده تعالى بذلك ولذلك رتب عليه بالغاء قوله تعالى ﴿فتعالى عما يشركون﴾ فإن تفرده تعالى بذلك موجب لتعالیه عن أن يكون له شريك.

﴿قل رب إما ترينى﴾ أى إن كان لا بد من أن ترينى ﴿ما يوعدون﴾ من العذاب العنوى المستأصل وأما العذاب الآخرى فلا يناسبه المقام ﴿رب فلا تجعلى فى القوم الظالمين﴾ أى قرينا لهم فيمالم فيه من العذاب وفيه ليدان بكال فظاعة ما وعدوه من العذاب وكونه بحيث يجب أن يستعبد منه من لا يكاد يمكن أن يحيق به ورد لإنكارهم إياه واستعجالهم به على طريقة الاستهزاء به وقيل أمر به عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه وقيل لأن شؤم الكفرة قد يحيق بمن وراهم كقوله تعالى : ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ وروى أنه تعالى أخبر نبيه عليه الصلاة والسلام بأن له فى أمته نعمة ولم يطلعه على وقتها فأمره بهذا الدعاء وتكرير النداء وتصدير كل من الشرط والجزاء به لإبراز كمال الضراعة والابتهال ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم﴾ من العذاب ﴿لقادرون﴾ ولكننا تؤخره لعلنا بأن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمنون أو لأننا لا نعدهم وأنت فيهم وقيل قد أراه ذلك وهو ما أصابهم يوم بدر أو فتح مكة ولا يخفى بعده فإن المتبادر أن يكون ما يستحقونه من العذاب الموعود عذابا هائلا مستأصلا لا يظهر على يديه عليه الصلاة والسلام للحكمة الداعية إليه .

﴿ادفع بالتى هى أحسن السيئة﴾ وهو الصفع عنها والإحسان فى مقابلتها لكن لا بحيث يؤدى إلى وهن فى الدين وقيل هى كلمة التوحيد والسيئة الشرك . وقيل هو الأمر بالمعروف والسيئة المنكر وهو أبلغ من ادفع بالحسنة السيئة لما فيه من التنصيص على التفضيل وتقديم الجار والمجرور على المفعول فى

الموضعين للاهتمام ﴿ نحن أعلم بما يصفون ﴾ أى بما يصفونك به أو بوصفهم إياك على خلاف ما أنت عليه وفيه وعيد لهم بالجزاء والعقوبة وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإرشاد له عليه السلام إلى تفويض أمره إليه تعالى .  
﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ﴾ أى وساوسهم المغرية على خلاف ما أمرت به من المحاسن التى من جعلتها دفع السيئة بالحسنة وأصل الهمز النخس ومنه مهماز الرائض شبه حثهم للناس على المعاصى بهمز الرائض الدواب على الإسراع أو الوثب والجمع للمرات أو لتنوع الوسوس أو لتعدد المضاف إليه ﴿ وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ أمر عليه السلام بأن يعوذ به تعالى من حضورهم بعد ما أمر بالعوذ به من همزاتهم للبالغة في التحذير من ملابتهم وإعادة الفعل مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به وعرض نهاية الإبتال فى الاستدعاء أى أعوذ بك من أن يحضرونى ويحوموا حولى فى حال من الأحوال وتخصيص حال الصلاة وقراءة القرآن كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وحال حلول الأجل كما روى عن عكرمة رحه الله لأنها أخرى الأحوال بالاستعاذة منها ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت ﴾ حتى هى التى يتبدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية وهى مع ذلك غاية لما قبلها متعلقة يصفون وما بينهما اعتراض مؤكد للإغضاء بالاستعاذة به تعالى من الشياطين أن يزله عليه الصلاة والسلام عن الحلم ويفروه على الانتقام لكن لا بمعنى أنه العامل فيه لفساد المعنى بل بمعنى أنه معمول لمحذوف يدل عليه ذلك وتعلقها بكاذبون فى غاية البعد لفظاً ومعنى أى يستمرون على الوصف المذكور حتى إذا جاء أحدهم أى أحد كان الموت الذى لا مرد له وظهرت له أحوال الآخرة .

﴿ قال ﴾ تحسراً على ما فرط فيه من الإيمان والطاعة ﴿ رب ارجعون ﴾ أى ردى إلى الدنيا والواو لتعظيم المخاطب وقيل لتكرير قوله ارجعنى كما قيل فى قنابلك ونظائره ﴿ لعلى أعمل صالحاً فيما تركت ﴾ أى فى الإيمان الذى تركته لم ينظمه فى سلك الرجاء كسائر الأعمال الصالحة بأن يقول لعلى أو من فاعمل الخ للإشعار بأنه أمر مقرر الوقوع غنى عن الإخبار بوقوعه قطعاً فضلاً

عن كونه مرجو الوقوع أى لعلى أعمل فى الإيمان الذى آتى به البتة عملا صالحا وقيل فيما تركته من المال أو من الدنيا وعنه عليه الصلاة والسلام إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا أنرجعك إلى الدنيا فيقول إلى دار الهموم والأحزان بل قدوما إلى الله تبارك وتعالى وأما الكافر فيقول أرجعنى ﴿كلا﴾ ردع عن طلب الرحمة واستبعاد لها ﴿إنها﴾ أى قوله رب أرجعون الخ ﴿كلية﴾ هو قائلها ﴿لا محالة لتسلط الحسرة عليه﴾ ومن ورائهم ﴿أى أمامهم والضمير لأحدهم والجمع باعتبار المعنى لأنه فى حكم كلهم كما أن الأفراد فى الضمائر الأولى باعتبار اللفظ﴾ ﴿برزخ﴾ حائل بينهم وبين الرحمة ﴿إلى يوم يبعثون﴾ يوم القيامة وهو إقناط كلّى عن الرجعة إلى الدنيا لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلى الدنيا وإنما الرجعة يومئذ إلى الحياة الآخروية .

﴿فإذا نفخ فى الصور﴾ لقيام الساعة وهى النفخة الثانية التى يقع عندها البعث والنشور وقيل المعنى فإذا نفخ فى الأجساد أرواحها على أن الصور جمع الصورة لا القرن ويؤيده القراءة بفتح الواو وبه مع كسر الصاد ﴿فلا أنساب بينهم﴾ تنفهم لزوال التراحم والتعاطف من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه أو لا أنساب يفتخرون بها ﴿يومئذ﴾ كما هى بينهم اليوم ﴿ولا يتساءلون﴾ أى لا يسأل بعضهم بعضا لاشتغال كل منهم بنفسه ولا يناقضه قوله تعالى (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) لأن هذا عند ابتداء النفخة الثانية وذلك بعد ذلك ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ موازنات حسناته من العقائد والأعمال أى فمن كانت له عقائد صحيحة وأعمال صالحة يكون لها وزن وقدر عند الله تعالى ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مهروب ﴿ومن خفت موازينه﴾ أى ومن لم يكن له من العقائد والأعمال ما له وزن وقدر عنده تعالى وهم الكفار لقوله تعالى (فلا يقيم لهم يوم القيامة وزنا) وقدر تفصيل ما فى هذا المقام من الكلام فى تفسير سورة الأعراف ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ ضيعوها بتضييع زمان استكمالها وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها واسم الإشارة فى الموضعين

عبارة عن الموصول وجمعه باعتبار معناه كما أن أفراد الضميرين في الصلتين باعتبار لفظه ﴿ في جهنم خالدون ﴾ بدل من الصلة أو خبر ثان لأولئك ﴿ تُلْفَح وجوههم النار ﴾ تحرقها واللفح كالنفخ إلا أنه أشد تأثيراً منه وتخصيص الوجوه بذلك لأنها أشرف الأعضاء فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار وهو السر في تقديمها على الفاعل ﴿ وهم فيها كالخون ﴾ من شدة الاحتراق والكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان وقرىء كلحون ﴿ ألم تكن آياتي تتلى عليكم ﴾ على إضمار القول أى يقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً وتذكيراً لما به استحقوا ما ابتلوا به من العذاب ألم تكن آياتي تتلى عليكم في الدنيا ﴿ فكنتم بها تكذبون ﴾ حيثئذ ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا ﴾ أى ملكتنا ﴿ شقوتنا ﴾ التى اقترفناها بسوء اختيارنا كما ينهى عنه إضاقها إلى أنفسهم وقرىء شقوتنا بالفتح وشقوتنا أيضاً بالفتح والكسر ﴿ وكنا ﴾ بسبب ذلك ﴿ قوما ضالين ﴾ عن الحق ولذلك فعلنا من التكذيب وهذا كما ترى اعتراف منهم بأن ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم وأما ما قيل من أنه اعتذار منهم بغلبة ما كتب عليهم من الشقاوة الأزلية فح أنه باطل في نفسه لما أنه لا يكتب عليهم من السعادة والشقاوة إلا ما علم الله تعالى أنهم يفعلونه باختيارهم ضرورة أن العلم تابع للعلوم يرده قوله تعالى :

﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ أى أخرجنا من النار وأرجعنا إلى الدنيا فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه من الكفر والمعاصي فإننا متجاوزون الحد في الغلم ولو كان اعتقادهم أنهم مجبورون على ما صدر عنهم لما سألوا الرجعة إلى الدنيا ولما وعدوا الإيمان والطاعة بل قولهم فإن عدنا صريح في أنهم حيثئذ على الإيمان والطاعة وإيماناً بالموعد على تقدير الرجعة إلى الدنيا الثبات عليها لا إحداثهما ﴿ قال اخسؤا فيها ﴾ أى اسكتوا في النار سكوت هوان وذلوا وانزجروا انزجار الكلاب إذا زجرت من خسأت الكلاب إذا زجرته غسأ أى انزجر ﴿ ولا تسكلمون ﴾ أى باستدعاء الإخراج من النار والرجع إلى الدنيا وقيل لا تسكلمون في رفع العذاب ويرده التعليل الآتى وقيل لا تسكلمون

رأسا وهو آخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشيق والزفير والعواء  
 كعواء الكلب لا يفهمون ولا يفهمون ويرده الخطابات الآتية قطعاً وقوله تعالى  
 ﴿لأنه﴾ تعليل لما قبله من الزجر عن الدعاء أى أن الشأن وقرئ بالفتح أى  
 لأن الشأن ﴿كان فريق من عبادى﴾ وهم المؤمنون وقيل هم الصحابة وقيل  
 أهل الصفة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ﴿يقولون﴾ فى الدنيا  
 ﴿ربنا آتنا فاعفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخرياً﴾  
 أى اسكتوا عن الدعاء بقولكم ربنا الخ لأنكم كنتم تستهزئون بالداعين بقولهم  
 ربنا آتنا الخ وتتشاغلون باستهزائهم ﴿حتى أنسوا﴾ أى الاستهزاء بهم  
 ﴿ذكرت﴾ من فرط اشتغالكم باستهزائهم ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ وذلك  
 غاية الاستهزاء وقوله تعالى ﴿لأنى جزيتهم اليوم﴾ استئناف ليبيان حسن حالهم  
 وأنهم اتفقوا بما آذوهم ﴿بما صبروا﴾ بسبب صبرهم على أذيتكم وقوله  
 تعالى ﴿أنهم هم الفائزون﴾ ثانى مفعولى الجزاء أى جزيتهم فوزهم بمجامع  
 مراداتهم مخصوصين به وقرئ بكسر الهمزة على أنه تعليل للجزاء وييان لكونه  
 فى غاية ما يكون من الحسن ﴿قال﴾ أى الله عز وجل أو الملك المأمور بذلك  
 تذكيراً لما لبثوا فيما سألوا الرجوع إليه من الدنيا بعد التنبيه على استحالة بقوله  
 اخسؤا فيها الخ وقرئ قل على الأمر للملك ﴿كم لبثتم فى الأرض﴾ التى  
 تدعون أن ترجعوا إليها ﴿عدد سنين﴾ تمييز لكم .

﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ استقصارا لمدة لبثهم فيها ﴿فاسأل  
 العادين﴾ أى المتمكنين من العذاب بما دهمنا من العذاب بمعزل من ذلك  
 أو الملائكة العادين لأعمار العباد وأعمالهم وقرئ العادين بالتخفيف أى  
 المتعدين فإنهم أيضاً يقولون ما نقول كأنهم الاتباع يسمون الرؤساء بذلك  
 لظلمهم إياهم بإضلالهم وقرئ العادين أى القدماء المعمرين فإنهم أيضاً يستقصرون  
 مدة لبثهم ﴿قال﴾ أى الله تعالى أو الملك وقرئ قل كما سبق ﴿إن لبثتم  
 إلا قليلاً﴾ تصديقا لهم فى ذلك ﴿لو أنكم كنتم تعلمون﴾ أى تعلمون شيئاً



أولو كنتم من أهل العلم والجواب محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه أى لعلمتم يومئذ قلّة لبشكم فيها كما علمتم اليوم ولعلمتم بموجبه ولم تغلدوا إليها ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ﴾ أى ألم تعلموا شيئاً فحسبتم أنما خلقناكم بغير حكمة بالغة حتى أنكرتم البعث فعبثاً حال من نون العظمة أى عابثين أو مفعول له أى لأنما خلقناكم للعبث ﴿ وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ عطف على أنما فإن خلقكم بغير بعث من قبيل العبث ولأنما خلقناكم لنعيدكم ونجازيكم على أعمالكم وقرئ ترجعون بفتح التاء من الرجوع ﴿ فتعالى الله ﴾ استعظام له تعالى ولشئونه التى تصرف عليها عباده من البدء والإعادة والإنابة والعقاب بموجب الحكمة البالغة أى ارتفع بذاته وتنزه عن ماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته وأحواله وأفعاله وعن خلو أفعاله عن الحكم والمصالح والغايات الحميدة ﴿ الملك الحق ﴾ الذى يحق له الملك على الإطلاق لم يجادا وإعداما بدءاً وإعادة لإحياء وإماتة عقاباً وإنابة وكل ما سواه مملوك له مقهور تحت ملكوته ﴿ لا إله إلا هو ﴾ فإن كل ما عداه عبيده ﴿ رب العرش الكريم ﴾ فكيف بما تحته ومحاط به من الموجودات كائنات ما كان ووصفه بالكرم إما لأنه منه ينزل الوحي الذى منه القرآن الكريم أو الخير والبركة والرحمة أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين وقرئ الكريم بالرفع على أنه صفة الرب كما فى قوله تعالى ( ذو العرش المجيد ) ومن يدع مع الله لها آخر ﴿ يعبد له أفراداً أو إلهاً واحداً .

﴿ لا برهان له به ﴾ صفة لازمة لا لها كقوله تعالى ( يطير بجناحيه ) جىء بها للتأكيد وبناء الحكم عليه تفهيماً على أن التدين بما لا دليل عليه باطل فكيف بما شهدت بديهة العقول بخلافه أو اعتراض بين الشرط والجزاء كقولك من أحسن إلى زيد لا أحق منه بالإحسان فالفه مثيبه ﴿ فإنما حسابه عند ربه ﴾ فهو مجاز له على قدر ما يستحقه ﴿ إنه لا يفلح الكافرون ﴾ أى إن الشأن الخ وقرئ بالفتح على أنه تعليل أو خبر ومعناه حسابه عدم الفلاح والأصل حسابه إنه لا يفلح هو فوضع الكافرون موضع الضمير لأن من يدع فى معنى الجمع وكذلك حسابه إنه لا يفلح فى معنى حسابهم لأنهم لا يفلحون ، بدئت

السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين وختمت بنبي الفلاح عن الكافرين ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستغفار والاسترجام فقبل ﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ لإذانا بأنهما من أهم الأمور الدينية حيث أمر به من قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكيف بمن عداه . عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة المؤمنين بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لقد أنزلت على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر وروى أن أولها وآخرها من كنوز الجنة من عمل بثلاث آيات من أولها واتمظ بأربع من آخرها فقد نجا وأفلح .

\* \* \*

### سورة النور

مدنية وهي اثنان أو أربع وستون آية

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿سورة﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هذه سورة وإنما أشير إليها مع عدم سبق ذكرها لأنها باعتبار كونها في شرف الذكر في حكم الحاضر المشاهد وقوله تعالى ﴿أنزلناها﴾ مع ما عطف عليه صفات لها مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة من حيث الذات بالفخامة من حيث الصفات وأما كونها مبتدأ محذوف الخبر على أن يكون التقدير فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها فيأباه أن مقتضى بيان شأن هذه السورة الكريمة لا أن في جملة ما أوحى إلى النبي عليه الصلاة والسلام سورة شأنها كذا وكذا وحملها على السورة الكريمة بمعونة المقام يوم أن غيرها من السور الكريمة ليست على تلك الصفات وقرىء بالنصب على إضمار فعل يفسر أنه أنزلناها فلا محل له حينئذ من الإعراب أو على

تقدير اقرأ ونحوه أو دونك عند من يسوغ حذف أداة الإغراء فمحل أنزلنا  
النصب على الوصفية ﴿وفرضناها﴾ أى أوجبنا ما فيها من الأحكام لإيجابا  
قطعيا وفيه من الإيذان بغاية وكادة الفرضية ما لا يخفى وقرئ ء فرضناها بالتشديد  
لنا كيد الإيجاب أو لتعدد الفرائض أو لكثرة المفروض عليهم من السلف  
والخلف ﴿ وأنزلنا فيها ﴾ أى فى تضاعيف السورة ﴿ آيات بينات ﴾ إن أريد  
بها الآيات التى نبطت بها الأحكام المفروضة وهو الأظهر فكونها فى السورة  
ظاهر ومعنى كونها بينات وضوح دلالاتها على أحكامها لا على الإطلاق فإنها  
أسوة لسائر الآيات فى ذلك وتكرير أنزلنا مع استلزام إنزال السورة لإنزالها  
لإبراز كمال العناية بشأنها ولأن أريد جميع الآيات فالظرفية باعتبار اشتمال الكل  
على كل واحد من أجزائه وتكرير أنزلنا مع أن جميع الآيات عين السورة  
وإنزالها لاستقلالها بعنوان رائق داع إلى تخصيص إنزالها بالذكر لإبانة  
لخطرها ورفعها لمحلها كقوله تعالى ( ونجيناهم من عذاب غليظ ) بعد قوله تعالى :  
( نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ) ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ بحذف إحدى  
التأين وقرئ ء يادغام الثانية فى الذال أى تتذكرونها فتعملون بموجها عند  
وقوع الحوادث الداعية إلى إجراء أحكامها وفيه إيذان بأن حقها أن تكون  
على ذكر منهم بحيث متى مست الحاجة إليها استحضروها .

### أحكام الزنى

﴿ الزانية والزانى ﴾ شروع فى تفصيل ما ذكر من الآيات البينات وبيان  
أحكامها والزانية هى المرأة المطاوعة للزنا الممكنة منه كما تليق عنه الصيغة  
لا المزية كرها وتقديمها على الزانى لأنها الأصل فى الفعل لكون الداعية فيها  
أوفر ولولا تمكينها منه لم يقع ورفعها على الابتداء والخبر قوله تعالى :  
﴿ فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط إذ  
اللام بمعنى الموصول والتقدير التى زنت والذى زنى كما فى قوله تعالى ( واللذان  
يأتيانها منكم فآذوهما ) وقيل الخبر محذوف أى فيما أنزلنا أو فيما فرضنا الزانية

والزاني أى حكمهما وقوله تعالى فاجلدوا الخ بيان لذلك الحكم وكان هذا عاما في حق المحصن وغيره وقد نسخ في حق المحصن قطعا ويكفيها في تعيين النسخ القطع بأنه عليه الصلاة والسلام قد رجم ماعزا وغيره فيكون من باب نسخ الكتاب بالسنة المشهورة وفي الإيضاح الرجم حكم ثبت بالسنة المشهورة المتفق عليها فجازت الزيادة بها على الكتاب وروى عن علي رضي الله عنه جلدها بكتاب الله وزجرتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل نسخ بآية منسوخة التلاوة هي الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله وانه عزيز حكيم ونبأناه ما روى عن علي رضي الله عنه ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة ﴾ وقرىء بفتح الهمزة وبالمدة أيضا على فاعلة أى رحمة ورقة ﴿ في دين الله ﴾ في طاعته وإقامته حده فمطلوه أو تسامحوا فيه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ من باب التهييج والإلهاب فإن الإيمان بهما يقتضى الجِد في طاعته تعالى والاجتهاد في إجراء أحكامه وذكر اليوم الآخر لتذكير ما فيه من العقاب في مقابلة المسامحة والتعطيل .

﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ أى لتحضره زيادة في التنكيل فإن التفضيح قد ينكل أكثر مما ينكل التعذيب والطائفة فرقة يمكن أن تكون حافة حول شيء من الطوف وأقلها ثلاثة كما روى عن قتادة وعن ابن عباس رضي الله عنهما أربعة إلى أربعين وعن الحسن عشرة والمراد جمع يحصل به التشهير والزجر ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴾ حكم مؤسس على الغالب المعتاد جرى به لزجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا بهن وقد رغب بعض من ضعفة المهاجرين في نكاح موسرات كانت بالمدينة من بغايا المشركين فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك فنفروا عنه ببيان أنه من أفعال الزناة وخصائص المشركين كأنه قيل الزاني لا يرغب إلا في نكاح إحداهما والزانية لا يرغب في نكاحها إلا أحدهما فلا تحوموا حوله كيلا تتظلموا في سلكهما

أو تتسموا بسمتهما في إيراد الجملة الأولى مع أن مناط التنفير هي الثانية إما للتعريض بقصرهم الرغبة عليهن حيث استأذنوا في نكاحهن أو لتأكيد العلاقة بين الجانبين مبالغة في الزجر والتنفير وعدم التعرض في الجملة الثانية للمشاركة للتنبيه على أن مناط الزجر والتنفير هو الزنا لا مجرد الإشراف وإنما تعرض لها في الأولى إشباعاً في التنفير عن الزانية بنظمها في سلك المشركة ﴿وحرم ذلك﴾ أي نكاح الزواني ﴿على المؤمنين﴾ لما أن فيه من التشبه بالفسقة والتعرض للتهمة والتسبب لسوء القالة والظن في النسب واختلال أمر المعاش وغير ذلك من المفاسد ما لا يكاد يليق بأحد من الآدائي والآراذل فضلاً عن المؤمنين ولذلك عبر عن التنزيه بالتحريم مبالغة في الزجر وقيل التقى بمعنى النهي وقد قرئ به والتحريم على حقيقته والحكم إما مخصوص بسبب النزول أو منسوخ بقوله تعالى ﴿وأنكحوا الأيامي منكم﴾ فإنه متناول للمساحات ويؤيده ما روى أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال وما قيل من أن المراد بالنكاح هو الوطء بين البطلان .

﴿والذين يرمون المحصنات﴾ بيان لحكم العفاف إذا نسب إلى الزنا بعد بيان حكم الزواني ويعتبر في الإحصان ههنا مع مدلوله الوضعي الذي هو العفة عن الزنا الحرية والبلوغ والإسلام وفي التعبير عن التفوه بما قالوا في حقهن بالرمي المنهي عن صلابة الآلة وإيلام المرمى وبعده عن الرامي إيذان بشدة تأثيره فيهن وكونه رجماً بالغيب والمراد به رمين بالزنا لا غير وعدم التصريح به للاكتفاء بإيرادهن عقيب الزواني ووصفهن بالإحصان الدال بالوضع على غزاهتهن عن الزنى خاصة فإن ذلك بمنزلة التصريح بكون رمين به لا بحالة ولا حاجة في ذلك إلى الاستشهاد باعتبار الأربعة من الشهداء على أن فيه مؤنة بيان تأخر نزول الآية عن قوله تعالى ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة﴾ ولا بعدم وجوب الحد بالرمي بغير الزنى على أن فيه شبهة المصادرة كأنه قيل والذين يرمون العفاف المنزهات عما رمين به من الزنى ﴿ثم لم يأتوا بأربعة شهداء﴾ يشهدون عليهن بما رموهن به وفي كلمة ثم إشعار بجواز تأخير الإتيان بالشهود كما أن في كلمة

لم إشارة إلى تحقق العجز عن الإتيان بهم وتقرره خلا أن أجتاع الشهود لا بد منه عند الأداء خلافا للشافعي رحمه الله تعالى فإنه جوز التراخي بين الشهادات كما بين الرمي والشهادة وينجوز أن يكون أحدهم زوج المقدوفة خلافا له أيضا وقرئ بأربعة شهداء (فاجلدوهم ثمانين جلدة) لظهور كذبهم واقتراثهم بمعجزهم عن الإتيان بالشهداء لقوله تعالى (فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) واتصاف ثمانين كاتصاف المصادر ونصب جلدة على التمييز وتخصيص رميهم (١) بهذا الحكم مع أن حكم رمي المحصنين أيضا كذلك لخصوص الواقعة وغيوغ الرمي فيهن .

(ولا تقبلوا لهم شهادة) عطف على اجدلوا داخل في حكمه تنمة له لما فيه معنى الزجر لأنه مؤلم للقلب كما أن الجلد مؤلم للبدن وقد آذى المقدوف بلسانه فعوقب بإهدار منافعه جزاء وفاقا واللام في لهم متعلقة بمحذوف هو حال من شهادة قدمت عليها لكونها نكرة ولو تأخرت عنها لكانت صفة لها وفائدتها تخصيص الرد بشهادتهم الناشئة عن أهليتهم الثابتة لهم عند الرمي وهو السر في قبول شهادة الكافر المحدود في القذف بعد التوبة والإسلام لأنها ليست ناشئة عن أهليته السابقة بل عن أهلية حدثت له بعد إسلامه فلا يتناولها الرد فتدبر ودع عنك ما قيل من أن المسلمين لا يعبأون بسبب الكفار فلا يلحق المقدوف بقذف الكافر من الشين والشنار ما يلحقه بقذف المسلم فإن ذلك بدون ما مر من الاعتبار لتعليل في مقابلة النص ولا يخفى حاله فالمعنى لا تقبلوا منهم شهادة من الشهادات حال كونها حاصلة لهم عند الرمي (أبدا) أي مدة حياتهم وإن تابوا وأصلحوا لما عرفت من أنه تنمة للحد كأنه قيل فاجلدوهم وردوا شهادتهم أي فاجمعوا لهم الجلد والرد فيبقى كأصله (وأولئك هم الفاسقون) كلام مستأنف مقرر لما قبله ومبين لسوء حالهم عند الله عز وجل وما في اسم الإشارة من معنى البعد للإيدان ببعده منزلتهم في الشر والفساد أي

أولئك هم المحكوم عليهم بالفسق والخروج على الطاعة والتجاوز عن الحدود الكاملون فيه كأنهم هم المستحقون لإطلاق اسم الفاسق عليهم لا غيرهم من الفسقة وقوله تعالى ﴿إلا الذين تابوا﴾ استثناء من الفاسقين كما يفيء عنه التعليل الآتي وعمل المستثنى النصب لأنه عن موجب وقوله تعالى ﴿من بعد ذلك﴾ لتحويل المتوب عنه أى من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم الهائل ﴿وأصلحوا﴾ أى أصلحوا أعمالهم التى من جملتها ما فرط منهم بالتلافى والتدارك ومنه الاستسلام للحد والاستحلال من المقدوف ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ تعليل لما يفيد الاستثناء من العفو عن المؤاخذه بموجب الفسق كأنه قيل فحينئذ لا يؤاخذهم الله تعالى بما فرط منهم ولا ينظمهم فى سلك الفاسقين لأنه تعالى مبالغ فى المغفرة والرحمة هذا وقد علق الشافعى رحمه الله الاستثناء بالنهى فعمل المستثنى حينئذ الجبر على البدلية من الضمير فى لهم وجعل الأبد عبارة عن مدة كونه قاذفا فتنتهى بالتوبة فتقبل شهادته بعدها .

### حكم قذف الزوجات

﴿والذين يرمون أزواجهن﴾ بيان الحكم الرامين لأزواجهن خاصة بعد بيان حكم الرامين لغيرهن لكن لا بأن يكون هذا مخصصا للمحصنات بالأجنبيات ليلزم بقاء الآية السابقة ظنية فلا يثبت بها الحد فإن من شرائط التخصيص أن لا يكون المخصص متراخى النزول بل بكونه ناسخا لعمومها ضرورة تراخى نزولها كما سيأتى فتبقى الآية السابقة قطعية الدلالة فيما بقى بعد النسخ لما بين فى موضعه أن دليل النسخ غير معلل ﴿ولم يكن لهم شهداء﴾ يشهدون بما رموهن به من الزنى وقرئ بتأنيث الفعل ﴿إلا أنفسهم﴾ بدل من شهداء أو صفة لها على أن إلا بمعنى غير جعلوا من جملة الشهداء إيذانا من أول الأمر بعدم إلغاء قولهم بالمرّة ونظمه فى سلك الشهادة فى الجملة وبذلك ازداد حسن إضافة الشهادة إليهم فى قوله تعالى ﴿فشهادة أحدهم﴾ أى شهادة كل واحد منهم وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿أربع شهادات﴾ خبره أى فشهادتهم المشروعة أربع شهادات

( بالله ) متعلق بشهادات لقربها وقيل بشهادة لتقدمها وقرىء أربع شهادات بالنصب على المصدر والعامل فشهادة على أنه إما خبر لمبتدأ محذوف أى فالواجب شهادة أحدهم وإما مبتدأ محذوف الخبر فشهادة أحدهم واجبة ( لأنه لمن الصادقين ) أى فيما رماها به من الزنا وأصله على أنه الخ فحذف الجار وكسرت إن وعلق العامل عنها للتأكيد ( والخامسة ) أى الشهادة الخامسة للأربع المتقدمة أى الجماعة لها خمساً بانضمامها إليهن وإفرادها عنهن مع كونها شهادة أيضاً لاستقلالها بالفحوى ووكدتها فى إفادة ما يقصد بالشهادة من تحقيق الخبر وإظهار الصدق وهى مبتدأ خبره ( أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ) فيما رماها به من الزنا فإذا لاعن الزوج حبست الزوجة حتى تعترف فترجم أو تلاحم أو تلاعن ( ويدراً عنها العذاب ) أى العذاب الدنيوى وهو الحبس المغيا على أحد الوجهين بالرجم الذى هو أشد العذاب ( أن تشهد أربع شهادات بالله إنه ) أى الزوج ( لمن الكاذبين ) أى فيما رمانى به من الزنا .

( والخامسة ) بالنصب عطفاً على أربع شهادات ( أن غضب الله عليها إن كان ) أى الزوج ( من الصادقين ) أى فيما رمانى به من الزنا وقرىء والخامسة بالرفع على الابتداء وقرىء أن بالتخفيف فى الموضعين ورفع اللعنة والغضب وقرىء أن غضب الله وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها لما أنها مادة الفجور ولأن النساء كثيراً ما يستعملن اللعن فربما يجترئن على التفوه به لسقوط وقعه عن قلوبهن بخلاف غضبه تعالى روى أن آية القذف لما نزلت قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقام عاصم بن عدى الأنصارى رضى الله عنه فقال جعلنى الله فداك إن وجد رجل مع امرأته رجلاً فأخبر جلد ثمانين وردت شهادته وفسق وإن ضربه بالسيف قتل وإن سكنت سكنت على غيظ وإلى أن يجيىء بأربعة شهداء فقد قضى الرجل حاجته ومضى اللهم افتح وخرج فاستقبله هلال بن أمية أو عويمر فقال ما ورامك قال شر وجدت على امرأتى خولة وهى بنت عاصم شريك بن سحماه فقال والله هذا سؤالى ما أسرع ما ابتليت به فرجعاً فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم



فكلم خولة فأنكرت فلا عن بينهما والفرقة الواقعة باللعان في حكم التطليقة البائنة عند أبي حنيفة ومحمد رحمهما الله ولا يتأبد حكمها حتى إذا أكذب الرجل نفسه بعد ذلك فقد جاز له أن يتزوجها وعند أبي يوسف وزفر والحسن بن زياد والشافعي رحمهم الله هي فرقة بغير طلاق توجب تحريراً مؤبداً ليس لها اجتماع بعد ذلك أبداً .

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم) التفات إلى خطاب الرامين والمريات بطريق التغليب لتوفية مقام الامتنان حقه وجواب لولا محذوف لتحويله والإشعار بضيق العبارة عن حصره كأنه قيل ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة حكيم في جميع أفعاله وأحكامه التي جعلتها ما شرع لكم من حكم اللعان لكان ما كان بما لا يحيط به نطق البيان ومن جعلته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حد القذف مع أن الظاهر صدقه لأنه أعرف بحال زوجته وأنه لا يفترى عليها لا اشتراكهما في الفضاحة وبعد ما شرع لهم ذلك لجعل شهادته موجبة لحد القذف عليه لغات النظر له ولا ريب في خروج الكل عن سنن الحكمة والفضل والرحمة فجعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب أحدهما حادثة لما توجه إليه من الغائلة الدنيوية وقد ابتلى الكاذب منهما في تضاعيف شهاداته من العذاب بما هو أتم مما درأته عنه وأعلم وفي ذلك من أحكام الحكم البالغة وآثار التفضل والرحمة ما لا يخفى أما على الصادق فظاهر وأما على الكاذب فهو إمهاله والستر عليه في الدنيا ودرء الحد عنه وتعميضة للتوبة حسياً يلبي عنه التعرض لعنوان توابيته سبحانه ما أعظم شأنه وأوسع رحمته وأدق حكمته .

### قصة الإفك

(إن الذين جاؤا بالإفك) أي بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء وقيل البهتان لا تشعر به حتى يفجأك وأصله الإفك وهو القلب لأنه مأفوك عن وجهه وبطله والمراد به ما أفك به الصديقة أم المؤمنين رضى الله عنها وفي لفظ

المجىء إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرجت قربةها استصحبها قالت عائشة رضى الله عنها فأقرع بيننا في غزوة غزاها قيل غزوة بنى المصطلق فخرج سهمى فخرجت معه عليه السلام بعد نزول آية الحجاب فحملت في هودج فسرنا حتى إذا قلنا ودنونا من المدينة نزلنا منزلا ثم نودى بالرحيل فقمنا ومشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فلست صدري فإذا عقدي من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتصت به فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجى فراحلوه على بعيرى وهم يحسبون أنى فيه لحقى فلم يستنكروا خفة الهودج وذهبوا بالبعير ووجدت عقدي بعد ما استمرت الجيش فجئت منازلهم وليس فيها داع ولا مجيب فتيممت منزلى وظننت أنى سيفقدونى ويعودون فى طلبى فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فتمت وكان صفوان بن المعطل السلى من وراء الجيش فلما رأى عرفت فاستيقظت باسترجاعه فخرمت وجهى بحلبابى ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فقمنا إليها فركبتها وانطلق يقود فى الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين فى نحر الظهيرة وهم نزول وافقدنى الناس حين نزلوا وبماج القوم فى ذكرى فبينما الناس كذلك إذ هجمت عليهم فخاض الناس فى حديثي فهلك من هلك ؛ وقوله تعالى :

( غصبة منكم ) خبر أن أى جماعة وهى من العشرة إلى الأربعين وكذا العصابة وهم عبد الله بن أبى وزيد بن رفاعه وحسان بن ثابت ومسطح بن أثانة وحمزة بن جحش ومن ساعدتهم وقوله تعالى ( لا تحسبوه شرا لكم ) استئناف خوطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعائشة وصفوان رضى الله عنهم تسليية لهم من أول الأمر والضمير للإفك ( بل هو خير لكم ) لا كتمانكم به الثواب العظيم وظهور كرامتكم على الله عز وجل بانزال ثمانى عشرة آية فى نزاهة ساحبتكم وتعظيم شأنكم وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيكم ( ٧ - أبو السمود - رابع )

والثناء على من ظن بكم خيرا ﴿ لكل امرئ منهم ﴾ أى من أولئك العصبة  
 ﴿ ما اكتسب من الإثم ﴾ بقدر ما خاض فيه ﴿ والذي تولى كبره ﴾ أى  
 معظمه وقرئ بضم الكاف وهى لغة فيه ﴿ منهم ﴾ من العصبة وهو ابن أبى  
 فإنه بدأ به وأذاعه بين الناس عدواة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل هو  
 وحسان ومسطح فإنهما شايعاء بالتصريح به فإفراد الموصول حيثئذ باعتبار  
 الفوج أو الفريق أو نحوهما ﴿ له عذاب عظيم ﴾ أى فى الآخرة أو فى الدنيا  
 أيضا فإنهم جلدوا وردت شهادتهم وصار ابن أبى مطرودا مشهودا عليه بالنفاق  
 وحسان أعمى وأشل اليدين ومسطح مكفوف البصر وفى التعبير عنه بالذى  
 وتكرير الإسناد وتذكور العذاب ووصفه بالعظم من تهويل الخطاب  
 ما لا يخفى .

﴿ لولا إذ سمعتموه ﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم وذويه إلى الخائضين بطريق الالتفات لتشديد ما فى لولا التحضيضية  
 من التوبيخ ثم العدول عنه إلى الغيبة فى قوله تعالى ﴿ ظن المؤمنون والمؤمنات  
 بأنفسهم خيرا ﴾ لتأكيد التوبيخ والتشنيع لكن لا بطريق الإغرائى عنهم  
 وحكاية جنائياتهم لغيرهم على وجه المبالغة بل بالتوسل بذلك إلى وصفهم بما  
 يوجب الإتيان بالمحضض عليه ويقتضيه اقتضاء تاما ويزجرهم عن ضده زجرا  
 بليغا فإن كون وصف الإيمان بما يحملهم على إحسان الظن ويكفهم عن إساءته  
 بأنفسهم أى بأبناء جنسهم النازلين منزلة أنفسهم كقوله تعالى ﴿ ثم أنتم هؤلاء  
 تقتلون أنفسكم ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا تلبسوا أنفسكم ﴾ مما لا ريب فيه لإخلاصهم بموجب  
 ذلك الوصف أفتح وأشنع والتوبيخ عليه أدخل مع ما فيه من التوسل به إلى  
 التصريح بتوبيخ الخائضات ثم إن كان المراد بالإيمان الإيمان الحقيقى فإيجابه  
 لمذكر وأصح والتوبيخ عاقل بالمؤمنين وإن كان مطلق الإيمان الشامل لما  
 يظهره المتفقون أيضا فإيجابه له من حيث أنهم كانوا يحتززون عن إظهار ما يتنافى  
 مع عام التوبيخ حيثئذ متوجه إلى الكل وتوسيط الطرف بين لولا وفعلها  
 لخصيص النص بالذين بالزمان سمعهم وقصر التوبيخ على تأخير الإتيان

بالمحضض عليه عن ذلك الآن والتودد فيه لينجد أن عدم الإتيان به رأساً في غاية ما يكون من القباحة والشناعة أى كان الواجب أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأول ما سمعوه ممن اختبره بالذات أو بالواسطة من غير تعلم وتردد بمثلهم من آحاد المؤمنين خيراً (وقالوا) في ذلك الآن (هذا إلفك مبين) أى ظاهر مكشوف كونه إفساداً فكيف بالعديقة ابنة الضديق أم المؤمنين حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم (لولا جاءوا عليه بالربعة شهداء) إما من تمام القول المحضض عليه مسوق لحث السامعين على إلزام المتسمعين وتكذيبهم إثر تكذيبهما سمعوه عنهم بقولهم هذا إلفك مبين ومؤييدهم على ترك أى حلا جاءوا الخاضعون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا؟

(فإذا لم يأتوا) بهم وإنما قيل (بالشهداء) لزيادة التقرير (وأولئك) إشارة إلى الخائضين وما فيه من معنى البعد للايدان بغلوم في الفساد وبعد منزلتهم في الشر أى أولئك المفسدون (عند الله) أى في حكمه وشرعه المؤسس على الدلائل الظاهرة المتقنة (هم الكاذبون) الكامبون في الكذب المشهود عليهم بذلك المستحقون لإطلاق اللعن عليهم دون غيرهم ولذلك رتب عليه الحد خاصة وأما كلام جنداً مسوق من جهة تعالى للاحتجاج على كذبهم يكون ما قالوه قولاً لا يساعده الالليل أصلاً (ولولا فضل الله عليكم) خطاب للسامعين والمسمعين جميعاً (بقرحة في الدنيا) من فنون النعم التي من جعلتها الإمهال للتوبة (والآخرة) من ضروب الآلاء التي من جعلتها العفو والمغفرة بعد التوبة (لستم) عاجلاً (فيما أفضتم فيه) بسبب ما خضتم فيه من حديث الإلفك والإيهام لتحويل أمره والاستهجان بذكره يقال أفاض في الحديث وخاض واندفع وهضب بمعنى (عذاب عظيم) يستحقه دونه التوبيخ والجلد (لذلقونه) يحذف إحدى التامين ظرف لليس أى لمحكم ذلك العذاب العظيم وقت تلقىكم إياه من المختارين (بالسكتكم) والفق نوال القنف والفق معان متقاربة خلا أن في الأول معنى الاستقبال وفي الثاني معنى الخطف والاختط يسرعه وفي الثالث معنى الخلق والمهارة وقرىء تلقونه على الأصل وتلقونه

من لقيه وتلقونه بكسر حرف المضارعة وتلقونه من إلقاء بعضهم على بعض  
وتلقونه وتلقونه من الولى الألقى وهو الكذب وتثقفونه من ثقفته إذا طلبته  
وتثقفونه أى تتبعونه (وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) أى تقولون  
قولا مختصا بالأفواه من غير أن يكون له مصداق ومثلشأ فى القلوب لأنه ليس  
بتعبير عن علم به فى قلوبكم كقوله تعالى (يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم)  
(وتحسبونه هينا) سهلا لا تبعه له أو ليس له كثير عقوبة (وهو عند الله)  
والحال أنه عنده عز وجل (عظيم) لا يقادر قدره فى الوزر واستجرار العذاب  
(ولولا إذ سمعتموه) من المخترعين أو المشايين لهم (قلتم) تكذبا لهم  
وتهويلا لما ارتكبوه (ما يكون لنا) ما يمكننا (أن نتكلم بهذا)  
وما يهدر عنا ذلك بوجه من الوجوه وحاصله نفى وجود التكلم به لا نفى  
وجوده على وجه الصحة والاستقامة والإنباء وهذا إشارة إلى ما سمعوه  
وتوسط الظرف بين لولا وقلتم لما مر من تخصيص التحضيض بأول وقت  
السمع وقصر التوبيخ واللوم على تأخير القول المذكور عن ذلك الآن لينفذ  
أنه المحتمل للوقوع المنتظر إلى التحضيض على تركه وأما ترك القول نفسه رأسا  
فما لا يتوهم وقوعه حتى يحضض على فعله ويلام على تركه وعلى هذا ينبغي أن  
يحمل ما قيل أن المعنى أنه كان الواجب عليهم أن يتضادوا أول ما سمعوا بالإفك  
عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت لهم وجب التقديم وأما ما قيل من أن ظروف  
الاشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها وأنها لا تنفك عنها فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع  
فى غيرها فى ضابطة ربما استعملت نجا إذا وضع الظرف موضع المظروف بأن  
جعل مفعولا صريحا لفعل منه كقول تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء)  
أو محذورا كعبارة الظروف المنصوبة باضمار اذكر وأما ههنا فلا حاجة إليها أصلا  
لأنه قد ثبت أن جملة التقديم توجيه التحضيض إليه وذلك يتحقق فى جميع  
الأمثلة المذكورة فى قوله تعالى (قلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها)  
(مبطلاتكم) تمحلت من تفوته به وأصله أى يذكر عند معاملة العجيب  
من هؤلاء تعالى تزيها له سبحانه عن أن يضرب عليه أمثاله ثم كثر حتى استعمل

في كل متعجب منه أو تنزيه له تعالى عن أن تكون حرمة فيه فاجرة فإن  
يجورها تنفوز عنه ومغل بمقصود الزواج فيكون تقريراً لما قبله وتمهيداً لقوله  
تعالى ﴿ هذا بهتان عظيم ﴾ لعظمة المبهوت عليه واستحالة صدقه فإن حقارة  
الذنوب وعظمها باعتبار متعلقاتها ﴿ يعظكم الله ﴾ أى ينصحكم ﴿ أن تعودوا  
لمثله ﴾ أى كراهة أن تعودوا أو يجرم من أن لا تعودوا من قولك وعظته  
في كذا فتركه ﴿ أبداً ﴾ أى مدة حياتكم ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ فإن الإيمان  
وازع عنه لا محالة وفيه تيسير وتقرير ﴿ وبين الله لكم الآيات ﴾ الدالة على  
الشرائع ومحاسن الآداب دلالة واضحة لتعظوا وتتأدبوا بها أى ينزلها كذلك  
أى حليقة ظاهرة الدلالة على معانيها لا أنه بينها بعد أن لم تكن كذلك وهذا  
كفا في قولهم سبحانه من صغر البعوض وكبر الفيل أى خلقهما صغيراً وكبيراً  
ومنه قولك ضيق فم الركية ووسع أسفلها وإظهار الاسم الجليل في موقع  
الإضمار لتفخيم شأن البيان ﴿ والله عليم ﴾ بأحوال جميع مخلوقاته جلالاتها  
ودقائقها ﴿ حكيم ﴾ في جميع تدابير وأفعاله فأنى يمكن صدق ما قيل في حق  
حرمة من اصطفاه لرسالاته وبعثه لكافة<sup>(١)</sup> الخلق ليرشدوا إلى الحق ويرزقهم  
ويظهرهم تطهيراً وإظهار الاسم الجليل هنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييل  
والإشعار بملة الألوهية للعالم والحكمة .

﴿ إن الذين يحبون ﴾ أى يريدون ويقصدون ﴿ أن تشيع الفاحشة ﴾  
أى تنتشر الخصلة المفردة في القبح وهى الفرية والرمى بالزنا أو نفس الزنا  
فالمراد بشيوعها شيوع خبرها أى يحبون شيوعها ويتصدون مع ذلك لإشاعتها  
ولأنهم يصرحون به اكتفاء بذكر المحبة فإنها مستتعبة له لا محالة ﴿ في الذين آمنوا ﴾  
متمعلق بتشيع أى تشيع فيما بين الناس وذكر المؤمنين لأنهم العمدة فيهم أو بعضهم  
هو حال من الفاحشة فالوصول عبارة عن المؤمنين خاصة أى يحبون أن  
تشيع الفاحشة كائنة في حق المؤمنين وفي شأنهم ﴿ لهم ﴾ بسبب ما ذكر

(عذاب اليم في الدنيا) من الحد وغيره مما يتفق من البلايا الدنيوية ولقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد الله بن أبي وحسانا ومسطحاً حد القذف وضرب صفوان حسناً بضربة بالمصيف وكلف بصره (والآخرة) من عذاب النار وغير ذلك مما يطله الله عز وجل (وولله يعلم) جميع الامور التي من جهتها ما في الضمائر من المحبة المذكورة (وانتم لا تعلمون) ما يعلمه تعالى بل انما تعلمون ما ظهر لكم من الأقوال والأفعال المحسوسة فابنوا أموركم على ما تعلمونه وعاقبوا في الدنيا على ما تشاهدونه من الأحوال الظاهرة والله سبحانه هو المتولى للسرائر فيعاقب في الآخرة على ما تمكنه الصدور هذا إذ جعل العذاب الاليم في الدنيا عبارة عن حد القذف أو منتظماً له كما أطبق عليه الجمهور أما إذ يفق على إطلاقه يراد بالمحبة نفسها من غير أن يقارنها بالتصدي للإشاعة وهو الأنسب بسيلق للنظم للمكرم فيكون ترتيب العذاب عليها تنبهاً على عذاب من يبشر الإشاعة ويتولاها أشد وأعظم ويكون الاعتراض التذييلي أهني قوله تعالى (وولله يعلم وانتم لا تعلمون) تقريراً للنبوت العذاب الاليم لهم وتعليلاً له.

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته) تكرر بالمنة بترك التمام بالجملة بالعقاب للتنبية على كمال عظم الجريمة (وأن الله رؤوف رحيم) عطف على فضل الله وإظهار الاسم الجليل لتبينة المهابة والإشعار باستتياج صفة الألوهية للرافة والرحمة وتغيير سمكة وتغييره بحرف التحقيق لما لأن المراد ببيان انصافه تعالى في ذاته بالرافة التي هي كمال الرحمة والرحمة التي هي المبالغة فيها على الدوام والاستمرار لا بيان حدوث تعلق برافته ورحمته بهم كآله المراد بالمعطوف عليه وجواب لولا بخلاف دلالة ما قبله عليه (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) أي لا تسلكوا مسالكه في كل ما تاتون وما تزدون من المأثمات التي منه جهتها الإشاعة الفاجسة وحجها وقرىء خطوات بسكون الظلم وفتحها أيضاً (ومن يتبع خطوات الشيطان) وضع الظاهران موضع ضميرهما حيث لم يقل ومن يتبعها أو ومن يتبع خطواته لزيادة التقرير والإلحاح في التنبه والتحذير

﴿ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ علة للجواز وضعت موضعه كأنه قيل فقد ارتكب الفحشاء والمنكر لأنه دأبه المستمر أن يأمر بهما فمن اتبع خطواته فقد أمثل بأمره قطعا والفحشاء بما أفرط قبسه كالفاحشة والمنكر ما ينكره الشرع وضمير إنه للشیطان وقيل للنعمان على رأى من لا يوجب هود الضمير من الجملة الجزائية إلى اسم الشرط أو على أن الأصل يأمره وقيل هو عائد إلى من أى فان ذلك المتبع يأمر الناس بهما لأن شأن الشيطان هو الإضلال فمن اتبعه يترقى من رتبة الضلال والفساد إلى رتبة الإضلال والإفساد .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ بما من جلته هاتيك البيانات والتوفيق للتوبة الخاصة للذنوب وشرح الحدود المكفرة لها ﴿ مَا زَكَ ﴾ أى ما طهر من دنسها وقرىء ما زكى بالتشديد أى ما طهر الله تعالى ومن فى قوله تعالى ﴿ مِنْكُمْ ﴾ بيانية وفى قوله تعالى ﴿ مِنْ أَحَدٍ ﴾ زائدة وأحد فى حيز<sup>(١)</sup> الرفع على الفاعلية على القراءة الأولى وفى محل النصب على المفعولية على القراءة الثانية ﴿ أَبَدًا ﴾ لا إلى نهاية ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَزْكِي ﴾ يطهر ﴿ مِنْ يَشَاءُ ﴾ من عباده بإفاضة آثار فضله ورحمته عليه وحمله على التوبة ثم قبولها منه كما فعل بكم ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ مبالغ فى سمع الأقوال التى من جملتها ما أظهره من التوبة ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بجميع المعلومات التى من جملتها نياتهم وفيه حث لهم على الإخلاص فى التوبة وإظهار الاسم الجليل للإيدان باستدعاء الألوهية للسمع والعلم مع ما فيه من تأكيد استقلال الاعتراض التذييل ﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ أى لا يحلف افتعال من الآلة وقيل لا يقصر من الأول والأول هو الأظهر لنزوله فى شأن الصديق رضى الله عنه حين حلف أن لا ينفق على مسطح بعد وكان ينفق عليه لكونه ابن خالته وكان من فقراء المهاجرين وبعضه قراءة من قرأ ﴿ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ ﴾ فى الدين وكفى به دليلا على فضل الصديق رضى الله تعالى عنه ﴿ وَالسَّعَةِ ﴾ فى المسال ﴿ أَنْ يُوْتُوا ﴾ أى على أن لا يوتوا وقرىء بتمام الخطاب على الالتفات



﴿أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ صفات لموصوف وإحدى جمى بها بطريق العطف تنبيها على أن كلا منها علة مستقلة لاستحقاقه الأبناء وقيل لموصوفات أقيمت هى مقامها وحذف المفعول الثانى لغاية ظهوره أى على أن لا يؤتوهم شيئا ﴿وليعفوا﴾ ما فرط منهم ﴿وليصفحوا﴾ بالإغضاء عنه وقد قرئ الأمران بناء الخطاب على وفق قوله تعالى ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ أى بمقابلة عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم ﴿والله غفور رحيم﴾ مبالغ فى المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على المؤاخظة وكثرة ذنوب العباد الداعية إليها وفيه ترغيب عظيم فى العفو ووعد كريم بمقابلته كأنه قيل ألا تحبون أن يغفر الله لكم فهذا من موجباته روى أنه عليه الصلاة والسلام قرأه على أبى بكر رضى الله عنه فقال بل أحب أن يغفر الله لى فرجع إلى مسطح نفقته وقال والله لا أنزعها أبدا .

﴿إن الذين يرمون المحصنات﴾ أى العفاف مما رمين به من الفاحشة ﴿الغافلات﴾ عنها على الإطلاق بحيث لم يخطر ببالهن شيء منها ولا من مقدماتها أصلا ففيها من الدلالة على كمال النزاهة ما ليس فى المحصنات أى السليمات الصدور النقيات القلوب عن كل سوء ﴿المؤمنات﴾ أى المتصفات بالإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به الواجبات والمحظورات وغيرها إيمانا حقيقيا تفصيليا كما ينبىء عنه تأخير المؤمنات عما قبلها من أصالة وصف الإيمان فإنه للإيدان بأن المزداد بها المعنى الوصفى المعرب كما ذكر لا المعنى الاسمى المصحح لإطلاق الاسم فى الجملة كما هو المتبادر على تقدير التقديم والمراد بها عائشة الصديقة رضى الله عنها والجمع باعتبار أن رميها رمى لسائر أمهات المؤمنين لاشتراك الكل فى العصمة والنزاهة والانتساب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فى قوله تعالى (كذبت قوم نوح المرسلين) ونظائره وقيل أمهات المؤمنين فيدخل فتهن الطريقة دخول أوليا وأما ما قيل من أن المراد هى الصديقة والجمع باعتبار استتباعها للمتصفات بالصفات المذكورة من نساء الأمة فيأباه أن العقوبات المترتبة على رمى هؤلاء عقوبات مختصة بالكفار والمنافقين ولا ريب فى أن

رمى غير أمهات المؤمنين ليس بكفر فيجب أن يكون المراد إياهن على أحد الوجهين. فإنهن قد خصصن من بين سائر المؤمنات فجعل رميهن كفرا إبرازا لكرامتهن على الله عز وجل وحماية في الرسالة من أن يحوم حوله أحد بسوء حتى أن ابن عباس رضي الله عنهما جعله أغلظ من سائر أفراد الكفر حين سئل عن هذه الآيات فقال من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاص في أمر عائشة رضي الله عنها وهل هو منه رضي الله عنه إلا لتحويل أمر الافك والتلبيس على أنه كفر غليظ (لعنوا) بما قالوه في حقهن (في الدنيا والآخرة) حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين والملائكة أبدا (ولهم) مع ما ذكر من اللعن الأبدي (عذاب عظيم) هائل لا يقادر قدره لغاية عظم ما اقترفوه من الجناية وقوله تعالى

(يوم تشهد عليهم) الخ إما متصل بما قبله مسوق لتقرير العذاب المذكور بتعيين وقت حلوله وتويله ببيان ظهور جناياتهم الموجهة له مع سائر جنائياتهم المستتعة لعقوباتها على كيفية هائلة وهيئة خارقة للعادات (١) فيوم ظرف لما في الجار والمجرور والمتقدم من معنى الاستقرار لا لعذاب وإن أغضينا عن وصفه لإخلاله بمجالة المعنى ولما منقطع عنه مسوق التحويل اليوم بتحويل ما يحويه على أنه ظرف للفعل مؤخر قد ضرب عنه الذكر صفحا للإيذان بقصور العبارة عن تفصيل ما يقع فيه من الطامة التامة والداهية العامة كأنه قيل يوم تشهد عليهم (ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) يكون من الأحوال والأحوال ما لا يحيط به حيلة المقال على أن الموصول المذكور عبارة عن جميع أعمالهم السيئة وجناياتهم القبيحة لا عن جنائياتهم المعهودة فقط. ومعنى شهادة الجوارح المذكورة بها أنه تعالى ينطقها بقدرته فتخبر كل جارحة منها بما صدر عنها من أفعال صاحبها لا أن كل منها يخبر بجناياتهم المعهودة فحسب والموصول المخوف عبارة عنها وعن فنون العقوبات المترتبة عليها كافة لا عن

إحداهما خاصة ففيه من ضروب التهويل بالإجمال والتفصيل ما لا مزيد عليه وجعل الموصول المذكور عبارة عن خصوص جنائيتهم المعهودة وحمل شهادة الجوارح على إخبار السكل بها فقط تحجير للواسع وتودين أمر الوازع والجمع بين صينقى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرارهم عليها فى الدنيا وتقديم عليهم على الفاعل للمسارة إلى بيان الشهادة مضارة لهم مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر كما مر مرارا ، وقوله تعالى :

(يَوْمَئِذٍ يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِدِينِهِمُ الْحَقِّ) أى يوم إذ تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله تعالى جزاءهم الثابت الذى يحقق أن يثبت لهم لا محالة وأفيا كاملا كلام مبتدأ مسوق لبيان ترتيب حكم الشهادة عليها متضمن لبيان ذلك المهم المحذوف على وجه الإجمال ويجوز أن يكون يوم تشهد ظرفا ليؤخّروهم ويومئذ بدلا منه وقيل هو منصوب على أنه مفعول لفعل مضمّر أى اذكر يوم تشهد وقرئ يوم يشهد بالتذكير للفصل (ويعلمون) عند معاينتهم الأحوال والخطوب حسبما نطق به القرآن الكريم (أن الله هو الحق) الثابت الذى يحقق أن يثبت لا محالة فى ذاته وصفاته وأفعاله إلى من جملتها كلماته التامات المنبئة عن الشئون التى يشاهدونها منطقة عليها (المبين) المظهر للأشياء كما هى فى أنفسها أو الظاهر أنه هو الحق وتفسيره بظهور ألوهيته تعالى وعدم مشاركة الغير له فيها وعدم قسوة ما جروا على الثواب والعقاب ليس له كثير مناسبة للمقام كما أن تفسير الحق بنسب الحق بين العادل الظاهر عدله كذلك ولو تجبعت ما فى الفرقان المجيد من آيات الوعيد الواردة فى حق كل كفار مريد وجبار عنيد لا يجد شيئا منها فوق ما تملك القوادع المشدوعة بضوئى التهديد والتشديد وما ذاك إلا لإظهار منزلة النبي صلى الله عليه وسلم فى علو الشأن والنباهة وإبراز رتبة الصديقه رضى الله عنها فى العفة والزهادة وقوله تعالى :

(مَالِكِ يَوْمَئِذٍ) الخ كلام مستأنف مسوق على قاعدة السنة الإلهية الجارية فيما بين الخلق على موجب أن الله تعالى ملكا يسوق الأهل إلى الأهل أى الخبيثات من النساء (للخبيثين) من الرجال أى المحسنات بهم لا يمكن

يتجاوزهم إلى غيرهم على أن اللام للاختصاص (والخبيثون) أيضاً (للخبيثات) لأن المجانسة من حوالى الانضمام (والطيبات) منهن (الطيبين) منهم (والطيون) أيضاً (الطيبات) منهن بحيث لا يكادون يجاوزهن إلى من عداهن وحيث كان زمثل الله صلى الله عليه وسلم أطيب الطيبين وخيرة الأولين والأخيرين تليق بكونه للطبيعة بمعنى الله تعالى من أطيب الطيبات بالضرورة وانفتح بطلان ما قيل من حقها من الخرافات حسبما تطلق به قوله تعالى (أولئك مبرؤن مما يقولون) على أن الإشارة إلى أهل البيت المنتظمين بالصديقة المنتظما أوليا وقيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والصديقة وحفواؤه بما في اسم الإشارة من معنى البعد فلا يذان بعلو رتبة المنفرد إليهم وبعد منزلتهم في الفضل أى أولئك الموصوفون بعلو الشأن مبرمون عما تقوله أهل الإفاك في حقهم من الأكاذيب الباطلة وقيل الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال والنساء أى مختصة ولائقة بهم لا ينبغي أن يقال في حق غيرهم وكذا الخبيثون من الفريقين أحقاء بأن يقال في حقهم خبيثات القول والطيبات من الكلام الطيبين من الفريقين مختصة وحقيقة بهم وهم أحقاء بأن يقال في شأنهم طيبات الكلام أولئك الطيبون مبرمون عما يقول الخبيثون في حقهم فمآله تنزيه الصديقة أيضاً وقيل خبيثات القول مختصة بالخبيثين من فريق الرجال والنساء لا تصدر عن غيرهم والخبيثون من الفريقين مختصون بخبيثات القول متعرضون لها والطيبات من الكلام الطيبين من الفريقين أى مختصة بهم لا تصدر عن غيرهم والطيبون من الفريقين مختصون بطيبات الكلام لا يصدر عنهم غير ذلك أولئك الطيبون مبرؤن عما يقوله الخبيثون من الخبيثات أى لا يصدر عنهم مثل ذلك فمآله تنزيه القائمين سبحانه على هذا بهتان عظيم (لهم مغفرة) عظيمة لما لا يحلو لله البشر من الذنوب (ورزق كريم) هو الجنة .

### أحكام اجتماعية

(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم) لأن ما قيل إليه امر

عن الزنا وعن رمي العفاف عنه شرع في تفصيل الزواجر عما عسى يؤدي إلى أحدهما من مخالطة الرجال بالنساء ودخولهم عليهن في أوقات الخلوات وتعليم الآداب الجميلة والأفاعيل المرضية المستتعبة لسعادة الدارين ووصف البيوت بمغارة بيوتهم خارج منخرج العادة التي هي سكنى كل أحد في ملكه وإلا فالأجر والمعبر أيضا منهيان عن الدخول بغير إذن وقرىء بيوتا غير بيوتكم بكسر الباء لأجل الياء ﴿ حتى تستأنسوا ﴾ أى تستأذنوا من يملك الإذن على أن من لا يملكه من النساء والولدان وجدانه كفقده أو أحدا أصلا على أن مدلول النص الكريم عبارة هو النهى عن دخول البيوت الخالية لما فيه من الإطلاع على ما يعتاد الناس لإخفائه مع أن التصرف في ملك الغير محظور مطلقا وأما حرمة دخول ما فيه للنساء والولدان فتأبئة بدلالة النص لأن الدخول حيث حرم مع ما ذكر من العلة فلأن يحرم عند انضمام ما هو أقوى منه إليه أعنى الإطلاع على العورات أولى ﴿ فلا تدخلوها ﴾ واصبروا ﴿ حتى يؤذن لكم ﴾ أى من جهة من يملك الإذن عند إتيانه ومن فسره بقوله حتى يأتى من يأذن لكم أو حتى تجدوا من يأذن لكم فقد أبرز القطعى في معرض الاحتمال ولما كان جعل النهى بالإذن مما يوم الرخصة في الانتظار على الأبواب مطلقا بل في تكرير الاستئذان ولو بعد الرد دفع ذلك بقوله تعالى : ﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا ﴾ أى لأن أمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع سواء كان الأمر بمن يملك الإذن أو لا فارجعوا ولا تلحوا بتكرير الاستئذان كما في الوجه الأول لا تلحوا بالإصرار على الانتظار إلى أن يأتى الإذن كما في الثانى فإن ذلك مما يجلب السكرامة في قلوب الناس ويقبح في المروءة أى قدح ﴿ هو ﴾ أى الرجوع ﴿ أنفك لكم ﴾ أى أظهر بما لا يخلو عنه اللج والعناد والوقوف على الأبواب من دس الدناءة والزلالة ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ فيعلم ما تأتون وما تدرون عما كلفتموه فيجازيكم عليه .

﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوها ﴾ أى بغير استئذان ﴿ بيوتا غير مسكونة ﴾ أى غير مشغولة لمساكنة خاصة مخصوصة فقط بل ليستمتع بها من ينظر إليها

كاننا من كان من غير أن يتخذها سكنا كالربط والخانات والحيوانات والحمامات ونحوها فإنها معدة لمصالح الناس كافة كما بقى عنه قوله تعالى ﴿ فيها متاع لكم ﴾ فإنه صفة للبيوت أو المستقيلات جار مجرى التعليل لعدم الجناح أى فيها حق تمتع لكم كالاستبكان من الحر والبرد ولربوا الأمتعة والرجال والشراء والبيع والاعتسال وغير ذلك مما يليق بحال البيوت ودخلها فلا بأس بدخولها بغير استئذان من داخلها من قبل ولا من يتولى أمرها ويقوم بتدبيرها من قوام الرباطات والخانات والمحلات والحيوانات ومتصرفي الحمامات ونحوهم ويروى أن أنبا بكر رضى الله عنه قال يا رسول الله إن الله تعالى قد أنزلك عليك آية في الاستئذان وإنا نختلف في تجاراتنا فنزل هذه الخانات أفلا يدخلها إلا بإذن؟ فنزلت وقيل هى الخربات يبرز فيها والمتاع التبرز والظاهر أنها من جملة ما ينتظمه البيوت لا أنها المرادة فقط وقوله تعالى ﴿ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ وعيد لمن يدخل مدخلا من هذه المداخل لفساد أو إطلاع على عورات ﴿ قل للمؤمنين ﴾ شروع فى بيان أحكام كلية شاملة للمؤمنين كافة يندرج فيها حكم المستأذنين عند دخولهم البيوت اندراجا أوليا وتلويح الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقويض ما فى جيزه من الأوامر والنواهي إلى رأييه عليه الصلاة والسلام لأنها تكاليف متعلقة بأمور جزئية كثيرة الوقوع بحقيقة بأن يكون الأمر بها والمتصدى لتدبيرها حافظا ومهيما عليهم ومفعول الأمر أمر آخر قد حذف تعويلا على دلالة جوابه عليه أى قل لهم غضوا ﴿ يغضوا من أبصارهم ﴾ عما يحرم ويقتصروا به على ما يحل ﴿ ويحفظوا فروجهم ﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم وتقيد الغض بمن التبعية دون الحفظ لما فى أمر النظر من السعة وقيل المراد بالحفظ هنا خاصة هو السر .

﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من الغض والحفظ ﴿ أزكى لهم ﴾ أى أظهر لهم من دنس الرية ﴿ إن الله خبير بما يصنعون ﴾ لا يخفى عليه شيء مما يصنعون منهم من الأفعال التى من جملة إحالة النظر وإستعمال أساليب الجوارى وتوجيه الجوارى

وما يقصدون بذلك فليكونوا على حذر منه في كل ما يأتون وما يذرون ﴿وقل  
للمؤمنات يفضضن من أبصارهن﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن النظر إليه  
﴿ويحفظن فروجهن﴾ بالتستر أو التصون عن الزنا وتقديم الغض لأن النظر  
يريد الزنا ورأى الفساد ﴿ولا يبدن زينتهن﴾ كالخلى وغيرها مما يتزين به وفيه  
من المبالغة في النهي عن إبداء مواضعها ما لا ينبغي ﴿إلا ما ظهر منها﴾ عند  
مزاولة الأمور التي لا بد منها عادة كالخاتم والكحل والحضاب ونحوها فإن في  
سترها حرجا بينا وقيل المراد بالزينة مواضعها على حذف المضاف أو ما يعم  
الحاسن الخلقية والزينية والمستثنى هو الوجه والكفان لأنها ليست بعورة  
﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ إرشاد إلى كيفية إخفاء بعض مواضع  
الزينة بعد النهي عن إبدائها وقد كانت النساء على عادة الجاهلية يسدان خمرهن  
من خلفهن فتبدون خورهن وقلائدهن من جيوبهن لوسعها فأمرن بإرسال  
خمرهن إلى جيوبهن سترا لما يبدو منها وقد ضمن الضرب معنى الإلقاء فعدى  
بعلی وقرىء بكسر الجيم كما تقدم ﴿ولا يبدن زينتهن﴾ كرر النبي لاستثناؤه  
بعض مواد الرخصة عنه باعتبار الناظر بعد ما استثنى عنه بعض مواد الضرورة  
باعتبار المنظور ﴿إلا لبعلتهن﴾ فإنهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا  
إلى جميع بدنهن حتى الموضع الممهور ﴿أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبناءهن  
أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن﴾ لكثرة  
الاحتياطة الضرورية بينهم وبينهن وقلة توقع الفتنة من قبلهم لما في طباع الفريقين  
من النفرة عن ممانسة القربان ولهم أن ينظروا متهم ما يبدو عقد المنة والخدمة  
وعدم ذكر الأعمال والأحوال لئلا أن الأحوط أن يتستون عنهم حفاظا من  
أن يفضضوهن لأبنائهم ﴿أو نسائهن﴾ المختصات بهن بالخدمة والخدمة من  
حرائر المؤمنات فإن الكوافر لا يتخرجن عن وصفهن الرجال .

﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾ أى من الإماء فإن عبد المرأة بمنزلة الأجنبي  
منها وقيل من الإماء والمعبد لما روى أنه عليه الصلاة والسلام أنه فاطمة رضى  
تلقاها عليها بنبد وجهه لها وظلها ثوب إذا اقتضت بند رأسها لم يبلغ رجلها وإذا

غطت رجليها لم يبلغ رأسها فقال له عليه الصلاة والسلام إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلماك ﴿أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال﴾ أى أولى الحاجة إلى النساء وهم الشيعة اللهم والممسوحون وفي المحبوب والخصى خلاف وقيل هم البلة الذين يتبعون الناس لفضل طعامهم ولا يعرفون شيئاً من أمور النساء وقريء غير بالنصب على الحالية ﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ لعدم تمييزهم من الظهور بمعنى الاطلاع أو لعدم بلوغهم حد الشهوة من الظهور بمعنى الغلبة والطفل جنس وضع موضع الجمع اكتفاء بدلالة الوصف ﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين﴾ أى ما تخفينه من الروية ﴿من زينتهن﴾ أى لا يضربن بأرجلهن الأرض ليتجمع خلخالهن فيعلم أنهن قنات الخلخال فإن ذلك مما يورث الرجال ميلاً إليهن ويوهم أن هن ميلا إليهم وفى النهى عن إبداء صوت الحلى بعد النهى عن إبداء عينها من المبالغة فى الزجر عن إبداء مواضعها ما لا يخفى ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً﴾ تلوين الخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكل بطريق التعليل لإبراز كمال العناية بما فى حيزه من أمر النبوة وأنها من معظلات المهمات الحقيقية بأن يكون سبحانه وتعالى هو الأمر بها لما أنه لا يكاد يخلو أحد من المكلفين عن نوع تفريط فيه لإقلمة مواجب التكليف كما ينهى وقاهيك بقوله عليه السلام شيتنى سورة هود لما فيها من قوله عز وجل ﴿فاستقم كل أمرت﴾ لاسيما إذا كان للأمر به الكدفة عن الشهوات وقيل توبوا عما كنتم تفعلونه فى الجاهلية فإنه وإن جب بالإسلام لكن يجب الندم عليه والعزم على تركه كلها خطر بباله وفى تكرير الخطاب بقوله تعالى ﴿أيها المؤمنون﴾ تأكيد للإيجاب ولإيدان، يلن وصف الإيمان موجب للإمتثال حتماً وقريء آية المؤمنون ﴿لعلكم تفلحون﴾ تفوزون بذلك يسعادة الدارين.



## من أحكام النكاح

(وأنكحوا الأيامي منكم) بعد ما زجر تعالى عن السفاح ومباذيه القريبة والبعيدة أمر بالنكاح فإنه مع كونه مقصودا بالذات من حيث كونه مناطا لبقاء النوع خير من جرة عن ذلك وأيامي مقلوب أيام جمع أيم وهو من لازوج له من الرجال والنساء بكرا كان أو ثيبا كما يفصح عنه قول من قال :

فإن تنكحني أنكح وإن تنأيمني وإن كنت أفق منكم أنأيمني

أى زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر (والمصالحين من عبادكم وإمائكم) على أن الخطاب للأولياء والسادات واعتبار الصلاح في الأرقاء لأن من لا صلاح له منهم بمعزل من أن يكون خليقا بأن يعتنى مولاه بشأانه ويشفق عليه ويتكلف في نظم مصالحه بما لا بد منه شرعا وعادة من بذل المال والمنافع بل حقه أن لا يستبقيه عنده وأما عدم اعتبار الصلاح في الأحرار والحرائر فلأن الغالب فيهم الصلاح على أنهم مستبدون في التصرفات المتعلقة بأنفسهم وأموالهم فإذا عزموا النكاح فلا بد من مساعدة الأولياء لهم إذ ليس عليهم في ذلك غرامة حتى يعتبر في مقابلتها غنيمة عائدة إليهم عاجلة أو آجلة وقيل المراد هو الصلاح للنكاح والقيام بحقوقه (إن تكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله) لإراحة لما عسى يكون وإزها من النكاح من فقر أحد الجانبين أى لا يمنع فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة فإن في فضل الله عز وجل غنية عن المال فإنه جاد ورائع يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب أو وعد منه سبحانه بالإغناء لقوله عليه الصلاة والسلام أطلبوا النفي في هذه الآية لكنه مشروط بالمشيئة كما في قوله تعالى (وإن خفتن عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) (واقه واسع) غنى ذو سعة لا يرزؤه إغناء الخلاق إذ لا نفاذ لنعمته ولا غاية لقدرته ومع ذلك (عليم) ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة (وليستغف) إرشاد للعاجزين عن مبادئ النكاح وأسبابها إلى

ما هو أولى لهم وأحرى بهم بعد بيان جواز منة الفقراء أي ليجته في العفة  
وقوع الشهوة (الذين لا يجدون نكاحاً) أي أسباب نكاح أو لا يتمكنون  
بما ينكح به من المال (حق يغنيهم الله من فضله) عدة كريمة بالفضل عليهم  
بالغنى ولطف لهم في استيفافهم وتقوية لقلوبهم وإيدان بأن فضله تعالى لمولى  
بالإعفاء وأدنى من الصلحاء (والذين يبتغون الكتاب) بعد ما لمز بأنكح  
صالحى الممالك الأحقاء بالنكاح أمر بكتابة من يستحقها منهم والكتاب  
مصدر كاتب كالمكاتبة أى الذين يطلبون المكاتبه (بما ملكتم أيمانكم) عبداً  
كان أو أمة وهى أن يقول المولى لمملوكه كاتبتك على كذا درهما تؤديه إلى وتعتق  
ويقول المملوك قبلته أو نحو ذلك فإن أذاه إليه عتق قالوا نعمناه كتبت لك على  
نفسى أن تعتق منى إذا وفيت بالمال وكنبت لى على نفسك أن تفى بذلك أو  
كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت على العتق عنده والتحقيق أن المكاتبه اسم  
للعقد الحاصل من مجموع كلاميهما كسائر العقود الشرعية المنعقدة بالإيجاب  
والقبول ولا ريب فى أن ذلك لا يصدر حقيقة إلا من المتعاقدين وليس وظيفة  
كل منهما فى الحقيقة إلا الاتيان بأحدث شطريه معرباً عما يتم من قبله ويصدر  
عنه من الفعل الخاص به من غير تعرض لما يتم من قبل صاحبه ويصدر عنه من  
فعله الخاص به إلا أن كلاماً من ذينك الفعلين لما كان بحيث لا يمكن تحققه فى نفسه  
إلا منوطاً بتحقيق الآخر ضرورة أن التزام العتق بمقابلة البدل من جهة المولى  
لا يتصور تحققه وتحصله إلا بالتزام البدل من طرف العبد كما أن عقد البيع الذى  
هو تمليك المبيع بالثمن من جهة البائع لا يمكن تحققه إلا بتملكه به من جانب  
المشتري لم يكن بد من تضمين أحدهما الآخر وقت الإنشاء فكذا أن قول البائع  
بعت إنشاء لعقد البيع على معنى أنه إيقاع لما يتم من قبله أصالة ولما يتم من قبل  
المشتري ضمناً إيقاعاً متوقفاً على رأيه توقفاً شبيهاً بتوقف عقد الفضولى كذلك  
قول المولى كاتبتك على كذا إنشاء لعقد الكتابة أى إيقاع لما يتم من قبله من  
التزام العتق بمقابلة البدل أصالة ولما يتم من قبل العبد من التزام البدل ضمناً  
إيقاعاً متوقفاً على قبوله فإذا قبل تم العقد وتحل الوصول الرفع على الاستيلاء  
(أ - أبو السعود - راجع)

خبره ﴿فَكَاتِبُونَ﴾ والفاء لضمته معنى الشرط. أو النصب على أنه مفعول لمضمر يفسره هذا الأمر فيه للندب لأن الكتابة عقد يتضمن الإرفاق فلا تجب كغيرها ويجوز حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجما وعند الشافعي رحمه الله لا يجوز إلا مؤجلا ومنجما وقد فصل في موضعه ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أى أمانة ورشدا وقدرة على أداء البدل بتحصيله من وجه حلال وصلا حلالا يؤذى الناس بعد العتق وإطلاق العنان .

﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ أمر للموالى ببذل شيء من أموالهم وفى حكمه حط شيء من مال الكتابة ويكفى فى ذلك أقل ما يتمول وعن على رضى الله عنه حط الربع وعن ابن عباس رضى الله عنهما الثلث وهو للندب عندنا وعند الشافعي للوجوب ويرده قوله عليه الصلاة والسلام المكاتب عبدا ما بقى عليه درهم إذ لو وجب الحط لسقط عنه الباقي حتما وأيضاً لو وجب الحط لكان وجوبه معلقا بالعقد فيكون العقد موجبا ومسقطا معا وأيضاً فهو عقد معارضة فلا يجبر على الخطيئة كالبيع وقيل معنى أتوم أقرضوم وقيل هو أمر لهم بأن ينفقوا عليهم بعد أن يؤدوا ويعتقوا وإضافة المال إليه تعالى ووصفه بإيتائه إياهم للحث على الامتثال بالأمر بتحقيق المأمور به كما فى قوله تعالى ﴿وَأَقْبُوا مِمَّا جُمِعَ لَكُمْ مِنْهُ﴾ فإن ملاحظة وصول المال إليهم من جهته تعالى مع كونه هو المالك الحقيقي له من أقوى الدواعى إلى صرفه إلى الجهة المأمور بها وقيل هو أمر بإعطاء سهمهم من الصدقات فالأمر للوجوب حتما والإضافة والوصف لتعيين المأخذ وقيل هو أمر ندب لعامة المسلمين بإعانة المكاتبين بالتصدق عليهم ويحل ذلك للمولى وإن كان غنيا لتبديل العنوان حسبما ينطق به قوله عليه الصلاة والسلام فى حديث بريرة وهو لها صدقة ولنا هديته .

﴿وَلَا تُكْرِهُوا قُتِيَاتِكُمْ﴾ أى إمائكم فإن كلام الفق والفتاة كناية مشهورة عن العبد والأمة وعلى ذلك معنى قوله عليه الصلاة والسلام : لَيْقُلْ أَحَدُكُمْ قَتَاى وَقَتَاى وَلَا يَقُلْ عَبْدِى وَأُمِّى وَلِهَذِهِ الْعِبَارَةُ فى هَذَا الْمَقَامِ باعتبار مفهومها

الأهلى حصن موقع ومزيد مناصبة لقوله تعالى ﴿ على البغاء ﴾ وهو الزنا من حيث صدوره عن النساء لأنهن اللاتي يتوقع منهن ذلك غالبا دون من عداهن من العجائز والصغار وقوله تعالى ﴿ إن أردن تحصنا ﴾ ليس لتخصيص النهي بصورة إرادتهن التعميف عن الزنا وإخراج ما عداها من حكمه كما إذا كُنَّ الإكراه بسبب كراهتهن الزنا لخصوص الزاني أو لخصوص الزمان أو لخصوص المكان أو لغير ذلك من الأمور المصلحة للإكراه في الجملة بل للمحافظة على عاداتهم المستمرة حيث كانوا يكرهون على البغاء وهن يردن التعفف عنه مع وفور شهواتهن الأمر بالفجور وقصورهن في معرفة الأمور الداعية إلى المحاسن والآجيرة عن تعاطي القبايح فإن عباده بن أبي كانت له ست جوار يكرهن على الزنا وضرب عليهن ضرائب فشكت اثنتان منهن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزات وفيه من زيادة تقييح حالهم وتشليعهم على ما كانوا عليه من القبايح ما لا يخفى فإن من له أدنى مروءة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه حرمة من إمانته فضلا عن أمرهن به أو إكراههن عليه لا سيما عند إرادتهن التعفف فتأمل ودع عنك ما قيل من أن ذلك لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن وما قيل من أنه إن جعل شرطا للنهي لا يلزم من عدمه جواز الإكراه لجواز أن يكون ارتفاع النهي لامتناع المنهى عنه فإنهما بمعزل من التحقيق ولا يثار كلمة إن على إذا مع تحقق الإرادة في مورد النص حتما للإيدان بوجوب الانتهاء عن الإكراه عند كون إرادة التحصن في حيز التردد والفك فكيف إذا كانت بحقيقة الوقوع كما هو الواقع وتعليقه بأن الإرادة المذكورة منهن في حيز الشاذ النادر مع خلوه عن الجدوى بالسكينة ياباه اعتبار تحققها إباء ظاهرا وقوله تعالى ﴿ لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ﴾ قيد للإكراه لكن لا باعتبار أنه مدار للنهي عنه بل باعتبار أنه المعتاد فيما بينهم كما قبله معنى به تقريبا لهم فيما هم عليه من احتمال الوزر الكبير لأجل النذر الحقيقى لا لتفعلوا ما ألتئم عليه من إكراههن على البغاء لطلب المتاع السريع الزوال الوشيك لأنهم لا يبالون بالابتغاء المطلب المقارن لنيل المطلوب واستيفائه بالفعل إذ هو الفاسد لكونه نفاية

للإكراه مرتباً عليه لا المطلق المتناول للطلب السابق الباعث عليه (ومن يكرهه) الحجة مستأنفة سيقت لتقرير النهى وتأكيده وجوب العمل به ببيان خلاص المكرهات عن عقوبة المكره عليه عبارة ويرجوع غائلة الإكراه إلى المكرهين إشارة أى ومن يكرهه على ما ذكر من البغاء .

(فإن الله من بعد الإكراهين غفور رحيم) أى لمن كما وقع في مصحف ابن مسعود وأُعلية قراءة ابن عباس رضى الله تعالى عنهم وكما ينبى عنه قوله تعالى (من بعد الإكراهين) أى كونهم مكرهات على أن الإكراه مصدر من المبني للمفعول فإن تواسيطه بين اسم إن وخبرها للإيذان بأن ذلك هو السبب للمغفرة والرحمة وكان الحسن البصرى رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول لمن وألله لمن وألله وفى تحطيطه بين وتعيين مدارهما مع متبقي ذكر المكروهين أيضا فى الشرطية دلالة بيّنة على كونهم محرومين منهما بالكسبية كأنه قيل لا للمكروه وظهور هذا التقدير اكتفى به عن العائد إلى اسم الشرط فتجوز تعلقهما بهم بشرط التوبة استقلالاً أو معن لإخلال بحوزة النظم الجليل وتووين لأمر النهى فى مقام التحويل وحاجتهم إلى المغفرة المنبئة عن سابقة الإثم إما باعتبار أنهم وإن كن مكرهات لا يخلون فى تضاعيف الزنا عن شطبة مطاوعة ما يحكم الجبلية البشرية وإما باعتبار أنه الإكراه قد يكون قاصراً عن حد الإلجام المزيل للاختيار بالمرة وإما لخاية لم يقل أمر الزنا وحسب المكروهات على التثبت فى التجافى عنه والتشديد فى تحذير المكروهين ببيان أنهم حيث كن عرصة للعقوبة لولا أن تداركن المغفرة والرحمة مع قيام العذر فى حقهم قال الجليل لمن يكروهن فى استحقاقه العذاب ٩

منه (اولمقد انزل اليكم آيات مبينات) كلام مستأنف جنى فيه في تضاعيف  
ما رويته من الآيات السابقة من الإحقة لبيان بطلان دعوتها المستوحجة للإقبال  
بالهكلى على العمل بمقتضاها ونصدقا بالقرآن الذى تكررت فيه اللام. لايحل اذا مكالم  
الغيايا الايمان بالى واثبتهمقد انزل اليكم الى هذه السورة السكرايمق آيات اميتات  
ليكن ملاكم بالحقة الى بيانه وانما السورة فمقتضى الاحكام والادان في هذه السورة

كما هو من مبادئ بيانها على أن الاستناد التبيين إليها مجازي أو آيات واضحات تصدقها الكتب القديمة والعقول السليمة على أن مبيئات من بين بيمى وبين ومنها المثل قد بين الصبح لذى عطينا وقرى على صيغة المفعول أى الذى يبت وأرضعت فى هذه السورة من معالى الأحكام والحدود وقد يجوز أن يكون الأصل بيننا فيها الأحكام فالتسع فى الظرف يا جراته بجرى المفعول (ومثلا من الذين يحولوا من قبلكم) عطف على آيات أى وأنزلنا مثلا كأننا من قبيل أمثال الذين مضوا من قبلكم من القطع العجبية والأمثال المضروبة لهم فى الكتب السابقة والكلام الجارية على المنة الأتقاء عليهم السلام فيقظم قصة عائشة رضى الله عنها الحكيم لقصة يوسف عليه السلام وقصة مريم رضى الله عنها وسائر الأمثال الواردة فى السورة الكريمة انتظاما واضحا وتخصيص الآيات المبيئات بالسوابق وحمل المثل على القصة العجبية فقط ياباه تعقيب الكلام بما ساقى من التمثيلات (وموعظة) تتعظون به وتزجرون عما لا ينبغى من المحرمات والمكروهات وسائر ما يخل بمحاسن الآداب فهى عبارة عما سبق من الآيات والمثل لظهور كونها من المواعظ بالمعنى المذكور ومدار العطف هو التغيرات العنواى المنزل منزلة التغيرات الذاتى وقد خضت الآيات بما يبين الحدود والأحكام والموعظة بما وعظ به من قوله تعالى (ولا تأخذكم بهما رافة فى دين الله) وقوله تعالى (لولا إذ سمعتموه) وغير ذلك من الآيات الواردة فى شأن الآداب وإنما قيل (للتقين) مع شمول الموعظة للكل حسب شمول الإنزال لقوله تعالى (أنزلنا إليكم) حثا للمخاطبين على الاعتناء بالانتظام فى سلك المتقين بيان أنهم المغتشمون لأنارها المقتبسون من أنوارها بحسب وقيل المراد بالآيات المبيئات والمثل والموعظة جميع ما فى القرآن المجيد من الآيات والأمثال والمواعظ.

من طرائق معرفة الله

لقوله تعالى (الله نور السموات والأرض) الخ حيث استئناف مشرق

لتقرير ما فيها من البيان مع الإشعار بكونه في غاية السكال على الوجه الذي استعرفه  
وأما على الأول فلتحقيق أن يئانه تعالى ليس مقصورا على ما ورد في السورة  
الكريمة بل هو شامل لكل ما يحق بياته من الأحكام والشرائع ومبادئها  
وغاياتها المترتبة عليها في الدنيا والآخرة وغير ذلك مما له مدخل في البيان وأنه  
واقع منه تعالى على أتم الوجوه وأكملها حيث عبر عنه بالتنوير الذي هو  
أقوى مراتب البيان وأجلاها وعبر عن المنور بنفس النور تنبيها على قوة  
التنوير وشدة التأثير وإيذانا بأنه تعالى ظاهر بذاته وكل ما سواه ظاهر بإظهاره  
كما أن النور نير بذاته وما عداه مستنير به وأضيف النور إلى السموات والأرض  
للدلالة على كمال شوع البيان المستعار له وغاية شموله لكل ما يليق به من الأمور  
التي لها مدخل في إرشاد الناس بوساطة بيان شمول المستعار منه لجميع ما يقبله  
ويستحقه من الأجرام العلوية والسفلية فإنهما قطران للعالم الجسماني الذي لا مظهر  
للنور الحسي سواه أو على شمول البيان لأحوالهما وأحوال ما فيهما من الموجودات  
إذ ما من موجود إلا وقد بين من أحواله ما يستحق البيان إما تفصيلا أو إجمالا  
كيف لا ولا ريب في بيان كونه دليلا على وجود الصانع وصفاته وشاهدته  
بصحة البعث أو على تعلق البيان بأهلها كما قال ابن عباس رضي الله عنهما  
هادي أهل السموات والأرض فهم بنوره يهتدون وبهداه من حيرة الضلالة  
ينجون ، هذا وأما حمل التنوير على إخراجهم تعالى للباهيات من العدم إلى  
الوجود إذ هو الأصل في الإظهار كما أن الإعدام هو الأصل في الإخفاء أو على  
تزيين السموات بالنيرين وسائر الكواكب وما يفيض عنها من الأنوار أو  
بالملائكة عليهم السلام وتزيين الأرض بالأنبياء عليهم السلام والعلماء والمؤمنين  
أو بالنبات والأشجار أو على تدبيره تعالى لأمرهما وأمر ما فيهما فيما لا يلائم  
المقام ولا يساعده حسن النظام .

(مثل نوره) أي نوره الفائض منه تعالى على الأشياء المستنيرة به وهو  
القرآن المبين كما يعرب عنه ما قبله من وصف آياته بالإنزال والتبيين وقد صرح  
بكونه نورا أيضا في قوله تعالى (وأنزلنا إليكم نورا مبينا) وبه قال ابن عباس .

رضى الله عنهما والحسن وزيد بن أسلم رحمهم الله تعالى وجعله عبارة عن الحق وإن شاع استعارته كاستعارة الظلمة للباطل بأباه مقام بيان شأن الآيات ووصفها بما ذكر من التبيين مع عدم سبق ذكر الحق ولأن المستبر في مفهوم النور هو الظهور والإظهار كما هو شأن القرآن الكريم وأما الحق فالمعتبر في مفهومه من حيث هو حق هو الظهور لا الإظهار والمراد بالمثل الصفة للعجيبة أي صفة نوره العجيبة (كشكاة) أي صفة كوة غير نافذة في الجدار في الإنارة والتنوير (فيها مصباح) سراج ضخم ثاقب وقيل المشكاة الأنوبة في وسط القنديل والمصباح القنبلة المشتعلة (المصباح في زجاجة) أي قنديل من الزجاج الصافي للأنوار وقرىء بفتح الزاي وكسرهما في الموضعين (الزجاجة كأنها كوكب دري) متلألئ وقاد شبهه بالدرى صفائه وزهرته ودرارى الكواكب عظامها المشهورة وقرىء درى بدال مكسورة وراء مشددة وياء معدودة بعدها همزة على أنه فعيل من الدري وهو الدفع أي مبالغ في دفع الظلام بضوئه أو في دفع بعض أجزاء ضيائه لبعض عند البريق واللعان وقرىء بضم الدال والباقي على حاله وفي إعادة المصباح والزجاجة معروفين لإثر سبقهما منكرين والإخبار عنهما بما بعدهما مع انتظام الكلام بأن يقال كشكاة فيها مصباح في زجاجة كأنها كوكب دري من تفخيم شأنهما ورفع مكانهما بالتفسير لإثر الإبهام والتفصيل بعد الإجمال وإثبات ما بعدهما لهما بطريق الإخبار المنبئ عن القصد الأصلي دون الوصف المبني على الإشارة إلى الثبوت في الجملة ما لا يخفى وعمل الجملة الأولى الرفع على أنها صفة لمصباح وعمل الثانية الجر على أنها صفة لزجاجة واللام مغنية عن الرابط كأنه قيل فيها مصباح هو في زجاجة هي كأنها كوكب دري.

(يوقد من شجرة) أي يبدأ بإيقاد المصباح من شجرة (مباركة) أي كثيرة المنافع بأن رويت ذبائله بزيتها وقيل لأنها وصفت بالبركة لأنها تنبت في الأرض التي يارك الله تعالى فيها للعالمين (زيتونة) بدل من شجرة وفي إبهامها ووصفها بالبركة ثم الإبدال منها تفخيم لشأنها وقرىء وتوقد بالياء على أن الضمير



القائم مقام الفاعل للزجاجة دون المصباح وقرىء توقد على صيغة الماضى من التفعّل أى ابتداء ثقب المصباح منها وقرىء توقد بحذف إحدى التاءين من توقد على إسناده إلى الزجاجة (( لا شرقية ولا غربية )) تقع الشمس عليها حيناً دون حين بل بحيث تقع عليها طول النهار كالتى على قلة أوصحراء واسعة فتقع الشمس عليها حالتى الطلوع والغروب وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير وقتادة وقال الفراء والزجاج لا شرقية وحدها ولا غربية وحدها لكنها شرقية وغربية أى تهيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الأمرين فيكون زيتا أضوأ وقيل لا نابئة فى شرق المعمورة ولا فى غربها بل فى وسطها وهو الشام فإن زيوتها أجود ما يكون وقيل لا فى مضى تشرق الشمس عليها دائماً فتحرقها ولا فى مقناة تخبث عنها دائماً فتركها نيئة وفى الحديث لا خير فى شجرة ولا فى نبات فى مقناة ولا خير فيهما فى مضى .

(( يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار )) أى هو فى الصفاء والإضاءة بحيث يكاد يضىء بنفسه من غير مساس نار أصلاً وكلمة لو فى أمثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء شئ فى الزمان الماضى لا انتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه ملاحظة نصدية إلا عند القصد إلى بيان الإعراب على القواعد الصناعية بل هى لبيان تحقق ما يفيد الكلام السابق من الحكم الموجب أو المتحقق على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له إجمالاً بإدخالها على أبعدها منه إما لوجود المانع كما فى قوله تعالى (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) وإما لعدم الشرط كما فى هذه الآية الكريمة ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولوية لما أن الشيء متى تحقق منع ما ينافيه من وجود المانع أو عدم الشرط فلأن يتحقق بثبوت ذلك أولى ولذلك لا يذكر معه شئ آخر من سائر الأحوال ويكتفى عنه بالذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المتعاقبة لها المتناولة لجميع الأحوال المتأخرة لما عدا متعدها وهذا معنى توهم أنها لاستقصاء الأحوال على حصيل

الإجمال وهذا أمر مطرد في الخير الموجب والمنفي فإنه إذا قلت فلان جواد يعطى ولو كان فقيرا أو بخيل لا يعطى ولو كان غنيا تريد بيان بتحقيق الإعطاء في الأول وعدم تحققه في الثاني في جميع الأحوال المفروضة والتقدير يعطى لو لم يكن فقيرا ولا يعطى لو لم يكن غنيا فالجمله مع ما عطفت هي عليه في حين النصب على الحالية من المستمكن في الفعل الموجب أو المنفي أى يعطى أو لا يعطى كأننا على جميع الأحوال وتقدير الآية السكينة يكاد زيتنا يضىء لو مسته نارا ولو لم تفسد نارا أى يضىء كأننا على كل حال من وجود الشرط وعدمه وقد جازى الجملة الأولى حسبها هو المطرد في الباب لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة (النور) خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى (على نور) متعلق بمحذوف هو صفة له مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة والجملة فذلك للتمثيل وتصريح بما حصل منه وتمييد لما يعقبه أى ذلك النور الذى عبر به من القرآن ومثلت صفته العجيبة الشأن بما فصل من صفة المشكاة نور عظيم كائن على نور كذلك لا على أنه عبارة عن نور واحد معين أو غير معين فوق نور آخر مثله ولا عن مجموع نورين اثنين فقط بل عن نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه بحد معين وتحديد مراتب تضاعف ما مثل به من نور المشكاة بما ذكر ليكونه أقصى مراتب تضاعفه عادة فإن المصباح إذا كان في مكان متضائق كالمشكاة كان أضواءه وأجمع لنوره بسبب انضمام الشعاع المنعكس منه إلى أصل الشعاع بخلاف المكان المتسع فإن الضوء ينبث فيه وينتشر والقنديل أعون شيء على زيادة الإثارة وكذلك الزيت وصفاءه وليس وراء هذه المراتب بما يزيد نورها إشرافا ويمده بإضاءة مرتبة أخرى عادة هذا وجعل النور عبارة عن النور المشبه به بما لا يليق بشأن التنزيل الجليل (يهدى الله لنوره) أى يهدى هداية خاصة موصلة إلى المطلوب حتما لذلك النور المتضاعف العظيم الشأن وإظهاره في مقام الإضمار لزيادة تقريره وتأكيده غامته الذاتية بفخامته الإضافية الناشئة من إضافته إلى ضميره عز وجل (من يشاء) هدايته من عباده بأن يوفقهم لفهم ما فيه من دلائل حقيقته وكونه من عند الله تعالى من الإعجاز والإعجاب

عن الغيب وغير ذلك من موجبات الإيمان به وفيه إيدان بأن مناط هذه الهداية وملاكم ليس إلا مشيئته تعالى وأن تظاهر الأسباب بدونها بمعزل من الإفضاء إلى المطالب .

﴿ ويضرب الله الأمثال للناس ﴾ في تضاعيف الهداية حسبما يقتضى حالهم فإن له دخلا عظيما في باب الإرشاد لأنه إبراز للمعقول في هيئة المحسوس وتصوير لأوابع المعاني بصورة المأنوس ولذلك مثل نوره المعبر به عن القرآن المبين بنور المشكاة وإظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار للإيدان باختلاف حال ما أسند إليه تعالى من الهداية الخاصة وضرب الأمثال الذي هو من قبيل الهداية العامة كما يفصح عنه تعليق الأولى بمن يشاء والثانية بالناس كافة ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ معقولا كان أو محسوسا ظاهرا كان أو باطنا ومن قضيته أن تعلقي مشيئته بهداية من يلقى بها ويستحقها من الناس دون من عداهم لخالفته الحكمة التي عليها مبني التكوين والتشريع وأن تكون هدايته العامة على فنون مختلفة وطرائق شتى حسبما تقتضيه أحوالهم والجملة اعترض تذييل مقرر لما قبله وإظهار الاسم الجليل لنا كيد استقلال الجملة والإشعار بعلية الحكم وبما ذكر من اختلاف حال المحكوم به ذاتا وتعلقا ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾ لما ذكر شأن القرآن الكريم في بيانه للشرائع والأحكام ومبادئها وبما ياتى المقرنة عليها من الثواب والعقاب وغير ذلك من أحوال الآخرة وأحوالها وأشير إلى كونه في غلبة ما يكون من التوضيح والإظهار حيث مثل بما فصل من تومر المشكاة وأشير إلى أن ذلك النور مع كونه في أقصى مراتب الظهور إنما يمتدى بهداه من تعلقت مشيئة الله تعالى بهدايته دون من عداه عقب ذلك بذكر القرىتين وتصوير بعض أعمالهم المعربة عن كيفية حالهم في الاهتداء وعدمه وإلمامهم بالبيوت المسجدة كلها جسيما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقيل حتى المسجدة التي بناها نبي من أنبياء الله تعالى : الكعبة التي بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبيت المقدس الذي بناه داود وسليمان عليهما السلام ومسجد المدينة ومسجد قباء اللذان بناهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكبيرها

للتفخيم والمراد بالإذن في رفعها الأمر ببنائها رفيعة لا كسائر البيوت وقيل هو الأمر برفع مقدارها بعبادة الله تعالى فيها فيسكون عطف الذكر عليه من قبيل العطف التفسيري وأياها ما كان في التعبير عنه بالإذن تلويح بأن اللائق بحال الأمور أن يكون متوجها إلى الأمور به قبل ورود الأمر به تلويحا لتحقيقه كأنه مستأذن في ذلك فيقع الأمر به موقع الإذن فيه والمراد بذكر اسمه تعالى ما يحرم جميع أذكاره تعالى وكلمة في متعلقة بقوله تعالى ﴿يسبح له﴾ وقوله تعالى ﴿فيها﴾ تكريرا لها للتأكيد والتذكير لما بينهما من الفاصلة وللايدان بأن التقديم للاهتمام لا لتقصير التسبيح على الوقوع في البيوت فقط وأصل التسبيح التنزيه والتقديس يستعمل باللام وبدونها أيضاً كما في قوله تعالى ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قالوا أريد به الصلوات المفروضة كما ينفي عنه تعيين الأوقات بقوله تعالى ﴿بالغدو والأصال﴾ أي بالغدوات والعشايا على أن الغدو إما جمع غداة كقفي في جمع قناة كما قيل أو مصدر أخلق على الوقت حسبما يشعر به اقترانه بالأصال وهو جمع أصيل وهو العشي وهو شامل لأوقات ماعدا صلاة الفجر المؤداة بالغداة ويجوز أن يراد به نفس التنزيه على أنه عبارة عما يقع منه في أثناء الصلوات وأوقاتها لزيادة شرفه ولإضافته على سائر أفراده أو عما يقع في جميع الأوقات وإفراد طرفي النهار بالذكر لقيامهما مقام كلها لكونهما العمدة فيها بكونهما مشهورين وكونهما أشهر ما يقع فيه المباشرة للأعمال والاشتغال بالأشغال وقرئ والإيصال وهو الدخول في الأصيل وقوله تعالى :

﴿رجال﴾ فاعل يسبح وتأخيره عن الظروف لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ولأن في وصفه نوع طول فيخل بتقديمه بحسن الانتظام وقرئ يسبح على البناء للمفعول بإسناده إلى أحد الظروف ورجال مرفوع بما ينفي عنه جكامة للفعل من غير تسمية الفاعل على طريقة قوله ليلى يزيد ضارب لخصومة كأنه قيل من يسبح له فقيل يسبح له رجال وقرئ تسبح بتأنيث الفعل مبنيًا للفاعل لأن جميع التكمير قد يعامل معاملة المؤنث ومبنيًا للمفعول على أن يسند إلى أوقات الغدو والأصال زيادة الباء وتجعل الأوقات

مسبحة مع كونها مسبحة فيها أو يسند إلى ضمير التسيبحة أى تسبح له التسيبحة  
على المجاز المسوغ لإسناده إلى الوقتين كما خرجوا قراءة أبى جعفر ليجزى  
قوما أى ليجزى الجزاء قوما بل هذا أولى من ذلك إذ ليس هنا مفعول صريح  
(لا تلهمهم تجارة) صفة لرجال مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة مفيدة  
لكمال تبتلهم إلى الله تعالى واستغراقهم فيها حكى عنهم من التسيبح من غير  
حسارف يلوهم ولا عاطف يثنهم كائنا ما كان وتخصيص التجارة بالذكر لكونها  
أقوى الصوارف عندهم وأشهرها أى لا يشغلهم نوع من أنواع التجارة  
(ولا بيع) أى ولا فرد من أفراد البياعات وإن كان فى غاية الربح وإفراده  
بالذكر مع اندراجة تحت التجارة للإيذان بإناقضته على سائر أنواعها لأن ربحه  
متيقن ناجز وريح ما عداه متوقع فى ثانى الحال عند البيع فلم يلزم من نفى إلهاء  
ما عداه نفى إلهائه ولذلك كررت كلمة لا لتذكير النفس وتأكيده وقد نقل عن  
الواقدي أن المراد بالتجارة هو الشراء لأنه أصلها ومبدؤها وقيل هو الجلب  
لأنه الغالب فيها ومنه يقال تجر فى كذا أى جلبه .

(عن ذكر الله) بالتسبيح والتحميد ( وإقام الصلاة ) أى إقامتها  
بلواقيتها من غير تأخير وقد أسقطت التاء المعوضة عن الدين الساقطة بالإللال  
وعوض عنها الإضافة كما فى قوله :

• وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا •

أى عدة الأمر (وليتاء الزكاة) أى المال الذى فرض أخرجه للمستحقين وإرادته ههنا وإن لم يكن بما يفعل فى البيوت لكونه قرينة لا تفارق إقامة الصلاة فى عامة المواضع مع ما فيه من التلبية على أن محاسن أعمالهم غير منحصرة فيما يقع فى المساجد وكذلك قوله تعالى (يخافون) الخ فإنه صفة ثانية لرجال أَوْحَالٍ من مفعول لأتاهم وأياما كان قليل خوفهم مقصورا على كونهم فى المسجد وقوله تعالى (يؤمنون) مفعول ليخافون لا ظرف له وقوله تعالى (يقلب قلبه القلوب والأبصار) صفة ليومئذ أى تضطرب وتتغير فى نفسها عن الأحوال والصور وتذهب كما فى قوله تعالى (وإذا الأبصار سبلت)

القلوب الخناجر) أو تتغير أحوالها وتتقلب فتشفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعا عليها وتبصر الأبصار بعد أن كانت عمياء أو تتقلب القلوب بين توقع النجاة وخوف الهلاك والإبصار من أى ناحية يؤخذ بهم ويؤتى كتابهم (ليجزئهم الله) متعلق بمحذوف يدل عليه ما حكى من أعمالهم المرضية أى يفعلون ما يفعلون من المداومة على التسبيح والذكر وإيتاء الزكاة والخوف من غير صارف لهم عن ذلك ليجزئهم الله تعالى (أحسن ما عملوا) أى أحسن جزاء أعمالهم بحسبها وعدلهم بمقابلة حسنة واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف (تؤيدونهم من فضله) أى يتفضل عليهم بأشياء لم توعدهم بخصوصياتها أو بمقارناتها ولم تحط بها بياهم كيفياتها ولا كياناتها بل إنما وعدت بطريق الإجمال في مثل قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عنه عز وجل : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وغير ذلك من المواعيد الكريمة التى من جملتها قوله تعالى :

( والله يرزق من يشاء بغير حساب ) فإنه تذييل مقرر للزيادة ووعد كريم يأنه تعالى يعطيهم غير أجرية أعمالهم من الخيرات ما لا يفى من الحساب وأما عدم سبق الوعد بالزيادة ولو إجمالا وعدم خطورها بياهم ولو بوجه ما فيأباه نظمها في سلك الغاية والموصول عبارة عن ذكوت صفاتهم الجميلة كأنه قيل والله يرزقهم بغير حساب ووضع موضع ضميرهم للتنبيه بما في حيز الصلة على أن مناط الرزق المذكور محض مشيئته تعالى لا أعمالهم المحكية كما أنها المناط لما سبق من الهداية لنوره تعالى لا لتظاهر الأسباب وللايذان بأنهم ممن شاء الله تعالى أن يرزقهم كما أنهم ممن شاء الله تعالى أن يهديهم لنوره حسبما يرب عنه ما فصل من أعمالهم الحسنة فإن جميع ما ذكر من الذكر والتسبيح وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وخوف اليوم الآخر وأهواله ورنجاء الثواب مقتبس من القرآن الكريم الذى هو المعنى بالنور وبه يتم بيان أحوال من هتدى بهداه على الوجه وجهه وأجله هذا وقد قيل قوله تعالى (في يوم) الخ من تمتع التثنية وكلية في

متعلقة بمحذوف هي صفة لمشكاة أى كائنة في بيوت وقيل لمصباح وقيل لزجاجة  
وقيل متعلقة بيو قد والكل مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل كيف لا وأن ما بعد  
قوله تعالى (ولم تمسه نار) على ما هو الحق أو ما بعد قوله تعالى (نور على نور)  
على ما قيل إلى قوله تعالى (بكل شيء عليم) كلام متعلق بالممثل قطعاً فتوسطه بين  
أجزاء التمثيل مع كونه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه بالأجنبي يؤدي إلى كون  
ذكر حال المتفعين بالتمثيل المهديين بنور القرآن الكريم بطريق الاستتباع  
والاستطراد مع كون بيان أضعادهم مقصوداً بالذات ومثل هذا مما لا عهد به  
في كلام الناس فضلاً أن يحمل عليه الكلام المعجز (والذين كفروا) عطف  
على ما ينساق إليه ما قبله كأنه قيل الذين آمنوا أعمالهم حالا وما لا كما وصف  
والذين كفروا (أعمالهم) أى أعمالهم التي هي من أبواب البر كصلة الأرحام  
وفلك العناية وسقاية الحاج وعمارة البيت وإغاثة الملهوفين وقرى الأضياف  
ونحو ذلك مما لو قارنه الإيمان لاستتبع الثواب كما في قوله تعالى (مثل الذين  
كفروا برهم أعمالهم برماد) الآية (كسراب) وهو ما يرى في الفلوات من  
لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة فيظن أنه ماء يسرب أو يجري (بقية)  
متعلق بمحذوف هو صفة لسراب أى كائن في قاع وهي الأرض المنبسطة  
المستوية وقيل هي جمع قاع كجيرة جمع جار وقرى بقيعات بناء ممدودة  
كديعات إما على أنها جمع قيمة أو على أن الأصل قبة قد أشبعت قنخة العين  
فتولد منها ألف (يحسبه الظمآن ماء) صفة أخرى لسراب وتخصيص الحسبان  
بالظمآن منع شموله لكل من يراه كأننا من كان من العطشان والريان لتكميل  
التشبيه بتحقيق شركة طرفيه في وجه الشبه الذي هو المطلع المطمع والمقطع  
الموئس (حتى إذا جاء) أى إذا جاء العطشان ما حسبه ماء وقيل موضع  
(لم يجدوه) أى ما حسبه ماء وعلق به رجاءه (شيئاً) أصلاً لا محققاً  
ولا متروهما كما كان يراه من قبل فضلاً عن وجدانه ماء وبه تم بيان أحوال  
السكينة بالمرئى التمثيل وقوله تعالى :

(ووجدناه عند حورقاه حسابه وفاقه فترى الحساب) بيان لبقية أنهم لهم

العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة لئلا يتوهم أن قصارى أحرم هو الحية والقنوط كما هو شأن الظمان ويظهر أنه يحترهم بعد ذلك من سوء الحال ما لا قدر عنده للنحية أصلا فليصت الجملة معطوفة على لم يجدوه شيئا بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل من عدم وجودان الكفرة من أعمالهم المذكورة عينا ولا أثرا كما في قوله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) كيف لا وأن الحكم مبني على أعمال الكفرة كسراب يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا حكم بأنها بحيث يحسبونها في الدنيا نافعة لهم في الآخرة حتى إذا جاءوها لم يجدوها شيئا كأنه قيل حتى إذا جاء الكفرة يوم القيامة أعمالهم التي كانوا في الدنيا يحسبونها نافعة لهم في الآخرة لم يجدوها شيئا يوجبوا الله أي حكمه وقضاه عند المجيء وقيل عند العمل فوقاهم أي أعطاهم وأما كاملا حسابهم أي حساب أعمالهم المذكورة وجزأها فإن اعتقادهم لنفعها بغير إيمان وعملهم بموجبه كفر على كفر موجب للعقاب قطعاً وإفراد الضميرين الراجعين إلى الذين كفروا إما لإرادة الجنس كالظمان الواقع في التمثيل وإما للحمل على كل واحد منهم وكذا أفراد ما يرجع إلى أعمالهم، وهذا وقد قيل نزلت في عتبة بن أبي ربيعة بن أمية كان قد تعبد في الجاهلية ولبس المشرك والنمس الدين فلما جاء الإسلام كفر

(أو كظلمات) عطف على كسراب وكلمة أو للتبويح أثر ما مثلت أعمالهم التي كانوا يعتمدون عليها أقوى اعتماد ويفتخرون بها في كل واد وناد بما ذكر من حال السراب مع زيادة حساب وعقاب مثلت أعمالهم القبيحة التي ليس فيها شائبة خيرية يفتخر بها المغترون بظلمات كائنة (في بحر لجي) أي عميق كثير الماء منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر وقيل إلى اللجة وهي أيضا معظمه (يغشاه) صفة أخرى للبحر أي يستره ويغطيه بالسكية (موج) وقوله تعالى (من فوقه موج) جملة من مبتدأ وخبر محالها الرفع على أنها صفة لموج أو الصفة هي الجار والمجرور وموج الثاني فاعل له لاعتداده على الموصوف والبالكلام فيه كما مر في قوله تعالى (نور على نور) أي يغشاه أمواج متراكمة متراكبة



بعضها على بعض ، وقوله تعالى ﴿ من فوقه سحب ﴾ صفة لموج الثاني على أحد الوجهين المذكورين أى من فوق ذلك الموج سحب ظلماتى ستر أضواء النجوم وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها حتى كأنها بلغت السحاب ﴿ ظلمات ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هى ظلمات ﴿ بعضها فوق بعض ﴾ أى متكاثفة متراكمة وهذا بيان لسكال شدة الظلمات كما أن قوله تعالى نور على نور بيان لغاية قوة النور خلو أن ذلك متعلق بالمشبه وهذا بالمشبه به كما يعرب عنه ما بعده وقرئ بالجر على الإبدال من الأولى وقرئ بإضافة السحاب إليها ﴿ إذا أخرج ﴾ أى من ابتلى بها وإضماره من غير ذكره للدلالة المعنى عليه دلالة واضحة ﴿ يده ﴾ وجعلها بمرأى منه قريبة من عينه لينظر إليها ﴿ لم يكذب يراها ﴾ وهى أقرب شيء منه فضلا عن أن يراها ﴿ ومن لم يجعل الله نورا ﴾ الخ باعتراض تذييل جىء به لتقرير ما أفاده التمثيل من كون أعمال الكفرة كما فصل وتحقيق أن ذلك لعدم هدايته تعالى لإياهم لنوره وإيراد الموصول للإشارة بما فى حيز الصلة إلى علة الحكم وأنهم ممن لم يشأ الله تعالى هدايتهم أى ومن لم يشاء الله أن يهديه لنوره الذى هو القرآن هداية خاصة مستتبعة للاهتمام حتما ولم يوفقه الإيمان به ﴿ فما له من نور ﴾ أى فما له هداية ما من أحد أصلا .

لشعار بمنزلة النبي صلى الله عليه وسلم

وقوله تعالى ﴿ ألم تر ﴾ الخ استئناف خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام للإيدان بأنه تعالى قد أفاض عليه الصلاة والسلام أعلى مراتب النور وأجلاها وبيش الله من أنوار الملك والمملوك أدقها وأخضاها والهمزة للتقريب أى قد علمت عالمنا بطبيعتها من المشاهدة فى القوة والرصانة بالوحى الصريح والاستعداد الصريح ﴿ أن الله يستخبره ﴾ أى ينزهه تعالى على الدوام فى ذاته ووصفاته وأفعاله من كل مما لا يليق بشأنه الجليل من نقص أو خلل ﴿ من فى السموات والأرض ﴾ أى ما فى السما والأرض بطريق الاستعارة من الفعالة وغيرهم كأنها

ما كان أو بطريق الجزئية منهما تنزيها معنويا تفهمه العقول السليمة فإن كل موجود من الموجودات الممكنة مركبا كان أو بسيطا فهو من حيث ماهيته ووجوده وأحواله يدل على وجود صانع واجب الوجود متصف بصفات الكمال مقدس عن كل مالا يليق بشأن من شئونه الجليلة وقد فبه على كمال قوة تلك الدلالة وغاية وضوحها حيث عبر عنها بما يخص العقلاء من التسييح الذي هو أقوى مراتب التنزيه وأظهرها تنزيلا للسان الحال منزلة لسان المقال وأكد ذلك بإيثار كلمة من على ما كأن كل شيء مما عز وهان وكل فرد من أفراد الأعراض والأعيان عاقل فاطق ومخير صادق بعلو شأنه تعالى وعزة سلطانه وتخصيص التنزيه بالذكر مع دلالة ما فيهما على اتصافه تعالى بنعوت الكمال أيضاً لما أن مساق الكلام لتقبيح حال الكفرة في إخلالهم بالتنزيه بجعلهم الجمادات شركاء له في الألوهية ونسبتهم إياه إلى اتخاذ الولد تعالى عن ذلك علواً كبيراً وحمل التسييح على ما يليق بكل نوع من أنواع المخلوقات بأن يراد به معنى مجازي شامل لتسييح العقلاء وغيرهم حسبما هو المتبادر من قوله تعالى : ( كل قد علم صلاته وتسبيحه ) يرده أن بعضاً من العقلاء وهم الكفرة من الثقلين لا يسبحونه بذلك المعنى قطعاً وإنما تسييحهم ما ذكر من الدلالة التي يشاركون فيها غير العقلاء أيضاً وفيه مزيد تخطئة لهم وتعبير ببيان أنهم يسبحونه تعالى باعتبار أخس جهاتهم التي هي الجمادية والجسمية والحيوانية ولا يسبحونه باعتبار أشرفها التي هي الإنسانية .

( والطير ) بالرفع عطفاً على من وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في جملة ما في الأرض لعدم استمرار قرارها فيها واستقلالها بصنع بارع وإنشاء رائع قصد بيان تسييحها من تلك الجهة لوضوح إنبائها عن كمال قدرة صانعها ولطف تدبير مبدعها حسبما يعرب عنه التقييد بقوله تعالى : ( صافات ) أي تسبيحه تعالى حال كونها صافات أجنحتها فإن إعطاءه تعالى للأجرام الثقيلة ما تتمكن به من الوقوف في الجو والحركة كيف تشاء من الأجنحة والأذنان

الخفيفة وإرشادها إلى كيفية استعمالها بالقبض والبسط حجة نيرة واضحة  
المكنون وآية بينة لقوم يعقلون دالة على كمال قدرة الصانع المجيد وغاية حكمة  
المبدى المعبد ، وقوله تعالى ﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ بيان لكمال  
عراقة كل واحد بما ذكر في التنزيه ورسوم قدمه فيه 'بتمثيل حاله بحال من  
يعلم ما يصدر عنه من الأفاعيل فيفعلها عن قصد ونية لا عن اتفاق بلا روية  
وقد أدمج في تضاعيفه الإشارة إلى أن لكل واحد من الأشياء المذكورة مع  
ما ذكر من التنزيه حاجة ذاتية إليه تعالى واستفاضة منه لما يهيمه بلسان استعداده  
وتحقيقه أن كل واحد من الموجودات الممكنة في حد ذاته بمزول من استحقاق  
الوجود لكنّه مستعد لأن يفيض عليه منه تعالى ما يليق بشأنه من الوجود  
وما يتبعه من الكمالات ابتداء وبقاء فهو مستفيض منه تعالى على الاستمرار  
فيفيض عليه في كل آن من فيوض الفنون المتعلقة بذاته وصفاته ما لا يحيط به  
نطاق البيان بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الربانية من العلاقة لانعدم بالمرّة  
وقد عبر عن تلك الاستفاضة المعنوية بالصلاة التي هي الدعاء والابتهال لتكميل  
التمثيل وإفادة المزايا المذكورة فيما مر على التفصيل وتقديمها على التسبيح في  
الذكر لتقدمها عليه في الرتبة هذا ويجوز أن يكون العلم على حقيقته ويراد به  
مطلق الإدراك وبما ناب عنه التنوين في كل أنواع الطير وأفرادها وبالصلاة  
والتسبيح ما ألهمه الله تعالى كل واحد منها من الدعاء والتسبيح المخصوصين به  
لكن لا على أن يكون الطير معطوفا على كلبه من مرفوعا برفعها فإنه يؤدي إلى  
أن يراد بالتسبيح معنى مجازي شامل للتسبيح المقالي والحالي من العقلاء وغيرهم  
وقد عرفت ما فيه بل بفعل مضمّر أريد به التسبيح المخصوص بالطير معطوف  
على المذكور كما مر في قوله تعالى (وكثير من الناس) أي وتسبيح الطير تسبيحا  
خاصا بها حال كونها صافات أجنحتها وقوله تعالى ( كل قد علم صلاته وتسبيحه )  
أي دعاءه وتسبيحه اللذين ألهمهما الله عز وجل لإياه لبيان كمال رسوخه فيهما  
وأن صدورهما عنه ليس بطريق الاتفاق بلا روية بل عن علم وإيقان من غير  
إخلال بشيء منهما حسبما ألهمه الله تعالى فإن إلهامه تعالى لكل نوع من أنواع

المخلوقات علوما دقيقة لا يكاد يهتدى إليه جهابذة العقلاء بما لا سبيل إلى إنكاره أصلا كيف لا وأن القنفذ مع كونه أبعد الأشياء من الإدراك قالوا إنه يحس بالشمال والجنوب قبل هبوبها فيغير المدخل إلى جحره حتى روي أنه كان بقسطنطينية قبل الفتح الإسلامي رجل قد أثرى بسبب أنه كان ينذر الناس بالرياح قبل هبوبها وينتفعون بإنذاره بتدارك أمور سفائنهم وغيرها وكان السبب في ذلك أنه كان يقتنى في داره قنفذا يستدل بأحواله على ما ذكر وتخصيص تسييح الطير بهذا المعنى بالذكر لما أن أصواتها أظهر وجودا وأقرب حملا على التسييح وقوله تعالى : ﴿ والله عليم بما يفعلون ﴾ أى ما يفعلونه اعتراض مقرر لمضمون ما قبله وما على الوجه الأول عبارة عما ذكر من الدلالة الشاملة لجميع الموجودات من العقلاء وغيرهم والتعبير عنها بالفعل مستندا إلى ضمير العقلاء لما مر غير مرة وعلى الثانى إما عبارة عنها وعن التسييح الخاص بالطير معاً أو عن تسييح الطير فقط فالفعل على حقيقته وإسناده إلى ضمير العقلاء لما مر والاعتراض حيثئذ مقرر لتسييح الطير فقط وعلى الأولين لتسييح السكك هذا وقد قيل إن الضمير في قوله تعالى (قد علم) لله عز وجل وفي صلاته وتسييحه لكل أى قد علم الله تعالى صلاة كل واحد بما في السموات والأرض وتسييحه فالاعتراض حيثئذ مقرر لمضمونه على الوجهين لكن لا على أن تكون ما عبارة عما تعلق به عليه تعالى من صلاته وتسييحه بل عن جميع أحواله العارضة له وأفعاله الصادرة عنه وهما داخلتان فيها «دخولا أوليا .

﴿ والله مالك السموات والأرض ﴾ لا لغيره لأنه الخالق لها ولما فيها من الذوات والصفات وهو المتصرف في جميعها إيجادا وإعداما بدءا وإعادة وقوله تعالى : ﴿ وإلى الله ﴾ أى إليه تعالى خاصة لا إلى غيره ﴿ المصير ﴾ أى رجوع الكل بالفناء والبعث بيان لاختصاص الملك به تعالى في المعاد أثر بيان اختصاصه به تعالى في المبدأ وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية بالمهابة والإشعار بعلّة الحكم ﴿ ألم تر أن الله يزعج سعابا ﴾ الإزجاء سوق

الشيء برفق وسهولة غلب في سوق شيء يسير أو غير معتمد به ومنه البضاعة المزجاة ففيه إيماء إلى أن السحاب بالنسبة إلى قدرته تعالى مما لا يعتد به ﴿ ثم يوافق بينه ﴾ أى بين أجزائه بضم بعضها إلى بعض وقرئ يوافق بغير همزة ﴿ ثم يجعله ركاما ﴾ أى متراكما بعضه فوق بعض ﴿ فترى الودق ﴾ أى المطر إثر تراكمه وتكاثفه ، وقوله تعالى ﴿ يخرج من خلاله ﴾ أى من فتوقه حال من الودق لأن الرؤية بصرية وفى تعقيب الجعل المذكور برؤيته خارجا لا بخروجه من المبالغة فى سرعة الخروج على طريقة قوله تعالى ﴿ فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق ﴾ ومن الاعتناء بتقرير الرؤية مالا يخفى والحلال جمع خلل كجبال وجبل وقيل مفرد كحجاب وحجاز ويؤيده أنه قرئ من خلله ﴿ وينزل من السماء ﴾ من الغمام فإن كل ماعلاك سماء ﴿ من جبال ﴾ أى من قطع عظام تشبه الجبال فى العظم كائنة ﴿ فيها ﴾ وقوله تعالى ﴿ من برد ﴾ مفعول ينزل على أن من تبعيضية والاوليان لابتداء الغاية على أن الثانية بدل اشتغال من الاولى بإعادة الجار أى ينزل مبتدئا من السماء من جبال فيها بعض برد ، وقيل المفعول محذوف ومن برد بيان للجبال أى ينزل مبتدئا من السماء من جبال فيها من جنس البرد بردا والاول أظهر لخلوه عن ارتكاب الحذف والتصريح ببعضية المنزل وقيل المفعول من جبال على أن من تبعيضية ومن برد بيان للجبال أى ينزل من السماء بعض جبال كائنة فيها من برد أى مشبهة بالجبال فى الكثرة وأيا ما كان لتقديم الجار والمجرور على المفعول لما مر غير مرة من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر وقيل المراد بالسماء المظلة وفيها جبال من برد كما أن فى الأرض جبالا من حجر وليس فى العقل ما ينفيه من قاطع والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت ولم تحملها حرارة فبلغت الطبقة الباردة من الهواء وقوى البرد اجتمع هناك وصار سحابا وإن لم يشتد البرد تقاطر مطرا وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجا وإن نزل بردا وقد يبرد الهواء بردا مفرطا فينبض ويتعقد سحابا وينزل منه المطر أو الثلج وكل ذلك مستند إلى إرادة الله تعالى ومشيئته المبغية على الحكم والمصالح ﴿ فيصيب به ﴾ أى بما ينزله من البرد ﴿ من يشاء ﴾ أن يصيبه به فيناله من

حضر في نفسه وماله ﴿ ويصرفه عن يشاء ﴾ أن يصرفه عنه فينجو من غائلته ﴿ يكاد متابرقه ﴾ أى ضوء برق السحاب الموصوف بما مر من الإزجاء والتأليف وغيرهما وإضافة البرق إليه قبل الإخبار بوجوده فيه للإيدان بظهور أمره واستغنائه عن التصريح به وقرىء بالمد بمعنى الرفعة والعلو ويادغام الدال في السين وبرقه بفتح الراء على أنه جمع برقة وهى مقدار من البرق كالغرفة وبضمها للتابع لضمة الباء ﴿ يذهب بالأبصار ﴾ أى يخطفها من فرط الإضاءة وسرعة ورودها وفى إطلاق الأبصار مزيد تهويل لأمره وبيان لشدة تأثيره فيها كأنه يكاد يذهب بها ولو عند الإغماض وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة من حيث أنه توليد للضد من الضد وقرىء يذهب من الإذهاب على زيادة الباء ﴿ يقرب الله الليل والنهار ﴾ بالمعاقبة بينهما أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر أو يتغير أحوالهما بالحر والبرد وغيرهما بما يقع فيهما من الأمور التى من جملتها ما ذكر من إزجاء السحاب وما ترتب عليه .

﴿ إن فى ذلك ﴾ إشارة إلى ما فصل آنفا وما فيه من معنى البعد مع قرب المشار إليه للإيدان بعلو رتبته وبعد منزلته ﴿ لهبرة ﴾ أى لدلالة واضحة على وجود الصانع القديم ووحدته وكمال قدرته وإحاطة علمه بجميع الأشياء ونفاذ مشيئته وتنزهه عما لا يليق بشأنه العلى ﴿ لاولى الأبصار ﴾ لكل من له بصر ﴿ والله خلق كل دابة ﴾ أى كل حيوان يدب على الأرض وقرىء خالق كل دابة بالإضافة ﴿ من ماء ﴾ هو جزء مادته أو ماء مخصوص هو النطفة فيكون تنزيلا للغالب منزلة الكل لأن من الحيوانات ما يتولد لا عن نطفة وقيل من ماء متعلق بدابة وليست صلة لخلق ﴿ فمنهم من يمشى على بطنه ﴾ كالحية وتسمية حركتها مشيا مع كونها زحفا بطريق الاستعارة أو المشاكلة ﴿ ومنهم من يمشى على رجلين ﴾ كالإنس والطير ﴿ ومنهم من يمشى على أربع ﴾ كالنعم والوحش وعدم التعرض لما يمشى على أكثر من أربع كالعناكب ونحوها من الحشرات لعدم الاعتداد بها وتذكير الضمير فى منهم لتغليب العقلاء والتعبير عن الأصناف بكلمة من ليوافق التفصيل الإجمال والترتيب لتقديم ما هو أعرف فى

القدرة ﴿يخلق الله ما يشاء﴾ مما ذكر وعما لم يذكر بسيطاً كان أو مركباً على ما يشاء من الصور والأعضاء والهيئات والحركات والطبائع والقوى والأفاعيل مع اتحاد العناصر وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتفخيم شأن الخلق المذكور والإيذان بأنه من أحكام الألوهية ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء وإظهار الجلالة لما ذكر مع تأكيد استقلال الاستئناف التعليل ﴿لقد أنزلنا آيات مبينات﴾ أى لكل ما يليق بيانه من الأحكام الدينية والأسرار السكونية ﴿والله يهدي من يشاء﴾ أن يهديه بتوفيقه للنظر الصحيح فيها وإرشاده إلى التأمل في مطاويها ﴿إلى صراط مستقيم﴾ موصل إلى حقيقة الحق والفوز بالجنة .

### أحوال غير المهديين

﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول﴾ شروع في بيان أحوال بعض من لم يشأ الله هدايته إلى الصراط المستقيم قال الحسن نزلت في المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر وقيل نزلت في بشر المنافق خاصم يهودياً فدعاه إلى كعب بن الأشرف واليهودى يدعوهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقيل في المغيرة بن وائل خاصم علياً رضى الله عنه في أرض وماء فأبى أن يحاكم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وأياماً ما كان فصيغة الجمع للإيذان بأن القائل طائفة يساعدونه ويشايعونه في تلك المقالة كما يقال بنو فلان قتلوا فلاناً والقائل واحد منهم ﴿وأطعنا﴾ أى أطعناهما في الأمر والنهى ﴿ثم يتولى﴾ عن قبول حكمه ﴿فريق منهم بعد ذلك﴾ أى من بعدما صدر عنهم ما صدر من ادعاء الإيمان بالله وبالرسول والطاعة لهما على التفصيل وما في ذلك من معنى البعد للإيذان بكونه أمراً معتداً به واجب المراجعة ﴿وما أولئك﴾ إشارة إلى القائلين لا إلى الفريق المتولى منهم فقط لعدم اقتضاء نفي الإيمان عنهم نفيه عن الأولين بخلاف العكس فإن نفيه عن القائلين مقتضى لنفيه عنهم على أبلغ وجه وآكده وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلتهم في الكفر والفساد أى وما أولئك الذين يدعون

الإيمان والطاعة ثم يتولى بعضهم الذين يشاركون في العقد والعمل ﴿بالمؤمنين﴾ أى المؤمنين حقيقة كما يعرب عنه اللام أى ليسوا بالمؤمنين المعبودين بالإخلاص فى الإيمان والثبات عليه ﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم﴾ أى الرسول ﴿بينهم﴾ لأنه المباشر حقيقة للحكم وإن كان ذلك حكم الله حقيقة وذكر الله تعالى لتفخيمه عليه السلام والإيذان بجلالة محله عنده تعالى ﴿إذا فريق منهم معرضون﴾ أى فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه عليه السلام لكون الحق عليهم وعليهم بأنه عليه السلام يحكم بالحق عليهم وهو شرح للتولى ومبالغة فيه ﴿وإن يكن لهم الحق﴾ لا عليهم ﴿يأتوا إليه مذعنين﴾ متقادين لجزمهم بأنه عليه السلام يحكم لهم وإلى صلة ليأتوا فإن الإتيان والمجيء يعديان إلى أو لمذعنين على تضمنين معنى الإسراع والإقبال كما فى قوله تعالى (فأقبلوا إليه يرفون) والتقديم للاختصاص ﴿أفى قلوبهم مرض﴾ إنكار واستقباح لإعراضهم المذكور وبيان لمنشئه بعد استقصاء عدة من القبائح المحققة فيهم والمتوقعة منهم وترديد المنشئية بينها فدار الاستفهام ليس نفس ما وليته الهمة وأم من الأمور الثلاثة بل هو منشئتها له كأنه قيل أذلك أى إعراضهم المذكور لأنهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم .

﴿أم﴾ لأنهم ﴿ارتابوا﴾ فى أمر نبوته عليه السلام مع ظهور حقيقتها ﴿أم﴾ لأنهم ﴿يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله﴾ ثم أضرب عن الكل وأبطلت منشئته وحكم بأن المنشأ شئ آخر من شأناتهم حيث قيل ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ أى ليس ذلك لشئ مما ذكر أما الأولان فلأنه لو كان شئ منهما لأعرضوا عنه عليه السلام عند كون الحق لهم ولما أتوا إليه عليه السلام مذعنين لحكمة لتحقيق نفاقهم وارتيابهم حينئذ أيضاً وأما الثالث فلا تمانه رأسا حيث كانوا لا يخافون الخيف أصلا لمعرفتهم بتفاصيل أحواله عليه السلام فى الأمانة والثبات على الحق بل لأنهم هم الظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ويتم لهم جعوده فيأبون المحاكمة إليه عليه الصلاة والسلام لعلمهم بأنه



عليه الصلاة والسلام يقضى عليهم بالحق فمناط النفي المستفاد من الإضراب في الأولين هو وصف منشيتهما للإعراض فقط مع تحققهما في نفسيهما وفي الثالث هو الأصل والوصف جميعا هذا وقد خص الارتياح بماله منشأ مصحح لعروضه لهم في الجملة والمعنى أم ارتابوا بأن رأوا منه عليه الصلاة والسلام تهمة فزالت ثقتهم ويقينهم به عليه الصلاة والسلام فمدار النفي حينئذ نفس الارتياح ومنشئته معا فتأمل فيما ذكر على التفصيل ودع عنك ما قيل وقيل حسبما يقتضيه النظر الجليل .

﴿ إنما كان قول المؤمنين ﴾ بالنصب على أنه خبر كان وأن مع ما في حيزها اسمها وقرئ بالرفع على العكس والأول أقوى صناعة لأن الأولى للاسمية ما هو أوغل في التعريف وذلك هو الفعل المصدر بأن إذ لا سبيل اليه للتشكيك بخلاف قول المؤمنين فإنه يحتمله كما إذا اعتزلت عنه الإضافة لكن قراءة الرفع أقعد بحسب المعنى وأوفى لمقتضى المقام لما ان مصب الفائدة وموقع البيان في الجمل هو الخبر فالأحق بالخبرية ما هو أكثر إفادة وأظهر دلالة على الحدوث وأوفر اشتمالا على نسب خاصة بعيدة من الوقوع في الخارج وفي ذهن السامع ولا ريب في أن ذلك ههنا في أن مع ما في حيزها أتم وأكمل فاذا هو أحق بالخبرية وأما ما تفيد الإضافة من النسبة المطلقة الإجمالية في حيث كانت قليلة الجدوى سهلة الحصول خارجا وذهنا كان حقها أن تلاحظ ملاحظة مجملة وتجعل عنوانا للموضوع فالمعنى إنما كان مطلق القول الصادر عن المؤمنين ﴿ إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم ﴾ أي الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ بينهم ﴾ أي وبين خصوصهم سواء كانوا منهم أو من غيرهم ﴿ أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ أي خصوصية هذا القول المحكى عنهم لا قول آخر أصلا وأما قراءة النصب فمعناها إنما كان قول المؤمنين أي إنما كان قولهم عند الدعوة خصوصية قولهم المحكى عنهم ففيه من جعل أخص النسبتين وأبعدهما وقوعا وحضورا في الأذهان وأحقهما بالبيان مفروغا عنها عنوانا للموضوع وإبراز ما هو بخلافها في معرض

القصد الأصلي ما لا يخفى وقرئ ليحكم على بناء الفعل للمفعول مستنداً إلى مصدره مجاوباً لقوله تعالى إذا دعوا أى ليفعل الحكم كما في قوله تعالى (لقد تقطع بينكم) أى وقع التقطع بينكم .

(وأولئك) إشارة إلى المؤمنين باعتبار صدور القول المذكور عنهم وما فيه من معنى البعد للإشمار بعلو رتبته وبعد منزلتهم في الفضل أى أولئك المنعوتون بما ذكر من النعمت الجميل (هم المفلحون) أى هم الفائزون بكل مطلب والناجون من كل محذور (ومن يطع الله ورسوله) استئناف جىء به لتقرير مضمون ما قبله من حسن حال المؤمنين وترغيب من عدام في الانتظام في سلوكهم أى ومن يطعمهما كائناً من كان فيما أمرا به من الأحكام الشرعية اللازمة والمتعدية وقيل في الفرائض والسنن والأول هو الأنسب بالمقام (ويخش الله ويتقه) يأسكان القاف المبني على تشبيهه بكتف وقرئ بكسر القاف والهاء ويأسكان الهاء أى ويخش الله على ما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل (فأولئك) الموصوفون بما ذكر من الطاعة والخشية والالتقاء (هم الفائزون) بالنعيم المقيم لا من عدام (وأقسموا بالله) حكاية لبعض آخر من أكاذيبهم مؤكدة بالإيمان الفاجرة وقوله تعالى (جهداًيمانهم) نصب على أنه مصدر مؤكد لفعله الذي هو في حين النصب على أنه حال من فاعل أقسموا أى أقسموا به تعالى يجهدون إيمانهم جهداً ومعنى جهد اليمين بلوغ غايتها بطريق الاستعارة من قولهم جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وطاقها أى جاهدين بالغين أقصى مراتب اليمين في الشدة والوكادة وقيل هو مصدر مؤكد لأقسموا أى أقسموا لإقسام اجتهد في اليمين قال مقاتل من حلف بالله فقد اجتهد في اليمين (لئن أمرتهم) أى بالخروج إلى الغزو لا عن ديارهم وأموالهم كما قيل لأنه حكاية لما كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أينما كنت نكون معك لئن خرجت خرجنا وإن أقت أقمنا وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا وقوله تعالى (ليخرجن) جواب لأقسموا بطريق حكاية فعلهم لا حكاية قولهم وحيث كانت مقاتلهم هذه كاذبة ويمينهم فاجرة أمر عليه السلام بردها حيث قيل (قل) أى رداً عليهم وزجراً لهم عن التفوه

بها وإظهارا لعدم القبول لسكونهم كاذبين فيها ﴿ لا تقسموا ﴾ أى على ما ينبىء عنه كلامكم من الطاعة وقوله تعالى ﴿ طاعة معروفة ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة تعليل للنهى أى لا تقسموا على ما تدعون من الطاعة لأن طاعتكم طاعة نفاقية واقعة باللسان فقط من غير مواطاة من القلب وإنما عبر عنها بمعروفة للإيدان بأن كونها كذلك مشهور معروف لكل أحد وقرىء بالنصب والمعنى تطيعون طاعة معروفة هذا وحملها على الطاعة الحقيقية بتقدير ما يناسبها من مبتدأ أو خبر أو فعل مثل الذى يطلب منكم طاعة معروفة حقيقية لا نفاقية أو طاعة معروفة أمثل أو ليكن طاعة معروفة أو أطيعوا طاعة معروفة بما لا يساعده المقام .

﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة التى من جملتها ما تظهرونه من الأكاذيب المؤكدة بالإيمان الفاجرة وما تضرمنونه فى قلوبكم من الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين وغيرها من فنون الشر والفساد والجملة تعليل للحكم بأن طاعتهم طاعة نفاقية تشعر بأن مدار شررة أمرها فيما بين المؤمنين لإخباره تعالى بذلك ووعيد لهم بأنه تعالى مجازيهم بجميع أعمالهم السيئة التى منها نفاقهم ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ كرر الأمر بالقول لإبراز كمال العناية به والإشعار باختلافهما من حيث أن المقول فى الأول نهى بطريق الرد والتفريع كما فى قوله تعالى ( اخسؤا فيها ولا تكلمون ) وفى الثانى أمر بطريق التكليف والتشريع وإطلاق الطاعة للأمور بها عن وصف الصحة والإخلاص ونحوهما بعد وصف طاعتهم بما ذكر للتنبيه على أنها ليست من الطاعة فى شيء أصلا وقوله تعالى ﴿ فإن تولوا ﴾ خطاب للمأمورين بالطاعة من جهته تعالى واردة لتأكيد الأمر بها والمبالغة فى إيجاب الامتثال به والحل عليه بالترهيب والترغيب لما أن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعانى وصرفه عن صفته المسلك ينبىء عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من السامع كما أشير إليه فى تفسير قوله تعالى ( ولو جئنا بمثله مددا ) لاسيما إذا كان ذلك بتغيير الخطاب بالواسطة إلى الخطاب بالذات فإن فى خطابه تعالى إياهم بالذات بعد أمره تعالى إياهم بوساطته عليه السلام وتصديه لبیان حكم الامتثال بالأمر

والتولى عنه إجمالا وتفصيلا من إفادة ما ذكر من التأكيد والمبالغة ما لا غاية وراءه وتوهم أنه داخل تحت القول المأمور بحكايته من جهته تعالى وأنه أبلغ في التبكيك تعكيس للأمر والفاء لقرئيب ما بعدها على تبليغه عليه السلام للمأمور به إليهم وعدم التصريح به للإيدان بغاية ظهور مسارعته عليه السلام إلى تبليغ ما أمر به وعدم الحاجة إلى الذكر أى إن تتولوا عن الطاعة إثر ما أمرتم بها .

﴿ فإنما عليه ﴾ أى فاعلموا أنما عليه عليه السلام ﴿ ما حمل ﴾ أى أمر به من التبليغ وقد شاهدتموه عند قوله أطيعوا الله والرسول ﴿ وعليكم ما حملتم ﴾ أى ما أمرتم به من الطاعة ولعل التعبير عنه بالتحميل للإشعار بثقله وكونه مؤنة باقية في عهدتهم بعد كآنه قيل وحيث توليتم عن ذلك فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل وقوله تعالى ما حمل محمول على المشاكلة ﴿ وأن تطيعوه ﴾ أى فيما أمركم به من الطاعة ﴿ تهتدوا ﴾ إلى الحق الذى هو المقصد الأصلى الموصول إلى كل خير والمنجى من كل شر وتأخير عن بيان حكم التولى لما فى تقديم التهيب من تأكيد الترغيب وتقريبه بما هو من بابه من الوعد الكريم وقوله تعالى ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ اعتراض مقرر لما قبله من أن غائلة التولى وفائدة الإطاعة مقصورتان عليهم واللام إما للجلس المنتظم له عليه السلام انتظاما أوليا أو للعهد أى ما على جنس الرسول كاتنا من كان أو ما عليه عليه السلام إلا التبليغ الموضح لكل ما يحتاج إلى الإيضاح أو الواضح على أن المبين من أبان بمعنى بان وقد علمتم أنه قد فعله بما لا مزيد عليه وإنما بقى ما حملتم وقوله تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم ﴾ استئناف مقرر لما فى قوله تعالى ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ من الوعد الكريم ومعرب عنه بطريق التصريح ومبين لتفاصيل ما أجمل فيه من فنون السعادات الدينية والدنيوية التى هى من آثار الاهتداء ومتضمن لما هو المراد بالطاعة التى نيط بها الاهتداء والمراد بالذين آمنوا كل من اتصف بالإيمان بعد الكفر على الإطلاق من أى طائفة كان وفى أى وقت كان لا من آمن من طائفة المنافقين فقط ولا من آمن بعد نزول الآية الكريمة فحسب ضرورة عموم

الوعد الكريم لكل كافة فالخطاب في منكم لعامة الكفرة لا المنافقين خاصة ومن تبعضية .

(( وعلوا الصالحات )) عطف على آمنوا داخل معه في حين الصلة وبه يتم تفسير الطاعة التي أمر بها ورتب عليها ما نظم في سلك الوعد الكريم كما أشير إليه وتوسط الظرف بين المعطوفين لإظهار أصالة الإيمان وعراقته في استتباع الآثار والأحكام وللإيذان بكونه أول ما يطلب منهم وأهم ما يجب عليهم وأما تأخيرها عنهما في قوله تعالى ( وعد الله الذين آمنوا وعلوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ) فلأن من هناك بيانية والضمير للذين معه عليه السلام من خالص المؤمنين ولا ريب في أنهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصالحة منابرون عليهما فلا بد من ورود بيانهم بعد ذكر نعمتهم الجليلة بكاملها ، هذا ومن جعل الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام وللأمة عموما على أن من تبعضية أوله عليه السلام ولن معه من المؤمنين خصوصا على أنها بيانية فقد نأى عما يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه بمنازل وأبعد عما يليق بشأنه عليه السلام بمراحل (( ليستخلفنهم في الأرض )) جواب للقسم إما بالإضمار أو بتزويل وعده تعالى منزلة القسم لتحقيق لإنجازه لا محالة أى ليجعلنهم خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم أو خلفاء من الذين لم يكونوا على حالهم من الإيمان والأعمال الصالحة .

(( كما استخلف الذين من قبلهم )) هم بنو إسرائيل استخلفهم الله عز وجل في مصر والشام بعد إهلاك فرعون والجبابرة أو هم ومن قبلهم من الأمم المؤمنة التي أشير إليهم في قوله تعالى ( ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات ) إلى قوله تعالى ( فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ) وحل الكاف للنصب على أنه مصدر تشيبي مؤكد للفعل بعد تأكيد كيدهم بالقسم وما مصدرية أى ليستخلفنهم استخلفا كأننا كاستخلافه تعالى للذين من قبلهم وقرىء كما استخلف على البناء المفعول فليس العامل في الكاف حيثئذ الفعل المذكور بل ما يدل

هو عليه من فعل مبنى هو للفعول جار منه مجرى المطاوع فإن استخلافه تعالى لإياهم مستلزم لكونهم مستخلفين لا محالة كأنه قيل ليستخلفنهم في الأرض فيستخلفن فيها استخلافاً أى مستخلفية كائنة كمستخلفية من قبلهم وقد مر تحقيقه في قوله تعالى (كما سئل موسى من قبل) وعن هذا القبيل قوله تعالى (وأنبأنا نباتاً حسناً) على أحد الوجهين أى فنبتت نباتاً حسناً وعليه قول من قال :

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع من المال إلا مسحت أو مجلف  
أى فلم يبق إلا مسحت الخ (وليمكن لهم دينهم) عطف على ليستخلفنهم منتظم معه فى سلك الجواب وتأخير عنه مع كونه أجل الرغائب الموعودة. وأعظمها لما أن النفوس إلى الحظوظ العاجلة أميل فتصدير المواعيد بها فى الاستمالة أدخل والمعنى ليجعلن دينهم ثابتاً مقرراً بحيث يستمرون على العمل بأحكامه ويرجعون إليه فى كل ما يأتون وما يذرون والتعبير عن ذلك بالتمكين الذى هو جعل الشيء مكاناً لآخر يقال مكن له فى الأرض أى جعلها مقراله ومنه قوله تعالى (إنا مكننا له فى الأرض) ونظائره وكلمة فى الإيدان بأن ما جعل مقرأ له قطعة منها لا كلها للدلالة على كمال ثبات الدين ورصانة أحكامه وسلامته من التغير والتبدل لا بثنائه على تشبيهه بالأرض فى الثبات والقرار مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف فى الأرض وتقديم صلة التمكين على مفعوله الصريح للمسارعة إلى بيان كون الموعود من منافعهم تشويقاً لهم إليه وترغيباً لهم فى قبوله عند وروده ولأن فى توسيطها بينه وبين وصفه أعنى قوله تعالى (الذى ارتضى لهم) وفى تأخيرها عنه من الإخلال بجزالة النظم الكريم ما لا يخفى وفى إضافة الدين إليهم وهو دين الإسلام ثم وصفه بارتضائه لهم تأليف لقلوبهم ومزيد ترغيب فيه وفضل تثبت عليه .

(وليبذلنهم) بالتشديد وقرئ بالتخفيف من الإبدال (من بعد خوفهم) أى من الأعداء (أمننا) حيث كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة عشر سنين بل أكثر خائفين ثم هاجروا إلى المدينة وكانوا يصيحون فى السلاح ويمسسون كذلك حتى قال رجل منهم ما يأتى علينا يوم نأمن فيه فقال عليه الصلاة

والسلام ولا تعبرون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في المألا العظيم محتيا ليس معه حديدة ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية وأنجز وعده وأظهرهم على جزيرة العرب وفتح لهم بلاد الشرق والغرب وصاروا إلى حال يخافهم كل من عداهم وفيه من الدلالة على صحة النبوة للإخبار بالغيب على ما هو عليه قبل وقوعه ما لا يخفى وقيل المراد الخوف من العذاب والأمن منه في الآخرة ﴿يعبدونني﴾ حال من الموصول الأول مفيدة لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد أو استئناف بيان المقتضى للاستخلاف وما انتظم معه في سلك الوعد ﴿لا يشركون بي شيئا﴾ حال من الواو أى يعبدونني غير مشركين بي في العبادة شيئا ﴿ومن كفر﴾ أى انصف بالكفر بأن ثبت واستمر عليه ولم يتأثر بما مر من الترهيب والترغيب فإن الإصرار عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد كفر مستأقف زائد على الأصل وقيل كفر بعد الإيمان وقيل كفر هذه النعمة العظيمة والأول هو الأنسب بالمقام .

﴿ بعد ذلك ﴾ أى بعد ذلك الوعد الكريم بما فصل من المطالب العالية المستوجبة لغاية الاهتمام بتحصيلها والسعى الجميل في حيازتها ﴿ فأولئك ﴾ البعداء عن الحق التائبون في تيه الغواية والضلال ﴿ هم الفاسقون ﴾ السكاملون في الفسق والخروج عن حدود الكفر والطغيان ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام فإن خطابه تعالى للباورين بالطاعة على طريق الترهيب من التولى بقوله تعالى ﴿ فإن تولوا ﴾ الخ وترغيبه تعالى لإيائهم في الطاعة بقوله تعالى ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ الخ ووعدته تعالى لإيائهم على الإيمان والعمل الصالح بما فصل من الاستخلاف وما يتلوه من الرغائب الموعودة ووعدته على الكفر بما يوجب الأمر بالإيمان والعمل الصالح والنهى عن الكفر فكأنه قيل فآمنوا واعملوا صالحا وأقيموا أو فلا تكفروا وأقيموا وعطفه على أطيعوا الله مما لا يليق بجزالة النظم الكريم ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أمرهم الله سبحانه وتعالى بالذات بما أمرهم به بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام من طاعته التى هى طاعته تعالى في الحقيقة تأكيداً للأمر السابق

وتقريراً لمضمونه على أن المراد بالمطاع فيه جميع الأحكام الشرعية المنتظمة للآداب المرضية أيضاً أى وأطيعوه فى كل ما يأمركم به وينهاكم عنه أو تكملاً لما قبله من الأمرين الخاصين بالمتعلقين بالصلاة والزكاة على أن المراد بما ذكر ما عداهما من الشرائع أى وأطيعوه فى سائر ما يأمركم به الخ وقوله تعالى ﴿لعلكم ترحمون﴾ متعلق على الأول بالأمر الأخير المشتمل على جميع الأوامر وعلى الثانى بالأوامر الثلاثة أى افعلوا ما ذكر من الإقامة والإيتاء والإطاعة راجين أن ترحموا .

﴿ولا تحسبن الذين كفروا﴾ لما بين حال من أطاعه عليه الصلاة والسلام وأشير إلى فوزه بالرحمة المطلقة المستتبعة إسعاده الدارين عقب ذلك بيان حال من عصاه عليه الصلاة والسلام ومآل أمره فى الدنيا والآخرة بعد بيان تنافيه فى الفسق تكملاً لأمر الترغيب والترهيب والخطاب إما لكل أحد ممن يصلح له كائنًا من كان وإما للرسول عليه الصلاة والسلام على مناجى قوله تعالى (فلا تكونن من المشركين) ونظائره للإيذان بأن الحسبان المذكور من الصبح والمحدورية بحيث ينهى عنه من يمتنع صدوره عنه فكيف بمن يمكن ذلك منه ومحل الموصول النصب على أنه مفعول أول للحسبان وقوله تعالى ﴿معجزين﴾ ثانيهما وقوله تعالى ﴿فى الأرض﴾ ظرف للمعجزين لكن لا لإفادة كون الإعجاز المنفى فيها لا فى غيرها فإن ذلك مما لا يحتاج إلى البيان بل لإفادة شمول عدم الإعجاز بجميع أجزائها أى لا تحسبنهم معجزين الله عز وجل عن إدراكهم وإهلاكهم فى قطر من أقطار الأرض بما رحبت وإن هربوا منها كل مهرب وقرىء لا يحسبن بياء الغيبة على أن الفاعل كل أحد والمعنى كما ذكر أى لا يحسبن أحد الكافرين معجزين له سبحانه فى الأرض أو هو الموصول والمفعول الأول محذوف لكونه عبارة عن أنفسهم كأنه قيل لا يحسبن الكافرون أنفسهم معجزين فى الأرض وأما جعل معجزين مفعولاً أول وفى الأرض مفعولاً ثانياً فبمعزل من المطابقة لمقتضى المقام ضرورة أن مصب الفائدة هو المفعول الثانى ولا فائدة فى بيان كون المعجزين فى الأرض وقد مر فى قوله تعالى



(إني جاعل في الأرض خليفة) وقوله تعالى ﴿وما أومأ النار﴾ معطوف على جملة النهي بتأويلها بجملة خبرية لأن المقصود بالنهاى عن الحساب تحقيق نفى الحساب كأنه قيل ليس الذين كفروا معجزين وما أومأ الخ أو على جملة مقدرة وقعت تعليلا للنهي كأنه قيل لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض فإنهم مدركون وما أومأ الخ وقيل الجملة المقدرة بل هم مقهورون فتدبر ﴿ولبئس المصير﴾ جواب لقسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف أى وبالله لبئس المصير هى أى النار والجملة اعتراض تذييل مقرر لما قبله وفى إيراد النار بعنوان كونها مأوى ومصيرا لهم إثر نفى فوترهم بالحرب فى الأرض كل مهرب من الجزالة ما لا غاية وراءه ففقه در شأن التنزيل .

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ رجوع إلى بيان تنمة الأحكام السابقة بعد تمهيد ما يوجب الامتثال بالأوامر والنواهي الواردة فيها وفى الأحكام اللاحقة من التميلات والترغيب والترهيب والوعد والوعيد والخطاب إما للرجال خاصة والنساء داخلات فى الحكم بدلالة النص أوللفريقين جميعا بطريق التغليب روى أن غلاما لأسماء بنت أبى مرثد دخل عليها فى وقت كرمته فنزلت وقيل أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدلج بن عمرو الأنصارى وكان غلاما وقت الظهيرة ليدعو عمر رضى الله عنه فدخل عليه وهو نائم قد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضى الله عنه لوددت أن الله تعالى نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن ثم انطلق معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية .

﴿ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم﴾ من العبيد والجوارى ﴿والذين لم يبلغوا الحلم﴾ أى الصبيان القاصرون عن درجة البلوغ المعهود والتعبير عنه بالحلم لكونه أظهر دلالة ﴿منكم﴾ أى من الأحرار ﴿ثلاث مرات﴾ أى ثلاثة أوقات فى اليوم والليلة والتعبير عنها بالمرات للإيدان بأن مدار وجوب الاستئذان مقارنة تلك الأوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا أنفسهم ﴿من قبل صلاة الفجر﴾ لظهور أنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم

ولبس ثياب البهجة وعمله النصب على أنه بدل من ثلاث مرات أو الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى أحدها من قبل الخ (وحين تضعون ثيابكم) أى ثيابكم التى تلبسونها فى النهار وتخلعونها لأجل القيلولة وقوله تعالى (من الظهيرة) وهى شدة الحر عند انتصاف النهار بيان للحين والتصريح بمدار الأمر أعنى وضع الثياب فى هذا الحين دون الأول والآخر لما أن التجرد عن الثياب فيه لأجل القيلولة لقلة زمانها كما يلبى عنها إيراد الحين مضافا إلى فعل حادث منقضى ووقوعها فى النهار الذى هو مثنة لكثرة ورود والصدور ومضنة لظهور الأحوال و بروز الأمور ليس من التحقق والاطراد بمنزلة ما فى الوقتين المذكورين فإن تحقق التجرد وإطراده فيهما أمر معروف لا يحتاج إلى التصريح به (ومن بعد صلاة العشاء) ضرورة أنه وقت التجرد عن اللباس والالتفاف بالحاف وليس المراد بالقبليّة والبعديّة المذكورتين مطلقهما المتحقق فى الوقت الممتد المتخلل بين الصلاتين كما فى قوله تعالى (ولأن كنت من قبله لمن الغافلين) وقوله تعالى (من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى) بل ما يعرض منهما لطرفى ذلك الوقت الممتد المتصلين بالصلاتين المذكورتين اتصالا عاديا وقوله تعالى (ثلاث عورات) خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى (لكم) متعلق بمحذوف هو صفة ثلاث عورات أى كائنة لكم والجملة استئناف مسوق لبيان علة وجوب الاستئذان أى هن ثلاثة أوقات يختل فيها التستر عادة والعورة فى الأصل هو الخلل غلب فى الخلل الواقع فيما بهم حفظه ويعتنى بستره أطلقت على الأوقات المشتملة عليها مبالغة كأنها نفس العورة وقرئ ثلاث عورات بالنصب بدلا من ثلاث مرات .

(ليس عليكم ولا عليهم) أى على المماليك والعبيان (جناح) أى إثم فى الدخول بغير استئذان لعدم ما يوجب من مخالفة الأمر والاطلاع على العورات (بعدهن) أى بعد كل واحدة من تلك العورات الثلاث وهى الأوقات المتخللة بين كل اثنتين منهن وإيرادها بعنوان البعدية مع أن كل وقت (١٠ - أبو السعود - رابع)

من تلك الأوقات قبل عورة من العورات كما أنها بعد أخرى منهن لتوفية حق التكليف والترخيص الذي هو عبارة عن رفعه إذ الرخصة إنما تتصور في فعل يقع بعد زمان وقوع الفعل المكلف والجملة على القراءتين مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها بالطرد والعكس وقد جوز على القراءة الأولى كونها في محل رفع على أنها صفة أخرى لثلاث عورات وأما على القراءة الثانية فهي مستأنفة لا غير إذ لو جعلت صفة لثلاث عورات وهي بدل من ثلاث مرات لسكان التقدير ليستأذنكم هؤلاء في ثلاث عورات لا إثم في ترك الاستئذان بعدهن وحيث كان انتفاء الإثم حينئذ عالم بعلبه السامع لإلهذا الكلام لم يتسن إبرازه في معرض الصفة بخلاف قراءة الرفع فإن انتفاء الإثم حينئذ معلوم من صدر الكلام وقوله تعالى: ﴿طوافون عليكم﴾ استئناف ببيان العذر المرخص في ترك الاستئذان وهي المخالطة الضرورية وكثرة المداخلة وفيه دليل على تعليل الأحكام وكذا في الفرق بين الأوقات الثلاثة وبين غيرها بكونها عورات .

﴿بعضكم على بعض﴾ أى بعضكم طائف على بعض طوافا كثيرا أو بعضكم يطوف على بعض ﴿كذلك﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذى بعده وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من تفخيم شأن المشار إليه حسا أى مثل ذلك التبيين ﴿يبين الله لكم الآيات﴾ الدالة عن الأحكام أى ينزلها بينة واضحة الدلالات عليها لا أنه تعالى يبينها بعد أن لم تكن كذلك والكاف مقحمة وقد مر تفصيله في قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) ولكم متعلق بيبين وتقديمه على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر وقيل يبين علل الأحكام وليس بواضح مع أنه مؤد إلى تخصيص الآيات بما ذكر هنا ﴿والله عليم﴾ مبالغ في العلم بجميع المعلومات فيعلم أحوالكم ﴿حكيم﴾ في جميع أفاعيله فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم معاشا ومعادا .

﴿وإذا بلغ الأطامال منكم الحلم﴾ لما بين فيما مر أنفا حكم الأطفال في أنه لا جناح عليهم في ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة عقب بيان حالهم بعد البلوغ دفعا لما عسى يتوهم أنهم وإن كانوا أجانبا ليسوا

كسائر الأجانب بسبب اعتيادهم الدخول أى إذا بلغ الأطفال الأحرار الأجانب ﴿فليستأذنوا﴾ إذا أرادوا الدخول عليكم وقوله تعالى ﴿كما استأذن الذين من قبلهم﴾ في حيز النصب على أنه نعمت لمصدر مؤكد للفعل السابق والموصول عبارة عن قيل لهم لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا الآية ووصفهم بكونهم قبل هؤلاء باعتبار ذكرهم قبل ذكرهم لا باعتبار بلوغهم قبل بلوغهم كما قيل لما أن المقصود بالتشبيه بيان كيفية استئذان هؤلاء وزيادة لمباضحه ولا يتسنى ذلك إلا بتشبيهه باستئذان المعهودين عند السامع ولا ريب في أن بلوغهم قبل بلوغ هؤلاء مما لا يخطر ببال أحد وإن كان الأمر كذلك غي الواقع وإنما المعهود المعروف ذكرهم قبل ذكرهم أى فليستأذنوا استئذانا كأننا مثل استئذان المذكورين قبلهم بأن يستأذنوا في جميع الأوقات ويرجعوا إن قيل لهم ارجعوا حسبما فصل فيما سلف ﴿كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم﴾ الكلام فيه كالذى سبق والتكرير للتأكيد والمبالغة في الأمر بالاستئذان وإضافة الآيات إلى ضمير الجلالة لتشريفها .

﴿والقواعد من النساء﴾ أى العجائز اللاتي قعدن عن الحيض والحمل ﴿اللاتي لا يرجون نكاحا﴾ أى لا يطمعن فيه لكبرهن ﴿فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن﴾ أى الثياب الظاهرة كالجلباب ونحوه والغاء فيه لأن اللام في القواعد بمعنى اللاتي أو للوصف بها ﴿غير متبرجات بزينة﴾ غير مظهرات لزينة مما أمر بإخفائه في قوله تعالى (ولا يبدن زينتهن) وأصل التبرج التكلف في إظهار ما يخفى من قولهم سفينة بارجة لا غطاء عليها والبرج سعة العين بحيث يرى بياضها محيطا بسوادها كله إلا أنه خص بكشف المرأة زينتها ومحاسنها للرجال ﴿وأن يستعففن﴾ بترك الوضع ﴿خير لهن﴾ من الوضع لبعده من النعمة ﴿والله سميع﴾ مبالغ في سمع جميع ما يسمع فيسمع ما يجري بينهن وبين الرجال من المقالوة ﴿عليم﴾ فيعلم مقاصدهن وفيه من الترهيب حالا يخفى ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ كانت هؤلاء الطوائف يتحرجون من مواكبة الأصحاء حذارا من

استقذارهم لإيام وخوفاً من تأذيتهم بأفعالهم وأوضاعهم فإن الأعلى ربما سبقت يده إلى ما سبقت إليه عين أكيله وهو لا يشعر به والأعرج يتفصح في مجلسه فيأخذ أكثر من موضعه فيضيّق على جلسيه والمريض لا يخلو عن حالة تؤذى قرينه وقيل كانوا يدخلون على الرجل لطلب العلم فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو إلى بعض من سماهم الله عز وجل في الآية الكريمة فكانوا يتخرجون من ذلك ويقولون ذهب بنا إلى بيت غيره ولعل أهله كارهون لذلك وكذا كانوا يتخرجون من الأكل من أموال الذين كانوا إذا خرجوا إلى الغزو خلفوا هؤلاء الضعفاء في بيوتهم ودفنوا إليهم مفاتيحها وأذنوا لهم أن يأكلوا عما فيها مخافة أن لا يكون لإذنتهم عن طيب نفس منهم وكان غير هؤلاء أيضاً يتخرجون من الأكل في بيوت غيرهم فقل لهم ليس على الطوائف المعدودة .

(ولا على أنفسكم) أي عليكم وعلى من يماثلكم في الأحوال من المؤمنين خرج (أن تأكلوا) أي تأكلوا أنتم وهم معكم وتعميم الخطاب للطوائف المذكورة أيضاً ياباه ما قبله وما بعده فإن الخطاب فيهما لغير أولئك العوائف حتماً (من بيوتكم) أي البيوت التي فيها أزواجكم وعيالككم فدخل فيها بيوت الأولاد لأن بيتهم كبيتة لقوله عليه الصلاة والسلام أنت ومالك لأبيك وقوله عليه الصلاة والسلام إن أطيب مال الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه (أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم) وقرئ بكسر الهمزة والميم وبكسر الأولى وفتح الثانية (أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخوانكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتكم مفاتيحه) من البيوت التي تملكون التصرف فيها بإذن أربابها على الوجه الذي مر بيانه وقيل هي بيوت المماليك والمفاتيح جمع مفتاح وجمع المفاتيح مفاتيح وقرئ مفتاحه (أو صديقكم) أي أو بيوت صديقكم وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة نسبية فإنهم أرضى بالتبسط وأسر به من كثير من الأقرباء. روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الصديق أكبر من الوالدین

إن الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات بل قالوا فما لنا من شافعين ولا صديق حميم والصديق يقع على الواحد والجمع كالخليط والقطين وأضرابهما وهذا فيما إذا علم رستا صاحب البيت بصريح الإذن أو بقرينة دالة عليه ولذلك خصص هؤلاء بالذكر لاعتیادهم التبسط فيما بينهم وقوله تعالى :

( ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ) كلام مستأنف مسوق لبيان حكم آخر من جنس ما بين قبله حيث كان فريق من المؤمنين كبنى ليث بن عمرو من كنانة يتخرجون أن يأكلوا طعامهم منفردين وكان الرجل منهم لا يأكل ويمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً وربما قعد الرجل والطعام بين يديه لا يتناوله من الصباح إلى الرواح وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل وقيل كان الغنى منهم يدخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته فيدعوه إلى طعامه فيقول إني أخرج أن أكل معك وأنا غنى وأنت فقير وقيل كان قوم من الأنصار لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم فرخص لهم في أن يأكلوا كيف شاؤوا وقيل كانوا إذا اجتمعوا ليأكلوا طعاماً عزلوا للأعشى وأشباهه طعاماً على حدة فبين الله تعالى أن ذلك ليس بواجب وقوله تعالى جميعاً حال من فاعل تأكلوا وأشتاتاً عطف عليه داخل في حكمه وهو جمع شت على أنه صفة كالخق يقال أمر شت أى متفرق أو على أنه في الأصل مصدر وصف به مبالغة أى ليس عليكم جناح أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين ( فإذا دخلتم ) شروع في بيان الآداب التي تجب رعيتها عند مباشرة ما رخص فيه إثر بيان الرخصة فيه ( يوتوا ) أى من البيوت المذكورة ( فسلوا على أنفسكم ) أى على أهلها الذين بمنزلة أنفسكم لما بينكم وبينهم من القرابة الدينية والنسبية الموجبة لذلك ( تحية من عند الله ) أى ثابتة بأمره مشروعة من لدنه ويجوز أن يكون صلة للتحية فإنها طلب الحياة التي هي من عنده تعالى واتصافها على المصدرية لأنها بمعنى التسليم ( مباركة ) مستتعبة لزيادة الخير والثواب ودوامها ( طيبة ) تطيب بها نفس المستمع وعن

أنس رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال متى لقيت أحد من أمتي فسلم عليه يطل عمرك وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأولين .

( كذلك يبين الله لكم الآيات ) تكرير لنا كيد الأحكام المختتمة به وتفخيما ( لعلكم تعقلون ) أى ما فى تضاعيفها من الشرائع والأحكام وتعملون بموجبها وتحوزون بذلك سعادة الدارين وفى تعليل هذا التبيين بهذه الغاية القصوى بعد تذييل الأولين بما يوجبهما من الجزالة ما لا يخفى ( إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ) استئناف جىء به فى أواخر الأحكام السابقة تقريراً لها وتأكيذاً لوجوب مراعاتها وتسكيلاً لها ببيان بعض آخر من جنسها وإنما ذكر الإيمان بالله ورسوله فى حيز الصلة للوصول للواقع خبراً للابتداء مع تضمنه له قطعاً تقريراً لما قبله وتمهيداً لما بعده وإيداناً بأنه حقيق بأن يجعل قريناً للإيمان بهما منتظماً فى سلكه فقلوه تعالى ( وإذا كانوا معاً على أمر جامع ) معطوف على آمنوا داخل معه فى حيز الصلة أى إنما الكاملون فى الإيمان الذين آمنوا بالله ورسوله عن صميم قلوبهم وأطاعوها فى جميع الأحكام التى من جملتها ما فصل من قبل من الأحكام المتعلقة بعامة أحوالهم المطردة فى الوقوع وأحوالهم الواقعة بحسب الاتفاق كما إذا كانوا معاً عليه الصلاة والسلام على أمر مهم يجب اجتماعهم فى شأنه كالجمعة والأعياد والحروب وغيرها من الأمور الداعية إلى اجتماع أولى الآراء والتجارب ووصف الأمر بالجمع للبالغة وقرىء أمر جميع ( لم يذهبوا ) أى من المجمع مع كون ذلك الأمر مما لا يوجب حضورهم لا محالة كما عند إقامة الجمعة ولقاء العدو بل يسوغ التخلف عنه ( حتى يستأذنه ) عليه الصلاة والسلام فى الذهاب لا على أن نفس الاستئذان غاية لعدم الذهاب بل الغاية هى الإذن المنوط برأيه عليه الصلاة والسلام والاقصرار على ذكره لأنه الذى يتم من قبلهم وهو المعتبر فى كمال الإيمان لا الإذن ولا الذهاب المترتب عليه واعتباره فى ذلك لما أنه كالمصدق لصحته والمميز للمخلص فيه عن المنافق فإن ديدنه التسلل للفرار

ولتعظيم ما في الذهاب بغير إذنه عليه الصلاة والسلام من الجنابة وللتفنيه على ذلك عقب بقوله تعالى : ﴿ إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ﴾ ففضى بأن المستأذنين هم المؤمنون بالله ورسوله كما حكم في الأول بأن السكاملين في الإيمان هم الجامعون بين الإيمان بهما وبين الاستئذان وفي أولئك من تفخيم شأن المستأذنين ما لا يخفى ﴿ فإذا استأذنوك ﴾ بيان لما هو وظيفته عليه الصلاة والسلام في هذا الباب اثر بيان ما هو وظيفة المؤمنين وأن الإذن عند الاستئذان ليس بأمر محتوم بل هو مفوض إلى رأيه عليه الصلاة والسلام والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى بعد ما تحقق أن السكاملين في الإيمان هم المستأذنون فإذا استأذنوك ﴿ لبعض شأنهم ﴾ أى لبعض أمرهم المهم وخطبهم الملم ﴿ فأذن لمن شئت منهم ﴾ لما علمت في ذلك من حكمة ومصلحة ﴿ واستغفر لهم الله ﴾ فإن الاستئذان وإن كان لعذر قوى لا يخلو عن شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة ﴿ إن الله غفور ﴾ مبالغ في مغفرة فرطات العباد ﴿ رحيم ﴾ مبالغ في إفاضة آثار الرحمة عليهم والجملة تعليل للمغفرة الموعودة في ضمن الأمر بالاستغفار لهم .

﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله والالتفات لإبراز مزيد الاعتناء بشأنه أى لا تجعلوا دعوته عليه الصلاة والسلام إياكم في الاعتقاد والعمل بها .

﴿ كدعاء بعضكم بعضا ﴾ أى لا تقيسوا دعاءه عليه الصلاة والسلام إياكم على دعاء بعضكم بعضا في حال من الأحوال وأمر من الأمور التي من جعلتها المساهلة فيه والرجوع عن مجلسه عليه الصلاة والسلام بغير استئذان فإن ذلك من المحرمات وقيل لا تجعلوا دعاءه عليه الصلاة والسلام ربه كدعاء صغيركم كبيركم يجيبه مرة ويرده أخرى فإن دعاءه مستجاب لامرأه عند الله عز وجل وتقرير الجملة حينئذ لما قبلها أما من حيث أن استجابته تعال لدعائه عليه الصلاة والسلام مما يوجب امتثالهم بأوامره عليه الصلاة والسلام ومتابعتهم له في الوجود والصدور أكمل لإيجاب وأما من حيث أنها موجبة للاحتراز عن التعرض لسخطه عليه الصلاة والسلام المؤدى إلى ما يوجب هلاكهم من دعائه عليه



عليه الصلاة والسلام عليهم وأما ما قيل من أن المعنى لا تجمعوا نداءه عليه الصلاة والسلام كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت والنداء من وراء الحجرات ولكن بقلبه المعظم مثل يا رسول الله يا نبي الله مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوت فلا يناسب المقام فإن قوله تعالى : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم ﴾ الخ وعيد لمخالفي أمره عليه الصلاة والسلام فيما ذكر من قبل فتوسيط ما ذكر بينهما بما لا وجه له والتسلل الخروج من البين على التدريج والخفية وقد للتحقيق كما أن رب تَجِيء للتكثير حسبما بين في مطلع سورة الحجر أى يعلم الله الذين يخرجون من الجماعة قليلاً قليلاً على خفية ﴿ لو اذاً ﴾ أى ملاوذة بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج أو بأن يلوذ بمن يخرج بالإذن إرادة أنه من أتباعه وقرىء بفتح اللام وانتصابه على الحالية من ضمير يتسللون أى ملاوذين أو على أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر هو الحال في الحقيقة أى يلوذون لو اذاً والفاء في قوله تعالى :

﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ لترتيب الحذر أو الأمر به على ما قبلها من علمه تعالى بأحوالهم فإنه مما يوجب الحذر البتة أى يخالفون أمره بترك مقتضاه ويذهبون سمتاً خلاف سمتة وعن إما لتضمنه معنى الإعراض أو حمله على معنى يصدون على أمره دون المؤمنين من خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه وحذف المفعول لما أن المقصود بيان المخالف والمخالف عنه والضمير لله تعالى لأنه الأمر حقيقة أو للرسول عليه الصلاة والسلام لأنه المقصود بالذكر ﴿ أن يصيبهم فتنه ﴾ أى عنة في الدنيا ﴿ أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ أى في الآخرة وكلية أو لمنع الخلو دون الجمع وإعادة الفعل صريحاً للاعتناء بالتهديد والتحذير واستدل به على أن الأمر للإيجاب فإن ترتيب العذابين على مخالفته كما يعرب عنه التحذير عن إصابتها يوجب وجوب الامتنال به حتماً ﴿ ألا إن الله ما في السموات والأرض ﴾ من الموجودات بأسرها خلقاً وملكاً وتصرفاً وإيجاداً وإعداداً بدءاً وإعادة ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ أيها المكلفون من الأحوال والأوضاع التي من جعلتها الموافقة والمخالفة والإخلاص والنفاق

﴿ ويوم يرجعون إليه ﴾ عطف على ما أنتم عليه أى يعلم يوم يرجع المنافقون المخالفون للأمر إليه تعالى للجزاء والعقاب وتعليق عليه تعالى يوم رجوعهم لا يرجعهم لزيادة تحقيق عليه تعالى بذلك وغاية تقريره لما أن العلم بوقت وقوع الشيء مستلزم للعلم بوقوعه على أبلغ وجه وآكده وفيه إشعار بأن عليه تعالى لنفس رجوعهم من الظهور بحيث لا يحتاج إلى البيان قطعا ويجوز أن يكون الخطاب أيضاً خاصا بالمناققين على طريقة الالتفات وقرئ يرجعون مبنيًا للفاعل ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ من الأعمال السيئة التي من أجلها مخالفته الأمر فترتب عليه ما يليق به من التوبيخ والجزاء وقد مر وجه التعبير عن الجزاء بالهيئة في قوله تعالى ﴿ إنما نبيكم على أنفسكم ﴾ الآية ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النور أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

## ﴿سورة الفرقان﴾

مكية وهي سبع وسبعون آية

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿تبارك الذى نزل الفرقان﴾ البركة النماء والزيادة حسية كانت أو معنوية وكثرة الخير ودوامه أيضا ونسبها إلى الله عز وجل على المعنى الأول وهو الأليق بالمقام باعتبار تعاليه عما سواه فى ذاته وصفاته وأفعاله التى من جملتها تنزيل القرآن الكريم المعجز الناطق بعلو شأنه تعالى وسمو صفاته وابتداء أفعاله على أساس الحكم والمصالح وخلوها عن شائبة الخلل بالسكلية وصيغة التفاعل للبالغة فيما ذكر فإن ما لا يتصور نسبته إليه سبحانه حقيقة من الصيغ كالتكبر ونحوه لا تنسب إليه تعالى إلا باعتبار غايتها وعلى المعنى الثانى باعتبار كثرة ما يفيض منه على مخلوقاته لاسيما على الإنسان من فنون الخيرات التى من جملتها تنزيل القرآن المنطوى على جميع الخيرات الدنيوية والدنيوية والصيغة حينئذ يجوز أن تكون لإفادة نماء تلك الخيرات وتزايدها شيئا فشيئا وآنا فأنا بحسب حدوثها أو حدوث متعلقاتها ولاستقلالها بالدلالة على غاية السكال وتحقيقها بالفعل والإشعار بالتعجب المناسب للإنشاء والإنباء عن نهاية التعظيم لم يجز استعمالها فى حق غيره تعالى ولا استعمال غيرها من الصيغ فى حقه تعالى والفرقان مصدر فرق بين الشئيين أى فصل بينهما سمي به القرآن لغاية فرقه بين الحق والباطل بأحكامه أو بين الحق والمبطل بإعجازه أو لكونه مفصولا بعضه من بعض فى نفسه أو فى إنزاله ﴿على عبده﴾ محمد صلى الله عليه وسلم وإيراده عليه الصلاة والسلام بذلك العنوان لتشريفه والإيذان بكونه عليه الصلاة والسلام فى أقصى مراتب العبودية والتثنية على أن الرسول لا يكون إلا عبدا للرسول ردا على النصارى ﴿ليكون﴾ غاية للتزليل أى نزله عليه. ليكون هو عليه الصلاة والسلام أو الفرقان ﴿للعالمين﴾ من الثقلين ﴿نذيرا﴾ أى

منذراً أو إنذاراً بالغة أو ليكون تنزيلاً إنذاراً أو عدم التعرض للتبشير لا نسيان الكلام على أحوال الكفرة وتقديم اللام على عاقلها مراعاة الفواصل وإبراز تنزيل الفرقان في معرض الصلة التي يجب أن تكون معلومة الثبوت للوصول عند السامع مع إمكان الكفورة له لإجرائه مجرى المعلوم المسلم تنبهاً على كمال قوة دلالة وكونه بحيث لا يكاد يحمله أحد كقوله تعالى لا ريب فيه (الذي له ملك السموات والأرض) أى له خاصة دون غيره لا استقلالاً ولا اشتراكاً للسلطان القاهر والاستيلاء الباهر عليهما المسترمان للقدوة التامة والتصرف الكلى فيهما وفيما لم يأتى بالأمر والإحسان والإحسان وأمرها ونهيا حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح وعمله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والجملة مستأنفة مقررّة لما قبلها أو على أنه نعت للوصول الأول أو بيان له أو بدل منه وما بينهما ليس بأجنبي لأنه من تمام صلته ومعلومية مضمونه للكفرة بما لا ريب فيه لقوله تعالى (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله) ونظائره أو مدح له تعالى بالرفع أو بالنصب (ولم يتخذ ولداً) كما يزعم الذين يقولون فى حق المسيح والملائكة ما يقولون فسبحان الله عما يصفون وهو معطوف على ما قبله من الجملة الظرفية ونظمه فى سلك الصلة للإيدان بأن مضمونه من الوضوح والظهور بحيث لا يكاد يحمله جاهل لا سيما بعد تقرير ما قبله .

(ولم يكن له شريك فى الملك) أى ملك السموات والأرض وهو أيضاً عطف على الصلة وإفراده بالذكر مع أن ما ذكر من اختصاص ملكهما به تعالى مستلزم له قطعاً للتصريح ببطلان زعم الثنوية القائلين بتعدد الآلهة والبرء فى نحورهم وتوسيط نبي اتخاذ الولد بينهما للتنبيه على استقلاله وأصالته والاحتراز عن توهم كونه تنمة للأول (وخلق كل شيء) أى أحدث كل موجود من الموجودات أحداثاً جارياً على سنن التقدير حسبما اقتضته إرادته المبنية على الحكم البالغة بأن خلق كلا منها من مواد مخصوصة على صور معينة ورتب فيه قوى وخواص مختلفة الآثار والأحكام (فقدرة) أى هياء لما أراد به من الخصائص والأفعال اللاتقة به (تقديراً) بديعاً لا يقادر قدره ولا يبلغ كتمه كتيثته

الإنسان للفهم والإدراك والنظر والتدبر في أمور المعاش والمعاد واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المختلفة وهكذا أحوال سائر الأنواع وقيل أريد بالخلق مطلق الإيجاد والإحداث مجازاً من غير ملاحظة معنى التقدير وإن لم يخل عنه في نفس الأمر فالمعنى أوجد كل شيء فقدره في ذلك الإيجاد تقديرأ وأما ما قيل من أنه سمي لإحداثه تعالى خلقاً لأنه تعالى لا يحدث شيئاً إلا على وجه التقدير من غير تفاوت ففيه أن ارتكاب المجاز يحمل الخلق على مطلق الإحداث لتجريده عن معنى التقدير فاعتباره فيه بوجه من الوجوه مغل بالمرام قطعاً وقيل المراد بالتقدير الثاني هو التقدير للبقاء إلى الأجل المسمى وأياً ما كان فالجملية جارية بجرى التعليل لما قبلها من الجمل المنتظمة مثلها في سلك الصلة فإن خلقه تعالى لجميع الأشياء على ذلك النمط البديع كما يقتضى استقلاله تعالى باتضافه بصفات الألوهية يقتضى انتظام كل ما سواه كأننا ما كان تحت ملكوته القاهرة بحيث لا يشذ عنها شيء من ذلك قطعاً وما كان كذلك كيف يتوهم كونه ولداً له سبحانه أو شريكاً في ملكه .

﴿ واتخذوا من دونه آلهة ﴾ بعدما بين حقيقة الحق في مطلع السورة الكريمة بذكر تنزيله تعالى للفرقان العظيم على رسوله صلى الله عليه وسلم ووصفه تعالى بصفات السكّال وتنزيهه عما لا يليق بشأنه الجليل عقب ذلك بحكاية أباطيل المشركين في حق المنزل سبحانه والمنزل والمنزل عليه على الترتيب وإظهار بطلانها والإضمار من غير جريان ذكرهم للثقة بدلالة ما قبله من نفي الشريك عليهم أى اتخذوا لأنفسهم متجاوزين الله تعالى الذى ذكر بعض شئونه الجليلة من اختصاص ملك السموات والأرض به تعالى وانتفاء الولد والشريك عنه وخلق جميع الأشياء وتقديرها أبداع تقدير آلهة :

﴿ لا يخلقون شيئاً ﴾ أى لا يقدرّون على خلق شيء من الأشياء أصلاً ﴿ وهم يخلقون ﴾ كسائر المخلوقات وقيل لا يقدرّون على أن يخلقوا شيئاً وهم يخلقون حيث تحتلقهم عبثهم بالنحت والتصوير وقوله تعالى ﴿ ولا يملكون لأنفسهم

ضرا ولا نفعا) لبيان ما لم يدل عليه ما قبله من موالاتهم عجزهم وضعفهم فإن بعض المخلوقين عاجزين عن الخلق بعد ذلك دفع الضر وجلب النفع في الجملة كالحبوان وهؤلاء لا يقدران على التصرف في ضرر ما يندفعه عن أنفسهم ولا في نفع ما حق جلبه اليهم فكيف يمكن كون عينا منهما يتصرف بهما في انكر الضر لأن دفعه مع كونه من الله تعالى لا يندفعه الله تعالى ولا يصرفه الله تعالى على قوله تعالى :

(ولا يعلمون موتا ولا حياة ولا نشورا) أي لا يقدرون على التصرف في شيء منها بإمارة الأحياء وإحياء الموتي وبهم بعد بيان عجزهم عما هو أهون من هذه الأمور من دفع الضر وجلب النفع للتصريح بعجزهم عن كل واحد مما ذكر على التفصيل والتنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على جميع ذلك وفيه إيذان بغاية جهلهم وسخافة عقولهم كأنهم غير عارفين باتقاء ما نقي عن آلهتهم من الأمور المذكورة مفتقرون إلى التصريح بذلك (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك شنيع) شروع في حكاية أباطيلهم المتعلقة بالمنزل والمنزل عليه معا وإبطالها والموصول إما عبارة عن غلاتهم في الكفر والظن بأنهم وهم النضر بن الحرث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد ومن ضامهم وروى عن الكلبي ومقاتل أن مقاتل هو النضر بن الحرث والجمع لمشايعة الباقيين له في ذلك ولما عن كلهم ووضع الموصول موضع ضميرهم لندمهم بما في حيز الصلة والإيذان بأن ما تفوهوا به كفر عظيم وفي كلمة هذا حظ لرتبة المشار إليه أي ما هذا إلا كذب مصروف عن وجهه (افترأ) يريدون أنه اختلقه رسول الله صلى عليه وسلم (وأعانه عليه) أي على اختلاقه (قوم آخرون) يعنون اليهود بأن يلقوا إليه أخبار الأمم الدارجة وهو يعبر عنها بعبارة وقيل هما جبر ويسار كأنهما يصنعان السيف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل وقيل هو عابس وقد مر تفصيله في سورة النحل (فقد جاؤا ظلماً) منصوب بجاءوا فإن جاء وأتى يستعملان في معنى فعل فيعديان تعديته أو بنزع الخافض أي بظلم قاله الزجاج والتوين للتفخيم أي جاؤا بما

قالوا ظلما هائلا عظيما لا يقادر قدره حيث جعلوا الحق البحت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إفكاً مفترى من قبل البشر وهو من جهة نظمه الرائق وطرزه الفائق بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته ومن جهة اشتغاله على الحكم الخفية والأحكام المستتعة للسعادات الدينية والدنيوية والأمور الغيبية بحيث لا يناله عقول البشر ولا يفى بفهمه القوى والقدر ﴿وزورا﴾ أى كذبا كبيرا لا يبلغ غايته حيث نسبوا إليه عليه الصلاة والسلام ما هو برىء منه والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها لكن لا على أنها أمران متغايران حقيقة يقع أحدهما عقيب الآخر أو يحصل بسببه بل على أن الثانى هو عين الأول حقيقة وإنما الترتيب بحسب التغاير الاعتبارى وقد لتحقيق ذلك المعنى فإن ما جازوه من الظلم والزور هو عين ما حكى عنهم لكنهم لما كان مغاير له فى المفهوم وأظهر منه بطلانا رتب عليه بالفاء ترتيب اللازم على الملزوم تهويلا لأمره .

﴿وقالوا أساطير الأولين﴾ بعد ما جعلوا الحق الذى لا يحيد عنه إفكاً مختلقا بإعانة البشر بينوا على زعمهم الفاسد كيفية الإعانة والأساطير جمع أسطار أو أسطورة كأحدوثة وهى ماسطره المتقدمون من الخرافات ﴿اكتبتها﴾ أى كتبها لنفسه على الإسناد المجازى أو استكتبها وقرىء على البناء للدفعول لأنه عليه الصلاة والسلام أمى وأصله اكتبها له كاتب لحذف اللام وأفضى بالفعل إلى الضمير فصار اكتبها لياه كاتب ثم حذف الفاعل لعدم تعلق الغرض العلمى بمخصوصه وبنى الفعل للضمير المنفصل فاستتر فيه ﴿فهى تملى عليه﴾ أى تلتق عليه تلك الأساطير بعد اكتبها ليحفظها من أفواه من يعلمها عليه من ذلك المكتتب لكونه أميا لا يقدر على أن يتلقاها منه بالقراءة أو تملى على الكاتب على أن معنى اكتبها أراد اكتبها أو استكتبها ورجع الضمير المجرور اليه عليه الصلاة والسلام لإسناد الكتابة فى ضمن الاكتاب إليه عليه الصلاة والسلام .

﴿بكرة وأصيل﴾ أى دائما أو خفية قبل انتشار الناس حين يأوون إلى

مساكنهم انظر إلى هذه الرتبة من الجراءة العظيمة فأتاهم الله أنى يؤفكون ﴿قل﴾ لهم ردا عليهم وتحقيقاً للحق ﴿أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض﴾ وصفه تعالى بإحاطة عليه بجميع المعلومات الجلية والخفية للإيدان بأنطواء ما أنزله على أسرار مطوية عن عقول البشر مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكية التى هى من جملة معلوماته تعالى أى لبس ذلك بما يفترى ويفعل باعانة قوم وكتابة آخرين من الأحاديث الملققة وأساطير الأولين بل هو أمر سماوى أنزله الله الذى لا يعزب عن علمه شئ من الأشياء وأودع فيه فنون الحكم والأسرار على وجه بديع لا يحوم حوله الأفهام حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته وأخبركم بمغيبات مستقبله وأمور مكنونة لا يهتدى إليها ولا يوقف عليها إلا بتوفيق العليم الخبير وقد جعلتموه إفكاً مفترى من قبيل الأساطير واستوجبتم بذلك أن يصب عليكم سوط العذاب صفاً بقوله تعالى ﴿لأنه كان غفوراً رحيماً﴾ تعليل لما هو المشاهد من تأخير العقوبة أى أنه تعالى أزل وأبدا مستمر على المغفرة والرحمة المستبشرين للتأخير فلذلك لا يجعل بعقوبتكم على ما تقولون فى حقه مع كمال استجابته لإياها وغاية قدرته تعالى عليها ﴿وقالوا مال هذا الرسول﴾ شروع فى حكاية جنائيتهم المتعلقة بخصوصية المنزل عليه وما استفهامية بمعنى إنكار الوقوع ونفيه مرفوعة على الابتداء خبرها ما بعدها من الجار والمجرور وفى هذا تصغير لشأنه عليه الصلاة والسلام وتسميته عليه الصلاة والسلام رسولا بطريق الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام كما قال فرعون أن رسولكم الذى أرسل إليكم ، وقوله تعالى :

﴿يا كل الطعام﴾ حال من الرسول والعامل فيها ما عمل فى الجار من معنى الاستقرار أى شئ وأى سبب حصل لهذا الذى يدعى الرسالة حال كونه يأكل الطعام كما نأكل ﴿ويمشى فى الأسواق﴾ لا ابتغاء الأرزاق كما نفعله على توجيه الإنكار والنفي إلى السبب فقط مع تحقق المسبب الذى هو مضمون الجملة الحالية كما فى قوله تعالى ﴿فالهم لا يؤمنون﴾ وقوله ﴿مالكم لا ترجون لله وقاراً﴾ فكما أن كلا من عدم الإيمان وعدم الرجاء أمر محقق قد استبعد تحققه لانتفاء



سببه بل لوجود سبب عدمه خلا أن استبعاد المسبب وإنكار السبب ونفيه في عدم الإيمان وعدم الرجاء بطريق التحقيق وفي الأكل والمشى بطريق التهكم والاستهزاء فانهم لا يستبعدونهما ولا ينكرون سببهما حقيقة بل هم معترفون بوجودهما وتحقق سببهما وإنما الذي يستبعدونه الرسالة المتنافية لهما على زعمهم يظنون أنه إن صح ما يدعيه فما باله لم يخالف حاله حالنا وهل هو إلا لعمهم وركاكة عقولهم وقصور أنظارهم على المحسوسات فان تميز الرسل عن عداهم ليس بأمور جسمية وإنما هو بأمور نفسانية كما أشير إليه بقوله تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما لأحكم إله واحد) (لولا أنزل إليه ملك) أى على صورته وهيبته (فيكون معه نذيرا) تنزل منهم من اقتراح أن يكون ملكا مستغنيا عن الأكل والشرب إلى اقتراح أن يكون معه ملك يصدقه ويكون ردها له في الإنذار وهو يعبر عنه ويفسر ما يقوله للعامة وقوله تعالى (أو يلقى إليه كنز) تنزل من تلك المرتبة اقتراح أن يلقى إليه من السماء كنز يستظهر به ولا يحتاج إلى طلب المعاش ويكون دليلا على صدقه وقوله تعالى (أو تكون له جنة يأكل منها) تنزل من ذلك إلى اقتراح ما هو أيسر منه وأقرب من الوقوع وقرىء ناكل بنون الحكاية وفيه مزيد مكابرة وفرط تحكم .

(وقال الظالمون) هم القائلون الآواون وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيما قالوه لكونه إضرالا خارجا عن حد الضلال مع ما فيه من نسبته عليه الصلاة والسلام إلى المسحورية أى قالوا للمؤمنين (إن تتبعون) أى ما تتبعون (إلا رجلا مسحورا) قد سحر فغلب على عقله وقيل ذا سحر وهى الرثة أى بشرا لا ملكا على أن الوصف لزيادة التقرير والاول هو الأنسب بحالهم (أنظر كيف ضربوا لك الأمثال) استعظام الأباطيل التى اجتروا على التغفوه بها وتعجيب منها أى انظر كيف قالوا فى حقك تلك الأقاويل العجيبة الخارجة عن العقول الجارية لغرابتها مجرى الأمثال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال الشاذة البعيدة من الوقوع (فضلوا) أى عن طريق المحاجة حيث لم يأتوا بشئ يمكن صدوره عن له أدنى عقل

وتميز فبقوا متحيزين ﴿ فلا يستطيعون سبيلا ﴾ إلى القدح في نبوتك بأن يحدوا قولاً يستقرون عليه وإن كان باطلاً في نفسه أو فضلوا عن الحق ضللاً مبيناً فلا يحدون طريقاً موثقاً إليه فإن من اعتاد استعمال أمثال هذه الأباطيل لا يكاد يهتدى إلى استعمال المقدمات الحقّة .

﴿ تبارك الذي ﴾ أي تكاثر وتزايد خير الذي ﴿ إن شاء جعل لك ﴾ في الدنيا عاجلاً شيئاً ﴿ خيراً ﴾ لك ﴿ من ذلك ﴾ الذي اقترحوه من أن يكون لك جنة تأكل منها بأن يجعل لك مثل ما وعدك في الآخرة وقوله تعالى ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ بدل من خيراً ومحقق لخيريته مما قالوا لأن ذلك كان مطلقاً عن قيد التعدد وجريان الأنهار ﴿ ويجعل لك قصوراً ﴾ عطف على محل الجزاء الذي هو جعل وقرىء بالرفع عطفاً على نفسه لأن الشرط إذا كان ماضياً جاز في جزائه الرفع والجزم كما في قول القائل :

وإن أتاه خليل يوم مسألة يقول لا غائب مالي ولا حرم

ويجوز أن يكون استئنافاً بوعد ما يكون له في الآخرة وقرىء بالنصب على أنه جواب بالواو وتعليق ذلك بمشيئته تعالى للإيذان بأن عدم جعلها بمشيئته المبينة على الحكم والمصلح وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الأولين للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل واستغنائهما عن الجواب لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعية وإنما الذي له وجه في الجملة هو الاقتراح الأخير فإنه غير مناف للحكمة بالكلية فإن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوتوا في الدنيا مع النبوة ملكاً عظيماً ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ لإضراب عن توبيخهم بحكاية جناباتهم السابقة وانتقال منه إلى توبيخهم بحكاية جناباتهم الأخرى للتخلص إلى بيان ما لهم في الآخرة بسببها من فنون العذاب بقوله تعالى :

﴿ وأعدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾ الخ أي أعدنا لهم نارا عظيمة شديدة الاشتعال شأنها كيت وكيت بسبب تكذيبهم بها على ما يشعر به وضع الموصول موضع ضميرهم أو لكل من كذب بها كائن من كان وهم داخلون في زميرهم دخولاً أولياً ووضع الساعة موضع ضميرها للبالغة في التشنيع ومدار اعتاد

( ١١ - أبو السعود - رابع )

السعير لهم وإن لم يكن مجرد تكذيبهم بالساعة بل مع تمكذيبهم بسائر ما جاء به الشريعة الشريفة لكن الساعة لما كانت هي العلة القريبة لدخولهم السعير أشير إلى سببية تكذيبها لدخولها وقيل هو عطف على وقالوا ما لهذا الخ على معنى بل أتوا بأعجب من ذلك حيث كذبوا بالساعة وأنكروها والحال أنا قد أعتدنا لكل من كذب بها سعيراً فإن جرائمهم على التاكذيب بها وعدم خوفهم مما أعد لمن كذب بها من أنواع العذاب أعجب من القول السابق وقيل هو متصل بما قبله من الجواب المبني على التحقيق المنبئ عن الوعد بالجنات في الآخرة مسوق لبيان أن ذلك لا يجدى نفعاً ولا يحل بطائل على طريقة قول من قال :

عوجوا لنعم فحيوا دمنة الدار ماذا تحيون من نوى وأحجار  
والمعنى أنهم لا يؤمنون بالساعة فكيف يقتنعون بهذا الجواب وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة وقيل المعنى بل كذبوا بها فقصرت أنظارهم على الحظوظ الدنيوية وظنوا أن الكرامة ليست إلا بالمال وجعلوا فقرك ذريعة إلى تكذيبك وقوله تعالى :

(إذا رأيتم) الخ صفة للسعير أى إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد كقوله عليه الصلاة والسلام لا تترأى نارهما أى لا تتقاربان بحيث تكون أحدهما بمرأى من الأخرى على المجاز كأن بعضها يرى البعض ونسبة الرؤية إليها لا إليهم للإيذان بأن التغيظ والزفير منها طيخان غضبها عليهم عند رؤيتها لإيها حقيقة أو تمثيلاً ومن في قوله تعالى (من مكان بعيد) إشعار بأن بعد ما بينها وبينهم من المسافة حين رأيتم خارج عن حدود البعد المعتاد في المسافات المعهودة وفيه مزيد تهويل لأمرها قال السكبي والسدى من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة سنة (سمعوا لها تغيظاً وزفيراً) أى صوت تغيظ على تشبيه صوت غليانها بصوت المغتاط وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه هذا وأن الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية أمكن أن يخلق الله تعالى فيها حياة فترى وتغيظ ورفق وقيل إن ذلك لزبانيتها فنسب إليها على حذف المضاف (وإذا ألقوا منها مكاناً) نصب على الظرفية ومنها حال منه لأنه في الأصل صفة له (ضيقاً)

حصفة لمكانا مفيدة لزيادة شدة فإن الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة وهو السر في وصف الجنة بأن عرضها السموات والأرض وعن ابن عباس وابن عمر رضي الله تعالى عنهم تضيق جهنم عليهم كما يضيق الزج على الرمح وسئل النبي عليه الصلاة والسلام عن ذلك فقال والذي نفسي بيده إنهم ليستكبرون في النار كما يستكبر الوتد في الحائط قال السكبي الأسفلون يرفعهم اللهب والأعلون يحطهم الداخلون فيزدحمون فيها وقرئ ضيقا يسكون الياء (مقرنين) حال من مفعول ألقوا أى إذا ألقوا منها مكانا ضيقا حال كونهم مقرنين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع وقيل مقرنين مع الشياطين في السلاسل كل كافر مع شيطان وفي أرجلهم الأصفاد (دعوا هنالك) أى في ذلك المكان الهائل والحالة الفظيعة (ثبورا) أى يتمنون هلاكا وينادونه ياثبورا تعال فهذا حينك وأوانك .

(لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا) على تقدير قول إما منصوب على أنه حال من فاعل دعوا أى دعوه مقولا لهم ذلك حقيقة بأن يخاطبهم الملائكة به لتنبيههم على خلود عذابهم وأنهم لا يجابون إلى ما يدعونه ولا ينالون ما يتمنونه من الهلاك المنجى أو تمثيلا وتصويرا لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول ولا خطاب أى دعوه حال كونهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك وإما مستأنف وقع جوابا عن سؤال ينفذ به عليه السلام كأنه قيل فإذا يكون عند دعائهم المذكور فقل يقال لهم ذلك إقناطاً بما علقوا به أطعاهم من الهلاك وتنبيها على أن عذابهم الملجئ لهم إلى استدعاء الهلاك بالمرّة أبدي لا خلاص لهم منه أى لا تقتصروا على دعاء ثبور واحد (وادعوا ثبورا كثيرا) أى بحسب كثرة الدعاء المتعلق به لا بحسب كثرة في نفسه فإن ما يدعونه ثبور واحد في حد ذاته لكنه كلما تعلق به دعاء من تلك الأدعية الكثيرة صار كأنه ثبور مغاير لما تعلق به دعاء آخر منها وتحقيقه لا تدعوه دعاء واحدا ودعوه أدعية كثيرة فإن ما أتم فيه من العذاب لغاية شدته وطول مدته مستوجب لتكرير الدعاء في كل آن وهذا أدل على فظاعة العذاب وهوله من جعل تعدد الدعاء

وتجده لتعدد العذاب بتعدد أنواعه وألوانه أو لتعددته بتجدد الجلود كما لا يخفى وأما ما قيل من أن المعنى إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا إنما هو ثبور كثير إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدة وفظاعته أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها فلا غاية هلاكهم فلا يلائم المقام كيف لا وهم إنما يدعون هلاكا ينهى عذابهم وينجيهم منه فلا بد أن يكون الجواب إقناطة لهم من ذلك ببيان استحالة ودوام ما يوجب استدعاه من العذاب الشديد وتقييد النهي والأمر باليوم لمزيد التهويل والتفطيع والتنبية على أنه ليس كسائر الأيام المعهودة .

( قل ) تقريرا لهم وتهكما بهم وتحسيرا على ما فاتهم ( أذلك ) إشارة إلى ما ذكر من السعير باعتبار اتصافها بما فصل من الأحوال الهائلة وما فيه من معنى البعد للإشعار بكونها في الغاية القاصية من الهول والفظاعة أي قل لهم أذلك الذي ذكر من السعير التي أعتدت لمن كذب بالساعة وشأنها كيت وكيت وشأن أهلها زيت وذيت ( خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون ) أي وعدها المتقون وإضافة الجنة إلى الخلد للمدح وقيل للتمييز عن جنات الدنيا والمراد بالمتقين المتصفون بمطلق التقوى لا بالمرتبة الثانية أو الثالثة منها فقط ( كانت ) تلك الجنة ( لهم ) في علم الله تعالى أو في اللوح المحفوظ أو لأن ما وعده الله تعالى فهو كائن لا محالة فحكي تحققه ووقوعه ( جزاء ) على أعمالهم حسبا من من الوعد الكريم ( ومصيرا ) ينقلبون إليه ( لهم فيها ما يشاؤون ) أي ما يشاؤنه من فنون الملاذ والمشتبهات وأنواع النعيم كما في قوله تعالى ( ولكم فيها ما تشتهون أنفسكم ) ولعل كل فريق منهم يقتنع بما أنبأ لهم من درجات النعيم ولا تمتد أعناقهم إلى ما فوق ذلك من المراتب العالية فلا يلزم الحرمان ولا تساوى مراتب أهل الجنان ( خالدين ) حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور لا عتاده على الابتداء وقيل من فاعل يشاؤون ( كان ) أي ما يشاؤنه وقيل الوعد المدلول عليه بقوله تعالى وعد المتقون ( على ربك وعدا مسئولا ) أي موعودا حقيقيا بأن يسأل ويطلب لكونه بما يتنافس فيه المتنافسون أو مسئولا يسأله الناس

في دعائهم بقولهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك أو الملائكة بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم وما في على من معنى الوجوب لامتناع الخلف في وعده تعالى ولا يلزم منه الإلجاء إلى الإنجاز فإن تعلق الإرادة بالموعود متقدم على الوعد الموجب للإنجاز وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه والإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام هو الفائز أثر ذى أثر بمغانم الوعد الكريم ما لا يخفى (ويوم يحشرهم) نصب على أنه مفعول لمضمر مقدم معطوف على قوله تعالى قل أذلك الخ أى لهم بعد التقريع والتحسير يوم يحشرهم الله عز وجل وتعليق التذكير باليوم مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث الهائلة قدم وجه غير مرة أو على أنه ظرف لمضمر مؤخر قد حذف للتنبيه على كمال هول وفظاعة ما فيه والإيذان بقرصور العبارة عن يمانه أى يوم يحشرهم يكون من الأحوال والأحوال ما لا ينفى ببيان المقال وقرىء بنون العظمة بطريق الالتفات من الغيبة إلى التسكيم وبكسر الشين أيضا (وما يعبدون من دون الله) أريد به ما يعبد العقلاء وغيرهم إما لأن كلمة ما موضوعة للكل كما ينبىء عنه أنك إذا رأيت شعبا من بعيد تقول ما هو أو لأنه أريد به الوصف لا الذات كأنه قيل ومعبودهم أو لتغليب الأصنام على غيرها فنبهنا على أنهم مثلها في السقوط عن رتبة المعبودية أو اعتباراً لغلبة عبديتها أو أريد به الملائكة والمسيح وعزير بقرينة السؤال والجواب أو الأصنام ينطقها الله تعالى أو تكلم بلسان الحال كما قيل في شهادة الأيدي والأرجل (فيقول) أى الله عز وجل للمعبودين إثر حشر الكل تقريبا للمعبدة وتبكيتهما لهم وقرىء بالنون كما عطف عليه وقرىء هذا بالياء والأول بالنون على طريق الالتفات إلى الغيبة (أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء) بأن دعوتهم إلى عبادتكم كما في قوله تعالى (أأنت قلت للناس اتخذونى وأبى لهم من دون الله) (أم هم ضلوا السبيل) أى عن السبيل بأنفسهم لإخلاصهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد فحذف الجار وأوصل الفعل إلى المفعول كقوله تعالى وهو يهدى السبيل والأصل إلى السبيل أو للسبيل وتقديم الضميرين على الفعلين لأن المقصود بالسؤال

هو المتصدى للفعل لا نفسه ﴿ قالوا ﴾ استثناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية السؤال كأنه قيل فإذا قالوا في الجواب فقليل قالوا ﴿ سبحانك ﴾ تعجباً بما قيل لهم لأنهم إما ملائكة معصومون أو جمادات لا قدرة لها على شيء أو إشعاراً بأنهم الموسومون بتسليحه تعالى وتوحيده فكيف يتأتى منهم إضلال عباده أو تنزيهاً له تعالى عن الأنداد ﴿ ما كان ينبغي لنا ﴾ أى ما صح وما استقام لنا ﴿ أن نتخذ من دونك ﴾ أى متجاوزين لإياك ﴿ من أولياء ﴾ نعبدكم لما بنا من الحالة المنافية له فأنى يتصور أن نحمل غيرنا على أن يتخذ ولياً غيرك فضلاً أن يتخذنا ولياً وأن نتخذ من دونك أولياء أى أتباعاً فإن الولي كما يطلق على المتبوع يطلق على التابع كالمولى يطلق على الأعلى والأسفل ومنه أولياء الشيطان أى أتباعه وقرىء على البناء للمفعول من المتعدى إلى مفعولين كما في قوله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) ومفعوله الثانى من أولياء على أن من للتبعيض أى أن نتخذ بعض أولياء وهى على الأول مزيدة وتنكير أولياء من حيث أنهم أولياء مخصوصون وهم الجن والأصنام ﴿ ولكن متعتهم وآباءهم ﴾ استدراك مسوق لبيان أنهم هم الضالون بعد بيان تنزهم عن إضلالهم وقد نعى عليهم سوء صديقتهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسباباً للضلالة أى ما أضللتهم ولكنك متعتهم وآباءهم بأنواع النعم ليعرفوا حقها ويشكروها فاستغرقوا في الشهوات وانهمكروا فيها ﴿ حتى نسوا الذكر ﴾ أى غفلوا عن ذكرك أو عن التذكير في آلائك والتدبر في آياتك فجعلوا أسباب الهداية بسوء اختيارهم ذريعة إلى الغواية ﴿ وكانوا ﴾ أى في قضائك المبنى على عليك الأزلى المتعلق بما سيصدر عنهم فيما لا يزال باختيارهم من الأعمال السيئة ﴿ قوما بورا ﴾ أى هالكين على أن بوراً مصدر وصف به الفاعل مبالغته ولذلك يستوى فيه الواحد والجمع أو جمع باثر كعود في جمع عائد والجملة اعتراض تذييل مقرر لمضمون ما قبله وقوله تعالى ﴿ فقد كذبوكم ﴾ حكاية لاحتجاجه تعالى على العبدية بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن المعبودين عند تمام جواهم وتوجيهه إلى العبدية مبالغته في تقييدهم وتبكيتهم على تقدير قول مرتب على الجواب أى فقال الله تعالى عند ذلك فقد كذبوكم المعبودون

أيها الكفرة ﴿ بما تقولون ﴾ أى فى قولكم لأنهم آلهة وقيل فى قولكم هؤلاء أضلوا وأبأه أن تكذيبهم فى هذا القول لا تعلق له بما بعده من عدم استطاعتهم للصرف والنصر أصلا وإنما الذى يستتبعه تكذيبهم فى زعمهم أنهم آلهتهم وناصرهم وأيا ما كان فالباء بمعنى فى أو هى صلة للتكذيب على أن الجار والمجرور بدل اشتمال من الضمير المنصوب وقرئ بالياء أى كذبوكم بقولهم سبحانه الآية ﴿ فما تستطيعون ﴾ أى ما تملكون ﴿ صرفا ﴾ أى دفعاً للعذاب عنكم بوجه من الوجوه كما يعرب عنه التنكير أى لا بالذات ولا بالواسطة وقيل حيلة من قولهم لأنه ليتصرف فى أموره أى يمتثل فيها وقيل توبة ﴿ ولا نصرا ﴾ أى فردا من أفراد النصر لا من جهة أنفسكم ولا من جهة غيركم والفاء لترتيب عدم الاستطاعة على ما قبلها من التكذيب لكن لا على معنى أنه لولاه لوجدت الاستطاعة حقيقة بل فى زعمهم حيث كانوا يزعمون أنهم يدفعون عنهم العذاب وينصرونهم وفيه ضرب تمكيم بهم وقرئ يستطيعون على صيغة الغيبة أى ما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب أو يمتثلوا لكم ولا أن ينصروكم وترتب ما بعد الفاء على ما قبلها كما مر بيانه .

﴿ ومن يظلم منكم ﴾ أيها المكلفون كدأب هؤلاء حيث ركبوا متن المكابرة والعناد واستمروا على ما هم عليه من الفساد وتجاوزوا فى اللجاج كل حد معتاد ﴿ نذره ﴾ فى الآخرة ﴿ عذابا كبيرا ﴾ لا يقادر قدره وهو عذاب النار وقرئ يذره على أن الضمير لله سبحانه وتعالى وقيل لمصدر الفعل الواقع شرطا وتعميم الظلم لا يستلزم اشتراك الفاسق للكافر فى إذاقة العذاب الكبير فان الشرط فى اقتضاء الجزاء مقيد بعدم المزاحم وفاقا وهو التوبة والإجباط بالطاعة إجماعا وبالعفو عندنا ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾ جواب عن قولهم ( ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ) وبالجملة الواقعة بعد إلا صفة لموصوف قد حذف ثقة بدلالة الجار والمجرور عليه وأنقضت هى مقامه كما فى قوله تعالى ( وما منا إلا لمقام معلوم ) والمعنى ما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا آكلين ومشين وقيل هى حال والتقدير إلا وأنهم



ليأكلون الخ وقرىء يمشون على البناء للفعول أى يمشيهم حوائجهم أو الناس  
﴿وجعلنا بعضكم﴾ تلوين للخطاب بتعميمه لسائر الرسل عليهم الصلاة والسلام  
يطريق التغليب والمراد بهذا البعض كفار الأمم فإن اختصاصهم بالرسل وتبعيتهم  
لهم مصحح لأن يعدوا بعضا منهم وبما فى قوله تعالى ﴿بعض﴾ رسلهم لكن  
لا على معنى جعلنا مجموع البعض الأول ﴿فتنة﴾ أى ابتلاء وعحنة لمجموع  
البعض الثانى ولا على معنى جعلنا كل فرد من أفراد البعض الأول فتنة لكل  
فرد من أفراد البعض الثانى ولا على معنى جعلنا بعضا مبهما من الأولين فتنة  
لبعض مبهم من الآخرين ضرورة أن مجموع الرسل من حيث هو مجموع غير  
مفتون بمجموع الأمم ولا كل فرد منهم بكل فرد من الأمم ولا بعض مبهم من  
الأوليين لبعض مبهم من الآخرين بل على معنى جعلنا كل بعض معين من الأمم  
فتنة لبعض معين من الرسل كانه قيل وجعلنا كل أمة مخصوصة من الأمم الكافرة  
فتنة لرسولها المعين المبعوث إليها وإنما لم يصرح بذلك تعويلا على شهادة الحال  
هذا وأما تعميم الخطاب لجميع المكافين وإبقاء البعضين على العموم والإبهام على  
على معنى وجعلنا بعضكم أيها الناس فتنة لبعض آخر منكم فيآياه قوله تعالى  
﴿أتصبرون﴾ فإنه غاية للجمل المذكور ومن البين أن ليس ابتلاء كل أحد من  
آحاد الناس مغييا بالصبر بل بما يناسب حاله على أن الاختصار على ذكره من غير  
تعرض لمعادله مما يدل على أن اللائق بحال المفتونين والمتوقع صدورهم عنهم  
هو الصبر لا غير فلا بد أن يكون المراد بهم الرسل فيحصل به تسليته عليه الصلاة  
والسلام فالمعنى جرت سنتنا بموجب حكمتنا على ابتلاء المرسلين بأنهم وبمناصبتهم  
لهم العداوة ولما بذاتهم لهم وأقاوليلهم الخارجة عن حدود الإنصاف لنعلم صبركم  
وقوله تعالى ﴿وكان ربك بصيرا﴾ وعد كريم للرسول عليه الصلاة والسلام  
بالتاجر الجزيل لصبره الجميل مع مزيد تشریف له عليه الصلاة والسلام بالالتفات  
إلى اسم الرب مضافا إلى ضميره صلى الله عليه وسلم .

من أباطيل الكفار

﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ شروع فى حكاية بعض آخر من أقاويلهم

الباطلة وبيان بطلانها إثر إبطال أباطيلهم السابقة والجملة معطوفة على قوله تعالى (وقالوا ما لهذا الرسول) الخ ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما في حين الصلة على أن ما يحكى عنهم من الشناعة بحيث لا يصدر عن معتقد المصير إلى الله عز وجل ولقاء الشيء عبارة عن مصادفته من غير أن يمنع مانع من إدراكه بوجه من الوجوه والمراد بلاقائه تعالى إما الرجوع إليه تعالى بالبعث والخشوع أو لقاء حسابه تعالى كما في قوله تعالى (إني ظننت أني ملاق حسابه) وبعدم رجائهم إياه عدم توقعهم له أصلاً لإنكارهم البعث والحساب بالسكينة لعدم أملهم حسن اللقاء ولا عدم خوفهم سوء اللقاء لأن عدمهما غير مستلزم لمسامح عليه من العتو والاستكبار وإنكار البعث والحساب رأساً أي وقال الذين لا يتوقعون الرجوع إلينا أو حسابنا المؤدى إلى سوء العذاب الذي تستوجبهم عقابهم ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ أي هلا أنزلوا علينا لينخبرونا بصدق محمد عليه الصلاة والسلام وقيل هلا أنزلوا علينا بطريق الرسالة وهو الأنسب لقولهم ﴿أو نرى ربنا﴾ من حيث أن كلا القولين ناشئ عن غاية غلوهم في المكابرة والعتو حسبا يعرب عنه قوله تعالى ﴿لقد استكبروا في أنفسهم﴾ أي في شأنها حتى اجترأوا على التفوه بمثل هذه العظيمة الشنعاء ﴿وعتوا﴾ أي تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان ﴿عتوا كبيرا﴾ بالغا أقصى غاياته حيث أملوا نيل مرتبة المفاوضة الإلهية من غير توسط الرسول والملك كما قالوا (لو لا يكلمنا الله) ولم يكتفوا بما عاينوا من المعجزات القاهرة التي تخر لها صم الجبال فذهبوا في الاقتراح كل مذهب حتى منتهم أنفسهم الخبيثة أمانى لا تكاد تنزوا إليها أحداق الأمم ولا تمتد إليها أعناق الهمم ولا ينالها إلا أولو العزائم الماضية من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واللام جواب قسم محذوف أي والله لقد استكبروا الآية وفيه من الدلالة على غاية قبح ما هم عليه والإشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم ما لا يخفى .

﴿يوم يرون الملائكة﴾ استئناف مسوق لبيان ما يلقونه عند مشاهدتهم لما اقترحوه من نزول الملائكة عليهم السلام بعد استعظامه وبيان كونه في غاية

بما يكون من الشناعة وإنما قيل يوم يرون دون أن يقال يوم ينزل الملائكة  
 لإيداننا من أول الأمر بأن رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما اقترحوه  
 بل على وجه آخر غير معهود ويوم منصوب على الظرفية بما يدل عليه قوله  
 تعالى ﴿ لا بشرى يومئذ للمجرمين ﴾ فإنه في معنى لا يبشر يومئذ المجرمون والعدول  
 إلى نفى الجنس للمبالغة في نفى البشرى وما قيل من أنه بمعنى يمنعون البشرى  
 أو يعدمونها تهوين للخطيب في مقام التهويل فإن منع البشرى وفقدانها مشعران  
 بأن هناك بشرى يمنعونها أو يفقدونها وأين هذا من نفيها بالسكينة وحيث كان  
 نفيها كناية عن إثبات صدها كما أن نفى المحبة في مثل قوله تعالى (واقه لا يحب  
 الكافرين) كناية عن بغض والمقت دل على ثبوت النذرى لهم على أبلغ وجه  
 وأكده وقيل منصوب بفعل مقدر يؤكد بشرى على أن لا غير نافية للجنس  
 وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم عليه أى اذكر يوم رؤيتهم الملائكة  
 ويومئذ على كل حال تكرير للتأكيد والتهويل مع ما فيه من الإيدان بأن تقديم  
 الظرف للاهتمام لا لقصر نفى البشرى على ذلك الوقت فقط فإن ذلك غل  
 بتفطيع حالهم وللمجرمين تبيين على أنه مظهر وضع موضع الضمير تسجيلا  
 عليهم بالإجرام مع ما هم عليه من الكفر وحمله على العموم بحيث يتناول فساق  
 المؤمنين ثم الالتجاء في إخراجهم عن الحرمان السكلى إلى أن نفى البشرى حينئذ  
 لا يستلزم نفيه في جميع الأوقات فيجوز أن يبشروا بالعفو والشفاعة في وقت  
 آخر بمنزل عن الحق بعيد ﴿ ويقولون ﴾ عطف على ما ذكر من الفعل المنفى  
 المنهى عن كمال فضاغة ما يحقق بهم من الشر وغاية هول مطلعه ببيان أنهم يقولون  
 عند مشاهدتهم له ﴿ حجرا محجورا ﴾ وهى كلمة يتكلمون بها عند لقاء عدو متور  
 وهجوم نازلة هائلة يضعونها موضع الاستعاذة حيث يطلبون من الله تعالى أن  
 يمنع المكروه فلا يلحقهم فكان المعنى نسال الله تعالى أن يمنع ذلك معنا ويحجره  
 حجرا أو كسر الحاء تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد كما في قعدك وعمرك  
 وقد قرئ حجرا بالضم والمعنى أنهم يطلبون نزول الملائكة عليهم السلام  
 ويقترحونه وهم إذا رأوهم كرهوا لقاءهم أشد كراهة وفرغوا منهم فرعا شديدا

وقالوا ما كانوا يقولونه عند نزول خطب شليح وحلول بأس شديد فظيع  
ومحجورا صفة لججرا وارادة للتأكد كما قالوا ذيل ذائل وليل أليل وقيل  
يقولها الملائكة اقناطاً للكفرة بمعنى حراماً محرماً عليكم الغفران أو الجنة أو  
البشرى أى جعل الله تعالى ذلك حراماً عليكم وليس بواضح .

﴿ وقدمننا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ بيان لحال ما كانوا  
يعملونه فى الدنيا من صلة رحم وإغاثة ملهوف وقرىء ضيف ومن على أسير  
وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم التى لو كانوا عملوها مع الإيمان لنالوا ثوابها  
بتمثيل حالهم وحال أعمالهم المذكورة بحال قوم خالفوا سلطانهم واستمعوا  
عليه فقدم إلى أسيانهم وقصد ما تحت أيديهم فأنهى عليها بالإفساد والتحريق  
ومزقها كل تمزيق بحيث لم يدع لها عيناً ولا أثراً أى عمدنا إليها وأبطلناها أى  
أظهرنا بطلانها بالسكينة من غير أن يكون هناك قدوم ولا شىء يقصد تشبيهه به  
والهباء شبه غبار يرى فى شعاع الشمس يطلع من السكوة من الهبوة وهى الغبار  
ومنثوراً صفة شبه به أعمالهم المحبطة فى الحقارة وعدم الجدوى ثم بالمنثور  
منه فى الانتشار بحيث لا يمكن نظمه أو مفعول ثالث من حيث إنه كالخبر كما فى  
قوله تعالى (كونوا قردة خاسئين) (أصحاب الجنة) هم المؤمنون المشار إليهم فى  
قوله تعالى قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون الخ (يومئذ) أى يوم  
إذ يكون ما ذكر من عدم التبشير وقولهم حجراً محجوراً وجعل أعمالهم هباء  
منثوراً (خير مستقراً) المستقر السكان الذى يستقر فيه فى أكثر الأوقات  
للتجالس والتحدث (وأحسن مقيلاً) المقيلاً المكان الذى يؤوى إليه للاستراح  
إلى الأزواج والتمتع بمغازلتهم سمي بذلك لما أن التمتع به يكون وقت القيلولة  
غالباً وقيل لأنه يفرغ من الحساب فى منتصف ذلك اليوم فليل أهل الجنة فى  
الجنة وأهل النار فى النار وفى وصفه بزيادة الحسن مع حصول الخيرية بعطفه  
على المستقر رمز إلى أنه مزين بفنون الزين والزخارف والتفضيل المعتبر فيهما  
لما لإرادة الزيادة على الإطلاق أى هم فى أقصى ما يكون من خيرية المستقر  
وحسن المقيلاً ولما بالإضافة إلى ما للكفرة المتنعمين فى الدنيا أو إلى ما لهم فى

الآخرة بطريق التهكم بهم كما مر في قوله تعالى ( قل أذلك خير ) الآية هذا وقد جوز أن يراد بأحدهما المصدر أو الزمان إشارة إلى أن مكانهم وزمانهم أطيب ما يتخيل من الأمكنة والأزمنة .

( ويوم تشق السماء ) أى تنفتح وأصله تتشقق فحذفت لإحدى النباءين كما في تلظى وقرىء يادغام التاء في الشين ( بالغيام ) بسبب طلوع الغمام منها وهو الغمام الذى ذكر في قوله تعالى ( هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة ) قيل هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن إلا لبقى لإسرائيل ( ونزل الملائكة تنزيلا ) أى تنزيلا عجيبا غير معهود قيل تنشق سماء سماء وينزل الملائكة خلال ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد وقرىء ونزلت الملائكة وتنزل وتنزل على صيغة المتكلم من الإنزال والتنزيل ونزل الملائكة وأنزل الملائكة ونزل الملائكة على حذف النون للذى هو فاء الفعل من تنزل ( الملك يومئذ الحق للرحمن ) أى السلطنة القاهرة والاستيلاء الكلى العام الثابت صورة ومعنى ظاهرا وباطنا بحيث لا زوال له أصلا ثابت للرحمن يومئذ فالملك مبتدأ والحق صفته وللرحمن خبره ويومئذ ظرف لثبوت الخبر للبتدأ وفائدة التقييد أن ثبوت الملك المذكور له تعالى خاصة يومئذ وأما فيما عداه من أيام الدنيا فيكون لغيره أيضا تصرف صورى فى الجملة وقيل الملك مبتدأ والحق خبره والرحمن متعلق بالحق أو بمحذوف على التبيين أو بمحذوف هو صفة للحق ويومئذ معمول للملك وقيل الخبر يومئذ والحق نعت للملك والرحمن على ما ذكر وأيا ما كان فالجملة بمعناها عاملة فى الظرف أى ينفرد الله تعالى بالملك يوم تشقق وقيل الظرف منصوب بما ذكر فالجملة حينئذ استئناف مسوق لبيان أحواله وأهواله وإبراده تعالى بعنوان الرحمانية للإيدان بأن اتصافه تعالى بغاية الرحمة لا يهون الخطب على الكفرة لعدم استحقاقهم للرحمة كما فى قوله تعالى ( يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ) والمعنى أن الملك الحقيقى يومئذ للرحمن ( وكان ) ذلك اليوم مع كون الملك فيه لله تعالى المبالغ فى الرحمة لعباده ( يوما على الكافرين عسيرا ) شديدا لهم وتقديم الجار والمجرور لمراعاة الفواصل

وأما للؤمنين فيكون يسيرا بفضل الله تعالى وقد جاء في الحديث أنه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاحها في الدنيا والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله .

(ويوم يعرض الظالم على يديه) عرض اليدين والأنامل وأكل البنان وحرق الأسنان ونحوها كنايةات عن العيظ والحسرة لأنهما من روادفهما والمراد بالظالم إما عقبة بن أبي معيط على ما قيل من أنه كان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم فدعاه عليه الصلاة والسلام يوما إلى ضيافته فأبى عليه الصلاة والسلام أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل وكان أبي بن خلف صديقه فعاتبه فقال صباأت فقال لا ولكن أبي أن يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت له فقال إني لا أرضى منك إلا أن تأتية فطنا ففاه وتبرق في وجهه فأتاه فوجده ساجدا في دار الندوة ففعل ذلك فقال عليه الصلاة والسلام لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فأسر يوم بدر فأمر عليا رضي الله عنه فقتله وقيل قتله عاصم بن ثابت الأنصاري وطعن عليه الصلاة والسلام أيما يوم أحد في المبارزة فرجع إلى مكة ومات وأما جنس الظالم وهو داخل فيه دخولا أوليا وقوله تعالى (يقول) الخ حال من فاعل يعرض وقوله تعالى (يا ليتني) الخ محكي به ويا إما لمجرد التنبيه من غير قصد إلى تعيين المنبه أو المنادى محذوف أي يا هؤلاء ليتني (ألتخذ مع الرسول سبيلا) أي طريقا واحدا منجيا من هذه الورطات وهو طريق الحق ولم تتشعب بي طرق الضلالة أو حصلت في صحبته عليه الصلاة والسلام طريقا ولم أكن ضالا لا طريق لي قط (يا ويلنا) بقلب ياء المتكلم الفا كما في صحارى ومدارى وقرى على الأصل يا ويلتي أي هلكتي تعالى واحضري فهذا أوانك (ليتني لم ألتخذ فلانا خليلا) يريد من أضله في الدنيا فإن فلانا كناية عن الأعلام كما أن الهن كناية عن الأجناس وقيل فلان كناية عن علم ذكور من يعقل وفلانة عن علم أنثاهم وفل كناية عن أنكرة من يعقل من الذكور وقلة عن يعقل من الإناث والفلانة والفلانة من غير العاقل ويختص فل بالنداء إلا في ضرورة كما في قوله :

• في لجنة أمسك فلانا عن قل •

وقوله :

«خذا حدثاني عن فل وفلان»

وليس فل مرخا من فلان خلافا للفرأ واختلفوا في لام فل وفلان فقبل واو وقيل ياء ، هذا فإن أريد بالظالم عقبة ففلان كناية عن أبي وإن أريد به الجنس فهو كناية عن علم كل من يضل كائنا من كان من شياطين الإنس والجن وهذا التنى منه وإن كان مسوقا لإبراز الندم والحسرة لكنه متضمن لنوع تعلل واعتذار بتوريك جنائيه إلى الغير وقوله تعالى :

﴿ ولقد أضلني عن الذكر ﴾ تعليل لتنبية المذكور وتوضيح لتعمله وتصديره باللام القسمية للبالغة في بيان خطئه وإظهار ندمه وحسرتة أي والله لقد أضلني عن ذكر الله تعالى أو عن القرآن أو عن موعظة الرسول عليه الصلاة والسلام أو كلمة الشهادة ﴿ بعد إذ جاءني ﴾ وتمكنت منه وقوله تعالى ﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾ أي مبالغا في الخذلان حيث يواليه حتى يؤديه إلى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه اعتراض مقرر لمضمون ما قبله أما من جهته تعالى أو من تمام كلام الظالم على أنه سعى خليله شيطانا بعد وصفه بالإضلال الذي هو أخص الأوصاف الشيطانية أو على أنه أراد بالشيطان إبليس لأنه الذي حمله على مخالفة المضلين ومخالفة الرسول الهادي عليه الصلاة والسلام بوسوسته وإغوائه لكن وصفه بالخذلان يشعر بأنه كان يعده في الدنيا ويمنيه بأنه ينفعه في الآخرة وهو أوفق بحال إبليس .

﴿ وقال الرسول ﴾ عطف على قوله تعالى ( وقال الذين لا يرجون لقاءنا ) وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام ما قالوه وبيان ما يحق بهم في الآخرة من الأموال والخطوب وإبراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتحقيق الحق والرد على نخورهم حيث كان ما حكى عنهم قدحا في رسالته عليه الصلاة والسلام أي قالوا كبت وكبت وقال الرسول إثر ما شاهد منهم غاية العتو ونهاية

الطغيان بطريق البت إلى ربه عز وجل ﴿ يارب إن قوى ﴾ يعنى الذين حكى عنهم ما حكى من الشنائع ﴿ اتخذوا هذا القرآن ﴾ الذى من جملته هذه الآيات الناطقة بما يحيق بهم فى الآخرة من فنون العقاب كما ينفي عنه كلمة الإشارة ﴿ مهجورا ﴾ أى متروكا بالكلمة ولم يؤمنوا به ولم يرفعوا إليه رأسا ولم يتأثروا بوعيده وفيه تلويح بأن من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم فإنه روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال من تعلم القرآن وعلق مصحفا لم يتعهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقا به يقول يارب العالمين عبدك هذا اتخذنى مهجورا اقض بينى وبينه وقيل هو من هجر إذا هذى أى جعلوه مهجورا فيه إما على زعمهم الباطل ولما بأن هجروا فيه إذا سمعوه كما يحكى عنهم من قولهم (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) وقد جوز أن يكون المهجور بمعنى الهجر كالمجلود والمعقول فالمعنى اتخذوه هجرا وهذيانا وفيه من التحذير والتخويف ما لا يخفى فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم عجل لهم العذاب ولم ينظروا وقوله تعالى ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحمل له على الاقتداء بمن قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أى كما جعلنا لك أعداء من المشركين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون من الأباطيل جعلنا لكل نبي من الأنبياء الذين هم أصحاب الشريعة والدعوة إليها عدوا من مجرمي قومهم فاصبر كما صبروا وقوله تعالى ﴿ وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾ وعد كريم له عليه الصلاة والسلام بالهداية إلى كافة مطالبه والنصر على أعدائه أى كفأك مالك أمرك ومبلغك إلى الكمال هاديا لك إلى ما يوصلك إلى غاية الغايات التى من جملتها تبليغ الكتاب أجله وإجراء أحكامه فى أكناف الدنيا إلى يوم القيامة ونصيرا لك على جميع من يعاديك ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ حكاية لاقتراحهم الخاص بالقرآن الكريم بعد حكاية اقتراحهم فى حقه عليه الصلاة والسلام والقائلون هم القائلون أولا وإيرادهم بعنوان الكفر لئلا يهملهم به والإشعار بعلّة الحكم ﴿ لولا نزل عليه القرآن ﴾ التزيل ههنا مجرد عن معنى



التدرج كما في قوله تعالى (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء) ويجوز أن يراد به الدلالة على كثرة المنزل في نفسه أى هلا أنزل كله ﴿ جملة واحدة ﴾ كالكتب الثلاثة وطلان هذه الكلمة الحقاء بما لا يكاد يخفى على أحد فإن الكتب المتقدمة لم يكن شاهد صحتها ودليل كونها من عند الله تعالى إعجازها وأما القرآن الكريم فبينة صحته وآية كونه من عند الله تعالى نظمه المعجز الباقي على مر الدهور المتحقق في كل جزء من أجزائه المقدرة بمقدار أقصر السور حسبا وقع به التحدى ولا ريب في أن ما يدور عليه فلك الإعجاز هو المطابقة لما تقتضيه الأحوال ومن ضرورة تغيرها وتجديدها تغير ما يطابقها حتما على أن فيه فوائد جمة قد أشير إلى بعض منها بقوله تعالى :

﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ﴾ فإنه استئناف وارد من جهته تعالى لرد مقالهم الباطلة وبيان الحكمة في التنزيل التدريجي ومحل الكاف النصب على أنها صفة لمصدر مؤكد لمضمر معتل بما بعده وذلك إشارة إلى ما يفهم من كلامهم أى مثل ذلك التنزيل المفرق الذى قد حوا فيه واقترحوا خلافة نزله لا تنزيلا مغاير آله لنقوى بذلك التنزيل المفرق فؤادك فإن فيه تيسيرا لحفظ النظام وفهم المعاني وضبط الأحكام والوقوف على تفاصيل ما روعى فيها من الحكم والمصالح المبيغة على المناسبة على أنها منوطة بأسبابها الداعية إلى شرعها ابتداء أو تبديلا بالنسخ من أحوال المكلفين وكذلك عامة ما ورد في القرآن المجيد من الأخبار وغيرها متعلقة بأمور حادثة من الأقاويل والأفاعيل ومن قضية تجديدها تجدد ما يتعلق بها كالاقتراحات الواقعة من الكفرة الداعية إلى حكايتها وإبطالها وبيان ما يقول إليه حالهم في الآخرة على أنهم في هذا الاقتراح كالباحث عن حقيقته بظلفه حيث أمروا بالاثبات بمثل نوبة من نوب التنزيل فظهر عجزهم عن المعارضة وضاعت عليهم الأرض بما رحبت فكيف لو تحدوا بكلمة وقوله تعالى ﴿ ورتلناه ترتيلا ﴾ عطف على ذلك المضمر وتنكير ترتيلا للتفخيم أى كذلك نزله ورتلناه ترتيلا بديعا لا يقادر قدره ومعنى ترتيله تفريقه آية بعد آية قاله النخعي والحسن وقناة وقال ابن عباس رضي الله عنهما بيناه - بيانا

فيه ترتيل وتثبيت وقال السدى فصلناه تفصيلا وقال مجاهد جعلنا بعضه في إثر بعض وقيل هو الأمر بترتيل قرأته بقوله تعالى ( ورتل القرآن ترتيلا ) وقيل قرأناه عليك بلسان جبريل عليه السلام شيئا فشيئا في عشرين أو في ثلاث وعشرين سنة على تودة وتمهل .

(ولا يأتونك بمثل) من الأمثال التي من جملتها ما حكى من اقتراحاتهم الفبيحة الخارجة عن دائرة العقول الجارية لذلك مجرى الأمثال أى لا يأتونك بكلام عجيب هو مثل في البطلان يريدون به القدح في حقك وحق القرآن (إلا جئناك) في مقابلته (بالحق) أى بالجواب الحق الثابت الذى ينعمى عليه بالإبطال ويحسم مادة القيل والقال كما مر من الأجوبة الحققة القالعة لعروق أسنتهم الشنيعة الدامغة لها بالسكينة وقوله تعالى (وأحسن تفسيراً) عطف على الحق أى جئناك بأحسن تفسيراً أو على محل بالحق أى آتيناك الحق وأحسن تفسيراً أى بيانا وتفصيلا على معنى أنه في غاية ما يكون من الحسن في حد ذاته لا أن ما يأتون به له حسن في الجملة وهذا أحسن منه كما مر والاستثناء مفرغ محله النصب على الحالية أى لا يأتونك بمثل إلا حال إيماننا إياك الحق الذى لا يحيد عنه وفيه من الدلالة على المسارعة إلى إبطال ما أتوا به وتثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى وهذا بعبارة ناطق ببطلان جميع الأسئلة وبصحة جميع الأجوبة وإيثارته منبه عن بطلان السؤال الأخير وصحة جوابه إذ لو لا أن تنزيل القرآن على التدرج لما أمكن إبطال تلك الاقتراحات الشنيعة ولما حصل تثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام من تلك الحيثية هذا وقد جوز أى يكون المثل عبارة عن الصفة الغريبة التي كانوا يقترحون كونه عليه الصلاة والسلام عليها من مقارنة الملك والاستغناء عن الأكل والشرب وحباسة الكنز والجنة ونزول القرآن عليه جملة واحدة على معنى لا يأتونك بحال عجيبة يقترحون اتصافك بها قائلين هلا كان على هذه الحالة الا أعطيناك نحن من الأحوال الممكنة ما يحق لك في حكمتنا ومشيتنا أن تعطاء وما هو أحسن

تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته وهو الذى أنت عليه فى الذات والصفات وبأباه الاستثناء المذكور فإن المتبادر منه أن يكون ما أعطاه الله تعالى من الحق مترتبا على ما أتوا به من الأباطيل دامغا لها ولا ريب فى أن ما آتاه الله تعالى من الملكات السنية اللاتقة بالرسالة قد آتاه من أول الأمر لا بمقابلة ما حكى عنهم من الاقتراحات لأجل دمجها وإبطائها .

(الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم) أى يحشرون كائنين على وجوههم يسحبون عليها ويمحرون إلى جهنم وقيل مقلوبين وجوههم على قفاهم وأرجلهم إلى فوق . روى عنه عايه الصلاة والسلام د يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث ثلث على الدواب وثلث على وجوههم وثلث على أقدامهم ينسلون نساء ، وأما ما قيل متعلقة قلوبهم بالسفليات متوجهة وجوههم إليها فبعيد لأن هول ذلك اليوم ليس بحيث يبقى لهم عنده تعلق بالسفليات أو توجه إليهم فى الجملة ومحل الموصول إما النصب أو الرفع على الظم أو الرفع على الابتداء ، وقوله تعالى ( أولئك ) بدل منه أو بيان له وقوله تعالى ( شر مكانا وأضل سبيلا ) خبر له أو اسم الإشارة مبتدأ ثان وشر خبره والجملة خبر للموصول ووصف السيل بالضلال من باب الإسناد المجازى للبالغ والمفضل عليا الرسول عليه الصلاة والسلام على منهاج قوله تعالى ( قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه ) كأنه قيل إن حاملهم على هذه الاقتراحات تحقير مكانه عليه الصلاة والسلام بتضليل سبيله ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنهم شر مكانا وأضل سبيلا وقيل هو متصل بقوله تعالى ( أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا ) ( ولقد آتينا موسى الكتاب ) جملة مستأنفة سبقت لتأكيد ما مر من التسلية والوعد بالهداية والنصر فى قوله تعالى ( وكفى بربك هاديا ونصيرا ) بحكاية ما جرى بين من ذكر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وبين قومهم حكاية إجمالية كافية فيما هو المقصود واللام جواب لقسم محذوف أى وبالله ولقد آتينا موسى التوراة أى أنزلناها عليه بالآخرة ( وجعلنا معه ) الظرف متعلق بجعلنا وقوله تعالى : ( أخاه ) مفعول أول له وقوله تعالى

(هرون) بدل من أخاه أو عطف بيان له على عكس ما وقع في سورة طه وقوله تعالى (وزيراً) مفعول ثان له وقد مر ثمة معنى الوزير أى جعلناه فى أول الأمر وزيراً له .

(فقلنا) لهما حينئذ (اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا) هم فرعون وقومه والآيات هى المعجزات التسع المفصلات الظاهرة على يدى موسى عليه السلام ولم يوصف القوم لهما عند إرسالهما إليهم بهذا الوصف ضرورة تأخر تكذيب الآيات عن إظهارها المتأخر عن ذهابهما المتأخر عن الأمر به بل إنما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بياناً لعل استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير أى فذهبا إليهم فأرياهم آياتنا كلها فكذبوها تكذيباً مستمراً (فدمرناهم) إثر ذلك التكذيب المستمر (تدميراً) عجيباً هائلاً لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه فاقصر على حاشيتى القصة اكتفاء بما هو المقصود وحمل قوله تعالى فدمرناهم على معنى فحكمتنا بتدميرهم مع كونه تعسفا ظاهراً لما لا وجه له إذ لا فائدة يعتد بها فى حكاية الحكم بتدميرهم قد وقع وانقضى والتعرض فى مطلع القصة لإيتاء الكتاب مع أنه كان بعد مهلك القوم ولم يكن له مدخل فى هلاكهم كسائر الآيات للإيذان من أول الأمر ببلوغه عليه الصلاة والسلام غاية السكالم ونيله نهاية الآمال التى هى لإنجاء بنى إسرائيل من ملكة فرعون وإرشادهم إلى طريق الحق بما فى التوراة من الأحكام إذ به يحصل تأكيد الوعد بالهداية على الوجه الذى مر بيانه وقرىء فدمرتهم ودمرناهم على التأكيد بالنون الثقيلة (وقوم نوح) منصوب بمضمر يدل عليه قوله تعالى فدمرناهم أى ودمرنا قوم نوح وقيل عطف على مفعول فدمرناهم وليس من ضرورة ترتيب تدميرهم على ما قبله ترتيب تدمير هؤلاء عليه لاسيما وقد بين سببه بقوله تعالى (لما كذبوا الرسل) أى نوحاً ومن قبله من الرسل أو نوحاً وحده لأن تكذيبه تكذيب للكل لاتفاقهم على التوحيد والإسلام وقيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (أغرقناهم) وإنما يتسنى ذلك على تقدير كون كلمة لما ظرف زمان وأما على تقدير كونها حرف وجود

لوجود فلا لأنه حينئذ جواب لما لا يفسر ما قبله مع أنه مخل بمعطف المنصوبات الآتية على قوم نوح لما أن إهلاكهم ليس بالإغراق فالوجه ما تقدم وقوله تعالى أغرقناهم استئناف مبين لكيفية تدميرهم .

(وجعلناهم) أى جعلنا إغراقهم أو قصتهم (لنناس آية) أى آية عظيمة يعتبر بها كل من شاهدها أو سمعها وهى مفعول ثانٍ لجعلنا وللناس ظرف لغوله أو متعلق بمحذوف وقع حالا من آية إذ لو تأخر عنها لكان صفة لها (وأعدنا للظالمين) أى لهم والإظهار فى موقع الإضمار للإيدان بتجاوزهم الحد فى الكفر والتكذيب (عذابا أليما) هو عذاب الآخرة إذ لا فائدة فى الإخبار باعتاد العذاب الذى قد أخبر بوقوعه من قبل أو لجميع الظالمين الباقين الذين لم يعتبروا بما جرى عليهم من العذاب فيدخل فى زميرتهم قریش دخولا أوليا ويحتمل العذاب الدنيوى والآخرى (وعاداً) عطف على قوم نوح وقيل على المفعول الأول لجعلناهم وقيل على محل الظالمين إذ هو فى معنى وعدنا الظالمين وكلاهما بعيد (وتمود) الكلام فيه وفيما بعده كما فيما قبله وقرىء وتمودا على تأويل الحى أو على أنه اسم الأب الاقصى (وأصحاب الرس) هم قوم يعبدون الأصنام فبعث الله تعالى إليهم شعبيا عليه السلام فكذبوه فبينما هم حول الرس وهى البئر التى لم تطو بعد إذ انهارت نفخسف بهم وبديارهم وقيل الرس قرية بفالج اليمامة كان فيها بقايا تمود فبعث إليهم نبي فقتلوه فهلكوا وقيل هو الأخدود وقيل بئر بأطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل هم أصحاب حنظلة بن صفوان النبى عليه السلام ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم كان فيها من كل لون وسموها عنقاء لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذى يقال له فتخ أو دمح فتتنقص على صييانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد ولذلك سميت مغربا فدعا عليها حنظلة عليه السلام فأصابها الصاعقة ثم إنهم قتلوه عليه السلام فاهلكوا وقيل قوم كذبوا رسولهم فرسوه أى دسوه فى بئر .

(وقرونا) أى أهل قرون قيل القرن أربعون سنة وقيل سبعون وقيل مائة وقيل مائة وعشرون (بين ذلك) أى بين ذلك المذكور من الطوائف

والأمم وقد يذكر الذاكراً أشياء مختلفة ثم يشير إليها بذلك ويحسب الحاسب أعداداً متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على ذلك المذكور وذلك المحسوب ﴿كثيراً﴾ لا يعلم مقدارها إلا العليم الخبير ولعل الاكتفاء في شئون تلك القرون بهذا البيان الإجمالي لما أن كل قرن منها لم يكن في الشهرة وغرابة القصة بمثابة الأمم المذكورة ﴿وكلاً﴾ منصوب بمضمر يدل عليه ما بعده فإن ضرب المثل في معنى التذكير والتحذير والمحدوف الذي عوض عنه التنوين عبارة إما عن الأمم التي لم يذكر أسباب إهلاكهم وإما عن الكل فإن ماحكى عن قوم نوح وقوم فرعون تكذيبهم للآيات والرسول لعدم التأثير من الأمثال المضروبة أى ذكرنا وأندرنا كل واحد من المذكورين ﴿ضربنا له الأمثال﴾ أى بينا له القصص العجيبة الزاجرة عما هم عليه من الكفر والمعاصي بواسطة الرسل ﴿وكلاً﴾ أى كل واحد منهم لا بعضهم دون بعض ﴿تبرنا تبيراً﴾ عجباً هائلاً لما أنهم لم يتأثروا بذلك ولم يرفعوا له رأساً وتمادوا على ما هم عليه من الكفر والعدوان وأصل التبرير التفتيت قال الزجاج كل شيء كسرتة وفتنته فقد تبرته ومنه التبر لفتات الذهب والفضة .

﴿ولقد أتوا﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان مشاهدتهم لآثار هلاك بعض الأمم المتبرة وعدم اتعاظم بها وتصديرها بالقسم لمزيد تقرير مضمونها أى وابقه لقد أتى قريش في متاجرهم إلى الشام ﴿على القرية التي أمطرت﴾ أى أهلكت بالحجارة وهي قرى قوم لوط وكانت خمس قرى مانحت منها إلا واحدة كان أهلها لا يعملون العمل الخبيث وأما البواقي فأهلكها الله تعالى بالحجارة وهي المرادة بقوله تعالى ﴿مطر السوء﴾ واتصابه إما على أنه مصدر مؤكد بحذف الزوائد كما قيل في أنبته الله تعالى نباتاً حسناً أى لمطار السوء أو على أنه مفعول ثانٍ إذ الملقى أعطيت أو وليت مطر السوء ﴿أفلم يكونوا يرون﴾ توبيخ لهم على تركهم التذكر عند مشاهدة ما يوجب الهمة لإنكارهم في استمرار رؤيتهم لها وتقرير استمرارها حسب استمرار ما يوجبها من إتيانهم عليها لا لإنكار استمرار نفي رؤيتهم وتقرير رؤيتهم لها في الجملة والفاء لعطف

مدخولها على مقدر يقتضيه المقام أى ألم يكونوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها أو أكانوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها فى مرار مرورهم ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب فالمنكر فى الأول ترك النظر وعدم الرؤية معا وفى الثانى عدم الرؤية مع تحقق النظر الموجب لها وقوله تعالى ﴿ بل كانوا لا يرجون نشورا ﴾ إما لضرب عما قبله من عدم رؤيتهم لآثار ما جرى على أهل القرى من العقوبة وبيان لكون عدم اتعاظهم بسبب إنكارهم لكون ذلك عقوبة لمعاصيهم لالعدم رؤيتهم لآثارها خلا أنه اكتفى عن التصريح بإنكارهم ذلك بذكر ما يستلزمه من إنكارهم للجزاء الآخروى الذى هو الغاية من خلق العالم وقد كفى عن ذلك بعدم رجاء النشور أى عدم توقعه كأنه قيل بل كانوا ينكرون النشور المستتب للجزاء الآخروى ولا يرون لنفس من النفوس نشورا أصلا مع تحققه حتما وشموله للناس عموما واطراده وقوعا فكيف يعترفون بالجزاء الدينوى فى حق طائفة خاصة مع عدم الاطراد والملازمة بينه وبين المعاصى حتى يتذكروا ويتعظوا بما شاهدوه من آثار الهلاك وإنما يحملونه على الاتفاق وإما انتقال من التوبيخ بما ذكر من ترك التذكر إلى التوبيخ بما هو أعظم منه من عدم توقع النشور .

﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ أى ما يتخذونك إلا مهزوءا به على معنى قصر معاملتهم معه عليه الصلاة والسلام على اتخاذهم إياه عليه الصلاة والسلام هزوا لا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزوا كما هو المتبادر من ظاهر العبارة كأنه قيل ما يفعلون بك إلا اتخاذك هزوا وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى (إن أتبع إلا ما يوحى إلى) من سورة الأنعام وقوله تعالى ﴿ أهذا الذى بعث الله رسولا ﴾ محكى بعد قول مضممر هو حال من فاعل يتخذونك أى يستهزئون بك قائلين أهذا الذى الخ والإشارة للاستحقار وإبراز بعث الله رسولا فى معرض التسليم بجعله صلة للوصول الذى هو صفته عليه الصلاة والسلام مع كونهم فى غاية التكبر لبعثه عليه الصلاة والسلام بطريق التهكم والاستهزاء وإلا لقالوا أبعث الله هذا رسولا أو أهذا الذى يزعم أنه بعثه الله رسولا ﴿ إن كاد ﴾ إن

مخففة من إن وضمير الشأن محذوف أى إنه كاد ﴿ ليضلنا عن آلهتنا ﴾ أى ليصرفنا عن عبادتها صرفاً كلياً بحيث يبعدنا عنها لا عن عبادتها فقط والعدول إلى الإضلال لغاية ضلالهم بادعاء أن عبادتها طريق سوى ﴿ لولا أن صبرنا عليها ﴾ ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها ولولا فى أمثال هذا الكلام تجرى مجرى التقييد للحكم المطلق من حيث المعنى كما أشار إليه فى قوله تعالى ( ولقد همت به ) الخ وهذا اعتراف منهم بأنه عليه الصلاة والسلام قد بلغ من الاجتهاد فى الدعوة إلى الحق وإظهار المعجزات وإقامة الحجج والبيئات إلى حيث شارفوا أن يتركوا دينهم لولا فرط لجأهم وغاية عنادهم يروى أنه من قول أبى جهل ﴿ وسوف يعلمون ﴾ جواب من جهته تعالى لآخر كلامهم ورد لما ينبىء عنه من نسبته عليه الصلاة والسلام إلى الضلال فى ضمن الإضلال أى سوف يعلمون البتة وإن تراخى ﴿ حين يرون العذاب ﴾ الذى يستوجب كفهم وعنادهم ﴿ من أضل سبيلاً ﴾ وفيه مالا يخفى من الوعيد والتنبيه على أنه تعالى لا يهملهم وإن أمهلهم.

﴿ أرايت من اتخذ إلهه هواه ﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من شناعة حالهم بعد حكاية قبائحهم من الأقوال والأفعال وبيان ما لهم من المصير والمآل وتنبيه على أن ذلك من الغرابة بحيث يجب أن يرى ويتعجب منه وإلهه مفعول ثان لاتخذ قدم على الأول للاعتناء به لأنه الذى يدور عليه أمر التعجيب ومن توهم أنهما على الترتيب بناء على تساويهما فى التعريف فقد زل منه أن المفعول الثانى فى هذا الباب هو المتلبس بالحالة الحادثة أى أرايت من جعل هواه إلهاً لنفسه من غير أن يلاحظه وبني عليه أمر دينه معرضاً عن استماع الحجة الباهرة والبرهان النير بالسكينة على معنى انظر إليه وتعجب منه وقوله تعالى ﴿ أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ إنكار واستبعاد لكونه عليه الصلاة والسلام حفيظاً عليه يزجره عما هو عليه من الضلال ويرشده إلى الحق طوعاً أو كرهاً والفاء لترتيب الإنكار على ما قبله من الحالة الموجبة له كأنه قيل أبعد ما شاهدت غلوه فى طاعة الهوى وعتوه عن اتباع الهدى تقسره على الإيمان شاء أو أبى وقوله تعالى ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ﴾



لمضرب وانتقال عن الإنكار المذكور إلى إنكار حسبانته عليه الصلاة والسلام لهم من يسمع أو يعقل حسبما ينبىء عنه جده عليه الصلاة والسلام في الدعوة واهتمامه بالإرشاد والتذكير لكن لا على أنه لا يقع كالأول بل على أنه لا ينبغي أن يقع أى بل أنحسب أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات حق السماع أو يقولون ما في تضاعيفها من المواعظ الزاجرة عن القبائح الداعية إلى المحاسن فتعنى بشأنهم وتطمع في إيمانهم وضمير أكثرهم لمن وجمعه باعتبار معناها كما أن الأفراد في الضمائر الأول باعتبار لفظها وضمير الفعلين لاكثر لما أضيف هو إليه وقوله تعالى :

(إن هم إلا كالأنعام) الخ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير النكير وتأكيده وحسم مادة الحسبان بالمرّة أى ما هم في عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات وانتفاء التدبر فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات إلا كالبهائم التى هى مثل فى الغفلة وعلم فى الضلالة (بل هم أضل) منها (سبيلا) لما أنها تنقاد لصاحبها الذى يعلفها ويتعهدّها وتعرف من يحسن إليها من يسيء إليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرّها وتهتدى لمراعيها ومشاربها وتأوى إلى معاطنّها وهؤلاء لا ينقادون لربهم وخالقهم ورازقهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذى هو أعدى عدوهم ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المصاير والمهلك ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الحق والمورد العذب الروى ولأنها إن لم تعتقد حقاً مستتبها لاكتساب الخير لم تعتقد باطلا مستوجبا لاقتراف الشر بخلاف هؤلاء حيث مهدوا قواعد الباطل وفرعوا عليها أحكام الشرور ولأن أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة على أنفسها لا تتعدى إلى أحد وجهالة هؤلاء مؤدية إلى ثوران الفتنة والفساد وصد الناس عن سنن السداد وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد ولأنها غير معطلة لقوة من القوى المودعة بل صارفة لها إلى ما خلقت هى له فلا تقصير من قبلها فى طلب الكمال وأما هؤلاء فهم معطلون لقواهم العقلية مضيعون للقطرة الأصلية التى فطر الناس عليها مستحقون بذلك أعظم العقاب وأشد النكال .

(ألم تر إلى ربك) بيان لبعض دلائل التوحيد إثر بيان جهالة المعرضين عنها وضلالتهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والهمزة للتقرير والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه عليه الصلاة والسلام وللإيذان بأن ما يعقبه من آثار ربوبيته ورحمته تعالى أى ألم تنظر إلى بديع صنعه تعالى (كيف مد الظل) أى كيف أنشأ ظل أى مظل كان من جبل أو بناء أو شجرة عند ابتداء طلوع الشمس مبتدأ لا أنه تعالى مده بعد أن لم يكن كذلك كما بعد نصف النهار إلى غروبها فإن ذلك مع خلوه عن التصريح بكون نفسه بإنشائه تعالى وإحداثه يأباه سياق النظم الكريم وأما ما قبل من أن المراد بالظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس وأنه أطيب الأوقات فإن الغالبة الخالصة تنفر عنها الطباع وشعاع الشمس يسخن الجو ويهير البصر ولذلك وصف به الجنة في قوله تعالى (وظل ممدود) فغير سديد إذ لا ريب في أن المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله عز وجل وبالغ حكمته فيما يشاهدونه فلا بد أن يراد بالظل ما يتعارفونه من حالة مخصوصة يشاهدونها في موضع يحول بينه وبين الشمس جسم كثيف مخالفة لما في جوانبه من مواقع ضح الشمس وما ذكر وإن كان في الحقيقة ظلالاً للآفاق الشرقي لكنهم لا يعدونه ظلالاً ولا يصفونه بأوصافه المعهودة ولعل توجيه الرؤية إليه سبحانه وتعالى مع أن المراد تقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام لكيفية مد الظل للتنبيه على أن نظره عليه الصلاة والسلام غير مقصور على ما يطالع من الآثار والصنائع بل مطمح أنظاره معرفة شؤون الصانع المجيد وقوله تعالى :

(ولو شاء لجعله ساكناً) جملة اعترضت بين المعطوفين للتنبيه من أول الأمر على أنه لا مدخل فيما ذكر من المدلل لأسباب العادية وإنما المؤثر فيه المشيئة والقدرة ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة من وقوعها شرطاً وكون مفعولها مضمون الجزاء أى ولو شاء سكونه لجعله ساكناً أى ثابتاً على حاله من الطول والامتداد وإنما عبر عن ذلك بالسكون لما أن مقابله الذى هو تغير حاله حسب تغير الأوضاع بين المظل وبين الشمس يرى رأى العين حركة

وانتقالا وحاصله أنه لا يعتريه اختلاف حال بأن لا تنسخه الشمس وأما التعليل بأن يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد فداره الغفول عما سبق له النظم الكريم ونطق به صريحا من بيان كمال قدرته القاهرة وحكمته الباهرة بنسبة جميع الأمور الحادثة إليه تعالى بالذات وإسقاط الأسباب العادية عن رتبة السببية والتأثير بالسلبية وقهرها على مجرد الدلالة على وجود المسببات لا بدكر قدرته تعالى على بعض الخوارق كإقامة الشمس في مقام واحد على أنها أعظم من إبقاء الظل على حاله في الدلالة على ما ذكر من كمال القدرة والحكمة لكونه من من فروعها ومستتبعاتها فهي أولى وأحق بالإيراد في معرض البيان وقوله تعالى :

(ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) عطف على مد داخل في حكمه أى جعلناها علامة يستدل بأحوالها المتغيرة على أحواله من غير أن يكون بينهما سببية وتأثير قطعا حسما فطاق به الشرطية المعترضة والالتفات إلى نون العظمة لما في الجمل المذكور العارى عن التأثير مع ما يشاهد بين الشمس والظل من الدوران المطرد المنبئ عن السببية من مزيد دلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة وهو السر في إيراد كلمة التراخى وقوله تعالى (ثم قبضناه) عطف على مد داخل في حكمه وثم للتراخى الزمانى لما أن في بيان كون القبض والمد مرتبين دائرين على قطب مصالح المخلوقات مزيد دلالة على الحكمة الربانية ويجوز أن تكون للتراخى الربنى أى أزليته بعد ما أنشأناه ممتدا ومحوناه بمحض قدرتنا ومشيتنا عند إيقاع شعاع الشمس موقعه من غير أن يكون له تأثير في ذلك أصلا وإنما عبر عنه بالقبض المنبئ عن جمع المنبسط وطيه لما أنه قد عبر عن احداثه بالمد الذى هو البسط طولا وقوله تعالى (إلينا) للتنصيص على كون مرجعه إليه تعالى كما أن حدوثة منه عز وجل (قبضا يسيرا) أى على مهل قليلا قليلا حسب ارتفاع دليله على وتيرة معينة مطردة مستتعبة لمصالح المخلوقات ومرافقتها وقيل إن الله تعالى حين بنى السماء كالقبة المضروبة ودحا الأرض تحتها ألقت القبة ظمها على الأرض لعدم التير وذلك مده تعالى إياه ولو شاء لجعله ساكنا مستقرا على تلك

الحالة ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل أى سلطها عليه ونصبها دليلاً متبوعاً له كما يتبع الدليل في الطريق فهو يزيد بها وينقص ويمتد ويقلص ثم نسخه بها فقبضه قبضاً سهلاً يسيراً غير عسير أو قبضاً سهلاً عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهى الأجرام التى تلقى الظل فيكون قد ذكر لإعدامه أسبابه كما ذكر لإنشاؤه بأنشائها ووصفه باليسر على طريقة قوله تعالى (ذلك حشر علينا يسيراً) وصيغة الماضى للدلالة على تحقيق الوقوع .

(وهو الذى جعل لكم الليل لباساً) بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى وحكمته وروائع أحكام رحمته ونعمته الفائضة على الخلق وتلوين الخطاب لتروية مقام الامتنان حقه واللام متعلقة بجعل وتقديمها على مفعوليه للاعتناء ببيان كون ما يعقبه من منافعهم وفى تعقيب بيان أحوال الظل بيان أحكام الليل الذى هو ظل الأرض من لطف المسلك ما لا مزيد عليه أى هو الذى جعل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس (والنوم سباتاً) أى وجعل النوم الذى يقع فى الليل غالباً قطعاً عن الأفاعيل المختصة بحال اليقظة عبر عنه بالسبات الذى هو الموت لما بينهما من المشابهة التامة فى انقطاع أحكام الحياة وعليه قوله تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل) وقوله تعالى (أفله يتوفى النفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) (وجعل النهار نشوراً) أى زمان بعث من ذلك السبات كبعث الموتى على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أو نفس البعث على طريق المبالغة وفيه إشارة إلى أن النوم واليقظة أنموذج للموت والنشور وعن لقمان عليه السلام يا بنى كما تنام فتوقظ كذلك تموت وتلشر (وهو الذى أرسل الرياح) وقرئ بالتوحيد على أن المراد هو الجنس (بشراً) تخفيف بشر جمع بشور أى مبشرين وقرئ بشرى وقرئ نشرأ بالنون جمع نشور أى ناشرات للسحاب وقرئ بالتخفيف وبفتح النون أيضاً على أنه مصدر وصف به مبالغة وقوله تعالى (بين يدي رحمته) استعارة بديعة أى قدام المطر والالفتات إلى نون العظمة فى قوله تعالى :

(وأزلنا من السماء ماء طهوراً) لإبراز كمال العناية بالإزالة لانه نتيجة ما ذكر من إرسال الرياح أى أنزلنا بعظمتنا بما رتبنا من إرسال الرياح من جهة الفوق ماء

بليغا في الطهارة وما قيل إنه ما يكون طاهرا في نفسه ومطهرا لغيره فهو شرح  
 لبلاغته في الطهارة كما ينبى عنه قوله تعالى (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به)  
 فإن الطهور في العربية إما صفة كما تقول ماء طهور أو اسم كما في قوله عليه الصلاة  
 والسلام التراب طهور المؤمن وقد جاء بمعنى الطهارة كما في قولك تطهرت طهورا  
 حسنا كقولك وضوءا حسنا ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لا صلاة إلا  
 بطهور ووصف الماء به لإشعار بتمام النعمة فيه وتتميم للنعمة فيما بعده فإن الماء  
 الطهور أهنا وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته وتبنيه على أن ظواهرهم لما كانت  
 مما ينبغي أن يطهروها فبواطنهم أحق بذلك وأولى (لنحي به) أى بما أنزلنا  
 من الماء الطهور (بلدة ميثا) بإنبات النبات والتذكير لأن البلدة بمعنى البلد  
 ولأنه غير جار على الفعل كسائر أبنية المبالغة فأجرى مجرى الجامد والمراد به  
 القطعة من الأرض عامرة كانت أو غامرة (ونسقيه) أى ذلك الماء الطهور  
 عند جريانه في الأودية أو اجتماعه في الحياض والمناقع أو الآبار (بما خلقنا  
 أنعاما وأناسى كثيرا) أى أهل البوادي الذين يعيشون بالحيا ولذلك نكر  
 الأنعام والآناسى وتخصيصهم بالذكر لأن أهل القرى والأمصار يقيمون  
 بقرب الأنهار والمنابع فيهم وبما لهم من الأنعام غنية عن سقيا السماء وسائر  
 الحيوانات تبعث في طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالبا من أن مساق الآيات  
 الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة فهو لتعدد أنواع النعمة والأنعام  
 حيث كانت قنية للإنسان وعامة منافعهم ومعايشهم منوطة بها قدم سقيا على  
 سقيهم كما قدم عليها لإحياء الأرض فإنه سبب لحياتها وتعيشها وقرىء نسقيه  
 وأسقى وسقى لغتان وقيل أسقاه جعل له سقيا وأناسى جمع أنسى أو لإنسان  
 كظرابى في ظربا على أن أصله أناسين فقلبت نونه ياء وقرىء أناسى بالتخفيف  
 بحذف ياء أفاعيل كأنعام فى أناعيم .

(ولقد صرفناه) أى وبالله لقد كررنا هذا القول الذى هو ذكر إنشاء  
 السحاب وإنزال القطر لما مر من الغايات الجميلة في القرآن وغيره من الكتب  
 السماوية (بينهم) أى بين الناس من المتقدمين والمتأخرين (ليذكروا)  
 ليتفكروا ويعرفوا بذلك كمال قدرته تعالى وواسع رحمته في ذلك ويقوموا

بشكر نعمته حق قيام وقيل الضمير للطير وتصريفه بينهم لإزاله في بعض البلاد دون غيرها أو في بعض الأوقات دون بعض أو جعله تارة وابلوا أخرى طلا وحيناً ديمة ووقتا رهمة والأول هو الأظهر ﴿فأبى أكثر الناس﴾ ممن سلف وخلف ﴿إلا كفورا﴾ أى لم يفعل إلا كفران النعمة قلة الاكتراث لها أو لإلجاؤها بأن يقولوا مطرنا بنوء كذا ولا يذكرنا صنع الله تعالى ورحمته ومن لا يرى الأمطار إلا من الأنواء فهو كافر بخلاف من يرى أن الكل يخلق الله تعالى والأنواء أمارات لجعله تعالى ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا﴾ نذيرا ينذر أهلها فيخفف عليك أعباء النبوة لكن لم نشأ ذلك فلم نفعله بل قصرنا الأمر عليك حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿ليكون للعالمين نذيرا﴾ لإجلال لك وتعظيما وتفضيلا لك على سائر الرسل ﴿فلا تطع الكافرين﴾ أى فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق والتشدد معهم كأنه نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المداراة معهم والتلطف في الدعوة لما أنه عليه الصلاة والسلام كان يود أن يدخلوا في الإسلام ويجتهد في ذلك بتأليف قلوبهم أشد الاجتهاد ﴿وجاهدكم به﴾ أى بالقرآن بتلاوة ما في تضاعيفه من القوارع والزواجر والمواعظ وتذكير أحوال الأمم المكذبة .

﴿جهادا كبيرا﴾ فإن دعوة كل العالمين على الوجه المذكور جهاد كبير لا يقادر قدره كما وكيفاً وقيل الضمير المجرور لترك الطاعة المفهوم من النهى عن الطاعة وأنت خير بأن مجرد ترك الطاعة يتحقق بلا دعوة أصلا وليس فيه شائبة الجهاد فضلا عن الجهاد الكبير اللهم إلا أن تجعل الباء للبابسة ليكون المعنى وجاهدكم بما ذكر من أحكام القرآن الكريم ملاسا بترك طاعتهم كأنه قيل جاهدكم بالشدّة والعنف لا بالملازمة والمداراة كما في قوله تعالى ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واخلط عليهم﴾ وقد جعل الضمير لما دل عليه قوله تعالى ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا﴾ من كونه عليه الصلاة والسلام نذير كافة القرى لأنه لو بعث في كل قرية نذيرا لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المجاهدات كلها فكبر من أجل ذلك جهاده

وعظم فليل له عليه الصلاة والسلام وجاهدم بسبب كونك نذير كافة القرى  
 جهادا كبيرا جامعا لكل مجاهدة وأنت خير بأن بيان سبب كبر المجاهدة  
 بحسب السمية ليس فيه مزيد فائدة فإنه بين بنفسه وإنما اللاتق بالمقام بيان سبب  
 كبرها وعظمها في السمية (وهو الذي مرج البحرين) أي خلاهما متجاورين  
 متلاصقين بحيث لا يتمازجان من مرج دابته إذا خلاها (هذا عذب فرات)  
 قاصع للعطش لغاية عذوبته (وهذا ملح أجاج) بليغ الملوحة وقرىء ملح  
 فلعله تخفيف مالح كبرد في بارد (وجعل بينهما برزخا) حاجزا غير مرئي  
 من قدرته كما في قوله تعالى (بغير عمد ترونها) (وحجرا محجورا) وتنافرا مفرطا  
 كأن كلا منهما يتعمد من الآخر بتلك المقالة وقيل حدا محدودا وذلك كدجلة  
 تدخل البحر وتشقه وتجرى في خلاله فراسخ لا يتغير طعمها وقيل المراد بالبحر  
 العذب النهر العظيم وبالمالح البحر الكبير وبالبرزخ ما بينهما من الأرض فيكون  
 أثر القدرة في الفصل واختلاف الصفة مع أن مقتضى طبيعة كل عنصر النظام  
 والتلاصق والتشابه في السمية .

(وهو الذي خلق من الماء بشرا) هو الماء الذي خمر به طينة آدم عليه  
 السلام أو جعله جزءا من مادة البشر ليجتمع ويسلس ويستعد لقبول الاشكال  
 والهيئات بسهولة أو هو النطفة (جعله نسبا وصهرا) أي قسمه قسمين ذوى  
 نسب أي ذكورا ينتسب إليهم وذوات صهر أي أناثا يصاهر بهن كقوله تعالى  
 (جعل منه الزوجين الذكر والأنثى) (وكان ربك قديرا) مبالغا في القدرة  
 حيث قدر على أن يخلق من مادة واحدة بشرا ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة  
 وجعله قسمين متقابلين وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكرا وأنثى  
 (ويعبدون من دون الله) الذي شأنه ما ذكر (مالا ينفعهم ولا يضرهم)  
 أي ما ليس من شأنه النفع والضرر أصلا وهو الأصنام أو كل ما يعبد من دونه  
 تعالى إذ ما من مخلوق يستقل بالنفع والضرر (وكان الكافر على ربه) الذي  
 ذكرت آثار ربوبيته (ظهيرا) يظاهر الشيطان بالعداوة والشرك والمراد  
 بالكافر الجفيس أو أبو جهل وقيل هينا مهينا لا اعتداد به عنده تعالى من قوطهم

ظهرت به إذا نبذته خلف ظهرك فيكون كقوله تعالى (ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم) ﴿وما أرسلناك إلا مبشرا﴾ للمؤمنين ﴿ونذيرا﴾ للكافرين ﴿قل﴾ لهم ﴿ما أسألكم عليه﴾ أى على تبليغ الرسالة الذى ينهى عنه الإرسال ﴿من أجر﴾ من جهنم ﴿إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا﴾ أى ألا فعل من يريد أن يتقرب إليه تعالى ويطلب الزلفى عنده بالإيمان والطاعة حسبما أَدْعُوهم إليهما فصور ذلك بصورة الأجر من حيث أنه مقصود الإتيان به وأستثنى منه قلما كليا لشأبة الطمع وإظهارا لغاية الشفقة عليهم حيث جعل ذلك مع كون نفعه عائدا إليهم هائدا إليه عليه الصلاة والسلام وقيل الاستثناء منقطع أى لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا فليفعل ﴿وتوكل على الحى الذى لا يموت﴾ فى الاستكفاء عن شروهم والإغناء عن أجورهم فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء الذين من شأنهم الموت فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكل عليهم ﴿وسبح بحمده﴾ ونزهه عن صفات النقصان مثنيا عليه بنعوت الكمال طالبا لمزيد الإناعام بالشكر على سوابغه ﴿وكفى به بذنوب عباده﴾ ما ظهر منها وما بطن ﴿خبيرا﴾ أى مطلعا عليها بحيث لا يخفى عليه شيء منها فيجزئهم جزاء وفيا .

﴿الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ قد سلف تفسيره وعمل الموصول الجر على أنه صفة أخرى للحى وصف بالصفة الفعلية بعد وصفه بالأبدية التى هى من الصفات الذاتية والإشارة إلى اتصافه بالعلم الشامل لتقرير وجوب التوكل عليه تعالى وتأكيده فإن من أنشأ هذه الأجرام العظام على هذا النمط الفائق والنسق الرائق بتدبير متين وترتيب رصين فى أوقات معينة مع كمال قدرته على إبداعها دفعة لحكم جليلة وغايات جميلة لا تقف على تفاصيلها العقول أحق من يتوكل عليه وأولى من يفوض الأمر إليه ﴿الرحمن﴾ مرفوع على المدح أى هو الرحمن وهو فى الحقيقة وصف آخر للحى كما قرئ بالجر مفيد لزيادة تأكيد ما ذكر من وجوب التوكل عليه تعالى وإن لم يتبعه فى الإعراب لما تقرر من أن المنصوب والمرفوع



مدحا وإن خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاه في الإعراب وبذلك سميا قطعا لكنهما تابعا له حقيقة ألا يرى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدأ في النصب والرفع روما لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ما قبله وتنبيها على شدة الاتصال بينهما وقد مر تمام التحقيق في تفسير قوله عز وجل (الذين يؤمنون بالغيب) الآية وقيل الموصول مبتدأ والرحمن خبره وقيل الرحمن بدل من المستكن في استوى ﴿ فاسأل به ﴾ أى بتفاصيل ما ذكر لإجمالا من الخلق والاستواء لا بنفسهما فقط إذ بعدياتهما لا يبقى إلى السوال حاجة ولا فى تعديته بالباء فائدة فإنها مبنية على تضمينه معنى الاعتناء المستدعى لكون المسئول أمرا خطيرا مهتما بشأنه غير حاصل للسانه وظاهر أن نفس الخلق والاستواء بعد الذكر ليس كذلك وما قيل من أن التقدير إن شككت فيه فاسأل به خبيراً على أن الخطاب له عليه الصلاة والسلام والمراد غيره بمزول من السداد بل التقدير إن شئت تحقيق ما ذكر أو تفصيل ما ذكر فاسأل معنيا به ﴿ خبيراً ﴾ عظيم الشأن محيطاً بظواهر الأمور وبواطنها وهو الله سبحانه يطلعك على جليلة الأمر وقيل فاسأل به من وجده فى الكتب المتقدمة ليصدقك فيه فلا حاجة حينئذ إلى ما ذكرنا وقيل الضمير للرحمن والمعنى إن أنكروا إطلاقه على الله تعالى فاسأل عنه من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا بحجى ما يرادفه فى كتبهم وعلى هذا يجوز أن يكون الرحمن مبتدأ وما بعده خبراً وقرئء فسل .

﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ﴾ قالوه لما أنهم ما كانوا يطلقونه على الله تعالى أو لأنهم ظنوا أن المراد به غيره تعالى ولذلك قالوا ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ أى للذى تأمرنا بسجوده أو لأمرك إيانا من غير أن نعرف أن المسجود ماذا وقيل لأنه كان معرباً لم يسمعه وقرئء يأمرنا بياء الغيبة على أنه قول بعضهم لبعض ﴿ وزادهم ﴾ أى الأمر بسجود الرحمن ﴿ نفورا ﴾ عن الإيمان ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ﴾ هى البروج الاثنا عشر سميت به وهى القصور العالية لأنها للبكواكب السيارة كالمنازل الرفيعة لسكانها واشتقاقه من البرج لظهوره ﴿ وجعل فيها سراجا ﴾ هى الشمس لقوله تعالى

وجعل الشمس سراجا وقرىء سراجا وهى الشمس والسكواكب الكبار ﴿وقرا منيرا﴾ مضيئا بالليل وقرىء قرا أى ذا قر وهى جمع قراء ولما أن الليالى بالقمر تكون قراء أضيف إليها ثم حذف وأجاءى حكمه على المضاف إليه القائم مقامه كما فى قول حسان رضى الله عنه:

• بردى يصفق بالرخيق السلسله

أى ماء بردى ويحتمل أن يكون بمعنى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب ﴿وهى الذى جعل الليل والنهار خلفه﴾ أى ذوى خلفه بخلف كل منهما الآخر بأن يقوم مقامه فيما يلغى أن يعمل فيه أو بأن يعتقبا كقوله تعالى (واختلاف الليل والنهار) وهى اسم للحالة من خلف كالركبة والجلسة من ركب وجلس ﴿لمن أراد أن يذكر﴾ أى يتذكر آلاء الله عز وجل ويتفكر فى بدائع صنعه فيعلم أنه لا بد لها من صانع حكيم واجب الذات رحيم للعباد ﴿أو أراد شكورا﴾ أى أن يشكر الله تعالى على ما فيهما من النعم أو ليكونا وقتين للذاكرين من فاته ورده فى أحدهما تداركه فى الآخرة وقرىء أن يذكر من ذكر بمعنى تذكر .

سمات المخلصين من عباد الله

﴿وعباد الرحمن﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف خلص عباد الرحمن وأحوالهم الدنيوية والآخروية بعد بيان حال المنافرين عن عبادته والسجود له والإضافة للتشريف وهو مبتدأ خبره ما بعده من الموصول وما عطف عليه وقيل هو ما فى آخر السورة الكريمة من الجملة المصدرة باسم الإشارة وقرىء عباد الرحمن أى عباده المقبولون ﴿الذين يمشون على الأرض هونا﴾ أى بسكينة وتواضع وهونا مصدر وصف به ونصبه إما على أنه حال من فاعل يمشون أو على أنه نعت لمصدره أى يمشون هينين لينى الجانب من غير فظاظة أو مشيا هينا وقوله تعالى ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ أى السفهاء كما فى قول من قال :

ألا لا يجهلان أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

( قالوا سلاما ) بيان لحالهم في المعاملة مع غيرهم لإثريان حالهم في أنفسهم أى إذا خاطبهم بالسوء قالوا تسليما منكم ومتاركة لا خير بيننا وبينكم ولا شر وقيل سدادا من القول يسلمون به من الأذية والإثم وليس فيه تعرض لمعاملتهم مع الكفرة حتى يقال نسخها آية القتال كما نقل عن أبي العالية وقوله تعالى ( والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ) بيان لحالهم في معاملتهم مع ربهم أى يكونون ساجدين لربهم وقائمين أى يحيون الليل كلا أو بعضا بالصلاة وقيل من قرأ شيئا من القرآن في صلاة وإن قل فقد بات ساجداً وقائماً وقيل هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء وتقديم السجود على القيام لرعاية الفواصل .

( والذين يقولون ) أى فى أعقاب صلواتهم أو فى عامة أوقاتهم ( ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ) أى شرا دائما وهلاكاً لازماً وفيه مزيد مدح لهم ببيان أنهم مع حسن معاملتهم مع الخلق واجتهادهم فى عبادة الحق يخافون العذاب ويبتهلون إلى الله تعالى فى صرفه عنهم غير محتفلين بأعمالهم كقوله تعالى ( والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ) (إنها ساءت مستقرا ومقاما ) تعليل لاستدعائهم المذكور بسوء حالها فى نفسها لإثر تعليله بسوء حال عذابها وقد جوز أن يكون تعليلا للأولى وليس بذلك وساءت فى حكم بثست وفيها ضمير مبهم يفسره مستقرا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هى وهذا الضمير هو الذى ربط الجملة باسم إن وجعلها خبراً لها قيل ويجوز أن يكون ساءت بمعنى أضررت وفيها ضمير اسم إن ومستقرا حال أو تمييز وهو بعيد خال عما فى الأول من المبالغة فى بيان سوء حالها وكذا جعل التعليلين من جهة تعالى ( والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ) لم يجاوزوا حد الكرم ( ولم يقتصروا ) ولم يضيقوا تضيق الشحيح وقيل الإسراف هو الإتفاق فى المعاشى والقتر منع الواجبات والقرب وقرئ بكسر التاء مع فتح الياء وبكسرهما مخففة ومشددة مع ضم الياء ( وكان بين ذلك ) أى بين ما ذكر من الإسراف والقتر ( قواما ) وسطا وعدلا سمي به لاستقامة الطرفين كما سمي به سواء لاستوائيهما وقرئ بالكسر وهو ما يقام به الحاجة

﴿ولا يقتلون النفس التي حرم الله﴾ أى حرماً بمعنى حرم قتلها لحذف  
المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مبالغة في التحريم ﴿إلا بالحق﴾ أى لا يقتلونها  
بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها أو لا يقتلون قتلاً ما  
إلا قتلاً ملتبساً بالحق أو لا يقتلونها فى حال من الأحوال إلا حال كونهم  
ملتبسين بالحق ﴿ولا يزنون﴾ أى الذين لا يفعلون شيئاً من هذه العظائم الفبيحة  
التي جمعهم الكفرة حيث كانوا مع إشراكهم به سبحانه مداومين على قتل  
النفوس المحرمة التي من جعلها المودة مكبين على الزنا لا يرجعون عنه أصلاً  
﴿ومن يفعل ذلك﴾ أى ما ذكر كما هو دأب الكفرة المذكورين ﴿يلق﴾ فى  
«الأخرة وقرىء يلقى وقرىء يلقى بالتشديد مجزوماً ﴿أناما﴾ وهو جزاء  
الإثم كالوبال والنكال وزنا ومعنى وقيل هو الإثم أى يلقى جزاء  
الإثم والتنوين على التقديرين للتفخيم وقرىء أيا ما أى شداًد يقال يوم  
ذو أيام لليوم الصعب ﴿يضاعف له العذاب يوم القيامة﴾ بدل من يلقى لا محادها  
فى المعنى كقوله :

متی تاتنا تلیم ہما فی دیارنا نجد خطبا جزلا وفارا تاججا

وقرىء بالرفع على الاستئناف أو على الحالية وكذا ما عطف عليه وقرىء  
بضمف ونضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب (ويخلف فيه) أى فى ذلك

العذاب المضاعف ﴿مهانا﴾ ذليلاً مستحقراً جامعاً للعذاب الجسماني والروحاني وقرئ يخلد ويخلد مبنيًا للمفعول من الإخلاد والتخليد وقرئ يخلد يخلد بالياء على الالتفات المنبئ عن شدة الغضب ومضاعفة العذاب لانضمام المعاصي إلى الكفر كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ وذكر الموصوف مع جريان الصالح والصلوات مجرى الاسم للاعتناء به والتنهيص على مغابرة الأعمال السابقة ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى الموصول والجمع باعتبار معناه كما أن الأفراد في الأفعال الثلاثة باعتبار لفظه أي أولئك الموصوفون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم أو يبدل بملكه المعصية ودواعيها في النفس ملكة الطاعة بأن يزيل الأولى ويأتي بالثانية وقيل بأن يوفقه لأضداد ما سلف منه أو بأن يثبت له بدل كل عقاب ثواباً وقيل يبدلهم بالشرك إيماناً وبقتل المسلمين قتل المشركين وبالزنا عفة وإحصاناً ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من المحو والإثبات ﴿ومن تاب﴾ أي عن المعاصي بتركها بالكلية والتدم عليها ﴿وعمل صالحاً﴾ يتلافى به ما فرط منه أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعات ﴿فإنه﴾ بما فعل ﴿يتوب إلى الله﴾ أي يرجع إليه تعالى ﴿متاباً﴾ أي متاباً عظيم الشأن مرضياً عنده تعالى ما حيا للعقاب محصلاً للثواب أو يتوب متاباً إلى الله تعالى الذي يجب التوابين ويحسن إليهم أو فإنه يرجع إليه تعالى أو إلى ثوابه مرجعاً حسناً وهذا تعميم بعد تخصيص .

﴿والذين لا يشهدون الزور﴾ لا يقيمون الشهادة الكاذبة أو لا يحضرون محاضر الكذب فإن مشاهدة الباطل مشاركة فيه ﴿وإذا مروا﴾ على طريق الاتفاق ﴿بالغو﴾ أي ما يجب أن يلغى ويخرج عما لا خير فيه ﴿مروا كراماً﴾ معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه ومن ذلك الإغضاء عن الغواشي والصفح عن الدواب والكناية عما يستهجن التصريح به ﴿والذين إذا ذكروا آيات ربهم﴾ المنطوية على المواعظ والأحكام ﴿لم يحرولوا﴾

عليها صبا وعميانا) أى أكبوا عليها سامعين بأذان واعية مجتلين لها بعيون راعية وإنما عبر عن ذلك بنفى الضد تعريضا بما يفعله الكفرة والمنافقون وقيل الضمير للمعاصي المدلول عليها بالغفوة (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) بتوفيقهم للطاعة وحياسة الفضائل فإن المؤمن إذا ساعده أهله فى طاعة الله عز وجل وشاركوه فيها يسر بهم قلبه وتقر بهم عينه لما يشاهده من مشايعتهم له فى مناهج الدين وتوقع لحوقهم به فى الجنة حسبا وعد بقوله تعالى (ألحقنا بهم ذريتهم) ومن ابتدائية أو يانية وقرىء وذريتنا وتنكير الأعين لإرادة تشكيب القرء تعظيما وتقليلها لأن المراد أعين المتقين ولا ريب فى قلتها نظرا إلى غيرها (واجعلنا للمتقين إماما) أى اجعلنا بحيث يقتدون بنا فى إقامة مراسم الدين بإفاضة العلم والتوفيق للعمل وتوحيده للدلالة على الجلس وعدم الالتباس كقوله تعالى (ثم يخرجكم طفلا) أو لأن المراد واجعل كل واحد منا إماما أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم كذا قالوا وأنت خير بأن مدار الكل صدور هذا الدعاء إماما عن الكل إماما بطريق المعية وأنه محال لاستحالة اجتماعهم فى عصر واحد فما ظنك باجتماعهم فى مجلس واحد واتفاقهم على كلمة واحدة وإماما عن كل واحد بطريق تشريك غيره فى استدعاء الإمامة وأنه ليس بثابت جز ما بل الظاهر صدورهم بطريق الانفراد وأن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء واجعلنى للمتقين إماما خلا أنه حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير للقصد إلى الإيجاز على طريقة قوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) وأبقى إماما على حاله وقيل الإمام جمع أم بمعنى قاصد كصيام جمع صائم ومعناه قاصدين لهم مقندين بهم وإعادة الموصول فى المواقع السبعة مع كفاية ذكر الصلوات بطريق العطف على صلة الموصول الأول للإيذان بأن كل واحد مما ذكر فى حين صلة الموصولات المذكورة وصف جليل على حياله شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شئ من ذلك تنمة لغيره وتوسيط العاطف بين الموصولات لتفصيل الاختلاف العتوانى منزلة الاختلاف الذاتى كما فى قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتاب في المردحم

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المتصفين بما فصل في حيز صلة الموصولات الثمانية من حيث اتصافهم به وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك أكل تميز منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للإيدان بعد منزلتهم في الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ يجزون الغرفة ﴾ والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مبينة لما لهم في الآخرة من السعادة الأبدية أثر بيان ما لهم في الدنيا من الأعمال السنية والغرفة الدرجة العالية من المنازل وكل بناء مرتفع عال أى يثابون أعلى منازل الجنة وهى اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى (وهم في الغرفات آمنون) وقيل هى اسم من أسماء الجنة ﴿ بما صبروا ﴾ أى يصبرهم على المشاق من مضع الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات ﴿ وبلقون فيها ﴾ من جهة الملائكة ﴿ تحية وسلاما ﴾ أى يحيمهم الملائكة ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات أو يعطون التبقية والتخليد مع السلامة من كل آفة وقيل يحى بعضهم بعضا ويسلم عليه وقرىء يلقون من لقي ﴿ خالدين فيها ﴾ لا يموتون ولا يخرجون ﴿ حسنت مستقرا ومقاما ﴾ الكلام فيه كالذى مر في مقابلة ﴿ قل ﴾ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبين للناس أن الفائزين بتلك النعماء الجليلة التى يتنافسون فيها المتنافسون إنما نالوها بما عدد من محاسنهم ولولاها لم يعتد بهم أصلا أى قل لهم كافة مشافها لهم بما صدر عن جنسهم من خير وشر ﴿ ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم ﴾ أى أى عبء يعبا بكم وأى اعتداد يعتد بكم لولا عبادتكم له تعالى حسبما مر تفصيله فإن ما خلق له الإنسان معرفته تعالى وطاعته وإلا فهو وشاير البهائم سواء وقال الزجاج معناه أى وزن يكون لكم عنده وقيل معناه طلي يصنع بكم ربى لولا دعاؤه لياكم إلى الإسلام وقيل ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة ويجوز أن تكون ما نافية وقوله تعالى ﴿ فقد كذبت ﴾ بيان لحال الكفرة من المخاطبين كما أن ما قبله بيان لحال المؤمنين منهم أى فقد كذبتهم

بما أخبرتكم به وخالفتموه أيها الكفرة ولم تعملوا عمل أولئك المذكورين  
وقيل فقد قصرتم في العبادة من قولهم كذب القتال إذ لم يبالغ فيه وقرئ فقد  
كذب الكافرون أي الكافرون منكم لعموم الخطاب للقريةين وفائدته الإيذان  
بأن مناط فوز أحدهما وخسران الآخر مع الاتحاد الجنسي المصحح للاشتراك  
في الفوز ليس إلا اختلافهما في الأعمال (فسوف يكون لزاماً) أي يكون  
جزاء التكذيب أو أثره لازماً يحقق بكم لا محالة حتى يكبسكم في النار كما تعرب  
عنه الفاء الدالة على لزوم ما بعدها لما قبلها وإنما أضمر من غير ذكر للإيذان  
بغاية ظهوره وتحويل أمره وللتنبية على أنه مما لا يكتننه البيان وقيل يكون  
العذاب لزاماً وعن مجاهد رحمه الله هو القتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلى  
وقرئ لزاماً بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت . عن رسول الله صلى الله  
عليه وسلم من قرأ سورة الفرقان لقي الله تعالى وهو مؤمن بأن الساعة آتية  
لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب .



## سورة الشعراء

مكية لإلا قوله : ( والشعراء ) إلى آخرها  
وهي مائتان وست أو سبع وعشرون آية

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( طسم ) بتفخيم الألف ويأما انتها وإظهار النون ويادغامها في الميم وهو إما مسرود على نمط التعديد بطريق التحدى على أحد الوجهين المذكورين في فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الإعراب وإما اسم للسورة كما عليه لإطباق الأكثر فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وهو أظهر من الرفع على الابتداء وقد مر وجهه في مطلع سورة يونس عليه السلام أو النصب بتقدير فعل لا تقي بالمقام نحو اذكر أو اقرأ وتلك في قوله تعالى : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ إشارة إلى السورة سواء كان طسم مسرودا على نمط التعديد أو اسما للسورة حسبما مر تحقيقه هناك وما في اسم الإشارة من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلة المشار إليه في الفخامة ومحله الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده وعلى تقدير كون طسم مبتدأ فهو مبتدأ ثان أو بدل من الأول والمراد بالكتاب القرآن وبالمبين الظاهر إعجازه على أنه من أبان بمعنى بان أو المبين للأحكام الشرعية وما يتعلق بها أو الفاصل بين الحق والباطل والمعنى هي آيات مخصوصة منه مترجمة باسم مستقل والمراد ببيان كونها بعضا منه وصفا بما اشتهر به الكل من التعمت الفاضلة .

تسليمة النبي صلى الله عليه وسلم

( لعلك باخع نفسك ) أى قاتل وأصل البخع أن يبلغ بالذبح النخاع وهو عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى حد الذبح وقرئ باخع نفسك على الإضافة ولعل الإشفاق أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ماقاتك من

إسلام قومك ( أن يكونوا مؤمنين ) أى لعدم إيمانهم بذلك الكتاب المبين  
أو خيفة أن لا يؤمنوا به وقوله تعالى : ( إن نفساً ) الخ استئناف مسوق  
لتعليل ما يفهم من الكلام من النهي عن التحسر المذكور ببيان أن إيمانهم ليس  
بما تعلقت به مشيئة الله تعالى حتماً فلا وجه للطمع فيه والتألم من فواته ومفعول  
المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزء أعنى قوله تعالى ( نزل عليهم من  
السماء آية ) أى طليقة لهم إلى الإيمان قاسرة عليه وتقديم الظرفين على المفعول  
الصريح لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ( فظلت  
أعناقهم لها خاضعين ) أى منقادين وأصله فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق  
لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع وترك الخبر على حاله وقيل لما وصفت  
الأعناق بصفات العقلاء أجريت مجرام في الصيغة أيضاً كما في قوله تعالى ( رأيتهم  
لى ساجدين ) وقيل أريد بها الرؤساء والجماعات من قولهم جاءنا عنق من الناس  
أى فوج منهم وقرئ خاضعة وقوله تعالى فظلت عطف على نزل باعتبار محله  
وقوله تعالى :

( وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ) ببيان  
لشدّة شكيمتهم وعدم إرهوائهم عما كانوا عليه من الكفر والتكذيب  
بغير ما ذكر من الآية الملحقة لصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخرص  
على إسلامهم وقطع رجائه عنه ومن الأولى مريدة<sup>(١)</sup> لتأكيد العموم والثانية  
لإبتداء الغاية مجازاً متعلقة بآياتهم أو محذوف هو صفة لذكر وأياً ما كان ففيه  
دلالة على فضله وشرفه وشناعته ما فعلوا به. والتعرض لعنوان الرحمة لتخليط  
شناعتهم وتحويل جنابهم فإن الإعراض عما يأتيهم من جنابه عز وجل على  
الإطلاق شنيع قبيح وعما يأتيهم : فهو جناب رحمة تعالى لمحض منتهى أمتع وأقبح  
إلى ما يأتيهم من موعظة من الملائكة القرآنية أو من طائفة نازلة من القرآن  
تذكروا أكل نذير وتلهم عن الغفلة أتم تنبيه كأنها نفس المذكر من جهته

تعالى بمقتضى رحمته الواسعة مجدد تنزيله حسب مقتضيه الحكمة والمصلحة  
إلا جددوا إعراضه على وجه التكذيب والاستهزاء وإصراراً على ما كانوا  
عليه من الكفر والضلال والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال محلله النصب  
على الحالية من مفعول يأتيهم بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور أى  
ما يأتيهم من ذكر في حال من الأحوال إلا حال كونهم معرضين عنه ﴿ فقد  
كذبوا ﴾ أى كذبوا بالذكر الذى يأتيهم تكديماً صريحاً مقارناً للاستهزاء به  
ولم يكتفوا بالإعراض عنه حيث جعلوه تارة سحراً وأخرى أساطير  
وأخرى شعراً والفاء فى قوله تعالى ﴿ فسيأتيهم ﴾ لترتيب ما بعدها على  
ما قبلها والسين لتأكيد مضمون الجملة وتقريره أى فسيأتيهم البتة من غير  
تخلف أصلاً .

﴿ أنباء ما كانوا به يستهزؤن ﴾ عدل عما يقتضيه سائر ما سلف من  
الإعراض والتكذيب للإيذان بأنهما كانا مقارنين للاستهزاء كما أشير إليه  
حسبما وقع فى قوله تعالى ( وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها  
معرضين فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن )  
وأنباؤه ما سيحقق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة عبر عنها بذلك إما لكونها  
عما أنبأ بها القرآن الكريم وأما لأنهم بمشاهدتها يقفون على حقيقة حال القرآن  
كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم باستماع الأنباء وفيه تهويل له لأن النبأ  
لا يطلق إلا على خبر خطير له وقع عظيم أى فسيأتيهم لامحالة مصداق ما كانوا  
يستهزؤن به قبل من غير أن يتدبروا فى أحواله ويقفوا عليها ﴿ أولم يروا ﴾  
الهمزة للإنكار التوبيخى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى فعلوا  
ما فعلوا من الإعراض عن الآيات والتكذيب والاستهزاء بها ولم ينظروا  
﴿ إلى الأرض ﴾ أى إلى عجائبها الزاجرة عما فعلوا الداعية إلى الإقبال على  
ما عرضوا عنه وإلى الإيمان به وقوله تعالى ﴿ كم أنبتنا فيها من كل زوج  
كريم ﴾ استئناف مبين لما فى الأرض من الآيات الزاجرة عن الكفر الداعية  
إلى الإيمان وكم خبرية منصوبة بما بعدها على المفعولية والجمع بينها وبين كل

لإفادة الإحاطة والكثرة معا ومن كل زوج أى صنف تمييز والكريم من كل شيء مرضيه ومحوده أى كثيرا من كل صنف مرضى كثير المنافع أنبتنا فيها وتخصيص إنباته بالذكر دون ما عداه من الأصناف لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معا ويحتمل أن يراد به جميع أصناف النباتات نافعا وضارها ويكون وصف الكل بالكرم للتنبيه على أنه تعالى ما أنبت شيئا إلا وفيه فائدة كما نطق به قوله تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا) فإن الحكيم لا يكاد يفعل فعلا إلا وفيه حكمة بالغة وإن غفل عنها الغافلون ولم يتوصل إلى معرفة كتبها العاقلون ﴿إن فى ذلك﴾ إشارة إلى مصدر أنبتنا أو إلى كل واحد من تلك الأزواج وأيا ما كان فافيه من معنى البعد للإيدان ببعد منزلته فى الفضل ﴿لاية﴾ أى آية عظيمة دالة على كمال قدرة منبتها وغاية وفور عله وحكمته ونهاية سعة رحمته موجبة للإيمان وازعة عن الكفر .

﴿وما كان أكثرهم﴾ أى أكثر قومه عليه الصلاة والسلام ﴿مؤمنين﴾ قيل أى فى علم الله تعالى وقضائه حيث علم ألا أنهم سيصرفون فيما لايزال اختيارهم الذى عليه يدور أمر التكليف إلى جانب الشر ولا يتدبرون فى هذه الآيات العظام وقال سيبويه كان صلة والمعنى وما أكثرهم مؤمنين وهو الأنسب بمقام بيان عتوهم وغلوهم فى المكابرة والعناد مع تعاضد موجبات الإيمان من جهته تعالى وأما نسبة كفرهم إلى عله تعالى وقضائه فربما يتوهم منها كونهم معذورين فيه بحسب الظاهر لأن ما أشير إليه من التحقيق بما خفى على مهرة العلماء المتقنين كأنه قيل إن فى ذلك لآية باهرة موجبة للإيمان وما أكثرهم مؤمنين مع ذلك لغاية تماديهم فى الكفر والضلالة وإنهما كهم فى الغى والجهالة ونسبة عدم الإيمان إلى أكثرهم لأن منهم من سيؤمن ﴿وإن ربك لهُوَ العزيز﴾ الغالب على كل ما يريد من الأمور التى من جملتها الانتقام من هؤلاء ﴿الرحيم﴾ المبالغ فى الرحمة ولذلك يملهم ولا يؤاخذهم بغتة بما اجتروا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات وفى التعرض لوصف

الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه والعدة الخفية بالانتقام من الكفرة ما لا يخفى .

### إعراض الكفار عن الأنبياء

( وإذ نادى ربك موسى ) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من من إعراضهم عن كل ما يأتيهم من الآيات التنزيلية وتكذيبهم بها لإثبات بيان إعراضهم عما يشاهدونه من الآيات التكوينية وإذ منصوب على المفعولية بمضمير خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام أى واذكر لأولئك المعرضين المكذبين وقت ندائه تعالى إياه عليه الصلاة والسلام وذكرم بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم إياه زجرا لهم عما هم عليه من التكذيب وتحذيرا من أن يحيق بهم مثل ما حاق بأضرابهم المكذبين الظالمين حتى يتضح لك أنهم لا يؤمنون بما يأتيهم من الآيات لكن لا بقياس حال هؤلاء بحال أولئك فقط بل بمشاهدة إصرارهم على ما هم عليه بعد سماع الوحي الناطق بقصتهم وعدم اتعاضهم بذلك كما يلوح به تكرير قوله تعالى (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) عقيب كل قصة وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أن المقصود تكبير ما وقع فيه من الحوادث قد مر سرده مرارا ( أن انت ) بمعنى أنت على أن مفسرة أو بأن انت على أنها مصدرية حذف منها الجار ( القوم الظالمين ) أى بالكفر والمعاصي واستعباد بنى إسرائيل وذبح أبنائهم وليس هذا مطلع ما ورد في حين النداء وإنما هو ما فصل في سورة طه من قوله تعالى ( إني أنا ربك ) إلى قوله ( لنريك من آياتنا الكبرى ) ولم يراد ما جرى في قصة واحد من الملائكة بعبارات شتى وأساليب مختلفة قد مر تحقيقه في أوائل سورة الأعراف عند قوله تعالى ( قال أنظرنى ) ( قوم فرعون ) بدل من الأول لهذا طبع بيان له معنى به للإيدان بأنهم علم في الظلم كآبى القوم الظالمين وقومهم قوم فرعون والافتصار على ذكر قومه للإيدان بهمة أن نفسه أول داخل في الحكم ( ألا يتقون ) استأنف جىء به لإثراء الدلالة عليه الصلاة والسلام

إليهم للإنذار تعجيباً من غلوهم في الظلم وإفراطهم في العدوان وقرىء بقاء الخطاب على طريقة الالتفات المنبئ عن زيادة الغضب عليهم كأن ذكر ظلمهم أدى إلى مشافهتهم بذلك وهم وإن كانوا حيثئذ غيباً لكنهم قد أجروا مجرى الحاضرين في كلام المرسل إليهم من حيث أنه مبلغه إليهم واسماعه مبتدأ اسماعهم مع ما فيه من مزيد الحث على التقوى لمن تدبر وتأمل وقرىء بكسر النون اكتفاء به عن ياء المتكلم وقد جوز أن يكون بمعنى ألا يأناس اتقون فحو أن لا يسجدوا .

( قال ) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية ما مضى كأنه قيل فإذا قال موسى عليه السلام فقيل قال متضرعاً إلى الله عز وجل ( رب إني أخاف أن يكذبون ) من أول الأمر ( ويضيق صدري ولا ينطلق لساني ) معطوفان على أخاف ( فأرسل ) أي جبريل عليه السلام ( إلى هرون ) ليكون معي وأتعاخذ به في تبليغ الرسالة رتب عليه الصلاة والسلام استدعاه ذلك على الأمور الثلاثة خوف التكذيب وضيق الصدر وازدياد ما كان فيه عليه الصلاة والسلام من حسرة اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطق لأنها إذا اجتمعت نفس الحاجة إلى معين يقوى قلبه ويتوب مثابه إذا اعتراه حسرة حتى لا تحتل دعوته ولا تنقطع حجة وليس لهذا من التعلل والتوقف في تلقى الأمر في شيء وإنما هو استدعاء لما يعينه على الامتثال به وتمهيد عذر فيه وقرىء ويضيق ولا ينطلق بالنصب عطفاً على يكذبون فيكونان من جملة ما يخاف منه ( ولهم على ذنب ) أي تبعة ذنب فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه أو سمي باسمه والمراد به قتل القبطى وتسميته ذنباً بحسب زعمهم كما ينبغي عنه قوله لهم وهذا إشارة إلى قصة مبسوخة في غير موضع ( فأخاف ) أي إن أنيتهم بوحدهى ( أن يقتلوا ) بمقابلته قبل أداء الرسالة كما ينبغي وليس هذا أيضاً تغللاً وإنما هو استدفاع للبلية المتوقعة قبل وقوعها وقوله تعالى ( قال كلا فافعلوا بآياتنا ) حكاية لإجابته تعالى إلى الطليين المفع للمفهوم عن الردع عن الخوف وضم أخيه المفهوم من توجيه الخطاب إلىهما بطريق

التغليب فإنه معطوف على مضمير يفيء عنه الردع كأنه قيل ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت ومن استدعيته وفي قوله بآياتنا رمز إلى أنها تدفع ما يخافه. وقوله تعالى ﴿إنا معكم مستمعون﴾ تعليل للردع عن الخوف ومزيد تسليية لها بضمان كمال الحفظ والنصرة كقوله تعالى ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾ وحيث كان الموعد بمحضر من فرعون اعتبر ههنا في المعية وقيل أجريا مجرى الجماعة ويأباه ما قبله وما بعده من ضمير التثنية أى سامعون ما يجرى بينكما وبينه فنظهر كما عليه مثل حاله تعالى بحال ذى شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع ما يجرى بينهم لئيد أوليائه ويظهرهم على أعدائهم مبالغة في الوعد بالإعانة أو استعير الاستماع الذى هو بمعنى الإصغاء للسمع الذى هو العلم بالحروف والأصوات وهو خبر ثان أو خبر وحده ومعكم ظرف لغو والغاء في قوله تعالى :

﴿فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين﴾ لتقريب ما بعدها على ما قبلها من الوعد الكريم وليس هذا مجرد تأكيد للأمر بالذهاب لأن معناه الوصول إلى المآتى لا مجرد التوجه إليه كالذهاب وإفراد الرسول إما باعتبار رسالة كل منهما أو لاتحاد مطلبهما أو لأنه مصدر وصف به وأن في قوله تعالى ﴿أن أرسل معنا بنى إسرائيل﴾ مفسرة لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول ومعنى إرسالهم تخليتهم وشأنهم ليذهبوا معهم إلى الشام ﴿قال﴾ أى فرعون لموسى عليه السلام بعد ما أتياه وقال له ما أمرا به يروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب إن ههنا إنسانا يزعم أنه رسول رب العالمين فقال ائذن له لعلنا نضحك فأديا إليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام فقال عند ذلك :

﴿ألم نريك فينا﴾ فى حجرنا ومنازلنا ﴿وليدا﴾ أى طفلا عبر عنه بذلك القريب عهده بالولادة ﴿ولبثت فينا من عمرك سنين﴾ قيل لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدين وأقام بها عشر سنين ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله عز وجل ثلاثين سنة ثم بقى بغير الفرق خمسين سنة وقيل وكز القبطى وهو ابن اثنتى عشرة سنة وفر منهم على أثر ذلك والله أعلم ﴿وفعلت فعلتكم التى فعلت﴾

يعنى قتل القبطى بعد ما عدد عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال وبخه بما جرى عليه من قتل خبازه وعظم ذلك وفضله وقرىء فعملتك بكسر الفاء لأنها كانت نوعا من القتل ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ أى بنعمتى حيث عمدت إلى قتل رجل من خواصى أو أنت حينئذ بمن تكفرهم الآن وقد افترى عليه عليه الصلاة والسلام أو جهل أمره عليه الصلاة والسلام حيث كان يعايشهم بالثقية وإلا فأين هو عليه الصلاة والسلام من مشاركتهم فى الدين فالجمله حينئذ حال من إحدى التائين ويجوز أن يكون حكما مبتدأ عليه بأنه من الكافرين يالهيه أو من يكفرون فى دينهم حيث كانت لهم آلهة يعبدونها أو من الكافرين بالنعم المعتادين لنعمتها ومن اعتاد ذلك لا يكون مثل هذه الجناية بدعا منه ﴿ قال ﴾ مجيئاً له مصداقاً له فى القتل ومكذبا فيما نسب له من الكفر ﴿ فعلتها إذا وأنا من الضالين ﴾ أى من الجاهلين وقد قرىء كذلك لا من الكافرين كما زعمت افتراء أى من الفاعلين فعل الجلالة والسفاهة أو من المخطئين لأنه لم يتمدد قتله بل أراد تأديبه أو للذاهبين عما يؤدى إليه الوكر أو الناسين كقوله تعالى ( أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ) ﴿ ففقرت منكم ﴾ إلى ربى ﴿ لما خفتم ﴾ أن تصيبوا فى بعضه فتؤذوا أنفسكم بما لا يستحقه بجائيتى من العقاب ﴿ فوهب لى ربى حكما ﴾ أى حكمة أو نبوة ﴿ وجعلنى من المرسلين ﴾ رد أولا بذلك ما وبخه به قديحا فى نبوته ثم كبر على ما عده عليه من النعمة ولم يصرح برده حيث كان صدقا غير قادح فى دعواه بل به على أن ذلك كان فى الحقيقة نعمة فقال :

﴿ وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ﴾ أى تلك الثرية نعمة تمن بها على ظاهرا وهى فى الحقيقة تعييدك بنى إسرائيل وقصدك لإيادهم بذبح أبنائهم فإنه السبب فى وقوعى عندك وحصولى فى تربيتك وقيل لأنه مقدر بهجرة الإنكار أى أو تلك نعمة تمنها على وهى أن عبدت بنى إسرائيل وعمل أن عبدت الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو بدل من نعمة أو الجبر بإضمار الباء أو النهى بحذفها وقيل تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مهمة وأن عبدت عجاف بيان لها والمعنى



تعيذك بنى إسرائيل نعمة تمنها على وتوحيد الخطاب في تمنها وجمعه فيها قبله لأن  
 المنة منه خاصة والخوف والفرار منه ومن ملته ﴿ قال فرعون ﴾ لبا سميع منه  
 عليه الصلاة والسلام تلك المقالة المتينة وشاهد تصلبه في أمره وعدم تأثره بما  
 قدمه من الإبراق والإرعاد شرع في الاعتراض على دعواه عليه الصلاة والسلام  
 فبدأ بالاستفسار عن المرسل فقال ﴿ وما رب العالمين ﴾ حكاية لما وقع في عبارته  
 عليه الصلاة والسلام أى شئ رب العالمين الذى ادعيت أنك رسوله منكرا  
 لأن يكون للعالمين رب سواه حسبما يعرب عنه قوله أنار بكم الأعلى وقوله  
 ما علمت لكم من إله غيرى وينطق به وعيده عند تمام أجوبته عليه الصلاة  
 والسلام ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام يجيبا له ﴿ رب السموات والأرض  
 وما بينهما ﴾ بتعيين ما أراد بالعالمين وتفصيله لزيادة التحقيق والتقرير وحسم  
 مادة تزوير اللعين وتشكيكه بحمل العالمين على ما تحت مملكته ﴿ إن كنتم  
 موقنين ﴾ أى إن كنتم موقنين بالأشياء محققين لما علمتم ذلك أو إن كنتم موقنين  
 بشئ من الأشياء فهذا أولى بالإيقان لظهوره وإثارة دليله ﴿ قل ﴾ أى فرعون  
 عند سماع جوابه عليه الصلاة والسلام خوفا من تأثيره في قلوب قومه وإذعانهم  
 له ﴿ لمن حوله ﴾ من أشراف قومه قال ابن عباس رضى الله عنهما خمسمائة عليهم  
 الأساور وكانت للملوك خاصة .

﴿ ألا تستمعون ﴾ مرثيا لهم أن ما سمعوه من جوابه عليه الصلاة والسلام  
 مع كونه بما لا يليق بأن يتعجب منه كأنه قال ألا تستمعون ما يقوله فاستمعوه  
 وتعجبوا منه حيث يدعى خلاف أمر محقق لا اشتباه فيه يريد به ربوبية نفسه  
 ﴿ قال ﴾ عليه الصلاة والسلام تنزيها بما كان مندوبا تحت جوابيه السابقين  
 ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ وخطأ له من ادعاء الربوبية إلى مرتبة الربوبية  
 ﴿ قال ﴾ أى فرعون لما واجهه موسى عليه السلام بما ذكر غلظه ذلك وخالفه  
 من تأثر قومه به فأنهم أن ما قاله عليه الصلاة والسلام بما لا يصدر عن العقلاء  
 صدقهم عن النبوة فقال مؤكدا لمقالته الستماء بحرفي التأكيد ﴿ إن رسولى لكم  
 الذى أرسل إليكم يحقون ﴾ ليقيمهم بذلك ويصرفهم عن قبول الحق وإسماء

رسولا بطريق الاستهزاء وأضافه إلى مخاطبيه ترفعا من أن يكون مرسلا إلى نفسه ﴿ قال ﴾ عليه الصلاة والسلام ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما ﴾ قاله عليه الصلاة والسلام تسكيلا لجوابه الأول وتفسيرا له وتنبيها على جهلهم وعدم فهمهم لمعنى مقالته فإن بيان ربوبيته تعالى للسماوات والأرض وما بينهما وإن كان متضمنا إيمان ربوبيته تعالى للخافقين وما بينهما لكن لما لم يكن فيه تصريح بإستناد حركات السماوات وما فيها وتغيرات أحوالها وأوضاعها وكون الأرض تارة مظلمة وأخرى منورة إلى الله تعالى أرشدهم إلى طريق معرفة ربوبيته تعالى لما ذكر فإن ذكر المشرق والمغرب منبئ عن شروق الشمس وغروبها المنوطين بحركات السماوات وما فيها على نمط بديع يترتب عليه هذه الأوضاع الرصينة وكل ذلك أمور حادثة مفتقرة إلى محدث قادر عليم حكيم لا كذوات السماوات والأرض التي يتوهم جهلة المتوهمين باستمرارها استغناءها عن الموحد المنصرف ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ أى إن كنتم تعقلون شيئا من الأشياء أو إن كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلته وفيه إيدان بغاية وضوح الأمر بحيث لا يشتبه على من له عقل في الجملة وتلويح بأنهم بمعزل من دائرة العقل وأنهم المتصفون بما رموه عليه الصلاة والسلام به من الجنون .

﴿ قال ﴾ لما سمع اللعين منه عليه الصلاة والسلام تلك المقالات المبينة على أساس الحكم البالغة وشاهد شدة حزمه وقوة عزمه على تمشية أمره وأنه عن لا يجارى في حلبة المحاوره ضرب صفحا عن المفاولة بالانصاف ونأى بجانبه إلى عدوة الجور والاعتساف فقال مظهرا لما كان يضمرة عند السؤال والجواب ﴿ لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ لم يقتنع عليه الصلاة والسلام بترك دعوى الرسالة وعدم التعرض له حتى كلفه عليه الصلاة والسلام أن يتخذة إلها لغاية عتوه وغلوه فيما فيه من دعوى الألوهية وهذا صريح في أن تعجبه وتعجيبه من الجواب الأول ونسبته عليه الصلاة والسلام إلى الجنون في الجواب الثانى كان لنسبته عليه الصلاة والسلام الربوبية إلى غيره وأما ما قيل من أن ( ١٤ - أبو السعود - رابع )

سؤاله كان عن حقيقة المرسل وتعجبه من جوابه كان لعدم مطابقته له لكونه يذكر أحواله فلا يساعده النظم الكريم ولا حال فرعون ولا مقاله واللام في المسجونين للعهد أى لأجعلنك ممن عرفت أحوالهم في سجونى حيث كان يطرحهم في هوة عميقة حتى يموتوا ولذلك لم يقل لأبجنتك .

(قال أولو جنتك بشئ مبين) أى أنفعل بى ذلك ولو جنتك بشئ مبين أى موضح لصدق دعواى يريد به المعجزة فإنها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده والتعبير عنها بالشئ للتحويل قالوا الواو فى أولو جنتك للحال دخلت عليها همزة الاستفهام أى جانيا بشئ مبين وقد سلف منا مراراً أنها للعطف وأن كلمة لو ليست لانتفاء الشئ فى الزمان الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف تعويلاً على دلالة ما قبلها عليه ملاحظة قصدية إلا عند القصد الى بيان الإعراب على القواعد الصناعية بل هى لبيان تحقق ما يفيد الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدّها منافاة له ليظهر بثبوتها أو انتفائها معه ثبوتها وانتفائها مع ما عداها من الأحوال بطريق الأولوية لما أن الشئ متى تحقق مع المتأنى القوى فلا ن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شئ من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر العاطف للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الأحوال المتغيرة لها عند تعددها ليظهر ما ذكر من تحقق الحكم على جميع الأحوال فإنك إذا قلت فلان جواد يعطى ولو كان فقيراً تريد بيان تحقق الإعطاء منه على كل حال من أحواله المفروضة فنلتك الحكم بأبعدها منه ليظهر بتحقيقه معه تحققه مع ما عداها من الأحوال التى لا منافاة بينها وبين الحكم بطريق الأولوية المصححة للاكتفاء بذكر العاطف عن تفصيلها كأنك قلت فلان جواد يعطى لو لم يكن فقيراً ولو كان فقيراً أى يعطى حال كونه فقيراً فالحال فى الحقيقة كلتا الجملتين المتعاطفتين لا المذكورة على أن الواو للحال وتصدير المجرى بما ذكر من كلمة لو دون أن ليس لبيان استبعاده فى نفسه بل

بالنسبة إلى فرعون والمعنى أنفعل في ذلك حال عدم مجيئ بشيء مبين وحال مجيئ به  
 ﴿قال فأت به إن كنت من الصادقين﴾ أي فيما يدل عليه كلامك من أنك تأتي بشيء  
 مبين موضح لصدق دعواك أو في دعوى الرسالة وجواب الشرط المحذوف لدلالة  
 ما قبله عليه ﴿فأتني عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ أي ظاهر ثعبانيته لا أنه شيء  
 يشبهه واشتقاق الثعبان من ثعب الماء فانتعب أي فجرته فأنفجر وقد مر بيان كيفية  
 الحال في سورة الأعراف وسورة طه ﴿ونزع يده﴾ من جيبه ﴿فإذا هي بيضاء  
 للناظرين﴾ قيل لما رأى فرعون الآية الأولى وقال هل لك غيرها فأخرج  
 يده فقال ما هذه قال فرعون يدك فما فيها فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولهاشاعاع  
 يكاد يغشى الأبصار ويسد الأفق .

﴿قال للبلا حوله﴾ أي مستقرين حوله فهو ظرف وقع موقع الحال  
 ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ فائق في فن السحر ﴿يريد أن يخرجكم﴾ قسرا ﴿من  
 أرضكم بسحره فإذا تأمرون﴾ بهر سلطان المعجزة وحيه حتى حطه عن ذروة  
 ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبيده في زعمه والامتنال بأمرهم أو إلى  
 مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعد ما كان مستقلا في الرأي والتدبير وأظهر  
 استتعار الخوف من استيلائه على ملكه ونسبة الإخراج والأرض إليهم  
 لتفجيرهم عن موسى عليه السلام ﴿قالوا أرجه وأخاه﴾ أخر أمرهما وقيل  
 أحبسهما ﴿وابعد في المدائن حاشرين﴾ أي شرطا يحشرون السحرة ﴿يأتوك﴾  
 أي العاشرون ﴿بكل سحار عليم﴾ فائق في فن السحر وقرىء بكل ساحر  
 ﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾ هو ما عينه موسى عليه السلام بقوله  
 موعدهم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون﴾  
 قيل لهم ذلك استبطاء لهم في الاجتماع وحثا لهم على المبادرة إليه ﴿لعلنا تتبع  
 السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾ أي تتبعهم في دينهم إن كانوا هم الغالبين لا موسى  
 عليه السلام وليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة وإنما هو أن لا يتبعوا  
 موسى عليه السلام لكنهم ساقوا كلامهم مساق الكشاية حملا لهم على الاهتمام  
 والجد في المغالبة ﴿فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا﴾ أي أجرا

عظيما ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ لَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ لَكُمْ ذَلِكَ. ﴿وَلَا أَنْتُمْ﴾ مَعَ ذَلِكَ ﴿إِذَا لَمْ يَأْتِ الْمُقْرِبِينَ﴾ عِنْدِي قِيلَ قَالَ لَهُمْ تَكُونُونَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ عَلَى وَآخِرَ مَنْ يَخْرُجُ عَنِّي وَقَرَأَ نَعَمْ بِكُسر الْعَيْنِ وَهَمَا لَفْتَانِ ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى﴾ أَيْ بَعْدَ مَا قَالَ لَهُ السَّحْرَةُ إِمَّا أَنْ تَلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ وَلَمْ يَرِدْ بِهِ الْأَمْرُ بِالسَّحَرِ وَالْتِمُوهِ بَلِ الْإِذْنُ فِي تَقْدِيمِ مَا هُمْ فَاعِلُوهُ الْبَتَةَ تَوْسِلًا بِهِ إِلَى إظهارِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ ﴿فَالْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَهُمْ وَقَالُوا﴾ أَيْ وَقَدْ قَالُوا عِنْدَ الْإِلْقَاءِ ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ قَالُوا ذَلِكَ لِفِرْطِ اعْتِقَادِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَلَيْسَانَهُمْ بِأَتَصَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يُؤْتَى بِهِ مِنَ السَّحَرِ .

﴿فَالْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أَيْ تَتَلَقَّ بِسُرْعَةٍ وَقَرَأَ تَلْقَفُ بِحَذْفِ إِحْدَى التَّامِينَ مِنْ تَتَلَقَّفُ ﴿مَا يَأْفَكُونَ﴾ أَيْ مَا يَقْبَلُونَهُ مِنْ وَجْهِهِ وَصُورَتُهُ بِنُمُوهِمْ وَتَزَوُّدِهِمْ فَيُخِيلُونَ حِبَالَهُمْ وَعَصِيَهُمْ أَنَّهَا حَيَاتٌ تَسْمَى أَوْ لَفَكُهُمْ تَسْمِيَةً لِلْمَافُوكِ بِهِ مِبَالِغَةً ﴿فَالْقَى السَّحْرَةُ سَاجِدِينَ﴾ أَيْ أَثَرُ مَا شَاهَدَا وَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَلْعَمٍ وَتَرَدُّدٍ غَيْرِ مِمَّا لَكِنَّهُ كَانَ مُلْقِيَا أَلْقَاهُمَا لَعَلَّهُمْ بِأَنْ مِثْلَ ذَلِكَ خَارِجٌ عَنْ حُدُودِ السَّحَرِ وَأَنَّهُ أَمْرٌ لِلَّهِ قَدْ ظَهَرَ عَلَى يَدِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِتَصْدِيقِهِ وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ قَصَارَى مَا يَنْتَهَى إِلَيْهِ هَمُّ السَّحَرَةِ هُوَ التَّمُوهُ وَالتَّزْوِيرُ وَتُخْيِيلُ شَيْءٍ لَا حَقِيقَةَ لَهُ ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بَدَلَ اشْتِمَالٍ مِنَ أَلْقَى أَوْ حَالٍ بِاضْمَارٍ قَدْ وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ بَدَلَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِلتَّوْضِيحِ وَدَفْعِ تَوْهْمِ إِرَادَةِ فِرْعَوْنَ حَيْثُ كَانَ قَوْمُهُ الْجَهْلَةُ يَسْمُونَهُ بِذَلِكَ وَلِلْإِشْعَارِ بِأَنَّهُ الْمَوْجِبُ لِلِإِيْمَانِهِمْ بِهِ تَعَالَى مَا أَجْرَاهُ عَلَى أَيْدِيهِمَا مِنَ الْمَعْجَزَةِ الْقَاهِرَةِ .

﴿قَالَ﴾ أَيْ فِرْعَوْنَ لِلْسَّحَرَةِ ﴿أَنْتُمْ لَهُ قَبْلُ أَنْ أَدْخُلَ لَكُمْ﴾ أَيْ بَغَيْرِ أَنْ أَدْخُلَ لَكُمْ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (لَنُفِذَ الْبَحْرَ قَبْلَ أَنْ تَنْفِذَ كَلِمَاتِي) لَا أَنَّ الْإِذْنَ مِنْهُ مُمْكِنٌ أَوْ مُتَوَقَّعٌ ﴿لَئِنْ لَكِبِركُمْ الَّذِي عَلِمْتُمْ السَّحَرِ﴾ فَتَوَاطَأْتُمْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ أَوْ غَلَبْتُمْ شَيْئًا دُونَ شَيْءٍ فَلِذَلِكَ غَلَبَكُمْ أَرَادَ بِذَلِكَ التَّلْبِيسَ عَلَى قَوْمِهِ كَيْلًا يَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ آمَنُوا عَنْ بَصِيرَةٍ وَظُهُورِ حَقِّ وَقَرَأَ أَمْ أَنْتُمْ بِهَمْزَيْنِ ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

أَيُّ وَيَالِ مَا فَعَلْتُمْ وَقَوْلُهُ ﴿لَا فُطِنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صُلِبَ بَنُوكُمْ﴾ (تُجْمَعُونَ) بَيَانٌ لِمَا أَوْعَدَهُمْ بِهِ ﴿قَالُوا﴾ أَيْ السَّحَرَةُ ﴿لَا ضَيْرَ﴾ لَا ضَرَرٌ فِيهِ عَلَيْنَا وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ تَعْلِيلٌ لِعَدَمِ الضَّرَرِ أَيْ لَا ضَيْرَ فِي ذَلِكَ بَلْ لَنَا فِيهِ نَفْعٌ عَظِيمٌ لِمَا يَحْصُلُ لَنَا فِي الصَّبْرِ عَلَيْهِ لَوْ جَهِدَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ تَكْفِيرِ الْخَطَايَا وَالثَّوَابِ الْعَظِيمِ أَوْ لَا ضَيْرَ عَلَيْنَا فِيمَا تَتَوَعَّدُنَا بِهِ مِنْ الْقَتْلِ أَنَّهُ لَا بَدْلَ لَنَا مِنَ الْإِقْلَابِ إِلَىٰ رَبِّنَا بِسَبَبِ مِنْ أَسْبَابِ الْمَوْتِ وَالْقَتْلِ أَهْوَتْهَا وَأَرْجَاهَا وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا﴾ أَيْ لِأَنَّ كُنَّا ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ مِنْ أَتْبَاعِ فِرْعَوْنَ أَوْ مِنْ أَهْلِ الْمَشْهَدِ تَعْلِيلٌ ثَانٍ لِنَقْيِ الضَّرَرِ أَيْ لَا ضَيْرَ عَلَيْنَا فِي قَتْلِكَ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا لَكُونْنَا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ وَقُرِئَ إِنَّ كُنَّا عَلَى الشَّرْطِ لَهْضَمِ النَّفْسِ وَعَدَمِ الثِّقَةِ بِالْخَاتِمَةِ أَوْ عَلَى طَرِيقَةِ قَوْلِ الْمَدْلِ بِأَمْرِهِ كَقَوْلِ الْعَامِلِ الْمُسْتَأْجَرِ آخِرَ أَجْرِهِ إِنْ كُنْتَ عَمِلْتَ لَكَ فَوْفَى حَقِّي ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعَبَادِي﴾ وَذَلِكَ بَعْدَ بَضْعِ سَنِينَ أَقَامَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَيُظَاهِرُ لَهُمُ الْآيَاتِ فَلَمْ يَزِيدُوا إِلَّا عِتْوًا وَعِنَادًا حَسْبَمَا فَصَلَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ) الْآيَاتِ وَقُرِئَ بِكُسْرِ النُّونِ وَوَصَلَ الْأَلْفُ مِنْ سَرَى وَقُرِئَ أَنْ سَرَّ مِنَ السَّيْرِ ﴿لَا تَكُمُ مَتَّبِعُونَ﴾ تَعْلِيلٌ لِلْأَمْرِ بِالْإِسْرَاءِ أَيْ يَتَّبِعُكُمْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودُهُ مَهْبُوعِينَ فَأَسْرَ بِمَنْ مَعَكَ حَتَّى لَا يَدْرُكُوكُمْ قَبْلَ الْوُصُولِ إِلَى الْبَحْرِ فَيَدْخُلُوا مَدَاخِلَكُمْ فَأُطْبِقُهُ عَلَيْهِمْ فَأَغْرَقَهُمْ ﴿فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ﴾ حِينَ أَخْبَرَ بِمَسِيرِهِمْ ﴿فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ جَامِعِينَ لِلْعَسَاكِرِ لِيَتَّبِعُوهُمْ ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ﴾ يَرِيدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿لَشَرِذْمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ اسْتَغْلَبَهُمْ وَهُمْ سِتْمَانَةُ أَلْفٍ وَسَبْعُونَ أَلْفًا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ جُنُودِهِ لِأَذْرَوْهُ أَرْسَلَ فِي أَثَرِهِمْ أَلْفٌ وَخَمْسِمِائَةُ حَمَلِكُ مَسُورٍ مَعَ كُلِّ مَلِكٍ أَلْفٌ وَخَرَجَ فِرْعَوْنَ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ وَكَانَتْ مَقْدَمَتُهُ سَبْعِمِائَةَ أَلْفٍ رَجُلٍ عَلَى حِمَاةٍ وَعَلَى رَأْسِهِ بَيْضَةٌ وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا خَرَجَ فِرْعَوْنَ فِي أَلْفٍ أَلْفٍ حِمَاةٍ سِوَى الْإِنَاثِ ﴿وَلَا نَهْمُ لَنَا لِنَاظِرُونَ﴾ أَيْ فَاغْلِبُوا مَا يَغِيظُنَا .

﴿وَلَا نَجْمُ حَافِرُونَ﴾ يَرِيدُ أَنَّهُمْ لَقَلَّتْهُمْ لَا يَبَالِي بِهِمْ وَلَا يَتَوَقَّعُ غَلِبَتَهُمْ

وعلوم ولسكنهم يفعلون أفعالا تفيظنا وتضيق صدورنا ونحن قوم من عاداتنا  
التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور فإذا خرج علينا سارعنا إلى إطفاء  
ثائرة فساد هذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من  
قهره وساطانه وقرىء حذرون فالأول دال على التجدد والثاني على الثبات وقيل  
الحاذر المؤدى في السلاح وقرىء حادرون بالدال المهمل أي أقوياء وأشداء وقيل  
مدججون في السلاح قد أكسبهم ذلك حذارة في أجسامهم ﴿فأخرجناهم﴾ بأن  
خلقنا فيهم داعية الخروج بهذا السبب فحملتهم عليهم ﴿من جنات وعيون  
وكنوز ومقام كريم﴾ كانت لهم جملة ذلك ﴿كذلك﴾ إمام صدر تشبيهي لأخرجنا  
أي مثل ذلك الإخراج العجيب أخرجناهم أو صفة لمقام كريم أي من مقام كريم  
كأن كذلك أو خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك ﴿وأورثناها بني إسرائيل﴾  
أي ملكناها لإيهم على طريقة تملك مال المورث للوارث كأنهم ملكوها من  
حين خروج أربابها منها قبل أن يقبضوها ويتسلطوها ﴿فاتبعوهم﴾ أي فلاحقوهم  
وقرىء فاتبعوهم ﴿مشرقين﴾ داخلين في وقت شروق الشمس أي طالعها  
﴿فلما تراءى الجمعان﴾ تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر وقرىء تراءى  
الغشتان ﴿قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾ جاؤا بالجملة الاسمية مؤكدة بحرفي  
التأكيد للدلالة على تحقق الإدراك واللاحق وتمجزهما وقرىء لمدركون بتشديد  
الدال من إدراك الشيء إذا تابع ففنى أي لمتابعون في الهلاك على أيديهم ﴿قال  
كلا﴾ ارتدعوا عن ذلك فإنهم لا يدركونكم ﴿إن معي ربي﴾ بالنصرة والهداية  
﴿سهيدين﴾ البتة إلى طريق النجاة منهم بالسكينة روى أن يوشع عليه السلام  
قال يا كلم الله أين أمرت فقد غشنا فرعون والبحر أمامنا قال عليه السلام ههنا غاض  
يوشع عليه السلام الماء وضرب موسى عليه السلام بعصاه البحر فسكان ما كان  
وروى أن مؤمنا من آل فرعون كان بين يدي موسى عليه السلام فقال أين  
أمرت بهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون قال عليه السلام أمرت بالبحر  
ولعل أومر بما أصنع فأمر بما أمر به وذلك قوله تعالى ﴿فأوحينا إلى موسى أن  
اضرب بعصاك البحر﴾ القلزم أو النيل ﴿فانفلق﴾ الغاء فصيحة أي فضرب

فانفلق فصار اثني عشر فرقا بعدد الأسباط يبنهن مسالك ﴿ فكان كل فرق ﴾ حاصل بالانفلاق ﴿ كالطود العظيم ﴾ كالجبل المنيف الثابت في مقره فدخلوا في شعابها كل سبط في شعب منها ﴿ وأزلقنا ﴾ أى قربنا ﴿ ثم الآخرين ﴾ أى فرعون وقومه حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم.

﴿ وأنجيناه موسى ومن معه أجمعين ﴾ بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا إلى البر ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ بإطباقه عليهم ﴿ إن في ذلك ﴾ أى في جميع ما فصل مما صدر عن موسى عليه السلام وظهر على يديه من المعجزات القاهرة وما فعل فرعون وقومه من الأقوال والأفعال وما فعل بهم من العذاب والنكال وما في اسم الإشارة من معنى البعد لتحويل أمر المشار إليه وتفضيحه كتذكير الآية في قوله تعالى ﴿ لآية ﴾ أى آية آية أو آية عظيمة لا تكاد توصف موجبة لأن يعتبر بها المعتبرون ويقيسوا شأن النبي عليه الصلاة والسلام بشأن موسى عليه السلام وحال أنفسهم بحال أولئك المهلكين ويحذرون تعاطى ما كانوا يتعاطونه من الكفر والمعاصي ومخالفة الرسول ويؤمنوا بالله تعالى ويعطيوا رسوله كيلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك أو أن فيما فصل من القصة من حيث حكايته عليه الصلاة والسلام إياها على ما هي عليه من غير أن يسمعها من أحد لآية عظيمة دالة على أن ذلك بطريق الوحي الصادق موجبة للإيمان بالله تعالى وحده وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ وما كان أكثرهم ﴾ أى أكثر هؤلاء الذين سمعوا قصتهم منه عليه الصلاة والسلام ﴿ مؤمنين ﴾ لا بأن يقبسوا شأنه بشأن موسى عليهما السلام وحال أنفسهم بحال أولئك المكذبين المهلكين ولا بأن يتدبروا في حكايته عليه الصلاة والسلام لقصتهم من غير أن يسمعها من أحد مع كون كل من الطريقين مما يؤدي إلى الإيمان قطعاً ومعنى ما كانت أكثرهم مؤمنين على أن كان زائدة كما هو رأى سيمويه فيكون كقوله تعالى ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وهو إخبار منه تعالى بما سيكون من المشركين بعد ما سمعوا الآيات للناطقة بالقصة تقريراً لما مر من قوله تعالى ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا ﴾ الخ



وإثبات الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على عدم الإيمان واستمرارهم عليه ويجوز أن يجعل كان بمعنى صار كما فعل ذلك في قوله تعالى (وكان من الكافرين) فالمعنى وما صار أكثرهم مؤمنين مع ما سمعوا من الآية العظيمة الموجهة له بما ذكر من الطريقتين فيكون الإخبار بعدم الصيرورة قبل الحدوث للدلالة على كمال تحققه وتقرره كقوله تعالى (أتى أمر الله) الآية ﴿ولأن ربك لهو العزيز﴾ الغالب على كل ما يريده من الأمور التي من جملتها الانتقام من المكذابين ﴿الرحيم﴾ المبالغ في الرحمة ولذلك يمهّلهم ولا يعجل عقوبتهم بعدم إيمانهم بعد مشاهدة هذه الآية العظيمة بطريق الوحي مع كمال استحقاقهم لذلك هذا هو الذي يقتضيه جزالة النظم الكريم من مطلع السورة الكريمة الى آخر القصص السبع بل الى آخر السورة الكريمة اقتضاء بينا لا ريب فيه وأما ما قيل من أن ضمير أكثرهم لأهل عصر فرعون من القبط وغيرهم وأن المعنى وما كان أكثر أهل مصر مؤمنين حيث لم يؤمن منهم إلا آسية وحزقيل ومريم ابنة ياموشا التي دلت على تابوت يوسف عليه السلام وبنو إسرائيل بعد ما نجوا سألوا بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وقالوا لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة فبمعزل من التحقيق كيف لا ومساق كل قصة من القصص الواردة في السورة الكريمة سوى قصة إبراهيم عليه السلام إنما هو لبيان حال طائفة معينة قد عتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله عليهم الصلاة والسلام كما يفصح عنه تصدير القصص بتكذيبهم المرسلين بعد ما شاهدوا بأيديهم من الآيات العظام ما يوجب عليهم الإيمان ويزجرهم عن الكفر والعصيان وأصروا على ما هم عليه من التكذيب فعاقبهم الله تعالى لذلك بالعقوبة الدنيوية وقطع دابرهم بالكيفية فكيف يمكن أن يخبر عنهم بعدم إيمان أكثرهم لاسيما بعد الإخبار بإهلاكم وعد المؤمنين من جملتهم أو لا وإخراجهم منها آخرها مع عدم مشاركتهم لهم في شيء مما حكي عنهم من الجنائيات أصلا مما يوجب تنزيه التنزيل عن أمثاله فتدبر .

﴿واتل عليهم﴾ عطف على المضمرة المقدر عاملا لإذ نادى الخ أى واتل  
 ﴿نبأ إبراهيم﴾ أى خبره العظيم الشأن حسبما أوحى إليك لتتقف

على ما ذكر من عدم إيمانهم بما يأتيهم من الآيات بأحد الطريقين ( إذ قال ) منصوب إما على الظرفية للنبا أى نبأه وقت قوله ( لآييه وقومه ) أى على المفعولية لآتل على أنه بدل من نبأ أى واتل عليهم وقت قوله لهم ( ما تعبدون ) على أن المتلو ما قاله لهم في ذلك الوقت سألهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك ليبنى على جوابهم أن ما يعبدونه بمعزل من استحقاق العبادة بالسكية ( قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ) لم يقتصر على الجواب الكافي بأن يقولوا أصناما كما في قوله تعالى ( ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ) وقوله تعالى ( ماذا أنزل ربكم قالوا الحق ) ونظائرهما بل أطنبوا فيه بإظهار الفعل وعطف دوام عكوفهم على أصنامهم قصدا إلى إبراز مافى نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك والمراد بالظلول الدوام وقيل كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل وصلة العكوف كلمة على وإيراد اللام لإفادة معنى زائد كأنهم قالوا فنظل لأجلها مقبلين على عبادتها أو مستديرين حولها وهذا أيضا من جملة إطنابهم ( قال ) استئناف مبنى على سؤال نشأ من تفصيل جوابهم ( هل يسمعونكم ) أى هل يسمعون دعاءكم على حذف المضاف أو يسمعونكم تدعون كقولك سمعت زيدا يقول كيت وكيت فحذف لدلالة قوله تعالى ( إذ تدعون ) عليه وقرىء هل يسمعونكم من الإسماع أى هل يسمعونكم شيئا من الأشياء أو الجواب عن دعائكم وهل يقدر على ذلك وصيغة المضارع من إذ على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها كأنه قيل لهم استحضروا الأحوال الماضية التي كنتم تدعونها فيها وأجيبوا هل سمعوا أو أسمعوا قط ( أو ينفعونكم ) بسبب عبادتكم لها ( أو يضررونكم ) أى يضررونكم بترككم لعبادتها إذ لا بد للعبادة لا سيما عند كونها على ما وصفتم من المبالغة فيها من جلب نفع أو دفع ضرر ( قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ) اعترفوا بأنها بمعزل مما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرء واضطروا إلى إظهار أن لا سند لهم سوى التقليد أى ما علمنا أو ما رأينا منهم ما ذكر من الأمور بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون أى مثل عبادتنا يعبدون فاعتدنا بهم ( قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ) أى أنظروا فابصروا أو أناملتم

فعلتم ما كنتم تعبدونه ﴿ أنتم وآبائكم الأقدمون ﴾ حق الإبصار أو حق العلم وقوله ﴿ فإنهم عدوى ﴾ بيان لحال ما يعبدونه بعد التنبية على عدم علمهم بذلك أى فاعلموا أنهم أعداء لعابديهم الذين يحبونهم كحب الله تعالى لما أنهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه أو لأن من يغريهم على عبادتهم ويملمهم عليها هو الشيطان الذى هو أعدى عدو الإنسان لكنته عليه الصلاة والسلام صوره الأمر فى نفسه تعريضا بهم فإنه أنفع فى النصيحة من التصريح وإشعارا بأننا نصيحة بدأ بها نفسه ليكون ادعى إلى القبول والعدو والصديق يمحى فى معنى الواحد والجمع ومنه قوله تعالى (وهم لكم عدو) شها بالمصادر للموازنة كالقبول والولوع والحنين والصهيل ﴿لأرب العالمين﴾ استثناء منقطع أى لكن رب العالمين ليس كذلك بل هو ولي فى الدنيا والآخرة لا يزال يفضل على بمنافعهما حسبما يعرب عنه ما وصفه تعالى به من أحكام الولاية وقيل متصل وهو قول الزجاج على أن الضمير لكل معبود وكان من آباءهم من عبد الله تعالى وقوله تعالى ﴿ الذى خلقنى ﴾ صفة لرب العالمين وجعله مبتدأ وما بعده خبرا غير حقيق بجزالة التنزيل وإنما وصفه تعالى بذلك وبما عطف عليه مع اندراج الكل تحت ربوبيته تعالى للعالمين تصريحاً بالنعم الخاصة به عليه الصلاة والسلام وتفصيلاً لها لكونها أدخل فى اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى وقصر الانتجاع فى جلب المنافع الدينية والدنيوية ودفع المضار العاجلة والآجلة عليه تعالى ﴿ فهو يهدين ﴾ أى هو يهدين وحده إلى كل ما يهمنى ويصلحنى من أمور الدين والدنيا هداية متصلة بمحيم الخلق ونفخ الروح منجددة على الاستمرار كما ينبى عنه الفاء وصيغة المضارع فإنه تعالى يهذى كل ما خلقه لما خلق له من أمور المعاش والمعاد هداية متدرجة من مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب منافعها ودفع مضارها إما طبعاً وإما اختياراً مبدؤها بالنسبة إلى الإنسان هداية الجنين لامتناس دم الطمث ومنتهائها الهداية إلى طريق الجنة والتنعيم بنعيمها المقيم ﴿ والذى هو يطعمنى ويسقنى ﴾ عطف على الصفة الأولى وتكرير الموصول فى المواقع الثلاثة مع كفاية عطف ما وقع فى حيز الصلة من الجمل الست على

صلة الموصول الأول للإيدان بأن كل واحدة من تلك الصلوات نعت جليل له تعالى مستقل في استيجاب الحكم حقيق بأن تجرى عليه تعالى بحياها ولا تجعل من روافد غيرها .

( وإذا مرضت فهو يشفين ) عطف على يطعمني ويسقين فظم معهما في سلك الصلة لموصول واحد لما أن الصحة والمرض من متفرعات الأكل والشرب غالبا ونسبة المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى مع أنهما منه تعالى لمراعاة حسن الأدب كما قال الخضر عليه السلام ( فأردت أن أعيبها ) وقال ( فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ) وأما الإمامة فحيث كانت من معظم خصائصه تعالى كالإحياء بدءا وإعادة وقد نيظت أمور الآخرة جميعا بها وبما بعدها من البعث فظمهما في سبط واحد في قوله تعالى ( والذي يمتني ثم يحمين ) على أن الموت لكونه ذريعة إلى نيله عليه الصلاة والسلام للحياة الأبدية بمعزل من أن يكون غير مطبوع عنده عليه الصلاة والسلام ( والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ) ذكره عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه وتعلما للأمة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم وتلافيا لما عسى ينذر منه عليه الصلاة والسلام من الصغائر وتنبها لأبيه وقومه على أن يتأملوا في أمرهم فيقفوا على أنهم من سوء الحال في درجة لا يقادر قدرها فإن حاله عليه الصلاة والسلام مع كونه في طاعة الله تعالى وعبادته في الغاية القاصية حيث كانت بتلك المثابة فما ظنك بحال أولئك المغمورين في الكفر وفنون المعاصي والخطايا وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث إني سقيم بل فعله كبيرهم وقوله لسارة هي أختي مما لاسيل إليه لأنها مع كونها معاريض لامن قبيل الخطايا المفتقرة إلى الاستغفار إنما صدرت عنه عليه الصلاة والسلام بعد هذه المقابلة الجارية بينه وبين قومه أما الثالثة فظاهرة لوقوعها بعد مهاجرته عليه الصلاة والسلام إلى الشام وأما الأوليان فلأنهما وقعتا مكشفتين بكسر الأصنام ومن الين أن جريان هذه المقالات فيما بينهم كان في مبادئ الأمر وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين مع

أنها إنما تغفر في الدنيا لأن أثرها يومئذ يتبين ولأن في ذلك تهويلا له وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه إن لم تغفر .

(رب هب لي حكما) بعد ما ذكر عليه الصلاة والسلام لهم فنون اللطاف الفائضة عليه من الله عز وجل من مبدأ خلقه إلى يوم بعثه حمله ذلك على مناجاته تعالى ودعائه لربط العتيد وجلب المزيد والحكم الحسنة التي هي السكال في العلم والعمل بحيث يتمكن به من خلافة الحق ورياسة الخلق (والحقني بالصالحين) ووفقني من العلوم والأعمال والملكات لما يرشحن للانتظام في زمرة الكاملين الراستخين في الصلاح المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها أو اجمع بيني وبينهم في الجنة ولقد أجابه تعالى حيث قال (ولأنه في الآخرة لمن الصالحين) (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) أي جاها وحسن صيت في الدنيا بحيث يبقى أثره إلى يوم الدين ولذلك لا ترى أمة من الأمم إلا وهي محبة له ومثنية عليه أو صادقا من ذريته يحدد أصل ديني ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه من التوحيد وهو النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك قال عليه الصلاة والسلام أنا دعوة أبي إبراهيم .

(واجعلني) في الآخرة (من ورثة جنة النعيم) وقد مر معنى الورثة في سورة مريم (واغفر لاني) بالهداية والتوفيق للإيمان كما يلوح به تعليله بقوله (لأنه كان من الضالين) أي طريق الحق وقد مر تحقيق المقام في تفسير سورة التوبة وسورة مريم بما لا مزيد عليه (ولا تخزني) بمعاتبتي على ما فرطت أو بنقص رتبتي عن بعض الوراث أو بتعذبي لحفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلا كل ذلك مبني على هضم النفس منه عليه الصلاة والسلام أو بتعذيب والدي أو بيعته في عداد الضالين بعدم توفيقه للإيمان وهو من الخزي بمعنى الهوان أو من الخزية بمعنى الحياء (يوم يبعثون) أي الناس كافة والإضمار قبل المذكور لما في عموم البعث من الشهرة الفاشية المغنية عنه وتخصيصه بالضالين عما يصلح بهتويل اليوم (يوم لا ينفع مال ولا بنون) بدل من يوم يبعثون جيء

به تأكيداً للتحويل وتمهيداً لما يعقبه من الاستثناء وهو من أعم المقاميل أى لا ينفع مال وإن كان مصروفاً في الدنيا إلى وجوه البر والخيرات ولا بنون وإن كانوا صلحاء مستأهلين للشفاعة أحداً .

(إلا من أتى الله بقلب سليم) أى عن مرض الكفر والنفاق ضرورة اشتراط نفع كل منهما بالإيمان وفيه تأكيد لكون استغفاره عليه الصلاة والسلام لأبيه طلباً لهدايته إلى الإيمان لاستحالة طلب مغفرته بعد موته كافرًا مع عليه الصلاة والسلام بعدم نفعه لأنه من باب الشفاعة وقيل هو استثناء من فاعل ينفع بتقدير المضاف أى الآمال من أو بنو من أتى الله الآية وقيل المضاف المحذوف ليس من جنس المستثنى منه حقيقة بل بضرب من الاعتبار كما في قوله « تحية بينهم ضرب وجميع » أى إلا حال من أتى الله بقلب سليم على أنها عبارة عن سلامة القلب كأنه قيل إلا سلامة قلب من أتى الله الآية وقيل المضاف المحذوف ما دل عليه المال والبنون من الغنى وهو المستثنى منه كأنه قيل يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله الآية لأن غنى المرء في دينه بسلامة قلبه وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لكن سلامة قلبه تنفعه (وأزلفت الجنة للمتقين) عطف على لا ينفع وصيغة الماضى فيه وفيما بعده من الجمل المنتظمة معه في سلك العطف للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره كما أن صيغة المضارع في المعطوف عليه للدلالة على استمرار انتفاء النفع ودوامه حسبما يقتضيه مقام التحويل والتمنيط أى قربت الجنة للمتقين عن الكفر والمعاصى بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم المحشورون إليها (وبرزت الجحيم للغاوين) الضالين عن طريق الحق الذى هو الإيمان والتقوى أى جعلت بارزة لهم بحيث يرونها مع ما فيها من أنواع الأحوال الهائلة ويوقنون بأنهم واقعوها ولا يجدون عنها مصرفاً (وقيل لهم أينما كنتم) فى الدنيا (تعبدون من دون الله) أى أين آلهتكم الذين كنتم ترمعون فى الدنيا أنهم شفعاؤكم فى هذا الموقف (هل ينصرونكم) بدفع العذاب عنكم (أو ينتصرون) يدفعه عن أنفسهم وهذا سؤال تقريرى وتبكيى لا يتوقع له جواب ولذلك قيل :

(فككبوا فيها) أى ألقوا فى الجحيم على وجوههم مرة بعد أخرى إلى أن يستقروا فى قمرها (هم) أى آلهتهم (والغاوون) الذين كانوا يعبدونهم وفى تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتكم رمز إلى أنهم يؤخرون عنها فى الكسبية . ليشاهدوا سوء حالها فيزدادوا غماً إلى غمهم (وجنود إبليس) أى شياطينه الذين كانوا يفرونهم ويوسوسون إليهم ويسولون لهم ما هم عليه من عبادة الأصنام وسائر فنون الكفر والمعاصي ليجتمعوا فى العذاب حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجبهم وقيل متبعوه من عصاة الثقلين والاول هو الوجه (أجمعون) تأكيد للضمير وما عطف عليه وقوله تعالى (قالوا) الخ استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية حالهم كأنه قيل ماذا قالوا حين فعل بهم ما فعل فقيل قال العبد (وهم فيها يختصمون) أى قالوا معترفين بخطئهم فى انهما كهم فى الضلالة متحسرين معبرين لأنفسهم والحال أنهم فى الجحيم بصدد الاختصاص مع من معهم من المذكورين مخاطبين لمعبودهم على أن الله تعالى يجعل الأصنام صالحة للاختصاص بأن يعطيها القدرة على الفهم والنطق (تالله إن كنا لنى ضلال مبين) إن مخفية من الثقلية قد حذف اسمها الذى هو ضمير الشأن واللام فارقة بينها وبين النافية أى أن الشأن كنا فى ضلال واضح لا خفاء فيه ووصفهم له بالوضوح للإشباع فى إظهار ندمهم وتحسرم وبيان عظم خطئهم فى رأيهم مع وضوح الحق كما ينبى عنه تصدير قسمهم بحرف التاء المشعرة بالتعجب وقوله تعالى (إذ نسويكم رب العالمين) ظرف لكونهم فى ضلال مبين وقيل لما دل عليه الكلام أى ضللنا وقيل للضلال المذكور وإن كان فيه ضعف صناعى من حيث أن المصدر الموصوف لا يعمل بعد الوصف وقيل ظرف لمبين وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية أى تالله لقد كنا فى غاية الضلال الفاحش فوقت تسويتنا إياكم أيها الأصنام فى استحقاق العبادة رب العالمين الذى أنتم أدنى مخلوقاته وأذلهم وأعجزهم وقولهم :

(وما أضلنا إلا المجرمون) بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره عنهم لكن لا على معنى قصر الإضلال على المجرمين دون من عداهم بل على معنى

قصر ضلالهم على كونه بسبب إضلالهم من غير أن يستقلوا في تحققه أو يكون بسبب إضلال الغير كأنه قيل وما صدر عنا ذلك الضلال الفاحش إلا بسبب إضلالهم والمراد بالمجرمين الذين أضلّوهم رؤساؤهم وكبراؤهم كما في قوله تعالى (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيلا) وعن السدي رحمه الله الأولون الذين اقتدوا بهم وأيا ما كان ففيه أوفر نصيب من التعريض للذين (قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) وعن ابن جريج لم يلبس وابن آدم القاتل لأنه أول من سن القتل وأنواع المعاصي ﴿فألنا من شافعين﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ولا صديق حميم﴾ كما نرى لهم أصدقاء أو فما لما من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنّا نعدّهم شفعا وأصدقاء على أن عدمهما كناية عن عداوتهما كما أن عدم المحبة في مثل قوله تعالى (والله لا يحب الفساد) كناية عن البغض حسبما ينبي عنه قوله تعالى (الاخلأ يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) أو وقعنا في مهلكة لا يخلصنا منها شافع ولا صديق على أن المراد بعدمهما عدم أثرهما وجمع الشافع لكثرة الشفعا عادة كما أن أفراد الصديق لقلته أو لصحة إطلاقه على الجمع كالعدو تشبيها لهما بالمصادر كالحنين والقبول وكلمة لو في قوله تعالى ﴿فلو أن لنا كرة﴾ للتمنى كليت لما أن بين معنيهما تلاقيا في معنى الفرض والتقدير كأنه قيل فليت لنا كرة أى رجعة إلى الدنيا وقيل هى على أصلها من الشرط وجوابه محذوف كأنه قيل فلو أن لنا كرة لفعلنا من الخيرات كيت وكيت وآباءه قوله تعالى ﴿فنكون من المؤمنين﴾ لتحتّم كونه جوابا للتمنى مفيدا لترتب إيمانهم على وقوع الكرة البتة فلا تخلف كما هو مقتضى حالهم وعطمه على كرة على طريقة اللبس عبادة وتقرعنى \* كما يستدعيه كون لو على أصلها إنما يفيد تحقق مضمون الجواب على تقدير تحقق كرتهم وإيمانهم معاً من غير دلالة على استلزام الكرة للإيمان أصلا مع أنه المقصود حتما ﴿إن في ذلك﴾ أى فيما ذكر من نبأ إبراهيم عليه السلام المشتمل على بيان بطلان ما كان عليه أهل مكة من عبادة الأصنام وتفصيل ما يؤول إليه أمر عبثتها يوم القيامة من اعترافهم بخطئهم الفاحش وندمهم



وتحسرهم على ما فاتهم من الإيمان وتمنيهم الرجعة إلى الدنيا ليسكونوا من المؤمنين عند مشاهدتهم لما أزلقت لهم جنات النعيم وبرزت لأنفسهم الجحيم وغشيم ما غشيم من ألوان العذاب وأنواع العقاب ﴿لآية﴾ أى آية عظيمة لا يقادر قدرها موجهة على عبده الأصنام كافة لاسيما على أهل مكة الذين يدعون أنهم على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يجتنبوا كل الاجتناب ما كانوا عليه من عبادتها خوفا أن يحقق بهم مثل العذاب بحكم الاشتراك فيما يوجبه أو أن في ذكر نبئه وتلاوته عليهم على ما هو عليه من غير أن تسمعه من أحد لآية عظيمة دالة على أن ماتلوه عليهم وحى صادق نازل من جهة الله تعالى موجهة للإيمان به قطعا ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أكثر هؤلاء الذين تتلو عليهم النبأ مؤمنين بل هم مصرون على ما كانوا عليه من الكفر والضلال وأما أن ضمير أكثرهم لقوم إبراهيم عليه السلام كما توهو فها لا سبيل إليه أصلا لظهور أنهم ما ازدادوا بما سمعوا منه عليه الصلاة والسلام إلا طغيانا وكفرا حتى اجتروا على تلك العظيمة التي فعلوها به عليه الصلاة والسلام فكيف يعبر عنهم بعدم إيمان أكثرهم وإنما آمن له لوط فنجاهما الله عز وجل إلى الشام وقد مر بقية الكلام في آخر قصة موسى عليه السلام ﴿وان ربك هو العزيز الرحيم﴾ أى هو القادر على تعجيل العقوبة لقومك ولكنه يمهلهم بحكم رحمته الواسعة ليؤمن بعض منهم أو من ذرياتهم .

﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ القوم مؤنث ولذلك يصغر على قويمة وقيل القوم بمعنى الأمة وتكذيبهم للمرسلين إما باعتبار إجماع الكل على التوحيد وأصول الشرائع التي لا تختلف باختلاف الأزمنة والأعصار وإما لأن المراد بالجمع الواحد كما يقال فلان يركب الدواب ويلبس البرود وماله إلا دابة وبرودة وإذا في قوله تعالى ﴿إذ قال لهم﴾ ظرف للتكذيب على أنه عبارة عن زمان مديد وقع فيه بما توقع من الجانبين إلى تمام الأمر كما أن تكذيبهم عبارة عما صدر عنهم عن حين ابتداء دعوته عليه الصلاة والسلام إلى انتهائها ﴿أنهوم﴾ أى نصيبهم ﴿توأسح ألا تغفون﴾ الله حيث تعبدون غيره ﴿إني لكم رسول﴾ من

جهته تعالى ﴿ آمين ﴾ مشهور بالأمانة فيما بينكم ﴿ فأتقوا الله وأطيعون ﴾ فيما أمركم به من التوحيد والطاعة لله تعالى ﴿ وما أسألكم عليه ﴾ أى على ما أنه متصد له من الدعاء والنصح ﴿ من أجر ﴾ أصلا ﴿ إن أجرى ﴾ فيما أتولاه ﴿ إلا على رب العالمين ﴾ والفاء في قوله تعالى ﴿ فأتقوا الله وأطيعون ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من تنزهه عليه الصلاة والسلام عن الطمع كما أن نظيرتها السابقة لترتيب ما بعدها على أمانته والتكرير للتأكيد والتنبيه على أن كلا منهما مستقل في إيجاب التقوى والطاعة فكيف إذا اجتمعا وقرىء إن أجرى بسكون الياء ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبك الأرضون ﴾ أى الأقلون جاها وما لا جمع الأرض على الصحة فإنه بالعلبة صار جاريا مجرى الاسم كالأكبر والأكبر وقيل جمع أرض جمع رذل كما كالب وأكلب وكلب وقرىء وأتباعك وهو جمع تابع كشاهد وأشهد أو جمع تبع كبطل وأبطال يعنون أنه لا عبرة باتباعهم لك إذ ليس لهم رزانة عقل ولا إصابة رأى وقد كان ذلك منهم فى بادئ الرأى كما ذكر فى موضع آخر وهذا من كمال سخافة عقولهم وقصرهم أنظارهم على حطام الدنيا وكون الأشرف عندهم من هو أكثر منها حظا والأرض من حرما وجهلهم بأنها لا تؤمن عند الله تعالى جناح بعوضة وأن النعيم هو نعيم الآخرة والأشرف من فاز به والأرض من حرمة ﴿ قال وما علمى بما كانوا يعملون ﴾ جواب عما أشير إليه من قولهم لأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة أى وما وظيفتى إلا اعتبار الظواهر وبناء الأحكام عليها دون التفتيش عن بواطنهم والشق عن قلوبهم .

﴿ إن حسابه ﴾ أى ما محاسبة أعمالهم والتفتيش عن كيفياتها البارزة والكامنة ﴿ إلا على ربى ﴾ فإنه المطلع على السرائر والضمائر ﴿ لو تشعرون ﴾ أى بشيء من الأشياء أو لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك ولكنكم لستم كذلك فتقولون ما تقولون ﴿ وما أنا بطارد المؤمنين ﴾ جواب عما أورهمه كلامهم من استدعاء طردهم وتعليق إيمانهم بذلك حيث جعلوا اتباعهم مانعا عنه وقوله ( ١٥ - أبو السمود - الرابع )

(إن أنا إلا نذير مبين) كالعلة أى ما أنا إلا رسول مبعوث لإلذار المسكفين .  
 وجرهم عن الكفر والمعاصى سواء كانوا من الأعزاء أو الأذلاء فكيف  
 يتسنى لى طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء أو ما على إلا إلذاركم بالبرهان الواضح  
 وقد فعلته وما على استرضاء بعضكم بطرد الآخرين (قالوا لئن لم تنته يانوح)  
 عما تقول (لنكونن من المرجومين) من المشتومين أو المرميين بالحجارة  
 قالوه قاتلهم الله تعالى فى أواخر الأمر ومعنى قوله تعالى (قال رب إن قومى  
 كذبون) تموا على تكذيبى وأصروا على ذلك بعد ما دعوتهم هذه الأزمنة  
 المتطاولة ولم يردم دعائى إلا فرارا كما يعرب عنه دعاؤه بقوله (فافتح بينى وبينهم  
 فنجأ) أى أحكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا وهذه حكاية لإجمالية لدعائه  
 المفصل فى سورة نوح عليه السلام (ونجى ومن معى من المؤمنين) أى من  
 قصدى أو من شؤم أعمالهم (فأنجيناه ومن معى) حسب دعائه (فى الفلك  
 المشحون) أى المملوء بهم وبما لا بد لهم منه (ثم أغرقنا بعد) أى بعد  
 لإنجائهم (الباقين) أى من قومى (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين  
 وإن ربك هو العزيز الرحيم) الكلام فيه كالذى مر خلا أن حمل أكثرهم على  
 قوم نوح أبعد من السداد وأبعد .

(كذبت عاد المرسلين) أنت عاد باعتبار القبيلة وهو اسم أبهم الأقصى  
 (إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون) الكلام فى أن المراد بتكذيبهم وبما  
 وقع فيه من الزمان ماذا كما مر فى صدر قصة نوح عليه السلام أى لا تتقون الله  
 تعالى فتفعلون ما تفعلون (لأنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما  
 أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) الكلام فيه كالذى مر  
 وتصدير القصص به للتنبية على أن مبنى البعثة هو الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة  
 فيل يقرب المدعو إلى الثواب ويبعده من العقاب وأن الأنبياء عليهم الصلاة  
 والسلام مجمعون على ذلك وإن اختلفوا فى بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف  
 الأزمنة والأعصار وأنهم متزهون عن المطامع الدنية والأغراض الدنيوية  
 بالكلية (أتبنون بكل ريع) أن مكان مرتفع ومنه ريع الأرض لارتفاعها

(آية) علماء للبارة (تعبثون) أى بينائها إذ كانوا يهتدون بالنجوم فى أسفارهم فلا يحتاجون إليها أو بروج الحمام أو بنينا يجمعون إليه ليعبثوا بمن مر عليهم أو قصورا عالية يفتخرون بها (وتتخذون مصانع) أى مأخذ الماء وقيل قصورا مشيدة وحصونا (لعلكم تتخلدون) أى راجين أن تتخلدوا فى الدنيا أى عاملين عمل من يرجو ذلك فذلك تحسبون بنينا (ولإذا بطشتم) بسوط أو سيف (بطشتم جبارين) متسلطين غاشمين بلا رأفة ولا قصد تأديب ولا نظر فى العاقبة (فاتقوا الله) واتركوا هذه الأفعال (وأطيعون) فيما أَدْعُوكم إليه فإنه أنفع لكم (واتقوا الذى أُمِدكم بما تعلمون) من أنواع النعماء وأصناف الآلاء أجملها أولا ثم فصلها بقوله (أمدكم بأنعام وبنيين) بإعادة الفعل لزيادة التقرير فإن التفصيل بعد الإجمال والتفسير لإثر الإبهام أدخل فى ذلك (وجنات وعيون) لئى أخاف عليكم (إن لم تقوموا بشكر هذه النعم) عذاب يوم عظيم (فى الدنيا والآخرة فإن كفران النعمة مستتبع للعذاب كما أن شكرها مستلزم لزيادتها قال تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم لئذ عذابى لشديد) .

(قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) فإذا لن نزعوى عما نحن عليه وتغيير الشق الثانى عن مقابله للبالغة فى بيان قلة اعتدادهم بوعظه كأنهم قالوا أم لم تكن من أهل الوعظ ومباشره أصلا (إن هذا) ما هذا الذى جئتنا به (إلا خلق الأولين) أى عاداتهم كانوا يلقون مثله ويسطرونه أو ما هذا الذى نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم ونحن بهم مقتدون أو ما هذا الذى نحن عليه من الموت والحياة إلا عادة قديمة لم يزل الناس عليها وقرىء خلق الأولين بفتح الخاء أى اختلاق الأولين كما قالوا أساطير الأولين أو ما خلقنا هذا إلا خلقهم نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب (وما نحن بمعذبين) على ما نحن عليه من الأعمال (فكذبوه) أى أصروا على ذلك (فأهلكنهم) بسببه بريح صرصر (إن فى ذلك لآية وما كان بأكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم

أخوهم صالح (ألا تتقون) الله تعالى (إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ألتزكون فيما ههنا آمنين) إنكار ونفي لأن يتركوا فيما هم فيه من النعمة أو تذكير للنعمة في تخليته تعالى إياهم وأسباب تنعمهم آمنين وقوله تعالى :

( في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ) تفسير لما قبله من المبهم والمهضم اللطيف اللين للطف الثمر أو لأن النخل أنثى وطلع الإناث أطف وهو ما يطلع منها كنصل السيف في جوفه شاربخ القنو أو متدلة متكسر من كثرة الحمل وإفراد النخل لفضله على سائر أشجار الجنات أو لأن المراد بها غيرها من الأشجار ( وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ) بطرين أو حاذقين من الفراهة وهي النشاط فإن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلبه وقرى فرهين وهو أبلغ ( فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين ) استعير الطاعة التي هي انقياد الأمر لامثال الأمر وارتسامه أو نسب حكم الأمر إلى أمره مجازا ( الذين يفسدون في الأرض ) وصف موضع لإسرافهم ولذلك عطف ( ولا يصلحون ) على يفسدون لبيان خلوص إفسادهم عن مخالطة الإصلاح .

( قالوا إنما أنت من المسحرين ) أى الذين سحروا حتى غلب على عقولهم أو من ذوى السحر أى الرثة أى من الإنس فيكون قوله تعالى ( ما أنت إلا بشر مثلنا ) تأكيداً له ( فأت بآية إن كنت من الصادقين ) أى فى دعواك ( قال هذه ناقة ) أى بعد ما أخرجها الله تعالى من الصخرة بدعائه عليه الصلاة والسلام حسبما مر تفصيله فى سورة الأعراف وسورة هود ( لها شرب ) أى نصيب من الماء كالسقى والقيت للحظ من السقى والقوت وقرى بالضم ( ولكم شرب يوم معلوم ) فاقنتموا بشربكم ولا تزاحموا على شربها ( ولا تمسوها بسوء ) كضرب وعقر ( فآخذكم بعذاب يوم عظيم ) وصف اليوم بالعظيم لعظم ما يحل فيه .

عقرها برأيهم ولذلك عهم العذاب ﴿فأصبحوا نادمين﴾ خوفا من حلول العذاب لا توبة أو عند معاقبتهم لمباده ولذلك لم ينفهم الندم وإن كان بطريق التوبة ﴿فأخذهم العذاب﴾ أى العذاب الموعود ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾ قيل في نفى الإيمان عن أكثرهم في هذا المعرض إيماء إلى أنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب وأن قريشا إنما عصموا من مثله ببركة من آمن منهم وأنت خير بأن قريشا هم المشهورون بعدم إيمان أكثرهم .

﴿كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين﴾ أى أتأتون من بين من عداكم من العالمين الذكران لا يشاركم فيه غيركم أو أتأتون الذكران من أولاد آدم مع كثرتهم وغلبة النساء فيهم مع كونهن أليق بالاستمتاع فالمراد بالعالمين على الأول كل ما ينكح من الحيوان وعلى الثانى الناس ﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم﴾ لأجل استمتاعكم وكلمة من في قوله تعالى ﴿من أزواجكم﴾ للبيان إن أريد بها جنس الإناث وهو الظاهر وللتبعض أن أريد بها العضو المباح منهن تعريضا بأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم أيضا ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ متعدون متجاوزون الحد في جميع المعاصى وهذا من جملتها وقيل متجاوزون عن حد الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل الحيوانات .

﴿قالوا لئن لم تنته يا لوط﴾ أى عن تقبيح أمرنا أو نهينا عنه أو عن دعوى النبوة التى من جملة أحكامها التعرض لنا ﴿لتكونن من المخرجين﴾ أى من المنفيين من قريتنا وكانهم كانوا يخرجون من أخرجوه من بينهم على عنف وسوء حال ﴿قال إني لعملكم من القالين﴾ أى من المبغضين غاية البغض كأنه يقلق القواد والسكبد لشدة وهو أبلغ من أن يقال إني لعملكم قال لدلالته على أنه عليه الصلاة والسلام من زمرة الراسخين في بنهضه المشهورين في قلاعه ولعله

عليه الصلاة والسلام أراد إظهار الكراهة في مساكنهم والرغبة في الخلاص.  
من سوء جوارهم ولذلك أعرض عن محاورتهم وتوجه إلى الله تعالى قائلاً  
(رب نجني وأهلي مما يعملون) أى من شؤم عملهم وغائلاته .

(فنجينا وأهله أجمعين) أى أهل بيته ومن اتبعه في الدين ياخرجهم من بينهم  
عند مشاركة حلول العذاب بهم (إلا عجوزاً) هى امرأة لوط استئنيت من أهله  
فلا يضره كونها كافرة لأن لها شركة في الأهلية بحق الزواج (في الغابرين)  
أى مقدراً كونها من الباقيين في العذاب لأنها كانت مائلة إلى القوم راضية بفعلهم.  
وقد أصابها الحجر في الطريق فأهلكها كما مر في سورة الحجر وسورة هود وقيل  
كانت فيمن بقى في القرية ولم تخرج مع لوط عليه السلام (ثم دمرنا الآخرين)  
أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه (وأمطرنا عليهم مطراً) أى مطراً غير معهود.  
قيل أمطر الله تعالى على شذاذ القوم حجارة فأهلكتهم (فساء مطر المنذرين)  
اللام فيه للجنس وبه يتسنى وقوع المضاف إليه فاعل ساء والمخصوص بالذم  
مخذوف وهو مطرهم (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك  
لهو العزيز الرحيم كذب أصحاب الآية المرسلين) الآية الغيضة التى تلبت  
ناعم الشجر وهى غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة وكانوا بمن بعث إليهم شعيب  
عليه السلام وكان أجنيا منهم ولذلك قيل (إذ قال لهم شعيب ألا تتقون)  
ولم يقل أخوهم .

وقيل الآية الشجر الملتف وكان شجرهم الدوم وهو المقل وقرى بمخذف الهمزة  
والقاء حركتها على اللام وقرئت كذلك مفتوحة على أنها ليكة وهى اسم بلد ثم وإنما  
كتبت هنا وفى جر بغير ألف لإتباعاً للفظ اللفظ (إني لكم رسول أمين فاتقوا  
الله وأطيعوا وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أوفوا  
بالكيل) أى أنموه (ولا تكونوا من الخسرين) أى حقوق الناس بالتطفيف  
(وزنوا) أى الموزونات (بالقسطاس المستقيم) بالميزان السوى وهو إن  
يكن عربياً فإن كان من القسط فضلاس بتكرير العين وإلا ففعلال وقرى بعضهم

القف (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) أى لا تنقصوا شيئاً من حقوقهم أى حق كان وهذا تعميم بعد تخصيص بعض المواد بالذكر لغاية انهماكهم فيها (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) بالقتل والغارة وقطع الطريق (وانقوا الذى خلقكم والجبل الأولين) أى وذوى الجبل الأولين وهم من تقدمهم من الخلائق وقرىء بضم الجيم والباء وبكسر الجيم وسكون الباء كالخلفة (قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا) ادخال الراوي بين الجملتين للدلالة على أن كلا من التسخير والبشرية مناف للرسالة مبالغه فى التكذيب (وان نظنك لمن الكاذبين) أى فيما تدعيه من النبوة (فأسقط علينا كسفا من السماء) أى قطعاً وقرىء بسكون السين وهو أيضاً جمع كسفة وقيل السكسف والكسفة كالريع والريعة وهى القطعة والمراد بالسماء إما السحاب أو المظلة ولعله جواب لما أشعر به الأمر بالتقوى من التهديد (إن كنت من الصادقين) فى دعواك ولم يكن طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب وإلا لما أخطروه بياهم فضلاً أن يطلبوه .

(قال ربى أعلم بما تعملون) من الكفر والمعاصى وبما تستحقون بسببه من العذاب فسينزله عليكم فى وقته المقدر له لا محالة (فكذبوه) أى فتموا على تكذيبه وأصروا عليه (فأخذهم عذاب يوم الظلة) حسبما اقترحوا أما إن أرادوا بالسماء السحاب فظاهر وأما إن أرادوا المظلة فلأن نزول العذاب من جهتها وفى إضافة العذاب إلى يوم الظلة دون نفسها إيدان بأن لهم يومئذ عذاباً آخر غير عذاب الظلة وذلك بأن سلط الله عليهم الحر سبعة أيام وإياها فأخذ بأنفسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا سرب فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلمتهم سمعابة وجدوا لها برداً ونسيماً فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا جميعاً . روى أن شعيباً عليه السلام بعث إلى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الأيكة فأهلك مدين بالصيحة والرجفة وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة (لأنه كان عذاب يوم عظيم) أى فى الشدة وال هول وفضاعة ما وقع فيه من الطامة والداهية التامة (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم) هذا آخر القصص السبع التى أوحيت



إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن الحرص على إسلام قومه وقطع رجائه عنه ودفع تحسره على قوائمه تحقيقاً لمضمون ما مر في مطلع السورة الكريمة من قوله تعالى ( وما يأتهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ) فقد كذبوا بالحق الآية فإن كل واحدة من هذه القصص ذكر مستقل متجدد النزول قد أتاهاهم من جهته تعالى بموجب رحمته الواسعة وما كان أكثرهم مؤمنين بعد ما سمعوا على التفصيل قصة بعد قصة لا بأن يتدبروا فيها ويعتبروا بما في كل واحدة منها من الدواعي إلى الإيمان والزواج عن الكفر والطغيان ولا بأن يتأملوا في شأن الآيات الكريمة الناطقة بتلك القصص على ما هي عليه مع عليهم بأنه عليه الصلاة والسلام لم يسمع شيئاً منها من أحد أصلاً واستمروا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال كأن لم يسمعوا شيئاً يزجرهم عن ذلك قطعاً كما حقق في غاتمة قصة موسى عليه السلام .

( وإنه ) أي ما ذكر من الآيات الكريمة الناطقة بالقصص المحكية أو القرآن الذي هي من جملته ( لتنزِيل رب العالمين ) أي منزل من جهته تعالى سمي به مبالغة ووصفه تعالى بربوبية العالمين للإيدان بأن تنزله من أحكام تربيته تعالى ورأفته للسكل كقوله تعالى ( وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ) ( نزل به ) أي أنزله ( الروح الأمين ) أي جبريل عليه السلام فإنه أمين وحية تعالى وموصله إلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام وقرىء بتشديد الزاى ونصب الروح والأمين أي جعل الله تعالى الروح الأمين نازلاً به ( على قلبك ) أي روحك وإن أريد به العضو فتخصيصه به لأن المعاني الروحانية تنزل أولاً على الروح ثم تنتقل منه إلى القلب لما بينهما من التعلق ثم تصعد إلى الدماغ فينتقش بها لوح المتخيلة ( لتكون من المنذرين ) متعلق بنزل به أي أنزله لتنذرهم بما في بضاعيفه من العقوبات الهائلة وإثارة على النظم الكريم للدلالة على انتظامه عليه الصلاة والسلام في سلك أولئك المنذرين المشهورين في حقبة الرسالة وتقرر وقوع العذاب المنذر .

( بلسان عربي مبين ) واضح المخفى ظاهر المدلول ثلثا يبقى لهم عذر ما وهو

أيضا متعلق بنزل به وتأخيرہ للاعتناء بأمر الإنذار وللإيماء إلى أن مدار كونه من جملة المنذرين المذكورين عليهم السلام مجرد إزاله عليه عليه الصلاة والسلام لا إزاله باللسان العربي وجعله متعلقا بالمنذرين كما جوزه الجمهور يؤدي إلى أن غاية الإنزال كونه عليه الصلاة والسلام من جملة المنذرين باللغة العربية فقط من هود وصالح وشعيب عليهم السلام ولا يخفى فسادہ كيف لا والطامة الكبرى في باب الإنذار ما أئذره نوح وموسى عليهما الصلاة والسلام وأشد الزواجر تأثيرا في قلوب المشركين ما أئذره إبراهيم عليه السلام لا تبايهم وادعائهم أنهم على ملته عليه الصلاة والسلام ﴿ وإنه لفي زبر الأولين ﴾ أى وإن ذكره أو معناه لفي الكتب المتقدمة فإن أحكامه التي لا تحمل النسخ والتبديل بحسب تبدل الأعصار من التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات والصفات مسطورة فيها وكذا ما في تضاعيفه من المواعظ والقصص وقيل الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بواضح ﴿ أولم يكن لهم آية ﴾ الهمزة للإنكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل أغفلوا عن ذلك ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل من رب العالمين وأنه في زبر الأولين على أن لهم متعلق بالكون قدم على اسمه وخبره للاهتمام به أو بمحذوف هو حال من آية قدمت عليها لكونها نكرة وآية خبر للكون قدم على اسمه الذي هو قوله تعالى :

﴿ أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴾ لما مر مرارا من الاعتناء والتشويق إلى المؤخر أى أن يعرفوه بنعوته المذكورة في كتبهم ويعرفوا من أنزل عليه وقرىء تكن بالتأنيث وجعلت آية إسما وأن يعلمه خبرا وفيه ضعف حيث وقع النكرة اسما والمعرفة خبرا وقد قيل في تكن ضمير القصة وآية أن يعلمه جملة واقعة موقع الخبر ويجوز أن يكون لهم آية هي جملة الشأن وأن يعلمه بدلا من آية ويجوز مع نصب آية تأنيث تكن كما في قوله تعالى ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا ﴾ وقرىء تعلمه بالناء ﴿ ولو نزلناه ﴾ كما هو بنظمه الرائق المعجز ﴿ على بعض الأعجمين ﴾ الذين لا يقدرّون على التكلم بالعربية وهو جمع أعجمى على التخفيف ولذلك جمع جمع السلامة وقرىء الأعجميين وفي لفظ البعض إشارة

إلى كون ذلك واحدا من عرض تلك الطائفة كائنا من كان ﴿ فقرأه عليهم ﴾ قراءة صحيحة خارقة للعادات ﴿ ما كانوا به مؤمنين ﴾ مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء لفرط عنادهم وشدة شكيمتهم في المكابرة وقيل المعنى ولو نزلناه على بعض الأعجمين ببلغه العجم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين لعدم فهمهم واستنكافهم من اتباع العجم وليس بذلك فإنه بمعزل من المناسبة لمقام بيان تماديهم في المكابرة والعناد ﴿ كذلك سلكناه ﴾ أى مثل ذلك السلك للبديع المذكور سلكناه أى أدخلنا القرآن ﴿ في قلوب المجرمين ﴾ ففهموا معانيه وعرفوا فصاحته وأنه خارج عن القوى البشرية من حيث النظم المعجز ومن حيث الإخبار عن الغيب وقد انضم إليه اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على تضمنها للبشارة بإنزاله وبعثته من أنزل عليه بأوصافه فقوله تعالى ﴿ لا يؤمنون به ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان أنهم لا يتأثرون بأمثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان به بل يستمرون على ما هم عليه ﴿ حتى يروا العذاب الآليم ﴾ الملحق إلى الإيمان به حين لا ينفعهم الإيمان ﴿ فيأتهم بغته ﴾ أى فجأة في الدنيا والآخرة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ يأتينا به ﴿ فيقولون هل نحن منظررون ﴾ تحسرا على ما فات من الإيمان وتمنيا للإمهال للتلافي ما فرطوه وقيل معنى كذلك سلكناه مثل تلك الحال وتلك الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه في قلوبهم وقوله تعالى ﴿ لا يؤمنون به ﴾ في موقع الإيضاح والتلخيص له أو في موقع الحال أى سلكناه فيها غير مؤمن به والاول هو الأنسب بمقام بيان غاية عنادهم ومكابرتهم مع تعاضد أدلة الإيمان وتأخذ مبادئ الهداية والإرشاد وانقطاع أعذارهم بالسكينة وقيل ضمير سلكناه للكفر المدلول عليه بما قبله من قوله تعالى ﴿ ما كانوا به مؤمنين ﴾ ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما والحسن ومجاهد رحمهما الله تعالى أدخلنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين .

﴿ أفبهذا نبأ يستعجلون ﴾ بقولهم ( أطار علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ) وقولهم ( فأتانا بما تعدنا ) ونحوهما وحالهم عند نزول العذاب كما وصف من طلب الإنذار فالغناء للعطيف على مقدر يقتضيه المقام أى أ يكون حالهم كما

ذكر من الاستنظار عند نزول العذاب الآليم فيستعجلون بعذابنا وبينهما من التنافي ما لا يخفى على أحد أو يغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره فيستعجلون الخ وإنما قدم الجار والمجرور للإيدان بأن مصيب الإنكار والتوبيخ كون المستعجل به عذابه تعالى مع ما فيه من رعاية الفواصل (أفأريت) لما كانت الرؤبة من أقوى أسباب الإخبار بالشئ وأشهرها شاع استعمال أريت في معنى أخبرني والخطاب لكل من يصلح له كائنا من كان والفاء لترتيب الاستخبار على قولهم هل نحن منظورون وما بينهما اعتراض للتوبيخ والتبكيت وهي مقدمة في المعنى على الهمة وتأخيرها عنها صورة لاقتضاء الهمة الصدارة كما هو رأى الجمهور أى فإخبرني (إن متعناهم سنين) متطاولة بطول الأعمار وطيب المعاش (ثم جاءهم ما كانوا يوعدون) من العذاب (ما أغنى عنهم) أى شئ أو أى إغناء أغنى عنهم (ما كانوا يمتعون) أى كونهم بمتع ذلك التمتع المديد على أن ما مصدرية أو ما كانوا يمتعون به من متاع الحياة الدنيا على أنها موصولة حذف عائدها وأيا ما كان فلا استفهام للإنكار والنفي وقيل ما نافية أى لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول في دفع العذاب وتخفيفه والأول هو الأولى لكونه أوفق لصورة الاستخبار وأدل على انتفاء الإغناء على أبلغ وجه وأكده كان كل من من شأنه الخطاب قد كلف أن يخبر بأن تمتيعهم ماذا أفادهم وأى شئ أغنى عنهم فلم يقدر أحد على أن يخبر بشئ من ذلك أصلاً وقرئ يمتعون من الإمتاع .

(وما أهلكنا من قرية) من القرى المهلكة (إلا لها منذرون) قد أنذروا أهلها الزاما للحجة (ذكرى) أى تذكرة ومحلهما النصب على العلة أو المصدر لأنها في معنى الإنذار كأنه قيل مذكرون ذكرى أو على أنه مصدر مؤكد لفعل هو صفة لمنذرون أى إلهام منذرون يذكرونهم ذكرى أو الرفع على أنها صفة منذرون باضمار ذوو أو يجعلهم ذكرى لإيمانهم في التذكرة أو خبر مبتدأ محذوف والجملة اعتراضية وضمير لها للقرى المدلول عليها بمفردها الواقع في حيز النفي على أن معنى أن الكل منذرين أعيم من أن يكون لكل قرية منها

محذّر واحد أو أكثر ﴿ وما كنا ظالمين ﴾ فهلك غير الظالمين وقيل الإنذار والتعبير عن ذلك بنفى الظالمية مع أن إهلاكهم قبل الإنذار ليس بظلم أصلاً على ما تقرر من قاعدة أهل السنة لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من الظلم وقد مر في سورة آل عمران عند قوله تعالى ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ .

﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ رد لما زعمه الكفرة في حق القرآن الكريم من أنه من قبيل ما يلقيه الشيطان على الكهنة بعد تحقيق الحق ببيان أنه نزل به الروح الأمين ﴿ وما ينبغى لهم ﴾ أى وما يصح وما يستقيم لهم ذلك ﴿ وما يستطيعون ﴾ ذلك أصلاً ﴿ لأنهم عن السمع ﴾ لكلام الملائكة ﴿ لمعزولون ﴾ لا تتواء المشاركة بينهم وبين الملائكة في صفاء الذوات والاستعداد لقبول فيضان أنوار الحق والاتقاش بصور العلوم الربانية والمعارف النورانية ، كيف لا ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة بالذات غير مستعدة إلا لقبول ما لا خير فيه أصلاً من فنون الشرور فمن أين لهم أن يحوموا حول القرآن الكريم المنطوى على الحقائق الرائقة الغيبية التى لا يمكن تلقاها إلا من الملائكة عليهم الصلاة والسلام .

﴿ فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين ﴾ خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام تهيباً وحثاً على ازدياد الإخلاص ولطفاً لسائر المكلفين ببيان أن الإشراك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه فكيف بمن عداه ﴿ وأنذر ﴾ العذاب الذى يستتبعه الشرك والمعاصى ﴿ عشيرتك الأقربين ﴾ الأقرب منهم فالأقرب فإن الاهتمام بشأنهم أهم .

روى أنه لما نزلت صعد الصفا وناداهم نخذاً نخذاً حتى اجتمعوا إليه فقال لهم أخبرونيكم أن يصفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي قالوا نعم قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد وروى أنه قال يا بني عبد المطلب يا بني هاشم يا بني عبد مناف افتدوا أنفسكم من النار فإني لا أغنى عنكم شيئاً ثم قال يا عائشة بنت

أبى بكر ويا حفصة بنت عمر ويا فاطمة بنت محمد ويا صفية عمة محمد اشتري  
أنفسكن من النار فإنى لا أغنى عنكن شيئاً .

(واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) أى لين جانبك لهم مستعار  
من حال الطائر فإنه إذا أراد أن ينحط خفض جناحه ومن للتبيين لأن من اتبع  
أعم من اتبع لدين أو غيره أو للتبعيض على أن المراد بالمؤمنين المشارفون  
للإيمان أو المصدقون باللسان فحسب (فإن عصوك) ولم يتبعوك (فقل لى  
برىء مما تعملون) أى بما تعملون أو من أعمالكم (وتوكل على العزيز الرحيم)  
الذى يقدر على قهر أعدائه ونصر أوليائه يكفك شر من يصبك منهم ومن غيرهم  
وقرىء فتوكل على أنه بدل من جواب الشرط (الذى يرالك حين تقوم)  
أى إلى التهجد (وتقلبك فى الساجدين) وترددك فى تصفح أحوال المتهمجين  
كما روى أنه لما نسخ فرض قيام الليل طاف عليه الصلاة والسلام تلك الليلة  
ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعتهم فوجدها كبيوت  
الزنابير لما سمع منها من دندنتهم بذكر الله تعالى والتلاوة أو تصرفك فيما بين  
المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود إذا أتمهم وإنما وصف الله تعالى  
ذاته بعلمه بحاله عليه الصلاة والسلام التى بها يستأهل ولايته بعد أن عبر عنه  
بما ينبىء عن قهر أعدائه ونصر أوليائه من وصفى العزيز الرحيم تحقيقاً للتوكل  
وتوطئنا لقلبه عليه .

(إنه هو السميع) لما تقول (العليم) بما تنويه وتعمله (هل أنبئكم  
على من تنزل الشياطين) أى تنزل بحذف إحدى التامين وهو استئناف مسوق  
ليبان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بيان امتناع  
تنزلهم بالقرآن ودخول حرف الجر على من الاستفهامية لما أنها ليست موضوعة  
للاستفهام بل الأصل أمن تحذف حرف الاستفهام واستمر الاستعمال على  
جذبه كما حذف من هل والأصل أهل وقوله تعالى (تنزل على كل أفك أنيم)  
قصر لتزله على كل من اتصف بالإفك الكثير والإثم الكبير من الكهنة  
والأنبياء وتخصيص له بهم بحيث لا يتخطاها إلى غيرهم وحيث كانت ساحة

رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة عن أن يحوم حولها شائبة شيء من تلك  
الأوصاف اتضح استحالة تنزيلهم عليه عليه الصلاة والسلام ﴿يلقون﴾ أى  
الآفاكون ﴿السمع﴾ إلى الشياطين فيتلقون منهم أوهاما وأمارات لنقصان  
عليهم فيضمون إليها بحسب تخيلاتهم الباطلة خرافات لا يطابق أكثرها الواقع  
وذلك قوله تعالى ﴿وأكثرهم كاذبون﴾ أى فيما قالوه من الآقاويل وقد ورد  
في الحديث الكلمة يخطفها الجنى فيقرأها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة  
كذبة أو يلقون السمع أى المسموع من الشياطين إلى الناس وأكثرهم كاذبون  
يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم وإلا ظهر أن الأكثرية باعتبار أقوالهم  
على معنى أن هؤلاء فلما يصدقون فيما يحكون عن الجنى وأما في أكثره فهم  
كاذبون ومآله وأكثر أقوالهم كاذبة لا باعتبار ذواتهم حتى يلزم من نسبة  
الكذب إلى أكثرهم كون أقلهم صادقين على الإطلاق وليس معنى الآفاك من  
عن لا ينطق إلا بالإفك حتى يمتنع منه الصدق بل من يكسر الإفك فلا ينافيه  
أن يصدق نادرا في بعض الأحيان وقيل الضمير للشياطين أى يلقون السمع  
أى المسموع من الملائكة الأعلى قبل أن رجوا من بعض المغييات إلى أوليائهم  
وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم إذ لا يسمعونهم على نحو ما تكلمت  
به الملائكة لشرارتهم أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو لفهامهم ولا سبيل إلى حمل  
إلقاء السمع على تسمعهم وإنصاتهم إلى الملائكة الأعلى قبل الرجم كما جوزه الجمهور  
لما أن يلقون كما صرحوا به إما حال من ضمير تنزل مفيدة لمقارنة التنزل  
للإلقاء أو استئناف مبين للغرض من التنزل مبنى على السؤال عنه ولا ريب  
في أن إلقاء السمع إلى الملائكة الأعلى بمعزل من احتمال أن يقارن التنزل أو يكون  
غرضاً منه لتقدمه عليه قطعاً وإنما المحتمل لهما الإلقاء بالمعنى الأول فالمعنى  
على تقدير كونه حالاً تنزل الشياطين على الآفاكين ملقين إليهم ما سمعوه من  
الملائكة الأعلى وعلى تقدير كونه جواباً على سؤال من قال لم تنزل عليهم وماذا  
يفعلون بهم يلقون إليهم ما سمعوه وحمله على استئناف الأخبار كما فعله بعضهم  
غير شديد لأن ذكر حالهم السابقة على تنزلهم المذكور قبله غير خليق بجزالة

التنزيل وأما على تقدير كون ضمير يلقون للأفاكين فهو صفة لكل أفاك لأنه في معنى الجمع سواء أريد بإلقاء السمع الإصغاء إلى الشياطين أو إلقاء المسموع إلى الناس ويجوز أن يكون استئناف اخبار بحالهم على كلا التقديرين لما أن كلا من تلقيهم من الشياطين وإلقائهم إلى الناس يكون بعد التنزيل وأن يكون استئنافا مبنيًا على السؤال على التقدير الأول فقط كأنه قيل ما يفعلون عند تنزل الشياطين عليهم فقيل يلقون إليهم أسماعهم ليحفظوا ما يوحون به إليهم وقوله تعالى وأكثرهم كاذبون على التقدير الأول استئناف فقط وعلى الثاني يحتمل الحالية من ضمير يلقون أى يلقون ما سمعوه من الشياطين إلى الناس والحال أنهم في أكثر أفواههم كاذبون فتدبر .

### إبطال مزاعمهم عن القرآن

(والشعراء يتبعهم الغاؤون) استئناف مسوق لإبطال ما قالوا في حق القرآن العظيم من أنه من قبيل الشعر وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشعراء ببيان حال الشعراء المنافية لحاله عليه الصلاة والسلام بعد إبطال ما قالوا إنه من قبيل ما يلقى الشياطين على الكهنة من الأباطيل بما مر من بيان أحوالهم المضادة لأحواله عليه الصلاة والسلام والمعنى أن الشعراء يتبعهم أى يحاربهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم الغاؤون الضالون عن السنن الحائرون فيما يأتون وما يذرون لا يستمرون على وتيرة واحدة في الأفعال والأقوال والأحوال لا غيرهم من أهل الرشد المهتدين إلى طريق الحق الثابتين عليه وقوله تعالى (ألم تر أنهم في كل واد يهيمون) استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاؤون وتقرير له والخطاب لكل من تنأى منه الرؤية للقصد إلى أن حالهم من الجلاء والظهور بحيث لا تختص برؤية راء دون راء أى ألم تر أن الشعراء في كل واد من أودية القيل والقال وفي كل شعب من شعاب الوهم والخيال وفي كل مسلك من مسالك الغي والضلال يهيمون على وجوههم لا يهتدون إلى سبيل معين من السبل بل يتحिرون في فيا في الغواية والسفاهة ويقهون في تيه المجنون



والوقاحة دينهم تمزيق الأعراض المحمية والقدح في الأنساب الطاهرة السفية والنسيب بالحرام والغزل والابتهار والتردد بين طرفي الإفراط والتفريط في المدح والهجاء .

(وأنهم يقولون ما لا يفعلون) من الأفاعيل غير مباين بما يستتبعه من السوائم فكيف يتوهم أن يتبعهم في مسلكتهم ذلك ويلتحق بهم وينظم في مسلكتهم من تنزهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الإنصاف بشيء من الأمور المذكورة واتصف بمحاسن الصفات الجليلة وتخلق بمكارم الأخلاق الجميلة وحاز جميع الكالات القدسية وفاز بمجملة الملكات الانسية مستقرا على المنهج القويم مستعرا على الصراط المستقيم ناطقا بكل أمر رشيد داعيا إلى صراط العزيز الحميد مؤيدا بمعجزات قاهرة وآيات ظاهرة مشحونة بفنون الحكم الباهرة وصنوف المعارف الزاهرة مستقلة بنظم رائق أعجز كل منطق ماهر وبكت كل مفلق ساحر هذا وقد قيل في تنزيهه عليه الصلاة والسلام عن أن يكون من الشعراء أن أتباع الشعراء الغاؤون وأتباع محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا كذلك ولا ريب في أن تعليل عدم كونه عليه السلام والسلام منهم يكون أتباعه عليه الصلاة والسلام غير غاوين بما لا يليق بشأنه العالی وقيل الغاؤون الراؤون وقيل الشياطين وقيل هم شعراء قریش عبد الله بن الزبير وهبيرة ابن أبي وهب المخزومي ومسافع بن عبد مناف وأبو عزة الجمحي ومن ثقیف أمية بن أبي الصلت قالوا نحن نقول مثل قول محمد صلى الله عليه وسلم وقرىء الشعراء بالثصب على إضمار فعل يفسره الظاهر وقرىء يتبعهم على التخفيف ويتبعهم بسكون العين تشبيها لبعه بعضه

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا واتصروا من بعد ما ظلموا) استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثر ذكر الله عز وجل ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد والثناء على الله تعالى والحث على طاعته والحكمة والموعظة والزهد في الدنیا والترغيب عن الركون إليها والزجر عن

الاغترار بزخارفها والافتتان بملاذها القلبية ولو وقع منهم في بعض الأوقات هجو وقع ذلك منهم بطريق الانتصار من هجاءهم وقيل المراد بالمستثنين عبد الله ابن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير بن أبي سلمى والذين كانوا ينافحون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافحون هجاة قريش وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اهجمهم فوالذي نفسي بيده طو أشد عليهم من النبل وكان يقول لحسان قل وروح القدس معك ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لما في سيعلم من تهويل متعلقة وفي الذين علموا من الإطلاق والتعميم وفي أي منقلب ينقلبون من الإبهام والتهويل وقد قاله أبو بكر لعمر رضي الله عنهما حين عهد إليه وقرئ أي منفلتت ينفلتون من الانفلات بمعنى النجاة والمعنى أن الظالمين يطعمون أن ينفلتوا من عذاب الله تعالى وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات . عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وبعده من كذب بعبسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام

\* \* \*

## سورة النمل

مكية وهي ثلاث أو أربع وتسعون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طس) بالتمخيم وقرىء بالإمالة والكلام فيه كالذى مر في نظائره من الفوائح الشريفة ومحله على تقدير كونه اسماً للسورة وهو الأظهر والأشهر الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هذا طس أى مسمى به والإشارة إليه قبل ذكره قد مر وجهها في فاتحة سورة يونس وغيرها ورفعه بالابتداء على أن ما بعده خبر ضعيف لما ذكر هناك (تلك) إشارة إلى نفس السورة لأنها التى نوهت بذكر اسمها لا إلى آياتها لعدم ذكرها صريحاً لأن إضافتها إليها تنابى إضافتها إلى القرآن كما سيأتى وما فى اسم الإشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالماضى إليه للإيدان ببعده منزلته فى الفضل والشرف ومحله الرفع على الابتداء خبره (آيات القرآن) والجملة مستأنفة مقررّة لما أفاده التسمية من نباهة شأن المسمى والقرآن عبارة عن الكل أو عن الجميع المنزل عند نزول السورة حسبما ذكر فى فاتحة فاتحة الكتاب أى تلك السورة آيات القرآن المعروف بعلو الشأن أى بعض منه مترجم مستقل باسم خاص (وكتاب) أى كتاب عظيم الشأن (مبين) مظهر لما فى تضاعيفه من الحكم والأحكام وأحوال الآخرة التى من جملتها الثواب والعقاب أو لسبيل الرشد والغى أو فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام أو ظاهراً الإعجاز على أنه من أبان بمعنى بان ولقد فخم شأنه الجليل بما جمع فيه من وصف القرآنية المنبئة عن كونه بديعاً فى بابه ممتازاً عن غيره بالنظم المعجز كما يعرب عنه قوله تعالى (قرآنا عربياً غير ذى عوج) ووصف الكتابية المعربة عن اشتماله على صفات كمال الكتب الإلهية فكأنه كلها وقدم الوصف الأول ههنا نظراً إلى تقدم حال القرآنية على حال الكتابية وعكس فى سورة الحجر نظراً إلى ما ذكر هناك من الوجه وما قبل من أن الكتاب هو اللوح المحفوظ وإبانه أنه خط فيه

ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه لا يساعده إضافة الآيات إليه إذ لا عهد  
بإشتماله على الآيات ولا وصفه بالهداية والبشارة إذ هما باعتبار إباته فلا بد من  
اعتبارها بالنسبة إلى الناس الذين من جملتهم المؤمنون لا إلى الناظرين فيه وقرئ  
وكتاب بالرفع على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أى وآيات كتاب مبين.  
(هدى وبشرى للمؤمنين) في حيز النصب على الحالية من الآيات على  
أنهما مصدران أقيا مقام الفاعل للبالغة كأنهما نفس الهدى والبشارة والعامل  
معنى الإشارة أى هادية ومبشرة أو الرفع على أنهما بدلان من الآيات أو خبران  
آخران لتلك أو لمبتدأ محذوف ومعنى هدايتها لهم وهم مهتدون أنها تزيدهم هدى  
قال تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) وأما معنى تبشيرها  
بإياهم فظاهر لأنها تبشرهم برحمة من الله ورضوان وجنت لهم فيها نعيم مقيم  
وقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) صفة مادحة لهم  
وتخصيصهما بالذكر لأنهما قرينتا الإيمان وقطرا العبادات البدنية والمالية  
مستتبعان لسائر الأعمال الصالحة وقوله تعالى (وهم بالآخرة هم يوقنون)  
جملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون  
بالآخرة حق الإيقان لا من عداهم لأن تحمل مشاق العبادات لخوف العقاب  
ورجاء الثواب أو هو من تنمة الصلة والواو حالية أو عاطفة له على الصلة الأولى  
وتغيير نظمه للدلالة على قوة يقينهم وثباته وأنهم أوحديون فيه.

### من أحوال الكفار

(إن الذين لا يؤمنون بالآخرة) بيان لأحوال الكفرة بعد بيان  
أحوال المؤمنين أى لا يؤمنون بها وبما فيها من الثواب على الأعمال الصالحة  
والعقاب على السيئات حسبما ينطق به القرآن (زيننا لهم أعمالهم) القبيحة  
حيث جعلناها مشتهاة للطبع محبوبة للنفس كما ينبئ عنه قوله عليه الصلاة والسلام  
محفت النار بالشهوات أو الأعمال الحسنة ببيان حسناتها في أنفسها حالاً واستتباعها  
للقنون المنافع مآلاً وإضافتها إليهم باعتبار أمرهم بها وإيجابها عليهم (هم

يعمهمون) يتحذرون ويترددون على التجدد والاستمرار في الاشتغال بها والانهماك فيها من غير ملاحظة لما يتبعها من نفع وضرر أو في الضلال والإعراض عنها والفاء على الأول لترتيب المسبب على السبب وعلى الثاني لترتيب ضد المسبب على السبب كما في قولك وعظته فلم يتعظ وفيه إيذان بكال عتوهم ومكابرتهم وتمكيسهم في الأمور ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين وهو مبتدأ خبره الموصول بعده أى أولئك الموصوفون بالكفر والعمه ﴿ الذين لهم سوء العذاب ﴾ أى في الدنيا كالقتل والأسر يوم بدر ﴿ وهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ أى أشد الناس خسرانا لفوات الثواب واستحقاق العقاب .

﴿ وانك لتلقى القرآن ﴾ كلام مستأنف قد سبق بعد بيان بعض شئون القرآن الكريم تمهيدا لما يعقبه من الأقاوصيص وتصديره بحرفي التأكيد لإبراز كمال العناية بمضمونه أى لتؤتاه بطريق التأقية والتلقين ﴿ من لدن حكيم عليم ﴾ أى أى حكيم وأى عليم وفى تفخيمهما تفخيم لشأن القرآن وتنهيص على علو طبقته عليه الصلاة والسلام فى معرفته والاحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق فان من تلقى العلوم والحكم من مثل ذلك الحكيم العليم يكون علما فى رصانة العلم والحكمة والجمع بينهما مع دخول العلم فى الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على انقائ الفعل والإشعار بأن ما فى القرآن من العلوم منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالتفصيص والأخبار الغيبية وقوله تعالى ﴿ إذ قال موسى لأهله ﴾ منصوب على المفعولية بمضمر خو طاب به النبي صلى الله عليه وسلم وأمر بتلاوة بعض من القرآن الذى يلقاه عليه الصلاة والسلام من لدنه عز وجل تقريراً لما قبله وتحقيقاً له أى اذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام لأهله فى وادى طوى وقد غشيتهم ظلمة الليل وقدح فأصلدهم نيراناً من جانب الطور ناراً ﴿ إني آنست نارا سأتىكم منها بخبر ﴾ أى عن حال الطريق وقد كانوا ضالوه والسين للدلالة على نوع بعد فى المسافة وتأكيد الوجود والجمع إن صح أنه لم يكن معه عليه الصلاة والسلام إلا امرأته لما كفى بها بالأهل أو للتعظيم مبالغة فى التسلية ﴿ أو آتاكم بشهاب قبس ﴾ بتدوينهما

على أن الثاني بدل من الأول أو صفة له لأنه بمعنى مقبوس أى بشعلة نار مقبوسة أى مأخوذة من أصلها وقرىء بالإضافة وعلى التقديرين فالمراد تعيين المقصود الذى هو القبس الجامع لمنفعتى الضياء والاصطلاء لأن من النار ما ليس بقبس كالجر وكلتا العنتين منه عليه الصلاة والسلام بطريق الظن كما يفصح عن ذلك ما فى سورة طه من صيغة الترجى والترديد للإيذان بأنه إن لم يظفر بهما لم يعدم أحدهما بناء على ظاهر الأمر وثقة بسنة الله تعالى فإنه تعالى لا يكاد يجمع على عبده حرمانين ﴿لعلكم تصطلون﴾ إرجاء أن تستدفئوا بها والصلاة النار العظيمة .

﴿فلما جاءها نودى﴾ من جانب الطور ﴿أن بورك﴾ معناه أى بورك على أن أن مفسرة لما فى النداء من معنى القول أو بأن بورك على أنها مصدرية حذف عنها الجار جريا على القاعدة المستمرة وقيل مخففة من الثقيلة ولا ضمير فى فقدان التعويض بلا أو قد أو السين أو سوف لما أن الدعاء يخالف غيره فى كثير من الأحكام ﴿من فى النار ومن حولها﴾ أى من فى مكان النار وهى البقعة المباركة المذكورة فى قوله سبحانه نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة ومن حول مكانها وقرىء تباركت الأرض ومن حولها والظاهر عمومها لكل من فى ذلك الوادى وحواليه من أرض الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكفاتهم أحياء وأمواتا ولا سيما تلك البقعة التى كلم الله تعالى فيها موسى وقيل المراد موسى والملائكة الحاضرون وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأنه قد قضى له أمر عظيم دنى تنتشر بركاته فى أقطار الشام وهو تكليمه تعالى لإياه عليه الصلاة والسلام واستنباؤه له وإظهار المعجزات على يده عليه الصلاة والسلام ﴿وسبحان الله رب العالمين﴾ تعجب لموسى عليه الصلاة والسلام من ذلك وإيذان بأن ذلك مريده ومكونه رب العالمين تنبيها على أن الدكات من جلائل الأمور وعظام الشئون ومن أحكام تربيته تعالى للعالمين ﴿يا موسى إنه أنا الله﴾ استئناف مسوق لبيان آثار البركة المذكورة والضمير إما للشام وأنا الله جملة مفسرة له وإما راجع إلى المتكلم وأنا خبره

والله بيان له وقوله تعالى ﴿ العزيز الحكيم ﴾ صفتان لله تعالى عهدتان لما أريد إظهاره على يده من المعجزات أى أنا القوى القادر على ما لا تتأله الأوهام من الأمور العظام التى من جعلها أمر العصا واليد الفاعل كل ما أفعله بحكمة باللغة وتدير رصين .

﴿ وألق ﴾ عطف على بورك منتظم معه فى سلك تفسير النداء أى نودى أن بورك وأن ألقى ﴿ عصاك ﴾ حسبما نطق به قوله تعالى وأن ألقى عصاك بتكرير حرف التفسير كما تقول كتبت إليه أن حج وأن اعتمر وإن شئت أن حج واعتمر والفاء فى قوله تعالى ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بظهورها ودلالة على سرعة وقوع مضمونها كما فى قوله تعالى (اخرج عليهن) كأنه قيل فآلقها فانقلبت حية تسمى فأبصرها فلما أبصرها متحركة بسرعة واضطراب وقوله تعالى ﴿ كأنها جان ﴾ أى حية خفيفة سريعة الحركة جملة حالية إما من مفعول رأى مثل يهتز كما أشير إليه أو من ضمير تهتز على طريقة التداخل وقرئ جان على لغة من جد فى الحرب من التقاء الساكنين ﴿ ولى مدبرا ﴾ من الخوف ﴿ ولم يعقب ﴾ أى لم يرجع على عقبه من عقب المقاتل إذا كر بعد الفر وإنما اعتراه الرعب لظنه أن ذلك الأمر أريد به كإنيء عنه قوله تعالى ﴿ يا موسى لا تخف ﴾ أى من غيرى ثقة بى أو مطلقا لقوله تعالى ﴿ إني لا يخاف لدى المرسلون ﴾ فإنه يدل على نفى الخوف عنهم مطلقاً لكن لا فى جميع الأوقات بل حين يوحى إليهم كوقت الخطاب فإنهم حينئذ مستغرقون فى مطالعة شؤون الله عز وجل لا يخطر ببالهم خوف من أحد أصلاً وأما فى سائر الأحيان فهم أخوف الناس منه سبحانه أو لا يكون لهم عندى سوء عاقبة لينعافوا منه ﴿ إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم ﴾ استثناء منقطع ليتبدرك به ما عسى يخرج فى الخلد من نفى الخوف عن كلهم مع أن منهم من فرطت منه صغيرة بما يجوز صدوره عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنهم وإن صدر عنهم شيء من ذلك فقد فعلوا بحقيقته ما يبطله ويستحقون به من الله .

تعالى مغفرة ورحمة وقد قصد به التمريض بما وقع من موسى عليه الصلاة والسلام من وكزه القبطى والاستغفار وتسميتها ظلما لقوله عليه الصلاة والسلام ( رب لاني ظلمت نفسي فأغفر لي فغفر له ) ( وأدخل يدك في جيبك ) لأنه كان مدرعة صوف لا كم لها وقيل الجيب القميص لأنه يحجب أى يقطع ( تخرج بيضاء من غير سوء ) أى آفة كبرص ونحوه ( في تسع آيات ) في جملتها أو معها على أن التسع هى الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجذب في بولدهم والنقصان في مزارعهم ولعن عد العصا واليد من التسع أن بعد الآخرين واحدا ولا يعد الفلق منها لأنه لم يبعث به إلى فرعون أو اذهب في تسع آيات على أنه استئناف بالإرسال فيتعلق به ( إلى فرعون وقومه ) وعلى الأولين يتعلق بنحو مبعوثا أو مرسلا ( إنهم كانوا قوما فاسقين ) تعليل للإرسال أى خارجين عن الحدود في الكفر والعدوان ( فلما جاءتهم آياتنا ) وظهرت على يد موسى ( مبصرة ) بينة اسم فاعل أطلق على المفعول لإشعارا بأنها لفرط وضوحها وإنانيتها كأنها تبهر نفسها لو كانت عما يبصر أو ذات تبهر من حيث أنها تهدي والعمى لا تهتدى فضلا عن الهداية أو مبصرة كل من ينظر إليها ويتأمل فيها وقرىء مبصرة أى مكانا يكث فيه التبصر .

( قالوا هذا سحر مبين ) واضح سحر ريته ( وجحدوا بها ) أى كذبوا بها ( واستيقنتها أنفسهم ) الواو للحال أى وقد استيقنتها أى علمتها أنفسهم علما يقينيا ( ظلما ) أى للآيات كقوله تعالى ( بما كانوا بآياتنا يظلمون ) ولقد ظلما بها أى ظلم خبت حطوها عن رتبها العالية وسموها سحرا وقيل ظلما لأنفسهم وليس بذاك ( وعلوا ) أى استكبارا عن الإيمان بها كقوله تعالى ( والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ) وانهما بهما إما على العلة من جحدوا بها أى على الحالية من فاعله أى جحدوا بها ظالمين لها مستكبرين عنها ( فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ) من الإغراق على الوجه الهائل الذى هو عبرة للعالمين وإنما لم يذكر تنبيها على أنه عرضة لكل ناظر مشهور فيما بين كل باد وحاضر ( ولقد آتينا داود وسليمان علما ) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما سبق من أنه عليه الصلاة



والسلام يلقى القرآن من لدن حكيم عليم فإن قصتهما عليهما الصلاة والسلام من جملة القرآن الكريم لقيه عليه الصلاة والسلام من لدنه تعالى كقصة موسى عليه الصلاة والسلام وتصديره بالقسم لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه أى آتينا كل واحد منهما طائفة من العلم لا ثقة به من علم الشرائع والأحكام وغير ذلك مما يختص بكل منهما كصناعة لبوس ومنطق الطير أو علما شئيا عزيزا ﴿وقالا﴾ أى قال كل واحد منهما شكرا لما أوتي به من العلم ﴿الحمد لله الذى فضلنا﴾ بما آتانا من العلم ﴿على كثير من عباده المؤمنين﴾ على أن عبارة كل منهما فضلنى إلا أنه عبر عنهما عند الحكاية بصيغة المتكلم مع الغير إيجازا فإن حكاية الأقوال المتعددة سواء كانت صادرة عن المتكلم أو عن غيره بعبارة جامعة للكل بما ليس بعزيز ومن الأول قوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) وقد مر في سورة قد أفلح المؤمنون وبهذا ظهر حسن موقع العطف بالواو إذ المتبادر من العطف بالفاء ترتب حمد كل منهما على إيتاء ما أوتى كل منهما لا على إيتاء ما أوتى نفسه فقط وقيل في العطف بالواو لإشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم وشيء من مواجبه فأحضر ذلك ثم عطف عليه التمجيد كأنه قيل ولقد آتيناكما علما فعملما به وعلما وعرفا حق النعمة فيه وقالا الحمد لله الآية فتأمل والكثير المفضل عليه من لم يؤت مثل عليهما وقيل من لم يؤت علما ويأباه تبيين الكثير بالمؤمنين فإن خلوصهم من العلم بالمرة بما لا يمكن وفي تخصيصهما الأكثر بالذكر رمز إلى أن البعض مفضلون عليهما وفيه أوضح دليل على فضل العلم وشرف أهله حيث شكرا على العلم وجعلناه أساس الفضل ولم يعتبروا ذوقه ما أوتيا من الملك الذى لم يؤته غيرهما وتحريض للعلماء على أن يحمدا الله تعالى على ما آتاهم من فضله ويتواضعوا ويعتقدوا أنهم وإن فضلوا على كثير فقد فضل عليهم كثير وفوق كل ذى علم عليم ونما قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لكل الناس أقره من عمر .

﴿وورث سليمان داود﴾ أى النبوة والعلم أو الملك بأن قام مقامه في ذلك دون سائر بنيته وكانوا تسعة عشر ﴿وقال﴾ تشبيها لنعمة الله تعالى وتنويعا بها

ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزات الباهرة التي أوتيتها ﴿يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء﴾ المنطق في المعارف كل لفظ يعبر به عما في الضمير مفردا كان أو مركبا وقد يطلق على كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد يقال نطقت الحمامة وكل صنف من أصناف الطير يتفاهم أصواته والذي عليه سليمان عليه السلام من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من معانيه وأغراضه ويحكى أنه مر على بلبل في شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه أتدرون ما يقول قالوا الله ونبيه أعلم قال يقول إذا إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وصاحت فاخنة فأخبر أنها تقول ليت الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال يقول استغفروا الله يامذنبين وصاح طيطوى فقال يقول كل حي ميت وكل جديد بال وصاح خطاف فقال يقول قدموا خيرا تجدوه وصاح قمرى فأخبر أنه يقول سبحان ربى الأعلى وصاحت رخمة فقال تقول سبحان ربى الأعلى حله سماءه وأرضه وقال الحدأة تقول كل شيء هالك إلا الله والقطاة تقول من سكنت سلم والبيضاء تقول ويل لمن الدنيا همه والديك يقول اذكروا الله يا غافلين والنسر يقول يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت والعقاب تقول فى البعد عن الناس أنس والصفدع يقول سبحان ربى القدوس وأراد عليه الصلاة والسلام بقوله علمنا وأوتينا بالنون التي يقال لها نون الواحد المطاع بيان حاله وصفته من كونه ملصكا مطاعا لكن لا تجبرا وتكبيرا بل تمهيدا لما أراد منهم من حسن الطاعة والانقياد له فى أوامره ونواهيه حيث كان على عزيمة المسير وبقوله من كل شيء كثرة ما أوتيه كما يقال فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شيء ويراد به كثرة قصاده وغزارة عليه ومثله قوله تعالى (وأوتيت من كل شيء) وقال ابن عباس رضى الله عنهما كل ما يهجمه من أمر الدنيا والآخرة وقال مقاتل يعنى النبوة والملك وتسخير الجن والإنس والشیاطین والريح .

﴿إن هذا﴾ إشارة إلى ما ذكر من التعليم والإيتاء ﴿هو الفضل﴾ والإحسان من الله تعالى ﴿المبين﴾ الواضح الذى لا يخفى على أحد وإن هذا

الفضل الذي أوتيته هو الفضل المبين على أنه عليه الصلاة والسلام قاله على سبيل  
الشكر والمحمدة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر  
أى أقول هذا القول شكرًا لا نفرا ولعله عليه الصلاة والسلام رتب على كلامه  
ذلك دعوة الناس إلى الغزو فإن إخبارهم بإيتاء كل شيء من الأشياء التي من  
جملتها آلات الحرب وأسباب الغزو مما ينبئ عن ذلك فعنى قوله تعالى ﴿وحشر  
لسليمان جنوده﴾ جمع له عساكره ﴿من الجن والإنس والطير﴾ بمباشرة  
مخاطبته فإنهم كانوا رؤساء مملكته وعظماء دولته من الثقلين وغيرهم بتعميم  
الناس للكل تغليبا وتقديم الجن على الإنس في البيان للمسارعة إلى الإيذان بكمال  
قوة ملكه وعزة سلطانه من أول الأمر لما أن الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية  
ماردة بعيدة من الحشر والتسخير ﴿فهم يوزعون﴾ أى يحبس أوائلهم على  
أواخرهم أى يوقف سلاف العسكر حتى يلحقهم التوالى فيكونوا مجتمعين  
لا يتخلف منهم أحد وذلك للكثرة العظيمة ويجوز أن يكون ذلك لترتيب  
الصفوف كما هو المعتاد في العساكر وفيه إشعار بكال مسارعتهم إلى السير  
وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر دون سوق أواخرهم مع أن التلاحق يحصل  
بذلك أيضا لما أن أواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم من السير  
السريع وهذا إذا لم يكن سيرهم بتسيير الريح في الجوروى أن معسكره عليه  
الصلاة والسلام كان مائة فرسخ في مائة خمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون  
للإنس وخمسة وعشرون للطير وخمسة وعشرون للوحش وكان له عليه الصلاة  
السلام ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منسكوحة وسبعمائة سرية  
وقد نسجت له الجن بساطا من ذهب ولبريسم فرسخا في فرسخ وكان يوضع  
منبره في وسطه وهو من ذهب فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب  
وفضة فيقعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على كراسي الذهب والعلماء على كراسي  
الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى  
لا تقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر ويروى أنه  
كان يأمر الريح العاصف تحمله ويأمر الرخاء تسيره فأوحى الله تعالى إليه وهو

يسير بين السماء والأرض إني قد زدتك في ملكك لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح في سمك فيحكى أنه مر بحراث فقال لقد أوتى آل داود ملكا عظيما فألقته الريح في أذنه فنزل ومشى إلى الحراث وقال إنما مشيت إليك لثلاث تمنى ما لا تقدر عليه ثم قال للتسيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتى آل داود .

(حتى إذا أتوا على وادى النمل) حتى هي إلى يبتدأ بها الكلام ومع ذلك هي غاية لما قبلها كالتى في قوله تعالى (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل) الآية وهي ههنا غاية لما ينبئ عنه قوله تعالى فهم يوزعون من السير كأنه قيل فساروا حتى إذا أتوا الخ ووادى النمل واد بالشام كثير النمل على ما قاله مقاتل رضى الله عنه وبالطائف على ما قاله كعب رضى الله عنه وقيل هو واد تسكنه الجن والنمل مرا كبهم وتعديء الفعل اليه بكلمة على إما لأن إنيانهم كان من فوق وإما لأن المراد بالأتیان عليه قطعه من قولهم أتى على الشيء إذا أنفده وبلغ آخره ولعلهم أرادوا أن ينزلوا عند منتهى الوادى إذ حيثئذ يخافهم ما فى الأرض لا عند سيرهم فى الهواء وقوله تعالى (قالت نملة) جواب إذا كانت لما رأتهم متوجهين الى الوادى فرت منهم فصاحت صيحة تفهيت بها ما بحضرتها من النمل لمرادها فتبعها فى الفرار فشبّه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم فأجروا مجرام جعلت هي قائلة وما عداها من النمل مقول لهم حيث قيل (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) مع أنه لا يمتنع أن يخلق الله تعالى فيها النطق وفيما عداها العقل والهم وقرىء نملة يا أيها النمل بضم الميم وهو الأصل كالرجل وتسكين الميم تخفيف منه كالسبع فى السبع وقرىء بضم النون والميم قيل كانت نملة عرجاء تمشى وهي تتكاوس فنادت بما قالت فسمع سليمان عليه السلام كلامها من ثلاثة أميال وقيل كان اسمها طاخية وقرىء مسكنكم وقوله تعالى :

(لا يحطمنكم سليمان وجنوده) نهى فى الحقيقة للنمل عن التأخر فى دخول مساكنهم وإن كان بحسب الظاهر نهيا له عليه الصلاة والسلام وجنوده عن الحطم كقولهم لا أرينك هنا فهو استئناف أو بدل من الأمر كقول من قال

هفقلت له ارحل لا تقيم عندنا لا جواب له فان النون لا تدخله في السعة وقرىء  
 لا يحطمنكم بفتح الحاء وكسرها وأصله لا يحططنكم و قوله تعالى ﴿وم  
 لا يشعرون﴾ حال من فاعل يحططنكم مفيدة لتقييد الحطم بحال عدم شعورهم  
 بمكانهم حتى لو شعروا بذلك لم يحططوا وأرادت بذلك الإيذان بأنها عارفة  
 بشئون سليمان وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من عصمتهم عن الظلم  
 والإيذاء وقيل هو استئناف أى فهم سليمان ما قالته والقوم لا يشعرون بذلك  
 ﴿فتبسم ضاحكا من قولها﴾ تعجبا من حذرهما واهتمامها الى تدير مصالحتها  
 ومصالح بنى نوعها وسرورا بشهرة حاله وحال جنوده فى باب التقوى والشفقة  
 فيما بين أصناف المخلوقات التى هى أبعدها من إدراك أمثال هذه الأمور  
 وابتهاجا بما خصه الله تعالى به من إدراك همسها وفهم مرادها روى أنها أحست  
 بصوت الجنود ولا تعلم أنهم فى الهواء فأمر سليمان عليه السلام الريح فوفقت  
 لثلاث يذعرن حتى دخلن مساكنهن ﴿وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك﴾  
 أى اجعلنى أزع شكر نعمتك عندى واكفه وأربطه بحيث لا ينفلت عنى حتى  
 لا أنفك عن شكر أصله وقرىء بفتح ياء أوزعنى ﴿التى أنعت على وعلى  
 والدى﴾ أدرك فيه ذكرهما تكثيرا للنعمة فان الانعام عليهما لإنعام عليه  
 مستوجب للشكر ﴿وأن أعمل صالحا ترضاه﴾ إتماما للشكر واستدامة للنعمة  
 ﴿وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين﴾ فى جملتهم الجنة التى هى دار الصالحين.  
 ﴿وتفقد الطير﴾ أى تعرف أحوال الطير فلم ير الهدد فيها بينها ﴿فقال  
 حالى لا أرى الهدد أم كان من الغائبين﴾ كأنه قال أو لا مالى لا أراه لسائر  
 ستره أو لسبب آخر ثم بداله أنه غائب فأضرب عنه فأخذ يقول أهو غائب  
 ﴿لأعذبه عذابا شديدا﴾ قيل كان تعذيبه للطير بنف ريشه وتشميسه وقيل  
 بعمله مع ضده فى قفص وقيل بالتفريق بينه وبين ألفه ﴿أولاذبحنه﴾ ليعتبر به  
 أبناء جيلته ﴿أوليايأينى سلطان مبين﴾ بحجة تبين عذره والخلف فى الحفيظة  
 على أمه الأولين على تقدير عدم الثالث وقرىء ليايأينى بنونين أو لاهما مفتوحة  
 متعددة قيل لأنه عليه الصلاة والسلام لما أتم بيت المقدس تجهز للحج بحشره

فوافى الحرم وأقام به ما شاء وكان يقرب كل يوم طول مقامه خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحا يوم سهيلا فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضا حسناء أعجبتة خضرتها فنزل ليتغدى ويصلى فلم يجد الماء وكان الهدهد قنافة وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء في الزجاج فيجىء الشياطين فيسلخونها كما يسالخ الأهاب ويستخرجون الماء فتفقدته لذلك وقد كان حين نزل سليمان عليه السلام خلق الهدهد فرأى هدهدا واقفا فانحط إليه فوصف له ملك سليمان عليه السلام وما سخر له عن كل شيء وذكر له صاحبه ملك بلقيس وأن تحت يدها اثني عشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فما رجع إلا بعد العصر وذلك قوله تعالى :

(فمكث غير بعيد) أي زمانا غير مديد وقرىء بضم الكاف وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان عليه السلام فنظر فاذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده عليه ثم قال لسيد الطير وهو العقاب على به فارتفعت فنظرت فاذا هو مقبل فقصده فنادى الله وقال بحق الله الذي قواك وأقدرك على إلا رحمتي فتركته وقالت ثكلتك أمك إن نبي الله قد حلف ليعذبك قال وما استثنى قالت بلى قال أو ليأبيني بعذر مبين فلما قرب من سليمان عليه السلام أرخى ذنبه وجناحيه يحرها على الأرض تواضعا له فلما دنا منه أخذ عليه السلام برأسه فده إليه فقال يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى فارتعد سليمان عليه السلام وعفا عنه ثم سأله (فقال أحطت بما لم تحط به) أي علما ومعرفة وحفظته من جميع جهاته وقرىء أحطت بادغام الطاء في التاء باطباق وبغير إطباق ولا خفاء في أنه لم يرد بما ادعى الاحاطة به ما هو من حقائق العلوم ودقائق المعارف التي تكون معرفتها والإحاطة بها من وظائف أرباب العلم والحكمة لتوقفها على علم رصين وفضل مبين حتى يكون لإثباتها لنفسه بين يدي نبي الله سليمان عليه السلام تعديا عن طوره وتجاوزا عن دائرة قدرة ونفيها عنه عليه الصلاة والسلام جنابة على جنابة

فيحتاج الى الاعتذار عنه بأن ذلك كان منه بطريق الإلهام فكأخفه عليه الصلاة والسلام بذلك مع ما أوتي عليه الصلاة والسلام من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجملة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له عليه الصلاة والسلام في علمه وتنبيهها على أن في أدنى خلقه تعالى وأضعفهم من أحاط علماً بما لم يحط به لتحاقر إليه نفسه ويتضاغر إليه علمه ويكون لطفاله في ترك الإعجاب الذي هو غفلة العلماء بل أراد به ما هو من الأمور المحسوسة التي لا تعد الإحاطة بها فضيلة ولا الغفلة عنها نقيصة لعدم توقف إدراكها إلا على مجرد إحساس يستوى فيه العقلاء وغيرهم وقد علم أنه عليه الصلاة والسلام لم يشاهده ولم يسمع خبره من غيره قطعا فمبرعنه بما ذكر لترويج كلامه عنده عليه الصلاة والسلام وترغيبه في الإصغاء الى اعتذاره واستمالة قلبه نحو قبوله فان النفس للإعتذار المنبئ عن أمر بديع أقبل والى تلقى ما لا تعلمه أميل ثم أيده بقوله .

سليمان وبلقيس

(وجئتك من سبأ نبأ يقين) حيث فسر لإيهامه نوع تفسير وأراه عليه الصلاة والسلام أنه كان بعدد إقامة خدمة مهمة له حيث عبر عما جاء به بالنبأ والذي هو الخبر الخطير والشأن الكبير ووصفه بما وصفه وإلا فإذا صدر عنه عليه الصلاة والسلام مع ما حكى عنه ما حكى من الحمد والشكر واستدعاء الإيزاع حتى يليق بالحكمة الإلهية تنبيهه عليه الصلاة والسلام على تركه وسبأ منصرف على أنه اسم الحى سموا باسم أبيهم الأكبر وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان قالوا اسمه عبد شمس لقب به لكونه أول من سبى وقرىء بفتح الهمزة غير منصرف على أنه اسم للقبيلة ثم سميت مدينة مأرب بسبأ وبنيها وبين صنعاء مسيرة ثلاث وعلى هذه القراءة يجوز أن يراد به القبيلة والمدينة وأما على القراءة الأولى فالمراد هو الحى لا غير وعدم وقوف سليمان عليه السلام على نفيهم قبل إنشاء الهدد ليس بأمر بديع لا بد له من حكمة داعية إليه البتة وإن استحال خلو أفعاله تعالى من الحكم والمصالح لما أن المسافة بين محله

عليه الصلاة والسلام وبين مأرب وإن كانت قصيرة لكن مدة ما بين نزوله عليه الصلاة والسلام هناك وبين مجيء الهدد بالخبر أيضا قصيرة نعم اختصاص الهدد بذلك مع كون الجن أقوى منه مبنى على حكم بالغة يستأثر بها علام الغيوب وقوله تعالى ﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾ استئناف ببيان ما جاء به من النبأ وتفصيل له أثر الإجمال وهي بلقيس بنت شراحيل بن مالك ابن ريان وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها ورث الملك من أربعين أبا ولم يكن له ولد غيرها فغلبت بعده على الملك ودانت لها الأمة وكانت هي وقومها نجوسا يعبدون الشمس ولا يثارت وجدت على رأيت لما أشير إليه من الإيذان بكونه عند غيبته بصدد خدمته عليه الصلاة والسلام بإراز نفسه في معرض من يتفقد أحوالها ويتعرفها كأنها طلبته وضالته ليعرضها على سليمان عليه السلام وضمير تملكهم لسبأ على أنه اسم الحى أو لأهلها المدلول عليهم بذكر مدينتهم على أنه اسم لها ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ أى من الأشياء التى يحتاج إليها الملوك :

﴿ولها عرش عظيم﴾ قيل كان ثلاثين ذراعا في ثلاثين عرضا وسما وقيل ثمانين في ثمانين من ذهب وفضة مكللا بالجواهر وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودر وزمرد وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق واستعظام الهدد لمرشها مع ما كان يشاهده من ملك سليمان عليه السلام إما بالنسبة إلى حالها أو إلى عروش أمثالها من الملوك وقد جوز أن لا يكون لسليمان عليه السلام مثله وأيا ما كان فوصفه بذلك بين يديه عليه الصلاة والسلام لما مر من ترغيبه عليه الصلاة والسلام في الإصغاء إلى حديثه وتوجيه عزمته عليه الصلاة والسلام نحو تسخيرها ولذلك عقبه بما يوجب غزوها من كفرها وكفر قومها حيث قال ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾ أى يعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ التى هى عبادة الشمس ونظائرها من أصناف الكفر والمعاصى ﴿فصدم﴾ بسبب ذلك ﴿عن السبيل﴾ أى سبيل الحق والصواب فإن تزيين أعمالهم لا يتصور بدون تقويم طرق كفرهم وضلالهم ومن ضرورته نسبة طريق الحق إلى العوج ﴿فهم﴾ بسبب ذلك



( لا يهتدون ) إليه وقوله تعالى ( أن لا يسجدوا لله ) مفعول له إما للصد أو للتزيين على حذف اللام منه أى فصدهم لأن لا يسجدوا له تعالى أو زين لهم أعمالهم لأن لا يسجدوا له تعالى أو زين لهم أعمالهم لأن لا يسجدوا أو بدل على حاله من أعمالهم وما بينهما اعتراض أى زين لهم أن لا يسجدوا وقيل هو فى موقع المفعول ليهتدون بإسقاط الخافض ولا مزيدة كما فى قوله تعالى ( لئلا يعلم أهل الكتاب ) والمعنى فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا له تعالى وقرىء ألا يا اسجدوا على التنبيه والنداء والمنادى محذوف أى ألا يا قوم اسجدوا كما فى قوله • ألا يا اسلمى يادارمى على البلى • ونظائره وعلى هذا يحتمل أن يكون استئنافا من جهة الله عز وجل أو من سليمان عليه السلام ويوقف على لا يهتدون ويكون أمرا بالسجود وعلى الوجوه المتقدمة ذما على تركه وأيا ما كان فالسجود واجب وقرىء هلا وهلا بقلب الهمزتين هاء وقرىء هلا تسجدون بمعنى ألا تسجدون على الخطاب .

( الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ) أى يظهر ما هو مخبوء ومخفى فيهما كأننا ما كان وتخصيص هذا الوصف بالذكر بصدد بيان تفرد تعالى باستحقاق السجود له من بين سائر أوصافه الموجبة لذلك لما أنه أوسع فى معرفته والإحاطة بأحكامه بمشاهدة آثاره التى من جملتها ما أودعه الله تعالى فى نفسه من مقدرة على معرفة الماء تحت الأرض وأشار بعطف قوله ( ويعلم ما تخفون وما تعلنون ) على يخرج إلى أنه تعالى يخرج ما فى العالم الإنسانى من الخفايا كما يخرج ما فى العالم الكبير من الخبايا لما أن المراد يظهر ما تخفونه من الأحوال فيجازيكم بها وذكر ما تعلنون لتوسيع دائرة العلم والتنبيه على تساويهما بالنسبة إلى العلم الإلهى وقرىء ما يخفون وما يعلنون على صيغة الغيبة بلا التثنية وإخراج الخبء يعم إشراف الكواكب وإظهارها من آفاقها بعد استنارتها ورأىها وإنزال الأمطار وإنبات النبات بل الإنشاء الذى هو إخراج ما فى الشيء بالقوة إلى الفعل والإبداع الذى هو إخراج ما فى الإمكان والعدم إلى الوجود وغير ذلك من بغيوبه عز وجل وقرىء الخبء بتخفيف الهمزة

بالخذف وقرئ: الخبا بتخفيفها بالقلب وقرئ: (ألا تسجدون لله الذي يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سركم وما تعلمون) ﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ الذي هو أول الأجرام وأعظمها وقرئ: العظيم بالرفع على أنه صفة الرب واعلم أن ما حكى من الهدهد من قوله الذي يخرج الخبء إلى هنا ليس داخلا تحت قوله أحطت بما لم تحط به وإنما هو من العلوم والمعارف التي اقتبسها من سليمان عليه السلام أورده يانا لما هو عليه واظهاراً لتصلبه في الدين وكل ذلك لتوجيه قلبه عليه الصلاة والسلام نحو قبول كلامه وصرف عنان عزمته عليه السلام إلى غزوها وتسخير ولايتها

﴿قال﴾ استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية كلام الهدهد كأنه قيل فماذا فعل سليمان عليه السلام عند ذلك فقيل قال ﴿سنظر﴾ أي فيما ذكرته من النظر بمعنى التأمل والسين للتأكيد أي سنعرف بالتجربة البتة ﴿أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ كان مقتضى الظاهر أم كذبت وإثبات ما عليه النظم الكريم للإيدان بأن كذبه في هذه المادة يستلزم انتظامه في سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه فإن مساق هذه الأقاويل الملفقة على ترتيب أنيق يستعمل قلوب السامعين نحو قبرها من غير أن يكون لها مصداق أصلاً لاسيما بين يدي نبي عظيم الشأن لا يكاد يصدر إلا عن له قدم راسخ في الكذب والإفك وقوله تعالى ﴿أذهب بكتابي هذا فألقه إليهم﴾ استئناف مبين لسكينة النظر الذي وعده عليه الصلاة والسلام وقد قال عليه الصلاة والسلام بعدما كتب كتابه في ذلك المجلس أو بعده وتخصيصه عليه الصلاة والسلام إياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجن الأفوياء على التصرف والتعرف لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة وصحة الفراسة ولئلا يبقى له عند أصلاً ﴿ثم قول عنهم﴾ أي تنح إلى مكان قريب تتوارى فيه ﴿فانظر﴾ أي تأمل وتعرف ﴿ماذا يرجعون﴾ أي ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول وجمع الضمائر لما أن مضمون الكتاب الكريم دعوة الكل إلى الإسلام (١٧ - أبو السعود - رابع)

(قالت) أى بعد ما ذهب الهدد بالكتاب فألقاه إليهم وتنحى عنهم حسبما أمر به وإنما طوى ذكره لإدناها بكمال مسارعته إلى إقامة ما أمر به من الخدمة وإشعارا باستغنائها عن التصريح به لغاية ظهوره . روى أنه عليه الصلاة والسلام كتب كتابه وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهدد فوجدوها الهدد راقدة في قصرها بمأرب وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية وقيل فقرها فالتبته فزعة وقيل أتاها والقادة والجنود حوالها فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب فى حجرها وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تبع الحميرى كما مر فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت فعند ذلك قالت لأشرف قوما (يا أيها الملاء إني ألقى إلى كتاب كريم) وصفته بالكرم لكرم مضمونه أو لكونه من عند ملك كريم أو لكونه مختوما أو لغرابة شأنه ووصوله إليها على منهاج غير معتاد (لأنه من سليمان) استثناء وقع جوابا لسؤال مقدر كأنه قيل بمن هو وماذا مضمونه فقالت لأنه من سليمان (ولأنه) أى مضمونه أو المكتوب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) وفيه إشارة إلى سبب وصفها إياه بالكرم وقرئ أنه وأنه بالفتح على حذف اللام كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وبكونه مصدرا باسم الله تعالى وقيل على أنه بدل من كتاب وقرئ أن من سليمان وأن بسم الله الرحمن الرحيم على أن المفسرة

(أن لا تعلوا على) أن مفسرة ولا ناهية أى لا تتكبروا كما يفعل جبابرة الملوك وقيل مصدرية ناصبة للفعل ولا نافية محلها الرفع على أنها بدل من كتاب أو خبر لمبتدأ مضمرة يليق بالمقام أى مضمونه أن لا تعلوا أو انصب بإسقاط الخافض أى بأن لا تعلوا على وقرئ ألا تغلوا بالعين المعجمة أى لا تجاوزوا حدكم (واتتوني مسلمين) أى مؤمنين وقيل منقادين والاول هو الأليق بشأن النبى عليه الصلاة والسلام على أن الإيمان مستتبع للانقياد حتما . روى أن نسخة الكتاب ومن عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة

سبأ السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا على واثقوى مسلمين ، وليس الأمر فيه بالإسلام قبل إقامة الحجّة على رسالته حتى يتوهم كونه استدعاءً للتقليد فإن القاء الكتاب إليها على تلك الحالة معجزة باهرة دالة على رسالة مرسلها دلالة بينة ( قالت ) كررت حكاية قولها للإيدان بغاية اعتنائها بما في حيزه من قولها ( يا أيها الملا أفتونى فى أمرى ) أى أجيبونى فى أمرى الذى حزبنى وذكّرت لكم خلاصته وعبرت عن الجواب بالفتوى التى هى الجواب فى الحوادث المشككة غالباً تهويلاً للأمر ورفعاً لمحلهم بالإشعار بأنهم قادرون على حل المشكلات المللة وقولها ( ما كنت قاطعة أمراً ) أى من الأمور المتعلقة بالملك ( حقّ تشهدون ) أى إلا بمحضركم وبموجب آرائكم استعظافاً لهم واستئالة لقلوبهم لئلا يخالفوها فى الرأى والتدبير .

( قالوا ) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قولها كأنه قيل فماذا قالوا فى جوابها فقيل قالوا ( نحن أولو قرة ) فى الأجساد والآلات والعدد ( وأولو بأس شديد ) أى نجدة وشجاعة مفرطة وبلاء فى الحرب ( والأمر إليك ) أى هو موكل إليك ( فانظرى ماذا تأمرين ) ونحن مطيعون لك فمرينا بأمرك نمثل به ونقتبع رأيك أو أردوا نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأى والمشورة وإليك الرأى والتدبير فانظرى ماذا ترين نكّن فى الخدمة فلما أحست منهم الميل إلى الحراب والعدول عن سنن الصواب شرعت فى تزييف مقالتهم المبيلة على الغفلة عن شأن سليمان عليه السلام وذلك قوله تعالى ( قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية ) من القرى على منهاج المقاتلة والحراب ( أفسدوها ) بتخريب عماراتها واثلاف ما فيها من الأموال ( وجعلوا أعزة أهلها أذلة ) بالقتل والأسر والإجلاء وغير ذلك من فنون الإهانة والإذلال ( وكذلك يفعلون ) تأكيد لما وصفت من حالهم بطريق الاعتراض التذييلى وتقرير له بأن ذلك عادتهم المستمرة وقيل تصديق لها من جهة الله تعالى على طريقة قوله تعالى ( ولو جئنا بمثله مددا ) إثر قوله ( لنفند البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ) .

﴿ولمّا مرسله إلههم بهدية﴾ تقرير لرأيها بعد ما زيفت آراءهم وأنت بالجملة الاسمية الدالة على الثبات المصدرة بحرف التحقيق للإيذان بأنها مزمنة على رأيها لا يلويها عنه صارف ولا يثنىها عاطف أى ولمّا مرسله إلههم رسلا بهدية عظيمة ﴿فناظرة بهم يرجع المرسلون﴾ حتى أعمل بما يقتضيه الحال . روى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى وحلّهن الأساور والأطواق والقرطة راكبي خيل مغشاة بالديباج عملة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر وخمسمائة جارية على رماك في رى الغلمان وألف لبنة من ذهب وفضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع والمسك والعنبر وحقا فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب وبعث رجلا من أشراف قومها المغنّدين عمرو وآخر ذارأى وعقل وقالت إن كان نبيا ميز بين الغلمان والجوارى وثقب الدرة ثقبا مستويا وسلك في الحرزة خيطا ثم قالت للمنذر إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولك وإن رأيت به شأ لطيفا فهو نبى فأقبل الهدهد فأخبر سليمان عليه السلام بذلك فأمر الجن فضربوا ابن الذهب والفضة وفرشوه في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ وجعلوا حول الميدان حائطا شرفاته من الذهب والفضة وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللين وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا على اليمين واليسار ثم قعد على سريره والكراسى من جانبيه واصطففت الشياطين صفوفا فراسخ والإنس صفوفا فراسخ والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك فلما دنا القوم ونظروا بهتوا ورأوا الدواب تروث على اللين فتعاصرت إلههم نفوسهم ورموا بما معهم ولما وقفوا بين يديه نظر إلههم بوجه طلق وقال ما وراءكم وقال أين الحق وأخبره جبريل عليهما السلام بما فيه فقال لهم إن فيه كذا وكذا ثم أمر بالأرضة فأخذت شمعة ونفذت في الدرة فجعل رزقها في الشجرة وأخذت دودة يبضاء الخيط بفمها ونفذت في الجزعة فجعل رزقها في الفواكه ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وذلك قوله تعالى :

﴿ فلما جاء سليمان ﴾ أى الرسول ﴿ قال ﴾ أى مخاطبا للرسول والمرسل تغليبا للحاضر على الغائب وقيل للرسول ومن معه ويؤيده أنه قرىء فلما جاءوا والاول أولى لما فيه من تشديد الإنكار والتوبيخ وتعميمهما لبليقيس وقومها ويؤيده الإفراد فى قوله تعالى ارجع إليهم ﴿ أتمدون بمال ﴾ وهو إنكار لإمدادهم إياه عليه الصلاة والسلام بالمال مع علو شأنه وسعة سلطانه وتوبيخ لهم بذلك وتنكير مال للتنقيص وقوله تعالى ﴿ فما آتاني الله ﴾ أى عما رأيتم آثاره من النبوة والملك الذى لا غاية وراءه ﴿ خير مما آتاكم ﴾ أى من المال الذى من جملته ما جئتم به فلا حاجة لى إلى هديتكم ولا وقع لها عندي تعليلا للإنكار ولعله عليه الصلاة والسلام إنما قال لهم هذه المقالة إلى آخرها بعد ما جرى بينه وبينهم ما حكى من قصة الحق وغيرها كما أشير اليه لا أنه عليه الصلاة والسلام خاطبهم بها أول ما جاءوه كما يفهم من ظاهر قوله تعالى فلما جاء الخ وقرىء أتمدوني بالإدغام وبنون واحدة وبنونين وحذف الياء وقوله تعالى ﴿ بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ إضراب عما ذكر من إنكار الإمداد بالمال إلى التوبيخ بفرحهم بهديتهم التى أهدوها إليه عليه الصلاة والسلام فرح افتخار وامتنان واعتداد بها كما يفيء عنه ما ذكر من حديث الحق والجزعة وتغيير زى الغلمان والجوارى وغير ذلك وفائدة الإضراب التنبيه على أن إمداده عليه الصلاة والسلام بالمال مشكور قبيح وعد ذلك مع أنه لا قدر له عنده عليه الصلاة والسلام مما يقتنافس فيه المتنافسون أقبح والتوبيخ به أدخل وقيل المضاف إليه المهدى إليه والمعنى بل أنتم بما يهدى إليكم تفرحون جبا لزيادة المال لما أنكم لا تعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا .

﴿ ارجع ﴾ أفرد الضمير هنا بعد جمع الضمائر الخمسة فيما سبق لاختصاص الرجوع بالرسول وعموم الإمداد ونحوه للكل أى ارجع أيها الرسول ﴿ إليهم ﴾ أى إلى بليقيس وقومها فلئلا يتنهم أى فواقه لتأنيثهم ﴿ بمجنود لا قبل لهم بها ﴾ أى لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها وقرىء بهم ﴿ ولنخرجنهم ﴾ عطف على جواب القسم ﴿ منها ﴾ من سبأ ﴿ أدلة ﴾ أى حال كونهم أدلة

بعد ما كانوا فيه من العز والتمكين وفي جمع القلة تأكيد لذلتهم وقوله تعالى ﴿وهم صاغرون﴾ أى أسارى مهانون حال أخرى مفيدة لتكون لإخراجهم بطريق الأسر لا بطريق الإجماع وعدم وقوع جواب القسم لأنه كان معلوما بشرط قد حذف عند الحكاية ثقة بدلالة الحال عليه كأنه قيل ارجع إليهم فليأتوا مسلمين وإلا فلنأتينهم الخ ﴿قال يا أيها الملأ أياكم يأتيكم بمرشها﴾ قاله عليه الصلاة والسلام لما دنا مجيء بلقيس إليه عليه الصلاة والسلام يروى أنه لما رجعت رسلها إليها بما حكى من خبر سليمان عليه السلام قالت قد علمت والله ما هذا بملك ولا لنا به من طاقة وبعثت إلى سليمان عليه السلام إنى قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك ثم آذنت بالرحيل إلى سليمان عليه السلام فشخصت إليه فى اثني عشر ألف قيل تحت كل قيل ألوف ويروى أنها أمرت فجعل عرشها فى آخر سبعة آيات بعضها فى بعض فى آخر قصر من قصور سبعة لها وغلقت الأبواب ووكلت به حرسا يحفظونه ولعله أوحى إلى سليمان عليه السلام باستيناقها من عرشها فأراد أن يريها بعض ما خصه الله عز سلطانه به من لإجراء التعاجيب على يده مع إطلاعها على عظيم قدرته تعالى وصحة نبوته عليه الصلاة والسلام ويختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفه أم لا وتقييد الإتيان به بقوله تعالى ﴿قبل أن يأتوني مسلمين﴾ لما أن ذلك أبدع وأغرب وأبعد من الوقوع عادة وأدل على عظم قدرة الله تعالى وصحة نبوته عليه الصلاة والسلام وليكون اختبارها وإطلاعها على بدائع المعجزات فى أول مجيئها وقيل لأنها إذا أتت مسلمة لم يحل له أخذ مالها بغير رضاها .

﴿قال عفريت﴾ أى مارد خبيث ﴿من الجن﴾ بيان له إذ يقال للرجل الخبيث المشكر المعفر لأقرانه وكان اسمه ذكوان أو صخرأ ﴿أنا آتيك به﴾ أى بمرشها ﴿قبل أن تقوم من مقامك﴾ أى من مجلسك للحكومة وكان مجلس إلى نصف النهار وآتيك إما صيغة المضارع أو الفاعل وهو الأنسب لمقام ادعاء الإتيان به لا محالة وأوفق لما عطف عليه من الجملة الاسمية أى أنا آت به فى تلك

المدة البتة ﴿ولاني عليه﴾ أى على الإتيان به ﴿لقوى﴾ لا يشغل على حمله ﴿أمين﴾ لا أخترل منه شيئاً ولا أبدله .

﴿قال الذى عنده علم من الكتاب﴾ فصل عما قبله للإيدان بما بين القائلين ومقاليهما وكيفيتى قدرتهما على الإتيان من كمال التبان أو لإسقاط الأول عن درجة الاعتبار قيل هو آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام وقيل رجل . كان عنده اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أجاب وقيل الخضر أو جبريل أو ملك أیده الله عز وجل به عليهم السلام وقيل هو سليمان نفسه عليه السلام وفيه بعد لا يخفى والمراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب المنزلة أو اللوح وتنكير علم للتفخيم والرمز إلى أنه علم غير معهود ومن ابتدائية ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ الطرف تحريك الأجفان وفتحها للنظر إلى شيء وارتداده انضمامهما ولكونه أمراً طبيعياً غير منوط بالقصد أوثر الارتداد على الرد ولما لم يكن بين هذا الوعد وإنجازه مدة كما فى وعد العفريت استغنى عن التأكيد وطوى عند الحكاية ذكر الإتيان به للإيدان بأنه أمر متحقق غنى عن الإخبار به وجيء بالفاء النصيحة لا داخلية على جملة معطوفة على جملة مقدرة دالة على تحققه فقط كما فى قوله عز وجل ﴿فقلنا اضرب بعصاك البحر فانقلب﴾ ونظائره بل داخلية على الشرطية حيث قيل :

﴿فلما رآه مستقراً عنده﴾ أى رأى العرش حاضراً لديه كما فى قوله عز وجل ﴿فلما رآه أكبره﴾ للدلالة على كمال ظهور ما ذكر من تحققه واستغنائه عن الإخبار به ببيان ظهور ما يترتب عليه من رؤية سليمان عليه السلام لإياه واستغنائه أيضاً عن التصريح به إذ التقدير فأتاه به فرآه فلما رآه الخ حذف ما حذف لما ذكر وللإيدان بكمال سرعة الإتيان به كأنه لم يقع بين الوعد به وبين رؤيته عليه الصلاة والسلام لإياه شيء ما أصلاً وفى تقييد رؤيته باستقراره عنده عليه الصلاة والسلام تأكيد لهذا المعنى لإيهامه أنه لم يتوسط بينهما ابتداء الإتيان أيضاً كأنه لم يزل موجوداً عنده مع ما فيه من الدلالة على دوام قراره عنده منتظماً فى سلك ملسك ﴿قال﴾ أى سليمان عليه السلام تلقياً للنعمة



بالشكر جرياً على سنن أبناء جنسه من أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وخلص عبادَه ﴿ هذا ﴾ أى حضور العرش بين يديه فى هذه المدة القصيرة أو التمكن من إحضاره بالواسطة أو بالذات كما قيل ﴿ من فضل ربي ﴾ أى تفضله على من غير استحقاق له من قبلى ﴿ ليبلونى أشكر ﴾ بأن أراه محض فضله تعالى من غير حول من جهتي ولا قوة وأقوم بحقه ﴿ أم أكفر ﴾ بأن أجد لنفسى مدخلاً فى البين أو أقصر فى إقامة مواجبه كما هو شأن سائر النعم العائضة على العباد ﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ لأنه يرتبط به عتيدها ويستجلب به مزيدها ويحط به عن ذمته عبء الواجب ويتخلص عن وصمة الكفران ﴿ ومن كفر ﴾ أى لم يشكر ﴿ فإن ربي غفى ﴾ عن شكره ﴿ كريم ﴾ ترك تعجيل العقوبة والإنعام مع عدم الشكر أيضاً ﴿ قال ﴾ أى سليمان عليه السلام كررت الحكاية مع كون المحكى سابقاً ولاحقاً من كلامه عليه الصلاة والسلام تنبيهاً على ما بين السابق واللاحق من المخالفة لما أن الأول من باب الشكر لله تعالى والثانى أمر لخدمه ﴿ نكروا لها عرشها ﴾ أى غيروا هيئته بوجه من الوجوه ﴿ ننظر ﴾ الجزم على أنه جواب الأمر وقرى بالرفع على الاستئناف ﴿ أنهتدى ﴾ إلى معرفته أو إلى الجواب اللاتق بالمقام وقيل إلى الايمان بالله تعالى ورسوله عند رؤيتها لتقدم عرشها من مسافة طويلة فى مدة قليلة وقد خلفته مغلفة عليه الأبواب موكلة عليه الحراس والحجاب وبأبواب تعليق النظر المتعلق بالاهتداء بالتسكير فإن ذلك بما لا دخل فيه للتسكير .

﴿ أم تكون ﴾ أى بالنسبة إلى علمنا ﴿ من الذين لا يهتدون ﴾ أى إلى ما ذكر من معرفة عرشها أو الجواب الصواب فإن كونها فى نفس الأمر منهم وإن كان أمراً مستوراً لكن كونها منهم عند سليمان عليه السلام وقومه أمر حادث يظهر بالاختبار ﴿ فلما جاءت ﴾ شروع فى حكاية التجربة التى قصدتها سليمان عليه السلام أى فلما جاءت بلقيس سليمان عليه السلام وقد كان العرش بين يديه ﴿ قيل ﴾ أى من جهة سليمان عليه السلام بالذات أم بالواسطة ﴿ أم كنا عرشك ﴾ لم يقل أهذا عرشك لئلا يكون تلقيناً لها فيفوت ما هو

المقصود من الأمر بالتنكير من إبراز العرش في معرض الإشكال والاشتباه حتى يقين حالها وقد ذكرت عنده عليه الصلاة والسلام بسخافة العقل ﴿قالت كأنه هو﴾ فأبأت عن كمال رجاحة عقلها حيث لم تقل هو هو مع عليها بحقيقة الحال تلويحاً بما اعتراه بالتنكير من نوع مغايرة في الصفات مع اتحاد الذات ومراعاة لحسن الأدب في محاورته عليه الصلاة والسلام ﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ من تنمة كلامها كأنها ظنت أنه عليه الصلاة والسلام أراد بذلك اختيار عقلها وإظهار معجزة لها فقالت وأوتينا العلم بكال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة التي شاهدناها بما سمعناه من المنذر من الآيات الدالة على ذلك وكنا مسلمين من ذلك الوقت وفيه من الدلالة على كمال رزانة رأيها ورصانة فكرها ما لا يخفى وقوله تعالى :

﴿وصدها ما كانت تعبد من دون الله﴾ بيان من جهته تعالى لما كان يمنعها من إظهار ما ادعته من الإسلام إلى الآن أى صدها عن ذلك عبادتها القديمة للشمس ، وقوله تعالى ﴿لأنها كانت من قوم كافرين﴾ تعليل لسببية عبادتها المذكورة للصد أى أنها كانت من قوم راسخين في الكفر ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها وهى بين ظهرانهم إلى أن دخلت تحت ملكة سليمان عليه السلام وقرىء أنها بالفتح على البدلية من فاعل صد أو على التعليل بحذف اللام هذا وأما ما قيل من أن قوله تعالى (وأوتينا العلم) إلى قوله تعالى (من قوم كافرين) من كلام سليمان عليه السلام وملئه كأنهم لما سمعوا قولها كأنه هو تفطنوا لإسلامها فقالوا استحسننا لشأنها أصابت في الجواب وعلمت قدرة الله تعالى وصحة النبوة بما سمعت من المنذر من الآيات المتقدمة وبما عاينت من هذه الآية الباهرة من أمر عرشها ورزقت الإسلام فعطفوا على ذلك قولهم وأوتينا العلم الخ أى وأوتينا نحن العلم بالله تعالى وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده قبل عليها ولم نزل على دين الإسلام شكراً لله تعالى على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله تعالى والإسلام قبلها وصدها عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهرائى الكفرة فما لا يخفى ما فيه من البعد

والتعسف ﴿ قيل لها ادخلي الصرح ﴾ الصرح القصر وقيل صحن الدار .  
 روى أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصرأ من زجاج  
 أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه من دواب البحر السمك وغيره ووضع  
 سريره في صدره فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس وإنما فعل ذلك  
 ليزيدها استعظاما لأمره وتحقيقا لنبوته وثباتا على الدين وزعموا أن الجن  
 كرهوا أن يتزوجها فتفضى إليه بأسرارهم لأنها كانت بنت جنية وقيل خافوا  
 أن يولد له منها ولد يجتمع له فطنة الجن والإنس فيخرجون من ملك سليمان  
 عليه السلام إلى ملك هو أشد وأفظح فقالوا إن في عقلها شيئا وهي شعراء  
 الساقين ورجلها كحافر الحمار فاختر عقلها بتسكير العرش واتخذ الصرح  
 ليتعرف ساقها ورجلها ﴿ فلما رأته ﴾ وهو حاضر بين يديها كما يعرب عنه  
 الأمر بدخولها وأحاطت بتفاصيل أحواله خبرا ﴿ حسبته لجة وكشفت عن  
 ساقها ﴾ وتشمرت لثلاث تبتل أذيالها فإذا هي أحسن الناس ساقا وقدما خلأها  
 شعراء قيل هي السبب في اتخاذ النورة أمر بها الشياطين فاتخذوها واستنكحها  
 عليه الصلاة والسلام وأمر الجن فبنوا لها سلعين وغمدان وكان يزورها في  
 الشهر مرة ويقم عندها ثلاثة أيام وقيل بل زوجها ذاتع ملك همدان وسلطه  
 على اليمن وأسر زوبعة أمير جن اليمن أن يطيعه فبنى له المصانع وقرى ساقها  
 حملا للفرد على الجمع في سوق وأسوق .

﴿ قال ﴾ عليه الصلاة والسلام حين رأى ما اعتراها من الدهشة والرعب  
 ﴿ لأنه ﴾ أي ما توهمته ماء ﴿ صرح بمرد ﴾ أي علس ﴿ من قوادير ﴾ من  
 الزجاج ﴿ قالت ﴾ حين عاينت تلك المعجزة أيضا ﴿ رب إني ظلمت نفسي ﴾  
 بما كنت عليه إلى الآن من عبادة الشمس وقيل بظني سليمان حيث ظنت أنه  
 يريد إغراقها في اللجة وهو بعيد ﴿ وأسليت مع سليمان ﴾ تابعة له مقتدية به  
 وما في قوله تعالى ﴿ لله رب العالمين ﴾ من الالتفات إلى الاسم الجليل ووصفه  
 برؤية العالمين لإظهار معرفتها بألوهيته تعالى وتفردة باستحقاق العبادة وربوبيته  
 بجميع الموجودات التي من جملتها ما كانت تعبد قبل ذلك من الشمس ﴿ ولقد

أرسلنا ﴿ عطف على قوله تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما) مسوق لما سبق  
 هوله من تقرير أنه عليه الصلاة والسلام يلقي القرآن من لدن حكيم عليم فإن هذه  
 القصة من جملة القرآن الكريم الذي لقيه عليه الصلاة والسلام واللام جواب قسم  
 محذوف أى وبالله لقد أرسلنا ﴿ إلى ثمود أخام صالحا ﴾ وأن فى قوله تعالى ﴿ أن  
 اعبدوا الله ﴾ مفسرة لما فى الإرسال من معنى القول أو مصدرية حذف عنها الباء  
 وقرئ بضم النون اتباعا لها للباء ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ ففاجؤا  
 التفرق والاختصاص فآمن فريق وكفر فريق والراو مجموع الفريقين ﴿ قال ﴾  
 عليه الصلاة والسلام للفريق الكافر منهم بعد ما شاهد منهم ما شاهد من نهاية  
 العتو والعناد حتى بلغوا من المكابرة إلى أن قالوا له عليه الصلاة والسلام  
 يا صالح اتلنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .

﴿ يا قوم لم تستعجلون بالسيئة ﴾ أى بالعقوبة السيئة ﴿ قبل الحسنة ﴾  
 أى التوبة فتؤخرونها إلى حين نزولها حيث كانوا من جهلهم وغوايتهم يقولون  
 إن وقع إيماده تبنا حينئذ وإلا فنحن على ما كنا عليه ﴿ لولا تستغفرون  
 الله ﴾ هلا تستغفرونه تعالى قبل نزولها ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ بقبولها إذ لا إمكان  
 للقبول عند النزول ﴿ قالوا اطيرنا ﴾ أصله تطيرنا والتطير التشاؤم عبر عنه  
 بذلك لما أنهم كانوا إذا خرجوا مسافرين فيمرون بطائر يزجرونه فإن مر  
 سائحا تيمنوا وإن مر بارحا تشاءموا فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعبر  
 لما كان سببا لهما من قدر الله تعالى وقسمته أو من عمل العبد أى تشاءمنا  
 ﴿ بك وبمن معك ﴾ فى دينك حيث تتأبعت علينا الشدائد وقد كافوا قحطوا  
 أو لم نزل فى اختلاف واقتراق مذ اخترعتم دينكم ﴿ قال طائركم ﴾ أى  
 سيكم الذى منه ينالكم ما ينالكم من الشر ﴿ عند الله ﴾ وهو قدره أو عملكم  
 المكتوب عنده وقوله تعالى ﴿ بل أنتم قوم تقنون ﴾ أى تختبرون بتعاقب  
 السراء والضراء أو تعذبون أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة إضراب  
 من بيان طائرهم الذى هو مبدأ ما يحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعى إليه  
 ﴿ وكان فى المدينة ﴾ وهى الحجر ﴿ تسعة رهط ﴾ أى أشخاص وبهذا  
 الاعتبار وقع تمييزا للتسعة لا باعتبار لفظه والفرق بينه وبين النضر أنه من

الثلاثة أو من السبعة إلى العشرة والتفر من الثلاثة إلى التسعة وأسماؤهم حسبما نقل عن وهب الهذيل بن عبد رب وغنم بن غنم ورتاب بن مهرج ومصدع ابن مهرج وعمير بن كردبة وعاصم بن غرمة وسبيط بن صدقة وشمعان بن صفي وقدار بن سالف وهم الذين سعوا في عمر الناقة وكانوا عتاة قوم صالح وكانوا من أبناء أشرافهم ﴿ يفسدون في الأرض ﴾ لا في المدينة فقط لإفساداً بحتاً لا يخالطه شيء ما من الإصلاح كما ينطق به قوله تعالى ﴿ ولا يصلحون ﴾ أي لا يفعلون شيئاً من الإصلاح أو لا يصلحون شيئاً من الأشياء ﴿ قالوا ﴾ استئناف بيان بعض ما فعلوا من الفساد أي قال بعضهم لبعض في أثناء المشاورة في أمر صالح عليه الصلاة والسلام وكان ذلك غيب ما أئذرم بالعذاب وقوله تمتعوا في داركم ثلاثة أيام الخ ﴿ تقاسموا بالله ﴾ إما أمر مقول لقالوا أو ماض وقع بدلا منه أو حالا من فاعله بإضمار قد وقوله تعالى : ﴿ لنبيئته وأهله ﴾ أي لنباغتن صالحاً وأهله ليلا ونقتلهم وقرىء بالتاء على خطاب بعضهم لبعض وقرىء بياء الغيبة وضم التاء على أن تقاسموا فعل ماض ﴿ ثم لنقولن لوليه ﴾ أي لولى صالح وقرىء بالتاء والياء كما قبله ﴿ ما شهدنا مهلك أهله ﴾ أي ما حضرنا هلاكهم أو مكان هلاكهم فضلاً أن نتولى إهلاكهم وقرىء مهلك بفتح اللام فيكون مصدراً ﴿ ولنا لصادقون ﴾ من تمام القول أو حال أي نقول ما نقول والحال إنا لصادقون في ذلك لأن الشاهد للشيء غير المباشر له عرفاً أو لأننا ما شهدنا مهلكهم وحده بل مهلكهم ومهلكهم جميعاً كقولك ما رأيت ثمة رجلاً بل رجلين .

﴿ ومكروا مكراً ﴾ بهذه المواضع ﴿ ومكروا مكراً ﴾ أي أهلكناهم إهلاكاً غير معهود ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أو جازيناهم مكراً من حيث لا يحتسبون ﴿ فانظر كيف كان عاقبة مكراً ﴾ شروع في بيان ما ترتب على ما باشروه من المكركيف معلقة لفعل النظر ومحل الجملة المنصب بنزع الخافض أي فتفكر في أنه كيف كان عاقبة مكراً وقوله تعالى ﴿ أنادمرناهم ﴾ إما بدل من عاقبة مكراً على أنه فاعل كان وهي تامة وكيف حال أي فانظر

كيف حصل أى على أى وجه حدث تدميرنا لإياهم وإما خبر لمبتدأ محذوف والجملة مبنية لما في عاقبة مكرهم من الإيهام أى هى تدميرنا لإياهم ﴿ وقومهم ﴾ الذين لم يكونوا معهم في مباشرة التبييت ﴿ أجمعين ﴾ بحيث لم يشذ منهم شاذ وإما تعليل لما ينهى عنه الأمر بالنظر في كيفية عاقبة مكرهم من غاية الهول والفظاعة بحذف الجار أى لأننا دمرناهم النخ وقيل كان ناقصة اسمها عاقبة مكرهم خبرها كيف كان فالأوجه حيثئذ أن يكون قوله تعالى أنا دمرناهم النخ تعليل لما ذكر وقرئ، إنا دمرناهم النخ بالكسر على الاستئناف .

روى أنه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحجر في شعب يصل فيه فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث نفرجوا إلى الشعب وقالوا إذا جاء يصل قتلناه ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة من المصنوب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم وعذب الله تعالى كلا منهم في مكانه ونجى صالحا ومن معه وقيل جاءوا بالليل شاهري سيوفهم وقد أرسل الله تعالى الملائكة ملء دار صالح فدمغهم بالحجارة يرون الحجارة ولا يرون راميا ﴿ فتلك بيوتهم ﴾ جملة مقررة لما قبلها وقوله تعالى :

﴿ خلوية ﴾ أى خالية أو ساقطة متهدمة ﴿ بما ظلموا ﴾ أى بسبب ظلمهم المذكور حال من بيوتهم والعامل معنى الإشارة وقرئ خلوية بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ﴿ إن في ذلك ﴾ أى فيما ذكر من التدمير العجيب بظلمهم ﴿ لآية ﴾ لعلهم عظميمة ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أى ما من شأنه أن يعلم من الأشياء أو لقوم يتصفون بالعلم ﴿ وأنجينا الذين آمنوا ﴾ صالحا ومن معه من المؤمنين ﴿ وكانرا يتقون ﴾ أى الكفر والمعاصي انقاء مستمرا فلذلك خصوا بالنجاة ﴿ ولوطا ﴾ منصوب بمضمر معطوف على أرسلنا في صدر قصة صالح داخل معه في حيز القسم أى وأرسلنا لوطا وقوله تعالى ﴿ إذ قال لقومه ﴾ ظرف للإرسال على أن المراد به أمر ممتد وقع فيه الإرسال وما جرى بينه وبين

قومه من الأقوال والأحوال وقيل انتصاب لوطا يا ضمار اذكر وإذ بدل منه وقيل بالعطف على الذين آمنوا أى وأنجينا لوطا وهو بعيد (أتأتون الفاحشة) أى الفعل المتناهية فى القبح والسماجة وقوله تعالى (وأتم تبصرون) جملة حالية من فاعل تأتون مفيدة لتأكيد الإنكار وتشديد التوبيخ فإن تعاطى القبيح من العالم بقبحه أقبح وأشنع وتبصرون من بصر القلب أى أنفعلونها والحال أنكم تعلمون علما يقينيا بكونها كذلك وقيل يبصرها بعضكم من بعض لما كانوا يعلمون بها (أنكم لتأتون الرجال شهوة) تثنية للإنكار وتكرير للتوبيخ وبيان لما يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح وتحلية الجملة بحرفى التأكيد للإيذان بأن مضمونها بما لا يصدق وقوعه أحد لكمال بعده من العقول وإيراد المفعول بعنوان الرجولية لتزينة التقييح وتحقيق المباينة بينها وبين الشهوة التى علل بها الإتيان (من دون النساء) متجاوزين للنساء اللاتى هن محال الشهوة (بل أنتم قوم تجهلون) تفعلون فعل الجاهلين بقبحه أو تجهلون العاقبة أو الجهل بمعنى السفاهة والجنون أى بل أنتم قوم سفهاء ماجنون والتاء فيه مع كونه صفة لقوم لكونهم فى حيز الخطاب .

(فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتناكم لأنهم أناس يتطهرون) يتنزهون عن أفعالنا أو عن الأقدار ويعدون فعلنا قدرا وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه استهزاء وقد مر فى سورة الأعراف أن هذا الجواب هو الذى صدر عنهم فى المرة الأخيرة من مرات مواعظ لوط عليه السلام بالأمر والنهى لا أنه لم يصدر عنهم كلام آخر غيره (فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها) أى قدرنا أنها (من الغابرين) أى الباقين فى العذاب (وأمطرنا عليهم مطرا) غير معهود (فساء مطر المنذرين) قد مر بيان كيفية ما جرى عليهم من العذاب غير مرة (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) إثر ما قص الله تعالى على رسوله عليه الصلاة والسلام قصص الأنبياء المذكورين عليهم الصلاة والسلام وأخبارهم الناطقة بكمال قدرته تعالى وعظم شأنه وبما خصهم به من الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة الدالة

على جلالة أقدارهم وصحة أخبارهم وبين على ألسنتهم حقيقة الإسلام والتوحيد وبطلان الكفر والإشراك وأن من اقتدى بهم فقد اهتدى ومن أعرض عنهم فقد تردى في مهاوى الردى وشرح صدره عليه الصلاة والسلام بما في تضاعيف تلك النصص من فتون المعارف الربانية ونور قلبه بأنوار الملكات السبعانية الفائضة من عالم القدس وقرر بذلك لغوى ما نطق به قوله عز وجل ( وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ) أمره عليه الصلاة والسلام بأن يحمده تعالى على ما أفاض عليه من تلك النعم التي لا مَطْمَع وراءها لطامع ولا مَطْمَح من دونها لطامح ويسلم على كافة الأنبياء الذين من جملتهم الذين قصت عليه أخبارهم التي هي من جملة المعارف التي أوحيت إليه عليه الصلاة والسلام أداء لحق تقدمهم واجتهادهم في الدين وقيل هو أمر للوط عليه السلام بأن يحمده تعالى على إهلاك كفرة قومه ويسلم على من اصطفاه بالعصمة عن الفواحش والنجاة عن الهلاك ولا يخفى بعده .

( الله خير أما يشركون ) أى الله الذى ذكرت شئونه العظيمة خير . أم ما يشركونه به تعالى من الأصنام ومرجع التردد إلى التعريض . بتبكيك الكفرة من جهته تعالى وتسفيه آرائهم الركيكة والتهكم بهم إذ من البين أن ليس فيما أنشركوه به تعالى شائبة خير ما حتى يمكن أن يوازن بينه وبين من لا خير إلا خيره ولا إله غيره وقرئ تشركون بالتاء الفوقانية بطريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكفرة وهو الالئق بما بعده من سياق النظم الكريم المبني على خطابهم وجعله من جملة القول المأمور به يأباه قوله تعالى فأبنتنا الخ فإنه صريح في أن التبكيك من قبله عز وجل بالذات وحمله على أنه حكاية منه عليه الصلاة والسلام لما أمر به بعبادته كما في قوله تعالى ( قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ) تعسف ظاهر من غير داع إليه وأم في قوله تعالى ( أم من خلق السموات والأرض ) منقطعة وما فيها من كلمة بل على القراءة الأولى للاضراب والانتقال من للتبكيك تعريضاً إلى التصريح به خطاباً على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد والتشديد وأما على القراءة الثانية فلتثنية التبكيك



وتكرير الإلزام كمنظارها الآتية والهمزة لتقريرهم أى حملهم على الإقرار بالحق على وجه الاضطرار فإنه لا يتالك أحد ممن له أدنى تمييز ولا يقدر على أن لا يعترف بخيرية من خلق جميع المخلوقات وأفاض على كل منها ما يليق به من منفعه من أحسن تلك المخلوقات وأدناها بل بأن لا خيرية فيه بوجه من الوجوه قطعاً ومن مبدءاً خبره محذوف مع أم المعادلة للهمزة تعويلاً على ما سبق في الاستفهام الأول بخلا أن تشركون بهذا بناء الخطاب على القراءتين معا وهكذا في المواضع الأربعة الآتية والمعنى بل أمن خلق قطرى العالم الجسماني ومبدأى منافع ما بينهما ﴿ وأزل لكم ﴾ التفات إلى خطاب الكفرة على القراءة الأولى لتشديد التبكيت والإلزام أى أنزل لأجلكم ومنفعتكم ﴿ من السماء ماء ﴾ أى نوعاً منه هو المطر .

﴿ فأنبتنا به جدائق ﴾ أى بسنتين محدقة ومحاطة بالحوائط ﴿ ذات بهجة ﴾ أى ذات حسن ورونق يبتج به النظر ﴿ ما كان لكم ﴾ أى ماصح وما أمكن لكم ﴿ أن تنبتوا شجرها ﴾ فضلاً عن ثمرها وسائر صفاتها البديعة خير أم ما تشركون وقرىء أمن بالتخفيف على أنه بدل من الله وتقديم صلى الإزال على مفعوله لما مر مراراً من التشويق إلى المؤخر والالتفات إلى التكلم في قوله تعالى فأنبتنا لتأكيد اختصاص الفعل بذاته تعالى والإيدان بأن إنبات تلك الحدائق المختلفة الأصناف والأوصاف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع ما لها من الحسن البارع والبهاء الرائع بماء واحد مما لا يكاد يقدر عليه إلا هو وحده حسبما ينبى عنه تقييدها بقوله تعالى ﴿ ما كان لكم ﴾ الخ سواء كانت صفة لها أو حالاً وتوحيد وصفها الأول أعنى ذات بهجة لما أن المعنى جماعة حدائق ذات بهجة على نهج قولهم النساء ذهبت وكذا الحال في ضمير شجرها ﴿ أله مع الله ﴾ أى أله آخر كائن مع الله الذى ذكر بعض أفعاله التى لا يكاد يقدر عليها غيره حتى يتوهم جعله شريكاً له تعالى في العبادة وهذا تبكيت لهم بنفى الألوهية عما يشركونه به تعالى في ضمن النفى الكلى على الطريقة البرهانية بعد تبكيتهم بنى الخيرية عنه بما ذكر من الترديد فإن أحداً ممن له تمييز في الجملة كما

لا يقدر على إنكار انتفاء الخيرية عنه بالمرة لا يكاد يقدر على إنكار انتفاء  
الالوهية عنه رأسا لا سيما بعد ملاحظة انتفاء أحكامها عما سواه تعالى وهكذا  
الحال في المواقع الأربعة الآتية وقيل المراد نبي أن يكون معه تعالى إله آخر  
فيما ذكر من الخلق وما عطف عليه لكن لا على أن التبكيك بنفس ذلك النفي  
فقط كيف لا وهم لا يذكرونه حسبما ينطق به قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق  
السموات والأرض ليقولن الله) بل يباشركم به تعالى في العبادة ما يعترفون  
بعدم مشاركته له تعالى فيما ذكر من لوازم الالوهية كأنه قيل إله آخر مع  
الله في خواص الالوهية حتى يجعل شريكاً له تعالى في العبادة وقيل المعنى أغیره يقرن به  
ويجعل له شريكاً في العبادة مع نفردته إلى الخلق والتكوين فالإنكار للتوابع والتبكيك  
مع تحقيق المنكر دون النفي كما في الوجهين السابقين والأول هو الأظهر الموافق  
لقوله تعالى (وما كان معه من إله) والأوفى بحق المقام لإفادته نفى وجود إله آخر  
معه تعالى رأسا لا نفى معيته في الخلق وفروعه فقط وقرئ إله بتوسيط مدة  
بين الهمزتين وإخراج الثانية بين بين وقرئ إلهما بإضمار فعل يناسب المقام  
مثل أتدعون أو أنشركون .

(بل هم قوم يعدلون) لإضراب وانتقال من تبكيكهم بطريق الخطاب إلى  
بيان سوء حالهم وحكايته لغيرهم أي بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق  
بالكلية والانحراف عن الاستقامة في كل أمر من الأمور فلذلك يفعلون  
ما يفعلون من العدول عن الحق الواضح الذي هو التوحيد والعكوف على  
الباطل البين الذي هو الإشراك وقيل يعدلون به تعالى غيره وهو بعيد حال عن  
الإفادة (أم من جعل الأرض قرارا) قيل هو بدل من أم من خلق السموات  
الخ وكذا ما بعده من الجمل الثلاث وحكم السكل واحد والأظهر أن كل واحدة  
منها لإضراب وانتقال من التبكيك بما قبلها إلى التبكيك بوجه آخر أدخل في  
الإلزام بجهة من الجهات أي جعلها بحيث يستقر عليها الإنسان والدواب بإبداء  
بعضها من الماء ودخولها وتسويتها حسبما تدور عليه منافعهم (وجعل خلاها)

أوساطها ﴿أنهارا﴾ جارية ينفثون بها ﴿وجعل لها رواسي﴾ أى جبالا ثوابت تمنعها أن تميد بأهلها ويتكون فيها المعادن وينبع في حضيضها الينابيع ويتعلق بها من المصالح ما لا يحصى ﴿وجعل بين البحرين﴾ أى العذب والمالح أو خليجى فارس والروم ﴿حاجزا﴾ برزخا مانعا من المازجة وقد مر في سورة الفرقان والجعل في المواقع الثلاثة الأخيرة إبداعى وتأخير مفعوله عن الطرف لما مر مرارا من التشويق ﴿إله مع الله﴾ فى الوجود أو فى إبداع هذه البدائع على ما مر ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أى شيئا من الأشياء ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره .

﴿أم من يجيب المضطر إذا دعاه﴾ وهو الذى أحوجته شدة من الشدائد وألجأته إلى اللجأ والضراعة إلى الله عز وجل اسم مفعول من الاضطرار الذى هو افتعال من الضرورة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو المجهود وعن السدى رحمه الله تعالى من لا حول له ولا قوة وقيل المذنب إذا استغفر واللام للجنس لا للافتراق حتى يلزم لإجابة كل مضطر ﴿ويكشف سوءه﴾ وهو الذى يعترى الإنسان مما يسوءه ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أى خلفاء فيها بأن ورثكم سكنناها والتصرف فيها من قبلكم من الأمم وقيل المراد بالخلافة الملك والتسلط ﴿إله مع الله﴾ الذى يفيض على كافة الأنام هذه النعم الجسام ﴿قليلًا ما تذكرون﴾ أى تذكر قليلًا أو زمانا قليلًا تذكرون وما من يدة لتأكيد معنى القلة التى أريد بها العدم أو ما يجرى مجراه فى الحقارة وعدم الجدوى وفى تذييل الكلام بنفى التذكر عنهم لإيدان بأن مضمونه مركوز فى ذهن كل ذكى وغبي وأنه من الواضح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه إليه وتذكره وقرئ تذكرون على الأصل وتذكرون ويذكرون بالتاء والياء مع الإدغام ﴿أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر﴾ أى فى ظلمات الليالى فهما على أن الإضافة للملابسة أو فى مشتبهات الطرق يقال طريقة ظلماء وعمياء لئلا لا مزار بها ﴿ومن يرسل الرياح يشرا بين يدي رحمته﴾ وهى المطر وإن صح أن السبب الأكثرى فى تكون الريح معاودة الأدخنة المساعدة من الطبقة الباردة

لأنكسار حرها وتمويجها للهواء فلا ريب في أن الأسباب الفاعلية والقابلية لذلك كله من خلق الله عز وجل والفاعل للسبب فاعل للمسبب قطعاً ﴿إله مع الله﴾ نفى لأن يكون معه إله آخر وقوله تعالى ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ تقرير وتحقيق له وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار للإشعار<sup>(١)</sup> بعبادة الحسب أي تعالى وتنزه بذاته المنفردة بالالوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال والجلال المقتضية لكون كل المخلوقات مقهوراً تحت قدرته عما يشركون أي عن وجود ما يشركونه به تعالى لا مطلقاً فإن وجوده بمالامرد له بل عن وجوده بعنوان كونه إلهاً وشريكاً له تعالى أو عن إشراكهم ﴿أم من يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي بل أم من يبدأ الخلق ثم يعيده بعد الموت بالبعث ﴿ومن يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي بأسباب سماوية وأرضية قد رتبها على ترتيب بديع تقتضيه الحكمة التي عليها بنى أمر التكوين خير أم ما تشركونه به في العبادة من جماد لا يتوهم قدرته على شيء ما أصلاً .

﴿إله﴾ آخر موجود ﴿مع الله﴾ حتى يجعل شريكاً له في العبادة وقوله تعالى ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ أمر له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم لآثر تبكيت أي هاتوا برهاناً عقلياً أو نقلياً يدل على أن معه تعالى إله لا على أن غيره تعالى يقدر على شيء مما ذكر من أفعاله تعالى كما قيل فإنهم لا يدعونه صريحاً ولا يلتزمون كونه من لوازم الألوهية وإن كان منها في الحقيقة فطالبتهم بالبرهان عليه لا على صريح دعواهم بما لا وجه له وفي إضافة البرهان إلى ضميرهم تهكم بهم لما فيها من ليهم أن لهم برهاناً وأنهم لم يأتوا بذلك ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي في تلك الدعوى ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ بعد ما حقق تفرد تعالى بالالوهية ببيان اختصاصه بعلم الغيب تسكيلاً لما قبله وتمهيداً لما بعده من أمر البعث والاستثناء منقطع ورفع المستثنى على اللغة التيمية للدلالة على استحالة علم الغيب من أهل السموات والأرض بتعليقه بكونه سبحانه وتعالى منهم كأنه

قيل إن كان الله تعالى بمن فيهما ففهم من يعلم الغيب أو متصل على أن المراد بمن  
 في السموات والأرض من تعلق علمه بهما واطلع عليهما اطلاع الحاضر فيهما  
 فإن ذلك معنى مجازى عام له تعالى ولأولى العلم من خلقه ومن موصولة أو موصوفة  
 ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ أى متى يذنبون من القبور مع كونه بما لا بد  
 لهم منه ومن أهم الأمور عندهم وأيان مركبة من أى وآن وقرىء بكسر الهمزة  
 والضمير للكفرة وإن كان عدم الشعور بما ذكر عاماً لكلاً يلزم التفكيك بينه  
 وبين ما سيأتى من الضمائر الخاصة بهم قطعاً وقيل السكل لمن وإسناد خواص  
 الكفرة إلى الجميع من قبيل قولهم بنو فلان فعلوا كذا والفاعل بعض منهم ﴿بل  
 ادرك علمهم في الآخرة﴾ لما نفى عنهم علم الغيب وأكد ذلك بنفى شعورهم  
 بوقت ما هو مصيرهم لا محالة بولغ في تأكيده وتقريره بأن أضرب عنه وبين  
 أنهم في جهل أفحش من جهلهم بوقت بعثهم حيث لا يعلمون أحوال الآخرة  
 مطلقاً مع تعاضد أسباب معرفتها على أن معنى ادرك علمهم في الآخرة تدارك  
 وتتابع علمهم في شأن الآخرة التى ما ذكر من البعث حال من أحوالها حتى  
 انقطع ولم يبق لهم علم بشئ مما سيكون فيها قطعاً لكن لا على معنى أنه كان لهم  
 علم بذلك على الحقيقة ثم انتفى شيئاً فشيئاً بل على طريقة المجاز بتزليل أسباب  
 العلم ومبادئه من الدلائل العقلية والسمعية منزلة نفسه وإجراء تساقطها عن درجة  
 اعتبارهم كلها لاحظوها مجرى تتابعها إلى الانقطاع ثم أضرب وانتقل عن بيان  
 عدم علمهم بها إلى بيان ما هو أسوأ منه وهو حيرتهم في ذلك حيث قيل :  
 ﴿بل هم في شك منها﴾ أى في شك مريب من نفس الآخرة وتحقيقها كمن  
 تحير في أمر لا يجد عليه دليلاً فضلاً عن الأمور التى ستقع فيها ثم أضرب عن  
 ذلك إلى بيان أن ما هم فيه أشد وأفظع من الشك حيث قيل ﴿بل هم منها عمون﴾  
 بحيث لا يكادون يدركون دلائلها لاختلال بصائرهم بالسكينة وقرىء بل ادرك  
 علمهم بمعنى انتهى وفنى وقد فسره الحسن البصرى باضمحل علمهم وقيل كلنا  
 الصيغتين على معناهما الظاهر أى تكامل واستحكم أو تم أسباب علمهم بأن  
 كانت لا محالة من الآيات القيامة القاطعة والحجج الساطعة وتمكنوا من المعرفة بفضل

تمكن وهم جاهلون فذلك وقوله تعالى (بل هم في شك منها) لإضراب وانتقال من وصفهم بمطلق الجهل إلى وصفهم بالشك وقوله تعالى (بل هم منها عمون) لإضراب من وصفهم بالشك إلى وصفهم بما هو أشد منه وأفظع من العمى وأنت خير بأن تنزيل أسباب العلم منزلة العلم من مسلك لكن دلالة النظم الكريم على جهلهم حينئذ ليست بواضحة وقيل المراد بوصفهم باستحكام العلم وتكامله التكم بهم فيكون وصفا لهم بالجهل مبالغة والإضرابان على ما ذكر وأصل ادراك تدارك وبه قرأ أبي فابدلت اناء دالا وسكنت فتعذر الابداء فاجتلبت همزة الوصل فصار ادراك وقرئ بل ادرك وأصله افعل وبل أدرك بهمزتين وبل أدرك بألف بينهما وبل درك بالتخفيف والنقل وبل أدرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله بل أدرك على الاستفهام وبل أدرك وبل أدرك وأم تدارك وأم ادرك فهذه اثنا عشرة قراءة ما فيه استفهام صريح أو مضمن من ذلك فهو إنكار ونفي وما فيه بلي فإثبات لشعورهم وتفسير له بالإدراك على وجه التهمك الذي هو أبلغ وجوه النفي والإنكار وما بعده لإضراب عن التفسير مبالغة في النفي ودلالة على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها بل إنهم منها عمون أو رد وإنكار لشعورهم .

(وقال الذين كفروا) بيان لجهلهم بالآخرة وعملهم منها بحكاية إنكارهم للبعث ووضع الموصول موضع ضميرهم لزمهم بما في حيز صلاته والإشارة بعلّة حكمهم الباطل في قولهم (أنذا كنّا ترابا وآباؤنا أنّا نخرجون) أى أنخرج من القبور إذا كنّا ترابا كما ينسب عنه مخرجون ولا مساغ لأن يكون هو العامل في إذا لاجتماع موانع لو تفرد واحد منها لكفى في المنع وتقييد الإخراج بونت كونهم ترابا ليس لتخصيص الإنكار بالإخراج حينئذ فقط فإنهم منسكرون للإحياء بعد الموت مطلقاً وإن كان البدن على حاله بل انتقوية الإنكار بتوجيهه إلى الإخراج في حالة منافية له وقوله تعالى وآباؤنا عطف على اسم كان وقام الفصل مع الخبر مقام الفصل بالتأكيد وتكرير الهمزة في أننا للمبالغة والتشديد في الإنكار وتحلية الجملة بأن واللام لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد كما يوحى ظاهر النظم فإن تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما في قوله تعالى

أفلا تعقلون ونظائره على رأى الجمهور فإن المعنى عندهم تعقيب الإنكار لا إنكار التعقيب كما هو المشهور وقرئ إذا كنا همزة واحدة مكسورة وقرئ إنا لمخرجون على الخبر ﴿لقد وعدنا هذا﴾ أى الإخراج ﴿نحن وآباؤنا من قبل﴾ أى من قبل وعده عليه الصلاة والسلام وتقديم الموعد على نحن لأنه المقصود بالذكر وحيث أخر قصد به المبعوث والجملة استئناف مسوق لتقرير الإنكار وتصديرها بالقسم لمزيد التأكيد وقوله تعالى ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ تقرير لثبوت تقرير ﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ بسبب تكذيبهم للرسول عليهم الصلاة والسلام فيما دعواهم إليه من الإيمان بالله عز وجل وحده وباليوم الآخر الذى تنكرونه فإن فى مشاهدة عاقبتهم ما فيه كفاية لأولى الأبصار وفى التعبير عن المكذبين بالمجرمين لطف بالمؤمنين فى ترك الجرائم .

﴿ولا تحزن عليهم﴾ لإصرارهم على الكفر والتكذيب ﴿ولا تسكن فى ضيق﴾ فى حرج صدر ﴿فما يذكرون﴾ من مكرم فإن الله تعالى يعصمك من الناس وقرئ بكسر الضاد وهو أيضا مصدر ويجوز أن يكون المفتوح مخففا من ضيق وقد قرئ كذلك أى لا تسكن فى أمر ضيق ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ أى العذاب العاجل الموعود ﴿إن كنتم صادقين﴾ فى إخباركم بإتيانه والجمع باعتبار شركة المؤمنين فى الإخبار بذلك ﴿قل عسى أن يكون ردف لكم﴾ أى تبعكم ولحقكم واللام مزيدة للتأكيد كالباء فى قوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أو الفعل مضمن معنى فعل يعدى باللام وقرئ بفتح الدال وهى لغة فيه ﴿بعض الذى تستعجلون﴾ وهو عذاب يوم بدر وعسى ولعل وسوف فى مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها وإنما يطلقونها إظهارا للوقار وإشعارا بأن الرمز من أمثالهم كالتصريح بمن عداهم وعلى ذلك مجرى وعد الله تعالى ووعيده وإيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال عسى أن يردفكم الخ لكونه أدل على تحقق الوعد ﴿ولأن ربك ل ذو فضل على الناس﴾ أى ل ذو إفضال وإنعام على كافة الناس ومن جملة إنعاماته تأخير عقوبة هؤلاء على ما يرتكبونه

من المعاصي التي من جملتها استعجال العذاب ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ لا يعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه بل يستعجلون بحملهم وقوعه كدأب هؤلاء ﴿ وإن ربك أعلم ما تكن صدورهم ﴾ أي ما تخفيه وقرىء بفتح التاء من كنفذ<sup>(١)</sup> الشيء إذا سترته ﴿ وما يعلنون ﴾ من الأفعال والأقوال التي من جملتها ما حكى عنهم من استعجال العذاب وفيه إيدان بأن لهم قبائح غير ما يظهرونه وأنه تعالى يحازيهم على السكل وتقديم السر على العلن قد مر سره في سورة البقرة عند قوله تعالى (أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) .

﴿ وما من غائبة في السماء والأرض ﴾ أي من خافية فيهما وهما من الصفات الغالبة والتاء للبالغة كما في الرواية أو اسمان لما يغيب ويخفى والتاء للنقل إلى الاسمية ﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ أي بين أو مبين لما فيه لمن يطالعه وهو اللوح المحفوظ وقيل هو القضاء العدل بطريق الاستعارة ﴿ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾ من جملة ما اختلفوا في شأن المسيح وتحزبوا فيه أحزابا وركبوا متن العتو والغلو في الإفراط والتفريط والتشبيه والتنزيه ووقع بينهم التناكد في أشياء حتى بلغ المشاقة إلى حيث لعن بعضهم بعضا وقد نزل القرآن الكريم ببيان كنه الأمر لو كانوا في حيز الإنصاف ﴿ وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ على الإطلاق فيدخل فيهم من آمن من بني إسرائيل دخولا أواليا ﴿ إن ربك يقضى بينهم ﴾ أي بين بني إسرائيل ﴿ بحكمه ﴾ بما يحكم به وهو الحق أو بحكمته ويؤيده أنه قرىء بحكمه ﴿ وهو العزيز ﴾ فلا يرد حكمه وقضاؤه ﴿ العليم ﴾ بجميع الأشياء التي من جملتها ما يقضى به والفاء في قوله تعالى ﴿ فتوكل على الله ﴾ لترتيب الأمر على ما ذكر من شئونه عز وجل فإنها موجهة للتوكل عليه وداعية إلى



إلى الأمر به أى فتوكل على الله الذى هذا شأنه فإنه موجب على كل أحد أن يتوكل عليه ويفوض جميع أموره إليه وقوله تعالى :

(( إنك على الحق المبين )) تعليل صريح للتوكل عليه تعالى بكونه عليه الصلاة والسلام على الحق البين أو الفاصل بينه وبين الباطل أو بين المحق والمبطل فإن كونه عليه الصلاة والسلام كذلك مما يوجب الوثوق بحفظه تعالى ونصرته وتأيدته لا محالة وقوله تعالى (( إنك لا تسمع الموتى )) الخ تعليل آخر للتوكل الذى هو عبارة عن التبتل إلى الله تعالى وتفويض الأمر إليه والإعراض عن التشبث بما سواه وقد علل أولا بما يوجبه من جهته تعالى أعنى قضاءه بالحق وعزته وعلمه تعالى وثانيا بما يوجبه من جهته عليه الصلاة والسلام على أحد الوجهين أعنى كونه عليه الصلاة والسلام على الحق ومن جهته تعالى على الوجه الآخر أعنى إعانتة تعالى وتأيدته للحق .

ثم علل ثالثا بما يوجبه لكن لا بالذات بل بواسطة لإيجابه للإعراض عن التشبث بما سواه تعالى فإن كونهم كالموتى والعمى والعشى موجب لقطع الطمع عن مشايعتهم ومعاصدتهم رأسا وداع إلى تخصيص الاعتضاد به تعالى وهو المعنى بالتوكل عليه تعالى وإنما شبهوا بالموتى لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم من القرائع وإطلاق الأسماع عن المفعول لبيان عدم سماعهم لشيء من المسموعات ولعل المراد تشبيه قلوبهم بالموتى فيما ذكر من عدم الشعور فإن القلب مشعر من المشاعر أشير إلى بطلانه بالمرءة ثم بين بطلان مشعرى الأذن والعين كما فى قوله تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) ولما فبعد تشبيه أنفسهم بالموتى لا يظهر لتشبيههم بالصم والعمى مزيد مزية (( ولا تسمع الصم الدعاء )) أى الدعوة إلى أمر من الأمور وتقبيد النفى بقوله تعالى (( إذا ولوا مدبرين )) لتكميل التشبيه وتأكيده النفى فإنهم مع صممهم عن الدعاء إلى الحق معرضون عن الداعى مولون على أدبارهم ولا ريب فى أن الأصم لا يسمع الدعاء مع كون الداعى بمقابلة صمخه

قريباً منه فكيف إذا كان خلفه بعيداً منه وقرىء ولا يسمع الصم الدعاء .

﴿ وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ﴾ هداية موصلة إلى المطلوب كما في قوله تعالى إنا لا تهدي من أحببت فإن الاهتداء منوط بالبصر وعن متعلقة بالهداية باعتبار تضمنه معنى الصرف وقيل بالعمى عن كذا وفيه بعد وإيراد الجملة الاسمية للمبالغة في نفي الهداية وقرىء وما أنت تهدي العمى ﴿ إن تسمع ﴾ أى ما تسمع سماعاً يجرى السامع نفعاً ﴿ إلا من يؤمن بآياتنا ﴾ أى من شأنهم الإيمان بها وإيراد الاستماع في النفي والإثبات دون الهداية مع قربها بأن يقال إن تهدي إلا من يؤمن الخ لما أن طريق الهداية هو لإسماع الآيات التنزيلية ﴿ فهم مسلمون ﴾ تعليل لإيمانهم بها كأنه قيل فإنهم منقادون للحق وقيل مخلصون لله تعالى من قوله تعالى ﴿ بلى من أسلم وجهه لله ﴾ ﴿ وإذا وقع القول عليهم ﴾ بيان لما أشير إليه بقوله تعالى ﴿ بعض الذى تستعجلون ﴾ من بقية ما يستعجلونه من الساعة ومبائدها والمراد بالقول ما نطق من الآيات الكريمة بمجيء الساعة وما فيها من فنون الأحوال التى كانوا يستعجلونها وبوقوع قيامها وحصولها عبر عن ذلك به إنبلاً إن بشدة وقعها وتأثيرها وإسناده إلى القول لما أن المراد بيان وقوعها من حيث أنها مصداق للقول الناطق بمحيثها وقد أريد بالوقوع دنوه واقترابه كما في قوله تعالى ﴿ أتى أمر الله ﴾ أى إذا دنا وقوع مدلول القول المذكور الذى لا يكادون يسمعون ومصادقه ﴿ أخرجنا لهم دابة من الأرض ﴾ وهى الحساسة وفى التعبير عنها باسم الجنس وتأکید إيهامه بالتنوين التفخيم من الدلالة على غرابة شأنها وخروج أوصافها عن طور البيان ما لا يخفى وقد ورد فى الحديث أن طولها ستون ذراعاً لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب وروى أن لها أربع قوائم ولها زغب وریش وجناحان وعن ابن جريج فى وصفها رأس ثور وعین خنزير وأذن فيل وقرن ایل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصة هرة وذنب كبش وخف بعير وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعاً بذراع آدم عليه السلام وقال وهب وجهها وجه الرجل وباقي خلقها خلق الطير وروى عن علي رضي الله عنه أنه قال ليس

بداية لها ذنب وليكن لها الحية كأنه رجل والمشهور أنها دابة وروى لا تخرج إلا رأسها ورأسها يبلغ عنان السماء أو يبلغ السحاب وعن أبي هريرة رضى الله عنه فيها كل لون ما بين قرنها فرسخ للراكب وعن الحسن رضى الله عنه لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام وعن علي رضى الله عنه أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج كل يوم الاثلثا وعن النبي عليه الصلاة والسلام أنه سئل من أين تخرج الدابة فقال من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى يعنى المسجد الحرام وروى أنها تخرج ثلاث خرجات تخرج بأقصى العين ثم تخرج بالبادية ثم تنسكن دهرًا طويلًا فبينما الناس في أعظم المساجد حرمة على الله تعالى وأكرمها فإيهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهرون وقوم يقفون نظارة وقيل تخرج من الصفا وروى بينا عيسى عليه السلام يطوف البيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض تحتهم تحرك القنديل وينشق الصفا مما يلي المسمى فتخرج الدابة من الصفا ومعه عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام فتضرب المؤمن في مسجده بالعصا فتسكت فسكة بيضاء فتفشو حتى يضى لها وجهه وتسكتب بين عينيه مؤمن ، وتسكت الكافر بالخاتم في آفقه فتفشو فسكة حتى يسود لها وجهه وتسكتب بين عينيه كافر ثم تقول لهم أنت يا فلان من أهل الجنة وأنت يا فلان من أهل النار وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال إن الدابة لتسمع قرع عصا هذه وروى أبو هريرة عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال بش الشعب شعب أجياد مرتين أو ثلاثا قيل ولم ذاك يا رسول الله قال تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين فتسكلم بالعريية بلسان ذلق وذلك قوله تعالى :

﴿يُكَلِّمُهُمُ أَنْ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أى تسكلمهم بأنهم كانوا لا يوقنون بآيات الله تعالى الناطقة بمجيء الساعة ومبادهها أو بجميع آياته التى

من جعلتها تلك الآيات وقيل بآياته التي من جعلتها خروجها بين يدي الساعة والأول هو الحق كما ستحيط به علما وقرىء بأن الناس الآية وإضافة الآيات إلى نون العظمة لأنها حكاية منه تعالى لمعنى قولها لا لعين عبارتها وقيل لأنها حكاية منها لقول الله عز وجل وقيل واختصاصها به تعالى وأثرها عنده كما يقول بعض خواص الملك خيلنا وبلادنا وإنما الخيل والبلاد لمولاه وقيل هناك مصنف مخدوف أى بآيات ربنا ووصفهم بعدم الإيقان بها مع أنهم كانوا جاحدين بها للإيدان بأنه كان من حقهم أن يوقفوا بها ويقطعوا بصحتها وقد اتصفوا بنقيضه وقرىء إن الناس بالكسر على إضمار القول أو إجراء الكلام مجراه والكلام فى الإضافة كالذى سبق وقيل هو استئناف مسوق من جهته تعالى لتعليل إخراجها أو تكليمها ويرده الجمع بين صيغتي الماضى والمستقبل فإنه صريح فى كونه حكاية لعدم إيقانهم السابق فى الدنيا والمراد بالناس إما الكفرة على الإحلاق أو مشركو مكة وقد روى عن وهب أنها تخبر كل من تراه أن أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون وقرىء تكلمهم من التكلم الذى هو الجرح والمراد به ما نقل من الوسم بالعصا والخاتم وقد جوز كون القراءة المشهورة أيضا منه لمعنى التكثير ولا يخفى بعده .

( ويوم نحشر من كل أمة فوجا ) بيان لإجمالى لحال المكذبين عند قيام الساعة بعد بيان بعض مبادئها ويوم منصوب بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام والمراد بهذا الحشر هو الحشر للعذاب بعد الحشر الكلى الشامل لكافة الخلق وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيان سره مرارا أى واذكر لهم وقت حشرنا أى جمعنا من كل أمة من أمم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو من أهل كل قرن من القرون جماعة كثيرة فمن تبعضية لأن كل أمة منقسمة إلى مصدق ومكذب وقوله تعالى ( من يكذب بآياتنا ) بيان للفوج أى فوجا مكذبين بها ( فهم يوزعون ) أى يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمناقشة وفيه من الدلالة على كثرة عددهم وتباعد أطرافهم

ما لا يخفى وعن ابن عباس رضى الله عنهما أبو جهل والوليد بن المغيرة وشيبة ابن ربيعة يساقون بين يدى أهل مكة وهكذا يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار ﴿حتى إذا جاءوا﴾ إلى موقف السؤال والجواب والمناقشة والحساب ﴿قال﴾ أى الله عز وجل موبخا لهم على التكذيب والالتفات لتربية المهابة ﴿أكذبتهم بآياتي﴾ الناطقة بلقاء يومكم هذا وقوله تعالى ﴿ولم تحيطوا بها علما﴾ جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبجه ومؤكدة للإنكار والتوبيخ أى أكذبتهم بها بادية الرأى غير ناظرين فيها نظرا يؤدي إلى العلم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق حتما وهذا نص فى أن المراد بالآيات فيما فى الموضوعين هى الآيات القرآنية لأنها هى المنطوية على دلائل الصحة وشواهد الصدق التى لم يحيطوا بها علما مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها لا نفس الساعة وما فيها وقيل هو معطوف على كذبتهم أى أجمعتم بين التكذيب وعدم التدبر فيها ﴿أم ماذا كنتم تعملون﴾ أى أم أى شئ كنتم تعملون بها أو أم أى شئ كنتم تعملون غير ذلك بمعنى أنه لم يكن لهم عمل غير ذلك كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والمعاصى مع أنهم ما خلقوا إلا للإيمان والطاعة يخاطبون بذلك تبكيثا ثم يكبون فى النار وذلك قوله تعالى :

﴿ووقع القول عليهم﴾ أى حل بهم العذاب الذى هو مدلول القول الناطق بحلولة ونزوله ﴿بما ظلموا﴾ بسبب ظلمهم الذى هو تكذيبهم بآيات الله ﴿فهم لا ينطقون﴾ لانقطاعهم عن الجواب بالسكينة وابتلائهم بشغل شاغل من العذاب الأليم ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليكنون فيه﴾ الرؤية قلبية لا بصرية لأن نفس الليل والنهار وإن كانا من المبصرات لكن جعلهما كما ذكر من قبيل المعقولات أى ألم يعلموا أنا جعلنا الليل بما فيه من الإظلام ليسترىحوا فيه بالنوم والقرار ﴿والنهار مبصرا﴾ أى ليبصروا بما فيه من الإضاءة طرق القلب فى أمور المعاش فبولغ فيه حيث جعل الإبصار الذى هو حال الناس حالا له ووصفا من أوصافه التى جعل عليها بحيث لا ينفك عنها ولم يسلك فى الليل هذا المسلك لما أن بتأثير ظلام الليل فى السكون ليس بمثابة تأثير ضوء النهار فى

الابصار ﴿إن في ذلك﴾ أى فى جعلهما كما وصفا وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإشعار ببعد درجته فى الفضل ﴿لآيات﴾ أى عظيمة كثيرة ﴿لقوم يؤمنون﴾ دالة على صحة البعث وصدق الآيات الناطقة به دلالة واضحة كيف لا وإن من تأمل فى تعاقب الليل والنهار واختلافهما على وجهه بديمة مبهنة على حكم رائعة تحار فى فهمها العقول ولا يحيط بها إلا الله عز وجل وشاهد فى الآفاق تبدل ظلمة الليل المحاكية لل موت بضياء النهار المضاهى للحياة وعين فى نفسه تبدل النوم الذى هو أخو الموت بالانتباه الذى هو مثل الحياة قضى بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور قضاء متقنا وجزم بأنه تعالى قد جعل هذا أنموذجا له ودليلا يستدل به على تحققه وأن الآيات الناطقة به وبكون حال الليل والنهار برهاناً عليه وسائر الآيات كلها حق نازل من عند الله تعالى .

﴿ويوم ينفخ فى الصور﴾ إما معطوف على يوم نحشر منصوب بناصبه أو بمضمرة معطوف عليه والصور هو القرن الذى ينفخ فيه لإسرافيل عليه السلام عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما فرغ الله تعالى من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص بصره إلى العرش متى يؤمر قال قلت يا رسول الله ما الصور قال القرن قال قلت كيف هو قال عظيم والذى نفسى بيده إن عظم دائرة فيه كعرض السماء والأرض فيؤمر بالنفخ فيه فينفخ نفخة لا يبق عندها فى الحياة أحد غير من شاء الله تعالى وذلك قوله تعالى (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) ثم يؤمر بأخرى فينفخ نفخة لا يبق معها ميت إلا بعث وقام وذلك قوله تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) والذى يستدعيه سباق النظم الكريم وسياقه أن المراد بالنفخ ههنا هى النفخة الثانية وبالفرع فى قوله تعالى ﴿ففزع من فى السموات ومن فى الأرض﴾ ما يعترى الكل عند البعث والنشور بمشاهدة الأمور الهائلة الخارقة للعادات فى الأنفس والآفاق من الرعب والتهيب الضرورىين الجبليين وإيراد صيغة الماضى مع كون المعطوف عليه أعنى ينفخ مضارعا للدلالة على تحقق وقوعه لإثر النفخ ولعل

تأخير بيان الأحوال الواقعة عند ابتداء النفخة عن بيان ما يقع بعدها من حشر المسكين من كل أمة لتثنية التحويل بتكرير التذكير لإيداناً بأن كل واحد منهما طامة كبرى وداهية دهياء حقيقة بالتذكير على حيالها ولوروعى الترتيب الوقوعى لربما توهم أن السكل داهية واحدة قد أمر بذكرها كما مر في قصة البقرة ﴿إلا من شاء الله﴾ أى أن لا يفزع قيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام وقيل الحور والخزنة وحملة العرش ﴿وكل﴾ أى كل واحد من المبعوثين عند النفخة ﴿أتوه﴾ حضروا الموقف بين يدي رب العزة جل جلاله للسؤال والجواب والمناقشة والحساب وقرىء أناه باعتبار لفظ السكل كما أن القراءة الأولى باعتبار معناه وقرىء آتوه أى حاضروه ﴿داخرين﴾ أى صاغرين وقرىء دخرين وقوله تعالى :

﴿وترى الجبال﴾ عطف على ينفخ داخل في حكم التذكير وقوله عز وجل ﴿تحسبها جامدة﴾ أى ثابتة فى أما كتبها إما بدل منه أو حال من ضمير ترى أو من مفعوله وقوله تعالى ﴿وهى تمر مر السحاب﴾ حال من ضمير الجبال فى تحسبها أو فى جامدة أى تراها رأى العين ساكنة والحال أنها تمر مر السحاب التى تسيرها الرياح سيرا حثيثا وذلك أن الأجرام العظام إذا تحركت نحو سمت لا تسكاد تثبت حركتها وعايه قول من قال :

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج  
وقد أدمج فى هذا التشبيه تشبيه حال الجبال بحال السحاب فى تخلخل الأجزاء وانتفاشها كما فى قوله تعالى ( وتسكون الجبال كالعهن المنفوش ) وهذا أيضا مما يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق يبدل الله عز وجل الأرض غير الأرض ويغير هيأتها ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئة الهائلة ليشاهدها أهل المحشر وهى وإن أدكت وتصدعت عند النفخة الأولى لكن تسيرها وتسوية الأرض إنما يكونان بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى ( ويسألونك عن الجبال فقل يفسها ربى نسفا فيزرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمثا يومئذ يتبعون الداعى ) وقوله تعالى ( يوم تبدل الأرض

غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) فإن اتباع الداعي الذي هو  
 لإسرافيل عليه السلام وبرز الخلق لله تعالى لا يكون إلا بعد النفخة الثانية وقد قالوا  
 في تفسير قوله تعالى (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم) إن صيغة  
 الماضي في المعطوف عليه مستقبلا للدلالة على تقدم الحشر على التسيير والرؤية  
 كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك هذا وقد قيل إن المراد هي النفخة الأولى والفرع هو  
 الذي يستتبع الموت لغاية شدة الهول كما في قوله تعالى (فصعق من في السموات  
 ومن في الأرض) الآية فيختص أثرها بمن كان حيا عند وقوعها دون من مات  
 قبل ذلك من الأمم وجوز أن يراد بالإتيان داخرين رجوعهم إلى أمره تعالى  
 وانقيادهم له ولا ريب في أن ذلك مما ينبغي أن تنزه ساحة التنزيل عن أمثاله  
 وأبعد من هذا ما قيل إن المراد بهذه النفخة نفخة الفرع التي تكون قبل نفخة  
 الصعق وهي التي أريدت بقوله تعالى (ما ينظر هؤلاء إلا لصيحة واحدة ما لها من  
 فواق) فبفسير الله تعالى عندها الجبال فتتمرر السحاب فتكون سرايا وترج  
 الأرض بأهلها رجا فتكون كالسفينه الموثقة في البحر أو كالقنديل المعلق  
 ترججه الأرواح فإنه لا ارتباط له بالمقام قطعا والحق الذي لا يحيد عنه ساقدمناه  
 وما هو نص في الباب ما سيأتي من قوله تعالى (وهم من فرع يومئذ آمنون)  
 ﴿صنع الله﴾ مصدر مؤكد لمضمون ما قبله أى صنع الله ذلك صنعا على أنه عبارة  
 عما ذكر من النفخ في الصور وما ترتب عليه جميعا قصد به التنبيه على عظم شأن  
 تلك الأفاعيل وهويل أمرها والإيذان بأنها ليست بطريق إخلال نظام العالم  
 وإفساد أحوال الكائنات بالسكلية من غير أن يدعو إليها داعية أو يكون لها  
 عاقبة بل هي من قبيل بدائع صنع الله تعالى المبينة على أساس الحكمة المستتبعة  
 للغايات الجميلة التي لأجلها رتب مقدمات الخلق ومبادئ الإبداع على الوجه  
 المثين والنهج الرصين كما يعرب عنه قوله تعالى :

﴿الذي أتقن كل شيء﴾ أى أحكم خلقه وسواه على ما تقتضيه الحكمة  
 وقوله تعالى ﴿إنه خبير بما تفعلون﴾ تعليل لكون ما ذكر صنعا محكما  
 له تعالى ببيان أن علمه تعالى بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها بما يدعو



إلى إظهارها وبيان كيفياتها على ما هي عليه من الحسن والسوء وترتيب  
أجزئتها عالياً بعد بعثهم وحشرهم وجعل السموات والأرض والجبال على  
وفق ما نطق به التنزيل ليتحققوا بمشاهدة ذلك أن وعد الله حق لا ريب فيه  
وقرىء خبير بما يفعلون وقوله تعالى :

(من جاء بالحسنة فله خير منها) بيان لما أشير إليه بإحاطة علمه تعالى  
بأفعالهم من ترتيب أجزئتها عليها أى من جاء منكم أو من أولئك الذين أتوه  
تعالى بالحسنة فله من الجزاء ما هو خير منها إما باعتبار أنه أضعافاً وإما باعتبار  
دوامه وانقضائها وقيل فله خير حاصل من جهتها وهو الجنة وعن ابن عباس  
رضى الله عنهما الحسنة كلمة الشهادة (وهم) أى الذين جاءوا بالحسنات  
(من فزع) أى عظيم هائل لا يقدر قدره وهو الفزع الحاصل من مشاهدة  
العذاب بعد تمام المحاسبة وظهور الحسنات والسيئات وهو الذى فى قوله تعالى  
(لا يحزنهم الفزع الأكبر) وعن الحسن رحمه الله تعالى حين يؤمر بالعبد إلى  
النار وقال ابن جريج حين يذبح الموت وينادى المنادى يا أهل الجنة خلود  
فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت .

(يومئذ) أى يوم إذ ينفخ فى الصور (آمنون) لا يعترهم ذلك  
الفزع الهائل ولا يلحقهم ضرر أصلاً وأما الفزع الذى يعترى كل من  
فى السموات ومن فى الأرض غير من استثناه الله تعالى فإنما هو التيبب والرعب  
الحاصل فى ابتداء النفخة من معاينة فنون الدوامى والأهوال ولا يكاد يخلو  
منه أحد بحكم الجبلية وإن كان آمناً من لحوق الضرر والأمن يستعمل بالجار  
وبدونه كما فى قوله تعالى (أفأمنوا مكر الله) وقرىء من فزع يومئذ بالإضافة مع  
كسر الميم وفتحها أيضاً والمراد هو الفزع المذكور فى القراءة الأولى لاجتماع  
الأفزع الحاصلة يومئذ ومدار الإضافة كونه أعظم الأفراع وأكبرها  
كأن ما عدها ليس بفزع بالنسبة إليه .

(ومن جاء بالسيئة) قيل هو الشرك (فكبت وجوههم فى النار)  
أى كبوا فيها على وجوههم منكوسين أو كبت فيها أنفسهم على طريقة (ولا تلقوا  
بأيديكم إلى التهلكة) (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) على الالتفات للتشديد

أو على إضمار القول أى مقولا لهم ذلك ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة  
الذى حرمها ﴾ أمر عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم ذلك بعد ما بين لهم  
أحوال المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة تنبها لهم على أنه قد أتم أمر الدعوة  
بما لا مزيد عليه ولم يبق له عليه الصلاة والسلام بعد ذلك شأن سوى الاشتغال  
بعبادة الله عز وجل والاستغراق فى مراقبته غير مبال بهم ضلوا أم رشدوا  
صلحوا أو فسدوا ليحلمهم ذلك على أن يهتموا بأمور أنفسهم ولا يتوهموا  
من شدة اعتناؤه عليه الصلاة والسلام بأمر دعوتهم أنه عليه الصلاة والسلام  
يظهر لهم ما يلجئهم إلى الإيمان لا محالة ويستغلوا بتدارك أحوالهم ويتوجهوا نحو  
التدبر فيما شاهدوه من الآيات الباهرة والبلدة هى مكة المأظمة وتخصيصها بالإضافة  
لتنفخيم شأنها واجلال مكانها والتعرض لتحريمه تعالى لإياها تشريف لها بعد  
تشريف وتعظيم أثر تعظيم مع ما فيه من الإشعار بعلّة الأمر وموجب الامتثال به كما  
فى قوله تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)  
ومن الرمز إلى غاية شناعة ما فعلوا فيها ألا يرى أنهم مع كونها محرمة من أن  
تنتهك حرمتها باختلاء خلاها وعضد شجرها وتنفير صيدها وإرادة الإلحاد  
فيها بوجه من الوجوه قد استمروا فيها على تعاظمى أجزأ أفراد الفجور وأشنع  
آحاد الإلحاد حيث تركوا عبادة ربها ونصبوا فيها الأوثان وعكفوا على عبادتها  
قاتلهم الله أى يؤفكون وقرىء حرما بالتنخيف وقوله تعالى ﴿وله كل شيء﴾  
أى خلقا وملكا وتصرفا من غير أن يشاركه شيء فى شيء من ذلك تحقيق  
للحق وتنبية على أن أفراد مكة بالإضافة لما ذكر من التنفخيم والشريف مع  
عموم الربوبية لجميع الموجودات ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أى  
أثبت على ما كنت عليه من كونى من جملة الثابتين على ملة الإسلام والتوحيد  
أى الذين أسلموا وأوجههم لله خالصة من قوله تعالى (ومن أحسن ديننا من أسلم  
وجهه لله) ﴿وأن أنزل القرآن﴾ أى أوأظب على تلاوته لتكشف لى حقائقه  
الرائعة المخزونة فى تضاعيفه شيئا فشيئا أو على تلاوته على الناس بطريق  
( ١٩ - أبو السعود - رابع )

تكرير الدعوة وتثنية الإرشاد فيكون ذلك تنبيها على كفايته في الهداية والإرشاد من غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى فعنى قوله تعالى : ﴿ فن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ﴾ حينئذ فن اهتدى بالإيمان به والعمل بما فيه من الشرائع والأحكام وعلى الأول فمن اهتدى باتباعه لإيادى فيما ذكر من العبادة والإسلام وتلاوة القرآن فإنما منافع اهتدائه عائدة إليه لا لى ﴿ ومن ضل ﴾ بالكفر به والإعراض عن العمل بما فيه أو بمخالفتى فيما ذكر ﴿ فقل ﴾ فى حقه ﴿ إنما أنا من المنذرين ﴾ وقد خرجت عن عهدة الإنذار فليس على من وبال ضلاله شيء وإنما هو عليه فقط .

﴿ قل الحمد لله ﴾ أى على ما أفاض على من نعمائه التى أجعلها نعمة النبوة المستتبعة لفنون النعم الدينية والدنيوية ووفقنى لتحمل أعبائها وتبليغ أحكامها إلى كافة الورى بالآيات البينة والبراهين النيرة وقوله تعالى : ﴿ سيرىكم آياته ﴾ من جملة الكلام المأمور به أى سيرىكم البتة فى الدنيا آياته الباهرة التى نطق بها القرآن كخروج الدابة وسائر الأشراف وقد عد منها وقعة بدر وياأباه قوله تعالى <sup>(١)</sup> ﴿ فتعرفونها ﴾ أى فتعرفون أنها آيات الله تعالى حين لاتنفعكم المعرفة لأنهم لا يعترفون بكون وقعة بدر كذلك وقيل سيرىكم فى الآخرة وقوله تعالى ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ كلام مسوق من جهته تعالى بطريق التذييل مقرر لما قبله متضمن للوعيد والوعيد كما يبنى عنه إضافة الرب إلى ضمير النبى عليه الصلاة والسلام وتخصيص الخطاب أولا به عليه الصلاة والسلام وتعميمه ثانيا للكفرة تغليا أى وما ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وما تعملون أتم أيها الكفرة من السيئات فيجازى كلا منكم بعمله لا محالة وقرىء عما يعملون على الغيبة فهو وعيد محض والمعنى وما ربك بغافل عن أعمالهم فسيعذبهم البتة فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن أعمالهم الموجبة له والله تعالى أعلم عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طس كان

له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بسليمان وهود وصالح وإبراهيم  
وشعيب عليهم الصلاة والسلام ومن كذب بهم ويخرج من قبره وهو ينادي  
لا إله إلا الله .

\*\*\*

### سورة القصص

مكية وقيل : إلا قوله ( الذين آتيناهم الكتاب ) إلى قوله ( الجاهلين )  
وهي ثمان وثمانون آية

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( طسم تلك آيات الكتاب المبين ) قد مر ما يتعلق به من الكلام بالإجمال  
والتفصيل في أشباهه ( تلو عليك ) أى قرأ بواسطة جبريل عليه السلام  
ويحوز أن تكون التلاوة مجازاً من التنزيل ( من نبأ موسى وفرعون ) مفعول  
تتلو أى بعض نبيهما ( بالحق ) متعلق بمحذوف هو حال من فاعل تتلو  
أو من مفعوله أو صفة لمصدره أى تتلو عليك بعض نبيهما ملتبسين أو ملتبسا  
بالحق أو تلاوة ملتبسة بالحق ( لقوم يؤمنون ) متعلق بفتلو وتخصبصهم  
بذلك مع عموم الدعوة والبيان للكل لأنهم المتفعلون به .

عناصر كفر فرعون

( إن فرعون علا في الأرض ) استئناف جار مجرى التفسير للجمل  
الموعود وتصديره بحرف التأكيد للاعتناء بتحقيق مضمون ما بعده أى أنه تجبر  
وطغاً في أرض مصر وجاوز الحدود المعبودة في الظلم والعدوان ( وجعل أهلها  
شيعة ) أى فرقا يشيعونه في كل ما يريد من الشر والفساد أو يشيع بعضهم  
بعضاً في طاعته أو أصنافاً في استخدامه يستعمل كل صنف في عمل ويسخره فيه

من بناء وحرث وحفر وغير ذلك من الأعمال الشاقة ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية أو مرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء أملا تنفق كلمتهم ﴿ يستضعف طائفة منهم ﴾ وهم بنو إسرائيل والجملة إما حال من فاعل جعل أو صفة لشيعا أو استئناف وقوله تعالى ﴿ يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ﴾ يدل منها وكان ذلك لما أن كاهنا قال له يولد في بني إسرائيل مولود يذهب ملكك على يده وما ذاك إلا لغاية حمقة إذ لو صدق فما فائدة القتل وإن كذب فما وجهه ﴿ لأنه كان من المفسدين ﴾ أي الراسخين في الإفساد ولذلك اجترأ على مثل تلك العظيمة من قتل المعصومين من أولاد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ ونريد أن نمن ﴾ أي نتفضل ﴿ على الذين استضعفوا في الأرض ﴾ على الوجه المذكور بانجائهم من بأسه وصبيحة المضارع في نريد حكاية حال ماضية وهو معطوف على أن فرعون علا الخ لتناسبهما في الوقوع في حيز التفسير للنبا أو حال من يستضعف بتقدير المبتدأ أي يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم وليس من ضرورة مقارنة الإرادة للاستضعاف مقارنة المراد له لما أن تعلق الإرادة للبن تعلق استقبالي على أن منة الله تعالى عليهم بالخلاص لما كانت في شرف الوقوع جاز لإجراؤها مجرى الواقع المقارن له ووضع الموصول موضع الضمير لإبانة قدر النعمة في المنة بذكر حالتهم السابقة المبينة له ﴿ ونجعلهم أئمة ﴾ يقتدى بهم في أمور الدين بعد أن كانوا أتباعا مسخرين لآخرين ﴿ ونجعلهم الوارثين ﴾ لجميع ما كان منتظا في سلك ملك فرعون وقومه وراثته معودة فيما بينهم كما ينبى عنه تعريف الوارثين وتأخير ذكر وراثتهم له عن ذكر جعلهم أئمة مع تقدمها عليه زمانا لانهطاط رتبها عن الإمامة ولئلا ينفصل عنه ما بعده مع كونه من رواده أعنى قوله تعالى ﴿ ونمكن لهم في الأرض ﴾ الخ أي نداهم على مصر والشام يتصرفون فيها كيفما يشاءون وأصل الممكن أن تجعل الشيء مكانا يتمكن فيه ﴿ ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ﴾ أي من أولئك المستضعفين ﴿ ما كانوا يحذرون ﴾ ويجهلون

في دفعه من ذهاب ملكهم وهلكهم على يد مولود منهم وقرى يرى بالباء  
ورفع ما بعده على الفاعلية .

( وأوحينا إلى أم موسى ) بإطعام أو رؤيا ( أن أرضعيه ) ما أمكنك  
لإخفاؤه ( فإذا خفت عليه ) بأن يحس به الجيران عند بكائه وينعروا عليه  
( فألقيه في اليم ) في البحر وهو التيل ( ولا تخافي ) عليه ضيعة بالفرق  
ولا شدة ( ولا تحزني إنا رادوه إليك ) عن قريب بحيث تأمنين عليه  
( وجعلوه من المرسلين ) والجملة تعليل للنهي عن الخوف والحزن وإيثار  
الجملة الاسمية وتصديرها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها أي أنا فاعلون  
لرده وجعله من المرسلين لا محالة روى أن بعض القوابل الموكلات من قبل  
فرعون بحبال بنى إسرائيل كانت مصادفة لأم موسى عليه السلام فقالت لها  
لينفعني حبك اليوم فعاجلتها فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه وارتعش  
كل مفصل منها ودخل حبه في قلبها ثم قالت ما جئتك إلا لأقبل مولودك وأخبر  
فرعون ولكنني وجدت لا بنك في قلبي محبة ما وجدت مثلاً لأحد فأحفظه  
فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته في خرقة فألقته في تنور مسحور لم تعلم  
ما تصنع لما طاش من عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيئاً فخرجوا وهي لا تدري مكانه  
فسمعت بكائه من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله تعالى النار عليه برداً وسلاماً  
فلما ألح فرعون في طلب الولدان أوحى الله تعالى إليها ما أوحى وقد روى أنها  
أرضعته ثلاثة أشهر في تابوت من بردى مطلى بالقار من داخله والفاء في قوله  
تعالى ( فالتقطه آل فرعون ) فصيحة مفعضة عن عطفه على جملة مترتبة على  
ما قبلها من الأمر بالإلقاء قد حذفت تعويلاً على دلالة الحال وإيذاناً بكال  
سرعة الامتثال أي فألقته في اليم بعد ما جعلته في التابوت حسبما أمرت به  
فالتقطه آل فرعون أي أخذوه أخذ اعتناء به وصيانة له عن الضياع قال ابن  
عباس رضي الله عنهما وغيره كان لفرعون يومئذ بنت لم يكن له ولد غيرها  
وكانت من أكرم الناس إليه وكان بها برص شديد عجزت الأطباء عن علاجه  
فقالوا لا تبرأ إلا من قبل البحر يؤخذ منه شبه الإنس يوم كذا وساعة كذا

من شهر كذا حين تشرق الشمس فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون في مجلس له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف الصديق عليه السلام وقيل كانت من بنى إسرائيل من سبط موسى عليه الصلاة والسلام وقيل كانت عمتة حمكاه السهيلي وأقبلت بنت فرعون في جواربها حتى جلست على شاطئ النيل فاذا بتابوت في النيل تضربه الأمواج فتعلق بشجرة فقال فرعون اتنوني به فابتدروا بالسفن فأحضروه بين يديه فعالجوا فتحه فلم يقدروا عليه وقصدوا كسره فأعيام فنظرت آسية فرأت نورا في جوف التابوت لم يره غيرها فعالجته ففتحته فاذا هي بصبي صغير في مهد وإذا نور بين عينيه وهو يمص إبهامه لبنا فألقى الله تعالى محبته في قلوب القوم وعمدت ابنة فرعون إلى ريقه فلطخت به برصها فبرأت من ساعته وقيل لما نظرت إلى وجهه برأت فقالت الغواة من قوم فرعون إنا نظن أن هذا هو الذي نحذر منه رمى في البحر فرقا منك فاقتله فهم فرعون بقتله فاستوهبته آسية فتركه كما سيأتي واللام في قوله تعالى ﴿ ليكون لهم عدوا وحزنا ﴾ لام العاقبة أبرز مدخولها في معرض العلة لالتقاطهم تشبيها له في الترتيب عليه بالغرض الحامل عليه وقرىء حزنا ومما لغتان كالسقم والسقم جعل عليه الصلاة والسلام نفس الحزن لإيذانا بقوة سيديته لحزنهم .

﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ أي في كل ما يأتون وما يندرون فلا غرو في أن قتلوا لأجله ألوفاً ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون . روى أنه ذبح في طلبه عليه الصلاة والسلام تسعون ألف وليد أو كانوا مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربي عدوم على أيديهم فاجلمة اعتراضية لتأكيد خطيئتهم أو لبيان الموجب لما ابتلوا به وقرىء خاطين على أنه تخفيف خاطئين أو على أنه بمعنى متعدين الصواب إلى الخطأ ﴿ وقالت امرأة فرعون ﴾ أي لفرعون حين أخرجه من التابوت ﴿ قرة عين لي ولك ﴾ أي هو قرة عين لما أنهما لما رآياه أحياه أو لما ذكر من براءته من البزص

يريقه وفي الحديث أنه قال لك لالى ولو قال لى كما هو لك لهداه الله تعالى كما هداها ﴿ لا تقتلوه ﴾ خاطبته بلفظ الجمع تعظيما ليساعدها فيما تريده ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ فإن فيه مخايل اليمين ودلائل النجاة وذلك لما رأت فيه من العلامات المذكورة ﴿ أو نتخذة ولدا ﴾ أى نتبناه فإنه خليف بذلك ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ حال من آل فرعون والتقدير فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقالت امرأته له كيت وكيت وهم لا يشعرون بأنهم على خطأ عظيم فيما صنعوا من الالتقاط ورجاء النفع منه والتبى له وقوله تعالى إن فرعون الآية اعتراض وقع بين المعطوفين لتأكيد خطئهم ، وقيل : حال من أحد ضميرى نتخذة على أن الضمير للناس أى وهم لا يعلمون أنه لغيرنا وقد تبيناه ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ﴾ صفرا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون لقوله تعالى (وأفئدتهم هواء) أى خلاء لا عقول فيها ويعضده أنه قرئ فرغا من قولهم دماؤهم بينهم فرغ أى هدر وقيل فارغا من الهم والحزن لغاية وثوقها بوعد الله تعالى أو لسماعها أن فرعون عطف عليه وتبناه وقرئ مؤسى بالهمز لإجراء للضمة فى جارة الواو مجرى ضمناها فهمزت كما فى وجوه .

﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ أى إنها كادت لتظهر بموسى أى بأمره وقصته من فرط الحيرة والدهشة أو الفرح بتبنيه ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ بالصبر والثبات ﴿ لتكون من المؤمنين ﴾ أى المصدقين بوعد الله تعالى أو من الواقفين بحفظه لا بتبني فرعون وتعطفه وهو علة الربط وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه .

﴿ وفالت لأخته ﴾ مريم والتعبير عنها بأخوته عليه الصلاة والسلام دون أن يقال لبنتها للتصريح بمدار المحبة الموجبة للامثال بالامر ﴿ قصيه ﴾ أى اتبع أثره وتبعى خبره ﴿ فبصرت به ﴾ أى أبصرت به ﴿ عن جنب ﴾ عن بعد وقرئ بسكون النون وعن جانب والكل بمعنى ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أنها نقصه وتعرف حاله وأنها أخته ﴿ وحرمتنا عليه المراضع ﴾ أى معناه أن يرتضع



من المرضعات والمراضع جمع مرضع وهى المرأة التى ترضع أو مرضع وهو الرضاع أو موضعه أعنى الثدي (من قبل) أى من قبل قصصا أثره (فقالت) عند رؤيتها لعدم قبوله الثدي واعتناء فرعون بأمره وطلبهم من يقبل ثديها (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) أى لأجلكم (وهم له ناصحون) لا يقصرون فى إرضاعه وتربيته روى أن هامان لما سمعه منها قال إنها لتعرفه وأهله فغذوها حتى تنجب بحاله فقالت إنما أردت وهم للبلك ناصحون فأمرها فرعون بأن تأتى بمن يكفله فأتت بأمه وموسى على يد فرعون يديكى وهو يدالله فدفعه لإليها فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال من أنت منه فقد أبى كل ثدى إلا ثديك فقالت إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبي إلا قبلنى فقررره فى يدها وأجرى عليها فرجعت إلى بيتها من يومها وذلك قوله تعالى (فرددناه إلى أمه كي تقر عينها) بوصول ولدها إليها (ولا تحزن) بفراقه (ولتعلم أن وعد الله) أى جميع ما وعده من رده وجعله من المرسلين (حق) لا خلف فيه بمشاهدة بعضه وقياس بعضه عليه (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن الأمر كذلك فيرتابون فيه أو أن الغرض الأصلى من الرد علمها بذلك وما سواه تبع وفيه تعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون

(ولما بلغ أشده) أى المبلغ الذى لا يزيد عليه نشؤه وذلك من ثلاثين إلى أربعين سنة فإن العقل يكمل حينئذ وروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس الأربعين (واستوى) أى اعتدل قده أو عقله (آتيناه حكما) أى نبوة (وعلمنا) بالدين أو علم الحكماء والعلماء وسميتهم قبل استنبائه فلا يقول ولا يفعل ما يستجهل فيه وهو أوفق لنظام القصة لأنه تعالى استنبأه بعد الهجرة فى المراجعة (وكذلك) ومثل ذلك الذى فعلنا بموسى وأمه (فجزى المحسنين) على إحسانهم (ودخل المدينة) أى مصر من قصر فرعون وقيل منف أو حابين أو عين شمس من نواحيها (على حين غفلة من أهلها) فى وقت لا يعتاد دخولها أو لا يتوقعونه فيه قيل كان وقت القيلولة وقيل بين العشاءين

( فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته ) أى من شايعه على دينه وهم بنو إسرائيل ( وهذا من عدوه ) أى من مخالفيه ديننا وهم القبط والإشارة على الحكاية ( فاستغاثه الذى من شيعته ) أى سأل أن يغثه بالإغاثة كما ينبي عنه تعديته بعلى وقرىء استغاثه ( على الذى من عدوه فذكره موسى ) أى ضرب القبطى بجمع كفه وقرىء فلكزه أى فضرب به صدره ( فقتل عليه ) فقتله وأصله أنهى حياته من قوله تعالى ( وقضينا إليه ذلك الأمر ) ( قال هذا من عمل الشيطان ) لأنه لم يكن مأمورا بقتل الكفار أو لأنه كان مأمونا فيما بينهم فلم يكن له اغتيالهم ولا يقدح ذلك فى عصمته لكونه خطأ وإنما عده من عمل الشيطان وسماه ظلما واستغفر منه جريا على سنن المقرين فى استعظام ما فرط منهم ولو كان من محقرات الصغار ( لأنه عدو مضل مبين ) ظاهر العداوة والاضلال

( قال ) توسيطه بين كلاميه عليه الصلاة والسلام لإبانة ما بينهما من المخالفة من حيث أنه مناجاة ودعاء بخلاف الأول ( رب إني ظلمت نفسي ) أى بقتله ( فاغفر لي ) ذنبى ( فغفر له ) ذلك ( انه هو الغفور الرحيم ) أى المبالغ فى مغفرة ذنوب عباده ورحمتهم ( قال رب بما أنعمت على ) لما قسم محذوف الجواب أى أقسم بأنعامك على بالمغفرة لأنونين ( فلن أكون ) بعد هذا أبدا ( ظهيرا للمجرمين ) ولما استعطف أى بحق إنعامك على اعصمى فلن أكون معينا لمن تؤدى معاونته إلى الجرم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه عليه الصلاة والسلام لم يستثن فابتلى به مرة أخرى وهذا يؤيد الأول وقيل معناه بما أنعمت على من القوة أعين أوليائك فلن استعملها فى مظاهرة أعدائك ( فأصبح فى المدينة خائفا يترقب ) يترصد الاستفادة أو الأجناد ( فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه ) أى يستغيثه برفع الصوت من الصراخ ( قال له موسى إنك لغوى مبين ) أى بين الغواية تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر ( فلما أن أراد ) موسى ( أن يطش بالذى هو عدو لها ) أى لموسى والإسرائيل إذ لم يكن على دينهما ولأن القبط كانوا

أعداه لبني إسرائيل على الإطلاق وقرى يبطش بضم الطاء ﴿ قال ﴾ أى  
الإسرائيلى ظانا أنه عليه الصلاة والسلام يبطش به حسبا يومه تسميته إياه  
غويا ﴿ يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ﴾ قالوا لما سمع  
القبضى قول الإسرائيلى علم أن موسى هو الذى قتل ذلك الفرعونى فانطلق  
إلى فرعون فأخبره بذلك وأمر فرعون بقتل موسى عليه السلام وقيل قاله  
القبضى ﴿ إن تريد ﴾ أى ما تريد ﴿ إلا أن تكون جبارا فى الأرض ﴾ وهو  
الذى يفعل كل ما يريد من الضرب والقتل ولا ينظر فى العواقب وقيل المتعظم  
الذى لا يتواضع لأمر الله تعالى ﴿ وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ بين  
الناس بالقول والفعل ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة ﴾ أى كائن من آخرها  
أو جاء من آخرها ﴿ يسعى ﴾ أى يسرع صفة لرجل أو حال منه على أن  
الجار والمجرور صفة له لا متعلق بجاء فإن تخصصه يلحقه بالمعارف قبل هو  
مؤمن آل فرعون واسمه جزقىل وقيل شمعون وقيل شمعان ﴿ قال يا موسى  
إن الملا يأترون بك ليقتلوك ﴾ أى يتشاورون بسببك فإن كلا من المتشاورين  
يأمر الآخرين ويأتمر ﴿ فاخرج ﴾ أى من المدينة ﴿ لئنى لك من الناصحين ﴾  
اللام للبيان لما أن معمول الصلة لا يتقدمها ﴿ نخرج منها ﴾ أى من المدينة  
﴿ خائفا يترقب ﴾ لحوق الطالبين ﴿ قال رب نجنى من القوم الظالمين ﴾ خلاصى  
منهم واحفظنى من لحوقهم ﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ أى نحو مدين وهى  
قرية شعيب عليه السلام سميت باسم مدين بن إبراهيم ولم تكن تحت سلطان  
فرعون وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام

﴿ قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ﴾ توكلنا على الله تعالى وثقة  
بحسن توفيقه وكان لا يعرف للطرق فمن له ثلاث طرائق فأخذ فى الوسطى  
وجاء الطلاب فشرعوا فى الآخرين وقيل خرج حافيا لا يعيش إلا بورق  
الشجر فما وصل حتى سقط خف قدمه وقيل جاء ملك على فرس ويده عنزة  
فانطلق به إلى مدين ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ أى وصل إليه وهو بهر كانوا  
يسقون منها ﴿ وجد عليه ﴾ أى فوق شفيرها ﴿ أمة ﴾ جماعة كثيفة ﴿ من

الناس يسقون) أى مواشيهم (ووجد من دونهم) أى فى موضع أسفل منهم (امرأتين تذودان) أى تمنعان ما معهما من الأغنام عن التقدم إلى البئر كيلا تختلط بأغنامهم مع عدم الفائدة فى التقدم (قال) عليه السلام لهما حين رأهما على ما هما عليه من التأخر والذود (ما خطبكما) ما شأنكما فيما أتيا عليه من التأخر والذود ولم لا تباشران السقى كدأب هؤلاء (قالتا لا نسقى حتى يصدر الرءاء) أى عادتنا أن لا نسقى حتى يصرف الرعاة مواشيهم بعد ريبها عن الماء عجزا عن مساجلتهم وحذرا عن مخالطة الرجال لا أنا لا نسقى اليوم إلى تلك الغاية وحذف مفعول السقى والذود والإصدار لما أن الغرض هو بيان تلك الأفعال أنفسها إذ هى التى دعت موسى عليه السلام إلى ما صنع فى حقهما من المعروف فإنه عليه الصلاة والسلام إنما رحمهما لكونهما على الذياد للعجز والعفة وكونهم على السقى غير مباليين بهما وما رحمهما لكون مذودهما غنما ومسقيهم إبلا مثلا وقرى لا نسقى من الإسقاء ويصدر من الصدور والرءاء بضم الراء وهو اسم جمع كالرحال وأما الرءاء لجمع قيامى كصيام وقيام وقوله تعالى :

(وأبونا شيخ كبير) إبلاء منهما للعذر إليه عليه السلام فى توليها للسقى بأنفسهما كأنهما قالتا إنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال ومزاحمتهم وما لنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ كبير السن قد أضعفه الكبر فلا بد لنا من تأخير السقى إلى أن يقضى الناس أوطارهم من الماء (فسقى لهما) رحمة عليهما والنكلام فى حذف مفعوله كما مر أنفا روى أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجرا لا يقله إلا سبعة رجال وقيل عشرة وقيل أربعون وقيل حانة فأقله وحده مع ما كان به من الوجيب والجراحة والجوع ولعله عليه الصلاة والسلام زاحمهم فى السقى لهما فوضعوا الحجر على البئر لتعجيزه عليه الصلاة والسلام عن ذلك فإن الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام غب ما شاهد حالهما سارع إلى السقى لهما وقد روى أنه دفعهم عن الماء إلى أن سقى لهما وقيل كانت هناك بئر أخرى عليها الصخرة المذكورة وروى

أنه عليه الصلاة والسلام سألهم دلوا من ماء فأعطوه دلوهم وقالوا استقي بها وكان لا ينزعها إلا أربعون فاستقي بها وصبها في الخوض ودعا بالبركة وروى غنمهما وأصدرهما ﴿ثم تولى إلى الظل﴾ الذي كان هناك .

﴿فقال رب إني لما أنزلت إلي﴾ أي أي شيء أنزلته إلي ﴿من خير﴾ جل أو قل وحمله الأكثر على الطعام بمعونة المقام ﴿فقير﴾ أي محتاج . ولتضمنه معنى السؤال والطلب جيء بلام الدعامة لتقوية العمل وقيل المعنى لما أنزلت إلي من خير عظيم هو خير الدارين صرت فقيرا في الدنيا لأنه كان في سعة من العيش عند فرعون قاله عليه الصلاة والسلام لإظهارا للتبجح والشكر على ذلك ﴿فجاءته إحداهما﴾ قيل هي كبراهما واسمها صفوراء أو صفراء وقيل صفراهما واسمها صفيراء أي جاءته عقيب ما رجعتا إلى أبيهما روى أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حفل بطان قال لهما ما أمجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحما فسقى لنا فقال لإحداهما اذهبي فادعيه لي وقوله تعالى ﴿تمشي﴾ حال من فاعل جاءت وقوله تعالى ﴿على استحياء﴾ متعلق بمحذوف هو حال من ضمير تمشي أي جاءته تمشي كأنه على استحياء فعناه أنها كانت على حالتي المشي والحجى معاً لا عند الحجى فقط وتنكير استحياء للتفخيم قيل جاءته متخففة أي شديدة الحياء وقيل قد استترت بكم درعها ﴿قالت﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية مجيئها إياه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قالت له عليه الصلاة والسلام فقيل قالت ﴿إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ أي جزاء سقيك لنا أسندت الدعوة إلى أبيها وعللتها بالجزاء لثلا يوم كلامها ريبة وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ما لا يخفى روى أنه عليه الصلاة والسلام أجابها فانطلقا وهي أمامه فالزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها امشي خلفي وانعتي لي الطريق ففعلت حتى أتيا دار شبيب عليهما السلام ﴿فلما جاءه وقص عليه القصص﴾ أي ما جرى عليه من الخبر المقصوص فإنه مصدر يسمى به المقبول كالمعلل .

(قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) الذى يلوح من ظاهر النظم الكريم أن موسى عليه السلام إنما أجاب المستدعية من غير تلعم لتبرك برؤية شعيب عليه السلام ويستظهر برأيه لا يأخذ بمعروفه أجراً حسبما صرحت به ألا يرى إلى ما روى أن شعيباً لما قدم إليه طعماً قال إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهاباً ولا نأخذ على المعروف ثمناً ولم يتناول حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا فتناول بعد ذلك على سبيل التقبل لمعروف مبتدأ كيف لا وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوة من أولاد يعقوب عليه السلام ومثله حقيق بأن يضيف ويكرم لا سيما في دار نبي من أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وقيل ليس بمستنكر منه عليه الصلاة والسلام أن يقبل الأجر لا يضطرار الفقر والفاقة وقد روى عن عطاء بن السائب أنه عليه السلام رفع صوته بدعائه لئسمعها ولذلك قيل له ليجزيك الخ ولعله عليه السلام إنما فعله ليكون ذريعة إلى استدعائه لا استيفاء الأجر .

(قالت إحداهما) وهى التى استدعته إلى أبيها وهى التى زوجها من موسى عليهما السلام (يا أبت استأجره) أى ارعى الغنم والقيام بأمرها (إن خير من استأجرت القوى الأمين) تعليل جار مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار وللمبالغة فى ذلك جعل خير اسماً لأن وذكر الفعل على صيغة الماضى للدلالة على أنه أمين مجرب روى أن شعيباً عليه السلام قال لها وما أعلمك بقوته وأمانته فذكرت ما شاهدت منه عليه السلام من إقلال الحجر ونزع الدلو ولو أنه صوب رأسه حتى بلغته رسالته وأمرها بالمشى خلفه (قال إني أريد أن أفكحك إحدى ابنتي هاتين على تأجرنى) أى نكون أجييراً إلى أو نثيبنى من أجرت كذا إذا أثبتته إياه فقوله تعالى (ثمانى حجج) على الأول ظرف وعلى الثانى مفعول به على تقدير مضاف أى رعية ثمانى حجج ونقل عن المبرد أنه يقال أجرت دارى وعلوكى غير محدود وأجرت بمدوداً والأول أكثر فعلى هذا يكون المفعول الثانى محذوفا والمعنى على أن تأجرنى نفسك وقوله تعالى ثمانى حجج ظرف كالوجه الأول (فإن أنعمت عشراً) فى الخدمة

والعمل ﴿ فمن عندك ﴾ أى فهو من عندك بطريق التفضل لا من عندى بطريق الإلزام عليك وهذا من شعيب عرض لرأيه على موسى عليهما السلام واستدعاء منه للعقد لإنشاء وتحقيق له بالفعل ﴿ وما أريد أن أشق عليك ﴾ بالزام لإتمام العشر أو المناقشة فى مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال واشتقاق المشقة من الشق فإن ما يصعب عليك يشق عليك اعتقادك فى إطاقته ويوزع رأيك فى مزاولته ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ﴾ فى حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالهد ومراعاة عليه الصلاة والسلام بالاستثناء التبرك به وتفويض أمره إلى توفيقه تعالى لا تعليق صلاحه بمشيئته تعالى .

﴿ قال ذلك بينى وبينك ﴾ مبتدأ وخبر أى ذلك الذى قلتى وعاهدتنى فيه وشارطتنى عليه قائم وثابت بيننا جميعا لا يخرج عنه واحد منا لأننا عاشرنا على ولا أنت عاشرنا على أنفسك وقوله تعالى ﴿ أيما الأجلين ﴾ أى أكثرهما أو أقصرهما ﴿ قضيت ﴾ أى وفيتسكه بأداء الخدمة فيه ﴿ فلا عدوان على ﴾ تصريح بالمراد وتقرير لأمر الخيرة أى لا عدوان على بطلب الزيادة على ما قضيته من الأجلين وتعميم انتفاء العدوان لكلا الأجلين بصدد المشاركة مع عدم تحقق العدوان فى أكثرهما رأسا للقصد إلى التسوية بينهما فى الانتفاء أى كما لا أطالب بالزيادة على العشر لا أطالب بالزيادة على الثمان أو أيما الأجلين قضيت فلا أتم على معنى كالأتم على فى قضاء الأكثر لأتم على فى قضاء الأقصر فقط وقرىء أى الأجلين ما قضيت فإمزيدة لتأكيد القضاء كما أنها فى القراءة الأولى إمزيدة لتأكيد إيهام أى وشياعها وقرىء أيما بسكون الياء كقول من قال :

تنظرت نصرا والسماكين أيهما على من الغيث استهلت مواطره  
﴿ والله على ما نقول ﴾ من الشروط الجارية بيننا ﴿ وكيل ﴾ شاهد وحفيظ فلا سبيل لأحد منا إلى الخروج عنه أصلا وليس ما حكى عنهما عليهما الصلاة والسلام تمام ما جرى بينهما من الكلام فى إنشاء عقد النكاح أو عقد الإجازة وإيقاعهما بل هو بيان لما عزمنا عليه واتفقا على إيقاعه حسبما

يتوقف عليه مساق القصة إجمالاً من غير تعرض لبيان مواجب العقدين في تلك الشريعة تفصيلاً روى أنهما لما أتتا العقد قال شعيب لموسى عليهما السلام ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى وكانت عنده عصى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فأخذ عصا هبط بها آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ولم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب عليه السلام فمسها وكان مكفوفاً فضن بها فقال خذ غيرها فما وقع في يده إلا هى سبع مرات فعلم أن له شأناً وقيل أخذها جبريل عليه السلام بعد موت آدم عليه السلام فكانت معه حتى لقي بها موسى عليه السلام ليلاً وقيل أودعها شعيباً ملك في صورة رجل فأمر بنته أن تأتية بهصاً فأتته بها فردها سبع مرات فلم يقع في يدها غيرها فدفعتها إليه ثم دم لأنهما وديعة فتبعه فاخصمها فيها ورضياً أن يحكم بينهما أول طالع فأتاهما الملك فقال ألقياها فمن رفعها فهى له فعالجها الشيخ فلم يطقها ورفعها موسى عليه السلام وعن الحسن رضى الله عنه ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعتراضاً وعن السكبي رحمه الله الشجرة التى منها نودى شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولما أصبح قال له شعيب صلوات الله وسلامه عليهما إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فإن الكلاً وإن كان بها أكثر إلا أن فيها تفيناً أخشاه عليك وعلى الغنم فأخذت الغنم ذات اليمين فلم يقدر على كفها ومشى على أثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله فنام فإذا بالتنين قد أقبل فخاربتة إلعصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى عليه السلام دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولاً ارتاح لذلك ولما رجع إلى شعيب عليهما السلام مس الغنم فوجدها مملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى عليه السلام بالشأن ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأناً وقال له إني وهبت لك من نتاج غنمى هذا العام كل أدرع ودرعاء فاوحى إليه في المنام أن اضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ، ثم سقى ، فما أخطأت واحده إلا وضعت أدرع ودرعاء فوفى له بشرطه .

والفاء في قوله تعالى : ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ فصيحة ، أى فعقدا العقدين وبأمر موسى ما ألزمه فلما أتم الأجل ﴿ وسار بأهله ﴾ نحو مصر بإذن من شعيب عليهما السلام روى أنه عليه الصلاة والسلام قضى



أبعد الأجلين ومكث عنده بعد ذلك عشر سنين ثم عزم على العود إلى مصر  
فاستأذنه في ذلك فأذن له فخرج بأهله ﴿آنس من جانب الطور﴾ أى أبصر  
من الجهة التى تلى الطور ﴿نارا قال لأهله امكثوا لاني آنست نارا لعل آتيكم  
منها بخبر﴾ أى بخبر الطريق وقد كانوا ضلوه ﴿أو جذوة﴾ أى عود غليظ  
سواء كانت فى رأسه نار أو لا ، قال قائلهم :

باتت حواطب ليلى يلتمسن لها جزل الجذوى غير خوار ولا دعر  
وقال :

وألقى على قبس من النار جذوة شديدا عليها حرها والتهابها  
ولذلك بين بقوله تعالى ﴿من النار﴾ وقرئ بكسر الجيم وبضمها وكلاهما  
لغات ﴿لعلكم تصطلون﴾ أى تستدفئون .

﴿فلما أتاها﴾ أى النار التى آنسها ﴿نودى من شاطئ الوادى الأيمن﴾  
أى أتاه النداء من الشاطئ الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام ﴿فى البقعة  
المباركة﴾ متصل بالشاطئ أو صلة لنودى ﴿من الشجرة﴾ بدل اشتغال من  
شاطئ لأنها كانت نابتة على الشاطئ ﴿أن يا موسى لى أنا الله رب العالمين﴾  
وهذا وإن خالف لفظا لما فى طه والنمل لكنه موافق له فى المعنى المراد ﴿وأن  
ألق عصاك﴾ عطف على أن يا موسى وكلاهما مفسر لنودى والفاء فى قوله تعالى  
﴿فلما رآها تهتز﴾ فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت تعويلا على دلالة الحال  
عليها وإشعاراً بفاية سرعة تحقق مدلولاتها أى فألقاها فصارت ثعبانا فاهتزت  
فلما رآها تهتز ﴿كأنها جان﴾ أى فى سرعة الحركة مع غاية عظم جثتها ﴿ولى  
مدبرا﴾ أى منهزما من الخوف ﴿ولم يعقب﴾ أى لم يرجع ﴿يا موسى﴾ أى  
قيل يا موسى ﴿أقبل ولا تخف إنك من الأمنين﴾ من المخاوف فإنه لا يخاف  
لدى المرسلون ﴿أسلك يدك فى جيبك﴾ أى أدخلها فيه ﴿تخرج بيضاء  
من غير سوء﴾ أى عيب .

﴿واضمم إليك جناحك﴾ أى يدبك المبتسوطتين لتتقي بهما الحية كالحائف  
الفروخ يادخال الجنى تحت العضد الأيسر واليسرى تحت الأيمن أو يادخالهما فى

الجيب فيكون تكريرا لغرض آخر هو أن يكون ذلك في وجه العدو لإظهار جراءة ومبدأ لظهور معجزة ويجوز أن يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعبانا استعارة من حال الطائر فإنه إذا خاف نشر جناحيه وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه (من الرهب) أى من أجل الرهب أى إذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلدا وضبطا لنفسك وقرىء بضم الراء وسكون الهاء وبضمهما والكل لغات (فذا نك) إشارة إلى العصا واليد وقرىء بتشديد النون فالمنخفض مثنى ذاك والمشدد مثنى ذلك (برهانان) حجتان نيرتان وبرهان فعلان لقولهم أبره الرجل إذا جاء بالبرهان من قولهم بره الرجل إذا أبيض ويقال للمرأة البيضاء برهاء وبرهره ونظيره تسمية الحجة سلطانا من السليط وهو الزيت لإفارتها وقيل هو فعلال لقولهم برهن ومن في قوله تعالى (من بك) متعلقة بمحذوف هو صفة لبرهانان أى كائنان منه تعالى (إلى فرعون وملئه) واصلان ومنتهيان إليهم (انهم كانوا قوما فاسقين) خارجين عن حدود الظلم والعدوان فكانوا أحقاء بأن ترسلك اليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين (قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) بمقابلتها (وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردأ) أى معينا وهو فى الأصل اسم ما يمان به كالدفع وقرىء ردا بالتحفيف (يصدقنى) بتلخيص الحق وتقرير الحجة بتوضيحها وتزييف الشبهة (إني أخاف أن يكذبون) ولسانى لا يطاوعنى عند الحاجة وقيل المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه لكنه أسند إليه إسناد الفعل إلى السبب وقرىء يصدقنى بالجزم على أنه جواب الأمر (قال سنشد عضدك بأخيك) أى سنقويك به فان قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الأمور ولذلك يعبر عنه باليد وشدتها بشدة العضد (ونجعل لك سلطانا) أى تسلطا وغلبة وقيل حجة وليس بذلك (فلا يصلون اليك) باستيلاء أو محتاجة (بآياتنا) متعلق بمحذوف قد صرح به فى مواضع آخر أى أذهبنا بآياتنا أو بنجعل أى نسلطك بآياتنا أو بمعنى لا يصلون أى تمتنعون منهم بها وقيل هو قسم.

(٢٠ - أبو السعود - الرابع).

وجوابه لا يصلون وقيل هو بيان للغالبون في قوله تعالى ﴿أتنا ومن اتبعنا﴾ (الغالبون) بمعنى أنه صلة لما يبينه أو صلة له على أن اللام للتعريف لا بمعنى الذي ﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات﴾ أى واضحات الدلالة على صحة رسالة موسى عليه السلام منه تعالى والمراد بها العصا واليد إذ هما اللتان أظهرهما موسى عليه السلام إذ ذاك والتعبير عنهما بصيغة الجمع قد مر سره في سورة طه ﴿قالوا ما هذا إلا سحر مفترى﴾ أى سحر متعلق لم يفعل قبل هذا مثله أو سحر عمله ثم تفزيه على الله تعالى أو سحر موصوف بالافتراء كسائر أصناف السحر ﴿وما سمعنا بهذا﴾ أى السحر أو ادعاء النبوة ﴿في آياتنا الأولين﴾ أى واقعا في أيامهم .

﴿وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده﴾ يريد به نفسه وقرى قال بغير واو لأنه جواب عن مقالهم ووجه العطف أن المراد حكاية القولين ليوازن السامع بينهما فيميز صحيحهما من الفاسد ﴿ومن تكون له عاقبة الدار﴾ أى العاقبة المحمودة في الدار وهى الدنيا وعاقبتها الأصلية هى الجنة لأنها خلقت مجازا إلى الآخرة ومزعة لها والمقصود بالذات منها الثواب وأما العقاب فمن نتائج أعمال العصاة وسيئات الغواة وقرى يكون بالياء التحتانية ﴿لأنه لا يفلح الظالمون﴾ أى لا يفوزون بمطلوب ولا ينجون عن محذور ﴿وقال فرعون يا أيها الملا ما علمت لكم من إله غيرى﴾ قاله اللعين بعد ما جمع السحرة وتصدى للمعارضة فكان من أمرهم ما كان ﴿فأوقدلى ياها مان على الطين﴾ أى اصنع أجرا ﴿فاجعل لى﴾ منه ﴿صرحا﴾ أى قصر ارفيعا ﴿لعلى أطلع إلى إله موسى﴾ كأنه توهم أنه لو كان لكان جسما فى السماء يمكن الرقى إليه ثم قال ﴿وانى لأظنه من الكاذبين﴾ أو أراد أن يبنى له رسدا يترصد منه أوضاع الكواكب فيرى هل فيها ما يدل على بعثة رسول وتبدل دولته وقيل المراد بنى العلم نفي المعلوم كما فى قوله تعالى ﴿قل أتنبثون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض﴾ فإن معناه بما ليس فيهن وهذا من خواص العلوم العقلية فإنها لازمة لتحقيق معلوماتها فيلزم من انتفاء معلوماتها ولا كذلك

العلوم الانفعالية قيل أول من اتخذ الأجر فرعون ولذلك أمر باتخاذ على وجه يتضمن تعليم الصنعة مع ما فيه من تعظم ولذلك نادى هامان باسمه بيا في وسط الكلام ﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض ﴾ أرض مصر ﴿ بغير الحق ﴾ بغير استحقاق ﴿ وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ بالبعث للجزاء وقرى بفتح الياء وكسر الجيم من رجع رجوعا والاول من رجع رجعا وهو الانسب بالمقام .

﴿ فأخذناه وجنوده ﴾ عقيب ما بلغوا من الكفر والعنوا أقصى الغايات ﴿ فنبداهم في اليم ﴾ قدر تفصيله وفيه من تفخيم شأن الأخذ وتهويله واستحقار المأخوذ من المنبوذين ما لا يخفى كأنه تعالى أخذهم مع كثرتهم في كف وطرحهم في البحر ونظيره قوله تعالى ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾ ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ وبينها للناس ليعتبروا بها ﴿ وجعلناهم ﴾ أى صيرناهم فى عهدهم ﴿ أئمة يدعون ﴾ الناس ﴿ إلى النار ﴾ إلى ما يؤدى إليها من الكفر والمعاصى أى قدوة يقتدى بهم أهل الضلال لما صرفوا اختيارهم إلى تحصيل تلك الحالة وقيل سميناهم أئمة دعاة إلى النار كما فى قوله تعالى ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ﴾ فالانسب حينئذ أن يكون الجعل بعدهم فيما بين الأمم وتكون الدعوة إلى نفس النار وقيل معنى الجعل منع الألفاظ الصارفة عن ذلك ﴿ ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه ﴿ وأبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ﴾ طردا وإبعادا من الرحمة ولعنا من اللاعنين حيث لا يزال يلعنهم الملائكة عليهم الصلاة والسلام والمؤمنون خلفا عن سلف ﴿ ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ من المطرودين المبعدين وقبل من الموسومين بعلامة منكرة كزرقة العيون وسواد الوجه قاله ابن عباس رضى الله عنهما يقال قبحه الله وقبحه إذا جعله قبيحا وقال أبو عبيدة من المقبوحين من المهلكين ويوم القيامة إما متعلق بالمقبوحين على أن اللام للتعريف لا بمعنى الذى أو بمحذوف يفسره ذلك كأنه قيل وقبحوا يوم القيامة نحو لمعلكم من القالين ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ أى التوراة ﴿ من بعدما أهلكنا القرون الأولى ﴾ هم أقوام نوح وهود وصالح ولوط

عليهم السلام والتعرض لبيان كون إيتائها بعد اهلاكهم للإشعار بمساس الحاجة الداعية إليه تمهيدا لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية الى إزال القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فان اهلاك القرون الأولى من موجبات اندراس معالم الشرائع وانطماس آثارها وأحكامها المؤديين الى اختلال نظام العالم وفساد أحوال الأمم المستدعين للنشرية الجديد بقرير الأصول الباقية على مر الدهور وترتيب الفروع المتبدله بتبدل العصور وتذكير أحوال الأمم الخالية الموجبة للاعتبار كأنه قيل ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجة الى إيتائها ﴿بصائر للناس﴾ أى أنوارا لقلوبهم تبصر الحقائق وتميز بين الحق والباطل حيث كانت عميا عن الفهم والإدراك بالكلية فان البصيرة نور القلب الذى به يستبصر كما أن البصر نور العين الذى به تبصر ﴿وهدى﴾ أى هداية الى الشرائع والأحكام التى هى سبل الله تعالى ﴿ورحمة﴾ حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى وانتصاب الكل على الحالالية من الكتاب على أنه نفس البصائر والهدى والرحمة أو على حذف المضاف أى ذا بصائر الخ وقيل على العلة أى آتيناها الكتاب للبصائر والهدى والرحمة ﴿لعلهم يتذكرون﴾ ليكونوا على حال يرجى منه التذكر وقد مر تحقيق القول فى ذلك عند قوله تعالى لعلكم تتقون من سورة البقرة وقوله تعالى :

﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ شروع فى بيان أن إزال القرآن الكريم أيضا واقع فى زمان شدة مساس الحاجة إليه واقتضاء الحكمة له البتة وقد صدر بتحقيق كونه وحيا صادقا من عند الله عز وجل ببيان أن الوقوف على ما فصل من الأحوال لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم عن شاهدها وحيث انتفى كلاهما تبين أنه بوحى من علام الغيوب لا محالة على طريقة قوله تعالى (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم) الآية أى وما كنت بجانب الجبل الغربى أو المسكن الغربى الذى وقع فيه الميقات على حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه أو الجانب الغربى على إضافة الموصوف الى الصفة كمسجد الجامع ﴿إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ أى عهدنا إليه وأحكمنا أمر نبوته بالوحى وإيتاء التوراة.

﴿وما كنت من الشاهدين﴾ أى من جملة الشاهدين للوحى وهم السبعون المختارون للبيئات حتى تشاهد ما جرى من أمر موسى فى ميقاته وكتبته التوراة له فى الألواح فتخبره للناس ﴿ولكننا أنشأنا قرونا﴾ أى ولكننا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونا كثيرة ﴿فتطاول عليهم العمر﴾ وتماضى الأمد فتغيرت الشرائع والأحكام وعميت عليهم الأنبياء لا سيما على آخرهم فاقضى الحال التشرىع الجديد فأوحينا إليك حذف المستدرك أكتفاء بذكر ما يوجه ويدل عليه وقوله تعالى ﴿وما كنت ثاويا فى أهل مدين﴾ نفي لاحتفال كون معرفته عليه الصلاة والسلام للقصة بالسمع عن شاهدها أى وما كنت مقبلا فى أهل مدين من شعيب والمؤمنين به وقوله تعالى ﴿تتلو عليهم﴾ أى تقرأ على أهل مدين بطريق التعلم منهم ﴿آياتنا﴾ الناطقة بالقصة إما حال من المستكن فى ثاوى أو خبر ثان لسكنت ﴿ولكننا كنا مرسلين﴾ إياك وموحين إليك تلك الآيات ونظائرهما ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ أى وقت نادنا موسى (إنى إنى أنا الله رب العالمين) واستنبأنا إياه وإرسالنا له إلى فرعون ﴿ولكن رحمة من ربك﴾ أى ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر وبغيره رحمة عظيمة كائنة مثلك وللناس وقيل علمناك وقيل عرفناك ذلك ولبس بذلك كما ستعرفه والالتفات إلى اسم الرب للإشعار بعلة الرحمة وتشریفه عليه الصلاة والسلام بالإضافة وقد اكتفى عن ذكر المستدرك هنا بذكر ما يوجه من جهته تعالى كما اكتفى عنه فى الأول بذكر ما يوجه من جهة الناس وصرح به فيما بينهما تفصيلا على ما هو المقصود وإشعارا بأنه المراد فيهما أيضاً ولله در شأن التنزيل وقوله تعالى ﴿لننذر قوما﴾ متعلق بالفعل المعلن بالرحمة فهو ما ذكرنا من إرساله عليه الصلاة والسلام بالقرآن حتما لما أنه المعلن بالإذار لا تعليم ما ذكر وقرئ رحمة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى ﴿ما أنأهم من نذير من قبلك﴾ صفة لقوما أى لم يأتهم نذير لوقوعهم فى فترة بينك وبين عيسى وهى خمس مائة وخمسون سنة أو بينك وبين إسماعيل بناء على أن دعوة موسى وعيسى عليهما السلام كانت مختصة ببني إسرائيل ﴿لعلهم يتذكرون﴾ أى يتعظون

يا نذارك وتغيير الترتيب الوقوعى بين قضاء الأمر والثواء فى أهل مدين والنداء للتنبيه على أن كلام ذلك برهان مستقل على أن حكايته عليه الصلاة والسلام للقصة بطريق الوحى الإلهى ولو ذكر أولا نفى ثوانه عايه الصلاة والسلام فى أهل مدين ثم نفى حضوره عليه الصلاة والسلام عند النداء ثم نفى حضوره عند قضاء الأمر كما هو الموافق للترتيب الوقوعى لربما توهم أن السكل دليل واحد على ما ذكر كما فى قصة البقرة .

﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة ﴾ أى عقوبة ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ أى بما اقترفوا من الكفر والمعاصى ﴿ فيقولوا ﴾ عطف على تصيبهم داخل فى حيز لولا الامتناعية على أن مدار انتفاء ما يجاب به هو امتناعه لا امتناع المعطوف عليه وإنما ذكره فى حيزها للإيدان بأنه السبب الملجئ لهم الى قولهم ﴿ ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ﴾ أى هلا أرسلت إلينا رسولا مؤيدا من عندك بالآيات ﴿ فننتبع آياتك ﴾ الظاهرة على يده وهو جواب لولا الثانية ﴿ ونكون من المؤمنين ﴾ بها وجواب لولا الأولى محذوف ثقة بدلالة الحال عليه والمعنى لولا قولهم هذا عند إصابة عقوبة جنائياتهم التى قدموها ما أرسلناك لكن لما كان قولهم ذلك محققا لا مجيد عنه أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم بالكلىة ﴿ فلما جاءهم ﴾ أى أهل مكة ﴿ الحق من عندنا ﴾ وهو القرآن المنزل عليه عليه الصلاة والسلام ﴿ قالوا ﴾ تعنتا واقتراحا ﴿ لولا أوتى ﴾ يعنونه عليه الصلاة والسلام ﴿ مثل ما أوتى موسى ﴾ من الكتاب المنزل جملة وأما اليد والعصا فلا تعلق لهما بالمقام كسائر معجزاته عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى ﴿ أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ﴾ رد عليهم وإظهار لكون ما قالوه تعنتا محضاً لا طلباً لما يرشدهم الى الحق أى ألم يكفروا من قبل هذا القول بما أوتى موسى من الكتاب كما كفروا بهذا الحق وقوله تعالى ﴿ قالوا ﴾ استئناف مسوق لتقرير كفرهم المستفاد من الإنكار السابق وبيان كيفية وقوله تعالى ﴿ سحران ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى هما يعنون ما أوتى محمد وما أوتى موسى عليهما السلام سحران ﴿ تظاهرا ﴾ أى تعاونا بهما يق كل واحد منهما الآخر وذلك أنهم بعثوا رهطاً منهم لى رؤساء اليهود

في عيد لهم فسألهم عن شأنه عليه الصلاة والسلام فقالوا إنا نجده في التوراة  
بنعنه وصفته فلما رجع الرهط وأخبرهم بما قالت اليهود قالوا ذلك وقوله تعالى  
(وقالوا إنا بكل) أى بكل واحد من الكتابين (كافرون) نصريح بكفرهم  
بهما وتأكيدهم لكفرهم المفهوم من تسميتهما سحرا وذلك لغاية عتوهم وتماديهم في  
الكفر والطغيان وقرىء سحران تظاهرا يعنون موسى ومحمدا صلى الله عليهما  
وسلم هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الجليل فتأمل ودع عنك ما قيل وقيل  
ألا ترى الى قوله تعالى (قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما) بما  
أوتياه من التوراة والقرآن وسيمتوهما سحرين فإنه نص فيما ذكر وقوله تعالى  
(اتبعه) جواب للأمر أى إن تأتوا به أتبعه ومثل هذا الشرط مما يأتى من يدل  
بوضوح حجته وسنوح محجته لأن الاتيان بها هو أهدى من الكتابين أمر بين  
الاستحالة فيوسع دائرة الكلام للتبكيك والإلحاح (إن كنتم صادقين) أى فى  
أنهما سحران مختلفان وفى إيراد كلمة إن مع امتناع صدقهم نوع تهكم بهم (فإن  
لم يستجيبوا لك) أى فإن لم يفعلوا ما كلفتهم من الاتيان بكتاب أهدى منهما  
كقوله تعالى فإن لم تفعلوا وإنا عبر عنه بالاستجابة إذنا بأنه عليه الصلاة  
والسلام على كمال أمن من أمره كأن أمره عليه الصلاة والسلام لهم بالاتيان بما  
ذكر دعاء لهم الى أمر يريد وقوعه والاستجابة تتمدى الى الدعاء بنفسه والى  
الداعى باللام فيحذف الدعاء عند ذلك غالباً ولا يكاد يقال استجاب الله دعاءه  
(فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) الزائفة من غير أن يكون لهم متمسك ما أصلا  
إذ لو كان لهم ذلك لأتوا به (ومن أضل ممن اتبع هواه) استفهام إنكارى  
للنفى أى لا أضل ممن اتبع هواه (بغير هدى من الله) أى مر أضل من كل  
ضال وإن كان ظاهر السبك لنفى الأصل لا لنفى المساوى كما هو فى نظائره  
مراراً وتقييد اتباع الهوى بعدم الهدى من الله تعالى لزيادة التقرير والاشباع  
فى التشنيع والتضليل والافقارنته لهديته تعالى بينة الاستحالة (إن الله لا يهدي  
القوم الظالمين) الذين ظلموا أنفسهم بالانهمالك فى اتباع الهوى والإعراض  
عن الآيات الهادية إلى الحق المبين .



﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾ وقرىء بالتخفيف أى أنزلنا القرآن عليهم متواصلاً بعضه اثر بعض حسيماً تقتضيه الحكمة والمصلحة أو متتابعاً وعداً ووعداً قصصاً وعبراً ومواعظ ونصائح ﴿ لهم يتذكرون ﴾ فيؤمنون بما فيه ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله ﴾ أى من قبل إيتاء القرآن ﴿ هم به يؤمنون ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب وقيل أربعون من أهل الانجيل اثنان وثلاثون جاؤا مع جعفر من الحبشة وثمانية من الشام ﴿ وإذا يتلى ﴾ أى القرآن عليهم ﴿ قالوا آمنا به انه الحق من ربنا ﴾ أى الحق الذى كنا نعرف حقيقته وهو استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم وقوله تعالى ﴿ إنا كنا من قبله ﴾ أى من قبل نزوله ﴿ مسلمين ﴾ بيان لكون إيمانهم به أمراً متقدماً العهد لما شاهدوا ذكره فى الكتب المتقدمة وأنهم على دين الاسلام قبل نزول القرآن ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من المنعوت ﴿ يؤتون أجراً مرتين ﴾ مرة على إيمانهم بكتبهم ومرة على إيمانهم بالقرآن ﴿ بما صبروا ﴾ بصبرهم وثباتهم على الإيمانين أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده أو على أذى من هاجرهم من أهل دينهم ومن المشركين ﴿ ويدرون بالحسنة السيئة ﴾ أى يدفعون بالطاعة المعصية لقوله عليه الصلاة والسلام وأتبع السيئة الحسنة تمحها ﴿ وما رزقناهم ينفقون ﴾ فى سبيل الخير ﴿ وإذا سمعوا اللغو ﴾ من اللاغين ﴿ أعرضوا عنه ﴾ عن اللغو تكراً كقوله تعالى ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ .

﴿ وقالوا ﴾ لهم ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم ﴾ بطريق المتاركة والتوديع ﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ لا نطلب صعبيتهم ولا نريد مخالطتهم ﴿ إنك لاتهدى ﴾ هداية موصلة إلى البغية لا بحالة ﴿ من أحببت ﴾ من الناس ولا تقدر على أن تدخله فى الإسلام وإن بذلت فيه غاية المجهود وجاوزت فى السعى كل حد معبود ﴿ ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ أن يهديه فيدخله فى الإسلام ﴿ وهو أظلم بالمهتدين ﴾ بالمستعدين لذلك والجمهور على أنها نزلت فى أبى طالب فإنه لما اختصر جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج بها لك عند الله قال له يا ابن أختى قد علمت، إنك لصادق

ولكنني أكره أن يقال خرج عند الموت ولولا أن يكون عليك وعلى بنى آبيك  
غضاضة بعدى لقلتها ولأقررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك  
ونصيبك ولكنني سوف أموت على ملة ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد  
مناف ﴿ وقالوا إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا ﴾ نزلت في الحرث  
ابن عثمان بن نوفل بن عبد مناف حيث أتى النبي عليه الصلاة والسلام فقال نحن  
نعلم أنك على الحق ولكننا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب وإنما نحن أكلة  
رأس أن يتخطفونا من أرضنا فرد عليهم بقوله تعالى ﴿ أولم نمكن لهم حرما  
آمنا ﴾ أى ألم نعصمهم ولم نجعل مكانهم حرما ذا أمن لحرمة البيت الحرام الذى  
تقناحر العرب حوله وهم آمنون ﴿ ينجى إليه ﴾ رقىء نجى أى يجمع ويحمل  
إليه ﴿ ثمرات كل شئ ﴾ من كل أوب والجملة صفة أخرى لحرما دافعة  
لما عسى يتوهم من تصرفهم باقطاع الميرة ﴿ رزقا من لدنا ﴾ فإذا كان حالهم  
ما ذكر وهم عبدة أصنام فكيف يخافون التخطف إذا ضموا إلى حرمة البيت  
حرمة التوحيد ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى جهلة لا يتفطنون له  
ولا يتفكرون ليعلموا ذلك وقيل هو متعلق بقوله تعالى من لدنا أى قليل منهم  
يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله تعالى إذ لو علموا لما خافوا غيره  
وانتصاب رزقا على أنه مصدر مؤكد لمعنى نجى أو حال من ثمرات على أنه بمعنى  
مرزوق لتخصصها بالإضافة ثم بين أن الأمر بالعكس وأنهم أحقاء بأن يخافوا  
بأس الله تعالى بقوله :

﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ﴾ أى وكثير من أهل قرية كانت  
حالهم كحال هؤلاء فى الأمن وخفض العيش والدعة حتى أشروا فدمرنا عليهم  
وخربنا ديارهم ﴿ فذلك مساكنهم ﴾ خاوية بما ظلموا ﴿ لم تسكن من بعدهم ﴾  
من بعد تدميرهم ﴿ إلا قليلا ﴾ أى إلا زمانا قليلا إذ لا يسكنها إلا المارة يوما  
أو بعض يوم أو لم يبق من يسكنها إلا قليلا من شؤم معاصيهم ﴿ وكنا نحن  
الوارثين ﴾ منهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم فى ديارهم وسائر ذات  
أيديهم وانتصاب معيشتها بنزع الخافض أو يجعلها ظرفا بنفسها كقولك زيد ظنى

مقيم أو باضمار زمان مضاف إليه أو بجعله مفعولا لبطارت بتضمنين معنى كفرت ﴿وما كان ربك مهلك القرى﴾ بيان للعناية الربانية اثر بيان إهلاك القرى المذكورة أى وما صح وما استقام بل استحال في سنته المبينة على الحكم البالغة أو ما كان في حكمه الماضى وقضائه السابق أن يهلك القرى قبل الإنذار بل كانت عادته أن لا يهلكها ﴿حق يبعث في أمها﴾ أى فى أصلها وقصبتها التى هى أعمالها وتوابعها لكون أهلها أفطن وأنبل ﴿رسولا يتلو عليهم آياتنا﴾ الناطقة بالحق ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب وذلك لالزام الحجة وقطع المذرة بأن يقولوا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك والالتفات إلى نون العظمة لترتية المأبة وإدخال الروعة وقوله تعالى ﴿وما كنا مهلكي القرى﴾ عطف على ما كان ربك وقوله تعالى ﴿الا وأهلها ظالمون﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى وما كنا مهلكين لأهل القرى بعد ما بعثنا فى أمها رسولا يدعوهم إلى الحق ويرشدهم إليه فى حال من الأحوال إلا حال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفر بآياتنا فالبعث غاية لعدم صحة الإهلاك بموجب السنة الإلهية لا لعدم وقوعه حق يلزم تحقق الإهلاك عقيب البعث وقد مر تحقيقه فى سورة بنى اسرائيل.

﴿وما أوتيتم من شيء﴾ من أمور الدنيا ﴿فتاع الحياة الدنيا وزينتها﴾ أى فهو شيء شأنه أن يتمتع ويتزين به أياما قلائل ﴿وما عند الله﴾ وهو الثواب ﴿خير﴾ فى نفسه من ذلك لأنه لذة خالصة عن شوائب الألم وبهجة كاملة عارية عن سمة الهم ﴿وأبقى﴾ لأنه أبدي ﴿أفلا تعقلون﴾ ألا تفكرون فلا تعقلون هذا الأمر الواضح فتستقبلون الذى هو أدنى بالذى هو خير وقرىء بالياء على الالتفات المبني على اقتضاء سوء صنيعهم الاعراض عن مخاطبتهم ﴿أفمن وعدناه وعدا حسنا﴾ أى وعدا بالجنة فإن حسن الوعد بحسن الموعد ﴿فهو لاقية﴾ أى مدركة لا محالة لاستحالة الخلف فى وعده تعالى ولذلك جرى بالجملة الإسمية المفسدة لتحقيقه البتة وعطفت بالفاء المنبئة عن معنى السببية ﴿كن متعنا متاع الحياة الدنيا﴾ الذى هو مشوب بالآلام منغص بالأكدار مستتبع للتخسر على الانقطاع ومعنى الفاء الأولى ترتيب إنكار التشابه بين أهل

الدنيا وأهل الآخرة على ما قبلها من ظهور التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وبين ما عند الله تعالى أى أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوى بين الفريقين وقوله تعالى ﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ عطف على متعناه داخل معه في حيز الصلة مؤكداً لإنكار التشابه ومقرر له كأنه قيل كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم نحضره أو أحضرناه يوم القيامة النار أو العذاب وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على التحقق حتماً وفي جعله من جملة المحضرين من التهويل ما لا يخفى وثم للتراخي في الزمان أو في الرتبة وقرئ ثم هو بسكون الهاء تشبيهاً للنفصل بالمتصل ﴿ويوم يناديهم﴾ منصوب بالعطف على يوم القيامة لاختلافهما عنواناً وإن اتحداً ذاتاً أو بإضمار اذكر ﴿فيقول﴾ تفسير للنداء ﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ أى الذين كنتم تزعمونهم شركائي فحذف المفعولان معا ثقة بدلالة الكلام عليهما .

﴿قال﴾ استئناف مبنى على حكاية السؤال كأنه قيل فإذا صدر عنهم حينئذ ف قيل قال ﴿الذين حق عليهم القول﴾ وهم شركاؤهم من الشياطين أو رؤساؤهم الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله تعالى بأن أطاعوهم في كل ما أمروهم به ونهوا عنه ومعنى حق عليهم القول أنه ثبت مقتضاه وتحقيق مؤداه وهو قوله تعالى ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ وغيره من آيات الوعيد وتخصيصهم بهذا الحكم مع شموله للإتباع أيضاً لأصالتهم في الكفر واستحقاق العذاب حسبما يشعر به قوله تعالى ﴿لأملأن جهنم منك وعن تبعك منهم﴾ ومسارعتهم إلى الجواب مع كون السؤال للعبدة إما لتفطنهم أن السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم بالإضلال وجزمهم بأن العبدة سيقولون هؤلاء أضلونا وإما لأن العبدة قد قالوه اعتذاراً وهؤلاء إنما قالوا ما قالوا رداً لقولهم إلا أنه لم يحك قول العبدة إيجازاً لظهوره ﴿ربنا هؤلاء الذين أغوينا﴾ أى هم الذين أغويناهم فحذف الراجع إلى الموصول ومرادهم بالإشارة بيان أنهم يقولون ما يقولون بمحض منهم وأنهم غير قادرين على إنكاره ورده وقوله تعالى ﴿أغويناكم كما غوينا﴾ هو الجواب حقيقة ومقابلته تهديد له أى ما أكرهناكم على الفى وإنما أغويناكم بطريق الوسوسة

والتسويل لا بالقسر والإلجاء فغفوا باختيارهم غيا مثل غينا باختيارنا ويحوز أن يكون الذين صفة لاسم الإشارة وأغويناهم الخبر ﴿تبرأنا إليك﴾ ومنهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصي هو منهم وهو تقرير لما قبله ولذلك لم يعطف عليه وكذا قوله تعالى ﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾ أى ما كانوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبدون أهواءهم وقيل ماصدرية متصلة بقوله تعالى تبرأنا أى تبرأنا من عبادتهم إيانا ﴿وقيل ادعوا شركاءكم﴾ إما تهكما بهم أو تسكيتا لهم .

﴿فدعوه﴾ لفطر الحيرة ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾ ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة ﴿ورأوا العذاب﴾ قد غشيهم ﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾ لوجه من وجوه الخيل يدفعون به العذاب أو إلى الحق لما لقوا ما لقوا وقيل «لو» للتمنى أى تمنوا لو أنهم كانوا مهتدين .

﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ عطف على ما قبله سئلوا أولا عن إشرائهم وثانيا عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك ﴿فعميت عليهم الأنبياء يومئذ﴾ أى صارت كالعمى عنهم لا تهتدى إليهم وأصله فعموا عن الأنبياء وقد عكس للمبالغة والتنبيه على أن ما يحضر الذهن يفيض عليه ويصل إليه من خارج فإذا أخطأ لم يكن له حيلة إلى استحضارة وتعدية الفعل بعلى لنضمنه معنى الخفاء والاشتباه والمراد بالأنبياء إما ما طلب منهم مما أجابوا به الرسل أو جميع الأنبياء وهى داخلة فيه دخولا أوليا وإذا كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام يفوضون العلم فى ذلك المقام الهائل إلى علام الغيوب مع نزاهتهم عن غائلة المسؤل فما ظنك بأولئك الضلال من الأمم ﴿فهم لا يتساءلون﴾ لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب لفطر الدهشة أو العلم بأن السؤل سؤل الجاهل ﴿فأما من تاب﴾ من الشرك ﴿وآمن وعمل صالحا﴾ أى جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فمضى أن يكون من المفلحين﴾ أى الفائزين بالمطلوب بعنده تعالى التاجين عن المهروب وعسى للتحقيق على عادة الكرام أو للترجى عن قبل التائب بمعنى فليتوقع الإفلاح ﴿وربك يخاف ما يشاء﴾ أن يخلفه ﴿فليختار﴾ ما يشاء اختياره من غير إيجاب عليه ولا منع له أصلا ﴿ما كان لهم الحيرة﴾ أى التخير كالطير بمعنى التطير والمراد نفى الاختيار المؤثر عنهم

وذلك مما لا ريب فيه وقيل المراد أنه ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه  
ولذلك خلا عن العاطف ويؤيده ما روى أنه نزل في قول الوليد ابن المغيرة  
(لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) والمعنى لا يبعث الله تعالى  
الرسل باختيار المرسل إليهم وقيل معناه ويختار الذي كان لهم فيه الخير والصلاح  
(سبحان الله) أى تنزه بذاته تنزهها خاصا به من أن ينازعه أحد أو يزاحم  
اختياره اختيار (وتعالى عما يشركون) عن إشرأ كههم أو عن مشاركة  
ما يشركونه به (وربك يعلم ما تكن صدورهم) كعداوة رسول الله صلى الله  
عليه وسلم وحقده (وما يعلنون) كالطعن فيه (وهو الله) أى المستحق  
للعادة (لا إله إلا هو) لا أحد يستحقها إلا هو (له الحمد فى الأولى  
والآخرة) لأنه المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها على الخلق كافة بحمده المؤمنون  
فى الآخرة كما حمدوه فى الدنيا بقولهم الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن الحمد لله  
الذى صدقنا وعده ابتهاجا بفضلته والتذاذا بحمده (وله الحكم) أى القضاء النافذ  
فى كل شىء من غير مشاركة فيه لغيره (وإليه ترجعون) بالبعث لا إلى غيره .  
(قل) تقريراً لما ذكر (أرأيتم) أى أخبرونى (إن جعل الله عليكم  
الليل سرمداً) دائماً من السرد وهو المتابعة والإطراد والميم مزيدة كما فى دلامص  
من الدلاص يقال درع دلاص أى ملساء لينة (إلى يوم القيامة) بإسكان  
الشمس تحت الأرض أو تحريكها حول الأفق الغائر (من إله غير الله) صفة  
لإله (يأتىكم بضياء) صفة أخرى له عليها يدور أمر التبكيك والإلزام كما فى  
قوله تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض) وقوله تعالى (فمن يأتىكم بماء  
معين) ونظائرهما خلا أنه قصد بيان انتفاء الموصوف بانتفاء الصفة ولم يقل هل  
إله الخ لإيراد التبكيك والإلزام على زعمهم وقرىء بضياء بهمزتين (أفلا  
تسمعون) هذا الكلام الحق سماع تدبر واستبصار حتى تذعنوا له وتعملوا  
بموجبه (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة) بإسكانها  
فى وسط السماء أو بتحريكها على مدار فوق الأفق (من إله غير الله يأتىكم بليل  
تسكنون فيه) استراحة من متاعب الأشغال ولعل تجريد الضياء عن ذكر

منافعه لكونه مقصودا بذاته ظاهر الاستبـاع لما يـنـبـط به من المنافع ﴿ أفلا تبصرون ﴾ هذه المنفعة الظاهرة التي لا تخفى على من له بصر .  
 ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ﴾ أى فى الليل  
 ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ فى النهار بأنواع المكاسب ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾  
 ولكى تشكروا نعمته تعالى فعل ما فعل أو لـكى تعرفوا نعمته تعالى وتشكروه  
 عليها ﴿ ويوم يناديهم ﴾ منـعـوب باذكر ﴿ فيقول أين شركائ الذين كنتم  
 تـعـمـون ﴾ تـقـرـيع لـثر تـقـرـيع للإشعار بأنه لا شىء أجلب لغضب الله عز وجل  
 من الإـشـراك كما لا شىء أدخل فى مرضاته من تـوحيده سبحانه وقوله تعالى  
 ﴿ ونزعنا ﴾ عطف على يناديهم وصيغة الماضى للدلالة على التحقق أو حال من  
 فاعله ياضمار قد والالتفات إلى نون العظمة لإبراز كمال الاعتناء بشأن الزرع  
 وتحويله أى أخرجنـا ﴿ من كل أمة ﴾ من الأمم ﴿ شهيداً ﴾ نبيا يشهد عليهم  
 بما كانوا عليه كقوله تعالى ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ ﴿ فقلنا ﴾ لكل  
 أمة من تلك الأمم ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ على صحة ما كنتم تدعون به ﴿ فعلموا ﴾  
 يومئذ ﴿ أن الحق لله ﴾ فى الإلهية لا يشاركه فيها أحد ﴿ وضل عنهم ﴾ أى  
 غاب عنهم غيبة الضائع ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ فى الدنيا من الباطل .

### موسى وقارون

﴿ إن قارون كان من قوم موسى ﴾ كان ابن عمه يـصـهر بن قاهـث بن لاوى  
 ابن يعقوب عليه السلام وموسى عليه السلام ابن عمران بن قاهـث وقيل كان  
 موسى عليه السلام ابن أخيه وكان يسمى المنور لحسن صورته وقيل كان أقرأ  
 بنى إسرائيل للتوراة ولـسـكـنه نافع كما نافع السامرى وقال إذا كانت النبوة لموسى  
 والمذبح والقربان لهرون فملى وروى أنه لما جاوز بهم موسى عليه السلام البحر  
 وصارت الرسالة والحبورة والقربان لهرون وجد قارون فى نفسه وحسدهما  
 فقال لموسى الأمر لكـما ولست على شىء إلى متى أصبر قال موسى عليه السلام  
 هذا صبيح الله تعالى قال لا أصدقك حتى تأتى بآية فأمر رؤساء بنى إسرائيل أن

يحيى كل واحد بعصاة فخرها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل إليه فيها  
فكأنوا يحرسون عصيهم بالليل فأصبحوا فإذا بعصاهم تهتز ولها ورق أخضر  
فقال قارون ما هو بأعجب مما تصنع من السحر وذلك قوله تعالى ﴿فبقي عليهم﴾  
فطلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره أو ظلمهم قيل وذلك حين ملكه  
فرعون على بني إسرائيل وقيل حسدهم وذلك ما ذكر منه في حق موسى وهرون  
عليهما السلام ﴿وآتيناه من الكنوز﴾ أى الأموال المدخرة ﴿ما إن مفاتحه﴾  
أى مفاتيح صناديقه وهو جمع مفتاح بالكسر وهو ما يفتح به وقيل خزائنه  
وقياس واحداه المفتاح بالفتح ﴿لتنوء بالعصبة أوى القوة﴾ خبران والجملة  
صلة ما هو ثانى مفعولى آتى وناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله والعصبة والعصاة  
الجماعة الكثيرة وقرىء لينوء بالياء على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه كما  
مر في قوله تعالى ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ ﴿إذ قال له قومه﴾  
منصوب بتنوء وقيل يغنى ورد بأن البغى ليس مقيدا بذلك الوقت وقيل بآتيناه  
ورد بأن الإيتاء أيضاً غير مقيد به وقيل بمضمر فقيل هو اذكر وقيل هو أظهر  
الفرح ويجوز أن يكون منصوباً بما بعده من قوله تعالى قال إنما أوتيته وتسكون  
الجملة مقررة لبغيه ﴿لا تفرح﴾ أى لا تبطل والفرح فى الدنيا مذموم مطلقاً  
لأنه نتيجة حبها والرضا بها والذهول عن ذهابها فإن العلم بأن ما فيها من اللذة  
معارقة لا محالة يوجب الترح حتماً ولذلك قال تعالى ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾  
وعلى النهى هنا بكونه مانعاً من محبته عز وعلا فقيل ﴿إن الله لا يحب  
الفرحين﴾ أى يزخارف الدنيا .

﴿وابتغ﴾ وقرىء واتبع ﴿فما آتاك الله﴾ من الغنى ﴿الدار الآخرة﴾  
أى ثواب الله تعالى فيها يصرفه إلى ما يكون وسيلة إليه ﴿ولا تنس﴾ أى لا تترك  
ترك المنسى ﴿نصيبك من الدنيا﴾ وهو أن تحصل بها آخرتك وتأخذ منها  
ما يكفيك ﴿وأحسن﴾ أى إلى عباد الله تعالى ﴿كما أحسن الله إليك﴾ فيما أنعم  
به عليك وقيل أحسن بالشكر والطاعة كما أحسن الله إليك بالإعانة ﴿ولا تبغ  
الفساد فى الأرض﴾ نهى عما كان عليه من الظلم والبغى ﴿إن الله لا يحب



المفسدين) لسوء أفعالهم (قال) يجيبنا لناصحيه (إنما أوتيته على علم عندي) كأنه يريد به الرد على قولهم كما أحسن الله إليك لانبأته عن أنه تعالى أنعم عليه بتلك الأموال والذخائر من غير سبب واستحقاق من قبله أى فضلت به على الناس واستوجبت به التفوق عليهم بالمال والجاه وعلى علم في موقع الحال وهو علم التوراة وكان أعلم بها وقيل علم الكيمياء وقيل علم التجارة والذهبنة وسائر المكاسب وقيل علم الكنوز والدفائن وعندي صفة له أو متعلق بأوتيته كقولك جاز هذا عندي أو في ظني ورأى (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) توبيخ له من جهة الله تعالى على اغتراره بقوته وكثرة ماله مع علمه بذلك قراءة في التوراة وتلقيا من موسى عليه السلام وسماعا من حفاظ التواريخ وتعجب منه فالمعنى ألم يقرأ التوراة ولم يعلم ما فعل الله تعالى بأضرابه من أهل القرون السابقة حتى لا يغتر بما اغتروا به أو رد لادعائه العلم وتعظمه به بنفى هذا العلم منه فالمعنى اعلم ما ادعاه ولم يعلم هذا حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين .

(ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) سؤال استعلام بل يعذبون بها بغلة كان قارون لما هدد بذكر إهلاك من قبله بمن كان أقوى منه وأغنى أكد ذلك بأن بين أن ذلك لم يكن مما يخص أولئك المملكين بل الله تعالى مطلع على ذنوب كافة المجرمين يعاقبهم عليها لا محالة (فخرج على قومه) عطف على قال وما بينها اعتراض وقوله تعالى (في زينته) إما متعلق بخروج أو بمحذوف هو حال من فاعله أى فخرج عليهم كأننا في زينته قيل خرج على بغلة شهباء عليه الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على رية وقيل عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعن يمينه ثلاثمائة غلام وعن يساره ثلاثمائة جارية بيض عليهن الخلى والديباج وقيل في تسعين ألفا عليهن المعصفرات وهو أول يوم رنى فيه المعصفر (قال الذين يريدون الحياة الدنيا) من المؤمنين جريا على سنن الجيلة البشرية من الرغبة في السعة واليسار (يأليت لنا مثل ما أوتى قارون) وعن قتادة أنهم تمنوه ليتقربوا به إلى الله تعالى وينفقوه في سبل الخير وقيل كلن المتمنون قوما كفارا (لأنه لئذ يحفظ عظيم) تعليل لتمنيهم وتأكيد له .

(وقال الذين أوتوا العلم) أى بأحوال الدنيا والآخرة كما ينبغي وإنما لم يوصفوا بإرادة ثواب الآخرة تنبيها على أن العلم بأحوال النشأتين يقتضى الإعراض عن الأولى والإقبال على الثانية حتا وأن تمنى المتمنين ليس إلا لعدم علمهم بهما كما ينبغي (ويلكم) دعاء بالهلاك شاع استعماله في الزجر عما لا يرتضى (ثواب الله) في الآخرة (خير) مما تتمنونه (لمن آمن وعمل صالحا) فلا يليق بكم أن تتمنوه غير مكتفين بثوابه تعالى (ولا يلقاها) أى هذه الكلمة التي تكلم بها العلماء أو الثواب فإنه بمعنى المثوبة أو الجنة أو الإيمان والعمل الصالح فإنهما في معنى السيرة والطريقة (إلا الصابرون) أى على الطاعات وعن الشهوات .

(فخسفنا به وبداره الأرض) روى أنه كان يؤذى موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه لقربائه حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف على واحد فحسبه فاستكثره فعمد إلى أن يفضح موسى عليه السلام بين بنى إسرائيل فجعل لبغى من بغايا بنى إسرائيل ألف دينار وقيل طشنا من ذهب مملوء ذهبا فلما كان يوم عيد قام موسى عليه السلام خطيبا فقال من سرق قطعناه ومن زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصنا رجمناه فقال قارون ولو كنت قال ولو كنت قال إن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلاة فأحضرت فناشدها عليه السلام أن تصدق فقالت جعل لى قارون جملا على أن أرميك بنفسى فخر موسى ساجدا لربه يبكى ويقول يا رب إن كنت رسولك فاغضب لى فأوحى إليه أن مر الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك فقال يا بنى إسرائيل إن الله بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون فن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معى فليعتزل عنه فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وهم يناشدونه عليه الصلاة والسلام بالله تعالى وبالرحم وهو لا يلتفت إليهم لشدة غيظه ثم قال خذيهم فانطبقت عليهم فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم لما دعا عليه موسى عليه الصلاة والسلام ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله تعالى حتى خسف (٢١ - أبو السعود - الرابع)

بداره وأمواله ﴿فما كان له من فئة﴾ جماعة مشفقة ﴿ينصرونه من دون الله﴾  
 يدفع العذاب عنه ﴿وما كان من المنتصرين﴾ أى المنتفعين منه بوجه من الوجوه  
 يقال نصره من عدوه فانتصر أى منعه فامتنع ﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه﴾  
 منزلته ﴿بالأمس﴾ منذ زمان قريب ﴿يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن  
 يشاء من عباده ويقدر﴾ أى يفعل كل واحد من البسط والقدر بمحض مشيئته  
 لا لكرامة توجب البسط ولا لهوان يقتضى القبض وويكأن عند البصريين  
 مركب من وى للتعجب وكان للتشبيه والمعنى ما أشبه الأمر أن الله يبسط الخ  
 وعند الكوفيين من ويك بمعنى ويلك وأن وتقديره ويك اعلم أن الله وإنما  
 يستعمل عند التنبيه على الخطأ والتندم والمعنى أنهم قد تنبهوا على خطئهم في تمنهم  
 وتندموا على ذلك .

﴿لولا أن من الله علينا﴾ بعدم إعطائه إيانا ما تمنينا وإعطائنا مثل ما أعطاه  
 إياه وقرىء لولا من الله علينا ﴿لخسف بنا﴾ كما خسف به وقرىء لخسف بنا  
 على البناء للمفعول وبنا هو القائم مقام الفاعل وقرىء لا نخسف بنا كقولك  
 انقطع به وقرىء لتخسف بنا ﴿ويكأن لا يفلح الكافرون﴾ لنعمة الله تعالى  
 أو المكذبون برسله وبما وعدوا من ثواب الآخرة ﴿تلك الدار الآخرة﴾  
 إشارة تعظيم وتفخيم كأنه قيل تلك التى سمعت خبرها وبلغك وصفها ﴿نجعلها  
 للذين لا يريدون علوا فى الأرض﴾ أى غلبة وتسلطا ﴿ولا فسادا﴾ أى ظلما وعدوانا  
 على العباد كدأب فرعون وقارون وفى تعليق الموعذ بترك إرادتهما لا بترك أنفسهما  
 مزيد تحذير منهما وعن على رضى الله عنه أن الرجل ليعجبه أن يكون شراك  
 نعله أجد من شراك نعل صاحبه فبدخل تحتها ﴿والعاقبة﴾ الحميدة ﴿للمتقين﴾  
 أى الذين يتقون ما لا يرضاه الله من الأفعال والأقوال ﴿من جاء بالحسنة فله﴾  
 بمقابلتها ﴿خير منها﴾ ذاتا ووصفا وقدرًا ﴿ومن جاء بالسئنة فلا يجزى الذين  
 عملوا السيئات﴾ ووضع فيه الموصول والظاهر موضع الضمير لتجهين حالهم  
 بتكرير إسناد السيئة إليهم ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ أى إلا مثل ما كانوا  
 يعملون فحذف المثل وأقيم مقامه ما كانوا يعملون مبالغة فى المبالغة .

﴿ إن الذي فرض عليك القرآن ﴾ أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ أى معاد تمتد إليه أعناق الهمم وترنو إليه أحداق الأمم وهو المقام المحمود الذى وعدك أن يبعثك فيه وقيل هو مكة المعظمة على أنه تعالى قد وعده وهو بمكة فى أذية وشدة من أهلها أنه يهاجر به منها ثم يعيده إليها بعز ظاهر وسلطان قاهر وقيل نزلت عليه حين بلغ الجحفة فى مهاجرة وقد اشتقاق إلى مولده ومولد آبائه وحرم إبراهيم عليه السلام فنزل جبريل عليه السلام فقال له أنشأت إلى مكة قال نعم فأوحاها إليه ﴿ قل ربى أعلم من جاء بالهدى ﴾ وما يستحقه من الثواب والنصر ومن منتصب بفعل يدل عليه أعلم أى يعلم وقيل بأعلم على أنه بمعنى عالم ﴿ ومن هو فى ضلال مبين ﴾ وما استحقه من العذاب والإذلال يعنى بذلك نفسه والمشركون وهو تقرير للوعيد السابق وكذا قوله تعالى : ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ﴾ أى سيردك إلى معادك كما ألقى إليك الكتاب وما كنت ترجوه ﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ ولكن لقاء إليك رحمة منه ويجوز أن يكون استثناء محمولا على المعنى كأنه قيل وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة أى لأجل الترحم ﴿ فلا تكونن ظهيرا للكافرين ﴾ بمداراتهم والتحمل عنهم والإجابة إلى طلبتهم ﴿ ولا يصدنك ﴾ أى الكافرون ﴿ عن آيات الله ﴾ أى عن قراءتها والعمل بها ﴿ بعد إذ أنزلت إليك ﴾ وفرضت عليك وقرىء يصدنك من أصد المنقول من صد اللزوم ﴿ وادع ﴾ الناس ﴿ إلى ربك ﴾ إلى عبادته وتوحيده ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ بمساعدتهم فى الأمور ﴿ ولا تدع مع الله الها آخر ﴾ هذا وما قبله التهيب والإلهاب وقطع أطماع المشركين عن مساعدته عليه الصلاة والسلام لهم بولإظهار أن المنهى عنه فى القبح والشرية بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه أصلا ﴿ لا إله إلا هو ﴾ وحده ﴿ كل شئ بهالك إلا وجهه ﴾ إلا ذاته فإن ما عداه كائن ما كان يمكن فى حد ذاته عرضة للإهلاك والعدم ﴿ له الحكم ﴾ أى القضاء النافذ فى الخلق ﴿ وإليه ترجعون ﴾ عند البعث لإجزاء بالحق والعدل عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ طسم القصص كان له من الأجر بمعد

من صدق موسى وكذب ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقا .

\*\*\*

### سورة العنكبوت

(مكية وهي تسع وستون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ألم) الكلام فيه كالذي مر مرارا في نظائره من الفوائد الكريمة خلا أن ما بعده لا يحتمل أن يتعلق به تعلقا إعرابيا (أحسب الناس) الحسبان ونظائره لا يتعلق بمعاني المفردات بل بمضامين الجمل المفيدة لثبوت شيء لشيء أو انتفاء شيء عن شيء بحيث يتحصل منها مفعولاه إما بالفعل كما في عامة المواقع وأما بنوع تصرف فيها كما في الجمل المصدرة بأن الواقعة صالحة للوصول الاسمى أو الحرفى فإن كلا منها صالحة لأن يسبك منها مفعولاه لأن قوله تعالى أحسب الناس (أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) في قوة أن يقال أحسبوا أنفسهم متروكين بلا فتنة بمجرد أن يقولوا آمنا أو أن يقال أحسبوا تركهم غير مفتونين بقولهم آمنا حاصلا متحققا والمعنى إنكار الحسبان المذكور واستبعاده وتحقيق أنه تعالى يمتحنهم بمشاق التكاليف كالماجرة والمجاهدة ورفض ما تشتهيه النفس ووظائف الطاعات وفنون المصائب في الأنفس والأموال ليميز المخلص من المنافق والراسخ في الدين من المتزلزل فيه ويجازيهم بحسب مراتب أعمالهم فإن مجرد الإيمان وإن كان عن خلوص لا يقتضى غير الخلاص من الخلود في النار روى أنها نزلت في ناس من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين جزعوا من أذية المشركين وقيل في عمار قد عذب في الله وقيل في مهجع مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما رماه عامر

ابن الحضرمي يسهم يوم بدر فقتله فجزع عليه أبوه وامراته وهو أول من استشهد يومئذ من المسلمين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة .

( ولقد فتنا الذين من قبلهم ) متصل بقوله تعالى أحسب أو بقوله تعالى لا يفتنون والمعنى أن ذلك سنة قديمة مبنية على الحكم البالغة جارية فيما بين الأمم كلها فلا ينبغي أن يتوقع خلافا والمعنى أن الأمم الماضية قد أصابهم من ضروب الفتن والمحن ما هو أشد مما أصاب هؤلاء فصبروا كما يعرب عنه قوله تعالى ( وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهتوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ) الآيات وعن النبي عليه الصلاة والسلام قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ( فليعلن الله الذين صدقوا ) أى في قلوبهم أمنا ( وليعلن الكاذبين ) فى ذلك والفاء لترتيب ما بعدها على ما يفصح عنه ما قبلها من وقوع الامتحان واللام جواب القسم والالتفات إلى الاسم الجليل لإدخال الروعة وتربية المهابة وتكرير الجواب لزيادة التأكيد والتقرير أى فواقه ليعلمن عليه بالامتحان تعلقا حاليا يتميز به الذين صدقوا فى الإيمان الذى أظهره والذين هم كاذبون فيه مستمرون على الكذب ويترتب عليه أجزيتهم من الثواب والعقاب ولذلك قيل المعنى ليميزن أو ليجازين وقرىء وليعلن من الإعلام أى وليعرفهم الناس أو ليسمهم بسمه يعرفون بها يوم القيامة كيباض الوجوه وسوادها ( أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ) أى يفوتونا فلا تقدر على مجازاتهم بمساوى أعمالهم وهو ساد مسد مفعولى حسب لاشتماله على مسند ومسند إليه وأم منقطعة وما فيها من معنى بل للاضراب والانتقال عن التوبيخ بإنكار حسابهم متروكين غير مفتونين إلى التوبيخ بإنكار ما هو أبطل من الحساب الأول وهو حسابهم أن لا يجازوا سيئاتهم وهم وإن لم يحسبوا أنهم يفوتونه تعالى ولم يحدثوا نفوسهم بذلك لكنهم حيث أصرروا على المعاصى ولم يتفكروا

في العاقبة نزلوا منزله من طمع في ذلك كما في قوله تعالى (يحسب أن ماله أخلده) ﴿سواء ما يحكمون﴾ أى بنس الذى يحكمونه حكمهم ذلك أو بنس حكما يحكمونه حكمهم ذلك .

﴿من كان يرجو لقاء الله﴾ أى يتوقع ملاقة جزائه ثوابا أو عقابا أو ملاقة حكمه يوم القيامة وقيل يرجو لقاء الله عز وجل في الجنة وقيل يرجو ثوابه وقيل يخاف عقابه وقيل لقاءه تعالى عبارة عن الوصول إلى العاقبة من تلقى ملك الموت والبعث والحساب والجزاء على تمثيل تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل وقد علم مولاه بجميع ما كان يأتى ويذرفأما أن يلقاه ببشر وكرامة لما رضى من أفعاله أو بضده لما سخطه ﴿فإن أجل الله﴾ الأجل عبارة عن غاية زمان تمتد عينت لأمر من الأمور وقد يطلق على كل ذلك الزمان والأول هو الأشهر في الاستعمال أى فإن الوقت الذى عينه تعالى لذلك ﴿لآت﴾ لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لأن أجزاء الزمان على التقضى والتصرم دائما فلا بد من إتيان ذلك الجزاء أيضاً البتة وإتيان وقته موجب لإتيان اللقاء حتما والجواب محذوف أى فليختر من الأعمال ما يؤدى إلى حسن الثواب وليحذر ما يسوقه إلى سوء العذاب كما في قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) وفيه من الوعد والوعيد مالا يخفى وقيل فليبادر ما يحقق أمله ويصدق رجاءه أو ما يوجب القربة والزلفى ﴿وهو السميع﴾ لأقوال العباد ﴿العليم﴾ بأحوالهم من الأعمال الظاهرة والعقائد ﴿ومن جاهد﴾ فى طاعة الله عز وجل ﴿فإنما يجاهد لنفسه﴾ لعود منفعتها إليها ﴿إن الله لغنى عن العالمين﴾ فلا حاجة له إلى طاعتهم وإنما أمرهم بها تعريضا لهم للثواب بموجب رحمته ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم﴾ الكفر بالإيمان والمعاصى بما يتبعها من الطاعات ﴿ولنجزينهم أحسن الذين كانوا يعملون﴾ أى أحسن جزاء أعمالهم لاجزاء أحسن أعمالهم فقط .

﴿ ووضينا الإنسان بوالديه حسنا ﴾ أى بإيتاء والديه وإيلائهما فعلا  
 ذا حسن أو ما هو فى حد ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى (وقولوا للناس  
 حسنا) ووصى يجرى بجرى أمر معنى وتعرفا غير أنه يستعمل فيما كان  
 فى المأمور به نفع عائد إلى المأمور أو غيره وقيل هو بمعنى قال فالمعنى وقتلنا  
 أحسن بوالديك حسنا وقيل انتصاب حسنا بمضمر على تقدير قول مفسر  
 للتوصية أى وقتلنا أولهما أو أفعالهما حسنا وهو أوفق لما بعده وعليه يحسن  
 الوقف على بوالديه وقرىء حسن وإحسانا ﴿ وإن جاهدك لتشرك بى ما ليس  
 لك به علم ﴾ أى بالهيئة عبر عن نفيا بنفى العلم بها للإيدان بأن ما لا يعلم  
 صحته لا يجوز اتباعه وإن لم يعلم بطلانه فكيف بما علم بطلانه ﴿ فلا تطعهما ﴾  
 فى ذلك فإنه لا طاعة للمخلوق فى معصية الخالق ولا بد من اضمار القول إن  
 لم يضمر فيما قبل وفى تعليق النهى عن طاعتها بمجاهدتهما فى التكليف إشعار  
 بأن موجب النهى قياما منها من التكليف ثابت بطريق الأولوية ﴿ إلى مرجعكم ﴾  
 أى مرجع من آمن منكم ومن أشرك ومن بر بوالديه ومن عقى ﴿ فأنبئكم بما  
 كنتم تعملون ﴾ بأن أجازى كلا منكم بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر  
 والآية نزلت فى سعد ابن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه عند إسلامه حيث  
 حلفت أمه حنطة بنت أبى سفيان بن أمية أن لا تنتقل من الضح إلى الظل  
 ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد فلبثت ثلاثة أيام كذلك وكذا التى فى سورة  
 لقمان وسورة الأحقاف وقيل نزلت فى عياش بن أبى ربيعة المخزومى وذلك  
 أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى نزل المدينة فخرج أبو جهل  
 والحريث أخواه لأمه أسماء فنزلا بعياش وقالاه إن من دين محمد صلى الله عليه  
 وسلم صلة الأرحام وبر الوالدين وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب  
 ولا تأوى بيتا حتى تراك فاخرج معنا وقتلناه فى الذروة والغارب واستشار  
 عمر رضى الله عنه فقال هما يخذلانك ولك على أن أقسم ما لى بينى وبينك فإزالا به  
 حتى أطاعهما وعصى عمر رضى الله عنه فقال عمر رضى الله عنه أما إذا عصيتنى  
 فنحن نأقن فليس فى الدنيا بعير يلحقها فإله رابك منهما ريب فارجع فلما انتهوا



إلى البيداء قال أبو جهل إن نأقتى قد كنت فأحملني معك فنزل ليوطىء لنفسه وله فأخذاه فشداه وثاقا وجلده كل واحد مائة جلدة وذهبا به إلى أمه فقالت لا تزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ﴾ أى فى زمرة الراسخين فى الصلاح والكمال فى الصلاح منتهى درجات المؤمنين وغاية مأمول أنبياء الله المرسلين قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام (وأدخلني برحمتك فى عبادك الصالحين) وقال فى حق إبراهيم عليه السلام وإنه فى الآخرة لمن الصالحين أو فى مدخل الصالحين وهو الجنة ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذى فى الله ﴾ أى فى شأنه تعالى بأن عذبيهم الكفرة على الإيمان ﴿ جعل فتنة الناس ﴾ أى ما يصيبه من أذيتهم ﴿ كعذاب الله ﴾ فى الشدة والهنول فيرتد عن الدين مع أنه لا قدر لها عند نعمة من عذابه تعالى أصلا ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ﴾ أى فتح وغنيمة ﴿ ليقولن ﴾ بضم اللام: نظرا إلى معنى من كما أن الأفراد فيما سبق بالنظر إلى لفظها وقرىء بالفتح ﴿ إنا كنا معكم ﴾ أى مشايعين لكم فى الدين فاشركونا فى المغنم وهم ناس من ضعفة المسلمين كانوا إذا مسهم أذى من الكفار وافقوهم وكانوا يكتمونه من المسلمين فرد عليهم ذلك بقوله تعالى ﴿ أو ليس الله باعلم بما فى صدور العالمين ﴾ أى باعلم منهم بما فى صدورهم من الإخلاص والنفاق حتى يفعلون من الارتداد والاختفاء عن المسلمين وإدعاء كونهم منهم لنيل الغنيمة وهذا هو الأوفق لما سبق ولما لحق من قوله تعالى ﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا ﴾ أى بالإخلاص ﴿ وليعلمن المنافقين ﴾ سواء كان كفرهم بأذية الكفرة أولا أى ليجزيهم بما لهم من الإيمان والنفاق ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا ﴾ بيان لهم للمؤمنين على الكفر بالاستمالة بعد بأن حملهم لهم عليه بالأذية والوعيد ووصفهم بالكفر وهنا دون ما سبق لما أن مساق الكلام لبيان جنائيتهم وفيما سبق لبيان جنائية من أضلوه واللام للتبليغ أى قالوا مخاطبين لهم ﴿ اتبعوا سبيلنا ﴾ أى اسلكوا طريقنا التى نسلكها فى الدين عبر عن ذلك

بالاتباع الذى هو المشى خلف ماش آخر تنزيلا للمسلك منزلة السالك فيه أو اتبعونا فى طريقنا ﴿ولنحمل خطاياكم﴾ أى إن كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها بالبعث كما تقولون وإنما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين له على أمرهم بالاتباع للمبالغة فى تعليق الحمل بالاتباع والوعد بتخفيف الأوزار عنهم إن كان ثمة وزر فرد عليهم بقوله تعالى ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ وقرئ من خطيئاتهم أى وما هم بحاملين شيئا من خطاياهم التى التزموا أن يحملوا كلها على أن من الأولى للثنين والثانية مزيدة للاستغراق والحمل اعتراض أحوال ﴿إنهم لكاذبون﴾ حيث أخبروا فى ضمن وعدم الحمل بأنهم قادرون على إنجاز ما وعدوا فإن الكذب كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه يتطرق إليه باعتبار ما يلزم مدلوله كما مر فى قوله تعالى ﴿أنبئنى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ ﴿وليحملن أثقالهم﴾ بيان لما يستتبعه قولهم ذلك فى الآخرة من المضرة لأنفسهم بعد بيان عدم منفعتهم لمخاطبيهم أصلا والتعبير عن الخطايا بالأثقال للإيدان بغاية ثقلها وكونها فادحة واللام جواب قسم مضمرة أى وباقه ليحملن أثقال أنفسهم كاملة ﴿وأنقلا﴾ آخر ﴿مع أثقالهم﴾ لما تسببوا بالاضلال والحمل على الكفر والمعاصى من غير أن يفتقص من أثقال من أضلوه شيء ما أصلا ﴿وليسألن يوم القيامة﴾ سؤال تقرير وتبكيك ﴿عما كانوا يفترون﴾ أى يختلقونه فى الدنيا من الأكاذيب والباطيل التى من جملتها كذبهم هذا

﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيه ألف سنة إلا خمسين عاما﴾ شروع فى بيان افتتاح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأذية أمهم أثر بيان افتتاح المؤمنين بأذية الكفار تأكيداً للانسكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء وحنأ لهم على الصبر فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث ابتلوا بما أصابهم من جهة أمهم من فنون المكارة وصبروا عليها فلائ يصاب هؤلاء أولى وأحرى قالوا كان عمر نوح عليه السلام ألف وخمسين عاما بعث على رأس أربعين سنة ودعا قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان

ستين سنة وعن وهب أنه عاش ألفاً وأربعمائة سنة ولعل ما عليه النظم الكريم للدلالة على كمال العدد فإن تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما يقرب منه ولما في ذكر الألف من تخيل طول المدة فإن المقصود من القصة تسليية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبئته على ما كان عليه من مكابدة ما يناله من الكفرة وإظهار ركاكة رأى الذين يحسبون أنهم يتركون بلا ابتلاء واختلاف المميز لما في التكرير من نوع إشاعة ﴿ فأخذهم الطوفان ﴾ أى عقيب تمام المدة المذكورة والطوفان يطلق على كل ما يطوف بالشئ على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام وقد غلب على طوفان الماء ﴿ وهم ظالمون ﴾ أى والحال أنهم مستمررون على الظلم لم يتأثروا بما سمعوا من نوح عليه السلام من الآيات ولم يرفعوا أعمارهم عليه من الكفر والمعاصي هذه المدة المتبادية .

﴿ فأنجيناه ﴾ أى نوحاً عليه السلام ﴿ وأصحاب السفينة ﴾ أى ومن ركب فيها معه من أولاده وأتباعه وكانوا ثمانين وقيل ثمانية وسبعين وقيل عشرة وقيل ثمانية نصفهم ذكور ونصفهم إناث ﴿ وجعلناها ﴾ أى السفينة أو الحادثة والقصة ﴿ آية للعالمين ﴾ يتعظون بها .

﴿ وإبراهيم ﴾ نصب بالعطف على نوحاً وقيل بإضمار أذكر وقرىء بالرفع على تقدير ومن المرسلين إبراهيم ﴿ إذ قال لقومه ﴾ على الأول ظرفه للإرسال أى أرسلناه حين تكامل عقله وقدر على النظر والاستدلال وترقى من رتبة الكمال إلى درجة التكميل حيث تصدى لإرشاد الخلق إلى طريق الحق وعلى الثانى بدل اشتغال من إبراهيم ﴿ اعبدوا الله ﴾ أى وحده ﴿ واتقوه ﴾ أن تشركوا به شيئاً ﴿ ذلكم ﴾ أى ما ذكر من العبادة والتقوى ﴿ خير لكم ﴾ أى مما أتم عليه ومعنى التفضيل مع أنه لا خيرية فيه قطعاً باعتبار زعمهم الباطل ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أى الخير والشر وتميزون أحدهما من الآخر أو إن كنتم تعلمون شيئاً من الأشياء بوجه من الوجوه فإن ذلك كاف فى الحكم بخيرية ما ذكر من العبادة والتقوى ﴿ إنما تعبدون من دون الله آوثاناً ﴾ بيان لبطلان دينهم وشريته فى نفسه بعد بيان شريته بالنسبة إلى الدين الحق أى إنما تعبدون

من دونه تعالى أو ثانا هي في نفسها تماثيل مصنوعة لكم ليس فيها وصف غير ذلك ﴿وتخلفون إفكا﴾ أى وتكذبون كذبا حيت تسمونها آلهة وتدعون أنها شفعاؤكم عند الله تعالى أو تعملونها وتنحتونها للافك وقرىء تخلفون بالتشديد للتكثير في الخلق بمعنى الكذب والافتراء وتخلفون بحذف إحدى التاءين من تخلف بمعنى تكذب وتخرف وتخرص وقرىء أفكا على أنه مصدر كالسكذب واللعب أو نعت بمعنى خلقا ذا إفك ﴿إن الذين تعبدون من دون الله﴾ بيان لشرية ما يعبدونه من حيث إنه لا يكاد يجديهم نفعا ﴿لا يملكون لكم رزقا﴾ أى لا يقدرّون على أن يرزقوكم شيئا من الرزق ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾ كله فإنه هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿واعبدوه﴾ وحده ﴿واشكروا له﴾ على نعمائه متوسلين إلى مطالبكم بعبادته مقيدين بالشكر للعديد ومستجلبين للزيد ﴿إليه ترجعون﴾ أى بالموت ثم بالبعث لا إلى غيره فافعلوا ما أمرتكم به وقرىء ترجعون من رجوع رجوعا ﴿وأن تكذبوا﴾ أى تكذبونى فيما أخبرتكم به من أنكم إليه ترجعون بالبعث ﴿فقد كذب أمم من قبلكم﴾ تعليل للجواب أى فلا تضرونى بتكذيبكم فإن من قبلكم من الأمم قد كذبوا من قبل من الرسل وهم شيث وإدريس ونوح عليهم السلام فلم يضرهم تكذيبهم شيئا وإنما ضر أنفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبكم ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ أى التبليغ الذى لا يبق معه شك وما عليه أن يصدقه قومه البتة وقد خرجت عن عهدة التبليغ بما لا مزيد عليه فلا يضرنى تكذيبكم بعد ذلك أصلا .

### الرد على منكرى البعث

﴿أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق﴾ كلام مستأنف مسوق من جهة الإنكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله وسنوح سبيله والهمزة لإنكار عدم رؤيتهم الموجب لتقريرها والواو للعطف على مقدر أى ألم ينظروا ولم يعلموا علما جاريا مجرى الرؤية في الجلاء والظهور كيفية خلق الله تعالى الخلق ابتداء

من مادة ومن غير مادة أى قد علموا ذلك وقرئ. بصيغة الخطاب لتشديد الإنكار وتأكيد قرئ. يبدأ وقوله تعالى ﴿ثم يعيده﴾ عطف على أولم يروا لا على يبدأ لعدم وقوع الرؤية عليه فهو اخبار بأنه تعالى بعد الخلق قياساً على الابداء وقد جوز العطف على يبدأ بتأويل الإعادة بإنشائه تعالى كل سنة مثل ما أنشأه في السنة السابقة من النبات والثمار وغيرها فإن ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه من غير ريب ﴿إن ذلك﴾ أى ما ذكر من الإعادة ﴿على الله يسير﴾ إذ لا يفتقر فعله إلى شيء أصلاً ﴿قل سيروا في الأرض﴾ أمر لإبراهيم عليه السلام أن يقول لهم ذلك أى سيروا فيها ﴿فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ أى كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتى فإن ترتيب النظر على السير في الأرض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين في أقطارها ﴿ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾ بعد النشأة الأولى التي شاهدتموها والتعبير عن الإعادة التي هي عمل النزاع بالنشأة الآخرة المشعرة بكون البدء نشأة أولى للنشأة على أنهما شأن واحد من شئون الله تعالى حقيقة واسماً من حيث إن كلا منهما اختراع وإخراج من العدم إلى الوجود ولا فرق بينهما إلا بالأولية والآخرة وقرئ. النشأة بالمد وهما لغتان كالرأفة والرأفة ومحلهما النصب على أنها مصدر مؤكد لينشئ. بحذف الزوائد والأصل الإنشاء أو بحذف العامل أى ينشئ. فينشأون النشأة الآخرة كما في قوله تعالى (وأنبثها نباتاً حسناً والجملة معطوفة) على جملة سيروا في الأرض داخلة معها في حيز القول وإظهار الإسم الجليل وإيقاعه مبتدأ مع إضماره في بدأ لإبراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الإعادة بالإشارة إلى علة الحكم وتكرير الإسناد وقوله تعالى ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ تعليل لما قبله بطريق التحقيق فإن من علم قدرته تعالى على جميع الأشياء التي من جعلتها الإعادة لا يتصور أن يتردد في قدرته عليها ولا في وقوعها بعد ما أخبر به ﴿يعذب﴾ أى بعد النشأة الآخرة ﴿من يشاء﴾ أن يعذبه وهم المنكرون لها حتماً ﴿ويرحم من يشاء﴾ أن يرحمه وهم المصدقون

بها والجملة تسكلمة لما قبلها ويقديم التعذيب لما أن التهيب أنسب بالمقام من  
الترغيب ﴿ وإليه تقلبون ﴾ عند ذلك لا إلى غيره فيفعل بكم ما يشاء من التعذيب  
والرحمة ﴿ وما أتم بمعجزين ﴾ له تعالى عن إجراء حكمه وقضائه عليكم  
﴿ في الأرض ولا في السماء ﴾ أى بالتواردى فى الأرض أو المبوط فى مهاوينا  
ولا بالتحصن فى السماء التى هى أفسح منها لو استطعتم الرقى فيها كما فى قوله تعالى  
( إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ) أو القلاع  
الذاهبة فيها وقيل فى السماء صفة لمخدوف معطوف على أتم أى ولا من فى  
السماء ﴿ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ يحرسكم عما يصيدكم من  
بلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء ويدفعه عنكم .

﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ أى بدلائله التكوينية والنزلية الدالة على  
ذاته وصفاته وأفعاله فيدخل فيها اللشاة الأولى الدالة على تحقق البعث والآيات  
الناطقة به دخولا أوليا وتخصيصها بدلائل وحدانيته تعالى لا يناسب المقام  
﴿ ولقائه ﴾ الذى تنطق به تلك الآيات ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر  
من الكفر بآياته تعالى ولقائه ﴿ يسوا من رحمى ﴾ أى يياسون منها يوم  
القيامة وصيغة الماسى للدلالة على تحققه أو يسوا منها فى الدنيا لإنكارهم  
البعث والجزاء ﴿ وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ وفى تكرير اسم الإشارة  
وتكرير الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالأليم من الدلالة على كمال فظاعة  
حالهم مالا يخفى أى أولئك الموصوفون بالكفر بآيات الله تعالى ولقائه  
وباليأس من رحمته الممتازون بذلك عن سائر الكفرة لهم بسبب تلك الأوصاف  
القيحة عذاب لا يقادر قدره فى الشدة والإيلام ﴿ فما كان جواب قومه ﴾  
بالنصب على أنه خبر كان واسمها قوله تعالى ﴿ إلا أن قالوا قتلوه أو حرقوه ﴾  
وقرى بالرفع على العكس وقد مر ما فيه فى نظائره وليس المراد أنه لم يصدر  
عنهم بصدد الجواب عن حجج إبراهيم عليه السلام إلا هذه المقالة الشنيعة كما  
هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم بل إن ذلك هو الذى استقر عليه جوابهم  
بعد اللتيا والى فى المرة الأخيرة وإلا فقد صدر عنهم من الخرافات والأباطيل

مالا يحصى ﴿فأنجاه الله من النار﴾ الفاء فصيحة أى فالتقوه فى النار فأنجاه الله تعالى منها بأن جعلها عليه عليه الصلاة والسلام بردا وسلاما حسبا بين فى مواضع أخر وقد مر فى سورة الانبياء بيان كيفية إلقائه عليه الصلاة والسلام فيها وإنجائه تعالى إياه تفصيلا قبل لم ينتفع يومئذ بالنار فى موضع أصلا ﴿إن فى ذلك﴾ أى فى إنجائه منها ﴿آيات﴾ بينة عجيبة هى حفظه تعالى إياه من حرها وإخمادها فى زمان يسير وإنشاء روض فى مكانها ﴿اقوم يؤمنون﴾ وأما من عدام فهم عن اجنلتها غافلون ومن الفوز بمغانم آثارها محرومون .

﴿وقال﴾ أى إبراهيم عليه السلام مخاطبا لهم ﴿لأنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا﴾ أى لتوادو بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها واتلافكم وثانى مفعولى اتخذتم محذوف أى أوثانا آلهة ويمحور أن يكون مودة هو المفعول بتقدير المضاف أو بتأويلها بالمودودة أو يجعلها نفس المودة مبالغة أى اتخذتم أوثانا سبب المودة بينكم أو مودودة أو نفس المودة وقرىء مودة منونة منصوبة ناصبة الظرف وقرئت بالرفع والاضافة على أنها خبر مبتدأ محذوف أى هى مودودة أو نفس المودة أو سبب مودة بينكم والجملة صفة أوثانا أو خبر إن على أن ما مصدرية أو موصولة قد حذف عاندها وهو المفعول الاول وقرئت مرفوعة منونة ومضافة بفتح بينكم كما قرىء لقد تقطع بينكم على أحد الوجهين وقرىء إنما مودة بينكم والمعنى أن اتخذكم إياها مودة بينكم ليس إلا فى الحياة وقد أجرىتم أحكامه حيث فعلتم بى ما فعلتم لأجل مودتكم لها انتصارا منى كما ينهى عنه قوله تعالى وانصروا آلهمكم ﴿ثم يوم القيامة﴾ تنقلب الأمور ويتبدل النواد تباعضا والتلاطف تلاعنا حيث ﴿يكفر بعضكم﴾ وهم العبدة ﴿بعض﴾ وهم الأوثان ﴿ويلعن بعضكم بعضا﴾ أى يلعن كل فريق منكم ومن الأوثان حيث ينطقها الله تعالى الفريق الآخر ﴿وما واكم النار﴾ أى هى منزل لكم الذى تأوون إليه ولا ترجعون منه أبدا ﴿وما لكم من

فاصرين ﴿ يخلصونكم منها كما خلصني ربي من النار التي ألقيتموني فيها وجمع  
الناصر لوقوعه في مقابلة الجمع أى ما لأحد منكم من ناصر أصلا .

﴿ فآمن له لوط ﴾ أى صدقه في جميع مقالاته لا في نبوته وما دعا إليه من  
التوحيد فقط فانه كان منزها عن الكفر وما قبل لأنه آمن له حين رأى النار لم  
تحرقه ينبغي أن يحمل على ما ذكرنا أو على أن يراد بالإيمان الرتبة العالية منها  
وهى التى لا يرتقى إليها الا همم الأفراد السكل ولوط هو ابن أخيه عليهما السلام  
﴿ وقال إني مهاجر ﴾ أى من قومي ﴿ إلى ربي ﴾ إلى حيث أمرني ربي  
﴿ لأنه هو العزيز ﴾ الغالب على أمره فيمنعني من أعدائي ﴿ الحكيم ﴾ الذى  
لا يفعل فعلا إلا وفيه حكمة ومصلحة فلا يأمرني إلا بما فيه حلاحي روى أنه  
هاجر من كوثي سواد الكوفة مع لوط وسارة أبنه عمه إلى حران ثم منها إلى  
الشام فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم ﴿ ووهبنا له اسحق ويعقوب ﴾ ولدا  
ونافلة حين أيس من عبوز عاقر ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة ﴾ فكثرت منهم  
الأنبياء ﴿ والكتاب ﴾ أى جلس الكتاب المتناول للكتب الأربعة ﴿ وآتيناه  
أجره ﴾ بمقابلة هجرته اليها ﴿ في الدنيا ﴾ باعطاء الولد والذرية الطيبة واستمرار  
النبوة فيهم وانتفاء أهل الملل إليه والثناء والصلاة عليه إلى آخر الدهر ﴿ ولأنه  
في الآخرة لمن الصالحين ﴾ أى الكاملين في الصلاح ﴿ ولوطا ﴾ منصوب أما  
بالعطف على نوحا أو على إبراهيم والكلام في قوله تعالى ﴿ إذ قال لقومه ﴾  
كالذى مر في قصة إبراهيم عليه السلام ﴿ إنكم لتأتون الفاحشة ﴾ أى الفعلة  
المتناهية في القبح وقرئ أنكم ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ استئناف  
مقرر لكمال قبورها فإن لإجماع جميع أفراد العالمين على التحاشي عنها ليس إلا  
لكونها مما تشمئز منه الطباع وتنفر منه النفوس .

﴿ أنكم لتأتون الرجال وتقطعون السيل ﴾ وتعرضون للسابلة أى  
بالفاحشة حيث روى أنهم كانوا كثيرا ما يفعلونها بالغرباء وقيل تقطعون سيل  
النساء بالإعراض عن الحرث وإتيان ما ليس يحترث وقيل تقطعون السيل



بالقتل وأخذ المال ﴿ وتأتون في ناديتكم ﴾ أى تفعلون في مجلسكم الجامع لأصحابكم ﴿ المنكر ﴾ كالجماع والضراط وحل الأزار وغيرها مما لاخير فيه من الأفاعيل المنكرة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو الحذف بالحصى والرمى بالبنادق والفرقة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل الأزار والسباب والفحش في المزاح وقيل السخرية بمن مر بهم وقيل المجاهرة في ناديتهم بذلك العمل ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اتقنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ أى فما كان جوابا من جهتهم شيء من الأشياء إلا هذه الكلمة الشنيعة أى لم يصدر عنهم في هذه المرة من مرات مواعظ لوط عليه السلام وقد كان أو عدم فيها بالعذاب وأما ما في سورة الاعراف من قوله تعالى ﴿ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتهم ﴾ الآية وما في سورة النمل من قوله تعالى ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتهم ﴾ الآية فهو الذى صدر عنهم بعده هذه المرة وهى المرة الأخيرة من مرات المقاولات الجارية بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام وقد مر تحقيقه في سورة الاعراف

﴿ قال رب انصرنى ﴾ أى يا نزال العذاب الموعود ﴿ على القوم المفسدين ﴾ بابتداع الفاحشة وسنأ فيمن بعدهم والإصرار عليها واستعجال العذاب بطريق الاستنزاء وإنما وصفهم بذلك مبالغة في استنزال العذاب عليهم ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى أى بالبشارة بالولد والنافلة ﴾ قالوا ﴿ أى لإبراهيم عليه السلام في تضاعيف الكلام حسبما فصل في سورة هود وسورة الحجر ﴾ إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴿ أى قرية سدوم والإضافة لفظية لأن المعنى على الاستقبال ﴾ إن أهلها كانوا ظالمين ﴿ تعليل للاهلاك باصرارهم على الظلم وتماديهم في فنون الفساد وأنواع المعاصي ﴾ قال إن فيها لوطا ﴿ فكيف تهلكونها ﴾ قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينهم وأهلهم ﴿ أرادوا أنهم غير غافلين عن مكان لوط عليه السلام فيها بل عمن لم يتعوض له إبراهيم عليه السلام من أتباعه المؤمنين وأنهم محتشون بشأنهم أثم اعتناء حسبما ينبى عنه تصدير الوعد بالتنجية بالقسم أى والله لننجينهم وأهلهم ﴿ إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أى الباقيين في العذاب أو القرية

(ولما أن جاءت رسلنا) المذكورين بعد مفارقتهم لإبراهيم عليه السلام (لوطا  
مؤم بهم) اعتراه المساء بسببهم مخافة أن يتعرض لهم قومه بسوء وكلمة أن صلة  
لنا كيد ما بين الفعلين من الاتصال (وضاق بهم ذرعا) أى ضاق بشأنهم وتديبر  
أمرهم ذرعه أى طاقته كقولهم ضاقت يده وبأذائه رحب زرعه بكذا إذا كان  
مطبقا به قادرا عليه وذلك أن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصير الذراع .

(وقالوا) ريثما شاهدوا فيه مخايل النضجر من جهتهم وعابنوا أنه قد عجز  
عن مدافعة قومه بعد اللتيا والتي حتى آلت به الحال إلى أن قال لو أن لى بكم قوة  
أو آوى إلى ركن شديد (لا تخف) أى من قومك علينا (ولا تحزن) أى  
على شئ وقيل ياهلاكنا إياهم (إنا منجوك وأهلك) بما يصيبهم من العذاب  
(إلا امرأتك كانت من الغابرين) وقرئ لننجينك ومنجوك من الإنجاء  
وأيا ما كان فحل الكاف الجر على المختار ونصب أهلك باضمار فعل أو بالعطف  
على محلها باعتبار الأصل (إنا منزلون على أهل هذه القرية رجلا من السماء)  
استئناف مسوق لبيان ما أشير إليه بوعد النجاة من نزول العذاب عليهم والرجز  
العذاب الذى يقلق المعذب أى يزججه من قولهم ارتجس إذا ارتجس واضطرب  
وقرئ منزلون بالتشديد (بما يفسقون) بسبب فسقهم المستمر (ولقد تركنا  
منها) أى من القرية (آية بيّنة) هى فصتها العجيبة آثار ديارها الخربة وقيل  
الحجارة المطمورة فإنما كانت باقية بعدها وقيل الماء الأسود على وجه الأرض  
(لقوم يعقلون) يستعملون عقولهم فى الاستبصار والاعتبار وهو متعلق بما  
تركنا أو ببيّنة (وإلى مدين أخام شعيبا) متعلق بمضمن معطوف على أرسلنا  
فى قصة نوح عليه السلام أى وأرسلنا إلى مدين شعيبا (فقال يا قوم اعبدوا الله)  
وحده (وارجوا اليوم الآخر) أى توقعوه وما سيقع فيه من فنون الأهوال  
وافعلوا اليوم من الأعمال ما تأمنون غائلته وقيل وارجوا ثوابه بطريق إقامة  
المسبب مقام السبب وقيل الرجاء بمعنى الخوف (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين  
فكذبوه فأخذتهم الرجفة) أى الزلزلة الشديدة وفى سورة هود وأخذت الذين  
( ٢٢ - أبو السعود - رابع )

ظلموا الصيحة أى صيحة جبريل عليه السلام فإنها الموجبة <sup>(١)</sup> للرجفة بسبب  
تمويجها للهواء وما يحاورها من الأرض ﴿ فأصبحوا فى دارهم ﴾ أى بلدهم أو  
منازلهم والإفراد لأن اللبس ﴿ جاثمين ﴾ باركين على الركب ميتين .  
﴿ وعاداً وثمود ﴾ منصوبان بإضمار فعل ينبىء عنه ما قبله أى أهلكنا  
وقرىء ثموداً بتأويل الحى ﴿ وقد تبين لكم من مساكنهم ﴾ أى وقد ظهر لكم  
إهلاكنا لإيائهم من جهة مساكنهم بالنظر إليها عند اجتيازكم بها ذهاباً إلى الشام  
ولإياباً منه ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ من فنون الكفر والمعاصى ﴿ فصدكم  
عن السبيل ﴾ السوى الموصل إلى الحق ﴿ وكانوا مستبشرين ﴾ متمكنين من النظر  
والاستدلال ولكنهم لم يفعلوا ذلك أو متيقنين أن العذاب لاحق بهم بإخبار  
الرسل عليهم الصلاة والسلام لهم ولكنهم لجوا حتى لقوا ما لقوا ﴿ وقارون  
وفرعون وهامان ﴾ معطوف على عاداً قيل تقديم قارون لشرف نسبه ﴿ ولقد جاءهم  
موسى بالبينات واستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين ﴾ مفليتين فائتين من قولهم  
سبق طالبه إذا فاته ولم يدركه ولقد أدركهم أمر الله عز وجل أى إدراك فتداركوا  
نحو الدمار والهلاك ﴿ فكلا ﴾ تفسير لما ينبىء عنه عدم سبقهم بطريق الإيهام  
أى فكل واحد من المذكورين ﴿ أخذنا بذنبه ﴾ أى عاقبناه بجنائته لآبعضه دون  
بعض كما يشعر به تقديم المفعول ﴿ فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ﴾ تفصيلاً  
للأخذ أى ريحاً عاصفاً فيها حصباء وقيل ملكاً رماهم بها وهم قوم لوط ﴿ ومنهم  
من أخذته الصيحة ﴾ كمدين وثمرود ﴿ ومنهم من خسفنا به الأرض ﴾ كقارون  
﴿ ومنهم من أغرقنا ﴾ كقوم نوح وفرعون وقومه ﴿ وما كان الله ليظلمهم ﴾  
بما فعل بهم فإن ذلك محال من جهته تعالى ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾  
بالاستمرار على مباشرة ما يوجب ذلك من أنواع الكفر والمعاصى ﴿ مثل الذين  
اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ أى فيها اتخذوه معتمداً ومتكلاً ﴿ كمثل العنكبوت  
اتخذت بيتاً ﴾ فيها نسجته فى الوهن والحور بل ذلك أوهن من هذا لأن له حقيقة

واتفاعاً في الجملة أو مثلهم بالإضافة إلى الموحد كمثلته بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً من حجر وجص والعنكبوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والغالب في الاستعمال التأنيث وتاؤه كشاء طاغوت ويجمع على عنكب وعنكبوتات وأما العنكب والعكب والعنكب فاسماء الجمع ﴿ وإن أوهن البيوت لبيوت العنكبوت ﴾ حيث لا يرى شيء يدانيه في الوهن والوهي ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أى شيئاً من الأشياء لجزموا أن هذا مثلهم وأن دينهم أوهى من ذلك ويجوز أن يجعل بيت العنكبوت عبارة عن دينهم تحقيقاً للتمثيل فالمعنى وإن أوهن ما يعتمد به في الدين دينهم .

﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء ﴾ على إضمار القول أى قل للكفرة إن الله الخ وما استفهامية منصوبة يدعون معلقة ليعلم ومن للتبيين أو نافية ومن مزيدة وشيء مفعول يدعون أو مصدرية وشيء عبارة عن المصدر أو موصولة مفعول ليعلم ومفعول يدعون عائده المحذوف وقرئ تدعون بالثاء والكلام على الأولين تجهيل لهم وتأكيدهم وعلى الآخرين وعيد لهم ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ تعليل على المعنيين فإن لإشراك ما لا يعد شيئاً بمن هذا شأنه من فرط الغباوة وإن الجهاد بالنسبة إلى القادر القاهر على كل شيء البالغ في العلم وإتقان الفعل الغاية القاصية كالمعدوم البحث وأن من هذه صفاته قادر على مجازاتهم ﴿ وتلك الأمثال ﴾ أى هذا المثل وأمثاله ﴿ نضربها للناس ﴾ تقريباً لما بعد من أنهامهم ﴿ وما يعقلها ﴾ على ما هي عليه من الحسن واستتباع الفوائد ﴿ إلا العالمون ﴾ الراسخون في العلم المتدبرون في الأشياء على ما ينبغي وعنه عليه الصلاة والسلام أنه تلا هذه فقال العالم من عقل عن الله تعالى وعمل بطاعته واجتنب سيخطه ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق ﴾ أى محققاً مراعيّاً للحكم والمصالح على أنه حال من فاعل خلق أو ملتبسة بالحق الذي لا محيد عنه مستتبعة للمنافع الدينية والدنيوية على أنه حال من مفعوله فإنها مع اشتغالها على جميع ما يتعلق به معاشهم شواهد دالة على شؤنه تعالى المتعلقة بذاته وصفاته كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿ إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ دالة لهم ما ذكر من شؤنه .

سبحانه وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الهداية والإرشاد في خلقهما للكل  
لأنهم المنتفعون بذلك .

﴿ أَلَمْ يَأْتِ الْوَحْيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ تقرّباً إلى الله تعالى بقراءته وتذكراً  
لما في تضاعيفه من المعاني وتذكيراً للناس وحملهم على العمل بما فيه من الأحكام  
ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ أى داوم على إقامتها  
وحيث كانت الصلاة منتظمة للصلوات المكتوبة المؤداة بالجماعة وكان أمره  
عليه الصلاة والسلام بإقامتها متضمناً لأمر الأمة بها علل بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ  
تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ كأنه قيل وصل بهم أن الصلاة تنهاهم عن الفحشاء  
والمنكر ومعنى نهيها عنهما أنها سبب للانتهاء عنهما لأنها مناجاة لله تعالى فلا بد  
أن تكون مع إقبال تام على طاعته وإعراض كلّى عن معاصيه قال ابن مسعود  
وابن عباس رضى الله تعالى عنهما وفى الصلاة منتهى ومزجر عن معاصى الله تعالى  
فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزد بصلاته من الله تعالى  
إلا بعداً ، وقال الحسن وقتادة من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته  
وبال عليه وروى أنس رضى الله عنه دإن ، ففى من الانصار كان يصلى مع  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبهُ فوصف له  
عليه الصلاة والسلام حاله فقال إن صلاته ستنهاه ، فلم يلبث أن تاب وحسن حاله  
﴿ وَلَذَكَرَ اللَّهُ أَكْبَرَ ﴾ أى وللصلاة أكبر من سائر الطاعات وإنما عبر عنها به  
كما فى قوله تعالى ﴿ فَاسْمِعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ للإيذان بأن ما فيها من ذكر الله تعالى  
هو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيئات وقيل ولذكر  
الله تعالى عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيها عنهما ووعيده عليهما أكبر  
فى الزجر عنهما وقيل ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته  
﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ منه ومن سائر الطاعات فيحازيكم بها أحسن المجازاة  
﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ إِلَّا بِأَمْرِ هِيَ أَحْسَنُ ﴾  
أى بالخصلة التى هى أحسن كقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشغبة  
بالنصح والسورة بالآثارة على وجه لا يدل على الضعف ولا يؤدى إلى إعطاء

الدنية وقيل مفسوخ بآية السيف ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ بالافراط في الاعتداء والعناد أو بإثبات الولد وقولهم يد الله مغولة ونحو ذلك فإنه يجب حينئذ المدافعة بما يابق بحاطمهم

﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا﴾ من القرآن ﴿وأنزل إليكم﴾ أي وبالذي أنزل إليكم من التوراة والإنجيل وقد مر تحقيق كيفية الإيمان بهما في غاتمة سورة البقرة وعن النبي عليه الصلاة والسلام «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وبكتبه ورسله فان قالوا باطلا لم تصدقوهم وإن قالوا حقا لم تكذبوهم» ﴿وللهنا ولهم واحد﴾ لا شريك له في الألوهية ﴿ونحن له مسلمون﴾ مطيعون خاصة وفيه تعريض بحال الفريقين حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴿وكذلك﴾ تجريد للخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده وما فيه من معنى البعد للإيدان ببعد منزلة المشار إليه في الفضل أي مثل ذلك الإنزال البديع الموافق لإتزال سائر الكتب ﴿أنزلنا إليك الكتاب﴾ أي القرآن الذي من جملة هذه الآية الناطقة بما ذكر من المجادلة بالحسنى ﴿فالذين آتيناهم الكتاب﴾ من الطائفتين ﴿يؤمنون به﴾ أريد بهم عبد الله بن سلام وأضرأ به من أهل الكتابين خاصة كأن من عداهم لم يؤتوا الكتاب حيث لم يعملوا بما فيه أو من تقدم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم حيث كانوا مصدقين بنزوله حسبا شاهدوا في كتابيها وتخصيصهم بإيتاء الكتاب للإيدان بأن من بعدهم من معاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزع عنهم الكتاب بالنسخ فلم يؤتوه والغاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان إيمانهم به مترتب على إنزاله على الوجه المذكور ﴿ومن هؤلاء﴾ أي ومن العرب أو أهل مكة على الأول أو من في عصره عليه الصلاة والسلام على الثاني ﴿من يؤمن به﴾ أي بالقرآن ﴿وما يجمعنا﴾ عبر عن الكتاب بالآيات للتنبية على ظهور دلالتها على معانيها وعلى كونها من عند الله تعالى وأضيفت إلى نون العظمة لمزيد تفخيمها وغاية تشنيع من يجهل بها ﴿إلا الكافرون﴾

المتوغلون في الكفر المصممون عليه فإن ذلك يصدهم عن التأمل فيما يؤديهم إلى معرفة حقيقتها وقيل هم كعب بن الأشرف وأصحابه

(وما كنت تتلو من قبله) أي ما كنت قبل إنزالنا إليك الكتاب تقدر على أن تتلو شيئاً من كتاب (ولا تخطه) أي ولا تقدر على أن تخطه (بيمينك) حسبما هو المعتاد أو ما كانت عادتك أن تتلوه ولا أن تخطه (إذا لارتاب المبتلون) أي لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط أو ممن يعتادهما لارتابوا وقالوا لعله التقطه من كتب الأوائل وحيث لم تكن كذلك لم يبق في شأنك مذنب أصلاً وتسميتهم مبطلين في ارتيابهم على التقدير المفروض لكونهم مبطلين في اتباعهم للاحتمال المذكور مع ظهور نزاهته عليه الصلاة والسلام عن ذلك (بل هو) أي القرآن (آيات بينات) واضحات ثابتة راسخة (في صدور الذين أوتوا العلم) من غير أن يلتقط من كتاب يحفظونه بحيث لا يقدر أحد على تحريفه (وما يجحد بآياتنا) مع كونها كما ذكر (إلا الظالمون) المتجاوزون للحدود في الشر والمكابرة والفساد (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى عليهم السلام وقرى آية (قل إنما الآيات عند الله) ينزلها حسبما يشاء من غير دخل لأحد في ذلك قطعا (ولنما أنا نذير مبين) ليس من شأني إلا الإنذار بما أوتيت من الآيات (أولم يكفهم) كلام مستأنف وارد من جهته تعالى رداً على اقتراحهم وبياناً لبطلانه والهمزة للإنكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أقصر ولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات (أنا أنزلنا عليك الكتاب) الناطق بالحق المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية وأنت بمعزل عن مدارستها وممارستها (يتلى عليهم) في كل زمان ومكان فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل كما تزول كل آية بعد كونها وتكون في مكان دون مكان أو يتلى على اليهود بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك (إن في ذلك) الكتاب العظيم الشأن الباقي على مر الدهور (لرحمة) أي نعمة عظيمة (وذكرى) أي تذكرة (لقوم يؤمنون)

أى لقوم مهمهم الإيمان لا التعنت كأولئك المقترحين وقيل إن ناسا من المؤمنين أنوا رسول الله صلى عليه وسلم بكتب فيها بعض ما يقوله اليهود فقال كفى بها ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم فنزلت

﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا ﴾ بما صدر عني وعنكم ﴿ يعلم ما فى السموات والأرض ﴾ أى من الأمور التى من جعلتها شأنى وشأنكم فهو تقرير لما قبله من كفايته تعالى شهيدا ﴿ والذين آمنوا بالباطل ﴾ وهو ما يعبدون دون الله تعالى ﴿ وكفروا بالله ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ المغبونون فى صفتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان بأن ضيعوا الفطرة الأصلية والأدلة السمعية الموجهة للإيمان والآية من قبيل المجادلة بالقى هى أحسن حيث لم يصرح بنسبة الإيمان بالباطل والكفر بالله والخسران إليهم بل ذكر على مناج الإيهام كما فى قوله تعالى (ولما أولياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ على طريقة الاستهزاء بقولهم (متى هذا الوعد) وقولهم (أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب) ونحو ذلك ﴿ ولولا أجل مسمى ﴾ قد ضربه الله تعالى لعذابهم وبينه فى اللوح ﴿ لجاءهم العذاب ﴾ المعين لهم حسبما استعجلوا به قيل المازد بالأجل يوم القيامة لما روى أنه تعالى وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يعذب قومه بعذاب الاستئصال وأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة وقيل يوم بدر وقيل وقت فنائهم بأجلهم وفيه بعد ظاهر لما أنهم ما كانوا يوعدون بفنائهم الطبيعي ولا كانوا يستعجلون به ﴿ وليأتينهم ﴾ جملة مستأنفة مبينة لما أشير إليه فى الجملة السابقة من مجىء العذاب عند محل الأجل أى وبالله ليأتينهم العذاب الذى عين لهم عند حلول الأجل ﴿ بغتة ﴾ أى فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أى يأتيناه ولعل المراد يأتيناه كذلك أنه لا يأتينهم بطريق التعجيل عند استعجالهم والإجابة إلى مسئولهم فإن ذلك إتيان برأيهم وشعورهم لأنه يأتينهم وهم غارون آمنون لا يخطرونه بالبال كدأب بعض العقوبات النازلة على بعض الأمم بيانا وهم نائمون أو ضحى وهم يلعبون لما أن إتيان عذاب الآخرة وعذاب يوم بدر ليس من هذا القبيل .



﴿ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ استئناف مسوق لغاية تجميلهم وربكا كذا رأيهم وفيه دلالة على أن ما استعجلوه عذاب الآخرة أى يستعجلونك بالعذاب والحال أن محل العذاب الذى لا عذاب فوقه محيط بهم كأنه قيل يستعجلونك بالعذاب وإن العذاب لمحيط بهم وإنما جرى بالجملة الإسمية دلالة على تحقق الإحاطة واستمرارها أو تنزيلا لحال السبب منزلة حال المسبب فإن الكفر والمعاصى الموجبة لدخول جهنم محيطة بهم وقيل إن الكفر والمعاصى هى النار فى الحقيقة لكنها ظهرت فى هذه النشأة بهذه الصورة وقد مر تفصيله فى سورة الأعراف عند قوله تعالى ( والوزن يومئذ الحق ) ولأم الكافرين إما للعهد ووضع الظاهر موضع المضمرة للإشعار بعلّة الحكم أو للجنس وهم داخلون فيه دخولا أولياً ﴿ يوم يغشاهم العذاب ﴾ ظرف لمضمرة قد طوى ذكره لإيداناً بغاية كثرتة وفظاعته كأنه قيل يوم يغشاهم العذاب الذى أشير إليه بإحاطة جهنم بهم يكون من الأحوال والأحوال ما لا يفى به المقال وقيل ظرف للإحاطة ﴿ من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ أى من جميع جهاتهم ﴿ ويقول ﴾ أى الله عز وجل ويعضده القراءة بنون العظمة أو بعض ملائكته بأمره ﴿ ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ أى جزاء ما كنتم تعملونه فى الدنيا على الاستمرار من السيئات التى من جملتها الاستعجال بالعذاب ﴿ يا عبادى الذين آمنوا ﴾ خطاب تشریف لبعض المؤمنين الذين لا يتمكنون من إقامة أمور الدين كما ينبغى لممانعة من جهة الكفرة وإرشادهم إلى الطريق الأسلم ﴿ إن أرضى واسعة فياى فاعبدون ﴾ أى إذا لم يتسهل لكم العبادة فى بلد ولم يتيسر لكم إظهار دينكم فهاجروا إلى حيث يتسنى لكم ذلك وعنه عليه الصلاة والسلام من فر بدينه من أرض إلى أرض ولو كان شبرا استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام والفاء جواب شرط محذوف إذ المعنى إن أرضى واسعة إن لم تخلصوا العبادة لى فى أرض فأخلصوها فى غيرها ثم حذف الشرط وعوض عنه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص .

﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾ جملة مستأنفة جرى بها حثا

على المسارعة في الامتثال بالأمر أى كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت وكرهه فراجعة إلى حكمنا وجزائنا بحسب أعمالها فمن كانت هذه عاقبته فليس له بد من التزود والاستعداد لها وقرىء يرجعون ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئهم ﴾ لنزولهم ﴿ من الجنة غرفا ﴾ أى علالي وهو مفعول ثان للنبوة وقرىء لنثوينهم من الثواء بمعنى الإقامة فانتصاب غرفاً حيثنذ إما باجرائه مجرى لنزولهم أو بنزع الخافض أو بتشبيهه الطرف الموقت بالمبهم كما فى قوله تعالى ﴿ لا تعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ صفة لغرفا ﴿ خالدين فيها ﴾ أى فى الغرف أو فى الجنة ﴿ نعم أجر العاملين ﴾ أى الأعمال الصالحة والمخصوص بالمدح مخدوف ثقة بدلالة ما قبله عليه وقرىء فنعم ﴿ الذين صبروا ﴾ إما صفة للعاملين أو نصب على المدح أى صبروا على أذية المشركين وشدائد المهاجرة وغير ذلك من المحن والمشاق ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى ولم يتوكلوا فيما يأتون ويندرون إلا على الله تعالى ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها ﴾ روى أن النبي عليه الصلاة والسلام لما أمر المؤمنين الذين كانوا بمكة بالمهاجرة إلى المدينة قالوا كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة فنزلت أى وكمن دابة لا تطيق حمل رزقها لضعفها أو لا ندخره وإنما تصبح ولا معيشة عندها ﴿ الله يرزقها وإياكم ﴾ ثم انها مع ضعفها وتوكلها وإياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء فى أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله تعالى لأن رزق الكل بأسباب هو المسبب لها وحده فلا تخافوا الفقر بالمهاجرة ﴿ وهو السميع ﴾ المبالغ فى السمع فيسمع قولكم هذا ﴿ العليم ﴾ المبالغ فى العلم فيعلم ضمائركم ﴿ ولئن سألتهم ﴾ أى أهل مكة ﴿ من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾ إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره ولا إلى التردد فيه ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ إنكار واستبعاد من جهته تعالى لتركهم العمل بموجبه أى فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرده تعالى فى الإلهية مع إقرارهم بتفرده تعالى فيما ذكر من الخلق والتسخير .

﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ أن يبسطه له ﴿ من عباده ويقدر له ﴾ أى يقدر لمن يشاء أن يقدر له منهم كأننا من كان على أن الضمير مبهم حسب

لإهم مرجعه أو يقدر لمن يبسطه له على التعاقب ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾  
 فيعلم من يليق ببسط الرزق فيبسطه له ومن يليق بقدره له فيقدره له أو فيعلم  
 أن كلا من البسط والقدر في أى وقت يوافق الحكمة والمصلحة فيفعل كلا منهما  
 في وقته ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأجبي به الأرض من بعد موتها  
 ليقولن الله﴾ معترفين بأنه الموجد للممكّنات بأسرها أصولها وفروعها ثم لأنهم  
 يشركون به بعض مخلوقاته الذى لا يكاد يتوهم منه القدرة على شيء ما أصلاً .

﴿قل الحمد لله﴾ على أن جعل الحق بحيث لا يجترئ المبطون على جموده  
 وأنه أظهر حجتك عليهم وقيل على أن عصمك من هذه الضلالات ولا يخفى بعده  
 ﴿بل أكثرهم لا يعقلون﴾ أى شيئاً من الأشياء فلذلك لا يعملون بمقتضى قوتهم  
 هذا فيشركون به سبحانه أخس مخلوقاته وقيل لا يعقلون ما تريد بتحميدك عند  
 مقامهم ذلك ﴿وما هذه الحياة الدنيا﴾ إشارة تحقير وازدراء للدنيا وكيف لا وقد  
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة  
 ما سقى الكافر منها شربة ماء ، ﴿إلا طهو ولعب﴾ أى إلا كما يلهى ويلعب به  
 الصبيان يجتمعون عليه ويبتهجون به ساعة ثم يتفرقون عنه ﴿وإن الدار الآخرة  
 لهى الحيوان﴾ أى لهى دار الحياة الحقيقية لا متاع طريان الموت والفناء عليها  
 أو هى فى فاتها حياة للبالغة والحيوان مصدر حي سعى به ذو الحياة وأصله  
 حيوان فقامت الياء الثانية وآوا لما فى بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب  
 اللازم للحيوان ولذلك اختير على الحياة فى هذا المقام المقتضى للبالغة ﴿لو كانوا  
 يعلمون﴾ أى لما آثروا عليها الحياة الدنيا التى أصلها عدم الحياة ثم ما يحدث  
 فيها من الحياة عارضة سريعة الزوال وشيك الاضمحلال ﴿فإذا ركبوا فى الفلك﴾  
 متصل بما دل عليه شرح حالهم والركوب هو الاستعلاء على الشيء المتحرك  
 وهو متعد بنفسه كما فى قوله تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها) واستعماله هنا  
 وفى أمثاله بكلمة فى للإيدان بأن المركوب فى نفسه من قبيل الأمكنة وحركته  
 قسرية غير إرادية كما مر فى سورة هود والمعنى أنهم على ما وصفوا من الإشارك  
 فإذا ركبوا فى البحر ولقوا شدة ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ أى كائنين على

صورة المخلصين لدينهم من المؤمنين حيث لا يدعون غير الله تعالى لعامهم بأنه لا يكشف الشدائد عنهم إلا هو ﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ أى فاجؤا المعاودة إلى الشرك ﴿ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا﴾ أى يفاجئون الإشراف ليكفروا كافرين بما آتيناهم من نعمة الإنجاء التى حقها أن يشكروها ﴿فسوف يعلمون﴾ أى عاقبة ذلك وغائلته حين يرون العذاب ﴿أولم يروا﴾ أى ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿أنا جعلنا﴾ أى بلدهم ﴿حرما آمنا﴾ مصونا من النهب والتعدى سالما أهله من كل سوء ﴿ويتخطف الناس من حولهم﴾ أى والحال أنهم يختلسون من حولهم قتلا وسبيا إذ كانت العرب حوله فى تغاور وتناهب ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ أى أبعد ظهور الحق الذى لا ريب فيه بالباطل خاصة يؤمنون دون الحق ﴿وبنعمة الله يكفرون﴾ وهى المستوجبة للشكر حيث يشركون به غيره وتقديس الصلة فى الموضعين لإظهار كمال شناعة ما فعلوا ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ بأن زعم أن له شريكا أى هو أظلم من كل ظالم وإن كان سببك النظم دالا على نفي الأظلم من غير تعرض لنفى المساوى وقد مر مرارا ﴿أو كذب بالحق لما جاءه﴾ أى بالرسول أو بالقرآن وفى لما تسفيه لهم بأن لم يتوقفوا ولم يتأملوا حين جاءهم بل سارعوا إلى التكذيب أثر ذى أثير ﴿أليس فى جهنم مثوى للكافرين﴾ تقرير لثوابهم فيها كقول من قال • أستم خير من ركب المطايا • أى ألا يستوجبون الثواب فيها وقد فعلوا ما فعلوا من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بالحق الصريح أو إنكار واستبعاد لاجترائهم على ما ذكر من الافتراء والتكذيب مع علمهم بحال الكفرة أى ألم يعلموا أن فى جهنم مثوى للكافرين حتى اجترؤا هذه الجرأة ﴿والذين جاهدوا فىنا﴾ أى فى شأننا ولو جهاها خالصا أطلق المجاهدة ليعم جهاد الأعداء الظاهرة والباطنة ﴿لنهديهم سبلنا﴾ سبل السبيل إلينا والوصول إلى جنابنا أو لنزيدهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقا لسلوكها كقوله تعالى ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ وفى الحديث من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ معية النصر

والمعونة. عنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة الغنكبت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين» .

\*\*\*

### سورة الروم

مكية إلا قوله ( فسيحان الله ) الآية . وهي ستون أو تسع وخمسون آية

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( ألم ) الكلام فيه كالذى مر في أمثاله من الفوائخ الكريمة ( غلبت الروم في أدنى الأرض ) أى أدنى أرض العرب منهم إذ هى الأرض المعهودة عندهم وهى أطراف الشام أو فى أدنى أرضهم من العرب على أن اللام عوض عن المضاف إليه قال مجاهد هى أرض الجزيرة وهى أدنى أرض الروم إلى فارس وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الأردن وفلسطين وقرىء أدانى الأرض ( وهم ) أى الروم ( من بعد غلبهم ) أى بعد مغلوبيتهم وقرىء بسكون اللام وهى لغة كالجلب والجلب ( سيغلبون ) أى سيفلبون فارس ( فى بضع سنين ) روى أن فارس غزوا الروم فوافوهم بأذرعهم وبصرى وقيل بالجزيرة كما مر فغلبوا عليهم وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون وشتوا بالمسلمين وقالوا أتمم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون وقد ظهر اخواتنا على إخوانكم فلنظارن عليكم فقال أبو بكر رضى الله عنه لا يقرر الله أعينكم فوائقه ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبى بن خلف اللعين كذبت اجعل بيننا أجلا أنا حيك عليه فاجبه على عشر قلائص من كل منهما وجعلا الأجل ثلاث سنين فأخبر به أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايدة فى الخطر وماده فى الأجل فجعلاهمائة قلوص إلى تسع سنين ومات أبى من جراح رسول الله صلى الله عليه وسلم وظهرت

الروم على فارس عند رأس سبع ستين وذلك يوم الحديبية وقيل كان النصر للفرقيين يوم بدر فأخذ أبو بكر الخطار من ذرية أبي لجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تصدق به وكان ذلك قبل تحريم القمار وهذه الآيات من البينات الباهرة الشاهدة بصحة النبوة وكون القرآن من عند الله عز وجل حيث أخبرت عن الغيب الذي لا يعلمه إلا العليم الخبير وقرئ غلبت على البناء للفاعل وسيغلبون على البناء للمفعول والمعنى أن الروم غلبت على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون وقد غزاهم المسلمون في السنة التاسعة من نزولها ففتحوا بعض بلادهم فأضافه الغلب حينئذ إلى الفاعل .

(لله الأمر من قبل ومن بعد) أى فى أول الوقتين وفى آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون كأنه قيل من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين والمعنى أن كلام كونهم مغلوبين أولا وغالبين آخره ليس إلا بأمر الله تعالى وقضائه وتلك الأيام نداؤها بين الناس وقرئ من قبل ومن بعد بالجر من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه كأنه قيل قبل وبعد بمعنى أولا وآخره (ويومئذ) أى يوم إذ يغلب الروم على فارس ويحل ما وعده الله تعالى من غلبتهم (يفرح المؤمنون بنصر الله) وتغلبه من له كتاب على من لا كتاب له وغيظ من شمت بهم من كفار مكة وكون ذلك من دلائل غلبة المؤمنين على الكفار وقيل نصر الله إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس وقيل نصره تعالى أنه ولى بعض الظالمين بعضا وفرق بين كلمتهم حتى تناقصوا وتقاتلوا وقل كل منهما شوكة الآخر وفى ذلك قوة وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه وافق ذلك يوم بدر وفيه من نصر الله العزيز للمؤمنين وفرحهم بذلك ما لا يخفى والأول هو الأنسب لقوله تعالى (ينصر من يشاء) أن ينصره من عباده على عدوه ويغلبه عليه فإنه استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى لله الأمر من قبل ومن بعد (وهو العزيز) المبالغ فى العزة والغلبة فلا يعجزه من يشاء أن ينصر عليه كائنا من كان (الرحيم) المبالغ فى الرحمة فينصر من يشاء أن ينصره أى

فريق كان والمراد بالرحمة هي الدنيوية أما على القراءة المشهورة فظاهر لما أن كلا الفريقين لا يستحق الرحمة الأخروية وأما على القراءة الأخيرة فلأن المسلمين وإن كانوا مستحقين لها لكن المراد ههنا نصرهم الذي هو من آثار الرحمة الدنيوية وتقديم وصف العزة لتقدمه في الاعتبار (وعد الله) مصدر مؤكد لنفسه لأن ما قبله في معنى الوعد كأنه قيل وعد الله وعدا (لا يخلف الله وعده) أي وعد كان مما يتعلق بالدنيا والآخرة لاستحالة الكذب عليه سبحانه وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتعليل الحكم وتفخيمه والجملة استئناف مقرر لمعنى المصدر وقد جوز أن تكون حالا منه فيكون كالمصدر الموصوف كأنه قيل وعد الله وعدا غير مخلف (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي ما سبق من شئونه تعالى .

(يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا) وهو ما يشاهدونه من زخارفها وملاذها وسائر أحوالها الموافقة لشهواتهم الملائمة لأهوائهم المستدعية لانهما كهم فيها وعكوفهم عليها لا تمتعهم بزخارفها وتنعمهم بملاذها كما قيل فإنما ليسا بما علموه منها بل من أفعالهم المترتبة على علومهم وتنكير ظاهرا للتحقير والتخسيس دون الوحدة كما توهم أي يعلمون ظاهرا حقيرا خسيسا من الدنيا (وهم عن الآخرة) التي هي الغاية القصوى والمطلب الأسنى (هم غافلون) لا يخطرونها بالبال ولا يدركون من الدنيا ما يؤدي إلى معرفتها من أحوالها ولا يتفكرون فيها كما سيأتى والجملة معطوفة على يعلمون وإيرادها اسمية للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها وهم الثانية تكرير للأولى أو مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر الأولى وهو على الوجهين مناد على تمسك غفلتهم عن الآخرة المحققة لمقتضى الجملة المتقدمة تقريرا لجهالتهم وتشبيها لهم بالبهائم المقصور إدراكاتها من الدنيا على ظواهرها الخسيسة دون أحوالها التي هي مبادئ العلم بأمور الآخرة وإشعارا بأن العلم المذكور وعدم العلم رأسا سيان (أولم يتفكروا) إنكار واستقباح لقصر نظرهم على ما ذكر من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة والواو العطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى (في أنفسهم) ظرف للتفكر

وذكره مع ظهور استحالة كونه في غيرها لتحقيق أمره وتصوير حال المتفكرين وقوله تعالى ﴿ ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما ﴾ الخ متعلق إما بالعلم الذي يؤدي إليه التفكير ويدل عليه أو بالقول الذي يترتب عليه كما في قوله تعالى ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ أى أعلموا ظاهر الحياة الدنيا فقط أو أقصروا النظر عليه ولم يحدثوا التفكير في قلوبهم ففعلوا أنه تعالى ما خلقهما وما بينهما من المخلوقات التى هم من جعلها ملتبسة بشئ من الأشياء .

﴿ إلا ﴾ ملتبسة ﴿ بالحق ﴾ أو يقولوا هذا القول معترفين بمضمونه لأثر ما علموه والمراد بالحق هو الثابت الذى يحق أن يثبت لا محالة لا مبتناه على الحكمة البالغة والغرض الصحيح الذى هو استشهاد المكلفين بذواتها وصفاتها وأحوالها المتغيرة على وجود صانعها عز وجل ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته واختصاصه بالمعبودية وصحة أخباره التى من جعلها لإحيائهم بعد الفناء بالحياة الأبدية ومجازاتهم بحسب أعمالهم غيب ما تبين المحسن من المسئى وامتازت درجات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب في المصنوعات من الآيات والدلائل والامارات والمخايل كما نطق به قوله تعالى ﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ فإن العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه الصلاة والسلام بقوله « أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله » وقد مر تحقيقه في أوائل سورة هود عليه السلام وقوله تعالى ﴿ وأجل مسمى ﴾ عطف على الحق أى وبأجل معين قدره الله تعالى لبقائها لا بد لها من أن تنتهى إليه لا محالة وهو وقت قيام الساعة هذا وقد جوز أن يكون قوله تعالى في أنفسهم صلة للتفكر على معنى أولم يتفكروا في أنفسهم التى هى أقرب المخلوقات إليهم وهم أعلم بشئوننا وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فيتدبروا ما أودعها الله تعالى ظاهرا وباطنا من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يحازيها



فيه الحكيم الذي دبر أمرها على الإحسان لإحسانا وعلى الإساءة مثلاً حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت وأنت خبير بأن أمر معاد الإنسان ومجازاته بما عمل من الإساءة والإحسان هو المقصود بالذات والمحتاج إلى الإثبات فجعله ذريعة إلى إثبات معاد ما عداه مع كونه بمنزلة من الجزاء تعكيس للأمة فتدبر وقوله تعالى ﴿ وإن كثيراً من الناس بلفاء ربهم لسكافرون ﴾ تذييل مقرر لما قبله ببيان أكثرهم غير مقتصرين على ما ذكر من الغفلة عن أحوال الآخرة والأعراض عن التفكير فيما يرشدهم إلى معرفتها من خلق السموات والأرض وما بينهما من المصنوعات بل هم منكرون جاحدون بلفاء حسابه تعالى وجزائه بالبعث .

﴿ أو لم يسيرا ﴾ توبيخ لهم بعد انعاضهم بمشاهدة أحوال أناسهم الدالة على عاقبتهم ومآلهم والهمزة لتقرير المنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أقعدوا فى أماكنهم ولم يسيرا ﴿ فى الأرض ﴾ وقوله تعالى ﴿ فينظروا ﴾ عطف على يسيرا داخل فى حكم التقرير والتوبيخ والمعنى أنهم قد ساروا فى أقطار الأرض وشاهدوا ﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ من الأمم الماضية كعاد وثمود وقوله تعالى ﴿ كانوا أشد منهم قوة ﴾ الخ بيان لمبدأ أحوالهم ومآلها يعنى أنهم كانوا أقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا حيث كانوا أشد منهم قوة ﴿ وأثأروا الأرض ﴾ أى قلبوها للزراعة والحرث وقيل لاستنباط المياه واستخراج المعادن وغير ذلك ﴿ وعمروها ﴾ أى عمروها أولئك بفنون العمارات من الزراعة والغرس والبناء وغيرها بما يعد عمارة لها ﴿ أكثر مما عمروها ﴾ أى عمارة أكثر كماً وكيفاً وزماناً من عمارة هؤلاء إياها كيف لا وهم أهل واد غير ذى زرع لا تبسط لهم فى غيره وفيه تهكم بهم حيث كانوا مغترين بالدنيا مقتبحين بمتاعها مع ضعف حالهم وضيق عطنهم إذ مدار أمرها على التبسط فى البلاد والنسائط على العباد والتقلب فى أكناف الأرض بأصناف التصرفات وهم ضيقهم ملجأون إلى واد لا نفع فيه يخافون أن يتخطفهم الناس ﴿ وجاءتهم رسلهم

بالبينات ﴿ بالمعجزات أو الآيات الواضحات ﴾ ﴿ فسا كان الله ليظلمهم ﴾ أى فكذبوهم فأهلكهم فما كان الله ليهلكهم من غير جرم يستدعيه من قبلهم والتعبير عن ذلك بالظلم مع أن إهلاكه إياهم بلا جرم ليس من الظلم فى شيء على ما تقرر من قاعدة أهل السنة لإظهار كمال نزاهته تعالى عن ذلك بإيرازه فى معرض ما يستحيل صدوره عنه تعالى وقد مر فى سورة الأنفال وسورة آل عمران ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ بأن اجترأوا على اقتراف ما يوجب به من المعاصى العظيمة .

﴿ ثم كان عاقبة الذين أساؤا ﴾ أى عملوا السيئات وضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالإساءة والإشعار بعله الحكم ﴿ السوإى ﴾ أى العقوبة التى هى أسوأ العقوبات وأفظعها التى هى العقوبة بالنار فإنها تأنيث الأسوأ كالجسنى تأنيث الأحسن أو مصدر كالبشرى وصف به العقوبة مبالغة كأنها نفس السوإى وهى مرفوعة على أنها اسم كان وخبرها عاقبة وقرئ على العكس وهو أدخل فى الجزالة وقوله تعالى ﴿ أن كذبوا بآيات الله ﴾ علة لما أشير إليه من تعذيبهم الدنيوى والأخروى أى لأن كذبوا أو بأن كذبوا بآيات الله المنزلة على رسوله عليهم الصلاة والسلام ومعجزاته الظاهرة على أيديهم وقوله تعالى ﴿ وكانوا بها يستهزؤن ﴾ عطف على كذبوا داخل معه فى حكم العلية وإيراد الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدده هذا هو اللائق بجزالة النظم الجليل وقد قيل وقيل .

﴿ الله يبدأ الخلق ﴾ أى ينشئهم ﴿ ثم يعيده ﴾ بعد الموت بالبعث ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ إلى موقف الحساب والجزاء والالتفات للمبالغة فى التهيب وقرئ بالياء ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ التى هى وقت إعادة الخلق ورجعهم إليه ﴿ يبلس الجرمون ﴾ أى يسكتون متحيرين لا ينبسون يقال ناظرته فأبلس إذا سكته وأيس من أن يحتج وقرئ بفتح اللام من أبلسه إذا أخمه وأسكته ﴿ ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء ﴾ يحجرونهم من عذاب الله تعالى كما كانوا يزعمونه وصيغة الجمع لوقوعها فى مقابلة الجمع أى لم يكن لواحد

منهم شفيع أصلا ﴿ وكانوا بشركائهم كافرين ﴾ أى بالهيتهم وشركتهم  
 لله سبحانه حيث وقفوا على كنه أمرهم وصيغة الماضى للدلالة على تحققه وقيل  
 كانوا فى الدنيا كافرين بسببهم وليس بذلك إذ ليس فى الإخبار به فائدة  
 يعتد بها ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ أعيد لتحويله وتفضيع ما يقع فيه وقوله تعالى :  
 ﴿ يومئذ يتفرقون ﴾ تحويل له أثر تحويل وفيه رمز إلى أن التفرق يقع فى  
 بعض منه وضمير يتفرقون لجميع الخلق المدلول عليهم بما تقدم من بدتهم وإعادتهم  
 ورجعهم لا المحرمون خاصة وليس المراد بتفرقهم افتراق كل فرد منهم عن  
 الآخر بل تفرقهم إلى فريقى المؤمنين والكافرين كما فى قوله تعالى (فريق فى الجنة  
 وفريق فى السعير) وذلك بعد تمام الحساب وقوله تعالى ﴿ فأما الذين آمنوا  
 وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون ﴾ تفصيل وبيان لأحوال ذينك  
 الفريقين والروضة كل أرض ذات نبات وماء وروث ونضارة وتكثيرها  
 للتفخيم والمراد بها الجنة والحبور السرور يقال حبره إذا سره سرورا تهلك له  
 وجهه وقيل الحبرة كل نعمة حسنة والتحبير التحسين واختلقت فيه الأقاويل  
 لاحتماله وجوه جميع المسار فعن ابن عباس ومجاهد يكرمون وعن قتادة  
 ينعمون وعن ابن كيسان يحلون وعن بكر بن عياش التيجان على رؤسهم وعن  
 وكيع السماع فى الجنة وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الجنة وما فيها  
 من النعيم وفى آخر القوم أعرابى فقال يا رسول الله هل فى الجنة من سماع  
 قال عليه الصلاة والسلام : يا أعرابى إن فى الجنة نهرأ حافته الأبكار من كل  
 بيضاء خوصانية يتغنين بأصوات لم يسمع الخلاق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم  
 الجنة ، قال الراوى فسألت أبا الدرداء رضى الله عنه بم يتغنين قال بالتسبيح  
 وروى إن فى الجنة لأشجارا عليها أجراس أمن فضة فإذا أراد أهل الجنة السماع  
 يبعث الله تعالى ريحا من تحت العرش فتقع فى تلك الأشجار فتحرك تلك  
 الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لمساتوا طربا .

﴿ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ التى من جهلتها هذه الآيات الناطقة  
 بما فصل ﴿ ولقاء الآخرة ﴾ صرح بذلك مع اندراجة فى تكذيب الآيات

للاعتناء بأمره وقوله تعالى ﴿ فأولئك ﴾ إشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة من الكفر والتكذيب بآياته تعالى وبلقاء الآخرة للايذان بكمال تميزهم بذلك عن غيرهم وانتظامهم في سلك المشاهدات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار ببعث منزلتهم في الشر أى أولئك الموصوفون بما فصل من القبايح ﴿ في العذاب محضرون ﴾ على الدوام لا يغيثون عنه أبدا ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ﴾ أثر ما بين حال فريق المؤمنين العاملين للصالحات والكافرين المكذبين بالآيات وما لحقها من الثواب والعذاب أمروا بما ينجي من الثاني ويفضي إلى الأول من تزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق بشأنه سبحانه ومن حمده تعالى على نعمه العظام وتقديم الأول على الثاني لما أن التخلية متقدمة على التحلية والهاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى إذا علمت ذلك فسبحوا الله تعالى أى زهوه عما ذكر سبحانه أى تسبيحه اللائق به في هذه الأوقات واحمدوه فإن الإخبار بثبوت الحمد له تعالى ووجوبه على المميزين من أهل السموات والأرض في معنى الأمر به على أبلغ وجه وآكده وتوسيطه بين أوقات التسبيح للاعتناء بشأنه والاشعار بأن حقهما أن يجمع بينهما كل يذبح عنه قوله تعالى ﴿ ونحن نسبح بحمدك ﴾ وقوله تعالى ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياهم وإن كانت مثل زبد البحر وقوله عليه الصلاة والسلام من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه وقوله عليه الصلاة والسلام كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وغير ذلك مما لا يحصى من الآيات والأحاديث وتخصيصهما بتلك الأوقات للدلالة على أن ما يحدث فيها من آيات قدرته وأحكام رحمته ونعمته شواهد ناطقة بتزده تعالى واستحقاقه الحمد وموجبة لتسبيحه وتحميده حتما وقوله تعالى وعشيا عطف على حين تمسون وتقديمه على حين تظهرون لمراعاة القواصل

وتعير الأسلوب لما أنه لا يجيء منه الفعل بمعنى الدخول في العشى كالمساء والصباح والظهيرة ولعل السر في ذلك أنه ليس من الأوقات التي تختلف فيها أحوال الناس وتتغير تغيراً ظاهراً مصححاً لو صفهم بالخروج عما قبلها والدخول فيها كالأوقات المذكورة فإن كلا منها وقت تتغير فيه الأحوال تغيراً ظاهراً أما في المساء والصباح فظاهر وأما في الظهيرة فلأنها وقت يعتاد فيه التجرد عن الثياب للقبولة كما مر في سورة النور وقيل المراد بالتسبيح والحمد الصلاة لاشتغالها عليهما وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية جامعة للصلوات الخمس تمسون صلاتا المغرب والعشاء وتصبحون صلاة الفجر وعشيا صلاة العصر وتظرون صلاة الظهر ولذلك ذهب الحسن إلى أنها مدنية إذ كان يقول إن الواجب بمكة ركعتان في أى وقت اتفقنا وإنما فرضت الخمس بالمدينة والجهور على أنها فرضت بمكة وهو الحق لحديث المعراج وفي آخره من خمس صلوات كل يوم وليلة . عن النبي صلى الله عليه وسلم من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل فسيبعمان الله حين تمسون وحين تصبحون الآية وعنه عليه الصلاة والسلام . من قال حين يصبح فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون إلى قوله تعالى وكذلك تخرجون أدرك ما فاتته في يومه ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاتته في ليلته وقرىء : حيناً تمسون وحيناً تصبحون أى تمسون فيه وتصبحون فيه ( يخرج الحي من الميت ) كالإنسان من النطفة والطير من البيضة .

( ويخرج الميت من الحى ) النطفة والبيضة من الحيوان ( ويحيى الأرض ) بالنبات ( بعد موتها ) يبسها ( وكذلك ) ومثل ذلك الإخراج ( تخرجون ) من قبوركم وقرىء تخرجون بفتح التاء وضم الراء وهذا نوع تفصيل لقوله تعالى الله يبدأ الخلق ثم يعيده ( ومن آياته ) الباهرة الدالة على أنكم تبعثون دلالة أوضح مما سبق فإن دلالة بدء خلقهم على إعادتهم أظهر من دلالة إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى ومن دلالة إحياء الأرض بعد موتها عليها ( أن خلقكم ) أى فى ضمن خلق آدم عليه السلام لما مر مراراً من أن خلقه عليه الصلاة والسلام منهطوعاً على خلق ذرياته انطواءً إجمالاً ( من تراب )

لم يشم رائحة الحياة قط ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه في ذاتكم وصفاتكم ﴿ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ أى فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشرا تنتشرون في الأرض وهذا يحمل ما فصل فى قوله تعالى (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة) الآية ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على ما ذكر من البعث وما بعده من الجزاء ﴿ أن خلق لكم ﴾ أى لأجلكم ﴿ من أنفسكم أزواجا ﴾ فإن خلق أصل أزواجكم حواء من ضلع آدم عليه السلام متضمن لخلقهن من أنفسكم على ما عرفته من التحقيق أو من جنسكم لا من جنس آجر وهو الأوفق لقوله تعالى ﴿ لتسكنوا إليها ﴾ أى أنالفوها وتميلوا إليها وتطمثوا بها فإن المجانسة من دواعى التضام والتعارف كما أن المخالفة من أسباب التفرق والتنافر .

﴿ وجعل بينكم ﴾ أى بين الأزواج إما على تغليب الرجال على النساء فى الخطاب أو على حذف ظرف معطوف على الظرف المذكور أى جعل بينكم وبينهن كما مر فى قوله تعالى (لا تفرق بين أحد من رسله) وقيل أو بين أفراد الجنس أى بين الرجال والنساء ويأباه قوله تعالى ﴿ مودة ورحمة ﴾ فإن المراد بهما ما كان منهما بمصمة الزواج قطعا أى جعل بينكم بالزواج الذى شرعه لكم توادا وتراحما من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة ولا رابطة مصححة للتعاطف من قرابة أو رحم قيل المودة والرحمة من قبل الله تعالى والفرك من الشيطان وعن الحسن رحمه الله المودة كناية عن الجماع ، والرحمة عن الولد كما قال تعالى ورحمة منا ﴿ (إن فى ذلك) ﴾ أى فيما ذكر من خلقهم من تراب وخلق أزواجهم من أنفسهم وإلقاء المودة والرحمة بينهم وما فيه من معنى البعد مع قرب المهد بالشار إليه للإشعار ببعد منزلته ﴿ (آيات) ﴾ عظيمة لا يكتسبها كثرة لا يقادر قدرها ﴿ (لقوم يتفكرون) ﴾ فى تضاعيف تلك الأفاعيل المبنية على الحكم البالغة والجملة تنزيل مقرر لمضمون ما قبله مع التنبية على أن ما ذكر ليس بآية فذة كما يذى عنه قوله تعالى ومن آياته بل هى مشتملة على آيات شتى .

﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على ما ذكر من أمر البعث وما يتلوه من الجزاء  
﴿ خلق السموات والأرض ﴾ إما من حيث أن القادر على خلقهما بما فيهما  
من المخلوقات بلا مادة مستعدة لها أظهر قدرة على إحادة ما كان حيا قبل ذلك  
وإما من حيث أن خلقهما وما فيهما ليس إلا لمعاش البشر ومعاذه كما يفصح عنه  
قوله تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا) وقوله تعالى (وهو الذى خلق  
السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا)  
﴿ واختلاف ألسنتكم ﴾ أى لغاتكم بأن علم كل صنف لغته وألهمه وضعها  
وأقدره عليها أو أجناس نطفكم وأشكاله فإنك لا تكاد تسمع منطقتين متساويتين  
فى الكيفية من كل وجه ﴿ وألوانكم ﴾ ببياض الجلد وسواده وتوسطه فيما  
بينهما أو تخطيطات الأعضاء وهيئاتها وألوانها وحلاها بحيث وقع بها التمايز بين  
الأشخاص حتى أن التوأمين مع توافق موادهما وأسبابهما والأمور المتلاقية  
لهما فى التخليق يختلفان فى شيء من ذلك لا محالة وإن كافا فى غاية التشابه وإنما  
نظم هذا فى سلك الآيات الآفاقية من خلق السموات والأرض مع كونه من  
الآيات الأنفسية الحقيقية بالانتظام فى سلك ما سبق من خلق أنفسهم وأزواجهم  
للايذان باستقلاله والاحتراز عن توهم كونه من تتمات خلقهم ﴿ ان فى ذلك ﴾  
أى فيما ذكر من خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان  
﴿ آيات ﴾ عظيمة فى أنفسها كثيرة فى عددها ﴿ للعالمين ﴾ أى المتصفين بالعلم  
كما فى قوله تعالى (وما يعقلها إلا العالمون) وقرىء بفتح اللام وفيه دلالة على كمال  
ومضوح الآيات وعدم خفائها على أحد من الخلق كافة ﴿ ومن آياته منامكم  
بالليل والنهار ﴾ لاستراحة القوى النفسانية وتقوى القوى الطبيعية ﴿ وابتغواكم  
من فضله ﴾ فيهما فإن كلا من المنام وابتغاء الفضل يقع فى الملوك وإن كان  
الأغلب وقوع الأول فى الأول والثانى فى الثانى أو منامكم بالليل وابتغواكم  
بالنهار كما هو المعتاد والموافق لسائر الآيات الواردة فى ذلك خلا أنه فصل  
بين القرنيين الأولين بالقرنيين الأخيرين لأنهما زمان والزمان مع ما وقع  
فيه كشيء واحد مع إعانة اللف على الاتحاد (إن فى ذلك آيات لقوم يسمعون)

أى شأنهم أن يسمعون الكلام سماع تفهم واستبصار حيث يتأملون في تضاعيف هذا البيان ويستدلون بذلك على شئونه تعالى ﴿ ومن آياته يريكم البرق ﴾ الفعل إما مقدر بأن كما في قول من قال :

« ألا أي هذا الزاجرى أحضر الوغى » أى أن أحضر أو منزل منزلة المصدر وبه فسر المثل المشهور تسمع بالمعدي خير من أن تراه أو هو على حاله صفة لمحذوف أى آية يريكم بها البرق كقول من قال :

وما الدهر إلا تارتان فمنها أموت وأخرى أبتغى العيش أكدح  
أى فمنها تارة أموت فيها وأخرى أبتغى فيها أو ومن آياته شيء أو سحاب يريكم البرق ﴿ خوفا ﴾ من الصاعقة أو للمسافر ﴿ وطمعا ﴾ في الغيث أو للمقيم ونصهما على العلة لفعل يستلزمه المذكور فإن إراءتهم البرق مستلزمة لرؤيتهم إياه أو للمذكور نفسه على تقدير مضاف نحو إراءة خوف وطمع أو على تأويل الخوف والطمع بالإخافة والاطماع كقولك فعلته رغما للشيطان أو على الحال نحو كلبته شفاها .

﴿ وينزل من السماء ماء ﴾ وقرئ بالتخفيف ﴿ فيحيي به الأرض ﴾ بالنبات ﴿ بعد موتها ﴾ يبسها ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ فإنها من الظهور بحيث يكفي في إدراكها مجرد العقل عند استعماله في استنباط أسبابها وكيفية تكونها ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ أى بإرادته تعالى لقيامهما والتعبير عنها بالآمر للدلالة على كمال القدرة والغنى عن المبادئ والأسباب وليس المراد بإقامتهما إنشاءهما لأنه قد بين حاله بقوله تعالى ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض ﴾ ولا إقامتهما بغير مقيم محسوس كما قيل فإن ذلك من تمام إنشاءهما وإن لم يصرح به تعويلا على ما ذكر في غير موضع من قوله تعالى ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها ﴾ الآية بل قيامهما واستمرارهما على ما هما عليه إلى أجلهما الذى نطق به قوله تعالى فيما قبل ﴿ ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ﴾ وحيث كانت هذه الآية متأخرة عن سائر الآيات المعدودة متصلة بالبعث في الوجود أخرت عنهن وجعلت متصلة به في



الذكر أيضا ف قيل ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ فانه كلام مسوق للاخبار بوقوع البعث ووجوده بعد انقضاء أجل قيامهما مترتب على تعداد آياته الدالة عليه غير منتظم في سلكها كما قيل كانه قيل ومن آياته قيام السموات والأرض على هيئتهما بأمره تعالى إلى أجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما ثم إذا دعاكم أى بعد انقضاء الأجل من الأرض وأنتم في قبوركم دعوة واحدة بأن قال أيها الموتى اخرجوا فاجأتهم الخروج منها وذلك قوله تعالى (يومئذ يتبعون الداعي) ومن الأرض متعلق بدعاكم إذ يكفي في ذلك كون المدعو فيها يقال دعوته من أسفل الوادى فطلع إلى لا تخرجون لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها .

﴿ وله ﴾ خاصة ﴿ من في السموات والأرض ﴾ من الملائكة والفقليين خلقا وملكا وتصرفا ليس لغيره شركة في ذلك بوجه من الوجوه ﴿ كل له قانتون ﴾ أى متقادون لفعله لا يمتنعون عليه في شأن من شئونه تعالى ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ بعد موتهم وتكريره لزيادة التقرير والتهديد لما بعده من قوله تعالى ﴿ وهو أهون عليه ﴾ أى بالإضافة إلى قدركم والقياس على أصولكم وإلا فهما عليه سواء وقيل أهون بمعنى هين وتذكير الضمير مع رجوعه إلى الإعادة لما أنها مؤولة بأن يعيد وقيل هو راجع إلى الخلق وليس بذلك وأما ما قيل من أن الإنشاء بطريق التفضل الذى يتخير فيه الفاعل بين الفعل والترك والإعادة من قبيل الواجب الذى لا بد من فعله حتما فكان أقرب إلى الحصول من الإنشاء المتردد بين الحصول وعدمه فبمعزل من التحصيل إذ ليس المراد بأهوية الفعل أقربيته إلى الوجود باعتبار كثرة الأمور الداعية للفاعل إلى إيجاد وقوة اقتضائها لتعلق قدرته به بل أسهلية تأتبه وصدوره عنه بعد تعلق قدرته بوجوده وكونه واجبا بالغير ولا تفاوت في ذلك بين أن يكون ذلك التعلق بطريق الإيجاب أو بطريق الاختيار ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ أى الوصف الأعلى العجيب الشأن من القدرة العامة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال التى ليس لغيره ما يدانها فضلا عما يساويها ومن فسره بقوله لا إله إلا الله أراد به الوصف بالوحدانية ﴿ من في السموات والأرض ﴾ متعلق بمضمون الجملة المتقدمة على معنى أنه تعالى

قد وصف به وعرف فيهما على السنة الخلاق والسنة الدلائل وقيل متعلق بالأعلى وقيل بمحذوف هو حال منه أو من المثل أو من ضميره في الأعلى (وهو العزيز) القادر الذي لا يعجز عن بدء ممكن وإعادته (الحكيم) الذي يجرى الأفعال على سنن الحكمة والمصلحة .

(ضرب لكم مثلا) يبين به بطلان الشرك (من أنفسكم) أى منزعا من أحوالها التى هى أقرب الأمور إليكم وأعرفها عنكم وأظهرها دلالة على ما ذكر من بطلان الشرك لكونها بطريق الأولوية وقوله تعالى (هل لكم) الخ تصوير للمثل أى هل لكم (بما ملكث أيمانكم) من العبيد والاماء (من شركاء فيما رزقناكم) من الأموال وما يجرى مجراها مما تصرفون فيها فن الأولى ابتدائية والثانية تبعيضية والثالثة مزيدة لتأكيد النفي المستفاد من الاستفهام .

فقوله تعالى (فأنتم فيه سواء) تحقيق لمعنى الشركة وبيان لكونهم وشركائهم متساوين فى التصرف فيما ذكر من غير مزية لهم عليها على أن هناك محذوفا معطوفا على أنتم لا أنه عام للفريقين بطريق التغليب أى هل ترضون لأنفسكم والحال أن عبيدكم أمثالكُم فى البشرية وأحكامها أن يشاركوكم فيما رزقناكم وهو مستعار لكم فأنتم وهم فيه سواء شرع يتصرفون فيه كتصرفكم من غير فرق بينكم وبينهم .

(تخافونهم) خبر آخر لأنتم أو حال من ضمير الفاعل فى سواء أى تهابون أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم (كنيفتكم أنفسكم) أى خيفة كائنة مثل خيفتكم من الأحرار المساهمين لكم فيما ذكر والمعنى نفى مضمون ما فصل من الجملة الاستفهامية أى لا ترضون بأن يشارككم فيما هو معار لكم مما ليحكمهم وهم أمثالكُم فى البشرية غير مخلوقين لكم بل لله تعالى فكيف تشركون به سبحانه فى المعبودية التى هى من خصائصه الذاتية مخلوقه بل مصنوع مخلوقه حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه :

﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك التفصيل الواضح ﴿ تفصل الآيات ﴾ أى ندينها ونوضحها لا تفصيلاً أدنى منه فإن التمثيل تصوير للبعانى المعقولة بصورة المحسوس وإبراز لأوايد المدركات على هيئة المأنوس في غاية الإيضاح والبيان ﴿ لقوم يعقلون ﴾ أى يسيعلولون عقولهم فى تدبر الأمور ونخصيصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكل لأنهم المتنفعون بها ﴿ بل اتبع الذين ظلموا ﴾ لإعراض عن مخاطبتهم ومحاولة إرشادهم إلى الحق بضرب المثل وتفصيل الآيات واستعمال المقدمات الحقمة المعقولة وبيان لاستحالة تبعيتهم للحق كأنه قبل لم يعقلوا شيئاً من الآيات المفصلة بل اتبعوا ﴿ أهواهم ﴾ الزائغة ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بأنهم فى ذلك الاتباع ظالمون واضعون للشيء فى غير موضعه أو ظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد ﴿ بغير علم ﴾ أى جاهلين بيطلان ما أتوا مكبين عليه لا يلويهم عنه صارف حسبما يصرف العالم إذا اتبع الباطل علمه ببطلانه ﴿ فن يهدى من أضل الله ﴾ أى خلق فيه الضلال بصرف اختياره إلى كسبه أى لا يقدر على هدايته أحد ﴿ وما لهم ﴾ أى لمن أضله الله تعالى والجمع باعتبار المعنى ﴿ من ناصرين ﴾ يخلصونهم من الضلال ويحفظونهم من تبعائه وآفاته على معنى ليس لواحد منهم ناصر واحد على ما هو قاعدة مقابلة الجمع بالجمع ﴿ فأقم وجهك للدين ﴾ تمثيل لإقباله على الدين واستقامته وثباته عليه واهتمامه بترتيب أسبابه فإن من اهتم بشئ محسوس بالبصر عقد عليه طرفه وسدد إليه نظره وقوم له وجهه مقبلاً به عليه أى فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت يميناً وشمالاً وقوله تعالى ﴿ حنيفاً ﴾ حال من المأمور أو من الدين ﴿ فطرة الله ﴾ الفطرة الخلقة وانتصابها على الإغراء أى الزموا أو عليكم فطرة الله فإن الخطاب للكل كما يفصح عنه قوله تعالى منيبين والإفراد فى أقم لما أن الرسول عليه الصلاة والسلام إمام الأمة فأمره عليه السلام مستتبع لأمرهم والمراد بلزومها الجريان على موجبها وعدم الإخلال به باتباع الهوى وتسويل الشياطين وقيل على المصدر أى فطر الله فطرة وقوله تعالى ﴿ الذى فطر الناس عليها ﴾ صفة لفطرة الله مؤكدة لوجوب الامتثال بالأمر فإن خلق الله الناس

على فطرته التي هي عبارة عن قبولهم للحق وتمسكهم من إدراكه أو عن ملته الإسلام من موجبات لزومها والتسك بها قطعاً فإنهم لو خلوا وما خلقوا عليه أدى بهم إليها وما اختاروا عليها ديناً آخر ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن ومنه قوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن رب العزة كل عبادة خلقت حنفاء فاجتالهم الشياطين عن دينهم وأمرهم أن يشركوا بي غيري وقوله عليه الصلاة والسلام كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه وقوله تعالى ﴿لا تبدل الخلق الله﴾ تعليل للأمر بلزوم فطرته تعالى أو لوجوب الامتثال به أي لا صحة ولا استقامة لتبديله بالإخلال بموجبه وعدم ترتيب مقتضاه عليه باتباع الهوى وقبول وسوسة الشيطان وقيل لا يقدر أحد على أن يغيره فلا بد حينئذ من حمل التبديل على تبديل نفس الفطرة بإزالتها رأساً ووضع فطرة أخرى مكانها غير مصححة لقبول الحق والتمسك من إدراكه ضرورة أن التبديل بالمعنى الأول مقدور بل واقع قطعاً فالتعليل حينئذ من جهة أن سلامة الفطرة متحققة في كل أحد فلا بد من لزومها بترتيب مقتضاها عليها وعدم الإخلال به بما ذكر من اتباع الهوى وخطوات الشيطان ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الدين المأمور بإقامته الوجه له أو إلى لزوم فطرة الله المستفاد من الإغراء أو إلى الفطرة إن فسرت بالملة والتذكير بتأويل المذكور أو باعتبار الخبر ﴿الدين القيم﴾ المستوى الذي لا عوج فيه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعملون﴾ ذلك فيصدون عنه صدوداً ﴿منيبين إليه﴾ حال من الضمير في الناصب المقدر لفطرة الله أو في أقم لعمومه للأمة حسباً أشير إليه وما بينهما اعتراض أي راجعين إليه من أناب إذا رجع مرة بعد أخرى وقوله تعالى ﴿واتقوه﴾ أي من مخالفة أمره عطف على المقدر المذكور وكذا قوله تعالى:

﴿واقموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين﴾ المبدلين لفطرة الله تعالى تبديلاً ﴿من الذين فرقوا دينهم﴾ بدل من المشركين بإعادة الجار وتفريقهم لدينهم اختلافهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم وفائدة الإبدال التحذير عن الانتماء إلى حزب من أحزاب المشركين ببيان أن الكل على الضلال المبين

وقرىء فارقوا أى تركوا دينهم الذى أمروا به ﴿ وكانوا شيعة ﴾ أى فرقاً تشايح كل منها لإمامها الذى أضلها ﴿ كل حزب بما لديهم ﴾ من الدين المعوج المؤسس على رأى الزائع والزعيم الباطل ﴿ فرحون ﴾ مسرورون فلنا منهم أنه حق وأنى له ذلك فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من تفريق دينهم وكونهم شيعة وقد جوز أن أن يكون فرحون صفة لكل على أن الخبر هو الظرف المقدم أعنى من الذين فرقوا ولا يخفى بعده ﴿ وإذا مس الناس ضر ﴾ أى شدة ﴿ دعوا ربهم منيبين إليه ﴾ راجعين إليه من دعاء غيره ﴿ ثم إذا أذاقهم منه رحمة ﴾ خلاصاً من تلك الشدة ﴿ إذا فريق منهم بر بهم ﴾ الذى كانوا دعوه منيبين إليه ﴿ يشركون ﴾ أى فاجأ فريق منهم الإشراف وتخصيص هذا الفعل ببعضهم لما أن بعضهم ليسوا كذلك كما فى قوله تعالى ﴿ فلما نجاهم إلى البر ففهم مقتصد ﴾ أى مقيم على الطريق القصد أو متوسط فى الكفر لانزجاره فى الجملة ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ اللام فيه للمعاقبة وقيل للأمر التهديدى كقوله تعالى ﴿ فتمتعوا ﴾ غير أنه التمتع فيه للمبالغة وقرىء وليتمتعوا ﴿ فسوف تعلمون ﴾ عاقبة تتمتعكم وقرىء بالياء على أن تتمتعوا ماض والالتفات إلى الغيبة فى قوله تعالى ﴿ أم أنزلنا عليهم ﴾ للإيذان بالإعراض عنهم وتعدد جنائياتهم لغيرهم بطريق المبالغة ﴿ سلطاناً ﴾ أى حجة واضحة وقيل ذا سلطان أى ملصكاً معه برهان ﴿ فهو يتكلم ﴾ تكلم دلالة كما فى قوله تعالى ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ أو تكلم نطق ﴿ بما كانوا به يشركون ﴾ ياشراهم به تعالى أو بالأمر الذى بسببه يشركون ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة ﴾ أى نعمة من صحة وسعة ﴿ فرحوا بها ﴾ بطراً وأشراً لا حمداً وشكراً .

﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ شدة ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ بشؤم معاصيهم ﴿ إذا هم يفتنون ﴾ فاجؤا القنوط من رحمته تعالى وقرىء بكسر النون ﴿ أو لم يروا ﴾ أى ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿ أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ فإلهم لم يشكروا ولم يحتسبوا فى السراء والضراء كالمؤمنين ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ فيستدلون بها على كمال القدرة والحكمة ﴿ فأت ذا القرنى

حقه ﴿ من الصلة والصدقة وسائر المبرات ﴾ والمسكين وابن السبيل ﴿ ما يستحقانه والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام أو لمن بسط له كما تؤذن به القاء ﴾ ذلك خير للذين يريدون وجه الله ﴿ ذاته أو جهته ويقصدون بمعرفهم إياه تعالى خالصا أو جهة التقرب إليه لا جهة أخرى ﴾ وأولئك هم المفلحون ﴿ حيث حصلوا بما بسط لهم النعيم المقيم ﴾ وما آتيتم من ربا ﴿ زيادة خالية عن الموض عند المعاملة وقرىء آتيتم بالقصر أى غشيتموه أو رهنتموه من إعطاء ربا ﴾ ليربو في أموال الناس ﴿ ليزيد ويزكو في أموالهم ﴾ فلا يربو عند الله ﴿ أى لا يبارك فيه وقرىء لتربوا أى لتزيدوا أو لتصيروا ذوى ربا ﴾ وما آتيتم من زكوة تريدون وجه الله ﴿ أى تبتغون به وجهه تعالى خالصا ﴾ فأولئك هم المضعفون ﴿ أى ذوو الأضعاف من الثواب ونظير المضعف المقوى والموسر لذى القوة واليسار أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم بالبركة وقرىء بفتح العين وفى تغيير النظم الكريم والالتفات من الجزالة ما لا يخفى ﴾ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ﴿ أثبت له تعالى لوازم الألوهية وخواصها ونفاها رأسا عما اتخذوه شركاء له تعالى من الأصنام وغيرها مؤكدا بالإنكار على ما دل عليه البرهان والبيان ووقع عليه الوفاق ثم استنتج منه تنزهه عن الشركاء بقوله تعالى ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ وقد جوز أن يكون الموصول صفة والخبر هل من شركائكم والرباط قوله تعالى من ذلكم لأنه بمعنى من أفعاله ومن الأولى والثانية تفيدان شيوع الحكم فى جنس الشركاء والأفعال والثالثة مزيدة لتعميم المنفى وكل منها مستقلة بالتأكيد وقرىء تشركون بصيغة الخطاب ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر ﴾ كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الغاصة وبحق البركات وكثرة المضار أو الضلالة والظلم وقيل المراد بالبحر قرى السواحل وقرى البحور ﴿ بما كسبت أيدي الناس ﴾ بشؤم معاصيهم أو بكسبهم إياها وقيل ظهر الفساد فى البر بقتل قابيل أخاه هابيل وفى البحر بأن جلندى كان يأخذ كل سفينة غصبا ﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ أى بعض جزائه فإن تمامه فى الآخرة واللام

للعلة أو للعاقبة وقرىء لنذيقهم بالنون ﴿لعلهم يرجعون﴾ عما كانوا عليه ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾ ليشاهدوا آثارهم ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ استئناف للدلالة على أن ما أصابهم لفشو الشرك فيما بينهم أو كان الشرك في أكثرهم وما دونه من المعاصي في قليل منهم ﴿فانم وجهك للدين القيم﴾ أي البليغ الاستقامة ﴿من قبل رب يأتي يوم لا مرد له﴾ لا يقدر أحد على رده ﴿من الله﴾ متعلق بيأتي أو بمرد لأنه مصدر والمعنى لا يرد الله تعالى لتعلق إرادته القديمة بمجيئه ﴿يومئذ يصدعون﴾ أصله يتصدعون أي يتفرون فريق في الجنة وفريق في السعير .

﴿من كفر فعليه كفره﴾ أي وبال كفره وهو النار المؤبدة ﴿ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمدون﴾ أي يسوون منزلا في الجنة وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله﴾ متعلق بيمصدعون وقيل يمدون أي يتفرون بتفريق الله تعالى فريقين ليجزى كلا منهما بحسب أعمالهم وحيث كان جزاء المؤمنين هو المقصود بالذات أبرز ذلك في معرض الغاية وعبر عنه بالفضل لما أن الإثابة بطريق التفضل لا الوجوب . وأشير إلى جزاء الفريق الآخر بقوله تعالى ﴿لأنه لا يحب الكافرين﴾ فإن عدم محبته تعالى كناية عن بغضه الموجب لغضبه المستتبع للعقوبة لا محالة ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح﴾ أي الشمال والصبأ والجنوب فإنها رياح الرحمة وأما الدبور فريخ العذاب ومنه قوله عليه الصلاة والسلام اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا وقرىء الريح على إرادة الجنس ﴿مبشرات﴾ بالمطر ﴿وليذيقكم من رحمته﴾ وهي المنافع التابعة لها وقيل الخصب التابع لنزول المطر المصعب عنها أو الروح الذي هو مع هبوبها واللام متعلقة بيرسل والجملة معطوفة على مبشرات على المعنى كأنه قيل ليشركن بها وليذيقكم أو بمحذوف يفهم من ذكر الإرسال تقديره وليذيقكم وليكون كذا وكذا يرسلها لا لأمر آخر لا تعلق له بمنافعكم ﴿ولتجرى الفلك﴾ بسوقها ﴿بأمره ولتبتغوا من فضله﴾ بتجارة البحر ﴿ولعابكم تشكرون﴾ ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر من الغايات الجليلة .

﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم ﴾ كما أرسلناك إلى قومك ﴿ لجاؤهم بالبينات ﴾ أى جاء كل رسول قومه بما يخصه من البينات كما جئت قومك بيناتك والفاء فى قوله تعالى ﴿ فانتقمنا من الذين أجرموا ﴾ فصيحة أى فكذبوهم فانتقمنا منهم وإنما وضع موضع ضميرهم الموصول للتنبيه على مكان المحذوف والإشعار بكونه علة للانتقام وفى قوله تعالى ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ مزيد تشرىف وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على الله تعالى أن ينصرهم وإشعار بأن الانتقام من الكفرة لأجله وقد يوقف على حقاً على أنه متعلق بالانتقام ولعل توسط الآية الكريمة بطريق الاعتراض بين ما سبق وما لحق من أحوال الرياح وأحكامها لإنباز الكفرة وتحذيرهم عن الإخلال بمواجب الشكر المطلوب بقوله تعالى لعلمكم تشكرون بمقابلة النعم المعدودة المنوطة بإرسالها كيلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك الأمم من الانتقام ﴿ الله الذى يرسل الرياح ﴾ استئناف مسوق لبيان ما أجمل فيما سبق من أحوال الرياح ﴿ فتثير سحابا فيبسطه ﴾ متصلا تارة ﴿ فى السماء ﴾ فى جوها ﴿ كيف يشاء ﴾ سائرا وواقفا مطبقا وغير مطبق من جانب دون جانب إلى غير ذلك ﴿ ويجمعه كسفا ﴾ تارة أخرى أى قطعاً وقرىء بسكون السين على أنه مخفف جمع كسفة أو مصدر وصف به ﴿ فترى الودق ﴾ المطر ﴿ يخرج من خلاله ﴾ فى التارتين .

﴿ فإذا أصاب به من يشاء من عباده ﴾ أى بلادهم وأراضهم ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ فاجؤا الاستبشار بمجيء الخصب ﴿ وإن كانوا ﴾ إن مخففة من إن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف أى وإن الشأن كانوا ﴿ من قبل أن ينزل عليهم ﴾ أى المطر ﴿ من قبله ﴾ تكرير للتأكيد والإيذان بطول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم منه وقيل الضمير للمطر أو السحاب أو الإرسال وقيل للكسف على القراءة بالسكون وليس بواضح وأقرب من ذلك أن يكون الضمير للاستبشار ومن متعلقة ينزل لتفيد سرعة تقلب قلوبهم من اليأس إلى الاستبشار بالإشارة إلى غاية تقارب زمانهما ببيان اتصال اليأس بالتنزيل



المتصل بالاستيشار بشهادة إذا الفجائية ﴿لمبلسين﴾ خبر كانوا واللام فارقة  
 أى آيسين ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله﴾ المترتبة على تنزيل المطر من الثبات  
 والأشجار وأنواع الثمار والفاء للدلالة على سرعة ترتبها عليه وقرىء أثر بالتوحيد  
 وقوله تعالى ﴿كيف يحيي﴾ أى الله تعالى ﴿الأرض بعد موتها﴾ فى حيز  
 النصب بنزع الخافض وكيف معلق لانظر أى فانظر إلى إحيائه البديع للأرض  
 بعد موتها وقيل على الحالية بالتأويل وأيا ما كان فالمراد بالأمر بالنظر التنبية على  
 عظم قدرته تعالى وسعة رحمته مع ما فيه من التهديد لما يعقبه من أمر البعث  
 وقرىء يحيى بالتأنيث على الإسناد إلى ضمير الرحمة ﴿إن ذلك﴾ العظيم الشأن  
 الذى ذكر بعض شئونه ﴿لحى الموتى﴾ لقادر على إحيائهم فإنه لإحداث لمثل  
 ما كان فى مواد أبدانهم من القوى الحيوانية كما أن إحياء الأرض لإحداث لمثل  
 ما كان فيها من القوى النباتية أو لمحييهم البتة وقوله تعالى ﴿وهو على كل شىء  
 قدير﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله أى مبالغ فى القدرة على جميع الأشياء التى  
 من جملتها إحيائهم لما أن نسبة قدرته إلى الكل سواء .

﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه﴾ أى الأثر المدلول عليه بالآثار فإنه أهم  
 جنس يعم القليل والكثير ﴿مصفراً﴾ بعد خضرته وقد جوز أن يكون الضمير  
 للسحاب لأنه إذا كان مصفراً لم يمطر ولا يخفى بعده واللام فى لئن موصلة للقسم  
 دخلت على حرف الشرط والفاء فى فرأوه نصيحة واللام فى قوله تعالى ﴿لظلوا﴾  
 لام جواب القسم السامسد الجوابين أى وبالله لئن أرسلنا ريحاً حارة أو باردة  
 فضربت زرعهم بالصفار فرأوه مصفراً ليظنن ﴿من بعده يكفرون﴾ من غير  
 تعلم وفيه من ذمهم بعد تثبتهم وسرعة تزلزلهم بين طر فى الإفراط والتفريط  
 ما لا يخفى حيث كان الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله تعالى فى كل حال  
 ويلجؤا إليه بالاستغفار إذا احتسب عنهم القطر ولا يياسوا من روح الله تعالى  
 ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم برحمته ولا يفرطوا فى الاستبشار  
 وأنى يصبروا على بلاته إذا اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه فمكسوا  
 الأمر بأبواب ما يجديهم وأنوا بما يرديم ﴿فإنك لا تسمع الموتى﴾ لما أنهم

مثلهم لانسداد مشاعرهم عن الحق ﴿ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾  
تقييد الحكم بما ذكر لبيان كمال سوء حال الكفرة والتنبيه على أنهم جامعون  
لخصلى السوء نبو أسماعهم عن الحق وإعراضهم عن الإصغاء إليه ولو كان فيهم  
إحداهما لكفاهم ذلك فكيف وقد جموعهما فإن الأصم المقبل إلى المتكلم ربما  
يفطن من أوضاعه وحركاته لشيء من كلامه وإن لم يسمعه أصلا وأما إذا كان  
معرضا عنه فلا يكاد يفهم منه شيئا وقرىء بالياء المفتوحة ورفع الصم ﴿وما أنت  
بهادى العمى عن ضلالتهم﴾ سموا عميا إما لفقدهم المقصود الحقيقي من الإبصار  
أو لعمى قلوبهم وقرىء تهدى العمى ﴿إن تسمع﴾ أى ما تسمع ﴿إلا من  
يؤمن بآياتنا﴾ فإن إيمانهم يدعوهم إلى التدبر فيها وتلقيها بالقبول أو إلا من  
يشارف الإيمان بها ويقبل عليها إقبالا لا نقا ﴿فهم مسلمون﴾ منقادون لما تأمرهم  
به من الحق ﴿الله الذى خلقكم من ضعف﴾ مبتدأ وخبر أى ابتداءكم ضعفاء  
وجعل الضعف أساس أمركم كقوله تعالى (وخلق الإنسان ضعيفا) أى خلقكم من  
أصل ضعيف هو النطفة ﴿ثم جعل من بعد ضعف قوة﴾ وذلك عند بلوغكم  
الحلم أو تعلق الروح بأبدانكم ﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة﴾ إذا أخذ  
منكم السن وقرىء بضم الضاد فى الكل وهو أقوى لقول ابن عمر رضى الله  
عنهما قرأنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقرأنى من ضعف وهما لغتان  
كالفقر والفقر والتسكير مع التكرير لأن المتقدم غير المتأخر ﴿يخلق ما يشاء﴾  
من الأشياء التى من جملتها ما ذكر من الضعف والقوة والشيبة ﴿وهو العليم  
القدير﴾ المبالغ فى العلم والقدرة فإن التردد فيما ذكر من الأطوار المختلفة من  
أوضح دلائل العلم والقدرة ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ أى القيامة سميت بها لأنها  
تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا أولأنها تقع بغتة وصارت علما لها كالنجم  
للثريا والكوكب للزهرة ﴿يقسم المجرمون ما لبثوا﴾ أى فى القبور أو فى  
الدنيا والأول هو الأظهر لأن لبثهم مغيا يوم البعث كما سيأتى وليس لبثهم  
فى الدنيا كذلك وقيل فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم وفى الحديث  
ما بين فناء الدنيا والبعث أربعون وهو محتمل للساعات والأيام والأعوام وقيل  
(٢٤٤) — أبو السعود — وآبهم

لا يعلم أهي أربعون سنة أو أربعون ألف سنة ﴿ غير ساعة ﴾ استقلوا مدة لبثهم نسيانا أو كذبا أو تخميناً ﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾ مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون في الدنيا عن الحق والصدق .

﴿ وقال الذين أتوا العلم والإيمان ﴾ في الدنيا من الملائكة والإنس ﴿ لقد لبثتم في كتاب الله ﴾ في علمه أو قضائه أو ما كتبه وعينه أو في اللوح أو القرآن وهو قوله تعالى ﴿ ومن ورائهم برزخ ﴾ ﴿ إلى يوم البعث ﴾ ردوا بذلك ما قالوه وأيدوه باليمين كأنهم من فرط حيرتهم لم يدروا أن ذلك هو البعث الموعود الذي كانوا ينكرونه وكانوا يسمعون أنه يكون بعد فناء الخلق كافة ويقدرّون لذلك زماناً مديداً وإن لم يعتقدوا تحققه فرد العالمون مقالهم ونهههم على أنهم لبثوا إلى غاية بعيدة كانوا يسمعونها ويشكرونها وبكتوم بالإخبار بوقوعها حيث قالوا ﴿ فهذا يوم البعث ﴾ الذي كنتم توعدون في الدنيا ﴿ ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ أنه حق فليستعجلون به استهزاء وإلقاء جواب شرط محذوف كما في قول من قال :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا ﴿ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ أي عذرهم وقرىء تنفع بالناء محافظة على ظاهر اللفظ وإن توسط بينهما فاصل ﴿ ولا هم يستعجبون ﴾ لا يدعون إلى ما يقتضى لعتابهم أي إزالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا إليه في الدنيا من قولهم استعبنى فلان فأعتبه أي استرضاني فأرضيته ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي وبالله لقد بينا لهم كل حال ووصفنا لهم كل صفة كأنها في غرايبها مثل وقصصنا عليهم كل قصة عجبية الشأن كقصص المبعوثين يوم القيامة وقصصهم وما يقولون وما يقال لهم ويفعل بهم من رد اعتذارهم ﴿ ولئن جئتهم بآية ﴾ من آيات القرآن الناطقة بأمثال ذلك ﴿ ليقولن الذين كفروا ﴾ لفرط عتوهم وعنادهم وقساوة قلوبهم غاطلين للنبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ﴿ إن أتمم إلا مبطلون ﴾ أي مزورون ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الطبع الظليغ ﴿ يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴾ لا يطلبون العلم

ولا يتحرون الحق بل يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها فإن  
الجهل الماركب يمنع إدراك الحق ويوجب تكذيب الحق .

( فاعبر ) على ما تشاهد منهم من الأقوال الباطلة والأفعال السيئة ( إن  
وعد الله حق ) وقد وعدك بالنصرة وإظهار الدين وإعلاء كلمة الحق ولا بد  
من إنجازه والوفاء به لا محالة ( ولا يستخفنك ) لا يحملنك على الخفة والقلق  
( الذين لا يوقنون ) بما تتلو عليهم من الآيات البينة بتسكينهم إياها وإيدائهم  
ملك بأباطيلهم التي من جعلتها قلوبهم إن أتم إلا مبطلون فإنهم شاكون ضالون  
ولا يستبعد منهم أمثال ذلك وقرئ بالنون المخففة وقرئ ولا يستحقنك من  
الاستحقاق أى لا يفتننك فيملكوك ويكونوا أحق بك من المؤمنين وأيا  
ما كان فظاهر النظم الكريم وإن كان نهياً للكفرة عن استخفافه عليه السلام  
عن التأثير من استخفافهم والافتنان بفتنتهم على طريق الكناية كما في قوله تعالى  
( ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ) .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورة الروم كان له من الأجر  
عشر حسنات بعدد كل ملك يسبح الله تعالى بين السماء والأرض وأدرك  
ما ضيع في يومه وليلته .

## ﴿سورة لقمان﴾

مكية ، وقيل ( إلا الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكاة )  
 فإن وجوبهما بالمدينة ، وهو ضعيف لأنه يناقش شرعتهما  
 بمكة ، وقيل إلا ثلاثاً من قوله ( ولو أن ما فى الأرض من شجرة  
 أقلام ) وهى أربع أو ثلاث وثلاثون آية

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الم تلك آيات الكتاب﴾ سلف بيانه فى نظائره ﴿الحكيم﴾ أى ذى  
 الحكمة لاشتراكه عليها أو هو وصف له بنعته تعالى أو أصله الحكيم منزله أوقائله  
 يذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعاً فاستكن فى الصفة  
 المشبهة وقيل الحكيم فعيل بمعنى مفعول كما قالوا أعقدت اللين فهو عقيد أى معقد  
 وهو قليل وقيل بمعنى فاعل ﴿هدى ورحمة﴾ بالنصب على الحالية من الآيات  
 والعمل فيها معنى الإشارة وقرنا بالرفع على أنهما خبران آخران لاسم  
 الإشارة أو لمبتدأ محذوف ﴿للمحسنين﴾ أى العاملين للحسنات فإن أريد بها  
 مشاهيرها المعهودة فى الدين فقوله تعالى ﴿الذين يقيمون الصلوة ويؤتون  
 الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ بيان لما عملوها من الحسنات على طريقة  
 قوله :

الآلمى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمع

وإن أريد بها جميع الحسنات فهو تخصيص لهذه الثلاث بالذكر من بين  
 سائر شعبها لإظهار فضلها وإنافتها على غيرها وتخصيص الوجه الأول بصورة  
 كون الموصول صفة للمحسنين والوجه الأخير بصورة كونه مبتدأ لما لا وجه له  
 ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ الفائزون بكل مطلوب  
 والناجون من كل مهروب لحيازتهم قطرى العلم والعمل وقد مر فيه من مقاله  
 فى مطلع سورة البقرة بما لا مزيد عليه .

(ومن الناس) محله الرفع على الابتداء باعتبار مضمونه أو بتقدير الموصوف ومن في قوله تعالى (من يشتري لهو الحديث) موصولة أو موصوفة محلها الرفع على الخبرية والمعنى وبعض الناس أو وبعض من الناس الذي يشتري أو يفريق يشتري على أن مناط الإفادة والمقصود بالأصالة هو اتصافهم بما في حيز الصلة أو الصفة لا كونهم ذوات أولئك المذكورين كما مر في قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) الآيات ولهو الحديث ما يلهى عما يعنى من المهمات كالأحاديث التي لا أصل لها والأساطير التي لا اعتداد بها والمضاحك وسائر ما لا خير فيه من فضول الكلام والإضافة بمعنى من التبيينية إن أريد بالحديث المنكر وبمعنى التبعية إن أريد به الأعم من ذلك وقيل نزلت الآية في النضر بن الحرث اشترى كتب الأماجم وكان يحدث بها قريشا ويقول إن كان محمد عليه الصلاة والسلام يحدثكم بحديث عاد وثمود فانا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار والأكاسرة وقيل كان يشتري القبان ويحملهن على معاشرة من أراد الإسلام ومنعه عنه (ليضل عن سبيل الله) أى دينه الحق الموصل إليه تعالى أو عن قراءة كتابه الهادى إليه تعالى وقرىء ليضل بفتح الياء أى ليثبت ويستمر على ضلاله أو ليزداد فيه (بغير علم) أى بحال ما يفتريه أو بالتجارة حيث استبدل الشر بالخير المحض (ويتخذها) بالنصب عطفا على يضل والضمير للسبيل فإنه مما يذكر ويؤثث وهو دين الإسلام أو القرآن أى ويتخذها (هزوا) مهزوا به وقرىء ويتخذها بالرفع عطفا على يشتري وقوله تعالى :

(أولئك) إشارة إلى من والجمع باعتبار معناها كما أن الأفراد في الفعلين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بذكر المشار إليه للإيذان ببعد منزلتهم في الشرارة أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الاشتراء للضلالات (لهم عذاب مبین) لما اتصفوا به من إهانتهم الحق بإيثار الباطل عليه وترغب الناس فيه (وإذا تتلى عليه) أى على المشتري أفرد الضمير فيه وفيما بعده كالضمائر الثلاثة الأولى باعتبار لفظية من بعد ما جمع فيما بينهما باعتبار معناها

(آياتنا) التي هي آيات الكتاب الحكيم وهدي ورحمة للحسنين (ولي) أعرض عنها غير معتد بها (مستكبرا) مبالغاً في التكبر (كان لم يسمعها) حال من ضمير ولي أو من ضمير مستكبرا والأصل كأنه لحذف ضمير الشأن وخففت المثقلة أي مشبها حاله حال من لم يسمعها وهو سامع وفيه رمز إلى أن من سمعها لا يتصور منه التولية والاستكبار لما فيها من الأمور الموجبة للإقبال عليها والخضوع لها على طريفة قول من قال :

• كأنك لم تجزع على ابن طريف •

(كان في أذنيه وقرا) حال من ضمير لم يسمعها أي مشبها حاله حال من في أذنيه ثقل مانع من السماع ويجوز أن يكونا استثناءين وقرىء في أذنيه بسكون الذال (فبشره بعذاب أليم) أي فأعلمه بأن العذاب المفرط في الإيلام لاحق به لا محالة وذكر البشارة للتهكم (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بيان لحال المؤمنين بآياته تعالى لإثبات بيان حال الكافرين بها أي الذين آمنوا بآياته تعالى وعملوا بموجبها (لهم) بمقابلة ما ذكر من إيمانهم وأعمالهم (جنات النعيم) أي نعيم جنات فمكس للمبالغة والجملة خبر أن والأحسن أن يجعل لهم هو الخبر لأن وجنات النعيم مرتفعاً به على الفاعلية وقوله تعالى (خالدين فيها) حال من الضمير في لهم أو من جنات النعيم لاشتراكه على ضميريهما والعامل ما يتعلق به اللام (وعد الله حقاً) مصدران مؤكدان الأول لنفسه والثاني لغيره لأن قوله تعالى لهم جنات النعيم في معنى وعدم الله جنات النعيم (وهو العزيز) الذي لا يقبله لينعمه من إنجاز وعده أو تحقيق وعيده (الحكيم) الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

(خلق السموات بغير عمد) الخ استئناف مسوق للاستشهاد بما فصل فيه على عزته تعالى التي هي كمال القدرة وحكمته التي هي كمال العلم وتمهيد قاعدة التوحيد وتقديره وإبطال أمر الإشراك وتبكيته أهله والعمد جمع عمد كاهب جمع إهاب وهو ما يعمد به أي يسند يقال عمدت الحائط إذا دعمته أي بغير دعامته على أن الجمع لتعدد السموات وقوله تعالى (ترونها) استئناف جيء به

للاستشهاد على ما ذكر من خلقه تعالى لها غير معمودة بمشاهدتهم لها كذلك  
أو صفة لعمد أى خلقها بغير عمد مرئية على أن التقيد للرمز إلى أنه تعالى عمدها  
بعمد لا ترونها هي عمد القنطرة (والتي في الأرض رواسي) بيان لصنعه البديع  
في قرار الأرض إثر بيان صنعه الحكيم في قرار السموات والأرض أى التي  
فيها جبالاتها (١) وقد مر ما فيه من الكلام في سورة الرعد (أن تميم بكم)  
كرامة أن تميم بكم فإن بساطة أجزائها تقتضى تبدل أحياها وأوضاعها لامتناع  
اختصاص كل منها لذاته أو لشيء من لوازمه بحيز معين ووضع مخصوص (وبث  
فيها من كل دابة) من كل نوع من أنواعها (وأزلنا من السماء ماء) هو  
المطر (فأنبتنا فيها) بسبب ذلك الماء (من كل زوج كريم) من كل صنف  
كثير المنافع والالتفات إلى نون العظمة في الفعلين لإبراز مزيد الاعتناء بأمرها  
(هذا) أى ما ذكر من السموات والأرض وما تعلق بهما من الأمور  
المعدودة (خلق الله) أى مخلوقه (فأرونى ماذا خلق الذين من دونه)  
عما اتخذتموهم شركاء له سبحانه في العبادة حتى استحقوا به المعبودية وماذا نصب  
بخلق أو ما مرتفع بالابتداء وخبره ذا بصلته وأرونى متعلق به وقوله تعالى  
(بل الظالمون في ضلال مبين) لإضراب عن تبكيثهم بما ذكر إلى التسجيل عليهم  
بالضلال البين المستدعى للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحققة لاستحالة  
أن يفهموا منها شيئاً فينتدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه أو يتأثروا من الإلزام  
والتبكيث فينجزوا عنه ووضع الظاهر موضع ضميرهم للدلالة على أنهم  
ياشركهم واضعون للشيء في غير موضعه ومتعدون عن الحدود وظالمون لأنفسهم  
بتعريضها للعذاب الخالد (ولقد آتينا لقمان الحكمة) كلام مستأنف مسوق  
ليبان بطلان الشرك وهو لقمان بن باعوراء من أولاد آزر بن أخت أيوب عليه  
السلام أو خالته وعاش حتى أدرك داود عليه السلام وأخذ عنه العلم وكان يفقه  
قبل مبعضه وقيل كان قاضياً في بني إسرائيل والجمهور على أنه كان حكيماً ولم يكن



غيباً والحكمة في عرف العلماء استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة الثابتة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها ومن حكمته أنه صحب داود عليه السلام شهوراً وكان يسرد الدرع فلم يسأله عنها فلما أنما لبسها وقال نعم لبوس الحرب أنت فقال الصمت حكمة وقليل فاعله فقال له داود عليه السلام بحق ما سميت حكيماً وأن داود قال له يوماً كيف أصبحت فقال أصبحت في يدي غيري فتفكر داود فيه فصمق صمقة وأنه أمره مولاه بأن يذبح شاة ويأتي بأطيب مضغتين منها فأتى باللسان والقلب ثم بعد أيام أمره بأن يأتي بأخبث مضغتين منها فأتى بهما أيضاً فساله عن ذلك فقال هما أطيب شيء إذا طابا وأخبث شيء إذا خبنا ومعنى ﴿أن اشكر لله﴾ أى اشكر له تعالى على أن أن مفسرة فإن إتياء الحكمة في معنى القول وقوله تعالى ﴿ومن يشكر﴾ الخ استئناف مقرر لمضمون ما قبله موجب للامثال بالامر أى ومن يشكر له تعالى ﴿فإنما يشكر لنفسه﴾ لأن منفعته التي هي ارتباط العتيد واستجلاب المزيد مقصورة عليها ﴿ومن كفر فإن الله غنى﴾ عن كل شيء فلا يحتاج إلى الشكر ليهضر بكفر من كفر ﴿حميد﴾ حقيق بالحمد وإن لم يحمده أحد أو محمود بالفعل ينطق بحمده جميع المخلوقات بلسان الحال وعدم التعرض لكونه تعالى مشكوراً لما أن الحمد متضمن للشكر بل هو رأسه كما قال عليه الصلاة والسلام الحمد رأس الشكر لم يشكر الله عبد لم يحمده فإثباته له تعالى لإثبات للشكر له قطعاً .

### من مواضع لقمان

﴿وإذا قال لقمان لابنه﴾ أنعم وقيل أشكم وقيل ما ثان ﴿وهو يعظه يابنى﴾ تصغير لإشفاق وقرىء يابنى ياسكان الياء وبكسرهما ﴿لا تشرك بالله﴾ قيل كان ابنه كافراً فلم يزل به حتى أسلم ومن وقف على لا تشرك جعل بالله قسماً ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ تعليل للنهى أو للإنتهاء عن الشرك ﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ الخ كلام مستأنف اعترض به على نهج الاستطراد في أثناء وصية لقمان تأكيداً لما فيها من النهى عن الشرك وقوله تعالى ﴿حملته أمه﴾ إلى قوله في عامين

اعتراض بين المفسر والمفسر وقوله تعالى ﴿وهنا﴾ حال من أمه أى ذات  
وهن أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال أى تهن وهناً وقوله تعالى ﴿على وهن﴾  
صفة للمصدر أى كائناً على وهن أى تضعف ضعفاً فوق ضعف فإنها لا تزال  
يتضاعف ضعفها وقرئ وهناً على وهن بالتحريك يقال وهن بهن وهناً وهن بوهن  
وهناً ﴿وفصاله في عامين﴾ أى فطامه في تمام عامين وهى مدة الرضاع عند  
الشافعى وعند أبى حنيفة رحمهما الله تعالى هى ثلاثون شهراً وقد بين وجهه في  
موضعه وقرئ وفصله ﴿أن اشكر لى ولوالديك﴾ تفسير لوصينا وما بينهما  
اعتراض مؤكد للوصية فى حقها خاصة ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لمن قال  
له من أبر أمك ثم أمك ثم أمك ثم قال بعد ذلك ثم أباك ﴿إلى المصير﴾ تعليل  
لوجوب الامتثال أى إلى الرجوع لا إلى غيرى فأجازيك على ما صدر عنك من  
الشكر والكفر ﴿وإن جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به﴾ أى  
بشركنه له تعالى فى استحقاق العبادة ﴿علم فلا تطعهما﴾ فى ذلك ﴿وصاحبهما  
فى الدنيا معروفاً﴾ أى صحاباً معروفين بتضيه الشرع وتقتضيه المروءة ﴿واتبع  
سبيل من أناب إلى﴾ بالتوحيد والإخلاص فى الطاعة ﴿نم إلى مرجعكم﴾ أى  
مرجعكم و مرجعهما و مرجع من أناب إلى ﴿فأنبئكم﴾ عند رجوعكم ﴿بما كنتم  
تعملون﴾ بأن أجازى كلامكم بما صدر عنه من الخير والشر وقوله تعالى  
﴿يا بئى﴾ الخ شروع فى حكاية بقية وصايا لقمان لإثر تقرير ما فى مطلعها من  
النهى عن الشرك وتأكيده بالاعتراض ﴿إنها إن تك مثقال حبة من خردل﴾  
أى إن الحصلة من الإساءة أو الإحسان إن تك مثلاً فى الصغر كحبة الخردل  
و قرئ برفع مثقال على أن الضمير للقصة وكان تامة والتأنيث لاضافة المنقال  
إلى الحبة كما فى قول من قال :

• كما شرقت صدر القناة من الدم •

أو لأن المراد به الحسنه أو السيئة ﴿فتسكن فى صخرة أو فى السموات  
أو فى الأرض﴾ أى فتسكن مع كونها فى أفصى غايات الصغر والقمادة فى أخفى  
مكان وأحرزه كجوف الصخرة أو حيث كانت فى العالم العلوى أو السفلى

﴿ يأت بها الله ﴾ أى يحضرها ويحاسب عليها ﴿ إن الله لطيف ﴾ يصل علمه إلى كل خفى ﴿ خير ﴾ بكنهه وبعد ما أمره بالتوحيد الذى هو أول ما يجب على الإنسان فى ضمن النهى عن الشرك ونهيه على كمال علم الله تعالى وقدرته أمره بالصلاة التى هى أكمل العبادات تكميلاً له من حيث العمل بعد تكميله من حيث الاعتقاد فقال مستميلاً له ﴿ يا بنى أقم الصلاة ﴾ تكميلاً لنفسك ﴿ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ﴾ تكميلاً لغيرك ﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ من الشدائد والمحن لا سيما فيما أمرت به ﴿ إن ذلك ﴾ إشارة إلى كل ما ذكرناه وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه لما مر مراراً من الإشعار ببعد منزلته فى الفضل ﴿ من هزم الأمور ﴾ أى بما عزمه الله تعالى وقطعه على عباده من الأمور لمزيد مزيئها مصدر أطلق على المفعول وقد جوز أن يكون بمعنى الفاعل من قوله تعالى ( فإذا عزم الأمر ) أى جد والمجئ تعليل لوجوب الامثال بما سبق من الأمر والنهى وليذان بأن ما بعدها ليس بمثابة .

﴿ ولا تصغر خدك للناس ﴾ أى لا تملأ ولا توطن صفة وجعك كما هو ديدن المتكبرين من الصغر وهو الصيد وهو داء يصيب البعير فيلوى منه عنقه وقرىء ولا تصاعر وقرىء ولا تصغر من الأفعال والكل بمعنى مثل علام وعلاه وأعلاه ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحاً ﴾ أى فرحاً مصدر وقع موقع الحال أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال أى ترح مرحاً أو لأجل المرح والبهار ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ تعليل للنهى أو موجه وتأخير الفخور مع كونه بمقابلة المصغر خده عن المختال وهو بمقابلة الماشى مرحاً رعاية الفواصل ﴿ واقصد فى مشيك ﴾ بعد الاجتناب عن المرح فيه أى توسط بين اللبيب والإسراع وعنه عليه الصلاة والسلام سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن وقول عائشه فى عمر رضى الله عنهما كان إذا مشى أسرع فالمراد به ما فوق ديب المماوات وقرىء بقطع الهمة من أقصد الراى إذا سدده سهمه نحو الرمية ﴿ واغضض من صوتك ﴾ وانقص منه واقصر ﴿ إن أنكر الأصوات ﴾ أى أوحشها ﴿ لصوت الجير ﴾ تعليل للأمر على أبلغ وجه وآكده مبنى على تشبيه الرافعين

أصواتهم بالحير وتمثيل أصواتهم بالنهاق وإفراط في التحذير عن رفع الصوت والتنفير عنه وإفراد الصوت مع إضافته إلى الجمع لما أن المراد ليس بيان حال صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع بل بيان حال صوت هذا الجنس من بين أصوات سائر الأجناس .

### توبيخ المشركين

وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ رجوع ما سلف قبل قصة لقمان من خطاب المشركين وتوبيخ لهم على إصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم للدلائل التوحيد والمراد بالتسخير إما جعل المسخر بحيث ينفع المسخر له أعم من أن يكون متقاداً له يتصرف فيه كيف يشاء ويستعمله حسبما يريد كعامة ما في الأرض من الأشياء المسخرة للإنسان المستعملة له من الجماد والحيوان أو لا يكون كذلك بل يكون سبباً لحصول مراده من غير أن يكون له دخل في استعماله كجميع ما في السموات من الأشياء التي نيطت بها مصالح العباد معاشاً أو معاداً وإما جعله متقاداً للأمر مذلاً على أن معنى لكم لأجلكم فإن جميع ما في السموات والأرض من الكائنات مسخرة لله تعالى مستتبعة لمنافع الخلق وما يستعمله الإنسان حسبما يشاء وإن كان مسخراً له بحسب الظاهر فهو في الحقيقة مسخر لله تعالى ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ محسوسة ومعقولة معروفة لكم وغير معروفة وقد مر شرح النعمة وتفصيلها في الفاتحة وقرئ أصبغ بالصاد وهو جار في كل سين قارنت الغين أو الخاء أو القاف كما تقول في سلخ سلخ وفي سقر صقر وفي سالخ صالغ وقرئ نعمة ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ ﴾ في توحيدهِ وصفاته ﴿ بغير علم ﴾ مستفاد من دليل ﴿ وَلَا هُدًى ﴾ من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلَا كِتَابَ مُنِيرٍ ﴾ أنزله الله سبحانه بل بمجرد التقليد .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي لمن يجادل والجمع باعتبار المعنى ﴿ اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل تتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ يريدون به عبادة الأصنام ﴿ أَوَلَوْ كَانَ

الشیطان يدعوم ﴿أى آباءهم لا أنفسهم كما قيل فإن مدار إنكار الاتباع واستباده كون المتبوعين تابعين للشیطان لا كون أنفسهم كذلك أى أيتبعونهم ولو كان الشیطان يدعوم فيما هم عليه من الشرك ﴿إلى عذاب السعير﴾ فهم متوجهون إليه حسب دعوته والجملة فى حيز النصب على الحالية وقد مر تحقیقه فى قوله تعالى ﴿أولو كان آباؤهم لا یعقلون شیئاً ولا یمتدنون﴾ من سورة البقرة بما لا مزيد علیه ﴿ومن یسلم وجهه إلى الله﴾ بأن فوض إلیه مجامع أموره وأقبل علیه بکلیته وحيث عدی باللام قصد معنى الاختصاص وقرى بالتشديد ﴿وهو محسن﴾ أى فى أعماله آت بها جامعة بین الحسن الذائق والوصفى وقد مر فى آخر سورة النحل ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أى تعلق بأوثق ما یتعلق به من الأسباب وهو تمثيل لحال المتوكل المشتغل بالطاعة بحال من أراد أن یترقى إلى شاهیق جبل فتمسك بأوثق عرى الجبل المتدلى منه ﴿وإلى الله﴾ لا إلى أحد غیره ﴿عاقبة الأمور﴾ فیجازیه أحسن الجزاء ﴿ومن كفر فلا یحزنك كفره﴾ فإنه لا یضرک فى الدنيا ولا فى الآخرة وقرىء فلا یحزنك من أحزن المنقول من حزن بکسر الزاى وليس بمستفیض ﴿إلینا مرجعهم﴾ لا إلى غیرنا ﴿فنبئهم بما عملوا﴾ فى الدنيا من الکفر والمعاصى بالعذاب والعقاب والجمع فى الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما أن الإفراد فى الأول باعتبار افضلها ﴿إن الله علیم بذات الصدور﴾ تعلیل للتنبئة المعبر بها عن التعذیب ﴿نمتهم قليلاً﴾ تمثیلاً أو زماناً قليلاً فإن ما یزول وإن كان بعد أمد طویل بالنسبة إلى ما یدوم قليل ﴿ثم نضطرهم إلى عذاب غلیظ﴾ یتقل علیهم ثقل الأجرام الغلاظ أو یضم إلى الإحراق الضغط والتضییق ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض لیقولن الله﴾ لغاية وضوح الأمر بحیث اضطرروا إلى الاعتراف به .

﴿قل الحمد لله﴾ على أن جعل دلائل التوحید بحیث لا یکاد ینکرها المكابرون أيضاً ﴿بل أكثرهم لا یعلمون﴾ شیئاً من الأشياء فلذلك لا یعملون بمقتضى اعترافهم وقيل لا یعلمون أن ذلك یلزمهم ﴿لله ما فى السموات والأرض﴾ فلا یستحق العبادة فیها غیره ﴿إن الله هو الغنى﴾ عن العالمین ﴿الحمد﴾ المستحق

للحمد وإن لم يحمده أحد أو المحمود بالفعل يحمده كل مخلوق بلسان الحال  
 ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ أى لو أن الأشجار أقلام وتوحيد  
 الشجرة لما أن المراد تفصيل الأحاد ﴿والبحر يمد من بعده﴾ أى من بعد نفاده  
 ﴿سبعة أبحر﴾ أى والحال أن البحر المحيط بسعته يمد البحر السبعة مداً  
 لا ينقطع أبداً وكتبت تلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله ﴿ما نفذت كلمات  
 الله﴾ ونفدت تلك الأقلام والمداد كما في قوله تعالى (لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات  
 ربى) وقرئ يمد من الإمداد بالياء والتاء وإسناد المد إلى الأبحر السبعة دون  
 البحر المحيط مع كونه أعظم منها وأطم لأنها هي المجاورة للجبال ومنابع المياه  
 الجارية وإليها تنصب الأنهار العظام أولاً ومنها ينصب إلى البحر المحيط ثانياً  
 وإثارة جمع القلة في الكلمات للإيذان بأن ما ذكر لا يفى بالقليل منها فكيف  
 بالكثير ﴿إن الله عزيز﴾ لا يعجزه شيء ﴿حكيم﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته  
 أمر فلا تنفذ كلماته المؤسسة عليهما ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾  
 أى إلا كخلقها وبعثها في سهولة التأتى إذ لا يشغله شأن عن شأن لأن مناط وجود  
 الكل تعلق إرادته الواجبة مع قدرته الذاتية حسبما يفصح عنه قوله تعالى (إنما  
 أمرنا لنشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) ﴿إن الله سميع﴾ يسمع كل  
 مسموع ﴿بصير﴾ يبصر كل مبصر لا يشغله علم بعضها عن علم بعض فكذلك  
 الخلق والبعث .

﴿ألم تر﴾ قيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل عام لكل  
 أحد ممن يصلح للخطاب وهو الأوفق لما سبق وما لحق أى ألم تعلم علماً قوياً  
 جارياً مجرى الرؤية ﴿أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أى  
 يدخل كل واحد منهما في الآخر ويضيفه إليه في تفاوت بذلك حاله زيادة  
 ونقصاًنا ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ عطف على يولج والاختلاف بينهما صيغة  
 لما أن إيلاج أحد الملوك في الآخر متجدد في كل حين وأما تسخير النيران  
 فأمر لا تعدد فيه ولا تجدد وإنما التعدد والتجديد في آثاره وقد أشير إلى ذلك  
 حيث قيل ﴿كل يجرى﴾ أى بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على

المدارات اليومية المتخالفة المتعددة حسب تعدد الأيام جريا مستمرا ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ قدره الله تعالى لجريهما وهو يوم القيامة كما روى عن الحسن رحمه الله فإنه لا ينقطع جريهما إلا حينئذ والجملة على تقدير عموم الخطاب اعتراض بين المعطوفين لبيان الواقع بطريق الاستطراد وعلى تقدير اختصاصه به عليه الصلاة والسلام يجوز أن يكون حالا من الشمس والقمر فإن جريانهما إلى يوم القيامة من جملة ما في حيز رؤيته عليه الصلاة والسلام هذا وقد جعل جريانهما عبارة عن حركتهما الخاصة بهما في فلكهما والأجل المسمى عن منتهى دورتهما وجعل مدة الجريان للشمس سنة وللقمر شهرا فالجملة حينئذ بيان لحكم تسخيرهما وتنبه على كيفية الإيلاج أحد الملوين في الآخر وكون ذلك بحسب اختلاف جريان الشمس على مداراتها اليومية فكلما كان جريانها متوجها إلى سمت الرأس تزداد القوس التي هي فوق الأرض كبرا فيزداد النهار طوليا ينضم بعض أجزاء الليل إليه إلى أن يبلغ المدار النسي هو أقرب المدارات إلى سمت الرأس وذلك عند بلوغها إلى رأس السرطان ثم ترجع متوجهة إلى التباعد عن سمت الرأس فلا تزال القوس التي هي فوق الأرض تزداد صغرا فيزداد النهار قصرا بانضمام بعض أجزائه إلى الليل إلى أن يبلغ المدار الذي هو أبعد المدارات اليومية عن سمت الرأس وذلك عند بلوغها برج الجدى وقوله تعالى : ﴿ وأن الله بما تعملون خبير ﴾ عطف على أن الله يولج الخ داخل معه في حيز الرؤية على تقديرى خصوص الخطاب وعمومه فإن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق والتدبير الفائق لا يكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطا بجلائل أعماله ودقائقها .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تلى من الآيات الكريمة وما فيه من معنى البعد للايدان ببعدها منزلتها في الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ بأن الله هو الحق ﴾ أى بسبب بيان أنه تعالى هو الحق الهيتة فقط ولأجله لكونها ناطقة بحقية التوحيد ﴿ وأن ما يدعون من دونه الباطل ﴾ أى ولأجل بيان بطلان إلهية ما يدعون من دونه تعالى لكونها شاهدة بذلك شهادة بينة لا ريب فيها وقرىء بالإنهاء والتصريح بذلك مع أن الدلالة على اختصاص حقية الإلهية به تعالى

مستتبعة للدلالة على بطلان الهية ما عداه لإبراز كمال الاعتناء بأمر التوحيد وللإيدان بأن الدلالة على بطلان ما ذكر ليست بطريق الاستبعا فقط بل بطريق الاستقلال أيضاً ﴿ وأن الله هو العلي الكبير ﴾ أى ويبان أنه تعالى هو المترفع عن كل شيء المتسلط عليه فإن ما في تضاعيف الآيات الكريمة مبين لإختصاص العلو والكبرياء به تعالى أى بيان هذا وقيل ذلك أى ما ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع وإختصاص العلو والكبرياء به تعالى أى بيان هذا وقيل ذلك أى ما ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع وإختصاص البارئ تعالى به بسبب أنه الثابت في ذاته الواجب من جميع جهاته أو الثابت لإهيته وأنت خير بأن حقيقته تعالى وعلوه وكبريائه وإن كانت صالحة للمناطية ما ذكر من الأحكام المعدودة لكن بطلان إلهية الأصنام لا دخل له في المناطية قطعا فلا مسأغ لنظمه في سلك الأسباب بل هو تمكيس للأمر ضرورة أن الأحكام المذكورة هي المقتضية لبطلانها لا أن بطلانها يقتضيها ﴿ ألم تر أن الفلك تجرى في البحر بنعمة الله ﴾ بإحسانه في تهيئة أسبابه وهو استشهاد آخر على باهر قدرته وغاية حكمته وشمول إنعامه والباء إما متعلقة بتجرى أو بمقدر هو حال من فاعله أى ملتبسة بنعمته تعالى وقرىء الفلك بضم اللام وبنعمات الله وعين فعلات يجوز فيه الكسر والفتح والسكون ﴿ ليرىكم من آياته ﴾ أى بعض دلائل وحدته وعلمه وقدرته وقوله تعالى ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ تعليل لما قبله أى إن فيما ذكر لآيات عظيمة في ذاتها كثيرة في عددها لكل من يبالغ في الصبر على المشاق فيتعجب نفسه في التفكير في الأنفس والآفاق ويبالغ في الشكر على نعمائه وهما صفتا المؤمن فيكأنه قيل لكل مؤمن ﴿ وإذا غشيه ﴾ أى علام وأحاط بهم ﴿ موج كالظلل ﴾ كما يظل من جبل أو سحاب أو غيرهما وقرىء كالظلال جمع ظلة كقلة وقلال ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم من الدواهي والشدائد ﴿ فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ﴾ أى مقيم على القصد السوى الذى هو التوحيد أو متوسط في الكفر لا تزجأ به



في الجملة ﴿ وما يمحّد بآياتنا إلا كل ختار ﴾ غدار فإنه نقض للعهد الفطرى أو رفض لما كان فى البحر والختار أشد الغدر وأقبحه ﴿ كفور ﴾ مبالغ فى كفران نعم الله تعالى :

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ﴾ أى لا يقضى عنه وقرىء لا يجزى من أجزأ إذا أغنى والعائد إلى الموصوف محذوف أى لا يجزى فيه ﴿ ولا مولود ﴾ عطف على والد أو هو مبتدأ خبره ﴿ هو جاز عن والده شيئا ﴾ وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر فى الآخرة ﴿ إن وعد الله ﴾ بالثواب والعقاب ﴿ حق ﴾ لا يمكن إخلافه أصلا ﴿ فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الفرور ﴾ أى الشيطان المبالغ فى الفرور بأن يحملكم على المعاصى بتزيينها لكم ويرجيكم التوبة والمغفرة ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ علم وقت قيامها لما روى أن الحرث بن عمرو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال متى الساعة وإنى قد أقيمت حباتى فى الأرض فمتى السماء تمطر وحمل امرأتى ذكر أم أنثى وما أعمل غذا وأين أموت فنزلت وعنه عليه الصلاة والسلام مفايح الغيب خمس وتلا هذه الآية ﴿ وينزل الغيث ﴾ فى إبانة الذى قدره وإلى محله الذى عينه فى عليه وقرىء ينزل من الإنزال ، ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾ من ذكر أو أنثى تام أو ناقص ﴿ وما تدرى نفس ﴾ من النفوس ﴿ ماذا تكسب غذا ﴾ من خير أو شر وربما تعزم على شىء منهما فتفعل خلافة ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ كما لا تدرى فى أى وقت تموت . روى أن ملك الموت مر على سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فقال الرجل من هذا قال ملك الموت فقال كأنه يريدنى فر الريح أن تحملنى وتلقينى ببلاد الهند ففعل ثم قال الملك لسليمان عليهما السلام كان دوام نظرى إليه تعجبا منه حيث كنت أمرت بأن أقبض روحه بالهند وهو عندك ونسبة العلم إلى الله تعالى والدراية إلى العبد للإيدان بأنه أن أعمل حيلة وينزل فيه التعرف وسمعه لم يعرف ما هو لاحق به من كسبه وعاقبته

فكيف بخبره ما لم ينصب له دليل عليه وقرئ بأية أرض وشبه سيديوه تأنيثها بتأنيث كل في كلتن (إن الله عليم) مبالغ في العلم فلا يعزب عن علمه شيء من الأشياء التي من جملتها ما ذكر (خبير) يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقا يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشرة بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر .

\*\*\*

### سورة السجدة ﴿٣٦﴾

( مكية وهى ثلاثون آية وقيل تسع وعشرون )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( ألم ) إما اسم للسورة فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هذا مسمى بالـم والإشارة إليها قبل جريان ذكرها قد عرفت سرها وإما مسرود على نمط التعديد فلا محل له من الإعراب وقوله تعالى : ( تنزيل الكتاب ) على الأول خبر بعد خبر على أنه مصدر أطلق على المفعول مبالغة وعلى الثانى خبر لمبتدأ محذوف أى المؤلف من جنس ما ذكر تنزيل الكتاب وقيل خبر لـالم أى المسمى تنزيل الكتاب وقد مر مرارا أن ما يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب إليه وإذ لا عهد بالتسمية قبل لحقها الأخبار بها وقوله تعالى ( لا ريب فيه ) خبر ثالث على الوجه الأول وثان على الأخيرين وقيل خبر لتنزيل الكتاب فقوله تعالى ( من رب العالمين ) متعلق بمضمـر هو حال من الضمير المجرور أى كائننا منه تعالى لا بتنزيل لأن المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر والأوجه حينئذ أنه الخبر ولا ريب فيه حال من الكتاب أو اعتراض والضمير فى فيه راجع إلى مضمون الجملة كأنه قيل لا ريب فى ذلك أى فى كونه منزلا من رب العالمين ويؤيده قوله تعالى ( أم يقولون افتراء )

فإن قولهم هذا إنكار منهم لكونه من رب العالمين فلا بد أن يكون مورده حكماً مقصود الإفادة لا قيداً للحكم بنفى الريب عنه وقد رد عليهم ذلك وأبطل حيث جرى بأم المنقطة إنكاراً له وتعجيباً منه لغاية ظهور بطلانه واستحالة كونه مفترى ثم أضرب عنه إلى بيان حقيقة ما أنكروه حيث قيل ﴿ بل هو الحق من ربك ﴾ بإضافة اسم الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام بعد إضافته فيما سبق إلى العالمين تشريفاً له عليه الصلاة والسلام ثم أيد ذلك ببيان غايته حيث قيل ﴿ لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتدبرون ﴾ فإن بيان غاية الشيء وحكمته لا سيما عند كونها غاية حميدة مستتبعة لمنافع جليلة في وقت شدة الحاجة إليها مما يقرر وجود الشيء ويؤكد له الحالة ولقد كانت قریش أضل الناس وأحوجهم إلى الهداية بإرسال الرسول وتنزيل الكتاب حيث لم يبعث إليهم من رسول قبله عليه الصلاة والسلام أى ما أتاهم من نذير من قبل انذارك أو من قبل زمانك والترجى معتبر من جهته عليه الصلاة والسلام أى لتنذرهم راجياً لاهتدائهم أو لرجاء اهتدائهم واعلم أن ما ذكر من التأييد إنما يتسنى على ما ذكر من كون تنزيل الكتاب مبتدأ وأما على سائر الوجوه فلا تأييد أصلاً لأن قوله تعالى من رب العالمين خبر رابع على الوجه الأول وخبر ثالث على الوجهين الآخرين وأياماً كان فكونه من رب العالمين حكم مقصود الإفادة لا قيد لحكم آخر. فتدبر.

﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ مر بيانه فيما سلف ﴿ ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع ﴾ أى ما لكم إذا جاوزتم رضاه تعالى أحد ينصركم ويشفع لكم ويجيركم من بأسه أى ما لكم سواه ولى ولا شفيع بل هو الذى يتولى مصالحكم وينصركم فى مواطن النصر على أن الشفيع عبارة عن الناصر مجازاً فإذا خذلكم لم يبق لكم ولى ولا نصير ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ أى ألا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها أو أتسمعونها فلا تتذكرون بها فالإنكار على الأول متوجه إلى عدم السماع وعدم التذكر معاً وعلى الثانى على عدم التذكر مع تحقق ما يوجبه من السماع

( يدبر الامر من السماء إلى الأرض ) قيل يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة آثارها وأحكامها إلى الأرض ( ثم يعرج إليه ) أى ثبت فى علمه موجودا بالفعل ( فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ) أى فى برهة من الزمان متطاولة والمراد بيان طول امتداد ما بين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان وقيل يدبر أمر الحوادث اليومية بإثباتها فى اللوح المحفوظ فينزل بها الملائكة ثم تعرج إليه فى زمان هو كآلف سنة مما تعدون فإن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام وقيل يقضى قضاء ألف سنة فينزل به الملك ثم يعرج بعد الآلاف للآلاف آخر وقيل يدبر أمر الدنيا جميعاً إلى قيام الساعة ثم يعرج إليه الأمر كله عند قيامها وقبل يدبر الأمور به من الطاعات منزلاً من السماء إلى الأرض بالوحى ثم لا يعرج إليه خالصاً إلا فى مدة متطاولة لقلة المخاضين والأعمال الخالص وأنت خبير بأن قلة الأعمال الخالصة لا تقتضى بطء عروجها إلى السماء بل قلته وقرئ يعدون بالياء ( ذلك ) إشارة إلى الله عز وجل باعتبار اتصافه بما ذكر من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش وانحصار الولاية والنصرة فيه وتدبير أمر السكائنات على ما ذكر من الوجه البديع وهو مبتدأ خبره ما بعده أى ذلك العظيم الشأن ( عالم الغيب والشهادة ) فيدبر أمرهما حسبما تقتضيه الحكمة ( العزيز ) الغالب على أمره ( الرحيم ) على عباده وهما خبران آخران وفيه إيماء إلى أنه تعالى متفضل فى جميع ما ذكر فاعل بالإحسان ( الذى أحسن كل شئ خلقه ) خبر آخر أو نصب على المدح أى حسن كل مخلوق خلقه إذ ما من مخلوق خلقه إلا وهو مرتب على ما تقتضيه الحكمة وأوجبه المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن كما قال تعالى ( لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ) وقيل علم كيف يخلق من قوله قيمة المرء ما يحسن أى يحسن معرفته أى تعرفه معرفة حسنة بتحقيق وإيقان وقرئ خلقه على أنه بدل اشتغال من كل شئ والضمير للمبدل منه أى حسن خلق كل شئ وقيل بدل السكل على أن الضمير لله تعالى والخلق بمعنى المخلوق أى حسن كل مخلوقاته وقيل هو مفعول ثان

لا حسن على تضمنه معنى أعطى أى أعطى كل شيء خلقه اللائق به بطريق الإحسان والتفضل وقيل هو مفعوله الأول وكل شيء مفعوله الثانى والخلق بمعنى المخلوق وضميره لله سبحانه على تضمين الإحسان معنى الإهام والتعريف والمعنى ألهم خلقه كل شيء مما يحتاجون إليه وقال أبو البقاء عرف مخلوقاته كل شيء يحتاجون إليه فيؤول إلى معنى قوله تعالى (الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) (وبدأ خلق الإنسان) من بين جميع المخلوقات (من طين) على وجه بديع تحار العقول في فهمه حيث برأ آدم عليه السلام على فطرة عجيبة منطوية على فطرة سائر أئراد الجنس انطواء إجمالياً مستتبعاً كل فرد منها من القوة إلى الفعل بحسب استعداداتها المتفاوتة قربا وبعدا كما ينبىء عنه قوله تعالى (ثم جعل نسله) إلخ أى ذريته سميت بذلك لأنها تنسل وتنفصل منه (من سلالة من ماء مهين) هو الماء الممتن (ثم سواه) أى عدله بتكميل أعضائه فى الرحم وتصويرها على ما ينبغى (ونفخ فيه من روحه) أضافه إليه تعالى تشرifa له وإيداناً بأنه خلق عجيب وصنع بديع وأن له شأناً له مناسبة إلى حضرة الزبوية وأن أقصى ما تنهى إليه العقول البشرية من معرفته هذا القدر الذى يعبر عنه تارة بالإضافة إليه تعالى وأخرى بالنسبة إلى أمره تعالى كما فى قوله تعالى (قل الروح من أمر ربى) (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) الجمل لإبداعى واللام متعلقة به والتقديم على المفعول الصريح لما مر مرات من الاهتمام المقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم أى خلق لمنفعتكم تلك المشاعر لتعرفوا أنها مع كونها فى أنفسها نعماً جليلة لا يقادر قدرها وسائل إلى التمتع بسائر النعم الدينية والدنيوية الفائضة عليكم وتشكروها بأن تعرفوا كلا منها إلى ما خلق هو له فتذكروا بسمعكم الآيات التنزيلية النازقة بالتوحيد والبعث وبأبصاركم الآيات التكوينية الشاهدة بهما وتستدلوا بأفتدتكم على حقيتهما وقوله تعالى (قليل ما تشكرون) بيان لكفرهم بذلك النعم بطريق الاعتراض التذييل على أن القلة بمعنى النفى كما ينبىء عنه ما بعده أى شكرا قليلا أو زمانا قليلا تشكرون وفى حكاية أحوال الإنسان

من مبدأ فطرته إلى نفخ الروح فيه بطريق الغيبة وحكاية أحواله بعد ذلك بطريق الخطاب المنبئ عن استعدادهم للفهم وصلاحيته له من الجزالة ما لا غاية وراءه ﴿وقالوا﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أباطيلهم بطريق الالتفات لإيداننا بأن ما ذكر من عدم شكرهم بتلك النعم موجب للأعراض عنهم وتعدد جنائياتهم لغيرهم بطريق المباشرة ﴿أنذا ضللنا في الأرض﴾ أى صرنا تراباً مخلوطاً بترابها بحيث لا تتميز منه أو غبنا فيها بالدفن وقرىء ضللنا بكسر اللام من باب علم وعللنا بالصاد المهملة من صل اللحم إذا أذن وقيل من الصلة وهى الأرض أى صرنا من جنس الصلة قيل القائل أبى ابن خلف ولرضاهم بقوله أسند القول إلى الكل والعامل فى إذا ما يدل عليه قوله تعالى ﴿أننا لنرى خلقاً جديداً﴾ وهو نبوت أو يحدد خلقنا والهمزة لتذكير الإنكار السابق وتأكيده وقرىء إنا على الخبر وأيا ما كان فالمعنى على تأكيد الإنكار لا إنكار التأكيد كما هو المتبادر من تقدم الهمزة على أن فإنها مؤخرة عنها فى الاعتبار وإنما تقديمها عليها لاقترانها بالصدرية ﴿بل هم بلبقاء ربهم كافرون﴾ لإضراب وانتقال من بيان كفرهم بالبعث إلى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه وهو كفرهم بالوصول إلى العاقبة وما يلقونه فيها من الأحوال والأحوال جميعاً .

﴿قل﴾ بيانا للحق وردا على زعمهم الباطل ﴿يتوفاكم ملك الموت﴾ لا كما تزعمون أن الموت من الأحوال الطبيعية المعارضة للحيوان بموجب الجملة أى يقبض أرواحكم بحيث لا يدع فيكم شيئاً أو لا يترك منكم أحداً على أشد ما يكون من الوجوه وأفضلعها من ضرب وجوهكم وأدباركم ﴿الذى وكل بكم﴾ أى يقبض أرواحكم وإحصاء آجالكم ﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾ بالبعث للحساب والجزاء ﴿ولو ترى إذ المجرمون﴾ وهم القائلون أنذا ضللنا فى الآية أو جنس المجرمين وهم من جنانهم ﴿ناكسوا رؤسهم عند ربهم﴾ من الحياء والخزى عند ظهور قبائحهم التى اترفوها فى الدنيا ﴿ربنا﴾ أى يقولون ربنا ﴿أبصرنا وسمعنا﴾ أى صرنا بمن ينصر ويسمع وحصل لنا الاستعداد لإدراك الآيات للنبصرة والآيات المسموعة وكنا من قبل عمياً وصماً لا ندرك شيئاً ﴿فارجعنا﴾

إلى الدنيا ﴿نعمل﴾ عملاً ﴿صالحاً﴾ حسبما تقتضيه تلك الآيات وقوله تعالى، ﴿إنا موقنون﴾ إدعاء منهم لصحة الآفدة والافتدار على فهم معاني الآيات والعمل بموجبها كما أن ما قبله ادعاء لصحة مشعري البصر والسمع كأنهم قالوا وأيقنا وكنا من قبل لا نعقل شيئاً أصلاً وإنما عدلوا إلى الجملة الإسمية المؤكدة لإظهاراً لثباتهم على الإيقان وكمال رغبتهم فيه وكل ذلك للجدد في الاستدعاء طمعا في الإجابة إلى ما سألوه من الرجعة وأنى لهم ذلك ويجوز أن يقدر لكل من الفعلين مفعول مناسب له بما يبصرونه ويسمعونه فإنهم حينئذ يشاهدون الكفر والمعاصي على صور منكورة هائلة ويخبرهم الملائكة بأن مصيرهم إلى النار لا محالة فالمعنى أبصرنا قبح أعمالنا وكنا نراها في الدنيا حسنة وسمعنا أن مردنا إلى النار وهو الأنسب لما بعده من الوعد بالعمل الصالح هذا وقد قيل المعنى وسمعنا منك تصديق رسلك وانت خبير بأن تصديقه تعالى لهم حينئذ يكون بإظهار مدلول ما أخبروا به من الوعد والوعيد بالإخبار بأنهم صادقون حتى يسمعه. وقيل وسمعنا قول الرسل أى سمعناه سماع طاعة وإذعان ولا يقدر لترى مفعوله إذ المعنى لو تكون منك رؤية في ذلك الوقت أو يقدر ما ينبى عنه صلة إذ والمضى فيها وفى لو باعتبار أن الثابت فى علم الله تعالى بمنزلة الواقع وجواب لو محذوف أى لرأيت أمراً فظيماً لا يقادر قدره والخطاب لكل أحد ممن يصلح له كائناً من كان إذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الفظاعة إلى حيث لا يختص استغرابها واستفظاعها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الأمور البديعة والدواهي الفظيعة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها هذا ومن علل عموم الخطاب بالقصد إلى بيان أن حالهم قد بلغت من الظهور إلى حيث يمنع خفاؤها البنية فلا تختص رؤية راء دون راء بل كل من يتأتى منه الرؤية فله مدخل فى هذا الخطاب فقد نأى عن تحقيق الحق لأن المقصود بيان كمال فظاعة حالهم كما يفصح عنه الجواب المحذوف لا بيان كمال ظهورها فإنه مسوق مساق المسلمات فتدبر ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ مقدر بقول مبطوف على ما قدر قبل قوله تعالى (ربنا أبصرنا) الخ أى ونقول

لو شئنا أى لو تعلقت مشيئتنا تعلقا فعليا بأن نعطي كل نفس من النفوس البرة والفاجرة ما تهتدى به إلى الإيمان والعمل الصالح لأعطيناها إياه في الدنيا التي هي دار الكسب وما أخرناه إلى دار الجزاء .

﴿ ولكن حق القول مني ﴾ أى سبقت كلتي حيث قلت لإبليس عند قوله (لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين) وهو المعنى بقوله تعالى ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فبموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى على العموم بل منعناه من اتباع إبليس الذين أقم من جملتهم حيث صرفتم اختياركم إلى الغي بإغوائه ومشيتنا لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها فلما لم تختاروا الهدى واخترتم الضلالة لم نشأ إعطاءه لكم وإنما أعطيناه الذين اختاروه من النفوس البرة وهم المعنيون بما سيأتي من قوله تعالى (إنما يؤمن بآياتنا) الآية فيكون مناط عدم مشيئة إعطاء الهدى في الحقيقة سوء اختيارهم لا تحقق القول وإنما قيدنا المشيئة بما مر من التعلق الفعلي بأفعال العباد عند حدوثها لأن المشيئة الأزائية من حيث تعلقها بما سيكون من أفعالهم إجمالا متقدمة على تحقق كلبة العذاب فلا يكون عدمها منوطا بتحققها وإنما مناطه عليه تعالى ألا يصرف اختيارهم فيما سيأتي إلى الغي وإيثارهم له على الهدى فلو أرادت هي من تلك الحيثية لاستدرك بعدمها ونيط ذلك بما ذكر من المناط على منهاج قوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم) فن توهم أن المعنى ولو شئنا لأعطينا كل نفس ما عندنا من اللطف الذي لو كان منهم اختياره لاهتدوا ولكن لم نعظم لما علمنا منهم اختيار الكفر وإيثاره فقد اشتبه عليه الشؤن والقاء في قوله تعالى ﴿فذوقوا﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما يعرب عنه ما قبله من نفى الرجوع إلى الدنيا أو على الوعيد المحكي والباء في قوله تعالى ﴿بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ للإيذان بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق الوعيد به فقط بل هو وسيق الوعيد أيضا بسبب موجب له من قبلهم كما أنه قيل لا رجع لكم إلى الدنيا أوحق وعيدى فذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل وترككم التفكير فيه



والاستعداد له بالكلية ﴿لأنا نسيناكم﴾ أى تركناكم فى العذاب ترك المنسى بالمرّة وقوله تعالى ﴿وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون﴾ تكرير للتأكيد والتشديد وتعيين المفعول المطوى للذوق والإشعار بأن سببه ليس مجرد ما ذكر من النفساني بل له أسباب أخرى من فنون الكفر والمعاصي التي كانوا مستمرين عليها فى الدنيا وعدم نظم الكل فى سلك واحد للتنبيه على استقلال كل منها فى استيجاب العذاب وفى إيهام المذوق أولاً وببأنه ثانياً بتكرير الأمر وتوسيط الاستئناف المنبئ عن كمال السخط بينهما من الدلالة على غاية التشديد فى الانتقام منهم ما لا يخفى وقوله تعالى ﴿لأنما يؤمن بآياتنا﴾ استئناف مسوق لتقرير عدم استحقاقهم لإيتاء الهدى والإشعار بعدم إيمانهم لو أوتوه بتعيين من يستحقه بطريق القصر كأنه قيل إنكم لا تؤمنون بآياتنا ولا تعملون بموجبها عملاً صالحاً ولو رجعناكم إلى الدنيا كما تدعون حسبما ينطق به قوله تعالى (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) ولأنما يؤمن بها .

﴿الذين إذا ذكروا بها﴾ أى وعظوا ﴿خروا سجدا﴾ أثر ذى أثر من غير تردد ولا تعلش فضلاً عن التسويف إلى معاينة ما نطقت به من الوعد والوعيد أى سقطوا على وجوههم ﴿وسبحوا بحمد ربهم﴾ أى وزهوه عند ذلك عن كل ما لا يليق به من الأمور التي من جملتها العجز عن اليعث ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه التي أجلها الهداية بإيتاء الآيات والتوفيق للاهتمام بها والتعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلّة التسبيح والتحميد وبأنهم يفعلونها بملاحظة وبويته تعالى لهم ﴿وهم لا يستكبرون﴾ أى والحال أنهم خاضعون له تعالى لا يستكبرون عما فعلوا من الخرور والتسبيح والتحميد ﴿تتجافى جنوبهم﴾ أى تلبو وتنحى ﴿عن المضاجع﴾ أى الفرش ومواضع المنام والجملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم وهم المتجددون بالليل قال أنس رضى الله عنه نزلت فينا معاشراً الأنصار كنا نصلى المغرب فلا نرجع إلى رحالتنا حتى نصلى العشاء مع النبي عليه الصلاة والسلام وعن أنس أيضاً رضى الله عنه أنه قال نزلت في أناس من أصحاب النبي عليه

الصلاة والسلام كانوا يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء وهى صلاة  
 الأولين وهو قول أبى حازم ومحمد بن المنكدر وهو مروي عن ابن عباس  
 رضى الله عنهما وقال عطاءهم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة  
 والفجر فى جماعة والمشهور أن المراد منه صلاة الليل وهو قول الحسن وبجاءه  
 ومالك والأوزاعى وجماعة لقوله عليه الصلاة والسلام أفضل الصيام بعد شهر  
 رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل وعن النبي عليه  
 الصلاة والسلام فى تفسيرها قيام العبد من الليل وعنه عليه الصلاة والسلام إذا  
 جمع الله الأولين والآخرين جاء مناد ينادى بصوت يسمع الخلائق كلهم سيعلم  
 أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادى ليقيم الذين كانت تنجافى  
 جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ثم يرجع فينادى ليقيم الذين كانوا  
 يحمدون الله فى السراء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعا إلى الجنة  
 ثم يحاسب سائر الناس وقوله تعالى ﴿ يدعون ربهم ﴾ حال من ضمير جنوبهم  
 أى داعين له تعالى على الاستمرار ﴿ خوفا ﴾ من سخطه وعذابه وعدم قبول  
 عبادته ﴿ وطمعا ﴾ فى رحمته ﴿ وعما رزقناهم ﴾ من المال ﴿ ينفقون ﴾ فى  
 وجوه البر والحسنات .

﴿ فلا تعلم نفس ﴾ من النفوس لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلا عن  
 عدام ﴿ ما أخفى لهم ﴾ أى لأولئك الذين عدت نعمتهم الجليلة ﴿ من قرءة  
 أعين ﴾ بما تقر به أعينهم وعنه عليه الصلاة والسلام يقول الله عز وجل أعددت  
 لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله  
 ما اطلعتم عليه اقرؤا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرءة أعين وقرىء  
 ما أخفى لهم وما نخفى لهم وما أخفيت لهم على صيغة المتكلم وما أخفى لهم على  
 البناء للفاعل وهو الله سبحانه وقرىء قرأت أعين لاختلاف أنواعها والعلم بمعنى  
 المعرفة وما موصولة أو استفهامية علق عنها الفعل ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾  
 أى جزوا جزاء أو أخفى لهم للجزاء بما كانوا يعملونه فى الدنيا من الأعمال

الصالحة قيل هؤلاء القوم أخفوا أعمالهم فأخفى الله تعالى ثوابهم ﴿ أفن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ﴾ أى أبعد ظهور ما بينهما من التباين البين يتوهم كون المؤمن الذى حكيت أوصافه الفاضلة كالفاسق الذى ذكرت أحواله ﴿ لا يستون ﴾ التصريح به مع إفادة الإنكار لنفى المشابهة بالمرّة على أبلغ وجه وآ كده لبناء التفصيل الآتى عليه والجمع باعتبار معنى من كما أن الأفراد فيما سبق باعتبار لفظها وقوله تعالى ﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى ﴾ تفصيل لمراتب الفريقين فى الآخرة بعد ذكر أحوالهما فى الدنيا وأضيفت الجنة إلى المأوى لأنها المأوى الحقيقى وإنما الدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة وقيل المأوى جنة من الجنات وأيا ما كان فلا يبعد أن يكون فيه رمز إلى ما ذكر من تجافهم عن مضاجعهم التى هى مأواهم فى الدنيا ﴿ نزلاً ﴾ أى ثواباً وهو فى الأصل ما يبعد للنازل من الطعام والشراب واتصافه على الحالالية ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ فى الدنيا من الأعمال الصالحة أو بأعمالهم ﴿ وأما الذين فسقوا ﴾ أى خرجوا عن الطاعة ﴿ فماؤهم ﴾ أى ملجأهم ومنزلهم ﴿ النار ﴾ مكان جنات المأوى للمؤمنين ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ استئناف لبيان كيفية كون النار مأواهم يروى أنه يضربهم لهب النار فيرتفعون إلى طبقاتها حتى إذا قربوا من بابها وأرادوا أن يخرجوا منها يضربهم اللهب فيهوون إلى قعرها وهكذا يفعل بهم أبداً وكلية فى الدلالة على أنهم مستقرون فيها وإنما الإعادة من بعض طبقاتها إلى بعض .

﴿ وقيل لهم ﴾ أشديداً عليهم وزيادة فى غيظهم ﴿ ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به ﴾ أى بعذاب النار ﴿ تكذبون ﴾ على الاستمرار فى الدنيا ﴿ ولنديقنهم من العذاب الأدنى ﴾ أى عذاب الدنيا وهو ما منحوا به من السنة سبع سنين والقتل والأسر ﴿ دون العذاب الأكبر ﴾ الذى هو عذاب الآخرة ﴿ لهم ﴾ لعل الذين يشاهدونه وهم فى الحياة ﴿ يرجعون ﴾ يتوبون عن الكفر روى أن الوليد بن عقبة فاخر علياً رضى الله عنه يوم بدر فنزلت هذه الآيات ﴿ ومن

أظلم من ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴿ بيان لإجمالى لحال من قابل آيات الله تعالى بالإعراض بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد وكلمة ثم لاستبعاد الإعراض عنها عقلا مع غاية وضوحها وإرشادهم إلى سعادة الدارين كما في بيت الحماسة :

ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها  
أى هو أظلم من كل ظالم وإن كان سبك التركيب على نفى الأظلم من غير تعرض لنفى المساوى وقد مر مرارا ﴿ لما من المجرمين ﴾ أى من كل من انصف بالإجرام وإن هانت جريمته ﴿ منتقمون ﴾ فكيف بمن هو أظلم من كل ظالم وأشد جرما من كل مجرم ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ أى التوراة عبر عنها باسم الجنس لتحقيق المجانسة بينها وبين الفرقان والتنبية على أن إيتاءه لرسول الله صلى الله عليه وسلم كإيتائها لموسى عليه السلام ﴿ فلا تكن في مريّة من لقائه ﴾ من لقاء الكتاب الذى هو الفرقان كقوله وإنك لتلقى القرآن والمعنى إنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناك من الوحى مثل ما لقيناك من الوحى فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ونظيره وقيل من لقاء موسى الكتاب أو من لقاءك موسى وعنه عليه الصلاة والسلام رأيت ليلة أسرى بى موسى رجلا آدم طوا الا جعدا كأنه من رجال شنوأة .

﴿ وجعلناه ﴾ أى الكتاب الذى آتينا موسى ﴿ هدى لبني إسرائيل ﴾ قيل لم يتعبد بما فى التوراة ولد لإسماعيل ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون ﴾ بقيتهم بما فى تضاعيف الكتاب من الحكم والأحكام إلى طريق الحق أو يهدونهم إلى ما فيه من دين الله وشرائعه ﴿ بأمرنا ﴾ لإياهم بذلك أو بتوفيقنا له ﴿ لما صبروا ﴾ هى لما اتى فيها معنى الجزاء نحو أحسنت إليك لما جئتني والضمير للأئمة تقديره لما صبروا جعلناهم أئمة أو هى ظرف بمعنى الحين أى جعلناهم أئمة حين صبروا والمراد صبرهم على مشاق الطاعات ومقاسات الشدائد فى نصرته الدين أو صبرهم عن الدنيا وقرىء لما صبروا أى لصبرهم ﴿ وكانوا بآياتنا ﴾ التى فى تضاعيف الكتاب ﴿ يوقنون ﴾ لإيمانهم فيها النظر والمعنى كذلك لنجعلن الكتاب الذى

آتينا كه هدى لامتك ولنجمعن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية ﴿إن ربك  
 هو يفصل﴾ أى يقضى ﴿بينهم﴾ قيل بين الأنبياء وأئمة وقيل بين المؤمنين  
 والمشركين ﴿يوم القيامة﴾ فيميز بين الحق والمبطل ﴿فيما كانوا فيه يختلفون﴾  
 من أمور الدين ﴿أولم يهد لهم﴾ الهمة للإنكار والواو للعطف على منوى  
 يقتضيه المقام فعل الهداية إما من قيل فلان يعطى فى أن المراد إيقاع نفس الفعل  
 بلا ملاحظة المفعول وإما بمعنى التبيين والمفعول محذوف والفاعل مادل عليه قوله  
 تعالى ﴿كم أهلكنا﴾ أى أغفلو ولم يفعل الهداية لهم أو ولم يبين لهم ما آل أمرهم  
 كثرة إهلاكنا ﴿من قبلهم من القرون﴾ مثل عاد وثمود وقوم لوط وقرىء  
 نهد لهم بنون العظمة وقد جوز أن يكون الفاعل على القراءة الأولى أيضاً ضميره  
 تعالى فيكون قوله تعالى كم أهلكنا الخ استثناء مبيناً لكيفية هدايته تعالى  
 ﴿يمشون فى مساكنهم﴾ أى يمرون فى متاجرهم على ديارهم وبلادهم ويشاهدون  
 آثار هلاكهم والجملة حال من ضميرهم وقرىء يمشون للتكثير ﴿إن فى ذلك﴾  
 أى فيها ذكر من كثرة إهلاكنا للأمم الخالية العاتية أو فى مساكنهم ﴿لآيات﴾  
 عظيمة فى أنفسها كثيرة فى عددها ﴿أفلا يسمعون﴾ هذه الآيات سماع تدبر  
 واتعاظ ﴿أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز﴾ أى التى جرز نباتها  
 أى قطع وأزيل بالمرّة وقيل هو اسم موضع بالين ﴿فنخرج به﴾ من تلك  
 الأرض ﴿زرعاً تأكل منه﴾ أى من ذلك الزرع ﴿أنعامهم﴾ كالتبن والقصيل  
 والورق وبعض الحبوب المخصوصة بها وقرىء يأكل بالياء ﴿وأنفسهم﴾ كالحبوب  
 التى يقتاتها الإنسان والثمار ﴿أفلا يبصرون﴾ أى ألا ينظرون فلا يبصرون  
 ذلك ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى وفضله ﴿ويقولون﴾ كان المسلمون يقولون  
 إن الله سيفتح لنا على المشركين أو يفصل بيننا وبينهم كان أهل مكة إذا سمعوه  
 يقولون بطريق الاستعجال تكديبا واستهزاء ﴿متى هذا الفتح﴾ أى النصر  
 أو الفصل بالحكومة ﴿إن كنتم صادقين﴾ فى أن الله تعالى ينصركم أو يفصل  
 بيننا وبينكم ﴿قل﴾ بكيأتا لهم وتحقيقاً للحق ﴿يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا  
 ولا هم ينظرون﴾ يوم الفتح يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم

ويوم نصرهم عليهم وقيل هو يوم بدر وعن مجاهد والحسن يوم فتح مكة والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤا لهم للتنبيه على أنه ليس مما يلبي أن يسأل عنه لكونه أمراً بيناً غنياً عن الأخبار به وكذا إيمانهم واستنظارهم يومئذ وإنما المحتاج إلى البيان عدم نفع ذلك الإيمان وعدم الإنظار كأنه قيل لا تستعجلوا فكأنى بكم قد آمنتم فلم ينفعكم واستنظرتهم فلم تنظروا وهذا على الوجه الأول ظاهر وأما على الآخرين فالموصول عبارة عن المقتولين يومئذ لا عن كافة الكفرة كما في الوجه الأول كيف لا وقد نفع الإيمان الطلقاء يوم الفتح وناساً آمنوا يوم بدر ﴿ فأعرض عنهم ﴾ ولا تبال بتكذيبهم ﴿ وانتظر ﴾ النصرة عليهم وهلاكهم ﴿ لأنهم منتظرون ﴾ قيل أى الغلبة عليكم كقوله تعالى ﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ والأظهر أن يقال إنهم منتظرون هلاكهم كما في قوله تعالى ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ﴾ الآية ويقرب منه ما قيل وانتظر عذابنا إنهم منتظروه فإن استعجلهم المذكور وعكفهم على ما هم عليه من الكفر والمعاصي<sup>(١)</sup> في حكم انتظارهم العذاب المترتب عليه لا محالة وقرئ على صيغة المفعول على معنى أنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم أو فإن الملائكة ينتظرونه ، عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ ألم تنزيل وتبارك الذى بيده الملك أعطى من الأجر كأنما أوحى ليلة القدر وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ ألم تنزيل في بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام .

\*\*\*

## سورة الأحزاب

( مدنية وهي ثلاث وسبعون آية )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( يا أيها النبي اتق الله ) في ندائه عليه الصلاة والسلام بنوان النبوة تنويه  
بشأنه وتنبه على سمو مكانه والمراد بالتقوى المأمور به الثبات عليه والازدياد  
منه فإن له بابا واسما وعرضا عريضا لا ينال مداه ( ولا تطع الكافرين )  
أى المجاهرين بالكفر ( والمنافقين ) المضمرين له أى فيما يعود بوهن في  
الدين وإعطاء دنية فيما بين المسلمين روى أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة  
ابن أبى جهل وأبا الأعور السلى قدموا عليه عليه الصلاة والسلام في المواعدة  
التي كانت بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم وقام معهم عبد الله بن أبى  
ابن قشير والجند بن قيس فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرفض ذكر  
آلمتنا وقل إنها تشفع وتنفع وندعك وربك فشق ذلك على النبي عليه الصلاة  
والسلام والمؤمنين وهموا بقتلهم فنزلت أى اتق الله في نقض العهد ونبذ المواعدة  
ولا تساعد الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا إليك  
( إن الله كان عليما حكيما ) مبالغا في العم والحكمة فيعلم جميع الأشياء من  
المصالح والمفاسد فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة  
ولا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة البالغة فالجملته تعليل للأمر والنهى مؤكدا لوجوب  
الامتثال بهما ( واتبع ) أى فى كل ما تأتى وتذر من أمور الدين ( ما يوحى  
إليك من ربك ) من الآيات التي من جملتها هذه الآية الامرة بتقوى الله الناهية  
عن مساعدة الكفرة والمنافقين والتعرض لعنوان الربوبية لتأكيد وجوب  
الإمتثال بالأمر ( إن الله كان بما تعملون خبيرا ) قيل الخطاب للرسول عليه  
الصلاة والسلام والجمع للتعظيم وقيل له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين وقيل

للفائزين بطريق الإلتفات ولا يخفى بعده (١) نعم يجوز أن يكون للسكل على ضرب من التغليب وأيا ما كان فالجملة تعليل للأمر وتأكيده لموجبه أما على الوجهين الأولين فبطريق الترغيب والترهيب كأبه قيل إن الله خبير بما تعملونه من الإمتثال وتركه فيرتب على كل منهما جزاءه ثوابا وعقابا وأما على الوجه الأخير فبطريق الترغيب فقط كأنه قيل إن الله خبير بما يعمل به كلا الفريقين فيرشدك إلى ما فيه صلاح حالك وانتظام أمرك ويطلعك على ما يعملونه من المسكائد والمفاسد ويأمرك بما ينبغي لك أن تعمله في دفعها وردعها فلا يبد من اتباع الوحي والعمل بمقتضاه حتما ﴿ وتوكل على الله ﴾ أى فوض جميع أمورك إليه ﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ حافظا موكولا إليه كل الأمور .

### العلاقات الزوجية

﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ شروع في إلقاء الوحي الذى أمر عليه الصلاة والسلام باتباعه وهذا مثل ضربه الله تعالى تمهيدا لما يعقبه من قوله تعالى .

﴿ وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ وتلبيها على أن كون المظاهر منها أما وكون الداعى أبنا أى بمنزلة بمنزلة الأم والابن فى الآثار والأحكام المعهودة فيما بينهم فى الاستحالة اجتماع قلبين فى جوف واحد وقيل هو رد لما كانت العرب تزعم من أن اللبيب الأريب له قلبان ولذلك قيل لأبى معمر أو لجميل بن أسيد الفهرى ذو القلبين أى ما جمع الله تعالى قلبين فى رجل وذكر الجوف لزيادة التقرير كما فى قوله تعالى (ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) ولا زوجية ولا أمومة فى امرأة ولا دعوة وبنوة فى شخص لكن لا بمعنى نفى الجمع بين حقيقة الزوجية والأمومة ونفى الجمع بين حقيقة الدعوة والبنوة كما فى القلب ولا بمعنى نفى الجمع بين أحكام

• (١) يعنى أنه بعيد عن الفهم الصحيح .



الزوجية وأحكام الأمومة ونفى الجمع بين أحكام الدعوة وأحكام النبوة على الإطلاق ، بل بمعنى نفى الجمع بين حقيقة الزوجية وأحكام الأمومة ونفى الجمع بين حقيقة الدعوة وأحكام النبوة لإبطال ما كانوا عليه من إجراء أحكام الأمومة على المظاهر منها وإجراء أحكام النبوة على الدعى ومعنى الظاهر أن يقول لزوجته أنت على كظهر أى مأخوذ من الظهر باعتبار اللفظ كالتلبية من إبيك وتعديته بمن لتضمنه معنى التجنب لأنه كان طلاقاً فى الجاهلية وهو فى الإسلام يقتضى الطلاق أو الحرمة إلى أداء الكفارة كما عدى آلى بها وهو بمعنى حلف وذكر الظاهر للكنائية عن البطن الذى هو عموده فإن ذكره قريب من ذكر الفرج أو للتغليظ فى التحريم فإسهم كانوا يحرمون إتيان الزوجة وظهرها إلى السماء وقرىء اللالى قرىء اللاء وقرىء تظاهرون بحذف إحدى التاءين من تتظاهرون وتظاهرون بإدغام التاء الثانية فى الظاء وتظهورون من أظهر بمعنى تظهر وتظهورون من ظهر بمعنى ظاهر كعمد بمعنى عائد وتظهورون من ظهر ظهوراً وأدعياء جمع دعى وهو الذى يدعى ولداً على الشذوذ لإختصاص أفعلاء بفعيل بمعنى فاعل كتنقى وأنقياء كأنه شبه به فى اللفظ لجمع جمعه كقتلاء وأسراء .

( ذلكم ) إشارة إلى ما يفهم مما ذكر من الظاهر والدعاء أو إلى الأخير الذى هو المقصود من مساق الكلام أى دعاءكم بقولكم هذا أبى ( قولكم بأفواهكم ) فقط من غير أن يكون له مصداق وحقيقة فى الأعيان فإذا هو بمعول من استتباع أحكام النبوة كما زعمتم ( والله يقول الحق ) المطابق للواقع ( وهو يهدى السبيل ) أى سبيل الحق لا غير فدعوا أقوالكم وخذوا بقوله عز وجل ( ادعواهم لأبائهم ) أى أنسبواهم إليهم وخصوهم بهم وقوله تعالى : ( هو أقسط عند الله ) تعليل له والضمير لمصدر ادعوا كما فى قوله تعالى . ( اعدلوا هو أقرب للتقوى ) وأقسط أفعل تفضيل قصديه الزيادة مطلقاً من القسط بمعنى العدل أى الدعاء لأبائهم بالغ فى العدل والصدق فى حكم الله تعالى وقضائه ( فإن لم تعلموا آبائهم ) فنسبواهم إليهم ( فإخوانكم ) فهم إخوانكم ( فى الدين ومواليكم ) وأولياؤكم فيه أى فادعواهم بالأخوة الدينية والمولوية ( وليس عليكم جناح ) أى لائم ( فيما أخطأتم به ) أى فيما فلتتموه من ذلك مخطئين

بالسهو أو النسيان أو سبق اللسان ﴿ ولكن ما تعمدت قلوبكم ﴾ أى ولكن الجناح فيما تعمدت قلوبكم بعد النهى أو ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح ﴿ وكان الله غفورا رحيمًا ﴾ لعفوه عن الخطيئة وحكم التنبئ بقوله هو أبى إذا كان عبداً لقائل العتق على كل حال ولا يثبت نسبه منه إلا إذا كان مجهول النسب وكان بحيث يولد مثله لمثل المتنبئ ولم يقر قبله بنسبه من غيره .

﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ أى فى كل أمر من أمور الدين والدنيا كما يشهد به الإطلاق فيجب عليهم أن يكون عليه الصلاة والسلام أحب إليهم من أنفسهم وحكمه أنفذ عليهم من حكمها وحقه أثر لديهم من حقوقها وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها روى أنه عليه الصلاة والسلام أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال أنس نستاذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت وقرئ وهو أب لهم أى فى الدين فإن كل نبي أب لأمتة من حيث إنه أصل فيما به الحياة الأبدية ولذلك صار المؤمنون إخوة ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ أى منزلات منزلة الأمهات فى التحريم واستحقاق التعظيم وأما فيما عدا ذلك فهن كالأجنبيات ولذلك قالت عائشة رضى الله عنها لسنا أمهات النساء ﴿ وأولو الأرحام ﴾ أى ذوو القربات ﴿ بعضهم أولى ببعض ﴾ فى التوارث وهو نسخ لما كان فى صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالة فى الدين ﴿ فى كتاب الله ﴾ فى اللوح أو فيما أنزله وهو هذه الآية أو آية الموارث أو فيما فرض الله تعالى ﴿ من المؤمنين والمهاجرين ﴾ بيان لأولى الأرحام أو صلة لأولى أى أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة ﴿ إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا ﴾ استثناء من أعم ما تقدّر الأولوية فيه من النفع والمراد بفعل المعروف التوصية أو منقطع ﴿ كان ذلك فى الكتاب مسطورًا ﴾ أى كان ما ذكر من الآيتين ثابتًا فى اللوح أو القرآن وقيل فى التوراة ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ﴾ أى اذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين الحق ﴿ ومنك ومن نوح وإبراهيم ﴾ ( ٢٦ - أبو السعود - رابع )

وموسى وعيسى ابن مريم) وتخصيصهم بالذكر مع اندراجهم فى النبيين اندراجاً بيناً للإيدان بمزيد من نعمهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأساطين أولى العزم من الرسل وتقديم نبينا عليهم الصلاة والسلام لإبانة خطره الجليل (وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) أى عهداً عظيم الشأن أو مؤكداً باليمين وهذا هو الميثاق الأول بعينه وأخذه هو أخذه والعطف مبنى على تنزيل التغاير العنوانى منزلة التغاير الذاتى تفخيماً لشأنه كما فى قوله تعالى (ونجيناهم من عذاب غليظ) إثر قوله تعالى (فلما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا) وقوله تعالى :

(ليسأل الصادقين عن صدقهم) متعلق بمضمر مستأنف مسوق لبيان ما هو داع إلى ما ذكر من أخذ الميثاق وغاية له لا بأخذنا فإن المقصود تذكير نفس الميثاق ثم بيان الغرض منه بيانا قصدياً كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالإلتفات إلى الغيبة أى فعل الله ذلك ليسأل يوم القيامة الأنبياء ووضع الصادقين موضع ضميرهم للإيدان من أول الأمر بأنهم صادقون فيما سئلوا عنه وإنما السؤال لحكمة تقتضيه أى ليسأل الأنبياء الذين صدقوا عهدهم عما قالوه لقومهم أو عن تصديقهم لإيائهم تسكيناً لهم كما فى قوله تعالى ( يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ) أو المصدقين لهم عن تصديقهم فإن مصدق الصادق صادق وتصديقه صدق وأما ما قيل من أن المعنى ليسأل المؤمنين الذين صدقوا عهدهم حين أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهدهم فيأباه مقام تذكير ميثاق النبيين وقوله تعالى (وأعد للكافرين عذاباً أليماً) عطف على ما ذكر من المضمر لا على أخذنا كما قيل والتوجيه بأن بعثة الرسل وأخذ الميثاق منهم لإثابة المؤمنين أو بأن المعنى أن الله تعالى أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين تعسف ظاهر مع أنه مفضل إلى كون بيان لإعداد العذاب الأليم للكافرين غير مقصود بالذات نعم يجوز عطفه على ما دل عليه قوله تعالى ليسأل الصادقين كأنه قيل فأناب المؤمنين وأعد للكافرين الآية .

من نعم الله على المسلمين

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) إن جعل النعمة مصدرا فالجار متعلق بها وإلا فهو متعلق بمحذوف هو حال منها أى كائنة عليكم (إذ جاءكم جنود) ظرف لنفس النعمة أو لثبوتها لهم وقيل منصوب باذكروا على أنه بدل اشتمال من نعمة الله والمراد بالجنود الأحزاب وهم قريش وعطفان ويهود قريظة والنضير وكانوا زهاء اثني عشر ألفاً فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ياقبالمهم ضرب الخندق على المدينة بإشارة سلمان الفارسي ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق في المنافقين حتى قال معتب بن قشير كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدود وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب ومرداس أخو بني محارب قد ركبوا خيولهم وتيمموا من الخندق مكانا مضيقا فضربوا خيولهم فالتحموا فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع ففرج على بن أبي طالب رضى الله عنه في نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثغرة التي اقتحموا منها فأقبلت الفرسان نحوهم وكان عمرو معلما ليرى مكانه فقال له على رضى الله عنه يا عمرو إني أدعوك إلى الله ورسوله والإسلام قال لا حاجة لى إليه قال فإني أدعوك إلى النزال قال يا ابن أخى والله إني لا أحب أن أقتلك قال على لكفى والله أحب أن أقتلك فخمى عمرو عند ذلك وكان غيورا مشهورا بالشجاعة واقتحم عن فرسه فعقره أو ضرب وجهه ثم أقبل على على فقتلوا وتجاوزا لفضربه على رضى الله عنه ضربة ذهبت فيها نفسه فلما قتله انهزمت خيله حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع عمرو رجلا من بني عثمان بن عبد الله بن نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي قتله أيضا على رضى الله عنه وقيل لم يكن بينهم إلا الترامى بالنبل والحجارة حتى أنزل الله تعالى النصر وذلك قوله تعالى :

(فأرسلنا عليهم ريحا) عطف على جاءكم مسوق لبيان النعمة إجمالا وسيأتي بقيتها في آخر القصة (وجنودا لم تروها) وهم الملائكة عليهم السلام وكانوا ألفا بعث الله عليهم صبا باردة في ليلة شاتية فأخصرتهم وسفت التراب في وجوههم وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب وأطفأت النيران وأكفأت القدور وماجت الخيل بعضها في بعض وقذف في قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم فقال طليحة بن خويلد الأسدي أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالتجاء التجاء فانزموا من غير قتال (وكان الله بما تعملون) من حفر الخندق وترتيب مبادئ الحرب وقيل من التجائكم إليه ورجائكم من فضله وقرىء بالياء أى بما يعمل الكفار أى من التحرز والمحاربة أو من الكفر والمعاصى (بصيرا) ولذلك فعل ما فعل من نصركم عليهم والجملة اعتراض مقرر لما قبله (إذ جاؤكم) بدل من إذ جاءكم (من فوقكم) من أعلى الوادى من جهة المشرق وهم بنو غطفان ومن تابعهم من أهل نجد قاندهم عيينة بن حصن وعامر بن الطفيل فى هوازن وضامتهم اليهود من قريظة والنضير (ومن أسفل منكم) أى من أسفل الوادى من قبل المغرب وهم قريش ومن شايعهم<sup>(١)</sup> من الأحابيش وبني كنانة وأهل تهامة وقاندهم أبو سفيان وكانوا عشرة آلاف (وإذا زاغت الأبصار) عطف على ما قبله داخل معه فى حكم التذكير أى حين مالت عن سفنها وانحرفت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصا وقيل عدلت عن كل شىء فلم تأتفت إلا إلى عدوها لشدة الروح (وبلغت القلوب الحناجر) لأن الرئة تنفخ من شدة الفزع فيرتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحجر وهى متتهى الخلقوم وقيل هو مثل فى اضطراب القلوب ووجيها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة<sup>(٢)</sup> والخطاب فى قوله تعالى .

(وتظنون بالله الظنونا) لمن يظهر الإيمان على الإطلاق أى تظنون بالله تعالى أنواع الظنون المختلفة حيث ظن المخلصون الثبت القلوب أن الله تعالى

ينجز وعده في إعلاء دينه كما يعرب عنه ما سيحكي عنهم من قولهم (هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله) الآية أو يمتحنهم بخافوا الزلزل وضعف الاحتمال والضعاف القلوب والمنافقون ما حكى عنهم مما لا خير فيه والجملة معطوفة على زأغت وصيغة المضارع لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار وقرى الظنون بغير ألف وهو القياس وزيادتها لمرعاة الفواصل كما تزداد في القوافي ﴿ هنالك ﴾ ظرف زمان أو ظرف مكان لما بعده أى في ذلك الزمان الهائل أو المكان الدحض ﴿ ابتلى المؤمنين ﴾ أى عوملوا معاملة من يختبر فظهر المخلص من المنافق والراسخ من المتزلزل ﴿ وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ من الهول والفزع وقرى بفتح الزاى ﴿ وإذ يقول المنافقون ﴾ عطف على إذ زأغت وصيغة المضارع لما مر من الدلالة على استمرار القول واستحضار صورته ﴿ والذين في قلوبهم مرض ﴾ أى ضعف اعتقاد ﴿ ما وعدنا الله ورسوله ﴾ من إعلاء الدين والظفر ﴿ إلا غرورا ﴾ أى وعد غرور وقيل قولاً باطلا والقاتل معتب بن قشير وأضرابه راضون به قال وعدنا محمد بفتح كنهوز كسرى وقصر وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقا ما هذا إلا وعد غرور .

﴿ وإذ قالت طائفة منهم ﴾ هم أوس بن قيطى وأتباعه وقيل عبد الله ابن أبى وأشباعه ﴿ يا أهل يثرب ﴾ هو اسم المدينة المطهرة وقيل اسم بقعة وقعت المدينة في ناحية منها وقد نهى النبي عليه الصلاة والسلام أن تسمى بها كراهة لها وقال هى طيبة أو طابة كأنهم ذكروها بذلك الاسم مخالفة له عليه الصلاة والسلام وفداؤهم لإياهم بعنوان أهليتهم لها ترشيح لما بعده من الأمر بالرجوع إليها ﴿ لا مقام لكم ﴾ لا موضع إقامة لكم أو لا إقامة لكم ههنا يريدون المعسكر وقرى بفتح الميم أى لا قيام أو لا موضع قيام لكم ﴿ فارجعوا ﴾ أى إلى منازلكم بالمدينة مرادهم الأمر بالفرار لكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويحاً لمقاتلهم وإيذاناً بأنه ليس من قبيل الفرار المذموم وقيل المعنى لا قيام لكم فى دين محمد عليه الصلاة والسلام فارجعوا إلى ما كنتم عليه من الشرك أو فارجعوا عما يابتموه عليه وأسلموه إلى أعدائه أو لا مقام لكم فى يثرب فارجعوا كفاراً

ليتنسّى لكم المقام بها والاول هو الانسب لما بعده فإن قوله تعالى ﴿ ويستأذن فريق منهم النبي ﴾ معطوف على قالت وصيغة المضارع لما مر من استحضار الصورة وهم بنو حارثة وبنو سلة استأذنوه عليه الصلاة والسلام في الرجوع بممثلين بأمرهم وقوله تعالى ﴿ يقولون ﴾ بدل من يستأذن أو حال من فاعله أو استئناف مبني على السؤال عن كيفية الاستئذان ﴿ إن يوتنا عورة ﴾ أى غير حصينة معرضة للعدو والسرقة فأذن لنا حتى نحصنها ثم نرجع إلى العسكر والعورة في الأصل الخلل أطلقت على المختل مبالغة وقد جوز أن تكون تخفيف عورة من عورت الدار إذا اختلت وقد قرئ بها والاول هو الانسب بمقام الاعتذار كما يفسح عنه تصدير مقالهم بحرف التحقيق ﴿ وما هي بعورة ﴾ والحال أنها ليست كذلك ﴿ إن يريدون ﴾ ما يريدون بالاستئذان ﴿ إلا فرارا ﴾ من القتال .

﴿ ولو دخلت عليهم ﴾ أسند الدخول إلى يوتهم وأوقع عليهم لما أن المراد فرض دخولها مطلقا كما هو المفهوم لو لم يذكر الجار والمجرور ولا قرى الدخول عليهم مطلقا كما هو المفهوم لو أسند إلى الجار والمجرور ﴿ من أقطارها ﴾ أى من جميع جوانبها لا من بعضها دون بعض فالمعنى لو كانت يوتهم مختلة بالكلية ودخلها كل من أراد من أهل الدعارة والفساد ﴿ ثم سئلوا ﴾ من جهة طائفة أخرى عند تلك النازلة والرجفة الهائلة ﴿ الفتنة ﴾ أى الردة والرجعة إلى الكفر مكان ما سئلوا الآن من الإيمان والطاعة ﴿ لآتوها ﴾ لأعطوها غير مباين بما دهاهم من الداهية الدهياء والغارة الشعواء وقرى لآتوها بالقصر أى لفعلوها وجاؤها ﴿ وما تلبثوا بها ﴾ بالفتنة أى ما لبثوا بها وما أخروها ﴿ إلا يسيرا ﴾ ريثما يسع السؤال والجواب من الزمان فضلا عن التعلل باختلال البيوت مع سلامتها كما فعلوا الآن وقيل ما لبثوا بالمدينة بعد الارتداد إلا يسيرا والاول هو اللائق بالمقام هذا وأما تخصيص فرض الدخول بتلك العساكر المعترضة فمع منافاته للمعوم المستفاد من تجريد الدخول عن الفاعل ففيه ضرب من فساد الوضع لما عرفت من أن مساق النظم الكريم لبيان أنهم إذا دعو إلى

الحق تعللوا بشيء يسير وإن دعوا إلى الباطل سارعوا إليه آثر ذى أثر من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم ففرض الدخول عليهم من جهة العساكر المذكورة وإسناد سؤال الفتنة والدعوة إلى الكفر إلى طائفة أخرى من مع أن العساكر هم المعروفون بعداوة الدين المباشرون لقتال المؤمنين المصرون على الإعراض عن الحق المجدون في الدعاء إلى الكفر والضلال بمعزل من التقريب .

﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ﴾ فإن بنى حارثة عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين فشلوا أن لا يعودوا لمثله وقيل هم قوم غابوا عن وقعة بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة فقالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن ﴿ وكان عهد الله مسئولا ﴾ مطلوباً مقتضى حق يوفى به وقيل مسئولا عن الوفاء به وبجأى عليه ﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ﴾ فإنه لا بد لكل شخص من حثف أنف أو قتل سيف في وقت معين سبق به القضاء وجرى عليه القلم ﴿ وإذن لا تمتعون إلا قليلا ﴾ أى وإن نفعكم الفرار مثلاً فتعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتع إلا تمثيلاً قليلاً أو زماناً قليلاً ﴿ قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ﴾ أى أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فاختصر الكلام أو حمل الثانى على الأول لما فى العصمة من معنى المنع ﴿ ولا يجحدون لهم من دون الله وليا ﴾ ينفعهم ﴿ ولا نصيراً ﴾ يدفع عنهم الضرر ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾ أى المشبطين للناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المنافقون ﴿ والقائلين لإخوانهم ﴾ من منافق المدينة ﴿ هلم إلينا ﴾ وهو صوت سمى به فعل متعدد نحو احضر أو قرب ويستوى فيه الواحد والجماعة على لغة أهل الحجاز وأما بنو تميم فيقولون هلم يا رجل وهلموا يا رجال أى قربوا أنفسكم إلينا وهذا يدل على أنهم عند هذا القول خارجون من المعسكر متوجهون نحو المدينة ﴿ ولا يأتون بالبأس ﴾ أى الحراب والقتال ﴿ إلا قليلا ﴾ أى إتيانا أو زماناً أو بأساً قليلاً فإنهم يعتذرون ويثبطون ما أمكن لهم ويخرجون مع المؤمنين يوهمونهم



أنهم معهم ولا ترام يارزون ويقاتلون إلا شيئاً قليلاً إذا اضطروا إليه كقوله تعالى ( ما قاتلوا إلا قليلاً ) وقيل لأنه من تنمة كلامهم معناه ولا يأتي أصحاب محمد حرب الأحزاب ولا يقاومونهم إلا قليلاً .

( أشحة عليكم ) أى بخلاء عليكم بالمعاونة أو النفقة فى سبيل الله أو الظفر والغنيمة جمع شحيح ونصبه على الحالية من فاعل يأتون من المعوقين أو على الذم ( فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم ) فى أحداقهم ( كالذى يغشى عليه من الموت ) صفة لمصدر ينظرون أو حال من فاعله أو لمصدر تدور أو حال من أعينهم أى ينظرون نظراً كائننا كنظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذراً وخوراً ولو ذأ بك أو ينظرون كائنين كالذى الخ أو تدور أعينهم دورانا كائنا كدوران عينه أو تدور أعينهم كائنة كعينه ( فإذا ذهب الخوف ) وحيزت الغنائم ( سلقوكم ) ضربوكم ( بالسنة حداد ) وقالوا وفروا قسمتنا فإننا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم وبمكائنا غلبتم عدوكم وبنا نصرتم عليه والسلق البسط بقهر باليد أو باللسان وقرىء سلقوكم ( أشحة على الخير ) نصب على الحالية أو الذم ويؤيده القراءة بالرفع ( أولئك ) الموصوفون بما ذكر من صفات السوء ( لم يؤمنوا ) بالإخلاص ( فأحبط الله أعمالهم ) أى أظهر بطلانها إذ لم يثبت لهم أعمال فتبطل أو أبطل تصنعهم ونفاقهم فلم يبق مستتبعا لمنفعة دنيوية أصلاً ( وكان ذلك ) الإحباط<sup>(١)</sup> ( على الله يسيراً ) هيناً وتخصيص يسره بالذكر مع أن كل شئ عليه تعالى يسير لبيان أن أعمالهم حقيقة بأن يظهر حبوطها لسكال تعاضد الدواعى وعدم الصوارف بالكلية ( يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ) أى هؤلاء لجبنهم يظنون أن الأحزاب لم ينهزموا ففروا إلى داخل المدينة ( وإن يأت الأحزاب ) كرة ثانية ( يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب ) تمنوا أنهم خارجون إلى البدو حاصلون بين الأعراب وقرىء بدى جمع باد كغاز وغزى ( يسألون ) كل قادم من جانب

المدينة وقرىء يساملون أى يتساملون ومعناه يقول بعضهم لبعض ماذا سمعت ماذا بلغت أو يتساملون الأعراب كما يقال رأيت الهلال وترايناه فإن صيغة التفاعل قد تجرد عن معنى كون ما أسندت إليه فاعلامن وجه ومفعولا من وجه ويكتفى بتعدد الفاعل كما فى المثال المذكور ونظائره ﴿عن أنباءكم﴾ عما جرى عليكم ﴿ولو كانوا فيكم﴾ هذه الـكرة ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال ﴿ما قاتلوا إلا قليلا﴾ رياء وخوفا من التعيير ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾ خصلة حسنة حقها أن يؤتى بها كالثبات فى الحرب ومقاساة الشدائد أو هو فى نفسه قدوة يحق التأسى به كقولك فى البيضة عشرون منا حديدا أى هى فى نفسها هذا القدر من الحديد وقرىء بكسر الهمزة وهى لغة فيها ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ أى ثواب الله أو لقاءه أو أيام الله واليوم الآخر خصوصا وقيل هو مثل قولك أرجو زيدا وفضله فإن اليوم الآخر من أيام الله تعالى ولمن كان صلة لحسنة أو صفة لها وقيل بدل من لكم والاكثر على أن ضمير المخاطب لا يبدل منه ﴿وذكر الله﴾ أى وقرن بالرجاء ذكر الله ﴿كثيرا﴾ أى ذكر كثيرا أو زمانا كثيرا فإن المشارة على ذكره تعالى تؤدى إلى ملازمة الطاعة وبها يتحقق الإلتساء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب﴾ بيان لما صدر عن خالص المؤمنين عند اشتباه الشؤن واختلاف الظنون بعد حكاية ما صدر عن غيرهم أى لما شاهدوهم حسبما وصفوا لهم ﴿قالوا هذا﴾ مشيرين إلى ما شاهدوه من حيث هو من غير أن يخطر ببالهم لفظ يدل عليه فضلا عن تذكره وتأنينه فإنهما من أحكام اللفظ كما مر فى قوله تعالى ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ردى﴾ وجعله إشارة إلى الخطب أو البلاء من نتائج النظر الجليل فتدبر نعم يحوز التذكير باعتبار الخبر الذى هو ﴿ما وعدنا الله ورسوله﴾ فإن ذلك العنوان أول ما يخطر ببالهم عند المشاهدة ومرادهم بذلك ما وعدوه بقوله تعالى ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء﴾ إلى قوله تعالى ﴿ألا إن

نصر الله قريب ) وقوله عليه الصلاة والسلام سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم، وقوله عليه الصلاة والسلام إن الأحزاب سائرون إليكم بعد تسع ليال أو عشر وقرىء بكسر الراء وفتح الهمزة ( وصدق الله ورسوله ) أى ظهر صدق خبر الله تعالى ورسوله أو صدقا فى النصرة والثواب كما صدقا فى البلاء وإظهار الاسم للتعظيم ( وما زادهم ) أى ما رأوه ( إلا إيماننا ) بالله تعالى وبمواعيده ( وتسليما ) لأوامره ومقاديره .

( من المؤمنين ) أى المؤمنين بالإخلاص مطلقا لا الذين حكيت محاسنهم خاصة ( رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ) من الثبات مع الرسول عليه الصلاة والسلام والمقاتلة لأعداء الدين وهم رجال من الصحابة رضى الله عنهم نذروا أنهم إذا لقوا حربا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل وحمة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومعنى صدقوا أتوا بالصدق من صدقنى إذا قال لك الصدق ومحل ما عاهدوا النصب إما بطرح الخافض عنه وإيصال الفعل إليه كما فى قولهم صدقنى سن بكره أى فى سنه ولما يجعل المعاهد عليه مصدوقا على المجاز كأنهم خاطبوه خطاب من قال لكرمائه :

• نحررتى الأعداء إن لم تنحرى •

وقالوا له سنفى بك<sup>(١)</sup> وحيث وفوا به فقد صدقوه ولو كانوا نكثوه لكانوا مكذوبا ( فمنهم من قضى نحبه ) تفصيل لحال الصادقين وتقسيم لهم إلى قسمين والنحب النذر وهو أن يلتزم الإنسان شيئا من أعماله ويوجهه على نفسه وقضاؤه الفراغ منه والوفاء به ومحل الجار والمجرور الرفع على الابتداء على أحد الوجهين المذكورين فى قوله تعالى ( ومن الناس من يقول

(١) فى ١١ : سنفى به :

آمنّا بالله) الآية أى فبعضهم أو فبعض منهم من خرج عن المهددة كحزمة ومصعب ابن عمير وأنس بن النضر عم أنس بن مالك وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فإنهم قد قضوا نذورهم سواء كان النذر على حقيقته بأن يكون ما نذروه أفعالهم الاختيارية التى هى المقاتلة المغياة بما ليس منها ولا يدخل تحت النذر وهو الموت شهيداً أو كان مستعاراً للالتزامه على ما سيأتى .

(ومنهم) أى وبعضهم أو وبعض منهم (من ينتظر) أى قضاء نجه لكونه موقناً كعثمان وطلحة وغيرهما ممن استشهد بعد ذلك رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فإنهم مستمرون على نذورهم قد قضوا بعضها وهو الثبات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقتال إلى حين زول الآية الكريمة ومنتظرون لقضاء بعضها الباقي وهو القتال إلى الموت شهيداً هذا ويجوز أن يكون النحب مستعاراً للالتزام الموت شهيداً إما بتنزيل التزام أسبابه التى هى أفعال اختيارية للناذر منزلة التزام نفسه وإما بتنزيل نفسه منزلة أسبابه وإيراد الالتزام عليه وهو الأنسب بمقام المدح وأيا ما كان ففى وصفهم بالانتظار المتين عن الرغبة فى المنتظر شهادة حقة بكال اشتياقهم إلى الشهادة وأما ما قيل من أن النحب استعير للموت لأنه كنذر لازم فى رقبة كل حيوان فمسخ للاستعارة وذهاب برونقها وإخراج للنظم الكريم عن مقتضى المقام بالسكينة (وما بدلوا) عطف على صدقوا وفاعله فاعله أى وما بدلوا عهدهم وما غيروه (تبديلاً) أى تبديلاً ما لا أصلاً ولا وصفاً بل ثبتوا عليه راغبين فيه مراعين لحقوقه على أحسن ما يكون أما الذين قضوا فظاهروا وأما الباقيون فيشهد به انتظارهم أصدق شهادة وتعميم عدم التبديل للفريق الأول مع ظهور حالهم للايذان بمساواة الفريق الثانى لهم فى الحكم ويجوز أن يكون ضمير بدلوا للمتظرين خاصة بناء على أن المحتاج إلى البيان حالهم وقد روى أن طلحة رضى الله عنه ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حتى أصيبت يده فقال عليه الصلاة والسلام أوجب طلحة الجنة وفى رواية أوجب طلحة وعنه عليه الصلاة والسلام فى رواية جابر رضى الله عنه من سره أن ينظر إلى شهيد يمشى على الأرض فليتنظر إلى طلحة بن عبيد الله

وفي رواية عائشة رضى الله عنها من سره أن ينظر إلى شهيد يمشى على الأرض وقد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة وهذا يشير إلى أنه من الأولين حكما .

( ليجزى الله الصادقين بصدقهم ) متعلق بمضمر مستأنف مسوق بطريق الفضلك لبيان ما هو داع إلى وقوع ما حكى من الأحوال والأقوال على التفصيل وغاية له كما مر في قوله تعالى ( ليسأل الصادقين عن صدقهم ) كأنه قيل وقع جميع ما وقع ليجزى الله الصادقين بما صدر عنهم من الصدق والوفاء قولاً وفعلًا ( ويعذب المنافقين ) بما صدر عنهم من الأعمال والأقوال المحكية ( إن شاء ) تعذيبهم ( أو يتوب عليهم ) إن تابوا وقيل متعلق بما قبله من نفى التبديل المنطوق وإثباته المعرض به كأن المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنی وقيل تعليل لصدقوا وقيل لما يفهم من قوله تعالى ( وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ) وقيل لما يستفاد من قوله تعالى ( ولما رأى المؤمنون الأحزاب ) كأنه قيل ابتلاهم الله تعالى برؤية ذلك الخطب ليجزى الآية فتأمل وبالله التوفيق ( إن الله كان غفورا رحيما ) أى لمن تاب وهو اعتراض فيه بحث إلى التوبة وقوله تعالى ( ورد الله الذين كفروا ) رجوع إلى حكاية بقية القصة وتفصيل النعمة المشار إليها إجمالا بقوله تعالى ( فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ) معطوف إما على المضمر المقدر قبل قوله تعالى ليجزى الله كأنه قيل إثر حكاية الأمور المذكورة وقع ما وقع من الحوادث ورد الله الخ وإما على أرسلنا وقد وسط بينهما بيان كون ما نزل بهم واقعة طامة تحيرت بها العقول والإفهام وداهية تامة تحاكت منها الركب وزلت الأقدام وتفصيل ما صدر عن فريق أهل الإيمان وأهل الكفر والنفاق من الأحوال والأقوال لإظهار عظم النعمة وإبانة خطرهما الجليل ببيان وصولها إليهم عند غاية احتياجهم إليها أى فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ورددنا بذلك الذين كفروا والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة وقوله تعالى ( بغيظهم ) حال من الموصول أى ملتبسين به وكذا قوله تعال ( لم ينالوا خيرا ) بتداخل أو تعاقب أى غير ظاهرين بخير أو الثانية بيان للأولى أو استئناف .

(وكفى الله المؤمنين القتال) بما ذكر من إرسال الريح والجنود (وكان الله قويا) على إحداث كل ما يريد (عزيزا) غالبا على كل شيء (وأزل الذين ظاهروهم) أى عاونوا الأحزاب المردودة (من أهل الكتاب) وهم بنو قريظة (من صياصيمهم) من حصونهم جميع صبيحة وهي ما يتحصن به ولذلك يقال لقرن الثور والظبي وشوكة الديك (وقذف في قلوبهم الرعب) الخوف الشديد بحيث أسلموا أنفسهم للقتل وأهليهم وأولادهم للأسر حسبما ينطق به قوله تعالى (فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) من غير أن يكون من جهتهم حراك فضلا عن المخالفة والاستعصاء روى أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صل الله عليه وسلم صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب ورجع المسلمون إلى المدينة ووضعوا السلاح فقال أتنزع لأمتك والملائكة ما وضعوا السلاح إن الله يأمرك أن تسير إلى بنى قريظة وأنا عاهد إليهم فأذن في الناس أن لا يصلوا العصر إلا ببني قريظة فحاصروهم إحدى وعشرين أو خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فقال لهم تنزلون على حكمى فأبوا فقال على حكم سعد بن معاذ فرفضوا به فحكم سعد بقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم ونسأهم فكبر النبي عليه الصلاة والسلام وقال لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرفعة فقتل منهم ستمائة مقاتل وقيل من ثمانمائة إلى تسعمائة وأسر سبعمائة وقرىء تأسرون بضم السين كما قرىء الرعب بضم العين ولعل تأخير المفعول في الجملة النانية مع أن مساق الكلام لتفصيله وتقسيمه كما في قوله تعالى (ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) وقوله تعالى (فريقا كذبوا وفريقا يقتلون) لمراعاة الفواصل .

(وأورثكم أرضهم وديارهم) أى حصونهم (وأموالهم) نقودهم وأثاثهم ومواشيهم روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار فقالت الأنصار فى ذلك فقال عليه الصلاة والسلام لأنكم فى منازلكم فقال عمر رضى الله عنه أما تخمس كما خمست يوم بدر فقال عليه الصلاة والسلام لا إنما جعلت هذه لوطعمة دون الناس قالوا رضينا بما صنع الله ورسوله (وأرضنا لم تطؤوها) أى أورثكم فى علمه وتقديره أرضا لم تقبضوها بعد

كفارس والروم وقيل كل أرض تفتح إلى يوم القيامة وقيل خير ﴿وكان الله على كل شيء قديرا﴾ فقد شاهدتم بعض مقدوراته في إيراد الأراضى التي تسلمتموها فقيسوا عليها ما عداها ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا﴾ أى السعة والتنعم فيها ﴿وزيبتها﴾ وزخارفها ﴿فتعالين﴾ أى أقبلن بإرادتك واختياركن لإحدى المصلتين كما يقال أقبل بخاصمى وذهب يكلمنى وقام يهدنى ﴿أمتعن﴾ بالجزم جوابا للأمر وكذا ﴿وأسر حكن﴾ أى أعطىكن المتعة وأطلقن ﴿سراحا جميلا﴾ طلاقا من غير ضرار وقرىء بالرفع على الاستئناف روى أنهم سألنه عليه الصلاة والسلام ثياب الزينة وزيادة النفقة فنزلت فبدأ بعائشة فغيرها فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ثم اختارت الباقيات اختيارها فشكرهن الله ذلك فنزل ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ واختلف في أن هذا التخيير هل كان تفويض الطلاق إليهن حتى يقع الطلاق بنفس الاختيار أو لا فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم إلى أنه لم يكن تفويض الطلاق وإنما كان تخييراً لمن بين الإرادتين على أنهم إن أردن الدنيا فارقهن عليه الصلاة والسلام كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿فتعالين أمتعن وأسرحكن﴾ وذهب آخرون إلى أنه كان تفويضا للطلاق إليهن حتى لو أنهن اخترن أنفسهن كان ذلك طلاقا وكذا اختلف<sup>(١)</sup> في حكم التخيير فقال ابن عمر وابن مسعود وابن عباس رضى الله تعالى عنهم إذا خير رجل امرأته فاختارت زوجها لا يقع شيء أصلا ولو اختارت نفسها وقعت طلقة بائنة عندنا ورجعية عند الشافعى وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبى ليلى وسفيان وروى عن زيد بن ثابت أنها إن اختارت زوجها يقع طلقة واحدة وإن اختارت نفسها يقع ثلاث طلقات وهو قول الحسن ورواية عن مالك وروى عن علي رضى الله عنه أنها إن اختارت نفسها فواحدة بائنة وروى عنه أيضا أنها إن اختارت زوجها لا يقع شيء أصلا وعليه إجماع فقهاء الأمصار وقد روى عن عائشة رضى الله

عنها خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه ولم يعده طلاقا وتقديم التمتع على التبرج من باب السكرم وفيه قطع لمعاذيرهن من أول الأمر والمنفعة في المطلقة التي لم يدخل بها ولم يفرض لها صداق عند العقد واجبة عندنا وفيما عداهن مستحبة وهي درع وخمار وملحفة بحسب السعة والاقتار إلا أن يكون نصف مهرها أقل من ذلك فحينئذ يجب لها الأقل منهما ولا ينقص عن خمسة دراهم ﴿وإن كنتم ترذون الله ورسوله﴾ أى ترذون رسوله وذكر الله عز وجل للإيذان بحلالة محله عليه الصلاة والسلام عنده تعالى ﴿والدار الآخرة﴾ أى نعيمها الذى لا قدر عنده لادنيا وما فيها جميعا ﴿فإن الله أعد للمحسنات منكم﴾ بمقابلة إحسانهن ﴿أجرا عظيما﴾ لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته ومن للتبيين لأن كلهن محسنات وتجريد الشرطية الأولى عن الوعيد للبالغة فى تحقيق معنى التخيير والاحتراز عن شائبة الاكراه وهو السرفيا ذكر من تقديم التمتع على التبرج وفى وصف السراح بالجمل .

#### خطاب إلى أمهات المؤمنين

﴿يا نساء النبي﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له لإيهن لإظهار الاعتناء بنصحهن ونداؤهن ههنا وفيما بعده بالإضافة إليه عليه الصلاة والسلام لأنها التى يدور عليها ما يرد عليهن من الأحكام ﴿من يأت منكم بفاحشة﴾ بكبيرة ﴿مبينه﴾ ظاهرة القبح من بين بمعنى تبين وقرىء بفتح الياء والمراد بها كل ما اقترفن من الكبائر وقيل هى عصيانهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونشوزهن وطلبين منه ما يشق عليه أو ما يضيق به ذرعه ويغتم لأجله وقرىء تأت بالفوقانية ﴿يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ أى يعذبن ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه لأن الذنب منهن أقبح فإن زيادة قبحه تابعة لزيادة فضل المذنب والمنفعة عليه ولذلك جعل حد الحر ضعف حد الرقيق وعوتب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما لا يعاتب به الأمم وقرىء يضعف على البناء للمفعول ويضاعف ويضعف بنون العظمة على البناء للفاعل ونصب العذاب ﴿وكان ذلك على الله يسيرا﴾ لا يمنعه من التضعيف كونهن نساء النبي عليه الصلاة والسلام بل يدعو له



لمراعاة حقه ﴿ ومن يقنت منكن ﴾ وقرىء بالتاء أى ومن يدم على الطاعة ﴿ لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتيها أجرا مرتين ﴾ مرة على الطاعة والتقوى وأخرى على طلبهن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقناعة وحسن المعاشرة وقرىء يعمل بالياء حملا على لفظ من ويؤتها على أن فيه ضمير اسم الله تعالى ﴿ وأعتدنا لها ﴾ فى الجنة زيادة على أجرها المضاعف ﴿ رزقا كريما ﴾ مرضيا ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ﴾ أصل أحد واحد بمعنى الواحد ثم وضع فى النقي مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء فى الفضل والشرف ﴿ إن اتقيتن ﴾ مخالفة حكم الله تعالى ورضا رسوله أو إن اتصفتن بالتقوى كما هو اللائق بحالكن ﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ عند مخاطبة الناس أى لا تجبن بقولكن خاضعا لينا على سنن قول المربيات والمومسات ﴿ فيطمع الذى فى قلبه مرض ﴾ أى فجور وريبة وقرىء بالجزم عطفا على محل فعل النهى على أنه نهى لمريض القلب عن الطمع غقيب نهين عن الإطماع بالقول الخاضع كأنه قيل فلا تخضعن بالقول فلا يطمع مريض القلب ﴿ وقلن قولا معروفا ﴾ بعيدا عن الريبة والإطماع بمجد وخشونة من غير تخنيث أو قولا حسنا مع كونه خشنا ﴿ وقرن فى بيوتكن ﴾ أمر من قر يقر من باب علم وأصله اقرن فحذفت الراء الأولى وألقيت فتحتما على ما قبلها كما فى قولك ظنن ، أو من قار يقار إذا اجتمع ، وقرىء بكسر القاف من وقر يقر وقارا إذا ثبت واستقر وأصله أو قرن ففعل به ما فعل بعدن من وعد أو من قر يقر حذفت احدى رأى اقرن ونقلت كسرتها إلى القاف كما تقول ظنن ﴿ ولا تبرجن ﴾ أى لا تتبخترن فى مشيكن ﴿ تبرج الجاهلية الأولى ﴾ أى تبرجا مثل تبرج النساء فى الجاهلية القديمة وهى ما بين آدم ونوح وقيل لإدريس ونوح عليهما السلام وقيل الزمان الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام كانت المرأة تلبس درعا من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال وقيل زمن داود وسليمان عليهما السلام والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وقيل الجاهلية الأولى الكفر والجاهلية الأخرى الفسوق فى الإسلام

ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام لا في الدرداء إن فيك جاهلية كفر أو جاهلية لإسلام قال بل جاهلية كفر ﴿ وأقن الصلوة وآتين الزكاة ﴾ أمرن بهما لإناقتهما على غيرهما وكونهما أصل الطاعات البدنية والمالية ﴿ وأطعن الله ورسوله ﴾ أى في كل مائتان وما تاذرن لا سيما فيما أدرتن به ونهيتهن عنه ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ﴾ أى الذنب المذنب لعرضكم وهو تطليل لأمرهن ونهيتهن على الاستئناف ولذلك عمم الحكم بتعميم الخطاب لغيرهن وصرح بالمقصود حيث قيل بطريق النداء أو المدح ﴿ أهل البيت ﴾ مراداً بهم من حوالم بيت النبوة ﴿ ويطهركم ﴾ من أوضار الأوزار والمعاصي ﴿ تطهيرا ﴾ بليغا واستعارة الرجس للمعصية والترشيح بالتطهير لمزيد التنفير عنها وهذه كما ترى آية بينة وحجة نيرة على كون نساء النبي عليه الصلاة والسلام من أهل بيته قاضية بإطلاق رأى الشيعة في تخصيصهم أهلية البيت بفاطمة وعلى وابنهما رضوان الله عليهم وأما ما تمسكوا به من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات غدوة وعليه مرط مرجل من شعر أسود وجلس فأنث فاطمة فأدخلها فيه ثم جاء على فأدخله فيه ثم جاء الحسن والحسين فأدخلهما فيه ثم قال إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت فإنما يدل على كونهم من أهل البيت لا على أن من عداهم ليسوا كذلك ولو فرضت دلالة على ذلك لما اعتد بها لكونها في مقابلة النص .

﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن ﴾ أى اذكرن للناس بطريق العظة والتذكير ما يتلى في بيوتكن ﴿ من آيات الله والحكمة ﴾ من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البينة الدالة على صدق النبوة بنظمه المعجز وكونه حكمة منطوية على قنون العلوم والشرائع وهو تذكير بما أنعم عليهن حيث جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحي وما شاهدن من برحاء الوحي مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة حثا على الانتهاء والانتباه فيما كلفنه والتعرض للتلاوة في البيوت دون النزول فيها مع أنه الأنسب لكونها مهبط الوحي لعمرها بلجميع الآيات ( ٧٧ - أبو السعود - الزايد )

ووقعها في كل البيوت وتكررها الموجب لتمسكهن من الذكر والتذكير بخلاف النزول وعدم تعيين التالى لنعم تلاوة جبريل وتلاوة النبي عليهما الصلاة والسلام وتلاوتهن وتلاوة غيرهن تعليما وتعلما ﴿إن الله كان لطيفا خبيرا﴾ يعلم ويدبر ما يصلح في الدين ولذلك فعل ما فعل من الأمر والنهي أو يعلم من يصلح للنبوّة ومن يستأهل أن يكون من أهل بيته ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ أى الداخلين في السلم المنقادين لحكم الله تعالى من الذكور والإناث ﴿والمؤمنين والمؤمنات﴾ المصدقين بما يجب أن يصدق به من الفريقين ﴿والقاتين والقاتنات﴾ المداومين على الطاعات القائمين بها ﴿والصادقين والصادقات﴾ في القول والعمل ﴿والصابرين والصابرات﴾ على الطاعات وعن المعاصي ﴿والخاشعين والخاشعات﴾ المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم ﴿والمتصدقين والمتصدقات﴾ بما وجب في ما لهم ﴿والصائمين والصائمات﴾ الصوم المفروض ﴿والحافظين وفروجهم والحافظات﴾ عن الحرام .

﴿والذاكرين الله كثيرا والذاكرات﴾ بقلوبهم وألسنتهم ﴿أعد الله لهم﴾ بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة ﴿مغفرة﴾ لما إقترفوا من الصغائر لأنهم مكفّرات بما عملوا من الأعمال الصالحة ﴿وأجرا عظيما﴾ على ما صدر عنهم من الطاعات والآيات وعد لهم ولا مثا لهم على الطاعة والتدبر هذه الخصال الحميدة روى أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنهن قلن يا رسول الله ذكر الله الرجال في القرآن بخير فما فينا خير نذكر به إنا نخاف أن لا تقبل منا طاعة فنزلت وقيل السائلة أم سلمة وروى أنه لما نزل في نساء النبي عليه الصلاة والسلام ما نزل قال نساء المؤمنين فما نزل فينا شيء فنزلت وعطف الإناث على الذكور لاختلاف الجلسين وهو ضرورى وأما عطف الزوجين على الزوجين فلتغاير الوصفين فلا يكون ضروريا ولذلك ترك في قوله تعالى مسلمات مؤمنات وفائدته الدلالة على أن مدار إعداد ما أعد لهم جمعهم بين هذه النعوت الجميلة ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة﴾ أى ما صح وما استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين والمؤمنات ﴿إذا قضى الله ورسوله أمرا﴾ أى

إذا قضى رسول الله وذكر الله تعالى لتعظيم أمره عليه الصلاة والسلام أولاً شعار بأن قضاءه عليه الصلاة والسلام قضاء الله عز وجل لأنه نزل في زينب بنت جحش بنت عمته أمة بنت عبد المطلب خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة فأبى هو وأخوها عبد الله وقيل في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهبت نفسها للنبي عليه الصلاة والسلام فزوجها من زيد فسنختط هي وأخوها وقالوا إنما أردنا رسول الله فزوجنا عبده ﴿ أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه عليه الصلاة والسلام واختيارهم تلوا لاختياره وجمع الضميرين لعموم مؤمن ومؤمنة لوقوعهما في سياق النفي وقيل الضمير الثاني للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم وقرئ تكون بالتاء ﴿ ومن يعص الله ورسوله ﴾ في أمر من الأمور ويعمل فيه برأيه ﴿ فقد ضل ﴾ طريق الحق ﴿ ضلالاً مبيناً ﴾ أى بين الانحراف عن سبيل الصواب .

﴿ وإذا تقول ﴾ أى وإذا ذكر وقت قولك ﴿ للذى أنعم الله عليه ﴾ بتوفيقه للإسلام وتوفيقك لحسن تربيته ومراعاته ﴿ وأنعمت عليه ﴾ بالعمل بما وفقك الله له من فنون الإحسان التى من جملتها تحريره وهو زيد بن حارثة ولإيراده بالعنوان المذكور لبيان منافاة حاله لما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من إظهار خلاف ما في ضميره إذ هو إنما يقع عند الاستحياء أو الاحتشام وكلاهما عما لا يتصور في حق زيد ﴿ أمسك عليك زوجك ﴾ أى زينب وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أبصرها بعد ما أنسكها إياه فوقع في نفسه حالة جبلية لا يكاد يسلم منها البشر فقال سبحانه الله مقلب القلوب وسمعت زينب بالترسيخ فذكرتها لزيد ففطن لذلك ووقع في نفسه كراهة صحبتها فأبى النبي عليه الصلاة والسلام وقال أريد أن أفارق صاحبتي فقال مالك أراك منها شيء قال لا والله ما رأيت منها إلا خيراً ولكنها لشرفها تتعظم على فقال له أمسك عليك زوجك ﴿ واتق الله ﴾ في أمرها فلا تطلقها لإضرارها وتعللاً بتكبرها ﴿ وتخفى في

نفسك ما الله مبديه) وهو نكاحها إن طلقها أو إرادة طلاقها) وتخشى  
 الناس) تعييرهم إياك به) والله أحق أن تخشاه) إن كان فيه ما يخشى والواو  
 للعالم وليست المعاتبة على الإخفاء وحده بل على الإخفاء غافة<sup>(١)</sup> قاله الناس.  
 وإظهار ما يتنافى إضماره فإن الأولى في أمثال ذلك أن يصمت أو يفوض الأمر  
 إلى ربه) فلما قضى زيد منها وطرا) بحيث لم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت  
 عدتها وقيل قضاء الوطر كناية عن الطلاق مثل لا حاجة لي فيك) (زوجنا كها)  
 وقرئ زوجتكها والمراد الأمر بتزويجها منه عليه الصلاة والسلام وقيل جعلها  
 زوجته بلا واسطة عقد ويؤيده أنها كانت تقول لسائر نساء النبي عليه الصلاة  
 والسلام إن الله تعالى تولى نكاحي وأنتم زوجكن أولياؤكن وقيل كان زيد  
 السفير في خطبتها وذلك ابتلاء عظيم وشاهد عدل بقوة إيمانه) لكيلا يكون  
 على المؤمنين حرج) ضيق ومشقة) (في أزواج أديعتهم) أى في حق  
 تزوجن) (إذا قضوا منهن وطرا) فإن لهم في رسول الله أسوة حسنة وفيه دلالة  
 على أن حكمه عليه الصلاة والسلام وحكم الأمة سواء إلا ما خصه الدليل) (وكان  
 أمر الله) أى ما يريد تكوينه من الأمور أو مأموره الحاصل بكن) (مفعولا)  
 مكونا لاعتالة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله) (ما كان على النبي من حرج)  
 أى ماصح وما استقام في الحكمة أن يكون له ضيق) (فيما فرض الله له) أى  
 قسم له وقدره من قوطم فرض له في الديوان كذا ومنه فروض العساكر  
 لأعطياتهم.

(سنة الله) اسم موضوع موضع المصدر كقولهم تربا وجندلا  
 مؤكدا لما قبله من نفى الحرج أى سن الله ذلك سنة) (في الذين خلوا)  
 مضوا) (من قبل) من الإنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث وسع عليهم في  
 باب النكاح وغيره ولقد كانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلاثمائة سرية  
 ولإسماعيل عليه السلام ثلاثمائة امرأة وسبع مائة سرية وقوله تعالى: (وكان أمر

الله قدرا مقدورا ﴿أى قضاء مقضيا وحكما مبتوتا اعتراض وسط بين الموصولين الجارين مجرى الواحد للمسارعة إلى تقرير نفى الحرج وتحقيقه﴾ الذين يبلغون رسالات الله ﴿صفة للذين خلوا أو مدح لهم بالنصب أو بالرفع وقرىء رسالة الله﴾ ويخشونه ﴿في كل ما يأتون ويذرون لا سيما في أمر تبليغ الرسالة حيث لا يخرمون منها حرفا ولا تأخذهم في ذلك لومة لائم﴾ ولا يخشون أحدا إلا الله ﴿في وصفهم بقصرهم الخشية على الله تعالى تعريض بما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من الاحتراز عن لائمة الخلق بعد التصريح في قوله تعالى : (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه)﴾ وكفى بالله حسيبا ﴿كافيا للمخاوف فينبغى أن لا يخشى غيره أو محاسبا على الصغيرة والكبيرة فيجب أن يكون حق الخشية منه تعالى .

﴿ما كان نحمد أبا أحد من رجالكم﴾ أى على الحقيقة حيث يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الوالد وولده من حرمة المصاهرة وغيرها ولا ينتقض عموم به بكونه عليه الصلاة والسلام أبا للطاهر والقاسم وإبراهيم لأنهم لم يبلغوا الحلم ولو بلغوا لمكانوا رجالا له عليه الصلاة والسلام لا لهم ﴿ولسكن رسول الله﴾ أى كان رسولا لله وكل رسول أبو أمته لكن لا حقيقة بل بمعنى أنه شفيق ناصح لهم وسبب حياتهم الأبدية وما زيد إلا واحدا من رجالكم الذين لا ولاد بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام لحكمه حكمهم وليس للنبى والادعاء حكم سوى التقريب والاختصاص ﴿وخاتم النبيين﴾ أى كان آخرهم الذين ختموا به وقرىء بكسر التاء أى كان خاتمهم ويؤيده قراءة ابن مسعود ولكن نبيا ختم النبيين وأياما كان قبله كان له ابن بالغ لكن نبيا ولم يكن هو عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين كما يروى أنه قال فى إبراهيم حين توفى لو عاش لكان نبيا ولا يقدح فيه نزول عيسى بعده عليهما السلام لأن معنى كونه خاتم النبيين أنه لا نبيا بعده أحد وعيسى من نبى قبله وحين ينزل إنما ينزل عاملا على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم مصليا إلى قبلته كأنه بعض أمته ﴿وكان الله بكل شئ عليما﴾ ومن جملة هذه الأحكام والحكم التى بينها لكم وكنتم منها فى شك مريب ﴿يا أيها الذين

آمنوا اذكروا الله ﴿ بما هو أهله من التهليل والتحميد والتمجيد والتقديس ﴾ ( ذكر أكثر كثيرا ) يعم الأوقات والأحوال ﴿ وسبحوه ﴾ وزهوه عما لا يليق به ﴿ بكرة وأصيل ﴾ أى أول النهار وآخره على أن تخصيهما بالذكر ليس لقصر التسبيح عليهما دون سائر الأوقات بل لإبانة فضلها على سائر الأوقات لكونهما مشهودين كأفراد التسبيح من بين الأذكار مع اندراجها فيها لكونه العمدة فيها وقيل كلا الفعلين متوجه إليهما كقولك صم وصل يوم الجمعة وقيل المراد بالتسبيح الصلاة ﴿ هو الذى يصلى عليكم ﴾ الخ استئناف جار مجرى (١) التعليل لما قبله من الأمرين فإن صلاته تعالى عليهم مع عدم استحقاقهم لها وغناه عن العالمين مما يوجب عليهم المداومة على ما يستوجبه تعالى عليهم من ذكره تعالى وتسبيحه تعالى ﴿ وملائكته ﴾ عطف على المستكن فى يصلى لمكان الفصل المعنى عن التأكيد بالمنفصل لكن لا على أن يراد بالصلاة الرحمة أولا والاستغفار ثانيا فإن استعمال اللفظ الواحد فى معنيين متغايرين مما لا مساغ له بل على أن يراد بهما معنى مجازى عام يكون كلا المعنيين فردا حقيقيا له وهو الاعتناء بما فيه خيرهم وصلاح أمرهم فإن كلا من الرحمة والاستغفار فرد حقيقى له أو الترحم والانعطاف المعنوى المأخوذ من الصلاة المشتملة على الانعطاف الصورى الذى هو الركوع والسجود ولا ريب فى أن استغفار الملائكة ودعائهم للمؤمنين ترحم عليهم وأما أن ذلك سبب للرحمة لكونهم مجابى الدعوة كما قيل فاعتباره ينزع إلى الجمع بين المعنيين المتغايرين فتدبر ﴿ لينخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ متعلق بيصلى أى يعتنى بأموركم هو وملائكته لينخرجكم بذلك من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة وقوله تعالى ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله أى كان بكافة المؤمنين الذين أتم من زميرتهم رحيما ولذلك يفعل بكم ما يفعل من الاعتناء بإصلاحكم بالذات وبالواسطة ويهديكم إلى الإيمان والطاعة أو كان بكم رحيما على أن المؤمنين مظهر وضع موضع

المضمّر مدحا لهم وإشعارا بعلّة الرحمة وقوله تعالى ﴿تحيّتهم يوم ياقونه سلام﴾ بيان للأحكام الآجلة لرحمة الله تعالى بهم بعد بيان آثارها العاجلة التي هي الاعتناء بأمرهم وهدايتهم إلى الطاعة أي ما يحبون به على أنه مصدر أضيف إلى مفعوله يوم لقائه عند الموت أو عند البعث من القبور أو عند دخول الجنة تسليم عليهم من الله عز وجل تعظيما لهم أو من الملائكة بشارة لهم بالجنة أو تكريمة لهم كما في قوله تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليهم) أو لإخبار بالسلامة عن كل مكروه وآفة وقوله تعالى ﴿وأعد لهم أجرا كريما﴾ بيان لآثار رحمته الفائضة عليهم بعد دخول الجنة عقيب بيان آثار رحمته الواصلة إليهم قبل ذلك ولعل إتيان الجملة الفعلية على الاسمية المناسبة لما قبلها بأن يقال مثلا وأجرهم أجر كريم أو لهم أجر كريم للمبالغة في الترغيب والتشويق إلى الموعود ببيان أن الأجر الذي هو المقصد الأقصى من بين سائر آثار الرحمة موجود بالفعل مهيأ لهم مع ما فيه من مراعاة الفواصل ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً﴾ على من بعثت إليهم تراقب أحوالهم وتشاهد أعمالهم وتنحمل منهم الشهادة بما صدر عنهم من التصديق والتكذيب وسائر ما هم عليه من الهدى والضلال وتؤديها يوم القيامة أداء مقبولا فيما لهم وما عليهم وهو حال مقدرة ﴿ومبشراً ونذيراً﴾ تبشر المؤمنين بالجنة وتنذر الكافرين بالنار ﴿وداعياً إلى الله﴾ أي إلى الإقرار به وبوحدانيته وبسائر ما يجب الإيمان به من صفاته وأفعاله ﴿يا ذنّه﴾ أي بتيسيره أطلق عليه مجازاً لما أنه من أسبابه وقيد به الدعوة لإذنا بأنها أمر صعب المتألم وخطب في غاية الإعضال لا يتأتى إلا بإمداد من جناب قدسه كيف لا وهو صرف للوجوه عن القبل المعبودة وإدخال للإعناق في قلادة غير معهودة ﴿وسراجاً منيراً﴾ يستضاء به في ظلمات الجهل والخواية ويهتدى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية ﴿وبشر المؤمنين﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل فراقب أحوال الناس وبشر المؤمنين منهم ﴿بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ أي على مؤمن سائر الإسم في الرتبة والشرف أو زيادة على أنجور أعمالهم بطريق التفضل والإحسان .



(ولا تطع الكافرين والمنافقين) نهي عن مداراتهم في أمر الدعوة واستعمال لين الجانب في التبليغ والمسامحة في الإنذار كني عن ذلك بالنهي عن طاعتهم مبالغة في الزجر والتنفير عن المنهى عنه بنظمه في سلكها وتصويره بصورتها ومن حمل النهي عن التهييج والإلهاب فقد أبعد عن التحقيق بمراحل (ودع أذام) أي لا تبال بأذيتهم لك بسبب تصلبك في الدعوة والإنذار (وتوكل على الله) في ما أتى وما نذر من الشئون التي من جملتها هذا الشأن فإنه تعالى يكفيكم (وكفى بآفة وكيلا) موكولا إليه الأمور في كل الأحوال وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتعليل الحكم وتأكيده استقلال الاعتراض التذييلي ولما وصف عليه الصلاة والسلام بنوع خمسة قوبل كل منها بخطاب يناسبه خلا أنه لم يذكر مقابل الشاهد صريحا وهو الأمر بالمراقبة نقطة بظهور دلالة مقابل المبشر عليه وهو الأمر بالتبشير حسبا ذكر آتفا وقوبل النذير بالنهي عن مداراة الكفار والمنافقين والمسامحة في إنذارهم كما تحققته وقوبل الداعي إلى الله بإذنه بالأمر بالتوكل عليه من حيث أنه عبارة عن الاستمداد منه تعالى والاستعانة به وقوبل السراج المنير بالاكتفاء به تعالى فإن من أيده الله تعالى بالقوة القدسية ورشحه للنبوة وجعله برهانا نيرا يهدي الخلق من ظلمات النى إلى نور الرشاد حقيق بأن يكتفى به عن كل ماسواه .

### العلاقات الزوجية

(يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلبتموهن من قبل أن تمسوهن) أي تجمعهن وقرىء تماسوهن بضم التاء (فما لكم عليهن من عدة) بأيام يترصدن فيها بأنفسهن (تعقدونها) تستوفون عددها من عدت الدرام فاعتدها وحقيقته عددها لنفسه وكذلك كلته فآكتاله والاسناد إلى الرجال للدلالة على أن العدة حق الأزواج كما أشعر به قوله تعالى فما لكم وقرىء تعقدونها على إبدال إحدى الدالين بالتاء أو على أنه من الاعتداء بمعنى تعقدون فيها والحلوة الصحيحة في حكم المس وتخصيص المؤمنات مع عموم الحكم

للكتابيات للتنبيه على أن المؤمن من شأنه أن يتخير لنطفته ولا ينسكح لإمؤنة وفائدة ثم لإزاحة ما عسى يتوهم أن تراخي الطلاق ريثما تمكن الإصابة يؤثر في العدة كما يؤثر في النسب ﴿ فمتعوهن ﴾ أى إن لم يكن مفروضاً لها في العقد فإن الواجب للمفروض لها نصف المفروض دون المتعة فإنها مستحبة عندنا في رواية وفى أخرى غير مستحبة ﴿ وسرحوهن ﴾ أخرجوهن من منازلكن إذ ليس لكن عليهن عدة ﴿ سراحاً جليلاً ﴾ من غير ضرار ولا منع حق ولا مساعٍ لنفسيره بالطلاق السنى لأنه إنما يقضى فى المدخول بهن .

﴿ يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ﴾ أى مهورهن فإنها أجور الإبزاع وإيتاؤها إما إعطاؤها معجلة أو تسميتها فى العقد وأياً ما كان فتقييد الإحلال له عليه الصلاة والسلام به ليس لتوقف الحل عليه ضرورة أنه يصح العقد بلا تسمية ويجب مهر المثل أو المتعة على تقديرى الدخول وعدمه بل لإيثار الأفضل والأولى له عليه الصلاة والسلام كتنقييد إحلال المملوكة بكونها مسبية فى قوله تعالى ﴿ وما ملكت يمينك مما آفأ الله عليك ﴾ فإن المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها وكتقييد القرائب بكونهن مهاجرات معه فى قوله تعالى ﴿ وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالتك اللاتي هاجرن معك ﴾ ويحتمل تقييد الحل بذلك فى حقه عليه الصلاة والسلام خاصة وبعضه قول أم هانئ بنت أبي طالب خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فعذرني ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأنى لم أهاجر معه كشت من الطلقاء ﴿ وامرأة مؤمنة ﴾ بالنصب عطفاً على مفعول أحللنا إذ ليس معناه إنشاء الإحلال الناجز بل لإعلام مطلق الإحلال المنتظم لما سبق ولحق وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف أى أحللناها لك أيضاً ﴿ إن وهبت نفسها للنبي ﴾ أى ملكته بضعها بأى عبارة كانت بلا مهر إن اتفق ذلك كما ينبى عنه تنكيرها لسن لا مطلقاً بل عند إرادته عليه الصلاة والسلام استنكاحها كما نطق به قوله عز وجل ﴿ إن أراد النبي أن يستنكحها ﴾ أى أن يتملك بضعها كذلك أى بلا مهر فلين ذلك جار منه عليه الصلاة والسلام مجرى

القبول وحيث لم يكن هذا نصا في كون تمليكها بلفظ الهبة لم يصلح أن يكون مناطا للخلاف في انعقاد النكاح بلفظ الهبة لإيجابها أو سلبا واختلف في اتفاق هذا العقد فعن ابن عباس رضى الله عنهما لم يكن عنده عليه الصلاة والسلام أحد ممن بالهبة وقيل الموهوبات أربع ميمونة بنت الحرث وزينب بنت خزيمة الأنصارية وأم شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم وإيراده عليه الصلاة والسلام في الموضوعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات للتكرمة والإيذان بأنها المناط لثبوت الحكم فيختص به عليه الصلاة والسلام حسب اختصاصها به كما ينطق به قوله تعالى ﴿خالصة لك﴾ أى خلص لك لإحلالها خالصة أى خلوصا فإن الفاعلة في المصادر غير عزيز كالعافية والكاذبة أو خلص لك لإحلال ما أحللنا لك من المذكورات على القيود المذكورة خالصة ومعنى قوله تعالى ﴿من دون المؤمنين﴾ على الأول أن الإحلال المذكور في المادة المعهودة غير متحقق في حقهم وإنما المتحقق هناك الإحلال بمهر المثل وعلى الثانى أن إحلال الجميع على القيود المذكورة غير متحقق في حقهم بل المتحقق فيه إحلال البعض المحدود على الوجه المعهود وقرئ خالصة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى ذلك خلوص لك وخصوص أو هى أى تلك المرأة أو الهبة خالصة لك لاتجاوز المؤمنين حيث لاتحل لهم بغير مهر ولا تصح الهبة بل يجب مهر المثل وقوله تعالى :

﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم﴾ أى على المؤمنين ﴿في أزواجهم﴾ أى في حقهن اعتراض مقرر لما قبله من خلوص الإحلال المذكور لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم تجاوزه للمؤمنين ببيان أنه قد فرض عليهم من شرائط العقد وحقوقه ما لم يفرض عليه عليه الصلاة والسلام تكرمة له وتوسعة عليه أى قد علمنا ما ينبغى أن يفرض عليهم في حق أزواجهم ﴿وما ملكت أيماهم﴾ وعلى أى حد وأى صفة يحق أن يفرض عليهم ففرضنا ما فرضنا على ذلك الوجه وخصصناك ببعض الخصائص ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ أى ضيق واللام متعلقة بخالصة باعتبار ما فيها من معنى ثبوت الإحلال وحصوله له عليه الصلاة والسلام لا باعتبار اختصاصه به عليه الصلاة والسلام لأن مدار انتفاء

الحرج هو الأول لا الثاني الذي هو عبارة عن عدم ثبوته لغيره (وكان الله غفورا) لما يعسر التحرز عنه (رحيما) ولذلك وسع الأمر في مواقع الحرج .  
 (ترجى من تشاء منهم) أى تؤخرها وتترك مضاجعها (وتؤوى إليك من تشاء) وتضم إليك من تشاء منهم وتضاجعها أو تطلق من تشاء منهم وتمسك من تشاء وقرئ ترجى بالهمزة والمعنى واحد (ومن ابتغيت) أى طلبت (ممن عزلت) طلقت بالرجعة (فلا جناح عليك) فى شيء مما ذكر وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لأنه أما أن يطلق أو يمسك فإذا أمسك ضاجع أو ترك وقسم أو لم يقسم وإذا طلق فإما أن يحل المعزولة أو يبتغيها وروى أنه أرجى منهم سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة فكان يقسم لمن ما شاء كما شاء وكانت مما آوى إليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب وأرجى خمسها وآوى أربعا وروى أنه كان يسوى بينهن مع ما أطلق له وخير إلا سودة فإنها وهبت ليلتها لعائشة رضى الله عنهن وقالت لا تطلقنى حتى أحشر فى زمرة نساءك (ذلك) أى ما ذكر من تفويض الأمر إلى مشيتك (أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتينك كلن) أى أقرب إلى قره عيونهن ورضاهن جميعا لأنه حكم كلن فيه سواء ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله فقطعن به نفوسهن وقرئ تقر بضم التاء ونصب أعينهن وتقر على البناء للمفعول وكلن تأكيد لئلا يرضين وقرئ بالنصب على أنه تأكيد لمن (والله يعلم ما فى قلوبكم) من الضمائر والخواطر فاجتهدوا فى إحسانها (وكان الله عليا) مبالغا فى العلم فيعلم كل ما تبدونه وتخفونه (حليما) لا يعاجل بالعقوبة فلا تغتروا بتأخيرها فإنه إهمال لا إهمال (لا يحمل لك النساء) بالياء لأن تأنيث الجمع غير حقيقى ولوجود الفصل وقرئ بالتاء (من بعد) أى من بعد التسع وهو فى حقه كالأربع فى حقنا وقال ابن عباس وقادة من بعد هؤلاء التسع اللاتى خيرتهن فاخترتك وقيل من بعد اختيارهن الله رسوله ورضاهن بما تؤتين من الوصل والهجران .  
 (ولا أن تبدل) أى تبدل بحذف إحدى التاءين (بين) أى بهؤلاء

التسع ﴿من أزواج﴾ بأن تطلق واحدة منهن وتنكح مكانها أخرى ومن مزيدة لتأكيد الاستغراق أراد الله تعالى لمن كرامة وجزاء على ما اخترن ورضين فقصر رسوله عليهن وهن التسع اللاتي توفى عليه الصلاة والسلام عنهن وهن عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبي سفيان وسودة بنت زمعه وأم سلمة بنت أبي أيبة وصفية بنت حيي [بن أخطب] <sup>(١)</sup> الخبيرية وميمونة بنت الحارث الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحارث المصطلقية وقال عكرمة المعنى لا يحل لك النساء من بعد الاجتناس الأربعة اللاتي أحللناهن لك بالصفة التي تقدم ذكرها من الأهرابيات والغرائب أو من الكتايبات أو من الإماء بالنكاح وبأباه قوله تعالى (ولا أن تبدل بهن) فإن معنى إحلال الاجتناس المذكورة إحلال نكاحهن فلا بد أن يكون معنى التبدل بهن إحلال نكاح غيرهن بدل إحلال نكاحهن وذلك إنما يتصور بالنسخ الذي ليس من الوظائف البشرية ﴿ولو أعجبك حسنهن﴾ أي حسن الأزواج المستبدلة وهو حال من فاعل تبدل لا من مفعوله وهو من أزواج لتوغله في التنكير قيل تقديره مفروضاً إعجابك بهن وقد مر تحقيقه في قوله تعالى (ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) وقيل هي أسماء بنت عميس الخنعمية امرأة جعفر بن أبي طالب أي ممن أعجبه عليه الصلاة والسلام حسنهن واختلف في أن الآية محكمة أو مفسوخة قيل بقوله تعالى (ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء) وقيل بقوله تعالى إنا أحللنا لك وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف وقيل بالسنة وعن عائشة رضي الله عنها ما مات رسول الله عليه وسلم حتى أحل له النساء وقال أنس رضي الله عنه مات عليه الصلاة والسلام على التحريم ﴿إلا ما ملكت يمينك﴾ استثناء من النساء لأنه يتناول الأزواج والإماء وقيل منقطع ﴿وكان الله على كل شيء رقيباً﴾ حافظاً مهيماً فاحذروا مجاوزة حدوده وتخطي حلاله إلى حرامه .

## حقوق أمهات المؤمنين

(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي) شروع في بيان ما يجب مراعاته على الناس من حقوق نساء النبي عليه الصلاة والسلام إثر بيان ما يجب مراعاته عليه الصلاة والسلام من الحقوق المتعلقة بهن وقوله تعالى (إلا أن يؤذن لكم) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا تدخلوها في حال من الأحوال إلا حال كونكم مأذونا لكم وقيل من أعم الأوقات أى لا تدخلوها في وقت من الأوقات إلا وقت أن يؤذن لكم ورد عليه بأن النجاة نصوا على أن الوقوع موقع الظرف مختص بالمصدر الصريح دون المؤول لا يقال آتيك أن يصبح الديك وإنما يقال آتيك ضياح الديك وقوله تعالى (إلى طعام) متعلق بيؤذن بتضمنين معنى الدعاء للإشعار بأنه لا ينبغي أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة وأن تحقق الإذن كما يشعر به قوله تعالى (غير ناظرين إناؤه) أى غير منتظرين وقته أو إدراكه وهو حال من فاعل لا تدخلوا على أن الاستثناء واقع على الوقت والحال معاً عند من يجوزه أو من المجرور في لكم وقرئ بالجر صفة لطعام فيكون جارياً على غير من هو له بلا إبراز الضمير ولا مساغ له عند البصريين وقرئ بالإمالة لأنه مصدر أى الطعام أى أدرك (ولكن إذا دعيتم فادخلوا) استدراك من النهى عن الدخول بغير إذن وفيه دلالة بيّنة على أن المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه (فإذا طعمتم فانتشروا) فتفرقوا ولا تلبثوا لأنه خطاب لقوم كانوا يتحبسون طعام النبي عليه الصلاة والسلام فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه مخصوصة بهم وبأمثالهم وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته عليه الصلاة والسلام بإذن لغير الطعام ولا اللبث بعد الطعام لأمر مهم (ولا مستأنسين لحديث) أى لحديث بعضهم بعضاً أو لحديث أهل البيت بالتسمع له عطف على ناظرين أو مقدر بفعل أى ولا تدخلوا ولا تكتشوا مستأنسين الخ

(إن ذلكم) أى الاستئناس الذي كنتم تفعلونه من قبل (كان يؤذى للنبي) لتضييق المنازل عليه وعلى أهله وإيجابه للاشتغال بما لا يعنيه وصدمة

عن الاشتغال بما يعنيه ﴿ فيستحي منكم ﴾ أى من إخراجكم لقوله تعالى ﴿ والله لا يستحي من الحق ﴾ فإنه يستدعى أن يكون المستحي منه أمراً حقاً متعلقاً بهم لا أنفسهم وما ذاك إلا لإخراجهم فينبغي أن لا يترك حياءً ولذلك لم يتركه تعالى وأمركم بالخروج والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشكلة وقرئ لا يستحي بحذف الياء الأولى وإلقاء حركتها إلى ما قبلها ﴿ وإذا سألتهم ﴾ الضمير لفناء النبي المدلول عليهن بذكر بيوته عليه الصلاة والسلام ﴿ متاعاً ﴾ أى شيئاً يتمتع به من الماعون وغيره ﴿ فاسألوهن ﴾ أى المتاع ﴿ من وراء حجاب ﴾ أى ستر روى أن عمر رضى الله عنه قال يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت وقيل إنه عليه الصلاة والسلام كان يطعم ومعه بعض أصحابه فأصابته يد رجل منهم يد عائشة رضى الله عنها فذكره النبي ذلك فنزلت ﴿ ذلكم ﴾ أى ما ذكر من عدم الدخول بغير إذن وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع من وراء حجاب ﴿ أظهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ أى أكثر تطهيراً من الخواطر الشيطانية ﴿ وما كان لكم ﴾ أى وما صح وما استقام لكم ﴿ أن تؤذوا رسول الله ﴾ أى أن تفعلوا في حياته فعلاً يكرهه ويتأذى به ﴿ ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ﴾ أى بعد وفاته أو فراقه ﴿ إن ذلكم ﴾ إشارة إلى ما ذكر من إيدائه عليه الصلاة والسلام ونكاح أزواجه من بعده وما فيه من معنى البعد للإيدان ببعد منزلته في الشر والفساد ﴿ كان عند الله عظيماً ﴾ أى أمراً عظيماً وخطباً هائلاً لا يقادر قدره وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله صلى الله عليه وسلم وإيجاب حرمة حيا وميتاً ما لا يخفى ولذلك بالغ تعالى في الوعيد حيث قال ﴿ إن تبدوا شيئاً ﴾ مما لا خير فيه كشكاكهن على أنفسكم ﴿ أو تخفوه ﴾ في صدوركم ﴿ فإن الله كان بكل شيء عليماً ﴾ فيجازيكم بما صدر عنكم من المعاصي البادية والخافية لاحالة وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل وتشديد ومبالغة في الوعيد ﴿ لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانتهن ولا أبناء إخوانتهن ولا أبناء أخواتهن ﴾ استئناف لبيان من

لا يجب الاحتجاب عنهم روى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب يا رسول الله أو نكلمهن أيضاً من وراء الحجاب فنزلت وإنما لم يذكر العم والحال لأنهما بمنزلة الوالدين ولذلك سمي العم أبا في قوله تعالى : (وله آباءك إبراهيم وإسماعيل وإسحق) أو لأنه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الإخوة وأبناء الأخوات فإن مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهما وبين الفريقين عين ما بينهما وبين العم والحال من العمومة والخوالة لما أنهم عمات لأبناء الإخوة وغلات الأبناء الأخوات وقيل لأنه كره ترك الاحتجاب منهما مخافة أن يصفاهن لأبنائهما .

(ولا نسائهن) أى نساء المؤمنات (ولا ما ملكت أيمنهن) من العبيد والإماء وقيل من الإماء خاصة وقد مر في سورة النور (واقفين الله) في كل ما تأذن وما تذنن لاسيما فيما أمرتن به ونهينتن عنه (إن الله كان على كل شيء شهيدا) لا تخفى عليه خافية ولا تتفاوت في علمه الأحوال (إن الله وملائكته) وقرىء وملائكته بالرفع عطفا على محل إن واسمها عند الكوفيين وحلا على حذف الخبر ثقة بدلالة ما بعده عليه على رأى البصريين (يصلون على النبي) قبل الصلاة من الله تعالى الرحمة ومن الملائكة الاستغفار وقال ابن عباس رضى الله عنهما أراد أن الله يرحمه والملائكة يدعون له وعنه أيضاً يصلون يبركون وقال أبو العالية صلاة الله تعالى عليه ثناءؤه عليه عند الملائكة وصلاتهم دعاؤهم له فينبغي أن يراد بها في يصلون معنى مجازى عام يكون كل واحد من المعاني المذكورة فردا حقيقيا له أى يعتنون بما فيه خيره وصلاح أمره ويهتمون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه وذلك من الله سبحانه بالرحمة ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار .

(يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) اعتنوا أتم أيضا بذلك فإنكم أولى به (وسلموا تسليما) قائلين اللهم صل على محمد وسلم أو نحو ذلك وقيل المراد بالتسليم انقياد أمره والآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه مطلقا من غير تعرض لوجوب التكرار وعدمه وقيل يجب ذلك كلما جرى ذكره لقوله



عليه الصلاة والسلام رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على وقوله عليه الصلاة والسلام من ذكرت عنده فلم يصل على فدخل النار فأبعده الله ويروى أنه عليه الصلاة والسلام قال وكل الله تعالى في ملكين فلا أذكر عند مسلم فيصلي على إلا قال ذاك المملكان غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جواباً لذيتك المملكين آمين ولا أذكر عند مسلم فلا يصلي على إلا قال ذلك المملكان لا غفر الله لك ، وقال الله تعالى وملائكته جواباً لذيتك المملكين آمين ومنهم من قال يجب في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره عليه الصلاة والسلام كما قيل في آية السجدة وتشميت العاطس وكذلك في كل دعاء في أوله وآخره ومنهم من قال بالوجوب في العمر مرة وكذا قال في إظهار الشهادتين والذي يقتضيه الاحتياط ويستدعيه معرفة علو شأنه عليه الصلاة والسلام أن يصلي عليه كلما جرى ذكره الرفيع وأما الصلاة عليه في الصلاة بأن يقال اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد فليست بشرط في جواز الصلاة عندنا وعن إبراهيم التيمي رحمه الله أن الصحابة كانوا يكتفون عن ذلك بما في التشهد وهو السلام عليك أيها النبي وأما الشافعي رحمه الله فقد جعلها شرطاً وأما الصلاة على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فتجوز تبعاً وتكره استقلالاً لأنه في العرف شعار ذكر الرسل ولذلك كره أن يقال محمد عز وجل مع كونه عزيزاً جليلاً ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾ أريد بالإيذاء إما فعل ما يكرهانه من الكفر والمعاصي مجازاً لاستعالة حقيقة التأذي في حقه تعالى وقيل في إيذائه تعالى هو قول اليهود والنصارى والمشركين يد الله مغلولة وثالث ثلاثة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقيل قول الذين يلحدون في آياته وفي إيذاء الرسول عليه الصلاة والسلام هو قولهم شاعر ساحر كاهن مجنون وقيل هو كسر رباعيته وشج وجهه الكريم يوم أحد وقبل طعنهم في تكاح صفية والحق هو العموم فيهما وأما إيذاؤه عليه الصلاة والسلام خاصة بطريق الحقيقة وذكر الله عز وجل لتعظيمه والإيذان بجماله مقداره عظيمة تعالى وأن إيذائه عليه الصلاة والسلام إيذاه له سبحانه .

﴿ لعنهم الله ﴾ طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿ في الدنيا والآخرة ﴾ بحيث لا يكادون ينالون فيها شيئاً منها ﴿ وأعد لهم ﴾ مع ذلك ﴿ عذاباً مهيناً ﴾ يصيبهم في الآخرة خاصة ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات ﴾ يفعلون بهم ما يتأذون به من قول أو فعل وتقييده بقوله تعالى ﴿ بغير ما اكتسبوا ﴾ أى بغير جنائية يستحقون بها الأذية بعد إطلاقه فيما قبله للإيذان بأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق وأما أذى هؤلاء فمنه ومنه ﴿ فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ أى ظاهراً بيناً قيل إنها نزلت في منافقين كانوا يؤذون علياً رضى الله عنه ويسمعونه ما لا خير فيه وقيل في أهل الإفك وقال الضحاك والسكلي في زناة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهم . وكانوا لا يتعرضون إلا للإماء ولكن ربما كان يقع منهم التعرض للحرائر أيضاً جهلاً أو تجاهلاً لاتحاد الكل في الزى واللباس والظاهر عمومه لكل ما ذكر ولما سيأتى من أراجيف المرجفين .

### واجبات أمهات المؤمنين

﴿ يا أيها النبي ﴾ بعد ما بين سنوء حال المؤذنين زجر آلهم عن الإيذاء أمر النبي عليه الصلاة والسلام بأن يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع إيذاءهم في الجملة من الستر والتميز عن مواقع الإيذاء فقول ﴿ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ الجلابيب ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقى منه ما ترسله على صدرها وقيل هي الملحفة وكل يتستر به أى يغطين بها وجوههن وأبدانهن إذا برزن لداعية من الدواعي ومن للتبعضي لما مر من أن المعهود التلفح ببعضها وإرخاء بعضها وعن الصدي تغطى إحدى عينيها وجهتها والشق الآخر إلا العين ﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من التغطية ﴿ أدنى ﴾ أقرب ﴿ أن يعرفن ﴾ ويعيذن عن الإماء والقينات اللاتي هن مواقع تعرضهن وإيذاءهن ﴿ فلا يؤذين ﴾ من جهة أهل الريّة بالتعرض لهن ﴿ وكان الله غفوراً ﴾ لما سلف منهن من التفریط ﴿ رحماً ﴾ بعباده حيث

يراعى من مصالحهم أمثال هاتيك الجزئيات ﴿لئن لم ينته المنافقون﴾ عما هم عليه من النفاق وأحكامه الموجبة للإيذاء ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ عما هم عليه من التزلزل وما يستتبعه مما لا خير فيه ﴿والمرجفون في المدينة﴾ من الفريقين عما هم عليه من نشر أخبار السوء عن سرايا المسلمين وغير ذلك من الأراجيف الملفة المستتعبة للأذية وأصل الإرجاف التحريك من الرجفة التي هي الزلزلة وصفت به الأخبار الكاذبة لكونها متزلزلة غير ثابتة ﴿لنغرينك بهم﴾ لنأمرنك بقتالهم وإجلالهم أو بما يضطرونهم إلى الجلاء ولنحرضنك على ذلك ﴿ثم لا يجاورونك﴾ عطف على جواب القسم وثم للدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار الرسول عليه الصلاة والسلام أعظم ما يصيبهم ﴿فيها﴾ أى في المدينة ﴿إلا قليلا﴾ زمانا <sup>(١)</sup> أو جرارا قليلا ريثما يتبين حالهم من الانتهاء وعدمه ﴿ملعونين﴾ نصب على الشتم أو الحال على أن الاستثناء وارد عليه أيضاً على رأى من يجوزه كما مر في قوله تعالى غير ناظرين لئانه ولا سبيل إلى انتصابه عن قوله تعالى ﴿أيما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا﴾ لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها .

﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ أى سن الله ذلك في الأمم الماضية سنة وهى أن يقتل الذين نافقوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وسعوا في توهين أمرهم بالإرجاف ونحوه أيما ثقفوا ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ أصلا لا بدلتها على أساس الحكمة التي عليها يدور فلك التشريع ﴿يسألك الناس عن الساعة﴾ أى عن وقت قيامها كان المشركون يسألونه عليه الصلاة والسلام عن ذلك استعجالا بطريق الاستهزاء واليهود امتحانا لما أن الله تعالى عمى وقتها في التوزاة وسائر الكتب ﴿قل إنما عليها عند الله﴾ لا يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا وقوله تعالى ﴿وما يدريك﴾ خطاب مستقل له عليه الصلاة والسلام غير داخل تحت الأمر مسوق لبيان أنها مع كونها غير معلومة للخلق مرجوة للمجنى عن

قريب أى شئ يعلمك بوقت قيامها أى لا يعلمك به شئ أصلاً ﴿لعل الساعة تكون قريباً﴾ أى شيئاً قريباً أو تكون الساعة في وقت قريب وانتصابه على الظرفية ويجوز أن يكون التذكير باعتبار أن الساعة في معنى اليوم أو الوقت وفيه تهديد للمستعجلين وتبكييت المبتعثين والإظهار في حيز الإحصار للتويل وزيادة التقرير وتأكيده استقلال الجملة كما أشير إليه ﴿إن الله لمن الكافرين﴾ على الإطلاق أى طردهم وأبعدهم من رحمته العاجلة والآجلة ﴿وأعد لهم﴾ مع ذلك ﴿سعيراً﴾ نارا شديدة الاتقاد يقاسونها في الآخرة ﴿خالدين فيها أبدا لا يجدون ولياً﴾ يحفظهم ﴿ولا نصيراً﴾ يخلصهم منها ﴿يوم تقاب وجوههم في النار﴾ ظرف لعدم الوجدان وقيل لخالدين وقيل لنصيرا وقيل مفعول لا ذكر أى يوم تصرف وجوههم فيها من جهة إلى جهة كلهم يشوى في النار أو يطبخ في القدر فيدور به الغليان من جهة إلى جهة أو من حال إلى حال أو يطرحون فيها مقلوبين منكوسين وقرىء تقلب بحذف إحدى التامين من تتقلب وتقلب بإسناد الفعل إلى نون العظمة ونصب وجوههم وتقلب بإسناده إلى السعير وتخصيص الوجوه بالذكر لما أنها أكرم الأعضاء ففيه مزيد تنظييع للأمر وتهويل للنخطب ويجوز أن تكون عبارة عن كل الجسد فقوله تعالى ﴿يقولون﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية حالهم الفظيعة كأنه قيل فإذا يصنعون عند ذلك فقيل يقولون متحسرين على ما فاتهم ﴿يأيتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾ فلا نبتي بهذا العذاب أو جال من ضمير وجوههم أو من نفسها أو هو العامل في يوم ﴿وقالوا﴾ عطف على يقولون والعدول إلى صيغة الماضي للإشعار بأن قولهم هذا ليس مستمرا كقولهم السابق بل هو ضرب اعتذار أرادوا به ضرباً من التشنى بمضاعفة عذاب الذين ألقوم في تلك الورطة وإن علموا عدم قبوله في حق خلاصهم منها ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبرانا﴾ يعنون قادتهم الذين ألقوم الكفر وقرىء ساداتنا للدلالة على الكثرة والتعبير عنهم بعتوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة ﴿فأضلونا السبيلا﴾ بما زينوا لنا من الأباطيل والآلف لإطلاق كما في وأطعنا الرسولا ﴿ربنا آتهم

ضعفين من العذاب) أى مثل العذاب الذى آتيتناه لأنهم ضلوا وأضلوا (والعنهم لعنا كبيرا) أى شديدا عظيما وقرىء كثيرأ وتصدير الدعاء بالنداء مكررا للمبالغة فى الجوار واستدعاء الإجابة (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى) قيل نزلت فى شأن زيد وزيلب وما سمع فيه من قالة الناس (فبرأه الله بما قالوا) أى فأظهر براءته عليه الصلاة والسلام بما قالوا فى حقه أى من مضمونه ومؤداه الذى هو الأمر المهيّب وذلك أن قارون أغرى موسى على قذفه عليه الصلاة والسلام بنفسها بأن دفع إليها مالا عظيما فأظهر الله تعالى نزاهته عليه الصلاة والسلام عن ذلك بأن أقرت المومسة بالمصانعة الجارية بينها وبين قارون وفعل بقارون ما فعل كما فصل فى سورة القصص وقيل اتهمه ناس بقتل هارون عند خروجه معه إلى الطور فأت هناك لخملة الملائكة ومروا به بحق رأوه غير مقتول وقيل أحياء الله تعالى فأخبرهم ببراءته وقيل قذفوه بعبث فى بدنه من برص أو أدرة لفرط تسره حياء فأطلعهم الله تعالى على براءته بأن فر الحجر بثوبه حين وضعه عليه عند اغتساله والقصة مشهورة .

(وكان عند الله وجيها) ذا قرينة ووجاهة وقرىء وكان عبد الله وجيها (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) أى فى كل ما تأتون وما تذررون لاسيما فى ارتكاب ما يكرهه فضلا عما يؤذى رسوله عليه الصلاة والسلام (وقولوا) فى كل شأن من الشئون (قولا سديدا) قاصدا إلى الحق من سد يسد سدادا يقال سد السهم نحو الرمية إذا لم يعدل به عن سمتها والمراد نهيم عما خاضوا فيه من حديث زينب الجائر عن العدل والقصد (يصلح لكم أعمالكم) يوفقكم للأعمال الصالحة أو يصلحها بالقبول والإثابة عليها (ويغفر لكم ذنوبكم) ويجعلها مكفرة باستنقاتكم فى القول والعمل (ومن يطع الله ورسوله) فى الأوامر والنواهي التى من جملتها هذه التكليفات (فقد فاز) فى الفارين (فوزا عظيما) لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته .

(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) لما بين عظام شأن طاعة الله ورسوله ببيان مآل الخارجين عنها

من العذاب الاليم ومنال المراعين لها من الفوز العظيم عقب ذلك بيان عظم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع الإيذان بأن ما صدر عنهم من الطاعة وتركها صدر عنهم بعد القبول والالتزام وعبر عنها بالأمانة تلبيها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين وانتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير إخلال بشيء من حقوقها وعبر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذكر من السموات وغيرها بالعرض عليهن لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها والرغبة في قبولها وعن عدم استعدادهن لقبولها بالإباء والإشفاق منها لتحويل أمرها وتربية نفامتها وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة التي يستعمل فيها القوى الجسمانية التي أشدها وأعظمها ما فيهن من القوة والشدة والمعنى أن تلك الأمانة في عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام التي هي مثل في القوة والشدة مراعاتها وكانت ذات شعور وإدراك لآبين قبولها وأشفقن منها ولكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض بصورة المحقق روماً لزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحه (وحملها الإنسان) أي عند عرضها عليه إما باعتبارها بالإضافة إلى استعداده أو بتسكينه إياها يوم الميثاق أي تسكفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة وهو إما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطري أو عن اعترافه بقوله بلى وقوله تعالى (إنه كان ظلوماً جهولاً) اعتراض [وسط] <sup>(١)</sup> بين الحمل وضايته للإيذان من أول الأمر بعدم وفاته بما عهده وتحمله أي أنه كان مفرطاً في الظلم مبالغاً في الجهل أي بحسب غالب أفراد الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة أو استرافهم السابق دون من عدام من الذين لم يبدلوا فطرة الله تبديلاً وإلى الفريق الأول أشير بقوله عز وجل (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) أي حملها الإنسان

ليعذب الله بعض أفراد الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة على أن اللام للعاقبة فإن التعذيب وإن لم يكن غرضاً له من الحمل لكن لما ترتب عليه بالنسبة إلى بعض أفراد تترتب الأغراض على الأفعال المعلقة بها أبرز في معرض الغرض أى كان عاقبة حمل الإنسان لها أن يعذب الله تعالى هؤلاء من أفراد حياتهم الأمانة وخروجهم عن الطاعة بالسكينة وإلى الفريق الثانى أشير بقوله تعالى : ﴿ ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ أى كان عاقبة حملها أن يتوب الله تعالى على هؤلاء من أفراد أى يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربة الطاعة عن رقابهم بالمرّة وتلافيم لما فرط منهم من فرطات فلما يخلو عنها الإنسان بحكم جبلته وتداركهم لها بالتوبة والإجابة والالتفات إلى الاسم الجليل أولاً لتحويل الخطب وتربية المهابة والإظهار فى موقع الإضمار ثانياً لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين توفية لكل من مقامى الوعد والوعد حقّه والله تعالى أعلم وجعل الأمانة التى [من] (١) شأنها أن تكون من جهته تعالى عبارة عن الطاعة التى هى من أفعال المكلفين التابعة للتكليف بمعزل من التقريب وحمل الكلام على تقرير الوعد الكريم الذى ينبى عنه قوله تعالى (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً) يجعل تعظيم شأن الطاعة ذريعة إلى ذلك بأن من قام بحقوق مثل هذا الأمر العظيم الشأن ورعاها فهو جدير بأن يفوز بخير الدارين يأباه وصفه بالظلم والجهل أولاً وتعليل الحمل بتعذيب فريق والتوبة على فريق ثانياً وقيل المراد بالأمانة مطلق الانقياد الشامل الطبيعى والاختيارى وبعرضها استدعاؤها الذى يعم طلب الفعل من المختار وإرادة صدوره من غيره وبحملها الخيانة فيها والامتناع عن ادائها فيكون الإباء امتناعاً عن الخيانة وإتياناً بالمراد فالمعنى أن هذه الأجرام مع عظمها وقوتها أبين الخيانة لأمانتها وأتین بما أمرناهن به كقوله تعالى أتينا طائعين وعانها الإنسان حيث لم يأت بما أمرناه به لأنه كان ظلوماً جهولاً وقيل لأنه تعالى لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهما وقال

لها لاني فرضت فريضة وخلقت جنة لمن أطاعني فيها ونارا لمن عصاني فقلن  
نحن مسخرات لما خلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبغى ثوابا ولا عقابا ولما  
خلق آدم عليه السلام عرض عليه مثل ذلك فحملة وكان ظلوما لنفسه بتحملة  
ما يشق عليها جهولا بوحامة عاقبته وقيل المراد بالأمانة العقل أو التكليف  
وبعرضها عليهن اعتبارها بالإضافة إلى استعدادهن وياباثن الإباء الطبيعي  
الذي هو عدم اللياقة والاستعداد لها وبحمل الانسان قابليته واستعداده لها  
وكونه ظلوما جهولا لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية هذا قريب من  
التحقيق فتأمل والله الموفق وقرىء ويتوب الله على الاستئناف ﴿ وكان الله  
غفورا رحيمًا ﴾ مبالغا في المغفرة والرحمة حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم  
وأثاب بالفوز على طاعتهم ، قال عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة  
الاحزاب وعلمها أهله وما ملكك يمينه أعطى الأمان من عذاب القبر ،  
والله أعلم .



## سورة سبأ

مكية ، وقيل : إلا ( ويرى الذين أوتوا العلم ) الآية  
وهي خمس وأربعون آية

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض ) أى له تعالى خلقا  
وملكا وتصرفا بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة جميع ما وجد فيهما  
داخلا في حقيقةهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما فكأنه قيل : لجميع المخلوقات  
كما مر في آية السكروى ووصفه تعالى بذلك لتقرير ما أفاده تعليق الحمد المعروف  
بلام الحقيقة بالاسم الجليل من اختصاص جميع أفراد به تعالى على ما بين في  
فاتحة الكتاب ببيان تفرده تعالى واستقلاله بما يوجب ذلك وكون كل ما سواه  
من الموجودات التى من جملتها الإنسان تحت ملكوته تعالى ليس لها في حد  
ذاتها استحقاق الوجود فضلا عما عداه من صفاتها بل كل ذلك نعم فائضة عليها  
من جهته عز وجل فما هذا شأنه فهو بمعزل من استحقاق الحمد الذى مداره  
الجميل الصادر عن القادر باختيار فظهر اختصاص جميع أفراد به تعالى  
وقوله تعالى :

( وله الحمد فى الآخرة ) بيان لاختصاص الحمد الآخروى به تعالى لإثر  
بيان اختصاص الدينوى به على أن الجار متعلق إما بنفس الحمد أو بما تعلق به  
الخبر من الاستقرار وإطلاقة عن ذكر ما يشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء  
بذكر كونه فى الآخرة عن التعيين كما اكتفى فيما سبق بذكر كون المحمود عليه  
فى الدنيا عن ذكر كون الحمد أيضا فيها بل ليعم النعم الآخروية كما فى قوله  
تعالى ( الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض ، ننبأ من الجنة ) وقوله  
تعالى ( الذى أحلنا دار المقامة من فضله ) الآية وما يكون ذريعة إلى نبأها من

النعم الدينية كما في قوله تعالى ( الحمد لله الذي هدانا لهذا ) أى لما جزاؤه هذا من الإيمان والعمل الصالح والفرق بين الحدين مع كون نعمتى الدنيا والآخرة بطريق التفضل أن الأول على نهج العبادة والثانى على وجه التلاذذ<sup>(١)</sup> والاعتباط وقد ورد فى الخبر أنهم يلهمون التسليم كما يلهمون النفس ( وهو الحكيم ) الذى أحكم أمور الدنيا ودبرها حسبما تقتضيه الحكمة ( الخير ) يواطن الأشياء ومكنوناتها وقوله تعالى ( يعلم ما يلج فى الأرض ) الخ تفصيل لبعض ما يحيط به علمه من الأمور التى نيطت بها مصالحهم الدينية والدنيوية أى يعلم ما يدخل فيها من الغيث والكنوز والدقائق والأموات ونحوها ( وما يخرج منها ) كالحيوان والنبات وماء العيون ونحوها ( وما ينزل من السماء ) كالأمطار والكتب والمقادير ونحوها وقرئ وما نزل بالتشديد ونون العظمة ( وما يخرج منها ) كالأمطار وأعمال العباد والأشجار والأدخنة ( وهو الرحيم ) للحامدين على ما ذكر من نعمه ( الغفور ) للمفترطين فى ذلك بلفظه وكرمه .

## إنكار البعث

( وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ) أرادوا بضمير المتكلم جلس البشر قاطبة لا أنفسهم أو معاصريهم فقط كما أرادوا بنفى إتيانها نفى وجودها بالسلبية لا عدم حضورها مع تحققها فى نفس الأمر وإنما عبروا عنه بذلك لأنهم كانوا يعدون إتيانها ولأن وجود الأمور الزمانية المستقبلية لا سيما أجزاء الزمان لا يكون إلا بالإتيان والحضور وقيل هو استبطاء إتيانها الموعود بطريق الحزم والسخرية كقولهم متى هذا الوعد ( قل بلى ) رد لسكلامهم وإثبات لما نفوه على معنى ليس الأمر إلا إتيانها وقوله تعالى ( وربى لتأتينكم ) تأكيد له على أنهم الوجه وأكملها وقرئ ليأتينكم على تأويل الساعة باليوم أو الوقت

وقوله تعالى ﴿عالم الغيب﴾ الخ إمداد للتأكيد وتسديد له لئلا يترك التسديد وكسر  
 لسورة نكيرهم واستبعادهم فإن تعقيب القسم بجلال نموت المقسم به على الإطلاق  
 يؤخذ بفخامة شأن المقسم عليه وقوة ثباته وصحته لما أن ذلك في حكم الاستشهاد  
 على الأمر ولا ريب في أن المستشهد به كلما كان أجلاً وأعلى كانت الشهادة أكد  
 وأقوى والمستشهد عليه أحق بالثبوت وأولى لاسيما إذا خصم بالذكر من النعوت  
 ماله تعلق خاص بالمقسم عليه كأنه في فيه فإن وصفه بعلم الغيب الذي أشهر أفراد  
 وأدخلها في الخفاء هو المقسم عليه تنبيه لهم على علة الحكم وكونه بما لا يحوم  
 حوله شائبة ريب ما وفائدة الأمر بهذه المرتبة من اليقين أن لا يبقى للمعاند  
 عذر ما أصلا فإنهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن وصمة الكذب فضلا عن  
 اليقين الفاجرة وإنما لم يصدقوه مكابرة وقرئ علام الغيب وعالم الغيب وعالم  
 الغيوب بالرفع على المدح ﴿لا يعرب عنه﴾ أى لا يبعد وقرئ بكسر الزاى  
 ﴿مقال ذرة﴾ مقدار أصغر نملة ﴿في السموات ولا في الأرض﴾ أى كائنة  
 فيهما ﴿ولا أصغر من ذلك﴾ أى من مقال ذرة ﴿ولا أكبر﴾ أى منه  
 ورفعها على الابتداء والخبر قوله تعالى ﴿لا في كتاب مبين﴾ هو اللوح المحفوظ  
 والجملة مؤكدة لنفي العزوب وقرئ ولا أصغر ولا أكبر بفتح الراء على نفى  
 الجنس ولا يجوز أن يعطف المرفوع على مقال ولا المفتوح على ذرة بأنه فتح  
 في خبر الجر لا متنازع الصرف لما أن الاستثناء يمنع إلا أن يجعل الضمير في عنه  
 للغيب ويجعل المثبت في اللوح خارجا عنه لبروزه للمطالعين له فيكون المعنى  
 لا ينفصل عن الغيب شيء إلى مسطورا في اللوح .

• ﴿ليجزى الذين آمنوا و عملوا الصالحات﴾ علة لقوله تعالى لتأتينكم وبيان  
 لما يقتضى إتيانها ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الموصول من حيث اتصافه بما في حيز  
 الصلة وما فيه من معنى البعد للإيدان ببعده منزلتهم في الفضل والشرف أى أولئك  
 الموصوفون بالصفات الجليلة ﴿لهم﴾ بسبب ذلك ﴿مغفرة﴾ لما فرط منهم  
 من بعض فرطات قلما يخلو عنها البشر ﴿ورزق كريم﴾ لا تعب فيه ولا من  
 عليه ﴿والذين سعوا في آياتنا﴾ بالقدح فيها وصد الناس عن التصديق بها

( معاجزين ) أى مسابقين كى يفوتوا وقرىء معجزين أى مبطلين عن الإيمان من أراده ( أولئك لهم عذاب ) الكلام فيه كالذى مر آتفا ومن فى قوله تعالى ( من رجز ) للبيان قال قتادة رضى الله عنه الرجز سوء العذاب وقوله تعالى ( أليم ) بالرفع صفة عذاب أى أولئك الساعون لهم عذاب من جنس سوء العذاب شديد الإيلام وقرىء أليم بالجر صفة لرجز ( ويرى الذين أوتوا العلم ) أى يعلم أولو العلم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن شايعهم من علماء الأمة أو من آمن من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما رضى الله عنهم ( الذى أنزل إليك من ربك ) أى القرآن ( هو الحق ) بالنصب على أنه مفعول ثان ليرى والمفعول الأول هو الموصول الثانى وهو ضمير الفصل وقرىء بالرفع على الابتداء والخبر والجملة هو المفعول الثانى ليرى وقوله تعالى ويرى الخ مستأنف مسوق للاستشهاد بأولى العلم على الجملة الساعين فى الآيات وقيل منصوب عطفا على يجرى أى وليعلم أولوا العلم عند مجىء الساعة معاينة أنه الحق حسبا علموه الآن برهاناً ويحتجوا به على المكذبين وقد جوز أن يراد بأولى العلم من لم يؤمن من الأحبار أى ليعلموا يومئذ أنه هو الحق فيزدادوا حسرة وغما ( ويهدى ) عطف على الحق عطف الفعل على الاسم لأنه فى تأويله كما فى قوله تعالى ( صافات ويقبضن ) أى وقابضات كأنه قيل ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك الحق وهاديا ( إلى صراط العزيز الحميد ) الذى هو التوحيد والتدرع بلباس التقوى وقيل مستأنف وقيل حال من الذى أنزل على إضمار مبتدأ أى وهو يهdy كما فى قول من قال نجوت وأرهنهم مالكا .

( وقال الذين كفروا ) هم كفار قريش قالوا غاطبا بعضهم لبعض ( هل ندلكم على رجل ) يعنون به النبى عليه الصلاة والسلام وإنما قصدوا بالتشكير الطعن والسخرية قائلهم الله تعالى ( ينبئكم ) أى يحدثكم بمعجبات وقرىء ينبئكم من الإنباء ( إذا مزقتم كل ممزق ) أى إذا تمتم ومزقت أجسادكم كل تمزيق وفرقت كل تفريق بحيث صرتم تراها بورقانا ( إنكم لفى خلق جديد ) أى

مستقرون فيه عدل إليه عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث مثل تبعثون أو تخلقون خلقاً جديداً للإشباع في الاستبعاد والتعجيب وكذلك تقديم الظرف والعامل فيه ما دل عليه المذكور لا نفسه لما أن ما بعد إن لا يعمل فيما قبلها وجديد فعيل بمعنى فاعل من جد فهو جديد وقل فهو قابل وقيل بمعنى مفعول من جد النساج الثوب إذا قطعه ثم شاع ﴿ أفترى على الله كذباً ﴾ فيما قاله ﴿ أم به جنة ﴾ أى جنون يومه ذلك ويلقبه على لسانه والاستدلال بهذا الترديد على أن بين الصدق والكذب واسطة هو ما لا يكون من الإخبار عن بصيرة بين الفساد لظهور كون الافتراء أخص من الكذب ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴾ جواب من جهة الله تعالى عن ترديد الوارد على طريقة الاستفهام بالإضراب عن شقيه وإبطالهما وإثبات قسم ثالث كاشف عن حقيقة الحال ناع عليهم سوء حالهم وابتلاءهم بما قالوا في حقه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل ليس الأمر كما زعموا بل هم في كمال اختلال العقل وغاية الضلال عن الفهم والإدراك الذى هو الجنون حقيقة وفيما يؤدي إليه ذلك من العذاب ولذلك يقولون ما يقولون وتقديم العذاب على ما يوجهه ويستتبعه للسرعة إلى بيان ما يسوؤهم ويفت في أعضادهم والإشعار بغاية سرعة ترتبه عليه كأنه يسابقه فيسبقه ووصف الضلال بالبعد الذى هو وصف الضلال للمبالغة ووضع الوصول موضع ضميرهم للتنبيه بما في حين الصلة على أن علة ما ارتكبوه واجتروا عليه من الشناعة الفظيعة كفرهم بالآخرة وما فيها من فنون العقاب ولولاه لما فعلوا ذلك خوفاً من غائلته وقوله تعالى :

﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ استئناف مسوق لتحويل ما اجتروا عليه من تكذيب آيات الله تعالى واستعظام ما قالوا في حقه عليه الصلاة والسلام وأنه من العظائم الموجبة لنزول أشد العقاب وحلول أفظع العذاب من غير ريث وتأخير والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى ﴿ إن نشأ ﴾ الخ بيان لما يلبي عنه ذكر إحاطتهما بهم من المحذور المتوقع من أجهلهم وفيه تلميح على أنه لم يبق من أسباب وقوعه إلا تعلق المشيئة به أى

فعلوا ما فعلوا من المنكر المائل المستقبح للعقوبة فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم من جميع جوانبهم بحيث لا مفر لهم عنه ولا محيص إن نفعا جريا على موجب جنائياتهم ﴿ نخسف بهم الأرض ﴾ كما خسفناها بقارون ﴿ أو نسقط عليهم كسفا ﴾ أى قطعاً ﴿ من السماء ﴾ كما أسقطناها على أصحاب الأيكة لاستيحابهم ذلك بما ارتكبوه من الجرائم وقيل هو تذكير بما يعاينونه بما يدل على كمال قدرته وما يحتمل فيه إزاحة لاستحقاقهم البعث حتى جعلوه أقرء وهزوا وتهديداً عليها والمعنى أعموا فلم ينظروا إلى ما أحاط بجوانبهم من السماء والأرض ولم يفسكروا أم أشد خلقاً أم هى وإن نشأن نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات فتأمل وكن على الحق المبين وقرئـ  
يخسف ويسقط بالياء لقوله تعالى أفترى على الله وكسفا بسكون السين ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فيما ذكر من السماء والأرض من حيث إحاطتهما بالناظر من جميع الجوانب أو فيما تلى من الوحي الناطق بما ذكر ﴿ لآية ﴾ واضحة ﴿ لكل عبد منيب ﴾ شأنه الإجابة إلى ربه فإنه إذا تأمل فيهما أو فى الوحي المذكور ينزجر عن تعاطى القبائح وينيب إليه تعالى وفيه حث بليغ على التوبة والإجابة وقد أكد ذلك بقوله تعالى :

#### فضل الله على داود

﴿ ولقد آتينا داود منا فضلاً ﴾ أى آتيناه لحسن إجابته وصحة توبته فضلاً على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أى نوعاً من الفضل وهو ما ذكر بعد فإنه معجزة خاصة به عليه الصلاة والسلام أو على سائر الناس فيندرج فيه النبوة والكتابة والملك والصوت الحسن فتذكيره للتفخيم ومنا لتأكيد غنামته الذاتية بفضامته الإضافية كما فى قوله تعالى وآتيناه من لدنا علماً وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترتبة له فإذا ورد ما يتمكن عندها فضل تمكن ﴿ يا جبال أوبى معه ﴾ من التأويب أى رجمى معه التسييح أو التوجه على الذنب وذلك إما بأن يخلق

الله تعالى فيها صوتا مثل صوته كما خلق الكلام في الشجرة أو بأن يتمثل له ذلك وقرىء أوبى من الأبى أى ارجعى معه في التسبيح كلما رجع فيه وكان كلما سبىح عليه الصلاة والسلام يسمع من الجبال ما يسمع من المسيح معجزة له عليه الصلاة والسلام وقيل كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين وكانت الجبال تسعده على نوحه بأصدائها والطير بأصواتها وهو بدل من آتيناً يا ضمار قلنا أو من فضلا يا ضمار قولنا ﴿والطير﴾ بالنصب عطفاً على فضلا بمعنى وسخرنا له الطير لأن إيتاءها لإياه عليه الصلاة والسلام تسخيرها له فلا حاجة إلى إضماره كما نقل عن الكسائي ولا إلى تقدير مضاف أى تسبيح الطير كما نقل عنه في رواية وقيل عطفاً على محل الجبال وفيه من التكلف لفظاً ومعنى ما لا يخفى وقرىء بالرفع عطفاً على لفظها تشبيهاً للحركة البنائية العارضة بالحركة الإعرابية وقد جوز انتصابه على أنه مفعول معه والأول هو الوجه وفي تنزيل الجبال والطير منزلة العقلاء المطيعين لأمره تعالى المذعنين لحكمه المشعر بأنه ما من حيوان وجماد وصامت وناطق إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته من الفخامة المعربة عن غاية عظمت شأنه تعالى وكما كبرياء سلطانه ما لا يخفى على أولى الأبواب .

﴿وألنا له الحديد﴾ أى جعلناه لنا في نفسه كالشمع يصرفه في يده كيف يشاء من غير إحماء بنار ولا ضرب بمطرقة أو جعلناه بالنسبة إلى قوته التي آتيناهما لإياه لنا كالشمع بالنسبة إلى سائر القوى البشرية ﴿أن اعمل﴾ أمرناه أن اعمل على أن دأن، مصدرية حذف عنها الياء وفي حملها على المفسرة تكلف لا يخفى

﴿سابغات﴾ واسعات وقرىء صابغات وهي الدروع الواسعة الضافية وهو عليه الصلاة والسلام أول من اتخذها وكانت قبل صفائح قالوا كان عليه الصلاة والسلام حين ملك على بنى إسرائيل يخرج متسكراً فيسأل الناس ما تقولون في داود فيثبون عليه فقيض الله تعالى له ملكاً في صورة آدمى فسأله على عادته فقال نعم الرجل لولا خصلة فيه فريغ داود فسأله عنها فقال لولا أنه يطعم عياله من بيت المال فعند ذلك سأل ربه أن يسبب له ما يستغنى به عن بيت المال فعليه تعالى صنعة الدروع وقيل كان يدبج الدرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه

وعياله ويتصدق على الفقراء ﴿وقدر في السرد﴾ السرد نسج الدروع أى اقتصد في نسجها بحيث تتناسب حلقها وقيل قدر في مساميرها فلا تعملها دقا ولا غلاظا ورد بأن دروعه عليه الصلاة والسلام لم تكن مسمرة كما يلبيء عنه لإلانة الحديد وقيل معنى قدر في السرد لا تصرف جميع أوقاتك إليه بل مقدار ما يحصل به القوت وأما الباقي فاصرفه إلى العبادة وهو الأنسب بقوله تعالى ﴿واعملوا صالحا﴾ عزم الخطاب حسب عموم التكليف له عليه الصلاة والسلام ولأهله ﴿لأنى بما تعملون بصير﴾ تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به ﴿ولسليمان الريح﴾ أى وسخرنا له الريح وقرى برفع الريح أى وسليمان الريح مسخرة وقرى الرياح ﴿غدوها شهر ورواحها شهر﴾ أى جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشى كذلك والجملة إما مستأنفة أو حال من الريح وقرى غدوتها وروحتها وعن الحسن رحمه الله كان يغدو أى من دمشق فيقيل باصطخر ثم يروح فيسكون رواحها بكابل وقيل كان يتغذى بالرى ويتعشى بسمرقند ويحكى أن بعضهم رأى مكتوبا في منزل بناحية دجلة كتبه بعض أصحاب سليمان عليه السلام نحن نزلناه وما بيناه ومبنا وجدناه غدونا من اصطخر فقلناه ونحن رائحون منه فبايتون بالشام إن شاء الله تعالى .

﴿وأسلنا له عين القطر﴾ أى النحاس المذاب أساله من معدنه كما ألان الحديد لداود عليهما السلام فنبع منه نبوع المساء من اليبوع ولذلك سمي عينا وكان ذلك باليمن وقيل كان يسيل في الشهر ثلاثة أيام وقوله تعالى ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه﴾ إما جملة من مبتدا وخبر أو من يعمل عطف على الريح ومن الجن حال متقدمة ﴿بإذن ربه﴾ بأمره تعالى كما يذىء عنه قوله تعالى ﴿ومن يرغ منهم عن أمرنا﴾ أى ومن يعدل منهم عما أمرناه به من طاعة سليمان وقرى يرغ على البناء للفعل من أزاغه ﴿نذقه من عذاب السعير﴾ أى عذاب النار في الآخرة روى عن السدى رحمه الله كان معه ملك بيده سوط من نار كل من استمصى عليه ضربه من حيث لا يراه الجنى ﴿يعملون له ما يشاء﴾ تفصيل لما ذكر من عملهم وقوله تعالى ﴿من يحازيب﴾ الح بيان لما يشاء



أى من قصور حصينة ومساكن شريفة سميت بذلك لأنها يذب عنها ويحارب عليها وقيل هى المساجد (وتماثيل) وصور الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام على ما اعتادوه فيها كانت تعمل حينئذ فى المساجد ليراها الناس ويعبدوا مثل عباداتهم وحرمة التصاوير شرع جديد وروى أنهم عملوا أسدين فى أسفل كرسيه ونسرين فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان ذراعيهما وإذا قعد أظلهما الأسران بأجنحتهما (وجفان) جمع جفنة وهى الصفحة (كالجواب) كالحياض السكار جمع جابية من الجباية لاجتماع الماء فيها وهى من الصفات الغالبة كاللدابة وقرىء بإثبات الياء قيل كان يقعد على الجفنة ألف رجل .

(وقدور راسيات) ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها (اعملوا آل داود شكرا) حكاية لما قيل لهم وشكرا نصب على أنه مفعول له أو مصدر لا يعملوا لأن العمل للمنعم شكر له أو لفعله المحذوف أى اشكروا شكرا أو حال أى شاكرين أو مفعول به أى اعملوا شكرا (وقليل من عبادى الشكور) أى المتوفرن على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقانه ومع ذلك لا يوفى حقه لأن التوفيق للشكر نعمة تستدعى شكرا آخر لا إلى نهاية ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر وروى أنه عليه الصلاة والسلام جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتى ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى (فلما قضينا عليه الموت) أى على سليمان عليه السلام (ماد لهم) أى الجن أو آله (على موته لإدابة الأرض) أى الأرضة أضيفت إلى فعلها وقرىء بفتح الراء وهو تأثر الخشب من فعلها يقال أرضت الأرضة الخشب أرضا فأرضت أرضا مثل أكلت القوارح أسنانه أكلت فأكلت أكل (تأكل منسأته) أى عصاه من نسأت البعير إذا طردته لأنها يطرد بها ما يطرد وقرىء متسأته بألف ساكنة بدلا من الحزمة وبهمزة ساكنة ويأخر أجهن بين بين عند الوقف ومنسأته على معاملة تكسأة فى مبخاة ومن سأته عن أى

طرف عصاه من ساء القوس وفيه لغتان كما في قحمة بالكسر والفتح وقرىء  
أكلت منساته .

( فلما خر تبينت الجن ) من تبينت الشيء إذا علمته بعد التباسه عليك  
أى علمت الجن علما يبيننا بعد التباس الأمر عليهم ( أن لو كانوا يعلمون الغيب  
ما لبثوا في العذاب المهين ) أى أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعدوا  
موته عليه الصلاة والسلام حينما وقع فلم يلبثوا بعده حولا فى تسخيريه إلى أن  
خر أو من تبين الشيء إذا ظهر وتجلي أى ظهرت الجن وأن مع ما فى حيزها  
بدل اشتغال من الجن أى ظهر أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب الخ وقرىء تبينت  
الجن على البناء للمفعول على أن المتبين فى الحقيقة هو أن مع ما فى - حيزها لأنه  
بدل وقرىء تبينت الإنس والضمير فى كانوا للجن فى قوله تعالى ( ومن الجن  
من يعمل ) وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه تبينت الإنس أن الجن لو كانوا  
يعلمون الغيب روى أن داود عليه السلام أسس بنيان بيت المقدس فى موضع  
فسطاط موسى فتوفى قبل تمامه فوصى به إلى سليمان عليهما السلام فاستعمل فيه  
الجن والشياطين فباشروه حتى إذا حان أجله وعلم به سأل ربه أن يعمى عليهم  
موته حتى يفرغوا منه ولتبطل دعواهم علم الغيب فدعاهم فبينوا عليه صرحا  
من قوارير ليس له باب فقام يصلى متكئا على عصاه فقبض روحه وهو متكىء  
عليها فبقى كذلك وهم فيها أمروا به من الأعمال حتى أكلت الأرضة عصاه فخر  
ميتا وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى عليه الصلاة والسلام فلم يكن  
ينظر إليه شيطان فى صلاته إلا احترق فمر به يوما شيطان فنظر فإذا سليمان  
عليه السلام قد خر ميتا ففتحوا عنه فاذا عصاه قد أكلتها الأرضة فأرادوا أن  
يمرفوا وقت موته فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها فى يوم وليلة مقدارا  
لحسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة وكان عمره ثلاثا وخمسين سنة ملك  
وهو ابن ثلاث عشرة سنة وبقى فى ملكه أربعين سنة وابتدأ بناء بيت المقدس  
لأربع مئين من ملكه .

## أحوال سبا

(لقد كان اسبأ) بيان لإخبار بعض الكافرين بنعم الله تعالى لإثر بيان أحوال الشاكرين لها أى لأولاد سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان وقرىء يمنع الصرف على أنه أمم القبيلة وقرىء بقلب الهمزة ألفا ولعله لإخراج لها بين بين (في مسكنهم) وقرىء بكسر الكاف كالمسجد وقرىء بلفظ الجمع أى مواضع سكنهم وهى باليمن يقال لها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال (آية) دالة بملاحظة أحوالها السابقة واللاحقة على وجود الصانع المختار القادر على كل ما يشاء من الأمور البديعة المجازى للمحسن والمسيء معاضدة للبرهان السابق كما فى قصتي داود وسليمان عليهما السلام (جنتان) بدل من آية أو خبر لمبتدأ محذوف أى هى جنتان وفيه معنى المدح ويؤيده قراءة النصب على المدح والمراد بهما جماعتان من البسانيين (عن يمين وشمال) جماعة عن يمين بدم وجماعة عن شماله كل واحدة من تينك الجماعتين فى تقاربهما وتضامهما كأنهما جنة واحدة أو بستانا كل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله (كلوا من رزق ربكم واشكروا له) حكاية لما قيل لهم على لسان نبيهم تكميلا للنعمة وتذكيرا لحقوقها أو لما نطق به لسان الحال أو بيان لسكونهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك (بلدة طيبة ورب غفور) استئناف مبين لما يوجب الشكر المأمور به أى بلدتكم بلدة طيبة وربكم الذى رزقكم ما فيها من الطيبات وطلب منكم الشكر رب غفور لفرطات من يشكره وقرىء الكل بالنصب على المدح قيل كان أطيب البلاد هواء وأخصبها وكانت المرأة تخرج وعلى رأسها المسكتل فتعمل بيديها وتسير فيما بين الأشجار فيمتلئ المسكتل بما يتساقط فيه من الثمار ولم يكن فيه من مؤذيات الهوام شيء (فأعرضوا) عن الشكر بعد إبانة الآيات الداعية لهم إليه قيل أرسل الله إليهم ثلاثة عشر نبيا فدعواهم إلى الله تعالى وذكروهم بنعمه وأنذروهم عقابه فسكرتهم .

(فأرسلنا عليهم سيل العرم) أى سيل الأمر العرم أى الصعب من عرم الرجل فهو عارم وعرم إذا شرب من خلقه وصعب أو المطر الشديد وقيل العرم

جمع عرمة وهي الحجارة المركومة وقيل هو السكر الذي يحبس الماء وقيل هو اسم للبناء الذي يجعل سدا وقيل هو البناء الرصين الذي بنته الملكة بلقيس بين الجبلين بالصنجر والقار وحقنت به ماء العيون والأمطار وتركت فيه خروفا على ما يحتاجون إليه في سقيهم وقيل العرم الجرذ الذي نقب عليهم ذلك السد وهو الغار الأعشى الذي يقال له الخلد سلطه الله تعالى على مدغم فنقبه فغرق بلادهم وقيل <sup>(١)</sup> العرم اسم الوادي وقرى العرم بسكون الراء قالوا كان ذلك في الفترة التي كانت بين عيسى والنبي عليهما الصلاة والسلام ﴿وبدلناهم بجننتهم﴾ أي أذهبنا جننتهم وآتيناهم بدلها ﴿جننتين ذواتي أكل نخط﴾ أي ثمر بشع فإن النخط كل نبت أخذ طعما من مرارة حتى لا يمكن أكله وقيل هو الحامض والمر من كل شيء وقيل هو ثمرة شجرة يقال لها فسوة الضبيع على صورة الخشخاش لا ينتفع بها وقيل هو الأراك أو كل شجر ذي شوك والتقدير أكل أكل نخط فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وقرىء أكل نخط بالإضافة بتخفيف أكل ﴿وأثل وشيء من سدر قليل﴾ معطوفان على أكل لا على نخط فإن الأثل هو الطرفاء وقيل شجر يشبهه أعظم منه ولا ثمر له وقرىء وأثلا وشيئا عطفا على جننتين قيل وصف السدر بالقلة لما أن جنناه وهو النبق مما يطيب أكله ولذلك يفرس في البهاتين والصحيح أن السدر صنفان صنف يؤكل من ثمره ويتنفع بورقه لغسل اليد وصنف له ثمرة عفصة لا تؤكل أصلا ولا ينتفع بورقه وهو الضال والمراد ههنا هو الثاني حتما وقال قتادة كان شجرهم خير الشجر فصيره الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم وتسمية البديل جننتين للبشاشة والنهكم.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى مصدر قوله تعالى ﴿جزيناهم﴾ أو إلى ما ذكر من التبديل وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد رتبته في الفضاعة ومحلّه على الأول النصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور وعلى الثاني النصب على أنه مفعول

نان له أى ذلك الجزء الفطيع جزيناهم لاجزاء آخر أو ذلك التبديل جزيناهم  
 لا غيره ﴿ بما كفروا ﴾ بسبب كفرانهم النعمة حيث نزعناها منهم ووضعنا  
 مكانها ضدها أو بسبب كفرهم بالرسول ﴿ وهل نجازى إلا الكفور ﴾ أى وما  
 نجازى هذا الجزء إلا المبالغ في الكفران أو الكفر وقرى يجازى على البناء  
 للفاعل وهو الله عز وجل وهل يجازى على البناء للمفعول ورفع السكفور وهل  
 يجزى على البناء للمفعول أيضاً وهذا بيان ما أوتوا من النعم الحاضرة في  
 مساكنهم وما فعلوا بها من الكفران وما فعل بهم من الجزاء وقوله تعالى  
 ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها ﴾ حكاية لما أوتوا من النعم البادية  
 في مسائرهم ومتاجرهم وما فعلوا بها من الكفران وما حاق بهم بسبب ذلك  
 تسكلمة لغصتهم وبيان لعاقبتهم وإنما لم يذكر السكلمة مع لما في الشنية والتكرير من  
 زيادة تنبيه وتذكير وهو عطف على كان لسبب لا على ما بعده من الجملة الناطقة  
 بأفعالهم أو بأجزيتها أى وجعلنا مع ما آتيناهم في مساكنهم من فنون النعم بينهم  
 أى بين بلادهم وبين القرى الشامية التي باركنا فيها للعالمين ﴿ قرى ظاهرة ﴾  
 متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهي ظاهرة لأعين أهلها أو رابكة متن  
 الطريق ظاهرة للسابلة غير بعيدة عن مسالكهم حتى تخفى عليهم ﴿ وقد رنا فيها  
 السير ﴾ أى جعلناها في نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين يليق بحال أبناء  
 السيل قيل كان الغادى من قرية يقبل في أخرى والرائح منها يبيت في أخرى.  
 إلى أن يبلغ<sup>(١)</sup> الشام كل ذلك كان تكميلاً لما أوتوا من أنواع النعماء وتوفيرها  
 لها في الحضر والسفر ﴿ سيروا فيها ﴾ على إرادة القول أى وقلنا لهم سيروا في  
 تلك القرى ﴿ ليالى وأياما ﴾ أى متى شئتم من الليالى والأيام ﴿ آمنين ﴾ من كل  
 ما تكرهونه لا يختلِف الأمن فيها باختلاف الأوقات أو سيروا فيها آمنين وإن  
 تطاولت مدة سفركم وامتدت ليالى وأياما كثيرة أو سيروا فيها ليالى أعماركم  
 وأيامها لا تلقون فيها إلا الأمن لكن لا على الحقيقة بل على تنزيل

تمكينهم من السير المذكور وتسوية مبادئه وأسبابه على الوجه المذكور منزلة أمرهم بذلك .

﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ﴾ وقرىء يا ربنا بطروا النعمة وستموا أطيب العيش وملوا العافية فطلبوا السكدة والتعب كما طالب بنو إسرائيل النوم والبصل مكان المن والسلوى وقالوا لو كان جنى جناننا أبعد لكان أجدر أن نشتيه وسألوا أن يجعل الله تعالى بينهم وبين الشام مفاوز وقفاراً ليركبوا فيها الرواحل ويتزودوا الأزواد ويتناولوا فيها على الفقراء فمجل الله تعالى لهم الإجابة بتخريب تلك القرى المتوسطة وجعلها بلقعا لا يسمع فيها داع ولا يجيب وقرىء بعد وربنا بعد بين أسفارنا وبعد بين أسفارنا على النداء وإسناد الفعل إلى بين ورفع به كما يقال سير فرسخان وبوعد بين أسفارنا وقرىء ربنا باعد بين أسفارنا وبين سفرنا وبعد برفع ربنا على الابتداء والمعنى على خلاف الأول وهو استبعاد مسائرهم مع قصرها أودنوها وسهولة سلوكها لفرض تنعمهم وغاية ترفهم وعدم اعتدادهم بنعم الله تعالى كأنهم يتشاجون على الله تعالى ويتحازنون عليه ﴿ وظلموا أنفسهم ﴾ حيث عرضوها للسخط والعذاب حين بطروا النعمة أو غمطوها .

﴿ فجعلناهم أحاديث ﴾ أى جعلناهم بحيث يتحدث الناس بهم متعجبين من أحوالهم ومعتبرين بعاقبتهم ومألهم ﴿ ومزقناهم كل ممزق ﴾ أى فرقناهم كل تفريق على أن الممزق مصدر أو كل مطرح ومكان تفريق على أنه اسم مكان وفى عبارة التمزيق الخاص بتفريق المتصل وخرقه من تهويل الأمر والدلالة على شدة التأثير والإيلام ما لا يخفى أى مزقناهم تمزيقا لا غاية وراءه بحيث يضرب به الأمثال فى كل فرقة ليس بعدها وصال حتى لحق غسان بالشام وأمار يئرب وجذام بتهامة والأزد بعمان وأصل قصتهم على ما رواه السكبي عن أبي صالح أن عمرو بن عامر من أولاد سبأ وبينهما اثنا عشر أباً وهو الذى يقال له مزريقا ابن ماء السماء أخبرته طريقة الكاهنة بخراب سد مأرب وتفريق سيل ظلمرم الجنتين وعن أبي زيد الأنصاري أن عمرا رأى جرزا يحفر السد فعلم أنه

لا يقاوم له بعد وقيل إنه كان كاهنا وقد عليه بكهنته فباع أملاكه وسار بقومه  
 وهم ألف من بلد إلى بلد حتى انتهى إلى مكة المعظمة وأهلها جرم وكانوا قهروا  
 الناس وحازوا ولاية البيت على بني إسماعيل عليه السلام وغيرهم فأرسل إليهم  
 ثعلبة بن عمرو بن عامر يسألهم المقام معهم إلى أن يرجع إليه رواده الذين  
 أرسلهم إلى أصقاع البلاد يطلبون له موضعا يسعه ومن معه من قومه فأبوا  
 فاقتتلوا ثلاثة أيام فانزمت جرحهم ولم يفلت منهم إلا الشريد وأقام ثعلبة بمكة  
 وما حوطا في قومه وعساكره حولا فأصابتهم الحمى فاضطروا إلى الخروج  
 وقد رجع إليه رواده فاقتروا فرقتين فرقة توجهت نحو عمان وهم الأزد وكندة  
 وحمير ومن يتلوهم وسار ثعلبة نحو الشام فنزل الأوس والخزرج ابنا حارثة  
 ابن ثعلبة بالمدينة وهم الأنصار ومضت غسان فنزلوا بالشام وانخرعت خزاعة  
 بمكة فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر وهو لحي فولى أمر مكة  
 وحجابه البيت ثم جاءهم أولاد إسماعيل عليه السلام فسألوهم السكنى معهم  
 وحولهم فأذنوا لهم في ذلك وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن فروة بن  
 مسيك الغطفاني سأل النبي عليه الصلاة والسلام <sup>(١)</sup> عن سبا فقال عليه الصلاة  
 والسلام هو رجل كان له عشرة أولاد ستة منهم سكنوا اليمن وهم مذحج وكندة  
 والأزد والأشعريون وحمير وأما من منهم بجيلة وخثعم وأربعة منهم سكنوا  
 الشام وهم لخم وجذام وعاملة وغسان لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم تفرقوا  
 أيدي سبا شذر مذر فنزلت طوائف منهم بالحجاز فنهزم خزاعة نزلوا بظاهر  
 مكة ونزلت الأوس والخزرج يثرب فكانوا أول من سكنها ثم نزل عندهم ثلاث  
 قبائل من اليهود بنو قينقاع وبنو قريظة والنضير فخالفوا الأوس والخزرج  
 وأقاموا عندهم ونزلت طوائف آخر منهم بالشام وهم الذين تنصروا فيما بعد وهم  
 غسان وعاملة ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم وسبا تجمع هذه القبائل  
 كلها والجمهور على أن جميع العرب قسمان قسطنية وعدنانية والقمحطانية شعبان

سبأ وحضرموت والعدنانية شعبان ربيعة ومضر وأما قضاة فمختلف فيها فبعضهم ينسبونهم إلى قحطان وبعضهم إلى عدنان والله تعالى أعلم .

﴿ إن في ذلك ﴾ أى فيما ذكر من قصتهم ﴿ لآيات ﴾ عظيمة ﴿ لكل صبار شكور ﴾ أى شأنه الصبر عن الشهوات ودواعى الهوى وعلى مشاق الطاعات والشكر على النعم وتخصيص هؤلاء بذلك لأنهم المنتفعون بها ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ﴾ أى حقق عليهم ظنه أو وجده صادقاً وقرىء بالتخفيف أى هدى فى ظنه أو صدق بظن ظنه ويجوز تعديده الفعل إليه بنفسه لأنه نوع من القول وقرىء بالتخفيف أى صدق فى ظنه أو صدق بظن ظنه ويجوز تعديده الفعل إليه بنفسه لأنه نوع من القول وقرىء بنصب إبليس ورفع الظن مع التشديد بمعنى وجده ظنه صادقاً ومع التخفيف بمعنى قال له الصدق حين خيل له إغواءهم وبرفهم والتخفيف على الإبدال وذلك إما ظنه بسبأ حين رأى أنهما كهم فى الشهوات أو بنى آدم حين شاهد آدم عليه السلام قد أصغى إلى وسوسته قال إن ذريته أضعف منه عزماً وقيل ظن ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنه يجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وقال لأضلنهم ولأغوينهم ﴿ فاتبعوه ﴾ أى أهل سبا أو الناس ﴿ إلا فريقاً من المؤمنين ﴾ إلا فريقاً المؤمنين لم يتبعوه على أن من بيانية وتقليلهم بالإضافة إلى الكفار أو إلا فريقاً من فرق المؤمنين لم يتبعوه وهم المخلصون ﴿ وما كان له عليهم من سلطان ﴾ أى تسلط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء وقوله تعالى ﴿ إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة من هو منها فى شك ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل ومن موهولة أى وما كان تسلطه عليهم إلا ليعلق علمنا بمن يؤمن بالآخرة متميزاً عن هو فى شك منها تعلقاً حالياً يترتب عليه الجزاء أو إلا ليميز المؤمن من الشاك أو إلا ليؤمن من قدر إيمانه ويشك من قدر ضلاله والمراد من حصول العلم حصول متعلقه مبالغة ﴿ وربك على كل شيء حفيظ ﴾ أى محافظ عليه فإن فعلاً ومفاعلاً صيغتان متاخيتان .

﴿ قل ﴾ أى للمشركين إظهاراً لبطلان ما هم عليه وتبكيته لهم ﴿ ادعوا الذين زعمتم ﴾ أى زعمتهم آلهة وهما مفعولان زعم ثم حذف الأول تخفيفاً



لطول الموصول بصلته والثاني لقيام صفة أعنى قوله تعالى ﴿ من دون الله ﴾ مقامه ولا سبيل إلى جعله مفعولا ثانيا لأنه لا يلتزم مع الضمير كلاما وكذا لا يملكون لأنهم لا يزعمونه والمعنى ادعوهم فيما يهكم من جلب نفع أو دفع ضرر اعلمهم يستجيبون لكم إن صح دعواكم ثم أجاب عنهم إشعارا بتعين الجواب وأنه لا يقبل المسكابة فقال ﴿ لا يملكون مثقال ذرة ﴾ من خير وشر ونفع وضر ﴿ في السموات ولا في الأرض ﴾ أى فى أمر ما من الأمور وذكرهما للتعميم عرفا أو لأن آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالأصنام أو لأن الأسباب القريبة للخير والشر سماوية وأرضية والجملة استئناف لبيان حالهم ﴿ وما لهم ﴾ أى لآلهتهم ﴿ وفيهما من شرك ﴾ أى شركة لا خلقا ولا ملكا ولا تصرفا ﴿ وماله ﴾ أى لله تعالى ﴿ منهم ﴾ من آلهتهم ﴿ من ظهير ﴾ يعينه فى تدبير أمرهما ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده ﴾ أى لا توجد رأسا كما فى قوله :

﴿ ولا ترى الضرب بها ينجر ﴾ \*

لقوله تعالى ( من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ) وإنما علق النفى بنفعها لا بوقوعها تصريحاً بنفى ما هو غرضهم من وقوعها وقوله تعالى ﴿ إلا لمن أذن له ﴾ استثناء مفرع من أعم الأحوال أى لا تقع الشفاعة فى حال من الأحوال إلا كائنه لمن أذن له فى الشفاعة من النبيين والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة فتبين حرمان الكفرة منها بالسكينة أما من جهة أصنامهم فلظهور انتفاء الإذن لها ضرورة استحالة الإذن فى الشفاعة لجماد لا يعقل ولا ينطق وأما من جهة من يعبدونه من الملائكة فالأذن لآلهتهم مقصور على الشفاعة للمستحقين لها لقوله تعالى ( لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ) ومن البين أن الشفاعة للكفرة بمزول من الصواب أو لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المستأهلين لها فى حال من الأحوال إلا كائنه لمن أذن له أى لأجله وفى شأنه من المستحقين للشفاعة وأما من عداهم من غير المستحقين لها فلا

تنفعهم أصلاً وإن فرض وقوعها وصدورها عن الشفعاء إذ لم يؤذن لهم في شفاعتهم بل في شفاعه غيرهم فعلى هذا يثبت حرمانهم من شفاعه هؤلاء بعبارة النص ومن شفاعه الأصنام بدلالته إذ حيث حرموها من جهة القادرين على شفاعه بعض المحتاجين إليها فالأن يحرموها من جهة العجزة عنها أولى وقرئ

أذن له مبنياً للفعول .

﴿ حتى إذا فرغ عن قلوبهم ﴾ أى قلوب الشفعاء والمشفوع لهم من المؤمنين وأما الكفرة فهم من موقف الاستشفاع بمعزل وعن التفريع عن قلوبهم بألف منزل<sup>(١)</sup> والتفريع لإزالة الفرع ثم ترك ذكر الفرع وأسند الفعل إلى الجار والمجرور وحتى غاية لما ينبي عنه ما قبلها من الإشعار بوقوع الإذن لمن أذن له فإنه مسبوق بالاستئذان المستدعى للتقرب والانتظار للجواب كأنه سئل كيف يؤذن لهم ف قيل يترقبون فى موقف الاستئذان والاستدعاء ويتوقفون على وجل وفرغ ملياً حتى إذا أزيل الفرع عن قلوبهم بعد التليا والتى وظهرت لهم تباشير الإجابة .

﴿ قالوا ﴾ أى المشفوع لهم إذ هم المحتاجون إلى الإذن والمهتمون بأمره ﴿ ماذا قال ربكم ﴾ أى فى شأن الإذن ﴿ قالوا ﴾ أى الشفعاء لأنهم المباثرون للاستئذان بالذات المتوسطون بينهم وبينه عز وجل بالشفاعة ﴿ الحق ﴾ أى قال ربنا القول الحق وهو الإذن فى الشفاعه للمستحقين لها وقرئ الحق مرفوعاً أى ما قاله الحق ﴿ وهو العلى الكبير ﴾ من تمام كلام الشفعاء قالوه اعترافاً بنهاية عظمة جناب العزة عز وجل وقصور شأن كل من سواه أى هو المتفرد بالعلو والكبرياء ليس لأحد من أشرف الخلائق أن يتكلم إلا بإذنه وقرئ فرغ مخففاً بمعنى فرغ وقرئ فرغ على البناء للفاعل وهو الله وحده وقرئ فرغ بالراء المهملة والغين المعجمة أى نفى الوجل عنها وأفنى من فرغ الزاد إذا لم يبق منه شيء وهو من الإسناد المجازى لأن الفراغ وهو الخلو حال ظرفه عند نفاذه

فأسند إليه على عكس قولهم جرى النهر وعن الحسن تخفيف الراء وأصله فرغ  
الوجل عنها أى اتفنى عنها وفنى ثم حذف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور وبه يعرف  
حال التفريغ وقرئ ارتفع عن قلوبهم بمعنى انكشف عنها ﴿قل من يرزقكم  
من السموات والأرض﴾ أمر عليه الصلاة والسلام بتبكيك المشركين بحملهم  
على الإقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما وأن الرازق هو الله تعالى  
فإنهم لا ينكرونه كما ينطق به قوله تعالى ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض  
أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي  
ومن يدبر الأمر فسيقولون الله﴾ وحيث كانوا يتلغثون أحيانا في الجواب  
مخافة الإلزام قيل له عليه الصلاة والسلام ﴿قل الله﴾ إذ لا جواب  
سواه عندهم أيضاً .

﴿ولما أولياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين﴾ أى وإن أحد الفريقين من  
الذين يوحّدون المتوحد بالرزق والقدرة الذاتية ويخصّوه بالعبادة والذين يشركون  
به فى العبادة الجداد النازل فى أدنى المراتب الإمكانية لعلى أحد الأمرين من الهدى  
والضلال المبين وهذا بعد ما سبق من التقرير البليغ الناطق بتعيين من هو على الهدى  
ومن هو فى الضلال أبلغ من التصريح بذلك لجريانه على سنن الإنصاف المسكت  
للخصم الألد وقرئ وأنا أو إياكم إما على هدى أو فى ضلال مبين واختلاف  
الجارين للإيدان بأن الهدى كمن استعلى منارا ينظر الأشياء ويتطلع عليها والضال  
كأنه منغمص فى ظلام لا يرى شيئاً أو محبوس فى مطمورة لا يستطيع الخروج  
منها ﴿قل لا تسألون عما أجر منا ولا نسأل عما تعملون﴾ وهذا أبلغ فى الإنصاف  
وأبعد من الجدل والاعتساف حيث أسند فيه الإجماع وأن أريد به الزلة وترك  
الأولى إلى أنفسهم ومطلق العمل إلى المخاطبين مع أن أعمالهم أكبر الكبائر  
﴿قل يجمع بيننا ربنا﴾ يوم القيامة عند الحشر والحساب ﴿ثم يفتح بيننا بالحق﴾  
أى يحكم بيننا ويفصل بعد ظهور حال كل منا ومنكم بأن يدخل المحققين الجنة  
والمبطلين النار ﴿وهو الفتاح﴾ الحاكم الفيصل فى القضايا المتعلقة ﴿العليم﴾  
بما ينبغى أن يقضى به ﴿قل أرونى الذين ألحقتم﴾ أى ألحقتموهم ﴿به شركاء﴾

أريد بأمرهم بإراءة الأصنام مع كونها برأى منه عليه الصلاة والسلام إظهار  
خطئهم العظيم وإطلاعهم على بطلان رأيهم أى أرونيها لا تظر بأى صفة ألحقتموها  
بآله الذى ليس كمثل شئ فى استحقاق العبادة وفيه مزيد تبكىت لهم بعد إلزام  
الحجة عليهم (كلا) ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايضة .

(بل هو الله العزيز الحكيم) أى الموصوف بالعلية القاهرة والحكمة الباهرة  
فأين شركاؤكم التى هى أخص الأشياء وأذلها من هذه الرتبة العالية والضمير إما لله  
عز وعلا أو للشأن كما فى قل هو الله أحد (وما أرسلناك إلا كافة للناس)  
أى إلا لإرسالة عامة (١) لهم فإنها إذا عمتهم فقد كفتم أن يخرج منها أحد منهم  
أو إلا جامعا لهم فى الإبلاغ فى حال من الكاف والتاء المبالغة ولا سبيل إلى  
جعلها حالا من الناس لاستحالة تقدم الحال على صاحبها المجرور (بشيراً ونذيراً  
ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيجعلهم جهلهم على ما هم عليه من الغي  
والضلال (ويقولون) من فرط جهلهم وغاية غيهم (متى هذا الوعد) بطريق  
الاستهزاء يعنون به المبشر به والمندر عنه أو الموعود بقوله تعالى (يجمع بيننا  
ربنا ثم يفتح بيننا) (إن كنتم صادقين) مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم  
والمؤمنين به (قل لكم ميعاد يوم) أى وعد يوم أو زمان وعد والإضافة للتبيين  
وقرىء ميعاد يوم منونين على البدل ويوما بإضمار أعنى للتعظيم (لا تستأخرون  
عنه) عند مفاجأته (ساعة ولا تستقدمون) صفة لميعاد وفى هذا الجواب  
من المبالغة فى التهديد ما لا يخفى حيث جعل الاستخار فى الاستعالة كالاستقدام  
الممتنع عقلاً وقد مر يانه مراراً ويجوز أن يكون فى الاستخار والاستقدام  
غير مقيد بالمفاجأة فيكون وصف الميعاد بذلك لتحقيقه وتقريره (وقال الذين  
كفروا لن يؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) أى من الكتب القديمة  
الدالة على البعث وقيل إن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فأخبروهم أنهم يحدون نعتهم فى كتبهم فنهضوا فقالوا ذلك وقيل الذى

بين يديه القيامة ﴿ولو ترى إذ الظالمون﴾ المنكرون للبعث ﴿موقوفون عند ربهم﴾ أى فى موقف المحاسبة ﴿يرجع بعضهم إلى بعض القول﴾ أى يتحاورون ويتراجعون القول ﴿يقول الذين استضعفوا﴾ بدل من يرجع الخ أى يقول الاتباع ﴿للذين استكبروا﴾ فى الدنيا واستبغعهم فى التلى والضلال ﴿لولا أنتم﴾ أى لولا إضلالكم وصدكم لنا عن الإيمان ﴿لكننا مؤمنين﴾ باتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿قال الذين استكبروا للذين استضعفوا﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال الذين استكبروا فى الجواب فقيل قالوا ﴿أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين﴾ منكرين لكونهم هم الصادين لهم عن الإيمان مثبتين أنهم هم الصادون بأنفسهم بسبب كونهم راسخين فى الإجرام ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا﴾ لإضرابا على إضرابهم ولإبطالاً له ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ أى بل صدنا مكركم بثا بالليل والنهار لحذف المضاف إليه وأقيم مقامه الظرف اتساعاً أو جعل ليلهم ونهارهم ما كرين على الإسناد المجازى وقرئ بل مكر الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين أى بل صدنا مكركم فى الليل والنهار على أن التنوين عوض عن المضاف إليه أو مكر عظيم على أنه للتفخيم وقرئ بل مكر الليل والنهار بالرفع والنصب أن تكرون الإغواء مكرًا دائبًا لا تفترون عنه فالرفع على الفاعلية أى بل صدنا مكركم الإغواء فى الليل والنهار على ما سبق من الاتساع فى الظرف بإقامته مقام المضاف إليه والنصب على المصدرية أى بل تكرون الإغواء مكر الليل والنهار أى مكرًا دائمًا وقوله تعالى ﴿إذ تأمرونا﴾ ظرف للمكر أى بل مكركم الدائم وقت أمركم لنا ﴿أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ على أن المراد بمكرهم إما نفس أمرهم بما ذكر كما فى قوله تعالى (يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً) فإن الجعلين المذكورين نعمة من الله تعالى وأى نعمة وإما أمور أخر مقارنة لأمرهم داعية إلى الامتثال به من الترغيب والترهيب وغير ذلك ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ أى أضمر الفريقان الندامة على ما فعلا من الضلال والإضلال وأخفاها كل منهما عن الآخر مخافة التعبير أو أظهرها

فإنه من الأضداد وهو المناسب لحالهم ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾  
 أى في أعناقهم والإظهار في موضع الإضمار للتنويه بذهمهم والتنبية على موجب  
 أغلالهم ﴿هل يحزون إلا ما كانوا يعملون﴾ أى لا يحزون إلا جزاء ما كانوا  
 يعملون أو إلا بما كانوا يعملونه على نزع الجار ﴿وما أرسلنا في قرية﴾ من  
 القرى ﴿من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ تسلياً لرسول  
 الله صلى الله عليه وسلم بما منى به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به  
 والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد والمفاخرة بمحظوظ الدنيا وزخارفها والتكبر  
 بذلك على المؤمنين والاستهانة بهم من أجله وقولهم (أى الفريقين خير مقاماً  
 وأحسن ندياً) بأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قال مترفوها مثل ما قال  
 مترفوا أهل مكة في حقه عليه الصلاة والسلام وكادوا به نحو ما كادوا به عليه  
 الصلاة والسلام وقاسوا أمور الآخرة الموهومة والمفروضة عندهم على أمور  
 الدنيا وزعموا أنهم لو لم يكرموا على الله تعالى لما رزقهم طيبات الدنيا ولولا أن  
 المؤمنين هانوا عليه تعالى لما حرمهموها وعلى ذلك رأى الركب بنوا أحكامهم.  
 ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ إما بناء على انتفاء  
 العذاب الآخرى رأساً أو على اعتقاد أنه تعالى أكرمهم في الدنيا فلا يمينهم في  
 الآخرة على تقدير وقوعها ﴿قل﴾ ردا عليهم وحسماً لمادة طمعهم الفارغ  
 وتحقيقاً للحق الذى عليه يدور أمر التكوين ﴿إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء﴾  
 أن يبسطه له ﴿ويقدر﴾ على من يشاء أن يقدره عليه من غير أن يكون  
 لأحد الفريقين داع إلى ما فعل به من البسط والقدر فربما يوسع على  
 العاصي ويضيق على المطيع وربما يعكس الأمر وربما يوسع عليهما معا وقد  
 يضيق عليهما وقد يوسع على شخص تارة ويضيق عليه أخرى يفعل كلا من  
 ذلك حسبما تقتضيه مشيئته المبينة على الحكم البالغة فلا يقاس على ذلك أمر  
 الثواب والعذاب اللذين هما طاعة وعدمها وقرىء ويقدر بالتشديد (ولكن  
 أكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيزعمون أن مدار البسط هو الشرف والكرامة  
 ومدار القدر هو الهوان ولا يدرون أن الأول كثيراً ما يكون بطريق الاستدراج

والثاني بطريق الابتلاء ورفع الدرجات ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي  
تقربكم عندنا زلفى ﴾ كلام مستأنف من جهته عز وعلا خوطب به الناس  
بطريق التلوين والاتفات مبالغة في تحقيق الحق وتقرير ما سبق أى وما جماعة  
أموالكم وأولادكم بالجماعة التى تقربكم عندنا قربة فإن الجمع المكسر عقلاؤه  
وغير عقلائه سواء فى حكم التانيث أو بالخصلة التى تقربكم وقرىء بالذى أى  
بالشئ الذى .

﴿ إلا من آمن وعمل صالحا ﴾ استثناء من مفعول تقربكم أى وما الأموال  
والأولاد تقرب أحدا إلا المؤمن الصالح الذى أنفق أمواله فى سبيل الله تعالى  
وعلم أولاده الخير ورباهم على الصلاح ورشحهم للطاعة وقيل من أموالكم وأولادكم  
على حذف المضاف أى إلا أموال من الخ ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى من والجمع  
باعتبار معناها كما أن الأفراد فى الفعلين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع  
قرب العهد بالشار إليه للإيدان بعلو رتبهم وبعد منزلتهم فى الفضل أى فأولئك  
المنعوتون بالإيمان والعمل الصالح ﴿ لهم جزاء الضعف ﴾ أى ثابت لهم ذلك  
على أن الجار والمجرور خبر لما بعده والجملة خبر لأولئك وفيه تأكيد لتكرار  
الإسناد أو يثبت لهم ذلك على أن الجار والمجرور خبر لأولئك وما بعده مرتفع  
على الباعلية وإضافة الجزاء إلى الضعف من إضافة المصدر إلى المفعول أصله فأولئك  
لهم أن يجازوا الضعف ثم جزاء الضعف ثم جزاء الضعف ومعناه أن تضاعف لهم  
حساباتهم الواحدة عشراً فما فوقها وقرىء جزاء الضعف على فأولئك لهم الضعف  
جزاء وجزاء الضعف على أن يجازوا للضعف وجزاء الضعف بالرفع على أن  
الضعف بدل من جزاء ﴿ بما عملوا ﴾ ومن الصالحات ﴿ وهم فى الغرفات ﴾ أى  
غرفات الجنة ﴿ آمنون ﴾ من جميع المسكاره وقرىء بفتح الراء وسكونها وقرىء  
فى الغرفة على إرادة الجنس ﴿ والذين يسمعون فى آياتنا ﴾ بالرد والطمع فيها  
﴿ معاجزين ﴾ سابقين لأنبيائنا أو زاعمين أنهم يفوتوننا ﴿ أولئك فى العذاب  
محضرون ﴾ لا يجديهم ما عولوا عليه نفعا .

﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ﴾ أى يوسع عليه تارة

﴿ ويقدر له ﴾ أى يضيقة عليه تارة أخرى فلا تخشوا الفقر وأنفقوا فى سبيل الله وتعرضوا لنفحاته تعالى ﴿ وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه ﴾ عوضا إما عاجلا وإما آجلا ﴿ وهو خير الرازقين ﴾ فإن غيره واسطة فى إيصال رزقه لاحقية لرازقته ﴿ ويوم يحشرهم جميعا ﴾ أى المستكبرين والمستضعفين وما كانوا يعبدون من دون الله ويوم ظفر لمضمر متأخر سيأتى تقديره أو مفعول لمضمر مقدم نجو اذكر ﴿ ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾ تقريرا للبشرى وتبكيتا لهم على نهج قوله تعالى ﴿ أنت قلت للناس اتخذونى وأمى ﴾ الخ وإقناطهم عما علقوا به أطاعهم الفارغة من شفاعتهم وتخصيص الملائكة لأنهم أشرف شركائهم والصالحون للخطاب منهم ولأن عبادتهم مبدأ الشرك بظهور قههورهم عن رتبة المعبودية وتنزههم عن عبادتهم يظهر حال سائر شركائهم بطريق الأولوية وقرئ الفعلان بالنون ﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية سؤال الملائكة حينئذ فقولون متزهين عن ذلك ﴿ سبعاك أنت ولينا من دونهم ﴾ والعدول إلى صيغة الماضى للدلالة على التحقق أى أنت الذى نواله من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم كأنهم ينووا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ أى الشياطين حيث أطاعوهم فى عبادة غير الله سبحانه وتعالى وقيل كانوا يتمثلون لهم ويخيلون لهم أنهم الملائكة فيعبدونهم وقيل يدخلون أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها ﴿ أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ الضمير الأول للإنس أو البشرى والآكثر بمعنى الكل والثانى للجن .

﴿ فالיום لا يملك بعضهم لبعض نفعا ولا ضرا ﴾ من جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالنزہ والتبرؤ عما نسب إليهم الكفرة يخاطبون بذلك على رؤس الأشهاد لإظهار المعجزهم وقصورهم عند عبادتهم وتنهيها على ما يوجب خيبة رجاتهم بالسكينة والفاء ليست لترتيب ما بعدها من الحكم على جواب الملائكة فإنه محقق أجابوا بذلك أم لا بل لترتيب الإخبار به عليه ونسبة عدم النفع والضرر إلى البعض المبهم للمبالغة فيما هو المقصود الذى هو بيان عدم نفع الملائكة



للعبد بنظمه في سلك عدم نفع العبد لهم كأن نفع الملائكة لعبدتهم في الاستحالة والانتفاء كنفع العبد لهم والتعرض لعدم الضرر مع أنه لا بحث عنه أصلاً إما لتعميم العجز أو لحمل عدم النفع على تقدير العبادة وعدم الضرر على تقدير تركها أو لأن المراد دفع الضرر على حذف المضاف وتقييد هذا الحكم بذلك اليوم مع ثبوته على الإطلاق لانعقاد رجائهم على تحقق النفع يومئذ وقوله عز وجل ﴿ ونقول للذين ظلموا ﴾ عطف على نقول للملائكة لا على لا يملك كما قيل فإنه مما يقال يوم القيامة خطاباً للملائكة مترتباً على جوابهم المحكى وهذا حكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما سيقال للعبدة يومئذ إثر حكاية ما سيقال للملائكة أى يوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة كذا وكذا ويقولون كذا وكذا ونقول للمشركين ﴿ ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ يكون من الأحوال والأحوال ما لا يحيط به نطاق المقال وقوله تعالى :

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ بيان لبعض آخر من كفرانهم أى إذا تتلى عليهم بلسان الرسول عليه الصلاة والسلام آياتنا الناطقة بحقبة التوحيد وبطلان الشرك ﴿ قالوا ما هذا ﴾ يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ فيستبعم بما يستدعيه من غير أن يكون هناك دين إلهي وإضافة الآباء إلى المخاطبين لا إلى أنفسهم لتحريك عرق<sup>(١)</sup> العصبية منهم مبالغة في تقريرهم على الشرك وتنفيرهم عن التوحيد ﴿ وقالوا ما هذا ﴾ يعنون القرآن الكريم ﴿ إلا لافك ﴾ أى كلام مصروف عن وجهه لا مصداق له في الواقع ﴿ مفترى ﴾ بإسناده إلى الله تعالى ﴿ وقال الذين كفروا للحق ﴾ أى لأمر النبوة أو الإسلام أو القرآن على أن العطف لاختلاف العنوان بأن يراد بالاول معناه وبالثاني نظامه المعجز ﴿ لما جاءهم ﴾ من غير تدبر ولا تأمل فيه ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ ظاهر سحرينه وفى تكرير الفعل والتصریح بذكر الكفرة وما فى اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه وما فى لما من

المسارعة إلى البت بهذا القول الباطل إنكار عظيم له وتمجيب بليغ منه ﴿وما آتيناكم من كتب يدرسونها﴾ فيها دلائل على صحة الإشراف كما في قوله تعالى ﴿أم أزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون﴾ وقوله تعالى ﴿أم آتيناكم كتاباً من قبله فهم به مستمعون﴾ وقرئ يدرسونها ويدرسونها بتشديد الدال يفتعلون من الدرس .

﴿وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ يدعوهم إليه وينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا وقد بان من قبل أن لا وجه له بوجه من الوجوه فمن أين ذهبوا هذا المذهب الزائغ وهذا غاية تحجیل لهم وتسفيه لرأيهم ثم هددهم بقوله تعالى ﴿وكذب الذين من قبلهم﴾ من الأمم المتقدمة والقرون الخالية كما كذبوا . ﴿وما بلغوا معشار ما آتيناهم﴾ أى ما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال أو ما بلغ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى ﴿فكذبوا رسل﴾ عطف على كذب الذين الخ بطريق التفصيل والتفسير كقوله تعالى ﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا﴾ الخ ﴿فكيف كان تكذيب﴾ أى إنكارى لهم بالتدمير فليحذر هؤلاء من مثل ذلك ﴿قل إنما أعظكم بواحدة﴾ أى ما أرشدكم وأنصح لكم إلا بخصلة واحدة هى ما دل عليه قوله تعالى : ﴿أن تقوموا لله﴾ على أنه بدل منها أو بيان لها أو خبر مبتدأ محذوف أى هى أن تقوموا من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تنصبوا للأمر خالصاً لوجه الله تعالى معرضاً عن المماراة والتقليد ﴿مثنى وفردى﴾ أى متفرقين اثنين اثنين وواحداً واحداً فإن الازدحام يشوش الأفهام وبخاطب الأفكار بالأوهام وفى تقديم مثنى إيدان بأنه أوثق وأقرب إلى الاطمئنان ﴿ثم تنفكروا﴾ فى أمره هاية الصلاة والسلام وما جاء به لتعلموا حقيقته وحقيقته وقوله تعالى : ﴿ما بصاحبكم من جنة﴾ استثناف مسوق من جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمل بأن مثل هذا الأمر العظيم الذى تحته ملك الدنيا والآخرة لا يتصدى لادعائه إلا بمنون لا يبالى باقتضاحه عنده مطالبته ( ٣٠ - أبو السعود - الرابع )

بالبرهان وظهور عجزه أو مؤيد من عند الله مرشح للنبوّة واثق بحجته وبرهانه وإذ قد علمتم أنه عليه الصلاة والسلام أرجح العالمين عقلا وأصدقهم قولاً وأزهم نفساً وأفضلهم علماً وأحسنهم عملاً وأجمعهم للحكالات البشرية وجب أن تصدقوه في دعواه فكيف وقد انضم إلى ذلك معجزات تخر لها صم الجبال ويجوز أن يتعلق بما قبله على معنى ثم تنفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوز أن تكون ما استفهامية على معنى ثم تنفكروا أى شيء به من آثار الجنون .

(إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) هو عذاب الآخرة فإنه عليه الصلاة والسلام مبعوث في نسمة الساعة (قل ما سألتكم من أجر) أى أى شيء سألتكم من أجر على الرسالة<sup>(١)</sup> (فهو لكم) والمراد نفى السؤال رأساً كقول من قال لمن لم يعطه شيئاً إن أعطيتني شيئاً نخذه وقيل ما موصولة أريد بها ما سألتهم بقوله تعالى (ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً) وقوله تعالى (لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) واتخاذ السبيل إليه تعالى منفعتهم الكبرى وقرباه عليه الصلاة والسلام قرباهم (إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد) مطلع يعلم صدق وخلوص نيتى وقرىء أن أجرى بسكون الياء (قل إن ربي يقذف بالحق) أى يلقيه وينزله على من يجتنبه من عباده أو يرمى به الباطل فيدمغه أو يرمى به في أقطار الآفاق فيكون وعداً بإظهار الإسلام وإعلاء كلمة الحق (علام الغيوب) صفة محمولة على محل إن واسمها أو بدل من المستكن في يقذف أو خبر ثان لأن أو خبر مبتدأ محذوف وقرىء بالنصب صفة لربى أو مقدراً بأعنى وقرىء بكسر الغين وبالفتح كعبور مبالغة غائب (قل جاء الحق) أى الإسلام والتوحيد (وما يبدىء الباطل وما يعيد) أى زهق الشرك بحيث لم يبق أثره أصلاً مأخوذ من هلاك الحى فإنه إذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة لجعل مثلاً في الهلاك بالمرّة ومنه قول عبيد :

أقفر من أهله عبيد فليس يبدى ولا يعيد

وقيل الباطل إبليس أو الصنم والمعنى لا ينشئ خلقا ولا يعيد أولا يبدى خيرا لأهله ولا يعيد وقيل ما استفهامية منصوبة بما بعدها ﴿ قل إن ضللت ﴾ عن الطريق الحق ﴿ فإنما أضل على نفسي ﴾ فإن وبال ضلالى عليها لأنه بسببها إذ هى الجاهلة بالذات والأماره بالسوء وبهذا الاعتبار قول الشرطية بقوله تعالى ﴿ وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربى ﴾ لأن الاهتداء بهدائته وتوفيقه وقرئ ربى بفتح الياء ﴿ إنه سميع قريب ﴾ يعلم قول كل من المهتدى والضال وفعله وإن بالغ في إخفاهما .

﴿ ولو ترى إذ فرعوا ﴾ عند الموت أو البعث أو يوم بدر وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن ثمانين ألفا يغزون الكعبة ليخربوها فإذا دخلوا البيداء خسف بهم وجواب لو محذوف أى لرأيت أمرا هائلا ﴿ فلا فوت ﴾ فلا يفوتون الله عز وجل بهرب أو تحصن ﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ من ظهر الأرض أو من الموقف إلى النار أو من صحراء بدر إلى قليبها أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم والجملة معطوفة على فرعوا وقيل على لا فوت على معنى إذ فرعوا فلم يفوتوا وأخذوا ويؤيده أنه قرئ وأخذ بالعطف على محله أى فلا فوت هنا وهناك أخذ ﴿ وقالوا آمنا به ﴾ أى بمحمد عليه الصلاة والسلام وقد مر ذكره فى قوله تعالى ما بصاحبكم ﴿ وأنى لهم التناوش ﴾ التناوش التناول السهل أى ومن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناول سهلا ﴿ من مكان بعيد ﴾ فإنه فى حيز التكليف وهم منه بمعزل بعيد وهو تمثيل حالهم فى الاستخلاص بالإيمان بعد ما فات عنهم وبعد بحال من يريد أن يتناول الشئ من غلوة تناوله من ذراع فى الاستحالة وقرئ بالهمز على قلب الواو لضمها وهو من ناشت الشئ إذا طلبته وعن أبى عمرو التناوش بالهمز التناول من بعد من قولهم ناشت إذا أبطأت وتأخرت ومنه قول من قال :

تمنى تيشا أن يكون أطاعنى وقد حدث بعد الأمور أمور

﴿ وقد كفروا به ﴾ أى بمحمد صلى الله عليه وسلم أو بالعذاب الشديد

الذى أنذرهم إياه ﴿من قبل﴾ أى من قبل ذلك فى أو ان التكليف ﴿ويقذفون  
بالغيب﴾ ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم فى حق الرسول عليه  
الصلاة والسلام من المطاعن أو فى العذاب المذكور من بت القول بنفيه ﴿من  
مكان بعيد﴾ من جهة بعيدة من حاله عليه الصلاة والسلام حيث ينسبون  
صلى الله عليه وسلم إلى السحر والكذب وأن أبعد شئ مما جاء به الشعر  
والسحر وأبعد شئ من عاداته المعروفة فيما بين الدانى والقاصى الكذب ولعله  
تمثيل لحالهم فى ذلك بحال من يرى شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم فى  
لحوقه وقرىء ويقذفون على أن الشيطان يلقى إليهم ويلقنهم ذلك وهو معطوف  
على قد كفروا به على حكاية الحال الماضية أو على قالوا فيكون تمثيلاً لحالهم  
بحال القاذف فى تحصيل ماضيعوه من الإيمان فى الدنيا ﴿وحيل بينهم وبين  
ما يشتهون﴾ مع نفع الإيمان والنجاة من النار وقرىء بإشمام الضم للحاء  
﴿كما فعل بأشياعهم من قبل﴾ أى بأشباهم من كفره الأمم الدارجة ﴿أنهم  
كانوا فى شك مريب﴾ أى موقع فى الريبة أو ذى ريبة والأول منقول عن  
يصحح أن يكون مريباً من الأعيان إلى المعنى والثانى من صاحب الشك إلى الشك  
كما يقال شعر شاعر والله أعلم . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : د من قرأ  
سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبي إلا كان له يوم القيامة رفيقاً ومصالحاً ،

## ﴿سورة الملائكة﴾

مكية ، وهي خمس وأربعون آية

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض﴾ مبدعهما من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه من الفطر وهو الشق وقيل الشق طولا كأنه شق العدم بإخراجهما منه وإضافته محضة لأنه بمعنى الماضي فهو نعت للاسم الجليل وهن جعلها غير محضة جعله بدلا منه وهو قليل في المشتق ﴿جاعل الملائكة﴾ الكلام في إضافته وكونه نعتا أو بدلا كما قبله وقوله تعالى ﴿رسلا﴾ منصوب به على الوجه الثاني من الإضافة بالاتفاق وأما على الوجه الأول فكذلك عند الكسائي وأما عند البصريين فبمضمّر يدل هو عليه لأن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي لا يعمل عندهم إلا معرفا باللام وقال أبو سعيد السيرافي اسم الفاعل المتعدي إلى اثنين يعمل في الثاني لأن إضافته إلى الأول تعذرت لإضافته إلى الثاني فتعين نصبه له وعلل بعضهم ذلك بأنه بالإضافة أشبه المعرف باللام فعمل عمله وقرىء جاعل بالرفع على المدح وقرىء (الذى فطر السموات والأرض وجعل الملائكة) أى جاعلهم وسائط بينه تعالى وبين أنبيائه والصالحين من عباده يبلغون إليهم رسالاته بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة أو بينه تعالى وبين خاقه أيضا حيث يوصلون إليهم آثار قدرته وصنعه هذا على تقدير كون الجعل تصييريا أما على تقدير كونه إبداعيا فرسلا نصب على الحالية وقرىء رسلا بسكون السين ﴿أولى أجنحة﴾ صفة لرسلا وأولو اسم جمع لذو كما أن أولاء اسم جمع لذا ونظيرهما في الأسماء المتمكنة المخاض والخلفة وقوله تعالى :

﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ صفات لأجنحة أى ذوى أجنحة متعددة متفاوتة

في العدد حسب تفاوت ما لهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون أو يسرعون بها والمعنى أن من الملائكة خلقا لكل واحد منهم جناحان وخلقاً لكل واحد منهم ثلاثة وخلقاً آخر لكل منهم أربعة أجنحة ويروى أن صففاً من الملائكة لهم ستة أجنحة بجناحين منها يلقون أجسادهم وبآخرين منها يطيرون فيما أمروا به من جهته تعالى وجناحان منها مرخيان على وجوههم حياء من الله عز وجل وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستائة جناح وروى أنه سألهم السلام أن يتراى له في صورته فقال لأنك إن تطبق ذلك قال إني أحب أن تفعل فخرج عليه الصلاة والسلام في ليلة مقمرة فأناه جبريل عليهما السلام في صورته فغشى عليه عليه الصلاة والسلام ثم أفاق وجبريل مسنده وإحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه فقال سبحان الله ما كنت أرى أن شيئاً من الخلق هكذا فقال جبريل عليه السلام فكيف لو رأيت إسماعيل له اثنا عشر جناحاً جناح منها بالشرق وجناح منها بالمغرب وإن العرش على كاهله وإنه ليتضاءل الأحايين لعظمة الله عز وجل حتى يعود مثل الوضع وهو العصفور الصغير .

(يزيد في الخلق ما يشاء) استئناف مقرر لما قبله من تفاوت أحوال الملائكة في عدد الأجنحة ومؤذن بأن ذلك من أحكام مشيئته تعالى لا لأمر راجع إلى ذواتهم ببيان حكم كل ناطق بأنه تعالى يزيد في أي خلق كان كل ما يشاء أن يزيده بموجب مشيئته ومقتضى حكمته من الأمور التي لا يحيط بها الوصف وما روى النبي عليه الصلاة والسلام من تخصيص بعض المعاني بالذكر من الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن في بيان لبعض المواد المعهودة بطريق التمثيل لا بطريق الحصر فيها وقوله تعالى (إن الله على كل شيء قدير) تعليل بطريق التحقيق للحكم المذكور فإن شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء مما يوجب قدرته تعالى على أن يزيد كل ما يشاءه إيجاباً بيناً (ما يفتح الله للناس من رحمة) عبر عن إرسائها بالفتح إذ إذا يأنها أنفس الخزان التي يتنافس فيها المتنافسون

وأعزها منالاً وتنكيرها للإشاعة والإيهام أى شئ يفتح الله من خزان رحمته أية رحمة كانت من نعمة وصحة وأمن وعلم وحكمة إلى غير ذلك مما لا يحاط به ﴿ فلا تمسك لها ﴾ أى لا أحد يقدر على إمساكها ﴿ وما يمسك ﴾ أى شئ يمسك ﴿ فلا مرسل له ﴾ أى لا أحد يقدر على إرساله واختلاف الضميرين لما أن مرجع الأول مفسر بالرحمة ومرجع الثانى مطلق يتناولها وغيرها كأننا ما كان وفيه إشعار بأن رحمته سبقت غضبه ﴿ من بعده ﴾ أى من بعد إمساكه ﴿ وهو العزيز ﴾ الغالب على كل ما يشاء من الأمور التى من جملتها الفتح والإمساك ﴿ الحكيم ﴾ الذى يفعل كل ما يعمل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تذييل مقرر لما قبلها ومغرب عن كون كل من الفتح والإمساك بموجب الحكمة التى عليها يدور أمر التكوين وبعد ما بين سبحانه أنه الموجد للملك والملكوت والمتصرف فيهما بالقبض والبسط من غير أن يكون لأحد فى ذلك دخل ما بوجه من الوجوه أمر الناس قاطبة أو أهل مكة خاصة بشكر نعمه فقال :

## تذكير بالنعم

﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ أى إنعامه عليكم إن جعلت النعمة مصدراً أو كائنة عليكم إن جعلت اسماً أى راعوها واحفظوها بمعرفه حقها والاعتراف بها وتخصيص العبادة والطاعة بمولها ولما كانت نعم الله تعالى مع تشعب فنونها منحصرة فى نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء نفي أن يكون فى الوجود شئ غيره تعالى يصدر عنه إحدى النعمتين بطريق الاستفهام الإنكارى المنادى باستحالة أن يجاب عنه بنعم فقال ﴿ هل من خالق غير الله ﴾ أى هل خالق مغاير له تعالى موجود على أن خالق مبتدأ محذوف الخبر زيدت عليه كلمة من لتأكيد العموم وغير الله نعت له باعتبار محله كما أنه نعت له فى قراءة الجر باعتبار لفظه وقرئ بالنصب على الاستثناء وقوله تعالى ﴿ يرزقكم من السماء والأرض ﴾ أى بالمطر والنبات كلام مبتدأ على التقدير لاجل له من الإعراب



داخل في حيز النفي والإنكار ولا مساغ لما قيل من أنه صفة أخرى الخالق مرفوعة المحل أو مجرورته لأن معناه نفي وجود خالق موصوف بوصفى المغايرة والرازية معا من غير تعرض لنفى وجود ما اتصف بالمغايرة فقط ولا لما قيل من أنه الخبر للبتدأ ولا لما قيل من أنه مفسر لمضمر ارتفع به قوله تعالى من خالق على الفاعلية أى هل يرزقكم من خالق الخ لما أن معناهما نفى رازية خالق مغاير له تعالى من غير تعرض لنفى وجوده رأسا مع أنه المراد حتما ألا يرى إلى قوله تعالى ﴿ لا إله إلا هو ﴾ فإنه استئناف مسوق لتقرير النفى المستفاد منه قصدا وجار مجرى الجواب عما يوهمه الاستفهام صورة فحيث كان هذا ناطقا بنفى الوجود تعين أن يكون ذلك أيضاً كذلك قطعاً والفاء في قوله تعالى ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ لترتيب إنكار عدوهم عن التوحيد إلى الإشراك على ما قبلها كأنه قيل ولذا تبين تفرده تعالى بالآلوهية والخالقية والرازية فن أى وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك وقوله تعالى :

﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين خطابي الناس مسارعة إلى تسليته عليه الصلاة والسلام بعموم البلية أولا والإشارة إلى الوعد والوعيد ثانياً أى وإن استمروا على أن يكذبوك فيما بلغت إليهم من الحق المبين بعد ما أقمت عليهم الحجة وألقتهم الحجر فتأس بأولئك الرسل في المصابرة على ما أصابهم من قبل قومهم فوضع موضعه ما ذكر اكتفاء بذكر السبب عن ذكر المسبب وتفكير الرسل للتفخيم الموجب لمزيد التسلية والتوجه إلى المصابرة أى رسل أولو شأن خطير وذو عدد كثير ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ لا إلى غيره فيجازى كلا منك ومنهم بما أنتم عليه من الأحوال التى من جعلتها صبرك وتكذيبهم وفى الاختصار على ذكر اختصاص المرجع بالله تعالى مع إيهام الجزاء ثوابا وعقابا من المبالغة فى الوعد والوعيد ما لا يخفى وقرئ ترجع بفتح التاء من الرجوع والاول أدخل فى التهويل ﴿ يا أيها الناس ﴾ رجوع إلى خطابهم وتكرير النداء لتأكيد العظة والتذكير ﴿ إن وعد الله ﴾ المشار إليه برجع الأمور إليه تعالى

من البعث والجزاء ﴿حق﴾ ثابت لا محالة من غير خلف ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ بأن يذهلكم التمتع بمتاعها ويلهيكم التلهي بزخارفها عن تدارك ما يهكمكم يوم حلول الميعاد والمراد منهم عن الاعتراض بها وإن توجه النهى صورة إليها كما في قوله تعالى ﴿لا يجر منكم شقاق﴾ ﴿ولا يغرنكم بالله﴾ وعفوه وكرمه تعالى ﴿الغرور﴾ أى المبالغ في الغرور وهو الشيطان بأن يمنيكم المغفرة مع الإصرار على المعاصي قائلا اعملوا ما شئتم إن الله غفور يغفر الذنوب جميعاً فإن ذلك وإن أمكن لكن تعاطى الذنوب بهذا التوقع من قبيل تناول السم تعويلاً على دفع الطبيعة وتكرير فعل النهى للبالغة فيه ولاختلاف الغرورين في الكيفية وقرئ الغرور بالضم على أنه مصدر أو جمع غار كقعود جمع قاعد .

﴿إن الشيطان لكم عدو﴾ عداوة قديمة لا تسكاد تزول وتقديم لكم للاهتمام به ﴿فاتخذوه عدوا﴾ بمخالفتهكم له في عقائدكم وأفعالكم وكونكم على حذر منه في مجامع أحوالكم وقوله تعالى ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ تقرير لعداوته وتحذير من طاعته بالتنبيه على أن غرضه في دعوة شيعته إلى اتباع الهوى والركون إلى ملاذ الدنيا ليس بتحصيل مطالبهم ومنافعهم الدنيوية كما هو مقصد المتحابين في الدنيا عند سعى بعضهم في حاجة بعض بل هو توريطهم وإلقاؤهم في العذاب المخلد من حيث لا يحتسبون ﴿الذين كفروا لهم﴾ بسبب كفرهم وإجابتهم لدعوة الشيطان واتباعهم لخطواته ﴿عذاب شديد﴾ لا يقادر قدره مديد لا يبلغ مداه ﴿والذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم﴾ بسبب ما ذكر من الإيمان والعمل الصالح الذى من جملته عداوة الشيطان ﴿مغفرة﴾ عظيمة ﴿وأجر كبير﴾ لا غاية لهما ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ إما تقرير لما سبق من التباين بين عاقبتى الفريقين ببيان تباين حالهما المؤديين إلى تبتك العاقبتين والفاء لإنكار ترتيب ما بعدها على ما قبلها أى أبعد كون حالهما كما ذكر يكون من زين له الكفر من جهة الشيطان فإنهم في كنه استقباحه واجتنبه واختار الإيمان والعمل الصالح حتى لا تسكون

عاقبتهما كما ذكر فحذف ما حذف لدلالة ما سبق عليه وقوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَقْصُودًا فَلَا مَبْذَرَ لَهُ ﴾ الخ تقرير له وتحقيق للحق ببيان أن الكل بمشيئته تعالى أى فإنه تعالى يضل ﴿ من يشاء ﴾ أن يضل لا استحسانه واستجابته الضلال وصرف اختياره إليه فيرده أسفل سافلين ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ أن يهديه بصرف اختياره إلى الهدى فيرفعه إلى أعلى عليين وإما تمهيد لما يعقبه من نهيهِ عليه الصلاة والسلام عن التحسر والتحزن عليهم لعدم إسلامهم ببيان أنهم ليسوا بأهل لذلك بل لأن يضرب عنهم صفحا ولا يبالى بهم قطعاً أى أبعد كون حالهم كما ذكر تتحسر عليهم فحذف لما دل عليه قوله تعالى ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ دلالة بينة وإما تمهيد لصفه عليه الصلاة والسلام عما كان عليه من الحرص الشديد على إسلامهم والمبالغة في دعوتهم إليه ببيان استحالة تحويلهم عن الكفر لسكونه في غاية الحسن عندهم أى أبعد ما ذكر من زين له الكفر من قبل الشيطان فرآه حسناً فانهمك فيه يقبل الهداية حتى تطمع في إسلامه وتتعب نفسك في دعوته فحذف ما حذف لدلالة ما مر من قوله تعالى فَإِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَقْصُودًا فَلَا مَبْذَرَ لَهُ الخ على أنه من شاء الله تعالى أن يضل فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين وقرىء فلا تذهب نفسك وقوله تعالى حسرات إما مفعول له أى فلا تهلك نفسك للحسرات والجمع للدلالة على تضاعف اغتمامه عليه الصلاة والسلام على أحوالهم أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجبة للتأسف والتحسر وعليهم صلة تذهب كما يقال هلك عليه حيوات عليه حزنا أو هو بيان للتحسر عليه ولا يجوز أن يتعلق بحسرات لأن المصدر لا تتقدم عليه صلتة وإما حال كان كلها صارت حسرات وقوله تعالى :

﴿ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَقْصُودًا فَلَا مَبْذَرَ لَهُ ﴾ أى من القبائح تعليل لما قبله على الوجوه الثلاثة مع ما فيه من الوعيد . عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت في أبي جهل ومشركي مكة ﴿ والله الذى أرسل الرياح ﴾ مبتدأ وخبر وقرىء الريح وصيغة المضارع فى قوله تعالى ﴿ فتثير سحابا ﴾ لحكاية الحال الماضية استحضرارا لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة ولأن المراد بيان أحداثها

للكمال الخاصة ولذلك أسند إليها أو للدلالة على استمرار الإنارة ﴿ فسقناه إلى بلد ميت ﴾ وقرئ بالتخفيف ﴿ فأحيينا به الأرض ﴾ أى بالمطر النازل منه المدلول عليه بالسحاب فإن بينهما تلازما فى الذهن كما فى الخارج أو بالسحاب فإنه سبب السبب ﴿ بعد موتها ﴾ أى يبدؤها وإيراد الفعلين على صيغة الماضى للدلالة على التحقيق وإسنادها إلى نون العظمة النبىء عن اختصاصهما به تعالى لما فىهما من مزيد الصنع ولتكميل المائلة بين إحياء الأرض وبين البعث الذى شبه به بقوله تعالى ﴿ كذلك النشور ﴾ فى كمال الاختصاص بالقدرة الربانية والكاف فى حيز الرفع على الخبرية أى مثل ذلك الإحياء الذى تشاهدونه إحياء الأموات فى صحة المقدورية وسهولة التأتى من غير تفاوت بينهما أصلا سوى الألف فى الأول دون الثانى وقيل فى كيفية الإحياء يرسل الله تعالى من تحت العرش ماء فنبئت منه أجساد الخلق ﴿ من كان يريد العزة ﴾ هم المشركون الذين كانوا يتعززون بعبادة الأصنام كقوله تعالى ( واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ) والذين كانوا يتعززون بهم من الذين آمنوا بالسنتهم كما فى قوله تعالى ( الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتبعون عذم العزة ) والجمع بين كان ويريد للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها .

﴿ فله العزة جميعا ﴾ أى له تعالى وحده لا لغيره عزة الدنيا وعزة الآخرة أى فليطلبها منه لا من غيره فاستغنى عن ذكره بذكر دليله لإيداننا بأن اختصاص العزة تعالى موجب لتخصيص طلبها به تعالى وقوله تعالى ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ بيان لما يطلب به العزة وهو التوحيد والعمل الصالح وصعودهما إليه مجاز عن قبوله تعالى إياهما أو صعود الكلمتين بصحيفتهما وتقديم الجار والمجرور عبارة عن كمال الاعتداد به كقوله تعالى ( وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ) يأخذ الصدقات أى إليه يصل الكلم الطيب الذى به يطلب العزة لا إلى الملائكة الموكلين بأعمال العباد فقط وهو يعز صاحبه ويعطى طلبته بالذات والمستكن فى يرفعه للكلم فان مدار قبول العمل هو التوحيد ويؤيده القراءة بنصب العمل أو للعمل فإنه يحقق الإيمان ويقويه ولا ينال الدرجات

العالية إلا به وقرئ يصعد من الإصعاد على البناءين والمصعد هو الله سبحانه أو المتكلم به أو الملك وقيل الكلم الطيب يتناول الذكر والدعاء والاستغفار وقراءة القرآن وعنه عليه الصلاة والسلام أنه سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فجيا بها وجه الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم تقبل وعن ابن مسعود رضى الله عنه ما من عبد مسلم يقول خمس كلمات سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وتبارك الله إلا أخذهن ملك فجعلن تحت جناحه ثم صعد بهن فما يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلن حتى يحى بهن وجه رب العالمين ومصادقه قوله عز وجل ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ الخ .

﴿والذين يمكرون السيئات﴾ بيان لحال الكلم الخبيث والعمل السيء وأهلها بعد بيان حال الكلم الطيب والعمل الصالح وانتصاب السيئات على أنها صفة للمصدر المحذوف أى يمكرون المكورات السيئات وهى مكورات قریش بالنبي عليه الصلاة والسلام فى دار الندوة وتداولهم الرأى فى إحدى الثلاث التى هى الإثبات والقتل والإخراج ﴿لهم﴾ بسبب مكوراتهم ﴿عذاب شديد﴾ لا يقادر قدره ولا يؤبه عنده لما يمكرون ﴿ومكر أولئك﴾ وضع اسم الإشارة موضع ضميرهم للإيذان بكمال تميزهم بما هم فيه من الشر والفساد عن سائر المفسدين واشتجارهم بذلك وما فيه من معنى البعد للتنبية على ترائى أمرهم فى الطغيان وبعد منزلتهم فى العدوان أى ومكر أولئك المفسدين الذين أرادوا أن يمكروا به عليه الصلاة والسلام ﴿هو يبور﴾ أى هو يهلك ويفسد خاصة لا من مكروا به ولقد أبارهم الله تعالى بعد إبارة مكوراتهم حيث أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم فى قلب بدر فجمع عليهم مكوراتهم الثلاث التى اكتفوا فى حقه عليه الصلاة والسلام بواحدة منهم ﴿والله خلقكم من تراب﴾ دليل آخر على صحة البعث والنشور أى خلقكم ابتداء منه فى ضمن خلق آدم عليه السلام خلقا إجماليا كما مر تحقيقه مرارا ﴿ثم من نطفة﴾ أى ثم خلقكم منها خلقا تفصيليا .

(ثم جعلكم أزواجا) أى أصنافا أو ذكرانا وإناثا وعن قتادة جعل بعضكم زوجا لبعض (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) إلا ما تنبأ به علمه تابعة لمشيئته (وما يعمر من معمر) أى من أحد وإنما سمي معمرًا باعتبار مصيره أى وما يمد في عمر أحد (ولا ينقص من عمره) أى من عمر أحد على طريقة قولهم لا يثيب الله عبداً ولا يماقيه إلا بحق<sup>(١)</sup> لكن لا على معنى لا ينقص عمره بعد كونه زائدا بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصا وقيل الزيادة والنقص في عمر واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت في اللوح مثل أن يكتب فيه إن حج فلان فعمره ستون وإلا فأربعون وإليه أشار عليه الصلاة والسلام بقوله الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار، وقيل المراد بالنقص ما يمر من عمره وينقص<sup>(٢)</sup> فإنه يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة ثم يكتب تحت ذلك ذهب يوم ذهب يومان وهكذا حتى يأتى على آخره وقرئ ولا ينقص على البناء للفاعل ومن عمره بسكون الميم (إلا في كتاب) عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه اللوح وقيل علم الله عز وجل وقيل صحيفة كل إنسان (إن ذلك) أى ما ذكر من الخلق وما بعده مع كونه محاررا للعقول والأفهام (على الله يسير) لاستغنائاه عن الأسباب فكذلك البعث (وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) مثل ضرب للمؤمن والكافر والفرات الذى يكسر العطش والسائغ الذى يسهل انحداره لغذوبته والأجاج الذى يحرق بملوحتة وقرئ سيغ كسيد وسيغ بالتخفيف وملح ككتف وقوله تعالى (ومن كل) أى من كل واحد منهما (تأكلون لما طربا وتستخرجون) أى من المسالح خاصة (حلية تلبسونها) إما استطراد في صفة البحرين وما فيهما من النعم والمنافع وإما تكملة للتمثيل والمعنى كما أنهما وإن اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان من حيث أنهما متفاوتان فيما هو المقصود

(١) في كلمة إلا بالحق .

(٢) في ١١ وينقصى

بالذات من الماء لما خالط أحدهما ما أفسده وغيره عن كمال فطرته لا يساوى الكافر المؤمن وإن شاركه في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ونحوهما لتباينهما فيما هو الخاصية العظمى لبقاء أحدهما على فطرته الأصلية وحيازته لكلمة اللاتق دون الآخر أو تفضيل للأجاج على الكافر من حيث أنه يشارك العذب في منافع كثيرة والكافر خلو من المنافع بالسلبية على طريقة قوله تعالى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله) والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان .

(وترى الفلك فيه) أى فى كل منهما وإفراد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحق لأن الخطاب لكل أحد تنافى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط (مواخر) شواق للماء بجريها مقبلة ومدبرة بريح واحدة (لتبتغوا من فضله) من فضل الله تعالى بالنقلة فيها واللام متعلقة بمواخر وقد جوز تعلقها بما يدل عليه الأفعال المذكورة أى فعل ذلك لتبتغوا من فضله (ولعلمكم تشكرون) أى ولتشكروا على ذلك وحرف الترجى للإيذان بكونه مرضيا عند الله تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) بزيادة أحدهما ونقص الآخر بإضافة بعض أجزاء كل منهما إلى الآخر (وسخر الشمس والقمر) عطف على يولج واختلافهما صيغة لما أن إيلاج أحد الملوك فى الآخرة متجدد حينما خينا وأما تسخير النهرين فأمر لا تعدد فيه وإنما المتعدد والمتجدد آثاره وقد أشير إليه بقوله تعالى (كل يجري) أى بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات اليومية المتعددة حسب تعدد أيام السنة جريانا مستمرا (لأجل مسمى) قدره الله تعالى لجريانهما وهو يوم القيامة كما روى عن الحسن رحمه الله وقيل جريانهما عبارة عن حركتهما الخاصتين بهما فى فلكيهما والأجل المسمى هو منتهى دورتيهما ومدة الجريان للشمس سنة وللقمر شهر وقد مر تفصيله فى سورة لقمان (ذلكم) إشارة إلى فاعل الأفعال المذكورة وما فيه من معنى البعد للإيذان بغاية العظمة وهو مبتدأ وما بعده أخبار

مترادفة أى ذلكم العظيم الشأن الذى أبدع هذه الصنائع البديعة ﴿ الله ربكم له الملك ﴾ وفيه من الدلالة على أن إبداعه تعالى لتلك البدائع مما يوجب ثبوت تلك الأخبار له ما لا يخفى ويجوز أن يكون الأخير كلاماً مبتدأ فى مقابلة قوله تعالى :

﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ للدلالة على تفرده تعالى بالالوهية والربوبية وقرىء يدعون بالياء التحتانية والقطمير لفاقة النواة وهو مثل فى القلة والحقارة ﴿ إن تدعوم لا يسمعوا دعاءكم ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله كاشف عن جليلة حال ما يدعونه بأنه جماد ليس من شأنه السماع ﴿ ولو سمعوا ﴾ على الفرض والتقدير ﴿ ما استجابوا لكم ﴾ لعجزهم عن الأفعال بالمرة لا لما قيل من أنهم متبرؤن منكم ومما تدعون لهم فإن ذلك مما لا يتصور منهم فى الدنيا ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ أى يحدون بإشراككم لهم وعبادتهم إياهم بقولهم ما كنتم إيانا تعبدون ﴿ ولا يفتك مثلكم ﴾ أى لا يخبرك بالامر مخبر مثل خبير أخبرك به وهو الحق سبحانه فإنه الخبير بكنهه الأمور دون سائر المخبرين والمراد تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ونفى ما يدعون لهم من الإلهية ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ﴾ فى أنفسكم وفيما يعين لكم من أمرهم أو خطب ملم وتعريف الفقراء للبالغة فى فقرهم كأنهم لكثرة افتقارهم وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب وأن افتقار سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم ولذلك قال تعالى ( وخلق الإنسان ضعيفاً ) ﴿ والله هو الغنى الحميد ﴾ أى المستغنى على الإطلاق المنعم على سائر الموجودات المستوجب للحمد ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ ليسوا على صفتكم بل مستمررون على الطاعة أو بعالم آخر غير ما تعرفونه ﴿ وما ذلك ﴾ أى ما ذكر من الإذهاب بهم والإتيان بآخرين ﴿ على الله بعزيز ﴾ بمتعذر ولا متعسر .

﴿ ولا تزر وازرة ﴾ أى لا تحمل نفس آثمة ﴿ وزر أخرى ﴾ أى نفس أخرى بل إنما تحمل كل منهما وزرها وأما ما فى قوله تعالى ( وليحملن أثقالهم ) وأثقالاً مع أثقالهم من حمل المضلين أثقالاً غير أثقالهم فهو حمل أثقال أضلالهم مع



أثقال ضلالهم وكلاهما أوزارهم ليس فيهما من أوزار غيرهم شيء (وإن تدع مثقلة) أى نفس أثقلها الأوزار (إلى حملها) لحمل بعض أوزارها (لا يحمل منه شيء) لم تجب بحمل شيء منه (ولو كان) أى المدعو المفهوم من الدعوة (ذا قربى) ذا قرابة من الداعي وقرىء ذو قربى وهذا نفى للحمل اختياراً والأول نفى له إجباراً (إنما تنذر) استئناف مسوق لبيان من يتعظ بما ذكر أى إنما تنذر بهذه الإنذارات (الذين يخشون ربهم بالغيب) أى يخشونه تعالى غائبين عن عذابه أو عن الناس فى خلواتهم أو يخشون عذابه وهو غائب عنهم (وأقاموا الصلوة) أى راعوها كما ينبغى وجعلوها مناراً منصوباً وعلماً رفوعاً أى إنما ينفع إنذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك دون من عداكم من أهل الترد والعناد (ومن تزكى) أن تظهر من أوضاع الأوزار والمعاصى بالتأثر من هذه الإنذارات (فإنما يزكى لنفسه) لاقتصار نفعه عليها كما أن من تدنس بها لا يتدنس إلا عليها وقرىء من ازكى فإنما يزكى وهو اعتراض مقرر لحشيتهم وإقامتهم الصلاة لأنها من معظم مبادئ التزكى (وإلى الله المصير) لا إلى أحد غيره استقلالاً أو اشتراكاً فيجازيهم على تزكيهم أحسن الجزاء .

(وما يستوى الأعمى والبصير) أى الكافر والمؤمن (ولا الظلمات ولا النور) أى ولا الباطل ولا الحق وجمع الظلمات مع أفراد النور لتعدد فنون الباطل واتحاد الحق (ولا الظل ولا الحرور) أى ولا الثواب ولا العقاب وإدخال لا على المتقابلين لتذكير نفى الاستواء وتوسيطها بينهما للتأكيد والحرور فعول من الحر غلب على السموم وقيل السموم ما يهب نهاراً والحرور ما يهب ليلاً (وما يستوى الأحياء ولا الأموات) تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الأول ولذلك كرر الفعل وأوثر صيغة الجمع فى الطرفين تحقيقاً للتباين بين أفراد الفريقين وقيل تمثيل للعلماء والجهلة (إن الله يسمع من يشاء) أن يسمعه ويوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعباداته (وما أنت بمسمع من فى القبور) ترشيح لتمثيل المصيرين على الكفر بالأموات وإشباع فى إقناعه عليه الصلاة والسلام من إيمانهم (إن أنت إلا نذير) ما عليك إلا الإنذار

وأما الاستماع البتة فليس من وظائفك ولا حيلة لك إليه في المطبوع على قلوبهم ﴿إنا أرسلناك بالحق﴾ أى محقين أو محقا أنت أو إرسالا مصحوبا بالحق<sup>(١)</sup> ويجوز أن يتعلق بقوله ﴿بشيرا ونذيرا﴾ أى بشيرا بالوعد الحق ونذيرا بالوعيد الحق ﴿وإن من أمة﴾ أى ما من أمة من الأمم الدارجة في الأزمنة الماضية .

﴿لأخلا﴾ أى معنى ﴿فيها نذير﴾ من نبى أو عالم ينذرهم والاكتفاء بذكره للعلم بأن النذارة قرينة البشارة لاسيما وقد اقتربنا آتفا ولأن الإنذار هو الأنسب بالمقام ﴿وإن يكذبوك﴾ أى تموا على تكذيبك فلا تبال بهم ويتكذبهم ﴿فقد كذب الذين من قبلهم﴾ من الأمم العاتية ﴿جاءتهم رسلم بالبينات﴾ أى المعجزات الظاهرة الدالة على نبوتهم ﴿وبالزبر﴾ كصحف إبراهيم ﴿وبالكتاب المنير﴾ كالتوراة والإنجيل والزبور على إرادة التفصيل دون الجمع ويجوز أن يراد بهما واحد والعطف لتغاير العنوانين ﴿ثم أخذت الذين كفروا﴾ وضع الموصول موضع ضميرهم لزمهم بما في حيز الصلة والإشعار بعملة الأخذ ﴿فكيف كان نكير﴾ أى إنكارى بالعقوبة وفيه مزيد تشديد وتحويل لها ﴿ألم تر﴾ استئناف مسوق لتقرير ما قبله من اختلاف أحوال الناس ببيان أن الاختلاف والتفاوت أمر مطرد فى جميع المخلوقات من النبات والجماد والحيوان والرؤية قلبية أى ألم تعلم ﴿أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به﴾ بذلك الماء والالتفات لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة ﴿ثمرات مختلفا ألوانها﴾ أى أجناسها أو أصنافها على أن كلا منها ذو أصناف مختلفة أو هيئاتها وأشكالها أو ألوانها من الصفرة والخضرة والحمرة وغيرها وهو الأوفق لما فى قوله تعالى ﴿ومن الجبال جدد﴾ أى ذو جدد أى خطط وطرائق ويقال جدة الحمار للخططة السوداء على

(١) فى ١١ : مصاحبا للحق .

ظاهرة وقرىء جدد بالضم جمع جديدة بمعنى الجدة وجدد بفتحتين وهو الطريق الواضح ﴿بيض وحر مخلف ألوانها﴾ بالشدة والضعف ﴿وغرايب سود﴾ عطف على بيض أو على جدد كأنه قيل ومن الجبال مخطط ذو جدد ومنها ما هو على لون واحد غرايب وهو تأكيد لمضمريه ما بعده فإن الغريب تأكيد للأسود كالفقاع للأصفر والقاني للأحمر ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد ونظيره في الصفة قول النابغة :

• والمؤمن العائذات الطير يمسحها •

وفي مثله مزيد تأكيد لما فيه من التكرار باعتبار الإضمار والإظهار .

﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه﴾ أى ومنهم بعض مختلف ألوانه أو وبعضهم مختلف ألوانه على ما مر في قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله) وإيراد المجلتين اسميتين مع مشاركتها لما قبلهما من الجملة الفعلية في الاستشهاد بمضمونها على تباين الناس في الأحوال الباطنة لما أن اختلاف الجبال والناس والدواب والأنعام فيما ذكر من الألوان أمر مستمر فعبّر عنه بما يدل على الاستمرار وأما إخراج الثروات المختلفة فيث كان أمرا حادثا عبّر عنه بما يدل على الحدوث ثم لما كان فيه نوع خفاء علق به الرؤية بطريق الاستفهام التقريرى المنبؤ عن الحل عليها والترغيب فيها بخلاف أحوال الجبال والناس وغيرهما فإنها مشاهدة غنية عن التأمل فلذلك جردت عن التعليق بالرؤية فدبر وقوله تعالى ﴿وكذلك﴾ مصدر تشبيهى لقوله تعالى مختلف أى صفة لمصدره المؤكد تقديره مختلف اختلافا كائنا كذلك أى كاختلاف الثمار والجبال وقرىء ألوانا وقرىء والدواب بالتخفيف مبالغة في الحرب من التقاء الساكنين وقوله تعالى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ تكملة لقوله تعالى (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب) بتعيين من يخشاه عز وجل من الناس بعد بيان اختلاف طبقاتهم وتباين مراتبهم أما في الأوصاف المعنوية فبطريق التمثيل وأما في الأوصاف الصورية فبطريق التصريح توفية لكل واحدة منهما حقها اللائق بها

من البيان أى إنما يخشاه تعالى بالغيب العالمون به عز وجل وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة لما أن مدار الخشية معرفة المخشى والعلم بشئونه فمن كان أعلم به تعالى كان أخشى منه عز وجل كما قال عليه الصلاة والسلام أنا أخشاكم لله وأتقاكم له ولذلك عقب بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته وحيث كان الكفرة بمزول من هذه المعرفة امتنع إنذارهم بالسلكية وتقديم المفعول لأن المقصود حصر الفاعلية ولو آخر انعكس الأمر وقرىء برفع الاسم الجليل ونصب العلماء على أن الخشية مستعارة للتعظيم فإن المعظم يكون مهيباً ﴿إن الله عزيز غفور﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالته على أنه مما يقابل الدهر على طغيانه غفور للتائب عن عصيانه .

### من فضائل القرآن

﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ أى يداومون على قراءته أو متابعة ما فيه حتى صارت سمة لهم وعنوانا والمراد بكتاب الله تعالى القرآن وقيل جنس كتب الله فيكون ثناء على المصدقين من الأمم بعد اقتصاص حال المكذبين منهم وليس بذلك فإن صيغة المضارع منادية باستمرار مشروعيتها تلاوته والعمل بما فيه واستتباعهما لما سيأتى من توفية الأجور وزيادة الفضل وجلها على حكاية الحال الماضية مع كونه تعسفا ظاهرا عما لا سبيل إليه كيف لا والمقصود الترغيب فى دين الإسلام والعمل بالقرآن الناسخ لما بين يديه<sup>(١)</sup> من الكتب فالتعرض لبيان حقيقتها قبل انتساخها والإشباع فى ذكر استتباعها لما ذكر من الفوائد العظيمة مما يورث الرغبة فى تلاوتها والإقبال على العمل بها وتخصيص التلاوة بما لم ينسخ منها باطل قطعاً لما أن الباقي مشروعاً ليس إلا حكمها لكن لا من حيث أنه حكمها بل من حيث أنه حكم القرآن وأما تلاوتها فبمعزل من المشروع واستتباع الأجر بالمرّة فتدبر ﴿وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية﴾ كيفما اتفق من غير قصد إليهما وقيل السر فى المسنونة والعلانية فى المفروضة ﴿يرجون

(١) فى ١١ لما سبقه من الكتب .

تجارة) تحصيل ثواب بالطاعة وهو خبر إن وقوله تعالى (إن تبور) أى لن تكسد ولن تهلك بالخسران أصلاً صفة لتجارة جىء بها للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخسران لأنه اشتراء باق بفان والإخبار برجائهم من أكرم الأكرمين عدة قطعية بمحصول مرجوهم وقوله تعالى: (ليوفيهم أجورهم) متعلق بلن تبور على معنى أنه ينتفى عنها الكساد وتنفق عند الله تعالى ليوفيهم أجور أعمالهم (ويزيدهم من فضله) على ذلك من خزائن رحمته ما يشاء وقيل بمضمر دل عليه ما عد من أفعالهم المرضية أى فعلوا ذلك ليوفيهم لـخ وقيل يرجون على أن اللام للعاقبة (لأنه غفور شكور) تعليل لما قبله من التوفية والزيادة أى غفور لفرطاتهم شكور لطاعتهم أى مجازيهم عليها وقيل هو خبر إن الذين ويرجون حال من واو أنفقوا .

(والذى أوحينا إليك من الكتاب) وهو القرآن ومن للتبيين أو الجلس ومن للتبعض وقيل اللوح ومن للابتداء (هو الحق مصدقاً لما بين يديه) أى أحقه مصدقاً لما تقدمه من الكتب السماوية حال مؤكدة لأن حقيقته تستلزم موافقته إياه في العقائد وأصول الأحكام (إن الله بعباده خبير بصير) يحيط ببواطن أمورهم وظواهرها فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوة لم يوح إياك مثل هذا الحق المعجز الذى هو عيار على سائر الكتب وتقديم الخبر للتنبيه على أن العمدية هي الأمور الروحانية (ثم أورثنا الكتاب) أى قضينا بتوريثه منك أو نوره والتعبير عنه بالماضى لتقرره وتحققه وقيل أورثناه من الأمم السالفة أى أخرناه عنهم وأعطيناه (الذين اصطفينا من عبادنا) وهم علماء الأمة من الصعابة ومن بعدهم من يسير سيرتهم أو الأمة بأسرهم فإن الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس واختصهم بكرامة الالتواء إلى أفضل رسله عليهم الصلاة والسلام وليس من ضرورة وراثته الكتاب مراعاته حق رعايته لقوله تعالى (نخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب) الآية (فمنهم ظالم لنفسه) بالتقصير في العمل به وهو المرجأ لأمر الله (ومنهم مقتصد) يعمل به في أغلب الأوقات ولا يخلو من خلط السيئ (ومنهم سابق

بالخيرات بإذن الله) قيل هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار وقبلهم المداومون على إقامة مواجبه علما وعملا وتعلما وفي قوله تعالى بإذن الله أى بتيسيره وتوفيقه تنبيه على عزة منزل هذه الرتبة وصعوبة مأخذها وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم وقيل الظالم المجرم والمقتصد الذى خلط الصالح بالسيئ والسابق الذى ترجحت حسناته بحيث صارت سيئاته مكفرة وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام وأما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب وأما المقتصد فأولئك يحاسبون حسبا يسيرا وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون فى طول المحشر ثم يتلقاهم الله برحمته ، وقد روى أن عمر رضى الله عنه قال وهو على المنبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له .

(ذلك) إشارة الى السبق بالخيرات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته فى الشرف (هو الفضل الكبير) من الله عز وجل لا ينال إلا بتوفيقه تعالى (جنات عدن) إما بدل من الفضل الكبير بتنزيل السبب منزلة المسبب أو مبتدأ خبره (يدخلونها) وعلى الأول هو مستأنف وجمع الضمير لأن المراد بالسابق الجنس وتخصيص حال السابقين وما لهم بالذكر والسكوت عن الفريقين الآخرين وإن لم يدل على حرمانهما من دخول الجنة مطلقا لكن فيه تحذيرا لهما من التقصير وتحريضا على السعى فى إدراك شأو السابقين وقرئ جنات عدن وجنة عدن على النصب بفعل يفسره الظاهر وقرئ يدخلونها على البناء للمفعول (يحملون فيها) خبر ثان أو حال مقدرة وقرئ يحملون من حايث المرأة فى حاليتها (من أساور) هى جمع أسورة جمع سوار (من ذهب) من الأولى تبعية والثانية بيانية أى يحملون بعض أساور من ذهب كأنه أفضل من سائر أفرادها (ولؤلؤا) بالنصب عطايا على محل من أساور وقرئ بالجر عطايا على ذهب أى من ذهب مرصع باللؤلؤ أو من ذهب فى صفاء اللؤلؤ (ولباسهم فيها حرير) وتغيير الأسلوب قد مر سره فى سورة الحج .

﴿ وقالوا ﴾ أى يقولون وصيغة الماضى للدلالة على التحقق ﴿ الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ﴾ وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة وعن ابن عباس رضى الله عنهما حزن الأعراض والآفات وعنه حزن الموت وعن الضحاك حزن وسوسة إبليس وقيل هم المعاش وقيل حزن زوال النعم والظاهر أنه الجنس المنتظم لجميع أحزان الدين والدنيا وقرىء الحزن وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى محشرهم ولا فى مسيرهم وكأنى بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم ينفضون التراب عن وجوههم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ﴿ إن ربنا لغفور ﴾ أى للمذنبين ﴿ شكور ﴾ للمطيعين ﴿ الذى أحلنا دار المقامة ﴾ أى دار الإقامة التى لا انتقال عنها أبداً ﴿ من فضله ﴾ من إنعامه وتفضله من غير أن يوجبه شيء من قبلنا ﴿ لا يمسن فيها نصب ﴾ تعب ﴿ ولا يمسن فيها لغوب ﴾ كلال والفرق بينهما أن النصب نفس المشقة والسكفة واللغوب ما يحدث منه من الفتور والتصریح بنفى الثانى مع استلزام نفي الأول له وتكرير الفعل المنفى للبالغة فى بيان انتفاء كل منهما ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم ﴾ لا يحكم عليهم بموت ثان ﴿ فيموتوا ﴾ ويستريحوا ونصبه بإضمار أن وقرىء فيموتون عطفاً على يقضى كقوله تعالى ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ ﴿ ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ بل كلما خبت زيد إسماعها ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي كل كفور ﴿ مبالغ فى الكفر أو الكفران لا جزاء أخف وأدنى منه وقرىء يحزى على البناء للمفعول وإسناده إلى الكل وقرىء يحازى .

﴿ وهم يصطرخون فيها ﴾ يستغيثون والاصطراخ افتعال من الصراخ استعمل فى الاستغاثة لجهد المستغيث صوته ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كننا نعمل ﴾ بإضمار القول وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه وأنهم كانوا يحسبونه صالحا والآن تبين خلافه وقوله تعالى ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ جواب من جهته تعالى وتوبيخ لهم والهمزة للإنكار

والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام وما نكرة موصوفة أى ألم نهيكم  
أو ألم تؤخركم ولم نعمركم عمرا يتذكر فيه من تذكر أى يتمكن فيه المتذكر  
من التذكر والتفكير قيل هو أربعون سنة وعن ابن عباس رضى الله عنهما  
ستون سنة وروى ذلك عن علي رضى الله عنه وهو العمر الذى أعذر الله فيه  
إلى ابن آدم قال عليه الصلاة والسلام أعذر الله إلى امرئ آخر أجله حتى بلغ  
ستين سنة وقوله تعالى ﴿وجاءكم النذير﴾ عطف على الجملة الاستفهامية لأنها  
في معنى قد عمرناكم كما في قوله تعالى ﴿ألم نشرح لك صدرك ووضعنا﴾ الخ  
لأنه في معنى قد شرحنا الخ والمراد بالنذير رسول الله صلى الله عليه وسلم  
أو ما معه من القرآن وقيل العقل وقيل الشيب وقيل موت الأقارب والافتقار  
على ذكر النذير لأنه الذى يقتضيه المقام والفاء في قوله تعالى ﴿فذوقوا﴾  
لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها من التعمير وبجاء النذير وفي قوله تعالى  
﴿فأولئك المظالمين من نصير﴾ للتعليل .

﴿إن الله عالم غيب السموات والأرض﴾ بالإضافة وقرئ بالتنوين  
ونصب غيب على المفعولية أى لا يخفى عليه خافية فيهما فلا تخفى عليه أحوالهم  
﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ قيل لأنه لتعليل لما قبله لأنه إذا علم مضمرات  
الصدور وهى أخفى ما يكون كان أعلم بغيرها ﴿هو الذى جعلكم خلائف في  
الأرض﴾ يقال للمستخلف خليفة وخليف وألقى إليكم مقاليد التصرف  
خلفاء والمعنى أنه تعالى جعلكم خلفاءه في أرضه وألقى إليكم مقاليد التصرف  
فيها وسلطكم على ما فيها وأباح لكم منافعها أو جعلكم خلفاء بمن قبلكم  
من الأمم وأورثكم ما بأيديهم من متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة  
﴿فن كفر﴾ منكم مثل هذه النعمة السنية وغمطها ﴿فعليه كفره﴾ أى وبال  
كفره لا يتعداه إلى غيره وقوله تعالى ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند  
ربهم إلا مقنا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا﴾ بيان لو بال الكفر  
وغائلته وهو مقت الله تعالى لإيام أى بغضه الشديد الذى ليس وراءه خزي  
وصغار وخسار الآخرة الذى ما بعده شر وخسار والتكثير لزيادة التقرير



والتنبيه على أن اقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين الهائلين القبيحين بطريق الاستقلال والأصالة .

﴿ قل ﴾ تبكيئا لهم ﴿ أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ﴾ أى آلهتكم والإضافة إليهم لأنهم جعلوهم شركاء لله تعالى من غير أن يكون له أصل ما أصلا وقيل جعلوهم شركاء لأنفسهم فيما يملكونه ويأباه سباق النظم الكريم وسياقه ﴿ أرؤى ماذا خلقوا من الأرض ﴾ بدل اشتغال من أرأيتم كأنه قيل أخبرونى عن شركائكم أرؤى أى جزء خلقوا من الأرض ﴿ أم لهم شرك فى السموات ﴾ أى أم لهم شركة مع الله سبحانه فى خلق السموات ليستحقوا بذلك شركة فى الألوهية ذاتية ﴿ أم آتيناهم كتابا ﴾ ينطق بأنا اتخذناهم شركاء ﴿ فهم على بينة منه ﴾ أى حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة جعلية ويجوز أن يكون ضمير آتيناهم للمشركين كما فى قوله تعالى ( أم أنزلنا عليهم سلطانا ) الخ وقرئ على بينات وفيه إيماء إلى أن الشرك أمر خطير لا بد فى إنباته من تعاضد الدلائل ﴿ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غورا ﴾ لما نفي أنواع الحجج فى ذلك أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه وهو تغير الأسلاف للأخلاف وإضلال الرؤساء للاتباع بأنهم شفعاء عند الله يشفعون لهم بالتقريب إليه ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ استئناف مسوق لبيان غاية قبح الشرك وهو له أن يمسكهما كراهة زوالهما أو يمنعهما أن تزولا لأن الإمساك منع ﴿ ولئن زالتا إن أمسكهما ﴾ أى ما أمسكهما ﴿ من أحد من بعده ﴾ من بعد إمساكه تعالى أو من بعد الزوال والجملة سادة مسد الجوابين ومن الأولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية للابتداء ﴿ إنه كان حليفا غفورا ﴾ غير معاجل بالعقوبة التى تستوجبها جنائياتهم حيث أمسكهما وكاتتا جديرتين بأن تهذا هدا حسبما قال تعالى ( تكاد السموات يتفطرن منه وتلشق الأرض ) وقرئ ولو زالتا .

﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى

الأمم ﴿ بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الكتاب كذبوا برسلمهم فقالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتانانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم اليهود والنصارى وغيرهم أو من الأمة التي يقال لها إحدى الأمم تفصيلا لها على غيرها في الهدى والاستقامة ﴾ ﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ وأى نذير أشرف الرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿ ما زادهم ﴾ أى النذير أو مجيئه ﴿ إلا نفورا ﴾ تباعدا عن الحق ﴿ استكبارا في الأرض ﴾ بدل من نفورا أو مفعول له ﴿ ومكر السيئ ﴾ أصله وأن مكروا السيئ أى المكر السيئ ثم مكروا السيئ ثم ومكر السيئ وقرئ بسكون الهجمة في الوصل ولعله اختلاس ظن سكوتا أو وقفة خفيفة وقرئ مكرا سيناء ولا يحقيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون ﴾ أى ما ينتظرون ﴿ إلا سنة الأولين ﴾ أى سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ بأن يضع موضع العذاب غير العذاب ﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ بأن ينقله من المكذبين إلى غيرهم والفاء لتعليل ما يفيد الحكم بانتظارهم العذاب من مجيئه ونفى وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفي وجودهما بالطريق البرهاني وتخصيص كل منهما بنفى مستقل لتأكيد انتفاهما .

﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ استشهاد على ما قبله من جريان سنته تعالى على تعذيب المكذبين بما يشاهدونه في مسائرهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار دمار الأمم الماضية العاتية والهجرة للإنكار والنفي والواو للعطف على مقدر يليق بالمقام أى أقعدوا في مساكنهم ولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم .

﴿ وكانوا أشد منهم قوة ﴾ وأطول أعمارا فما نفهم طول المدى وما أغنى عنهم شدة القوى ومحل الجملة النصب على الحالية وقوله تعالى ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء ﴾ أى ليسبقه ويفوته ﴿ في السموات ولا في الأرض ﴾ اعتراض مقرر لما يفهم عما قبله من استئصال الأمم السالفة وقوله تعالى ﴿ إنه ﴾

كان عليهما قديرا ﴿ أى مبالغا فى العلم والقدرة ولذلك علم بجميع أعمالهم السيئة فعاقبهم بموجها تعليل لذلك ﴾ (ولو يؤاخذ الله الناس ﴿ جميعا ﴾ بما كسبوا ﴿ من السيئات كما فعل بأولئك ﴾ ما ترك على ظهرها ﴿ أى على ظهر الأرض ﴾ (من دابة ﴿ من نسمة تدب عليها من بنى آدم وقيل ومن غيرهم أيضا من شؤم معاصيهم وهو المروى عن ابن مسعود وأنس رضى الله عنهما ويعضد الأول قوله تعالى ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ فيجازيهم عند ذلك بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر . عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة أن ادخل من أى باب شئت ، والله تعالى أعلم .

## ﴿سورة يس﴾

مكية، وعنه عليه الصلاة والسلام «تدعى المعمة نعم صاحبها خير الدارين ،  
والدافعة والفاضية تدفع عنه كل سوء ، وتقضى له كل حاجة ،  
وأيها ثلاث وثمانون

## ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿يس﴾ إما مسرود على نمط التعديد فلا حظ له من الإعراب أو اسم  
للسورة كما نص عليه الخليل وسيبويه وعليه الأكثر فمحل الرفع على أنه خبر  
مبتدأ محذوف أو النصب على أنه مفعول لفعل مضمّر وعليهما مدار قراءة يس  
بالرفع والنصب أى هذه يس أو اقرأ يس ولا مساغ للنصب بإضمار فعل القسم  
لأن ما بعده مقسم به وقد أبوا الجمع بين قسمين على شيء واحد قبل انقضاء  
الأول ولا مجال للعطف لاختلافهما إعراباً وقيل هو مجرور بإضمار باء القسم  
مفتوح لسكونه غير منصرف كما سلف في فاتحة سورة البقرة من أن ما كانت  
من هذه الفواتح مفردة مثل صاد وقاف ونون أو كانت موازنة لمفرد نحو طس  
وبس وحم الموازنة أقبيل وهابيل يتأتى فيها الإعراب اللفظى ذكره سيبويه  
في باب أسماء السور من كتابه وقيل هما حركتا بناء كما في حيث وأين حسبما  
يشهد بذلك قراءة يس بالكسر كجبر وقيل الفتح والكسر تحريك للجحد في  
الحرب من التقاء الساكنين وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن معناه يا إنسان  
في لغة طيء قالوا المراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعل أصله يا أنيسين  
فاقتصر على شطره كما قيل من الله في أيمن الله ﴿والقرآن﴾ بالجر على أنه  
مقسم به ابتداء وقد جوز أن يكون عطفاً على يس على تقدير كونه مجروراً  
بإضمار باء القسم ﴿الحكيم﴾ أى المتضمن للحكمة أو الناطق بها بطريق  
الاستعارة أو المتصف بها على الإسناد المجازى وقد جوز أن يكون الأصل

الحكيم قائله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فبانقلابه مرفوعا بعد الجر استكن في الصفة المشبهة كما مر في صدر سورة لقمان ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جواب للقسم والجملة لرد إنكار الكفرة بقولهم في حقه عليه الصلاة والسلام لست مرسلا وهذه الشهادة منه عز وجل من جملة ما أشير إليه بقوله تعالى في جوابهم ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وفي تخصيص القرآن بالإقسام به أولا بوصفه بالحكيم ثانيا تنويه بشأنه وتبويه على أنه كما يشهد برسالته عليه الصلاة والسلام من حيث نظمه المعجز المتطوى على بدائع الحكم يشهد بها من هذه الحيثية أيضا لما أن الإقسام بالشيء استشهاد به على تحقق مضمون الجملة القسمية وتقوية لثبوته فيكون شاهدا به ودليلا عليه قطعا وقوله تعالى ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبر آخر لأن أو حال من المستكن في الجار والمجرور على أنه عبارة عن الشريعة الشريفة بكاملها لا عن التوحيد فقط وفائدته بيان أن شريعته عليه الصلاة والسلام أقوى الشرائع وأعدلها كما يعرب عنه التنكير التفضيحي والوصف لإثر بيان أنه عليه الصلاة والسلام من جملة المرسلين بالشرائع .

﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ نصب على المدح وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وبالجر على أنه بدل من القرآن وأياما كان فهو مصدر بمعنى المفعول عبر به عن القرآن بيانا لكمال عرافته في كونه منزلا من عند الله عز وجل كأنه نفس التنزيل وإظهار لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية بوصفه بالحكمة وفي تخصيص الاسمين الكريمين المعربين عن الغلبة التامة والرافة العامة حث على الإيمان به ترهيبا وترغيبا وإشعار بأن تنزيله ناشئ عن غاية الرحمة حسبا نطق به قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ وقيل النصب على أنه مصدر مؤكدا لفعله المضممر أى نزل تنزيل العزيز الرحيم على أنه استئناف مسوق لبيان ما ذكر من نظامه شأن القرآن وعلى كل تقدير ففيه فضل تأكيد لمضمون الجملة القسمية ﴿لَتَنْذِرُ﴾ متعلق بتنزيل على الوجوه الأول وبعامله المضممر على الوجه الأخير أى لتنذر به كما في صدر الأعراف وقيل هو متعلق بما يدل عليه لمن المرسلين أى إنك مرسل لتنذر ﴿قَوْمًا مَا أَنْذَرْتُ آبَاؤَهُمْ﴾ أى لم ينذر آبائهم

الآقربون لتطاول مدة الفترة على أن ما نافية فتكون صفة مبنية لغاية احتياجهم إلى الإنذار أو الذي أنذره أو شيئاً أنذره آباؤهم الأبعدون على أنها موصولة أو موصوفة فيكون مفعولاً ثانياً لتنذر أو إنذار آباؤهم الأقدمين على أنها مصدرية فيكون نعتاً لمصدر مؤكد أى لتنذر لإنذارا كائننا مثل إنذارهم ﴿فهم غافلون﴾ على الوجه الأول متعلق بنفسى الإنذار مترتب عليه والضمير للفرقة أى لم تنذر آباؤهم فهم جميعاً لأجله غافلون وعلى الوجوه الباقية متعلق بقوله تعالى لتنذر أو بما يفيد ذلك لمن المرسلين واردة لتعليل إنذاره عليه السلام أو لإرساله بغفلتهم المحوجة إليهما على أن الضمير للقوم خاصة فالمعنى فهم غافلون عنه أى عما أنذر آباؤهم الأقدمون لامتداد المدة واللام فى قوله تعالى :

﴿ لقد حق القول على أكثرهم ﴾ جواب القسم أى واقعاً لقد ثبت وتحقق عليهم البتة لكن لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قلوبهم ما يقتضيه بل بسبب إصرارهم الاختيارى على الكفر والإنكار وعدم تأثرهم من التذكير والإنذار وغلوهم فى العتو والطغيان وتماديهم فى اتباع خطوات الشيطان بحيث لا يلووهم صارف ولا يثنيهم عاطف كيف لا والمراد بما حق من القول قوله تعالى لإبليس عند قوله لأغوينهم أجمعين (لأملأن جهنم منك وعن تبعك منهم أجمعين) وهو المعنى بقوله تعالى (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فإنه كما ترى قد أوقع فيه الحكم بإدخال جهنم على من تبع إبليس وذلك تعليل له بتبعيته قطعاً وثبوت القول على هؤلاء الذين عبر عنهم بأكثرهم لأنها هو لكونهم من جملة أولئك المصيرين على تبعية إبليس أبداً وإذ قد تبين أن مناط ثبوت القول وتحققه عليهم إصرارهم على الكفر إلى الموت ظهر أن قوله تعالى ﴿فهم لا يؤمنون﴾ متفرع فى الحقيقة على ذلك لاعلى ثبوت القول وقوله تعالى :

﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً ﴾ تقرير لتصميمهم على الكفر وعدم

أرعوأهم عنه بتمثيل حالهم بحال الذين غلت أعناقهم ﴿ فهى إلى الأذقان ﴾ أى فالأغلال منتبهة إلى أذقانهم فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤسهم له ﴿ فهم مقمحون ﴾ رافعون رؤسهم غاضون أبصارهم<sup>(١)</sup> بحيث لا يكادون يرون الحق أو ينظرون إلى جبهته ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ إما تامة للتبثيل وتكميل له أى تكميل أى وجعلنا مع ما ذكر من أمامهم سداً عظيماً ومن ورائهم سداً كذلك فغطينا بهما أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يقدرّون على إِبْصَارِ شَيْءٍ ما أصلاً وإما تمثيل مستقل فإن ما ذكر من جعلهم محصورين بين سدين هائلين قد غطيا أبصارهم بحيث لا يبصرون شيئاً قطعاً كافٍ فى الكشف عن كمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين فى مظلورة النى والجهالات محرومين عن النظر فى الأدلة والآيات وقرئ سداً بالضم وهى لغة فيه وقيل ما كان من عمل الناس فهو بالفتح وما كان من خلق الله فبالضم وقرئ فأغشيناهم من العشا وقيل الآيتان فى بنى مخزوم وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ليرضخن رأسه فأتاه وهو عليه الصلاة والسلام يصلى ومعه حجر ليدمغه فلما رفع يده اتثنت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فسكوه عنها بجهد فرجع إلى قومه فأخبرهم بذلك فقال مخزومى آخر أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى الله تعالى بصره .

﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ بيان لشأنهم بطريق التصريح لإثر بيانه بطريق التمثيل أى مستو عندهم إنذارك لإياهم وعدمه حسباً من تحقيقه فى سورة البقرة وقوله تعالى ﴿ لا يؤمنون ﴾ استئناف مؤكد لما قبله مبين لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء أو حال مؤكدة له أو بدل منه ولما بين كون الإنذار عندهم كعدمه عقب ببيان من يتأثر منه فقل ﴿ إنما تنذر ﴾ أى إنذاراً مستتبعا للأثر ﴿ من اتبع الذكر ﴾ أى القرآن بالتأمل فيه أو الوعظ ولم يصر على اتباع خطوات الشيطان ﴿ وخشى الرحمن بالغيب ﴾ أى خاف عقابه وهو

(١) فى ١١ : رافعون الرؤس غاضون الأبصار .

غائب عنه على أنه حال من الفاعل أو المفعول أو خافه في سريره ولم يغتر  
برحمته فإنه منتقم قهار كما أنه رحيم غفار كما نطق به قوله تعالى (نبئ عبادي أني  
أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم) ﴿فبشارة بمغفرة﴾ عظيمة  
﴿وأجر كريم﴾ لا يقادر قدره والفاء لترتيب البشارة أو الأمر بها على ما قبلها  
من اتباع الذكر والحشية ﴿فبشره بمغفرة﴾ عظيمة ﴿وأجر كريم﴾ لا يقادر  
قدره والفاء لترتيب البشارة أو الأمر بها على ما قبلها من اتباع الذكر والحشية  
﴿لأننا نحن نجي الموتى﴾ بيان لشأن عظيم ينطوي على الإنذار والتبشير انطواء  
لجمالها أي نبعثهم بعد مماتهم وعن الحسن إحيائهم إخراجهم من الشرك إلى الإيمان  
فهو حيثئذ عدة كريمة بتحقيق المبشر به ﴿ونكتب ما قدموا﴾ أي ما أسلفوا  
من الأعمال الصالحة وغيرها ﴿وآثارهم﴾ التي أبقوها من الحسنات كعلم علومه  
أو كتاب ألفوه أو حبيس وقفوه أو بناء بنوه من المساجد والرباطات  
والقناطر وغير ذلك من وجوه البر ومن السيئات كتأسيس قوانين الظلم  
والعدوان وترتيب مبادئ الشر والفساد فيما بين العباد وغير ذلك من فنون  
الشرور التي أحدثوها وسنوها لمن بعدهم من المفسدين وقيل هي آثار  
إلى المشائين إلى المساجد ولعل المراد أنها من جملة الآثار وقرئ ويكتب على  
البناء للمفعول ورفع آثارهم .

﴿وكل شيء﴾ من الأشياء كائن ما كان ﴿أحصيناه في إمام مبين﴾ أصل  
عظيم الشأن مظهر لجميع الأشياء عما كان وما سيكون وهو اللوح المحفوظ وقرئ  
كل شيء بالرفع ﴿واضرب لهم مثلا أصحاب القرية﴾ ضرب المثل يستعمل  
تارة في تطبيق حالة غريبة بحاله أخرى مثلها كما في قوله تعالى (ضرب الله مثلا  
للذين كفروا امرأة فوح وامرأة لوط) وأخرى في ذكر حالة غريبة وبيانها  
للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيرة لها كما في قوله تعالى (وضربنا لكم الأمثال)  
على أحد الوجهين أي بينا لكم أحوالا بديعة هي في الغرابة كالأمثال فالعنى  
على الأول اجعل أصحاب القرية مثلا لهؤلاء في الغلو في الكفر والإصرار  
على تكذيب الرسل أي طبق حالهم بحالهم على أن مثلا مفعول ثان لا ضرب



وأصحاب القرية مفعوله الأول آخر عنه ليتصل به ما هو شرحه وبيانه وعلى الثاني اذكر وبين لهم قصة هي في الغرابة كالمثل وقرله تعالى أصحاب القرية بدل منه بتقدير المضاف أو بيان له والقرية أنطاكية ﴿إذ جاءها المرسلون﴾ بدل اشتغال من أصحاب القرية وهم رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها ونسبة لإرسالهم إليه تعالى في قوله :

﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين﴾ بناء على أنه كان بأمره تعالى لتكميل التثيل وتتميم التسلية وهما يحيى وبولس وقيل غيرهما ﴿فكذبوهما﴾ أي فأنياهم فدعواهم إلى الحق فكذبوهما في الرسالة ﴿فعرزنا﴾ أي قوينا يقال عزز المطر الأرض إذا لبدها وقرىء بالتخفيف من عزه إذا غلبه وقهره وحذف المفعول لدلالة ما قبله عليه ولأن المقصد ذكر المعزز به ﴿بثالث﴾ هو شمعون ﴿فقالوا﴾ أي جميعا ﴿إنا إليكم مرسلون﴾ مؤكدين كلامهم لسبق الإنكار لما أن تكذبيهما تكذيب للتالث لإتحاد كلمتهم وذلك أنهم كانوا عبدة أصنام فأرسل إليهم عيسى عليه السلام اثنين فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنمات له وهو حبيب النجار صاحب يس فسألها فأخبراه قال أمعكما آية فقالا نشفى المريض ونبرىء الأكمه والابرص وكان له ولد مريض منذ سنتين فسحاه فقام وآمن حبيب وفشا الخبر وشفى على أيديهما خلق وبلغ حديثهما إلى الملك وقال لهما ألنا إله سوى آلهتنا قالا نعم من أوجدك وآلهتك فقال حتى أنظر في أمركما فتبعهما الناس وقيل ضربوهما وقيل حبسا ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون فدخل متنكرا وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به فقال له يوما بلغنى أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه قال لا حال الغضب بيني وبين ذلك فدعاهما فقال شمعون من أرسلكما قالا الله الذى خلق كل شئ وليس له شريك فقال صفاه وأوجزا قالا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قال وما آيتكما قالا ما يتمنى الملك فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله تعالى حتى انشق له بصر فأخذا بندقيتين فوضعاهما في حذقتيه فصارتا مقلتين ينظر بهما فقال له شمعون أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون

لك وله الشرف قال ايس لى عنك سر إن لطننا لا يبصر ولا يسمع ولا يضرب ولا ينفع وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلى ويتضرع وهم يحسبون أنه منهم ثم قال إن قدر لطنكنا على إحياء ميت آمننا به فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال لى أدخلت فى سبعة أودية من النار ولانى أحذركم ما أتم فيه فآمنوا وقال فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك من هم قال شمعون وهذان فتعجب الملك فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فآمن وآمن قوم ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام فهلكوا هكذا قالوا ولكن لا يساعده سياق النظم الكريم حيث اقتصر فيه على حكاية تماديهم فى العناد واللجاج وركوبهم متن المكابرة فى الحجاج ولم يذكر فيه من يؤمن أحد سوى حبيب ولو أن الملك وقوما من حواشيه آمنوا لكان الظاهر أن يظاهروا الرسل ويساعدوهم قبلوا فى ذلك أو قتلوا كدأب النجار الشهيد ولكان لهم فيه ذكر ما يوجه من الوجوه اللهم إلا أن يكون إيمان الملك بطريق الخفية<sup>(١)</sup> على خوف من عتاة ملئه فيعتزل عنهم معتذرا بعذر من الأعذار .

( قالوا ) أى أهل أنطاكية الذين لم يؤمنوا مخاطبين للثلاثة ( ما أتمم إلا بشر مثلنا ) من غير مزية لكم علينا موجبة لاختصاصكم بما تدعونه ورفع بشر لا تقتاض النفى المقتضى لإعمال ما يالا ( وما أنزل الرحمن من شيء ) بما تدعونه من الوحي والرسالة ( إن أتمم إلا تكذبون ) فى دعوى رسالته ( قالوا ربنا يعلم إنا إلیکم لمرسلون ) استشهدوا بعلم الله تعالى وهو يجرى مجرى القسم مع ما فيه من تحذيرهم معارضة علم الله تعالى وزادوا اللام المؤكدة لما شاهدوا منهم من شدة الإنكار ( وما علينا ) أى من جهة ربنا ( إلا البلاغ المبين ) أى إلا تبليغ رسالته تبليغاً ظاهراً بيناً بالآيات الشاهدة بالصحة وقد

(١) فى ١١ بطريق الخفاء

خرجنا عن عهده فلا مؤاخذه لنا بعد ذلك من جهة ربنا أو ما علينا شيء نطالب به من جهتكم إلا تبليغ الرسالة على الوجه المذكور وقد فعلناه فأى شيء تطلبون منا حتى تصدقونا بذلك ﴿ قالوا ﴾ لما ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل <sup>(١)</sup> ﴿ إنا تطيرنا بكم ﴾ تشاء منا بكم جرياً على ديدن الجهلة حيث كانوا يقيمون بكل ما يوافق شوائهم وإن كان مستجلباً لكل شر ووبال ويتشامون بما لا يوافقها وإن كان مستتبعا لسعادة الدارين أو بناء على أن الدعوة لا تخلو عن الوعيد بما يكرهونه من إصابة ضرر متعلق بأنفسهم وأهليهم وأموالهم إن لم يؤمنوا فكانوا ينفرون عنه وقد روى أنه حبس عنهم القطر فقالوه ﴿ لئن لم تلتهاوا ﴾ أى عن مقاتلتكم هذه ﴿ لنزجمنكم ﴾ بالحجارة ﴿ ولينسنكم منا عذاب أليم ﴾ لا يقادر قدره ﴿ قالوا طائركم ﴾ أى سبب شؤمكم ﴿ معكم ﴾ لا من قبلنا وهو سوء عقيدتكم وقبح أعمالكم وقرىء طيركم ﴿ أن ذكرتم ﴾ أى وعظمت بما فيه سعادتكم وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه أى تطيرتم وتوعدتم بالرجم والتعذيب وقرىء بألف بين المهمزتين وبفتح أن بمعنى أ تطيرتم لأن ذكرتم وأن ذكرتم وإن ذكرتم بخير استفهام وأين ذكرتم بمعنى طائركم معكم حيث جرى ذكركم وهو أبلغ ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ إضراب عما تقتضيه الشرطية من كون التذكير سبباً للشؤم أو مصححاً للتوعد أى ليس الأمر كذلك بل أنتم قوم عادتكم الإسراف فى العصيان فلذلك أتاكم الشؤم أو فى الظلم والعدوان ولذلك توعدتم وتشاءتم بمن يجب لإكرامه والتبرك به ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ﴾ هو حبيب النجار وكان ينحت أصنامهم وهو عن آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهما ستائة سنة كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما ولم يؤمن بنبى غيره عليه الصلاة والسلام أحد قبل مبعضه وقيل كان فى غار يعبد الله تعالى فلما بلغه خبر الرسل عليهم الصلاة والسلام أظهر دينه .

﴿ قال ﴾ استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية مجيئة ساعياً كأنه قيل فهذا قال عند مجيئه فقيل قال ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ تعرض لعنوان رسالتهم حثاً لهم على اتباعهم كما أن خطابهم يياقوم لتأليف قلوبهم واستمالتهم نحو قبول نصيحته وقوله تعالى ﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ تذكير للتأكيد وللتوسل به إلى وصفهم بما يرغبهم في اتباعهم من التزه عن الغرض النبوي والاهتداء إلى خير الدنيا والدين ﴿ وما لي لأعبد الذي فطرني ﴾ تلطف في الانشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصيح حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه والمراد تقييدهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره كما ينبى عنه قوله ﴿ وإليه ترجعون ﴾ مبالغة في التهديد ثم عاد إلى المساق الأول فقال ﴿ أتأخذ من دونه آلهة ﴾ إنكار ونفي لاتخاذ الآلهة على الإطلاق وقوله ﴿ إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ﴾ أى لا تنفعني شيئاً من النفع ﴿ ولا ينقذون ﴾ من ذلك الضر بالنصرة والمظاهرة استئناف سبق لتعليل النفي المذكور وجعله صفة لآلهة كما ذهب إليه بعضهم ربما يوم أن هناك آلهة ليست كذلك وقرىء إن يردن بفتح الياء على معنى إن يوردنى ضراً أى يجعلنى مورداً للضر ﴿ إني إذا ﴾ أى إذا اتخذت من دونه آلهة ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ فإن إشاراك ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر بالخالق المقدر الذى لا قادر غيره ولا خير إلا خيره ضلال بين لا يخفى على أحد من له تمييز فى الجملة ﴿ إني آمننت بربكم ﴾ خطاب منه لرسل بطريق التلوين قبل لما نصح قومه بما ذكرهموا برجمه فأسرع نحو الرسل قيل أن يقتلوه فقال ذلك وإنما أكد لإظهار صدوره عنه بكمال الرغبة والنشاط وأضاف الرب إلى ضميرهم روماً لزيادة التقرير وإظهاره للاختصاص والافتداء بهم كأنه قال بربكم الذى أرسلكم أو الذى تدعوننا إلى الايمان به ﴿ فاسمعون ﴾ أى اسمعوا لإيماني وأشهدوا لى به عند الله تعالى وقيل الخطاب للكفرة شافهم بذلك إظهاراً للتصلب فى الدين وعدم المبالاة بالقتل وإضافة الرب إلى ضميرهم لتحقيق الحق والتنبية على بطلان ما هم عليه من اتخاذ الأصنام أرباباً وقيل للناس جميعاً ﴿ قيل ادخلوا الجنة ﴾ قيل له ذلك لما قتلوه لإكرامه

بدخولها حيثئذ كسائر الشهداء وقيل لما هموا بقتله رفعه الله تعالى إلى الجنة قاله الحسن وعن قتادة أدخله الله الجنة وهو فيها حتى يرزق وقيل معناه البشرى بدخول الجنة وأنه من أهلها وإنما لم يقل له لأن الغرض بيان المقول لا المقول له لظهوره وللمبالغة في المسارعة إلى بيانه والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نسا من حكاية حاله ومقاله كأنه قيل كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب في دينه والتمسحي<sup>(١)</sup> بروحه لوجهه تعالى فقيل قيل ادخلوا الجنة وكذلك قوله تعالى ﴿ قال يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المسكرين ﴾ فإنه جواب عن سؤال نسا من حكاية حاله كأنه قيل فماذا قال عندئذ تلك الكرامة السنية فقيل قال الخ وإنما تبنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك عن اكتساب مثله بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والطاعة جريا على سنن الأولياء في كظم الغيظ والترحم على الأعداء أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على الحق وأن عداوتهم لم تكسبه إلا سعادة وقرىء من المسكرين وما موصولة أو مصدرية والياء صلة يعلمون أو استفهامية وردت على الأصل والياء متعلقة بغفر أى بآى شئ غفر لى ربى يريد به تفخيم شأن المهاجرة عن ملتهم والمصابرة على أذيتهم ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده ﴾ من بعد قتله أو رفعه ﴿ من جند من السماء ﴾ لإهلاكهم والانتقام منهم كما فعلناه يوم بدر والخندق بل كفيينا أمرهم بصيحة ملك وفيه استحقار لهم وإهلاكهم وإيما إلى تفخيم شأن الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وما كنا منزلين ﴾ وما صح في حكمنا أن نزل لإهلاك قومه جنودا من السماء لما أنا قدرنا لكل شئ سببا حيث أهلكنا بعض من أهلكنا من الأمم بالخاص وببعضهم بالصيحة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالإغراق وجعلنا أنزال الجند من خصائصك في الانتصار من قومك وقيل ما موصولة معطوفة على جند أى وما كنا منزلين على من قبلهم من حجارة وريح وأمطار شديدة وغيرها ﴿ إن كانت ﴾ أى ما كانت الأخذة أو العقوبة ﴿ إلا صيحة

وواحدة) صاحبها جبريل عليه السلام وقرىء إلا صبيحة بالرفع على أن كان تامة وقرىء إلا زقية واحدة من زقا الطائر إذا صاح (فإنهم خامدون) ميتون شبهوا بالنار الخامدة رمزا إلا أن الخى كالنار الساطعة في الحركة والالتهاب والميت كالرماد كما قال ليبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

(يا حسرة على العباد) تعالى فهذه من الأحوال التي حقها أن تحضرى فيها وهي ما دل عليه قوله تعالى (ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) فإن المستهزئين بالناسحين الذين نبطت بنصائحهم سعادة الدارين أحقاء بأن يتحسروا ويتحسروا عليهم المتحسروا المتحسرون أو قد تلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين وقد جوز أن يكون تحسروا عليهم من جهة الله تعالى بطريق الاستعارة لتعظيم ما جندوه على أنفسهم ويؤيده قراءة يا حسرتا لأن المعنى يا حسرتى ونصيبها لطولها بما تعلق بها من الجار وقيل بإضمار فعلها والمنادى محذوف وقرىء يا حسرة العباد بالإضافة إلى الفاعل أو المفعول ويا حسرة على العباد بإجراء الوصل مجرى الوقف .

(ألم يروا) أى ألم يعلموا وهو معلق عن العمل فى قوله تعالى (كم أهلكنا قبلهم من القرون) لأن كم لا يعمل فيها ما قبلها وأن كانت خبرية لأن أصلها الاستفهام خلا أن معناه نافذ فى الجملة كما نفذ فى قولك ألم تر أن زيدا لمنطلق وإن لم يعمل فى لفظه (أنهم إلهيم لا يرجعون) بدل من كم أهلكنا على المعنى أى ألم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم من المذكورين آنفا ومن غيرهم كونهم غير راجعين إلهيم وقرىء بالكسر على الاستثناف وقرىء ألم يروا من أهلكنا والبدل حيثئذ بدل اشتغال (وإن كل لما جميع لدينا محضرون) بيان لرجوع الكل إلى المعشر بعد بيان عدم الرجوع إلى الدنيا وأن نافية وتنوين كل عوض عن المضاف إليه ولما بمعنى إلا وجميع فعيل بمعنى مفعول ولدينا ظرف له أو لما بعده والمعنى ما كلهم إلا بمحموعون لدينا محضرون للحساب والجزاء وقيل محضرون

معذبون فكل ( ذلك )<sup>(١)</sup> عبارة عن الكفرة وقرىء لما بالتخفيف على أن إن  
 مخففة من الثقلة واللام فارقة وما مزيدة للأكيد والمعنى أن كلهم مجموعون الخ .  
 ﴿ وآية لهم الأرض الميتة ﴾ بالتخفيف وقرىء بالتشديد وقوله تعالى آية  
 خبر مقدم للاهتمام به وتنكيرها للتفخيم ولهم إما متعلقة بها لأنها بمعنى العلامة  
 أو بمضمرة هو صفة لها والأرض مبتدأ والميتة صفتها وقوله تعالى ﴿ أحييناها ﴾  
 استئناف مبين لكيفية كونها آية وقيل آية مبتدأ ولهم خبر والأرض الميتة  
 مبتدأ موصوف وأحييناها خبره والجملة مفسرة لآية وقيل الأرض مبتدأ  
 وأحييناها خبره والجملة خبر آية وقيل الخبر لها هو الأرض وأحييناها صفتها  
 لأن المراد بها الجنس لا المعينة والأول هو الأول لأن مصب الفائدة هو كون  
 الأرض آية لهم لا كون الآية هي الأرض ﴿ وأخرجنا منها حبلا ﴾ جنس  
 الحب ﴿ ففنه يأكلون ﴾ تقديم الصلة للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل  
 ويعاش به .

﴿ وجعلنا فيها جنان من نخيل وأعناب ﴾ أى من أنواع النخل والعنب  
 ولذلك جمعادون الحب فإن الدال على الجنس مشعر بالاختلاف ولا كذلك  
 الدال على الأنواع وذكر النخيل دون التمر لطابق الحب والأعناب  
 لاختصاص شجرها بمزيد النفع وآثار الصنع ﴿ وجخرنا فيها ﴾ وقرىء بالتخفيف  
 والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظا ومعنى ﴿ من العيون ﴾ أى بعضا من  
 العيون فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه أو العيون ومن مزيدة على رأى  
 الأخفش .

﴿ ليأكلوا من ثمره ﴾ متعلق بجعلنا وتأخيرها عن تفجير العيون لأنه من  
 مبادئ الأثمار أى وجعلنا فيها جنان من نخيل ورتبنا مبادئ أثمارها ليأكلوا  
 من ثمر ما ذكر من الجنات والنخيل بأجراء الضمير مجرى اسم الإشارة وقيل  
 الضمير لله تعالى بطريق الالتفات إلى الغيبة والإضافة لأن الثمر يخلقه تعالى  
 وقرىء بضميتين وهى لغة فيه أو جمع ثمار وبضمة وسكون ﴿ وما علمته أيديهم ﴾

عطف على ثمره وهو ما يتخذ منه من العصير والدبس ونحوهما وقيل ما نافية والمعنى أن التمر يخلق الله تعالى لا يفعلهم ومحل الجملة النصب على الحالية ويؤكد الأول قراءة عملت بلا هاء فإن حذف العائد من الصلة أحسن من الحذف من غيرها ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أنكار واستقباح لعدم شكرهم للنعم الممدودة والغاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى يرون هذه النعم أو أيتنعمون بها فلا يشكرونها ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها ﴾ استئناف مسوق لتنزيهه تعالى عما فعلوه من ترك شكره على آلائه المذكورة واستعظام ما ذكر فى حين الصلة من بدائع آثار قدرته وأسرار حكيمته وروائع نعمائه الموجبة للشكر وتخصيص العبادة به والتعجيب من إخلالهم بذلك والحالة هذه وسبحان علم للتسبيح الذى هو التبعيد عن السوء اعتقاداً وقولاً أى اعتقاد البعد عنه والحكم به من سبىح فى الأرض والماء إذا أبعد فيهما وأمعن ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه أى أسبىح سبحانه أى أنزهه عما لا يليق به عقداً وعملاً تنزيهاً خاصاً به حقيقةً بشأنه وفيه مبالغة من جهة الاشتقاق من السبىح ومن جهة النقل إلى التفعيل ومن جهة العدول عن المصدر الدال على الجنس إلى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم المشير إلى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة إقامته مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران أريد به التنزه التام والتباعد الكلى عن السوء ففيه مبالغة من جهة إسناد التنزه إلى الذات المقدسة فالمعنى تنزه بذاته عن كل ما لا يليق به تنزهها خاصاً<sup>(١)</sup> به فالجملة على هذا إخبار من الله تعالى بتنزهه وبرأته عن كل ما لا يليق به بما فعلوه وما تركوه وعلى الأول حكم منه عز وجل بذلك وتلقين للمؤمنين أن يفعلوه ويعتقدوا مضمونه ولا يخلوا به ولا يغفلوا عنه والمراد بالأزواج الأصناف والأنواع ﴿ عما تنبت الأرض ﴾ بيان لها والمراد به كل ما ينبت فيها من الأشياء المذكورة وغيرها ﴿ ومن أنفسهم ﴾ أى خلق الأزواج من



أنفسهم أى الذكر والأنثى ﴿ وما لا يعملون ﴾ أى والأزواج مما لم يطلعهم الله تعالى على خصوصياته لعدم قدرتهم على الاحاطة بها ولما لم يتعلق بذلك شيء من مصالحهم الدينية والدنيوية وإنما أطلعهم على ذلك بطريق الإجمال على مناج قوله تعالى ( ويخلق ما لا تعلمون ) لما نيط به وقوفهم على عظم قدرته وسعه ملكه وسلطانه .

﴿ وأية لهم الليل ﴾ جملة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر كما مر وقوله تعالى ﴿ نسلخ منه النهار ﴾ جملة مبنية لكيفية كونه آية أى نزيله ونكشفه عن مكانه مستعار من السلخ وهو إزالة ما بين الحيوان وجلده من الاتصال والأغلب فى الاستعمال تعليقه بالجلد يقال سلخت الإهاب من الشاة وقد يعكس ومنه الشاة المسلوخة ﴿ فإذا هم مظلّمون ﴾ أى داخلون فى الظلام مفاجأة وفيه رمز إلى أن الأصل هو الظلام والنور عارض ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ لحد معين ينتهى إليه دورها فشبّه بمستقر المسافر إذ قطع مسيره أو لكبد السماء فإن حركتها فيه توجد أبطأ بحيث يظن أن لها هناك وقفة قال :

• والشمس حيرى لها بالجو تدويم •

أولا استقرار لها على نهج مخصوص أو لمنتهى مقدر لكل يوم من المشارق والمغارب فإن لها فى دورها ثلثمائة وستين مشرقا ومغربا تطلع كل يوم من مطلع وتغرب من مغرب ثم لا تعود إليهما إلى العام القابل أو لمنقطع جريها عند خراب العالم وقرىء إلى مستقر لها وقرىء لامستقر لها أى لا سكون لها فإنها متحركة دائما وقرىء لامستقر لها على أن لا بمعنى ليس .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى جريها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيدان بعلو رتبته وبعد منزلته أى ذلك الجرى البديع المنطوى على الحكم الرائعة التى تحارفى فهمها العقول والأفهام ﴿ تقدير العزيز ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿ العليم ﴾ المحيط عليه بكل معلوم .

﴿ والقمر قدرناه ﴾ بالنصب باضممار فعل يفسره الظاهر وقرىء بالرفع على الابتداء أى قدرنا له ﴿ منازل ﴾ وقيل قدرنا مسيره منازل وقيل قدرناه ذا

منازل وهي ثمانية وعشرون الشيطان البطين الثريا الدبران الحقعة الهنعة الذراخ  
النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العوا السماك الغفر الزباني الاكليل القلب  
الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الاخبية فرغ الدلو  
المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا وهو بطن الحوت ينزل كل ليلة في واحد منها  
لا يتخطاها ولا يتقاصر عنها فإذا كان في آخر منازلها وهو الذي يكون قبيل  
الاجتماع دق واستقوس ﴿ حتى عاد كالعرجون ﴾ كالشمر اخ الموعج فعلون  
من الانعراج وهو الاعوجاج وقرى كالعرجون وهما الغتان كالزبون والزيون  
﴿ القديم ﴾ العتيق وقيل وهو ما مر عليه حول فصاعدا ﴿ لا الشمس ينبغي لها ﴾  
أى يصح ويتسهل ﴿ أن تدرك القمر ﴾ في سرعة السير فإن ذلك يخل بتكون  
النبات وتعيش الحيوان أو في الآثار والمنافع أو في المكان بأن تنزل في منزله  
أو في سلطانه فتطمس نوره وإيلاء حرف النفي الشمس للدلالة على أنها مسخرة  
لا يتيسر لها إلا ما قدر لها ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ أى يسبقه فيفوته ولكن  
يعاقبه وقيل المراد بهما آيتاهما النيران وبالسبق سبق القمر إلى سلطان الشمس  
فيكون عكسا للأول وإيراد السبق كان الإدراك لأنه الملازم لسرعة سيره  
﴿ وكل ﴾ أى وكلهم على أن الثنوين عوض عن المضاف إليه الذى هو الضمير  
العائد إلى الشمس والقمر والجمع باعتبار التكاثر العارض لهما بتكاثر مطالعتهما  
فإن اختلاف الأحوال يوجب تعددا ما في الذات أو إلى الكواكب فإن ذكرهما  
مشعر بها ﴿ في فلك يسبحون ﴾ يسرون بانسباط وسهولة .

﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم ﴾ أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم  
أوصيائهم ونساءهم الذين يستصحبونهم فإن الذرية تطلق عليهن لاسيما مع  
الاختلاط وتخصيصهم بالذكر لما أن استقرارهم في السفن أشق واستمساكهم  
فيها أبدع ﴿ في الفلك المشحون ﴾ أى المملوء وقيل هو فلك نوح عليه السلام  
وحمل ذرياتهم فيها حمل آبائهم الأقدمين وفي أصلابهم هؤلاء وذرياتهم وتخصيص  
أعقابهم بالذكر دونهم لأنه أبلغ في الامتنان وأدخل في التعجيب الذى عليه  
يدور كونه آية ﴿ وخلقنا لهم من مثله ﴾ نملا يماثل الفلك ﴿ مايركبون ﴾ من

الابل فإنها سفائن البر أو عما يماثل ذلك الفلك من السفن والزوارق وجعلها مخلوقة لله تعالى مع كونها من مصنوعات العباد ليس لمجرد كون صنعهم بأقدار الله تعالى والهامه بل لمزيد اختصاص أصلها بقدرته تعالى وحكمته حسبما يعرب عنه قوله عز وجل واصنع الفلك بأعيننا ووحينا والتعبير عن ملاستهم بهذه السفن بالركوب لأنها باختيارهم كما أن التعبير عن ملاسة ذريتهم بفلك نوح عليه السلام بالحمل لكونها بغير شعور منهم واختيار ﴿وإن نشأ نغرقهم﴾ الخ من تمام الآية فإنهم معترفون بمضمونه كما ينطق به قوله تعالى ﴿ولإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين﴾ وقرئ نغرقهم بالتشديد وفي تعليق الاغراق بمحض المشيئة إشعار بأنه قد تكامل ما يوجب إهلاكهم من معاصيهم ولم يبق إلا تعلق مشيئته تعالى به أى إن نشأ نغرقهم في اليوم مع ما حملناهم فيه من الفلك فحديث خلق الابل حينئذ كلام جرى به في خلال الآية بطريق الاستطراد لكمال التماثل بين الابل والفلك فكانها نوع منه أو مع ما يركبون من السفن والزوارق ﴿فلا صريخ لهم﴾ أى فلا مغيث لهم يحرسهم من الغرق ويدفعه عنهم قبل وقوعه وقيل فلا استغاثة لهم من قولهم أتاكم العصيرخ ﴿ولاهم ينقذون﴾ أى ينجون منه بعد وقوعه وقوله تعالى ﴿إلا رحمة منا ومناعا﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل الشاملة للباعث المتقدم والغاية المناخنة أى لا يغاثون ولا ينقذون شئ من الأشياء إلا لرحمة عظيمة من قبلنا داعية إلى الاغاثة والانقاذ وتمنيع بالحياة مترتب عليهما ويجوز أن يراد بالرحمة ما يقارن التمتع من الرحمة الدنيوية فيكون كلاهما غاية للاغاثة والانقاذ أى لنوع من الرحمة وتمتع ﴿إلى حين﴾ أى إلى زمان قدر فيه آجالهم كما قيل :

ولم أسلم لكى أبقي واسكى سلمت من الحمام إلى الحمام

﴿ولإذا قيل لهم اتقوا﴾ بيان لإعراضهم عن الآيات التنزيلية بعد بيان إعراضهم عن الآيات الآفاقية التي كانوا يشاهدونها وعدم تأملهم فيها أى إذا قيل لهم بطريق الإنذار بما نزل من الآيات أو بغيره اتقوا ﴿ما بين أيديكم وما خلفكم﴾ من الآفات والنوازل فإنها محيطة بكم أو ما يصيبكم من المكارم من حيث تحتسبون

ومن حيث لا تحسبون أو من الوقائع النازلة على الأمم الحالية قبلكم والعذاب المعد لكم في الآخرة أو من نوازل السماء ونوائب الأرض أو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة أو ما تقدم من الذنوب وما تأخر ﴿لعلكم ترحمون﴾ إما حال من واو وانقوا أو غاية له أى راجين أن ترحموا أو كي ترحموا فتنجوا من ذلك لما عرفتم أن مناط النجاة ليس إلا رحمة الله تعالى وجواب إذا محذوف ثقة بانفهامه من قوله تعالى ﴿وما تأنيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾ انفهاما بيّنا أما إذا كان الإنذار بالآية الكريمة فعبارة النص وأما إذا كان بغيرها فبدلالته لأنهم حين أعرضوا عن آيات ربهم فلأن يعرضوا عن غيرها بطريق الأولوية كأنه قيل وإذا قيل لهم انقوا العذاب أعرضوا حسبما اعتادوه وما نافية وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددى<sup>(١)</sup> ومن الأولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية تبعية واقعة مع مجرورها صفة لآية وإضافة الآيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتحويل ما اجتزأوا عليه في حقها والمراد بها أما الآيات التنزيلية فإتيانها نزولها والمعنى ما ينزل إليهم آية من الآيات القرآنية التى من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله تعالى وسوابغ آلائه الموجبة للإقبال عليها والإيمان بها إلا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب والاستهزاء وأما ما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات التى من جملتها الآيات الثلاث المعدودة آنفا فالمراد بإتيانها ما يعم نزول الوحي وظهور تلك الأمور لهم والمعنى ما يظهر لهم آية من الآيات التى من جملتها ما ذكر من شئونه الشاهدة بوحديته تعالى وتفردّه بالآلوهية إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدى إلى الإيمان به تعالى وإشاره على أن يقال إلا أعرضوا عنها كما وقع مثله فى قوله تعالى: (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) للدلالة على استمرارهم على الإعراض حسب استمرار إتيان

---

(١) فى ١١ : للتجدد .

الآيات وعن متعلقة بمعرضين قدمت عليه مراعاة للفواصل والجملة في حين النصب على أنها حال من مفعول تأنى أو من فاعله المتخصص بالوصف لاشتغالها على ضمير كل منهما والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أى ما تأتاهم من آية من آيات ربهم في حال من أحوالهم إلا حال إعراضهم عنها أو ما تأتاهم آية منها في حال من أحوالها إلا حال إعراضهم عنها ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ﴾ أى أعطاكم بطريق التفضل والإععام من أنواع الأموال عبر عنها بذلك تحقيقاً لاحق وترغيباً في الإنفاق على منهاج قوله تعالى ( وأحسن كما أحسن الله إليك ) وتنبيهاً على عظم جنايتهم في ترك الامتثال بالأمر وكذلك من التبعية أى إذا قيل لهم بطريق النصيحة أنفقوا بعض ما أعطاكم الله تعالى من فضله على المحتاجين فإن ذلك مما يرد البلاء ويدفع المكاره ﴿ قال الذين كفروا ﴾ بالصانع عز وجل وهم زنادقة كانوا بمكة ﴿ للذين آمنوا ﴾ تهكأ بهم وبما كانوا عليه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى ﴿ أنطعم ﴾ حسبما نعتلوننا به ﴿ من لو يشاء الله أطعمه ﴾ أى على زعمكم وعن ابن عباس رضى الله عنهما كان بمكة زنادقة إذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن وقيل قاله مشركوا قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين من أموالهم التى زعموا أنهم جعلوها لله تعالى من الحرث والأناعام يرمون أنه تعالى لما لم يشأ إطعامهم وهو قادر عليه فنحن أحق بذلك وما هو إلا لفرط جهالتهم فإن الله تعالى يطعم عباده بأسباب من جملتها حث الأغنياء على إطعام الفقراء وتوفيقهم لذلك ﴿ إن أنتم إلا فى ضلال مبين ﴾ حيث تأمرونا بما يخالف مشيئة الله تعالى وقد جوز أن يكون جواباً لهم من جهة تعالى أو حكاية لجواب المؤمنين لهم ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ أى فيما تعدوننا به من قيام الساعة مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لما أنهم أيضاً كانوا يتلون عليهم آيات الوعد بقيامها ومعنى القرب فى هذا إما بطريق الاستهزاء وإما باعتبار قرب العهد بالوعد .

﴿ ما ينظرون ﴾ جواب من جهته تعالى أى ما ينتظرون ﴿ إلا صيحة ﴾

واحدة) هي النفخة الأولى (تأخذهم) مفاجأة (وهم يخضمون) أى يتخاضمون فى متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم شئ من مخالفتها كقوله تعالى (فأخذتهم الصاعقة بغتة وهم لا يشعرون) فلا يغتروا بعدم ظهور علامتها ولا يزعموا أنها لا تأتئهم وأصل يخضمون يخضمون فسكنت التاء وأدغمت فى الصاد ثم كسرت الحاء لالتقاء الساكنين وقرئ بكسر الياء للاتباع وبفتح الحاء على القاء حركة التاء عليه وقرئ على الاختلاس وبالإسكان على تجويز الجمع بين الساكنين إذا كان الثانى مدغما وإن لم يكن الأول حرف مد وقرئ يخضمون من خصمه إذا جادله (فلا يستطيعون توصية) فى شئ من أمورهم إن كانوا فيما بين أهلهم (ولا إلى أهلهم يرجعون) إن كانوا فى خارج أبواهم بل تبغتهم الصيحة فيموتون حينما كانوا (ونفخ فى الصور) هي النفخة الثانية بينها وبين الأولى أربعون سنة أى ينفخ فيه وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع (فإذا هم من الأجداث) أى القبور جمع جدث وقرئ بالغاء (إلى ربهم) مالك أمرهم على الإطلاق (يفسلون) يسرعون بطريق الإيجار دون الاختيار لقوله تعالى لدينا محضرون وقرئ بغضم السين .

(قالوا) أى فى ابتداء بعثهم من القبور (يا ويلنا) احضر فهذا أوانك وقرئ يا ويلتنا (من بعثنا من مرقدنا) وقرئ من أهنا من هب من نومه إذا انتبه وقرئ من هبنا بمعنى أهنا وقيل أصله هب بنا لحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير قيل فيه ترشيح ورمز وإشعار بأنهم لا اختلاط عقولهم بظنون أنهم كانوا نياما، وعن مجاهد أن للكفار هجمة يجدون فيها طعم النوم فإذا صبح بأهل القبور يقولون ذلك وعن ابن عباس وأبى ابن كعب وقتادة رحمهم الله تعالى أن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فإذا بعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا من أهوال القيامة ما شاهدوا دعوا بالويل وقالوا ذلك وقيل إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب يصير عذاب القبر فى جنبها مثل النوم فيقولون ذلك ، وقرئ (من بعثنا) ومن هبنا بمن الجارة والمصدر والمرقد إما مصدر أى من رقادنا أو اسم مكان أريد به الجنس فيلتزم مراقد الكل (هذا

ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴿ جملة من مبتدأ وخبر وما موصولة محذوفة العائد أو مصدرية وهو جواب من قبل الملائكة أو المؤمنين عدل به عن سنن سؤالهم تذكيرا لكفرهم وتقريعا لهم عليه وتنبيها على أن الذي يهمهم هو السؤال عن نفس البعث ماذا هو دون [ السؤال عن ] <sup>(١)</sup> الباعث كأنهم قالوا بعثكم الرحمن الذي وعدكم ذلك في كتبه وأرسل إليكم الرسل فصدقكم فيه وليس الأمر كما تتوهمونه حتى تسألوا عن الباعث وقيل هو من كلام الكافرين حيث يتذكرون ما سمعوه من الرسل عليهم الصلاة والسلام فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضاً وقيل هذا صفة لمزقنا وما وعد الخ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أى ما وعد الرحمن وصدق المرسلون حق ﴿ إن كانت ﴾ أى ما كانت النفخة التى حكيت آنفاً ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ حصلت من نفخ إسرافيل عليه السلام فى الصور ﴿ فإذا هم جميع ﴾ أى مجموع ﴿ لدينا محضرون ﴾ من غير لبث ما طرفه عين وفيه من تهوين أمر البعث والحشر والإيذان باستغنائهما عن الأسباب ما لا يخفى .

﴿ فالبوم لا تظلم نفس ﴾ من النفوس برة كانت أو فاجرة ﴿ شيئا ﴾ من الظلم ﴿ ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ أى الإجزاء ما كنتم تعملونه فى الدنيا على الاستمرار من الفكر والمعاصى على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه للتنبيه على قوة التلازم والارتباط بينهما كأنهما شئ واحد أو إلا بما كنتم تعملونه أى بمقابلته أو بسببه وتعميم الخطاب للمؤمنين يرده أنه تعالى يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله أضعافا مضاعفة وهذه حكاية لما سيقال لهم حين يرون العذاب المعد لهم تحقيقا للحق وتقريعا لهم وقوله تعالى ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكون ﴾ من جملة ما سيقال لهم يومئذ زيادة لحسرتهم وندامتهم فإن الإخبار بحسن حال أعدائهم إثر بيان سوء حالهم عما يزيدهم مساواة على مساواة وفى هذه الحكاية مزجرة لهؤلاء الكفرة .

﴿١﴾ إنما بين الحاضر بن يقطعت من الأصل .

عما هم عليه ومدعاة إلى الاقتداء بسيرة المؤمنين والشغل هو الشأن الذي يصد  
المرء ويشغله عما سواه من شئونه لكونه أهم عنده من الكل إما لا يجابه كمال  
المسرة والبهجة أو كمال المساواة والنعيم والمراد ههنا هو الأول وما فيه من التنكير  
والإبهام للإيدان بارتفاعه عن رتبة البيلن والمراد به ما هم فيه من فنون الملاذ  
التي تلهيهم عما عداها بالسكاية ولما أن المراد به اقتصاص الأبدان أو السماع  
وضرب الأوتار أو التزوار أو ضيافة الله تعالى أو شغلهم عما فيه أهل النار  
على الإطلاق أو شغلهم عن أهاليهم في النار لا يهمهم أمرهم ولا يبالون بهم  
كيلا يدخل عليهم تنغيص في نعيمهم كما روى كل واحد منها عن واحد من أكابر  
السلف فليس مرادهم بذلك حصر شغلهم فيما ذكره فقط بل بيان أنه من جملة  
اشتغالهم وتخصيص كل منهم كلا من تلك الأمور بالذكر محمول على اقتضاء مقام  
البيان لإياه وهو مع جاره خبر لأن وفا كيون خبرا آخر لها أي أنهم مستقرون  
في شغل وأي شغل في شغل عظيم الشأن متنعمون بنعيم مقيم فائزون بملك كبير  
والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسمية قبل تحققها بتنزيل المرتقب المتوقع منزلة  
الواقع للإيدان بغاية سرعة تحققها ووقوعها ولزيادة مساواة المخاطبين بذلك  
قرىء في شغل بسكون العين وفي شغل بفتحيتين وبفتحة وسكون والكل لغات  
وقرىء فكهون للبالغة وفكهون بضم السكاف وهي لغة كنعطس وفا كين  
وفكهين على الحال من المستكن في الظرف وقوله تعالى :

(يهمهم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون) استئناف مسوق لبيان  
كيفية شغلهم وتمسكهم وتسكيلهما بما يزيدهم بهجة وسرورا من شركة أزواجهم  
لهم فيما هم فيه من الشغل والفسكاة على أن مبدأ أزواجهم عطف عليه  
ومتكئون خبر والجاران صلتان له قدمنا عليه لمواعاة الفواصل أو هو والجاران  
بما تعلقا به من الاستقرار أخبار مترتبة وقيل الخبر هو الظرف الأول والثاني  
مستأنف على أنه متعلق بمتكئون وهو خبر لمبتدأ محذوف وقيل على أنه خبر  
مقدم ومتكئون مبتدأ مؤخر وقرىء متكئين بلامزة نصبا على الحال من  
المستكن في الظرفين أو أحدهما وقيل هم تأكيد للمستكن في خبر أن ومتكئون



خبر آخر لها وعلى الأرائك متعلق به وكذا في ظلال أو هذا بمضمر هو حال من الممطوفين والظلال جمع ظل كشعاب جمع شعب أو جمع ظلة كقباب جمع قبة ويؤيده في ظلال والأرائك جمع أريكة وهي السرير المزين بالثياب والستور قال ثعلب لا تكون أريكة حتى تكون عليها حجلة وقوله تعالى

﴿ لهم فيها فاكهة ﴾ الخ بيان لما يتمتعون به في الجنة من الماء كل والمشارب وما يتلذذون به من الملاذ الجسمانية والروحانية بعد بيان ما لهم فيها من مجالس الأنس ومحافل القدس تكميلاً لبيان كيفية ما هم فيه من الشغل والبهجة أى لهم فيها فاكهة كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه وما في قوله تعالى ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ موصولة أو موصوفة عبر بها عن مدعو عظيم الشأن معين أو مبهم لإبذانا بأنه الحقيق بالدعاء دون ما عداهم ثم صرح به روماً لزيادة التقرير بالتحقيق بعد التشويق كما ستعرفه أو هي باقية على عمومها قصد بها التعميم بعد تخصيص بعض المواد المعتادة بالذكر وأياً ما كان فهو مبدأ ولهم خبره والجملة معطوفة على الجملة السابقة وعدم الاكتفاء بعطف ما يدعون على فاكهة لئلا يتوهم كون ما عبارة عن توابع الفاكهة وتتماتها والمعنى ولهم ما يدعون به لأنفسهم من مدعو عظيم الشأن أو كل ما يدعون به كأننا ما كان من أسباب البهجة وموجبات السرور وأياً ما كان ففيه دلالة على أنهم في أقصى غاية البهجة والغبطة ويدعون يفتعلون من الدعاء كما أشير إليه مثل اشتوى واجتمع إذا شوى وجعل لنفسه وقيل بمعنى يتداعون كالارتقاء بمعنى الترامى وقيل بمعنى يتمنون من قوتهم ادع على ما شئت بمعنى تمنه على وقال الزجاج هو من الدعاء أى ما يدعو به أهل الجنة بأنهم فيكون الافتعال بمعنى الفعل كالاختمال بمعنى الحبل والارتحال بمعنى الرحلة ويعضده القراءة بالتخفيف كما ذكره السكاكشي وقوله تعالى :

﴿ سلام ﴾ على التقدير الأول بدل من ما يدعون أو خبر لمبتدأ محذوف وقوله تعالى ﴿ قولاً ﴾ مصدر مؤكد لفعل هو صفة لسلام وما بعده من الجار متعلق بمضمر هو صفة له كأنه قيل قتلهم سلام أو ما يدعون سلام يقال لهم

قولا كأننا (من) جهة (رب رحيم) أى يسلم عليهم من جهته تعالى بواسطة الملك أو بدونها مبالغة في تعظيمهم قال ابن عباس رضى الله عنهما والملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين وأما على التقدير الثانى فقد قيل إنه خبر لما يدعون ولهم لبيان الجهة كما يقال لزيد الشرف متوفر على أن الشرف مبتدأ ومتوفر خبره والجار والمجرور لبيان من له ذلك أى ما يدعون سالم لهم خالص لا شوب فيه وقولا حيثئذ مصدر مؤكد لمضمون الجملة أى عدة من رب رحيم والأوجه أن ينتصب على الاختصاص وقيل هو مبتدأ محذوف الخبر أى لهم سلام أى تسليم قولا من رب رحيم أو سلامة من الآفات فيكون قولا مصدرا مؤكدا لمضمون الجملة كما سبق وقيل تقديره سلام عليهم فيكون حكاية لما سيقال لهم من جهته تعالى يومئذ وقيل خبره الفعل المقدر ناصبا لقولا وقيل خبره من رب رحيم وقرئ سلاما بالنصب على الحالية أى لهم مرادهم سالما خالصا وقرئ سلم وهو بمعنى السلام فى المعنيين .

(وامتازوا اليوم) عطف إما على الجملة السابقة المسوقة لبيان أحوال أهل الجنة لا على أن المقصود عطف فعل الأمر بخصوصه حتى يتحمل له مشاكل يصح عطفه عليه بل على أنه عطف قصة سوء حال هؤلاء وكيفية عقابهم على قصة حسن حال أولئك ووصف ثوابهم كما مر فى قوله تعالى (وبشر الذين آمنوا) الآية وكان تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين الفريقين وحاليهما وإما على مضمير تنساق إليه حكاية حال أهل الجنة كأنه قيل لئلا يبين كونهم فى شغل عظيم الشأن وفوزهم بنعيم مقيم يقصر عنه البيان فليقرأوا بذلك عينا وامتازوا عنهم (أيها المجرمون) إلى مصيركم وعن قتادة اعتزلوا عن كل خير وعن الضحاك لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى ولا يرى وأما ما قيل من أن المضمير فليمتازوا فبمعزل من السداد لما أن المحكى عنهم ليس مصيرهم إلى ما ذكر من الحال المرضية حتى يتسنى ترتيب الأمر المذكور عليه بل إنما هو استقرارهم عليها بالفعل وكون ذلك بطريق تنزيل المتروك منزلة الواقع لا يبعد نفعا لأن مناط الإضمار إنسياق الإفهام إليه وانصباب نظم الكلام عليه فبعد ( ٣٣ - أبو السعود - رابع )

ما نزلت تلك الحالة منزلة الواقع بالفعل لما اقتضاء المقام من النكتة البارعة والحكمة الرائعة حسب ما مر بيانه وأسقط كونها مترتبة عن درجة الاعتبار بالسكينة يكون التصدى لإضهار شيء يتعلق به لإخراجنا للنظم الكريم عن الجزالة بالمرّة.

﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ﴾ من جملة ما يقال لهم بطريق التقرير والإلزام والتبكيك بين الأمر بالامتنياز وبين الأمر بدخول جهنم بقوله تعالى ( اصلوها اليوم ) الخ والعهد [ هو ] <sup>(١)</sup> الوصية والتقدم بأمر فيه خير ومنفعة والمراد ههنا ما كلفهم الله تعالى على السنة الرسل عليهم الصلاة والسلام من الأوامر والنواهي التي من جعلتها قوله تعالى ( يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ) الآية وقوله تعالى ( ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ) وغيرهما من الآيات السريمة الواردة في هذا المعنى وقيل هو الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهور بني آدم وأشهدوا على أنفسهم وقيل هو ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الأمرة بعبادته تعالى الزاجرة عن عبادة غيره والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها ولوقوعها في مقابلة عبادته عز وجل وقرئ أعهد بكسر الهمزة وأعهد بكسر الهاء وأعهد بالحاء مكان العين وأحد بالإدغام وهي لغة بني تميم ﴿ لأنه لكم عدو مبين ﴾ أى ظاهر العداوة وهو تعليل لوجوب الانتهاء عن المنهى عنه وقيل تعليل للنهى .

﴿ وأن اعبدوني ﴾ عطف على أن لا تعبدوا على أن أن فيهما مفسرة للعهد الذي فيه معنى القول بالنهى والأمر أو مصدرية حذف عنها الجار أى ألم أعهد إليكم في ترك عبادة الشيطان وفي عبادتي وتقديم النهى على الأمر لما أن حق التخلية كما في كلمة التوحيد وليتصل به قوله تعالى ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ فإنه إشارة إلى عبادته تعالى التي هي عبارة عن التوحيد والإسلام وهو المشار إليه بقوله تعالى ( هذا صراط على مستقيم ) والمقصود بقوله تعالى ( لا تعبدن لهم صراطك المستقيم )

والتنكير للتفخيم واللام في قوله تعالى ﴿ ولقد أضل منكم جبلا كثيرا ﴾ جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوق لتشديد التوبيخ وتأكيدهم التقرير ببيان أن جنائياتهم ليست بنقص العهد فقط بل به وبعدم الاتعاض بما شاهدوا من العقوبات النازلة على الأمم الخالية بسبب طاعتهم للشيطان فالخطاب لمناخريهم الذين من جملتهم كفار مكة خصوا بزيادة التوبيخ والتقرير لضعاف جنائياتهم والجليل بكسر الجيم والياء وتشديد اللام الخلق وقرىء بضمين وتشديد وضمين وتخفيف وبضمة وسكون وبكسرتين وتخفيف وبكسرة وسكون والكل لغات وقرىء جبلا جمع جملة كفطر وخلق في جمع فطرة وخلق وقرىء جيلا بالياء وهو الصنف من الناس أى وبالله لقد أضل منكم خلقا كثيرا أو صنفا كثيرا عن ذلك الصراط المستقيم الذى أمرتكم بالثبات عليه فأصابهم لأجل ذلك ما أصابهم من العقوبات الهائلة التى ملأ الآفاق أخبارها وبقي مدى الدهر آثارها والفاء فى قوله تعالى ﴿ أفلم تكونوا تعقلون ﴾ للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أن كنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون أنها لضلالهم أو فلم تكونوا تعقلون شيئا أصلا حتى تردعوا عما كانوا عليه كيلا يحق بكم العقاب وقوله تعالى :

﴿ هذه جهنم التى كنتم توعدون ﴾ استئناف يخاطبون به بعد تمام التوبيخ والتقرير والإلزام والتبكيث عند إشرافهم على شفير جهنم أى كنتم توعدونها على أسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام بمقابلة عبادة الشيطان مثل قوله تعالى ﴿ لا ملأن جهنم منك وعن تبعك منهم أجمعين ﴾ وقوله تعالى ﴿ اذهب فن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ﴾ وقوله تعالى ﴿ قال اخرج منها مذموما مدحورا لمن تبعك منهم لا ملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ وغير ذلك مما لا يحصى وقوله تعالى ﴿ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ أمر تنكيل وإهانة كقوله تعالى ﴿ ذق أنك أنت العزيز ﴾ الخ أى ادخلوها من فوق وقاسوا فنون عذابها اليوم بكفركم المستمر فى الدنيا وقوله تعالى ﴿ اليوم نختم على أفواههم ﴾ أى ختما بمنعها عن الكلام التفات إلى الغيبة للإيذان بأن ذكر أحوالهم القبيحة استدعى أن يعرض

عنهم ويحكي أحوالهم الفظيعة لغيرهم مع ما فيه من الإيماء إلى أن ذلك من مقتضيات الختم لأن الخطاب لتلقى الجواب وقد انقطع بالسكينة وقرئ تختتم ﴿ وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ يروى أنهم يمحذون ويخاضمون فيشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرم فيحلفون ما كانوا مشركين فحيثما يختتم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم وفي الحديث يقول العبد يوم القيامة إني لا أجزى على شأدا إلا من نفسى فيختم على فيه ويقال لأركانها انطق فتتطابق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعمسكن كنت أناضل وقيل تكليم الأركان وشهادتها على أفعالها وظهور آثار المعاصى عليها وقرئ وتكلم أيديهم وقرئ ولتكلمنا أيديهم وتشهد بلام كي والنصب على معنى ولذلك تختتم على أفواههم وقرئ ولتكلمنا أيديهم ولتشهد بلام الأمر والجزم ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ﴾ الطمس تعفية شق العين حتى تعود مسوحة ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة التى هى وقوعها شرطاً وكون مفعولها مضمون الجزاء أى لو نشاء أن نطمس على أعينهم لفعلناه وإيثار صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المضى لإفادة أن عدم الطمس على أعينهم لاستمرار عدم المشيئة فإن المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى إفادة انتفاء استمرار انتفائه بحسب المقام كما مر فى قوله تعالى ( ولو يجعل الله للناس الشر استعجالهم بالخير ) ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ أى فأرادوا أن يستبقوا إلى الطريق الذى اعتادوا سلوكه على أن انتصابه بنزع الجار أو هو بتضمنين الاستباق معنى الابتدار أو بالظرفية ﴿ فأنى يصرون ﴾ الطريق وجهة السلوك ﴿ ولو نشاء لمسخنهم ﴾ بتغيير صورهم وإبطال قوامهم ﴿ على مكاتهم ﴾ أى مكانهم إلا أن المكانة أخص كالمقامة والمقام وقرئ على مكاتهم أى لمسخنهم مسخاً يمحدهم مكانهم لا يقدر أن يبرحوه بإقبال ولا إدبار ولا رجوع وذلك قوله تعالى ﴿ فاستبصروا مضيا ولا يرجعون ﴾ أى ولا رجوعاً فوضع موضعه الفعل لمراجعة الفاصلة عن ابن عباس رضى الله عنهما قردة وخنازير وقيل حجارة وعن قيادة لأقدمناهم على أرجلهم وأزمنهم وقرئ مضيا بكسر الميم وفتحها وليس

مساق الشريطتين لمجرد بيان قدرته تعالى على ما ذكر من عقوبة الطمس والمسح بل لبيان أنهم بما هم عليه من الكفر ونقض العهد وعدم الاتعاظ بما شاهدوا من آثار دمار أمثالهم أحقاء بأن يفعل بهم في الدنيا تلك العقوبة كما فعل بهم في الآخرة عقوبة الختم وأن المانع من ذلك ليس إلا عدم تعلق المشيئة الإلهية كأنه قيل لو نشاء عقوبتهم بما ذكر من الطمس والمسح جريا على موجب جنایاتهم المستدعية لها لفعلناها ولكننا لم نشأها جريا على سنن الرحمة والحكمة الداعيتين إلى إمامهم ﴿ومن نعمره﴾ أى نطل عمره ﴿ننكسه في الخلق﴾ أى نقلبه فيه ونخلقه على عكس ما خلقناه أولا فلا يزال يتزايد ضعفه وتتناقص قوته وتتناقص بنيته ويتغير شكله وصورته حتى يعود إلى حالة شبيهة بحال الصبي في ضعف الجسد وقلة العقل والخلو عن الفهم والإدراك وقرىء نكسه من الثلاثي المجرد ونكسه من الإنكاس ﴿أفلا يعقلون﴾ أى أیرون ذلك فلا يعقلون أن من قدر على ذلك يقدر على ما ذكر من الطمس والمسح وأن عدم إيقاعه ما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما وقرىء تعقلون بالثاء لجرى الخطاب قبله ﴿وما علمناه الشعر﴾ رد وإبطال لما كانوا يقولونه في حقه عليه الصلاة والسلام من أنه شاعر وما يقوله شعر أى ما علمناه الشعر بتعليم القرآن على أن القرآن ليس بشعر فإن الشعر كلام متكلف موضوع ومقال مزخرف مصنوع منسوج على منوال الوزن والقافية مبنى على خيالات وأوهام واهية فأين ذلك من التنزيل الجليل الخطر المنزه عن مماثلة كلام البشر المشحون بغفون الحكم والأحكام الباهرة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة ومن أين اشتبه عليهم الشؤن واختلط بهم الظنون قائلهم الله أنى يؤفكون ﴿وما ينبغى له﴾ وما يصح له الشعر ولا يتأتى له لو طلبه أى جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له كما جعلناه أميا لا يهتدى للخط لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض وأما قوله عليه الصلاة والسلام أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب وقوله عليه الصلاة والسلام هل أنت إلا أصبح دميث وفي سبيل الله ما لقيت فمن قبيل الاتفاقات الواردة من غير قصد إليها وعزم على ترتيبها وقيل الضمير في له للقرآن أى وما ينبغى للقرآن

أن يكون شعرا (إن هو) أى ما للقرآن (إلا ذكر) أى عظة من الله عز وجل وإرشاد للثقلين كما قال تعالى (إن هو إلا ذكر للعالمين) (وقرآن مبين) أى كتاب سماوى بين كونه كذلك أو فارق بين الحق والباطل يقرأ فى المحارب ويتلى فى المعابد وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين فكم بينه وبين ما قالوا (لينذر) أى القرآن أو الرسول عليه الصلاة والسلام ويؤيده القراءة بالتاء وقرىء لينذر من نذر به أى عليه ولينذر مبنيا للفعول من الإنذار (من كان حيا) أى عاقلا متأملا فإن الغافل بمنزلة الميت أو مؤمنا فى علم الله تعالى فإن الحياة الأبدية بالإيمان وتخصيص الإنذار به لأنه المنتفع به (ويحق القول) أى تجب كلمة العذاب (على الكافرين) المصيرين على الكفر وفى إيرادهم بمقابلة من كان حيا لإشعار بأنهم مخلوهم عن آثار الحياة وأحكامها التى هى المعرفة أموات فى الحقيقة .

(أولم يروا) الهمة للإنكار والتعجيب والواو للعطف على جملة منفية مقدرة مستتبة للعطوف أى ألم يتفكروا أو ألم يلاحظوا ولم يعلموا علما يقينيا متاخما المعاينة (أنا خلقناهم) أى لأجلهم وانتفاعهم (عما عملت أيدينا) أى بما تولينا إحداثه بالذات وذكر الأيدى وإستناد العمل إليها استعارة تفيد مبالغة فى الاختصاص والتفرد بالأحداث والاعتناء به (أنعاما) مفعول خلقنا وتأخيرته عن الجارين المتعلقين به مع أن حقه التقدم عليهما لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترتبة له فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن لاسيما عند كون المقدم منبثا عن كون المؤخر أمرا نافعا خطيرا كما فى النظم الكريم فإن الجار الأول المحرب عن كون المؤخر من منافعهم والثانى المفصح عن كونه من الأمور الخطيرة يزيدان النفس شوقا إليه ورغبة فيه ولأن فى تأخيرهما جمعا بينه وبين أحكامه المتفرعة عليه بقوله تعالى (فهم لها مالكون) الآيات الثلاث أى نملكناها إياهم وإيثار الجملة الاسمية على ذلك للدلالة على استقرار مالكيتهما واستمرارها واللام متعلقة بمالكون مقوية لعمله أى فهم مالكون لها بتمليكنا

إياها لهم متصرفون فيها بالاستقلال مختصون بالانتفاع بها لا يزاحمهم في ذلك غيرهم أو قادرون على ضبطها متمكنون من التصرف فيها بأقدارنا وتمكيننا وتسخيرنا إياها لهم كما في قول من قال :

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نقرا  
والأول هو الأظهر ليكون قوله تعالى ﴿وذللناها لهم﴾ تأسيساً لنعمة على  
حيالها لا تنمة لما قبلها أى صيرناها منقادة لهم بحيث لا تستعصى عليهم فى شيء  
عما يريدون بها حق الذبح حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿فنها ركوبهم﴾ الخ فإن  
الفاء فيه لتفريع أحكام التذليل عليه وتفصيلها أى فبعض منها ركوبهم أى مركوبهم  
أى معظم منافعها الركوب وعدم التعرض للحمل لكونه من تلمات الركوب وقرئ  
ركوبهم وهى بمعنى كالحلوب والحلوبة وقيل الركوبة اسم جمع وقرئ ركوبهم  
أى ذور ركوبهم ﴿ومنها يأكلون﴾ أى وبعض منها يأكلون لحمه ﴿ولهم فيها﴾  
أى فى الأنعام بكلا قسميها ﴿منافع﴾ آخر غير الركوب والأكل كالجلود  
والأصواف والأوبار وغيرها والحرثاة بالثيران ﴿ومشارب﴾ من اللبن  
جمع مشرب وهذا يحمل ما فصل فى سورة النحل ﴿أفلا يشكرون﴾ أى  
أيشاهدون هذه النعم أو أيقنعون بها فلا يشكرون المنعم بها .

﴿واتخذوا من دون الله﴾ أى متجاوزين الله تعالى الذى شاهدوا تفرد  
بتلك القدرة الباهرة وتفضله عليهم بهاتيك النعم المنظاهرة ﴿آلهة﴾ من  
الأصنام وأشركوها به تعالى فى العبادة ﴿لعلهم ينصرون﴾ رجاء أن ينصروا  
من جبهتهم فيما حز بهم من الأمور أو يشفعوا لهم فى الآخرة وقوله تعالى  
﴿لا يستطيعون نصرهم﴾ الخ استئناف سبق لبيان بطلان رأيهم وخيبة رجائهم  
وانعكاس تدبيرهم أى لا تقدر آلهتهم على نصرهم ﴿وم﴾ أى المشركون ﴿لهم﴾  
أى لآلهتهم ﴿جند محضرون﴾ يشيعونهم عند مساقمهم إلى النار وقيل معدون  
فى الدنيا لحفظهم وخدمتهم والذب عنهم ولا يساعده مساق النظم الكريم فإن  
الفاء فى قوله تعالى ﴿فلا يحزنك قولهم﴾ لترتيب النهى على ما قبله فلا بد أن  
يكون عبارة عن خسرانهم وحرمانهم عما علقوا به أطباعهم الفارغة وانعكاس



الامر عليهم بترتب الشر على ما رتبوه لرجاء الخبر فإن ذلك مما يهون الخطب ويورث السلوة وأما كونهم معدين لخدمتهم وحفظهم فبمعزل من ذلك والنهى وإن كان بحسب الظاهر متوجها إلى قولهم لكننه فى الحقيقة متوجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى له عليه السلام عن التأثر منه بطريق الكناية على أبلغ وجه وأكدده فإن النهى عن أسباب الشئ ومبادئه المؤدية إليه نهى عنه بالطريق البرهاني وإبطال للسببية وقد يوجه النهى إلى المسبب ويراد النهى عن السبب كما فى قوله لا أرينك هنا يريد به نهى مخاطبه عن الحضور لديه والمراد بقولهم ما ينبى عنه ما ذكر من اتخاذهم الأصنام آلهة فإن ذلك مما لا يخلو عن التفوه بقولهم هؤلاء آلهتنا وأنهم شركاء لله سبحانه فى المعبودية وغير ذلك مما يورث الحزن وقرىء يحزنك بضم الياء وكسر الزاى من أحزن المنقول من حزن اللازم وقوله تعالى :

﴿ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ تعليل صريح للنهى بطريق الاستثناف بعد تعليله بطريق الإشعار فإن العلم بما ذكر مستلزم للمجازاة قطعا أى إنا نجازيهم بجميع جنائياتهم الخافية والبادية التى لا يعزب عن علمنا شئ منها وفيه فضل تسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتقديم السر على العلن إما للمبالغة فى بيان شمول علمه تعالى لجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع استوائهما فى الحقيقة فإن علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شئ فى نفسه علم بالنسبة إليه تعالى وفى هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والسكينة وإما لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شئ يعلن إلا وهو أو مبادئه مضمرة فى القلب قبل ذلك فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقة .

﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان إنكارهم البعث بعد ما شاهدوا فى أنفسهم أوضح دلائله وأعدل شواهدهم كما أن ما سبق مسوق لبيان بطلان لإشراكهم بالله تعالى بعد ما عينوا فيما بأيديهم ما يوجب التوحيد والإسلام وأما ما قيل من أنه تسليية ثانية لرسول الله صلى الله

عليه وسلم يتهوّن ما يقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر فكلا والهمزة للإنكار والتعجيب والواو للعطف على جملة مقدرة هي مستتعبة للعطوف كما مر في الجملة الإنكارية السابقة أى ألم يتفكر الإنسان ولم يعلم علما يقينيا أنا خلقناه من نطفة الخ أو هي عين الجملة السابقة أعيدت تأكيداً للنكير السابق وتمهيداً للإنكار ما هو أحق منه بالإنكار والتعجيب لما أن المنكر هناك عدم علمهم بما يتعلق بخلق أسباب معاشهم وههنا عدم علمهم بما يتعلق بخلق أنفسهم ولا ريب في أن علم الإنسان بأحوال نفسه أهم وإحاطته بها أسهل وأكمل فالإنكار والتعجيب من الإخلال بذلك أدخل كأنه قيل ألم يعلموا خلقه تعالى لأسباب معاشهم ولم يعلموا خلقه تعالى لأنفسهم أيضاً مع كون العلم بذلك في غاية الظهور ونهاية الأهمية على معنى أن المنكر الأول بعيد قبيح والثاني أبعد وأقبح ويجوز أن تكون الواو لعطف الجملة الإنكارية الثانية على الأولى على أنها متقدمة في الاعتبار وأن تقدم الهمزة عليها لاقتضاها الصدارة في الكلام كما هو رأى الجمهور وإيراد الإنسان مورد الضمير لأن مدار الإنكار متعلق بأحواله من حيث هو إنسان كما في قوله تعالى (أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) وقوله تعالى :

﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ أى شديد الخصومة والجدال بالباطل عطف على الجملة المنفية داخل في حيز الإنكار والتعجيب كأنه قيل أولم ير أنا خلقناه من أحسن الأشياء وأمرها ففاجأ خصومتنا في أمر يشهد بصحته وتحققه مبدأ فطرته شهادة بينة وإيراد الجملة الاسمية للدلالة على استقراره في الخصومة واستمراره عليها روى أن جماعة من كفار قريش منهم أبى بن خلف الجهمى وأبو جهل والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا في ذلك فقال لهم أبى بن خلف ألا ترون إلى ما يقول محمد إن الله يبعث الأموات ثم قال واللات والعزى لأصيرن إليه ولأخصمنه وأخذ عظماء بالبا لجعل يفته بيده ويقول يا محمد أترى الله يحى هذا بعد ما رم (١) قال صلى الله عليه وسلم نعم ويبعثك ويدخلك جهنم فأنزلت

وقيل معنى قوله تعالى (فإذا هو خصيم مبين) فإذا هو بعد ما كان ماء مهينا رجل  
يميز منطابق قادر على الخصام مبين معرب عما في نفسه فصيح فهو حيثما معطوف  
على خلقنا غير داخل تحت الإنكار والتعجب بل هو من متهات شواهد صحة  
البعث فقوله تعالى ﴿وضرب لنا مثلا﴾ معطوف حيثما على الجملة المتضمنة داخل  
في حيز الإنكار والتقيح وأما على التقدير الأول فهو عطف على الجملة الفجائية  
والمعنى ففاجأ خصومتنا وضرب لنا مثلا أى أورد في شأننا قصة عجيبة في نفس  
الامر هي في الغرابة والبعد عن العقول كالمثل وهي إنكار لإحيائنا العظام أو  
قصة عجيبة في زعمه واستبعادها وعددها من قبيل المثل وأنكرها أشد الإنكار  
وهي إحيائنا إياها وجعل لنا مثلا ونظيرا من الخلق وقاس قدرتنا على قدرتهم  
ونفى الكل على العموم وقوله تعالى ﴿ونسى خلقه﴾ أى خلقنا إياه على الوجه  
المذكور الدال على بطلان ما ضربه إما عطف على ضرب داخل في حيز الإنكار  
والتعجب أو حال من فاعله يا ضار قد أو بدونه وقوله تعالى :

﴿ قال ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية ضربه المثل كأنه  
قيل أى مثل ضرب أو ماذا قال فقيل قال ﴿من يحيى العظام ﴾ منكرأ له أشد  
النكير مؤكدا له بقوله تعالى ﴿وهى رميم ﴾ أى بالية أشد البلى بعيدة من الحياة  
غاية البعد فالمثل على الأول هو إنكار لإحيائه تعالى للعظام فإنه أمر عجيب  
في نفس الامر حقيق لغرابته وبعده من العقول بأن يعد مثلا ضرورة جزم  
العقول ببطلان الإنكار ووقوع المنكر لكونه كالإنشاء بل أهون منه في قياس  
العقل وعلى الثانى هو إحيائه تعالى لها فإنه أمر عجيب في زعمه قد استبعد وعده  
من قبيل المثل وأنكره أشد الإنكار مع أنه في نفس الامر أقرب شيء من  
الوقوع لما سبق من كونه مثل الإنشاء أو أهون منه وأما على الثالث فلا فرق  
بين أن يكون المثل هو الإنكار أو المنكر وعدم تأييد الرميم مع وقوعه خبرا  
للؤنث لأنه اسم لما بلى من العظام غير صفة كالرفات وقد تمسك بظاهر الآية  
الكريمة من أثبت للعظم حياة وبني عليه الحكم بنجاسة عظم الميتة وأما أصحابنا  
فلا يقولون بحياته كالشعر ويقولون المراد بإحياء العظام ردها إلى ما كانت عليه

من الغضاضة والرطوبة في بدن حي حساس ﴿ قل ﴾ تبكيئنا له بتذكير ما نسيه من فطرته الدالة على حقيقة الحال وإرشاده إلى طريقة الاستشهاد بها ﴿ يحيبها الذي أنشأها أول مرة ﴾ فإن قدرته كما هي لاستحالة التغير فيها والمادة على حالها ﴿ وهو بكل خلق عليم ﴾ مبالغ في العلم بتفاصيل كيفية الخلق والإيجاد وإنشاء وإعادة محيط بجميع الأجزاء المتفتحة المتبددة لكل شخص من الأشخاص أصولها وفروعها وأوضاع بعضها من بعض من الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق فيعيد كلا من ذلك على النمط السابق مع القوى التي كانت قبل والجملة إما اعتراض تذييلي مقرر لمضمون الجواب أو معطوفة على الصلة والعندول إلى الجملة الاسمية للتنبيه على أن عليه تعالى بما ذكر أمر مستمر ليس بإنشائه للإنشآت وقوله تعالى :

﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا ﴾ بدل من الموصول الأول وعدم الاكتفاء بعطف صلته على صلته للتأكيد ولتفاوتهما في كيفية الدلالة أى خلق لأجلكم ومنفعتكم منه نارا على أن الجمل إبداعي والجاران متعلقان به قدما على مفعوله الصريح مع تأخرهما عنه رتبة لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ووصف الشجر بالأخضر نظراً إلى اللفظ وقد قرئـهـ الخضراء نظراً إلى المعنى وهو المرخ والعفار يقطع الرجل منهما عصيتين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أثنى فتندح النار باذن الله تعالى وذلك قوله تعالى ﴿ فاذا أتم منه توقدون ﴾ فن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائنة المضادة لها بكيفيته كان أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضا فطراً عليه اليوسة والبل وقوله تعالى ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض ﴾ الخ استئناف مسوق من جهته عز وجل لتحقيق مضمون الجواب الذي أمر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبهم بذلك ويلزمهم الحججة والهمزة للإنكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألبس الذي أنشأها أول مرة وليس الذي جعل لهم من الشجر الأخضر نارا وليس الذي خلق السموات والأرض مع كبر جرهما

وعظم شأنهما ﴿بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ في الصغر والقهارة بالنسبة إليهما فإن بديهية العقل قاضية بأن من قدر على خلقهما فهو على خلق الأناسى أقدر كما قال تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من الناس) وقرىء يقدر وقوله تعالى ﴿بلى﴾ جواب من جهته تعالى وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكارى من تقرير ما بعد النفي وإيدان بتعين الجواب نطقوا به أو تلعثموا فيه مخافة الإلزام وقوله تعالى ﴿وهو الخلاق العليم﴾ عطف على ما يفيد الإيجاب أى بلى هو قادر على ذلك وهو المبالغ في الخلق والعلم كيفاً وكماً ﴿إنما أمره﴾ أى شأنه ﴿إذا أراد شيئاً﴾ من الأشياء ﴿أن يقول له كن﴾ أى أن يعلق به قدرته ﴿فيكون﴾ فيحدث من غير توقف على شيء آخر أصلاً وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى فيما أراده بأمر الأمر المطاع المأمور المطيع في سرعة حصول المأمور به من غير توقف على شيء ما وقرىء فيكون بالنصب عطفاً على يقول ﴿فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء﴾ تنزيه له عز وعلا عما وصفوه تعالى به وتعجيب بما قالوا في شأنه تعالى وقد مر تحقيق معنى سبحان وإفاء للإشارة إلى أن ما فصل من شأنه تعالى موجبة لتنزيهه وتنزيهه أكل لإيجاب كما أن وصفه تعالى بالمالكية الكلية المطلقة للإشعار بأنها مقتضية لذلك أتم اقتضاء والملكوت مبالغة في الملك كالرحموت والرهبوت وقرىء ملكة كل شيء وملك كل شيء وملك كل شيء ﴿وإليه ترجعون﴾ لا إلى غيره وقرىء ترجعون بفتح التاء من الرجوع وفيه من الوعد والوعيد ما لا يخفى . عن ابن عباس رضى الله عنهما كشت لا أعلم ما روى في فضائل يس وقراءتها كيف خصت بذلك فإذا أنه لهذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لكل شيء قلباً وإن قلب القرآن يس من قرأها يريد بها وجه الله تعالى غفر الله له وأعطى من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة وأيما مسلم قرىء عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفواً يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته يصلون عليه ويشهدون دفنه وأيما مسلم قرأ يس وهو في سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يحيطه رضوان

خازن الجنة بشربة من شراب الجنة فيشربها وهو على فراشه فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان ويمكث في قبره وهو ريان ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم إن في القرآن سورة تشفع لقارئها وتستغفر لمستمعها ألا وهي سورة يس .

\*\*\*

### سورة الصافات ﴿٣٥﴾

مكية ، وآياتها مائة وإحدى أو اثنتان وثمانون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿والصافات صفا﴾ لإقسام من الله عز وجل بطوائف الملائكة الفاعلات للصفوف على أن المراد لإيقاع نفس الفعل من غير قصد إلى المفعول أو الصافات أنفسها أي الناظلات أنفسها أي الناظلات لها في سلك الصفوف بقيامها في مقاماتها المعلومة حسبما ينطق به قوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) وعلى هذين المعنيين مدار قوله تعالى (ولما نحن الصافون) وقيل الصافات أقدامها في الصلاة . وقيل أجنحتها في الهواء ﴿ فالزاجرات زجرا ﴾ أي الفاعلات للزجر أو الزاجرات لما ينط بها زجره من الأجرام العلوية والسفلية وغيرها على وجه يليق بالزجور ومن جملة ذلك زجر العباد عن المعاصي وزجر الشياطين عن الوسوسة والإغواء وعن استراق السمع كما سيأتي وصفا وزجرامصدران مؤكدان لما قبلهما أي صفا بديعا وزجرا بليغا وأما ذكرنا في قوله تعالى : ﴿ فالتاليات ذكرا ﴾ ففعل التاليات ذكرنا عظيم الشأن من آيات الله تعالى . وكتبه المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وخبرها من التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد وقيل هو أيضاً مصدر مؤكد لما قبله فإن التلاوة من باب . المذكور ثم إن هذه الصفات إن أجريت على الشكل فمقطعها بالقاء للدلالة على

ترتيبها في الفضل إما بكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة أو على العكس. وإن أجريت كل واحدة منهن على طوائف معينة فهو للدلالة على ترتيب الموصوفات في مراتب الفضل بمعنى أن طوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل والتاليات أبهر فضلاً أو على العكس وقيل المراد بالمذكورات نفوس العلماء العمال الصافات أنفسها في صفوف الجماعات وأقدامها في الصلوات والزاجرات بالمواظع والنصائح التاليات آيات الله تعالى الدارسات شرائعه وأحكامه وقيل طوائف الغزاة الصافات أنفسهم في مواطن الحروب كأنهم ببيان مرصوص أو طوائف قوادهم الصافات لهم فيها الزاجرات الخيل للجهاد سوقاً والعدو في المعارك طرداً لتاليات آيات الله تعالى وذكره وتسييحه في تضاعيف ذلك والكلام في العطف ودلالته على ترتيب الصفات في الفضل أو ترتيب موصوفاتها فيه كالذي سلف وأما الدلالة على الترتيب في الوجود كما في قوله :

يا لهف زبانة للحرث الصابج فالغائم فالأيب

فغير ظاهرة في شيء من الطوائف المذكورة فإنه لو سلم تقدم الصف على الزجر في الملائكة والغزاة فتأخر التلاوة عن الزجر غير ظاهر وقيل الصافات الطير من قوله تعالى والطير صافات والزاجرات كل ما يزجر عن المعاصي والتاليات كل من يتلو كتاب الله تعالى وقيل الزاجرات القوارع القرآنية وقرىء بأدغام التاء في الصاد والزاي والذال .

(إن إلهكم لواحد) جواب للقسم والجملة لتحقيق للحق الذي هو التوحيد بما هو المؤلف في كلامهم من التأكيد القسمي وتمهيد لما يعقبه من البرهان الناطق به أعنى قوله تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق) فإن وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع من أوضاع دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وأعدل شواهد وحدته كما مر في قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ورب خبر ثان لأن أو خبر لمبتدأ محذوف أى مالك السموات والأرض وما بينهما من الموجودات ومربها ومبلغها إلى كالاتها والمراد بالمشارق

مشارك الشمس وإعادة الرب فيها لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجدها كل يوم فإنها ثلثائة وستون مشرقا تشرق كل يوم من مشرق منها وبحسبها تختلف المغارب وتغرب كل يوم في مغرب منها وأما قوله تعالى (رب المشرقين ورب المغربين) فهما مشرقا الصيف والشتاء ومغربهما (لأنا زينا السماء الدنيا) أى القربى منكم (بزينة) عجيبة بديعة (الكواكب) بالجر بدل من زينة على أن المراد بها الاسم أى ما يزان به لا المصدر فإن الكواكب بأنفسها وأوضاع بعضها من بعض زينة وأى زينة وقرئ بالإضافة على أنها بيان لما أن الزينة مهمة صادقة على كل ما يزان به فتقع الكواكب بيانا لها ويجوز أن يراد بزينة الكواكب ما زينت هى به وهو ضوؤها وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما بزينة الكواكب بضوء الكواكب هذا وإما على تقدير كون الزينة مصدرا فالمعنى على تقدير إضافتها الى الفاعل بأن زانت الكواكب إياها وأصله بزينة الكواكب وعلى تقدير إضافتها الى المفعول بأن زان الله الكواكب وحسبها وأصله بزينة الكواكب والمراد هو التزيين فى رأى<sup>(١)</sup> العين فإن جميع الكواكب من الثوابت والسيارات تبدو للناظرين كأنها جواهر متلألئة فى سطح سماء الدنيا بصور بديعة وأشكال رائعة ولا يقدح فى ذلك ارتكاز الثوابت فى الفلك الثامن وما عدا القمر فى الستة المتوسطة إن ثبت ذلك .

(وحفظا) منصوب إما بعطفه على زينة باعتبار المعنى كأنه قيل أنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظا (من كل شيطان مارد) أى خارج عن الطاعة برى الشهب وأما باضمار فعله وإما بتقدير فعل مؤخر معلل به كأنه قيل وحفظا من كل شيطان مارد زينها بالكواكب كقوله تعالى (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) وقوله تعالى (لا يسمعون الى الملائ الأعلى) كلام مبتدأ مسوق لبيان حالهم بعد بيان حفظ السماء عنهم مع التنبيه على كيفية الحفظ وما يعترهم فى أثناء ذلك من العذاب ولا سبيل الى جعله صفة لكل



شيطان ولا جوابا عن سؤال مقدر لعدم استقامة المعنى ولا علة للحفظ على أن يكون الأصل لثلاثا يسمعون الحذف اللام كما حذف من قولك جئتكم أن تكرمنى فبقى أن لا يسمعون ثم يحذف أن ويهدر عملها كما فى قول من قال :

« ألا لهذا الزاجرى أحضر الوضى »

لما أن كل واحد من ذينك الحذفين غير منكر بانفراده فأما اجتماعهما فمن أنكر المنكرات التى يجب تنزيه ساحة التنزيل الجليل عن أمثالها وأصل يسمعون يقسمعون والملائكة الأعلى الملائكة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هم الكتبة وعنه أشرف الملائكة عليهم الصلاة والسلام أى لا يتطلبون السماع والإصغاء إليهم وقرئ يسمعون بالتخفيف (( ويقذفون )) يرمون (( من كل جانب )) من جميع جوانب السماء إذا قصدوا الصعود إليها (( دحورا )) علة للقذف أى للدحور وهو الطرد أو حال بمعنى مدحورين أو مصدر مؤكد له لأنهما من واحد واحد وقرئ دحورا بفتح الدال أى قدفا دحورا مبالغا فى الطرد وقد جوز أن يكون مصدرا كالقبول والولوع (( ولهم عذاب واصب )) أى ولهم فى الآخرة غير ما فى الدنيا من عذاب الرجم بالشهب عذاب شديد دائم غير منقطع كقوله تعالى (( وأعدنا لهم عذاب السعير )) (( إلا من خطف الخطفة )) استثناء من واو يسمعون ومن بدل منه والخطف الاختلاس والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقه كما يعرب عنه تعريف الخطفة وقرئ بكسر الحاء والطاء المشددة وفتح الحاء وكسر الطاء وتشديدها وأصلهما اختطف (( فأتبعه شهاب )) أى تبعه ولحقه وقرئ فأتبعه والشهاب ما يرى منقضا من السماء (( ثاقب )) مضى فى الغاية كأنه يثقب الجيوبضائه يرجم به الشياطين إذا صعدوا لاستراق السمع فيقتلهم أو يحرقهم أو يخبلهم قالوا وإنما يعود من يسلم منهم حيا طمعا فى السلامة ونيل المراد كواكب السفينة (( فاستنجمهم )) فاستنجمهم مشركى مكة (( أم أشد خلقا )) أى أقوى خلقا وأمتن بنية أو أصعب خلقا وأشق لإيجادا (( أم من خلقنا )) من الملائكة والسماء والأرض وما بينهما والمشارق والكواكب والشهب الثواقب ومن

لتغليب العقلاء على غيرهم ويدل عليه إطلاقه ومجيئه بعد ذلك لاسيما قراءة من قرأ أم من عددنا وقوله تعالى :

(إنا خلقناهم من طين لازب) فإنه الفارق بينهم وبينها لا بينهم وبين من قبلهم من الأمم كعاد وثمود ولأن المراد إثبات المعاد ورد استحالتهم والأمر فيه بالإضافة إليهم وإلى من قبلهم سواء وقرئ لازم ولا تب (بل عجبت) أى من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم للبعث (ويسخرون) من تعجبك وتقريرك للبعث وقرئ بضم التاء على معنى أنه بلغ كمال قدرتي وكثرة مخلوقاتي إلى حيث عجبت منها وهؤلاء لجهلهم يسخرون منها أو عجبت من أن ينكروا البعث عن هذه أفعاليه<sup>(١)</sup> ويسخروا بمن يحوزه والعجب من الله تعالى إما على الفرض والتخييل أو على معنى الاستعظام اللازم له فإنه روعة تعجز الإنسان عند استعظام الشيء وقيل لأنه مقدر بالقول أى قل يا محمد بل عجبت (وإذاذكروا) أى ودأبهم المستمر أنهم إذا وعظوا بشيء من المواعظ (لا يذكرون) لا يتعظون وإذا ذكر لهم ما يدل على صحة البعث لا يلتفتون به لغاية بلادتهم وقصور فكرهم (وإذا رأوا آية) أى معجزة تدل على صدق القائل به (يسسخرون) يبالغون فى السخرية ويقولون إنه سحر أو يسندعى بعضهم من بعض أن يسخر منها (وقالوا إنا هذا) أى ما يروونه من الآيات الباهرة (إلا سحر مبين) ظاهر سحره (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما) أى كان بعض أجزائنا ترابا وبعضها عظاما وتقديم التراب لأنه منقلب من الأجزاء البادية والعامل فى إذا ما دل عليه مبعوثون فى قوله تعالى :

(أئنا لمبعوثون) أى نبعث لا أنفسه لأن دونه خطوبا لو تفرد واحد منها لكفى فى المنع وتقديم الظرف لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إلى حالة

(١) فى ١٤ : أضاله .

منافية له غاية المنافاة وكذا تكرير الهمزة في أثنا للمبالغة والتشديد في ذلك وكذا تحلية الجملة بأن واللام لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم الكريم فإن تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما في مثل قوله تعالى (أفلا تعقلون) على رأى الجمهور فإن المعنى عندهم تعقيب الإنكار لا إنكار التعقيب كما هو المشهور وقرئ بطرح الهمزة الأولى وبطرح الثانية فقط (أو آباؤنا الأولون) رفع على الابتداء وخبره محذوف عند سيبويه أى وآباؤنا الأولون أيضاً مبعوثون وقيل عطف على محل إن واسمها وقيل على الضمير فى مبعوثون للفصل بهمزة الإنكار الجارية مجرى حرف النفى فى قوله تعالى (ما أشركنا ولا آباؤنا) وأياً ما كان فرادهم زيادة الاستبعاد بناء على أنهم أقدم فبعثهم أبعد على زعمهم وقرئ أو آباؤنا .

(قل) تبكيثا لهم (نعم) والخطاب فى قوله تعالى (وأنتم داخرون) لهم ولآبائهم بطريق التغليب والجملة حال من فاعل ما دل عليه نعم أى كلكم مبعوثون والحال أنكم صاغرون أذلاء وقرئ نعم بكسر العين وهى لغة فيه (فإنما هى زجرة واحدة) هى إما ضمير مهم يفسره خبره أو ضمير البعثة والجملة جواب شرط مضمرة أو تعليل لنهى مقدر أى إذا كان كذلك فإنما هى الخ أو لا تستصعبوه فإنما هى الخ والزجرة الصيحة من زجر الراعى غنمه إذا صاح عليها وهى النفخة الثانية (فإذا هم) قائمون من مرادهم أحياء (ينظرون) يبصرون كما كانوا أو ينتظرون ما يفعل بهم (وقالوا) أى المبعوثون وصيغة الماضى للدلالة على التحقق والتقرر (يا ويلنا) أى هلاكنا احضر فهذا أو ان حضورك وقوله تعالى (هذا يوم الدين) تعليل لدعائهم الويل بطريق الاستئناف أى اليوم الذى نجازى فيه بأعمالنا وإنما علموا ذلك لأنهم كانوا يسمعون فى الدنيا أنهم يعيشون ويماسبون ويمجرون بأعمالهم فلما شاهدوا البعث أيقنوا بما بعده أيضاً وقوله تعالى (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) كلام الملائكة جواباً لهم بطريق التوبيخ والتقريع وقيل هو أيضاً من كلام بعضهم لبعض والفصل القضاء أو الفرق بين فرق الهدى والضلال وقوله تعالى

(احشروا الذين ظلموا) خطاب من الله عز وجل للملائكة أو من بعضهم لبعض بحشر الظلمة من مقامهم إلى الموقف وقيل من الموقف إلى الجحيم (وأزواجهم) أى أشباههم ونظراءهم من العصاة عابد الصنم مع عبده وعابد الكوكب مع عبده كقوله تعالى (وكنتم أزواجا ثلاثة) وقيل قرناءهم من الشياطين وقيل نساءهم اللاتي على دينهم .

(وما كانوا يعبدون من دون الله) من الأصنام ونحوها زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم قيل هو عام مخصوص بقوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) الآية الكريمة وأنت خير بأن الموصول عبارة عن المشركين خاصة جيء به لتعليل الحكم بما في حيز صلته فلا عموم ولا تخصيص (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) أى عرفوهم طريقها ووجهوهم إليها وفيه نهك بهم (وقفوهم) احبسوهم في الموقف كأن الملائكة سارعوا إلى ما أمروا به من حشرهم إلى الجحيم فأمرؤا بذلك وعلل بقوله تعالى (لأنهم مسئولون) أيذانا من أول الأمر بأن ذلك ليس للعفو عنهم ولا لستر يحوا بتأخير العذاب في الجملة بل ليسألوا لكن لا عن عقائدهم وأعمالهم كما قيل فإن ذلك قد وقع قبل الأمر بهم إلى الجحيم بل عما ينطق به قوله تعالى (ما لكم لا تنصرون) بطريق التوبيخ والتفريع والتهكم أى لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم تزعمون في الدنيا وتأخير هذا السؤال إلى ذلك الوقت لأنه وقت تنجز<sup>(١)</sup> العذاب وشدة الحاجة إلى النصرة وحالة انقطاع الرجاء عنها بالكلية فالتوبيخ والتفريع حينئذ أشد وقعا وتأثرا قرىء لا تتناصرون ولا تناصرون بالإدغام (بل هم اليوم مستسلمون) منقادون خاضعون لظهور عجزهم وإسداد باب الحمل عليهم أو أسلم بعضهم بعضا وخذله عن عجز فكلهم غير منتصر .

(وأقبل) حينئذ (بعضهم على بعض) هم الاتباع والرؤساء أو الكفرة والقرناء (يتساءلون) يسأل بعضهم بعضا سؤال توبيخ بطريق الخصومة

والجدال ﴿ قالوا ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية تساؤلهم كأنه قيل كيف تساءلون ف قيل قالوا أى الاتباع للرؤساء أو الكل للقرناء ﴿ لأنكم كنتم تأتوننا ﴾ فى الدنيا ﴿ عن اليمين ﴾ عن أقوى الوجوه وأمتنها أو عن الدين أو عن الخير كأنكم تنفعوننا نفع السائح فنبعناكم فلهذا كنا مستعارين من يمين الإنسان الذى هو أشرف الجانبين وأقوامها وأنفعهما ولذلك سمي يميناً ويتيمن بالسائح أو عن القوة والقسر فتقسر ونا على الفى وهو الأوفق للجواب أو عن الحلف حيث كانوا يحلفون أنهم على الحق .

﴿ قالوا ﴾ استئناف كما سبق أى قال الرؤساء أو القرناء ﴿ بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ أى لم نمنعكم من الإيمان بل لم تؤمنوا باختياركم وأعرضتم عنه مع تمسكنكم منه وآثرتم الكفر عليه ﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ من قهر وتسلط نسلبكم به اختياركم ﴿ بل كنتم قوما طاغين ﴾ مختارين للطغيان مصرين عليه ﴿ فحق علينا ﴾ أى لزمنا وثبت علينا ﴿ قول ربنا ﴾ وهو قوله تعالى ﴿ لا ملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين ﴾ ﴿ إنا لذائقون ﴾ أى العذاب الذى ورد به الوعيد ﴿ فأغويناكم ﴾ فدعوناكم إلى الفى دعوة غير ملجئة فاستجبتم لنا باختياركم واستجابكم الفى على الرشد ﴿ إنا كنا غاوين ﴾ فلا عتب علينا فى تعرضنا لإغوائكم بتلك المرتبة من الدعوة لتكونوا أمثالنا فى الغواية ﴿ فإنهم ﴾ أى الاتباع والمتبوعين ﴿ يؤمئذ فى العذاب مشتركون ﴾ حسبا كانوا مشتركين فى الغواية ﴿ إنا كذلك ﴾ أى مثل ذلك الفعل البديع الذى تقتضيه الحكمة التشريعية ﴿ نفعل بالمجرمين ﴾ المتناهين فى الإجرام وهم المشركون كما يعرب عنه التعليل بقوله تعالى ﴿ لأنهم كانوا إذا قيل لهم ﴾ بطريق الدعوة والتلقين ﴿ لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ عن القبول ﴿ ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ رد عليهم وشكك فيهم ببيان أن ما جله به من التوحيد هو الحق الذى قام به البرهان وأجمع عليه كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام فأين الشعر والجنون من ساحته الرفيعة ﴿ لأنكم ﴾ بما فعلتم من الإشراك وتكذيب الرسول عليه الصلاة

والسلام والاستكبار ﴿ لذائقوا العذاب الأليم ﴾ والالتفات لإظهار كمال الغضب عليهم وقرئ بنصب العذاب على تقدير التوّن كقوله ولا ذاكر الله إلا قليلا وقرئ لذائقون العذاب على الأصل ﴿ وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ أى الإجزاء ما كنتم تعملونه من السيئات أو إلا بما كنتم تعملونه منها .

﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ استثناء منقطع من ضمير ذائقوا وما بينهما اعتراض جىء به مسارعة إلى تحقيق الحق ببيان أن ذوقهم العذاب ليس إلا من جهتهم لا من جهة غيرهم أصلا وجعله استثناء من ضمير تجزون على معنى أن الكفرة لا يجزون إلا بقدر أعمالهم دون عباد الله المخلصين فإنهم يجزون أضعافا مضاعفة مما لا وجه له أصلا لاسيما جعله استثناء متصلا بتعميم الخطاب في تجزون لجميع المكلفين فإنه ليس في حيز الاحتمال فالمعنى إنكم لذائقون العذاب الأليم لكن عباد الله المخلصين المرحدين ليسوا كذلك وقوله تعالى ﴿ أولئك ﴾ إشارة إليهم للإيذان بأنهم عتازون بما اتصفوا به من الإخلاص في عبادة الله تعالى عن عدايم امتياز بالغاً منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو طبقته وبعد منزلتهم في الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ لهم ﴾ إما خبر له وقوله تعالى ﴿ رزق ﴾ مرتفع على الفاعلية بما فيه من الاستقرار أو مبتدأ ولهم خبر مقدم والجملة خبر لأولئك والجملة الكبرى استئناف مبين لما أفاده الاستثناء إجمالاً بيانا تفصيلياً وقيل هى خبر للاستثناء المنقطع على أنه متأول بالمبتدأ (١) وقوله تعالى ﴿ معلوم ﴾ أى معلوم الخصائص من حسن المنظر ولذة الطعم وطيب الرائحة ونحوها من نعوت الكمال وقيل معلوم الوقت كقوله تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) وقوله تعالى ﴿ فواكه ﴾ إما بدل من رزق أو خبر مبتدأ مضمّر أى ذلك الرزق فواكه وتخصيصها بالذكر لأن أرزاق أهل

الجنة كلها فواكه أى ما يؤكل لجرد التلذذ دون الاقتيات لأنهم مستغنون عن القوت لكون خلفتهم محكمة محفوظة من التحلل المحوج إلى البدل وقيل لأن المواكه من أتباع سائر الأطعمة فذكرها مغن عن ذكرها ﴿ وهم مكرمون ﴾ عند الله عز وجل لا يلحقهم هوان وذلك أعظم المثوبات وأليقها بأولى المهم وقيل مكرمون فى نيله حيث يصل إليهم بغير تعب وسؤال كما هو شأن أرزاق الدنيا وقرىء مكرمون بالتشديد ﴿ فى جنات النعيم ﴾ أى فى جنات ليس فيها إلا النعيم وهو ظارف أو حال من المستسكن فى مكرمون أو خبر ثان لأولئك وقوله تعالى ﴿ على سرر ﴾ محتمل للحالية والخبرية فقوله تعالى ﴿ متقابلين ﴾ حال من المستسكن فيه أو فى مكرمون وقوله تعالى ﴿ يطاق عليهم ﴾ إما استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية تسكمن مجالس أنسهم أو حال من الضمير فى متقابلين أو فى أحد الجارين وقد جوز كونه صفة لمكرمون ﴿ بكأس ﴾ بإناء فيه خمر أو بخمر فإن الكأس تطلق عن نفس الخمر كما فى قول من قال :

وكأس شربت على لذة وأخرى تدوايت منها بها

﴿ من معين ﴾ متعلق بمضمهر هو صفة لكأس أى كائنة من شراب معين أو من نهر معين وهو الجارى على وجه الأرض الظاهر للعيون أو الخارج من العيون من عان الماء إذا نبع وصف به الخمر وهو الماء لأنها تجرى فى الجنة فى أنهار كما يجرى الماء قال تعالى وأنهار من خمر ﴿ بيضاء لذة للشاربين ﴾ صفتان أيضا لكأس ووصفها بلذة إما للمبالغة كأنها نفس اللذة أو لأنها تأنيث اللذ بمعنى اللذيذ ووزنه فعل قال :

ولذ كطعم الصرخدى تركته بأرض العدا من خيفة الحدثنان  
يريد النوم ﴿ لا فيها غول ﴾ أى غائلة كما فى خمر الدنيا من غاله إذا أفسده وأهلكه ومنه الغول ﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ يسكرون من نزف الشارب فهو نزيف ومنزوف إذا ذهب عقله ويقال للمطعمون نزف فوات إذا جرح دمه كله أفرد هذا بالنفى مع اندراجها فيما قبله من نفي الغول عنها لما أنه من معظم مفسد

الخمر كأنه جلس برأسه والمعنى لافئها نوع من أنواع الفساد من مفسد أو صداع أو خمار أو عريضة أو لغو أو تأثيم ولا هم يسكرون وقرىء ينزفون بكسر الزاى من أنزف الشارب إذا نفذ عقله أو شرابه وقرىء ينزفون بضم الزاى من نزف ينزف بضم الزاى فيهما ﴿وعندهم قاصرات الطرف﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمددن طرفاً إلى غيرهم ﴿عين﴾ نجعل العيون جمع عيناء والنجل سعة العين ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ شبهن ببيض النعام المصون من الغبار ونحوه في الصفاء واليباض المخلوط بأدنى صفرة فإن ذلك أحسن ألوان الأبدان ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتسألون﴾ معطوف على يطاف أى يشربون فيتحدثون على الشراب كما هو عادة الشراب قال :

وما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام

فيقبل بعضهم على بعض يتسألون عن الفضائل والمعارف وعما جرى لهم وعليهم في الدنيا بالتعبير عنه بصيغة الماضي للتأكيد والدلالة على تحقق الوقوع حتماً ﴿قال قائل منهم﴾ في تضاعيف محاوراتهم ﴿إني كان لى﴾ في الدنيا ﴿قرين﴾ مصاحب ﴿يقول﴾ لى على طريقة التوبيخ بما كنت عليه من الإيمان والتصديق بالبعث ﴿أنتك لمن المصدقين﴾ أى بالبعث وقرىء بتشديد الصاد من التصديق والاول هو الاوفق لقوله تعالى ﴿أهذا متناه وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون﴾ أى لمبعوثون ومجزيون من الدين بمعنى الجزاء أو لمسوسون يقال دانه أى ساسه ومنه الحديث «العاقل من دان نفسه» وقيل كان رجل تصدق بماله لوجه الله تعالى فاحتاج فاستجدى بعض إخوانه فقال ابن مالك قال تصدقت به ليعوضنى الله تعالى في الآخرة خيراً منه فقال أنتك لمن المصدقين بيوم الدين أو المصدقين لطلب الثواب والله لا أعطيك شيئاً فيكون التعرض لذكر موتهم وكونهم تراباً وعظاماً حينئذ لتأكيد إنكار الجزاء المبني على إنكار البعث ﴿قال﴾ أى ذلك القائل بعد ما حكى لجلسائه مقال قرينه في الدنيا ﴿هل أنتم مطلعون﴾ أى إلى أهل النار لا أريكم ذلك القرين يريد بذلك بيان صدقه فيما حكماء وقيل القائل هو الله تعالى أو بعض الملائكة يقول لهم هل تحبون أن تطاعوا على أهل النار



لأريكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم قيل إن في الجنة كوى ينظر  
منها أهلها إلى أهل النار (فاطلع) أى عليهم (فراه) أى قرينه (في سواء  
الجحيم) أى في وسطها وقرىء فاطلع على لفظ المضارع المنصوب وقرىء  
مطلعون فاطلع وفاطلع بالتخفيف على لفظ الماضى والمضارع المنصوب يقال  
طلع علينا فلان وأطلع وبمعنى واحد والمعنى هل أنتم مطلعون إلى القرين فاطلع  
أنا أيضاً أو عوض عليهم الإطلاع فقبلوا ما عرضه فاطلع هو بعد ذلك وإن  
جعل الإطلاع متعدياً فالمعنى أنه لما شرط في إطلاعه إطلاعهم كما هو ديدن  
الجناساء فكأنهم مطلعوه وقيل الخطاب على هذا للملائكة وقرىء مطلعون  
بكسر النون أرادته مطلعون لإيادى فوضع المتصل موضع المنفصل كقوله هم  
الفاعلون الخير والأمرونه أو شبه اسم الفاعل بالمضارع لما بينهما من التأخر.  
(قال) أى القائل مخاطباً لقرينه (تافقه إن كدت لتردين) أى تهلكنى  
بالإغواء وقرىء لتغوين والتاء فيه معنى التعجب وإن هى الخففة من أن وضمير  
الشان الذى هو اسمها محذوف والإلام فارقة أى تافقه أن الشان كدت لتردين  
(ولولا نعمة ربى) بالهداية والعصمة (لكنت من المحضرين) أى من الذين  
أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأضرابك وقوله تعالى (أفأنحن بميتين)  
رجوع إلى معاورة جلساته بعد إتمام الكلام مع قرينه تبجعا وابتهاجا بما أناح  
الله عز وجل لهم من الفضل العظيم والتعظيم المقيم والهمزة للتقدير وفيها معنى  
التعجب والفاء للعطف على مقدر يقتضيه نظم الكلام أى نحن مخلصون منعمون  
فما نحن بميتين أى بمن شأنه الموت وقرىء بمائتين (إلا موتنا الأولى) التى  
كانت فى الدنيا وهى متناولة لما فى القبر بعد الإحياء للسؤال قاله تصديقا لقوله  
تعالى (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) وقيل إن أهل الجنة أول ما دخلوا  
الجنة لا يعلمون أنهم لا يموتون فإذا جئهم بالموت على صورة كبش أملح فذبح  
ونودى يا أهل الجنة تخلصوا فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت يعلمونه  
فيقولون ذلك ثم ندنا بنعمة الله تعالى واعتباطها بها (وما نحن بمعدين) كالكفار  
فإن النجاة من العذاب أيضاً نعمة جليلة مستوجبة للتحصن بها (إن هذا) أى

الأمر العظيم الذى نحن فيه ﴿هو الفوز العظيم﴾ وقيل هو من قول الله عز وجل تقريراً لقولهم وتصديقاً له وقرئ هو الرزق العظيم وهو ما رزقوه من السعادة العظمى ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ أى لنيل هذا المرام الجليل يجب أن يعمل العاملون لا للحفظ الديوية السريعة الانصرام المشوبة بفنون الآلام وهذا أيضاً يحتمل أن يكون من كلام رب العزة ﴿أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم﴾ أصل النزل الفضل والريع فاستعير للحاصل من الشيء فانتصابه على التمييز أى أذلك الرزق المعلوم الذى حاصله اللذة والسرور خير نزلاً أم شجرة الزقوم التى حاصلها الألم والغم ويقال النزل لما يقام وبها من الطعام الحاضر للنازل فانتصابه على الحالية والمعنى أن الرزق المعلوم نزل أهل الجنة وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم فأيهما خير فى كونه نزلاً والزقوم اسم شجرة صغيرة الورق دفرة مرة كريهة الرائحة تكون فى تهامة سميت به الشجرة الموصوفة ﴿إنا جعلناها فتنه للظالمين﴾ محنة وعذاباً لهم فى الآخرة وابتلاء فى الدنيا فإنهم لما سمعوا أنها فى النار قالوا كيف يمكن ذلك والنار تحرق الشجر ولم يعلموا أن أن من قدر على خلق حيوان يعيش فى النار ويتلذذ بها أقدر على خلق الشجر فى النار وحفظه من الاحتراق<sup>(١)</sup>.

﴿إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم﴾ منبتها فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها وقرئ نابتة فى أصل الجحيم ﴿طلعها﴾ أى حملها الذى يخرج منها مستعار فى طلع النخلة لمشاركته له من الشكل والطلع من الشجر قالوا أول القمر طلع ثم خلال ثم بلح ثم رطب ثم تمر ﴿كأنه رؤوس الشياطين﴾ فى تناهى القبح وال هول وهو تشبيه بالخجل كتشبيه الفائق فى الحسن بالملك وقيل الشياطين الحيات الهائلة القبيحة المنظر لها أعراف وقيل إن شجراً يقال له الاستن خشناً منتناً مرا منكر الصورة يسمى ثمرة رؤس الشياطين ﴿فإنهم لا كلون منها﴾ أى من الشجرة أو من طلوعها فالتأنيث مكتسب من المضاف إليه ﴿فمالتون منها﴾

البطون) لغلبة الجوع أو للقسر على أكلها وإن كرهوها ليكون ذلك بابا من العذاب .

(ثم إن لهم عليها) على الشجرة التي ملأوا منها بطونهم بعد ما شبعوا منها وغلبيهم العطش وطال استسقاؤهم كما ينبيء عنه كلمة ثم ويجوز أن تكون لما في شرايبهم من مزيد الكراهة والبشاعة (لشوبا من حميم) لشرايا من غساق أو صديد مشوبا بماء حميم يقطع أمعاءهم وقرىء بالضم وهو اسم لما يشاب به والأول مصدر سمي به (ثم إن مرجعهم) أى مصيرهم وقد قرىء كذلك (إلى الجحيم) إلى دركانها أو إلى نفسها فإن الزقوم والحميم نزل يقدم إليهم قبل دخولها وقيل الحميم خارج عنها لقوله تعالى ( هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) يذهب بهم عن مقارم ومنازلهم في الجحيم إلى شجرة الزقوم فيأكلون منها إلى أن يمتثلوا ثم يسقون من الحميم ثم يردون إلى الجحيم ويؤيده أنه قرىء ثم إن منقلبهم (لأنهم ألفوا آباءهم ضالين) تعليل لاستحقاقهم ما ذكر من فنون العذاب بتقليد الآباء في الدين من غير أن يكون لهم ولا لأبائهم شيء يتمسك به أصلا أى وجدوم ضالين في نفس الأمر ليس لهم ما يصلح شبهة فضلا عن صلاحية الدليل (فهم على آثارهم يهرعون) من غير أن يتدبروا أنهم على الحق أولا مع ظهور كونهم على الباطل بأذى تأمل والإهراع الإسراع الشديد كأنهم يزعمون ويحشون حشا على الإسراع على آثارهم وقيل هو الإسراع فيه شبه رعدة .

(ولقد ضل قبلهم) أى قبل قومك قريش (أكثر الأولين) من الأمم السالفة وهو جواب قسم محذوف وكذا قوله تعالى (ولقد أرسلنا فيهم منذرين) أى أنبياء أولى عدد كثير وذوى شأن خطير يبتوا لهم بطلان ما هم عليه وأنذروهم عاقبة الوخيمة وتكرير القسم لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كل من المجتلين (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) من الهول والفظاعة لما لم يلتفتوا إلى الإنذار ولم يرفعوا له رأسا والخطاب إما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يتمكن من مشاهدة آثارهم وحيث كان المعنى أنهم أهلكوا إهلاكا

فظيما استثنى منهم المخلصون بقوله تعالى ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أى الذين أخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للإيمان والعمل بموجب الإنذار وقرىء المخلصين بكسر اللام أى الذين أخلصوا دينهم لله تعالى ﴿ولقد نادانا نوح﴾ نوع تفصيل لما أجمل فيما قبل ببيان أحوال بعض المرسلين وحسن عاقبتهم متضمن لبيان سوء عاقبة بعض المنذرين حسبا أشير إليه بقوله تعالى ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ كقوم نوح وآل فرعون وقوم لوط وقوم إلياس ولييان حسن عاقبة بعضهم الذين أخلصهم الله تعالى ووقفهم للإيمان كما أشار إليه الاستثناء كقوم يونس عليه السلام ووجه تقديم قصة نوح على سائر القصص غنى عن البيان واللام جواب قسم محذوف وكذا ما فى قوله تعالى ﴿فلنعم المجبيون﴾ أى وبالله لقد دعانا نوح حين يش من إيمان قومه بعد مادعاهم إليه أحقابا ودهورا فلم يردهم دعاؤه إلا فرارا ونفورا فأجبتنا أحسن الإجابة فوالله لنعم المجبيون نحن لحذف ما حذف ثقة بدلالة ما ذكر عليه واجمع دليل العظمة والكبرياء .

﴿ونجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ أى من الغرق وقيل من أذية قومه ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ فحسب حيث أهلكتنا الكفرة بموجب دعائه ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾ وقد روى أنه مات كل من كان معه فى السفينة غير أبنائه وأزواجهم أو هم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة قال قتادة الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام وكان له ثلاثة أولاد سام وحام ويافت فسام أبو العرب وفارس والروم وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب ويافت أبو الترك وبأجوج وماجوج ﴿وتركنا عليه فى الآخرين﴾ من الأمم ﴿سلام على نوح﴾ أى هذا الكلام بعينه وهو وارد على الحكاية كقولك قرأت سورة أنزلناها والمعنى يسلمون عليه تسليما ويدعون له على الدوام أمة بعد أمة وقيل ثمة قول مقدر أى فقلنا وقيل ضمن تركنا معنى قلنا وقوله تعالى ﴿فى العالمين﴾ متعلق بالجار والمجرور ومعناه الدعاء بثبات هذه التحية واستمرارها أبدا فى العالمين من الملائكة والثققلين جميعا وقوله تعالى ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ تعليل لما فعل به عليه الصلاة والسلام من التكرمة السنية من

إجابة دعائه أحسن إجابة وإبقاء ذريته وتبقيه ذكره الجميل وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بكونه من زمرة المعروفين بالإحسان الراشدين فيه وأن ذلك من قبيل مجازاة الإحسان بالإحسان وذلك إشارة إلى ما ذكر من الكرامات السفية التي وقعت جزاء له عليه الصلاة والسلام وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيدان بعلو رتبته وبعد منزلته في الفضل والشرف والكاف متعلقة بما بعدها أي مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي السكاملين في الإحسان لا جزاء أدنى منه وقوله تعالى ﴿لأنه من عبادنا المؤمنين﴾ تعليل لكونه من المحسنين بخلاص عبوديته وكمال إيمانه وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما ما لا يخفى ﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾ أي المغايرين لنوح وأهله وهم كفار قومه أجمعين ﴿ولمن من شيعته﴾ أي من شايعة في أصول الدين ﴿لإبراهيم﴾ وإن اختلفت فروع شرائعها ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق كلي أو أكثر وعن ابن عباس رضي الله عنهما من أهل دينه وعلى سنته أو من شايعة على التصلب في دين الله ومصاهرة المكذبين وما كان بينهما إلا نبيان (هما) <sup>(١)</sup> هود وصالح عليهم (الصلاة) <sup>(٢)</sup> والسلام وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة ﴿إذ جاء ربه﴾ منصوب بإذ كر أو متعلق بما في الشيعة من معنى المشايعة ﴿بقلب سليم﴾ أي من آفات القلوب أو من العلائق الشاغلة عن التبتل إلى الله عز وجل ومعنى المجيء به ربه إخلاصه له كئانه جاء به متحفا إياه بطريق التمثيل ﴿إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون﴾ بدل من الأولى أو ظرف لجاء أو لسليم أي أي شيء تعبدونه ﴿أنفكا آلهة دون الله ترويدون﴾ أي أتريدون آلهة من دون الله إفسكا أي للإفك فقدم المفعول على الفعل للعناية ثم المفعول له على المفعول به لأن الأهم مكافئهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم ويجوز أن يكون إفسكا مفعولا به بمعنى أتريدون إفسكا ثم يفسر الإفك بقوله آلهة من دون الله دلالة على أنها إفك في نفسها للمبالغة أو يراد بها عبادتها بجذف المضاف ويجوز أن

يكون حالا بمعنى آفكين (فما ظنكم برب العالمين) أى بمن هو حقيق بالعبادة لكونه ربا للعالمين حتى تركتم عبادته خاصة وأشركتم به أخس مخلوقاته أو فما ظنكم به أى شيء هو من الأشياء حتى جعلتم الأصنام له أندادا أو فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم بعد ما فعلتم من الإثراك به (فنظر نظرة في النجوم) قبل كانت له عليه الصلاة والسلام حتى لها نوبة معينة في بعض ساعات الليل فنظر ليعرف هل هي تلك الساعة فإذا هي قد حضرت (فقال إني سقيم) وكان صادقا في ذلك فجعله عذرا في تخلفه عن عيدهم وقيل أراد إني سقيم القلب لكفركم وقيل نظر في علمها أو في كتبها أو في أحكامها ولا منع من ذلك حيث كان قصده عليه الصلاة والسلام إيهامهم حين أرادوا أن يخرجوا به عليه الصلاة والسلام إلى معيدهم ليركوه فإن القوم كانوا نجامين فأوهمهم أنه قد استدل بأماراة في علم النجوم على أنه سقيم أى مشارف للسقم وهو الطاعون وكان أغلب الأسقام عليهم وكانوا يخافون العدوى ليتفرقوا عنه فربوا منه إلى معيدهم وتركوه في بيت الأصنام وذلك قوله تعالى (فتولوا عنه مدبرين) أى هاربين مخافة العدوى (فراغ إلى آلهتهم) أى ذهب إليها في خفية وأصله الميل بحيلة (فقال) للأصنام استهزاء (ألا تاكلون) أى من الطعام الذى كانوا يصنعونه عندها لتبرك عليه (مالكم لا تنطقون) أى بجوابي (فراغ عليهم) قال مستعليا عليهم وقوله تعالى (ضربا باليمين) مصدر مؤكد لراغ عليهم فإنه بمعنى ضربهم أو لفعل مضمر هو حال من فاعله أى فراغ عليهم يضربهم ضربا أو هو الحال منه على أنه مصدر بمعنى الفاعل أى فراغ عليهم ضاربا باليمين أى ضربا شديدا قويا وذلك لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدّهما وقوة الآلة تقتضى قوة الفعل وشدته وقيل بالقوة والمثانة كما في قوله :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

أى بالقوة وعلى ذلك مدار تسمية الخلف باليمين لأنه يقوى الكلام ويؤكده وقيل بسبب الخلف وهو قوله تعالى (وتأبى لا كيدن أصنامكم) .

( فأقبلوا إليه ) أى المأمورون بإحضاره عليه الصلاة والسلام بعد ما رجعوا من عيدهم إلى بيت الأصنام فوجدوها مكسورة فسألوا عن الفاعل فظنوا أنه عليه الصلاة والسلام فعلمه فقيل فأتوا به ( يزفون ) حال من واو أقبلوا أى يسرعون من زفيف النعام وقرىء يزفون من أرزف إذا دخل فى الزفيف أو من أرزه أى حمله على الزفيف أى يزف بعضهم بعضا يزفون على البناء للمفعول أى يحملون على الزفيف يزفون من وزف يزف إذا أسرع يزفون من زفاه إذا حدها كأن بعضهم يزفو بعضها لتسارعهم إليه عليه الصلاة والسلام ( قال ) أى بعد ما أتوا به عليه الصلاة والسلام وجرى بينه صلى الله عليه وسلم وبينهم من المحاورات ما نطق به قوله تعالى ( قالوا أأنت فعلت هذا بأهتنا يا إبراهيم ) إلى قوله تعالى ( لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ) ( أنعبدون ما تنحتون ) ما تنحتونه من الأصنام وقوله تعالى :

( والله خلقكم وما تعملون ) حال من فاعل تعبدون مؤكدة للإنكار والتوبيخ أى والحال أنه تعالى خلقكم وخلق ما تعملونه فإن جواهر أصنامهم ومادتها بخلقه تعالى وشكلها وإن كان بفعلهم لكن به إقداره تعالى لإيائهم عليه وخلقهم ما يتوقف عليه فعلهم من الدواعى والعدد والأسباب وما تعملون إما عبارة عن الأصنام فوضعه موضع ضمير ما تنحتون للإيدان بأن مخلوقيتها لله عز وجل ليس من حيث نحتهم لها فقط بل من حيث سائر أعمالهم أيضاً من التصوير والتحلية والتزيين ونحوها وإما على عمومها فينظم الأصنام انتظاماً أولياً مع ما فيه من تحقيق الحق ببيان أن جميع ما يعملونه كائن ما كان مخلوق له سبحانه وقيل ما مصدرية أى عملكم على أنه بمعنى المفعول وقيل بمعناه فإن فعلهم إذا كان بمخلق الله تعالى كان مفعولهم المتوقف على فعلهم أولى بذلك ( قالوا ) ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ) أى فى النار الشديدة الانتقاد من الجحمة وهى شدة التأجج واللام عوض من المضاعف إليه أى جحيم ذلك البيان وقد ذكر كيفية بنائهم له فى سورة الأنبياء ( فأرادوا به كيدا ) فإنه عليه الصلاة والسلام لما قهرهم بالحجة وألغى عنهم الحجر قصدوا ما قصدوا لئلا يظهر للعامة عجزهم

( فجعلناهم الأسفلين ) الأذلين يابطال كيدهم وجعله برهانا نيرا علو على شأنه عليه الصلاة والسلام يجعل النار عليه ردا وسلاما ( وقال إني ذاهب إلى ربي ) أى مهاجر إلى حيث أمرني ربي كما قال إني مهاجر إلى ربي وهو الشام أو إلى حيث أنجز فيه لعبادته تعالى ( سيهدين ) أى إلى ما فيه صلاح ديني أو إلى مقصدي. وبت القول بذلك لسبق الوعد أو لفرط توكله أو للبناء على عادته تعالى معه ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث قال ( عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ) ولذلك أنى بصيغة التوقع .

( رب هب لي من الصالحين ) أى بعض الصالحين يعينني على الدعوة والطاعة ويؤنسني في الغربة يعنى الولد لأن لفظ الهبة على الإطلاق خاص به وإن كان قد ورد مقيدا بالأخوة في قوله تعالى ( ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا ) ولقوله تعالى ( فبشرناه بغلام حليم ) فإنه صريح في أن المبشر به عين ما استوهمه عليه الصلاة والسلام ولقد جمع فيه بشارات ثلاث بشارة أنه غلام وأنه يبلغ أو أن الحلم وأنه يكون حليما وأى حلم يعادل حلمه عليه الصلاة والسلام حين عرض عليه أبوه الذبيح فقال ( يا أبت افعل ما تؤمر - ستجدني إن شاء الله من الصابرين ) وقيل ما نعت الله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأقل مما نعتهم بالحلم لعزة وجوده غير إبراهيم وإبنه فإنه تعالى نعتهما به وجاهلها المحكية بعد أعدل بينه بذلك .

#### قصة الذبيح

والفاء في قوله تعالى ( فلما بلغ معه السعى ) فصيحة معربة عن مقدر قد حذف تعويلا على شهادة الحال وإيذانا بعدم الحاجة إلى التصريح به لاستحالة التخلط والتأخر بعد البشارة كما مر في قوله تعالى ( فلما رأيته أكبرته ) وفي قوله تعالى ( فلما رآه مستقرا عنده ) أى فوهبناه له فتشأ قلبا بلغ رتبة أن يسعى معه في أشغاله وحواله ومعه متعلق بمحذوف يعني عنه السعى لا بنفسه لأن خلة المصدر لا تتقدمه ولا يبلغ لأن يبلغهما لم يكن معا. كأنه لما ذكر السعى قيل مع من فقبل معه وتخصيصه لأن لا يبلغ كل نفس القوة والاستصلاح فلا يستسيغه



قيل أو أنه أو لانه استوهبه لذلك وكان له يومئذ ثلاث عشر سنة .

( قال ) أى إبراهيم عليه السلام ( يا بنى لانى أرى فى المنام أنى أذبحك )  
أى أرى هذه الصورة بعينها أو ما هذه عبارته وتأويله وقيل لانه رأى ليلة  
التروية كأن قاتلا يقول له إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح روى فى  
ذلك من الصباح إلى الراوح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان فن ثمة سعى يوم  
التروية فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله تعالى فن ثمة سعى يوم عرفة  
ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى اليوم يوم النحر وقيل إن الملائكة  
حين بشرته بسلام حلیم قال إذن هو ذبيح الله فلما ولد وبلغ حد السجى معه قيل  
له أوف بنذكرك . والأظهر الأشهر أن المخاطب لإسماعيل عليه السلام إذ هو الذى  
وهب أثر المهاجرة ولأن البشارة بأسحق بعده معطوف على البشارة بهذا الغلام  
ولقوله عليه الصلاة والسلام أنا ابن الذبيحين فأحدهما جده لإسماعيل عليه السلام  
والآخر أبوه عبد الله فإن عبد المطلب نذر أن يذبح ولدا أن سهل الله تعالى له  
حفر بئر زمزم أو بلغ بنوه عشرة فلما حصل ذلك وخرج السهم على عبد الله  
فداه بمائة من الإبل ولذلك سنت الدية مائة ولأن ذلك كان بمكة وكان قرنا  
الكبش معلقين بالكعبة حتى احترقا فى أيام ابن الزبير ولم يكن أسحق ثمة  
ولأن بشارة لإسحق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه فلا يناسبه الأمر بذيجه  
مراهما وما روى أنه عليه الصلاة والسلام سئل أى النسب أشرف فقال  
يوسف صديق الله ابن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم  
خليل الله فالصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال يوسف بن إسحق بن إبراهيم  
والزوائد من الراوى وما روى من أن يعقوب كتب إلى يوسف مثل ذلك لم  
يثبت وقرئ لى بفتح الياء فيهما .

( فانظر ماذا ترى ) من رأى وإنما شاوره فيه وهو أمر محتوم ليعلم  
ما عنده فيما نزل من بلاء الله تعالى فيثبت قدمه إن جزع ويأمن عليه إن سلم  
ويؤبطن نفسه عليه فيهن ويكتسب المثوبة عليه بالانقياد له قبل نزوله وقرئ  
ملأنا نرى بفتح التاء وكسر الراء ويفتحها مبنيا للمفعول ( قال يا أبا

ما تؤمر ﴿ أى تؤمر به فحذف الجار أولا على القاعدة المطردة ثم حذف العائد إلى الموصول بعد انقلابه منصوبا بإيصاله الى الفعل أو حذفاً دفعة أو أفعلاً أمرَك على إضافة المصدر إلى المفعول وتسمية المأمور به أمراً وقرئ ما تؤمر به وصيغة المضارع للدلالة على أن الأمر متعلق به متوجه إليه مستمر إلى حين الامتثال به .

﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ على الذبح أو على قضاء الله تعالى ﴿ فلما أسلما ﴾ أى استسلما لأمر الله تعالى وانقادا وخضعا له يقال سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد وقرئ بهن جميعاً وأصلها من قولك سلم هذا لفلان إذا خلص له ومعناه سلم من أن ينازع فيه وقولهم سلم لأمر الله وأسلم له منقولان منه ومعناها أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه له تعالى وعن قتادة رضى الله عنه فى أسلما أسلم إبراهيم ابنه وإسماعيل نفسه ﴿ وتله للجبين ﴾ صرعه على شقه فوق جبينه على الأرض (١) وهو أحد جانبي الجبهة وقيل كبه على وجهه بإشارته كيلا يرى منه ما يورث رقة تحول بينه وبين أمر الله تعالى وكان ذلك عند الصخرة من منى وقيل فى الموضع المشرف على مسجد منى وقيل فى المنحر الذى ينحر اليوم فيه ﴿ ولأديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ بالعزم على الاتيان بالمأمور به وترتيب مقدماته وقد روى أنه أمر السكينة بقوته على حلقة مراراً فلم يقطع ثم وضع السكينة على قفاه فانقلب السكينة فعند ذلك وقع النداء وجواب لما محذوف إيذاناً بعدم وفاء التعبير بتفاصيله كأنه قيل كان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان من استبشارهما وشكرهما لله تعالى على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق لما لم يوفق أحد لئله وإظهار فضلها بذلك على العالمين مع إحراز الثواب العظيم إلى غير ذلك ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ تعليل لتفريج

(١) فى ١١ : فوق على جبينه .

تلك السكرة عنهما بإحسانهما واحتج به من جوز النسخ قبل وقوع المأمور به فإنه عليه الصلاة والسلام كان مأمورا بالذبح لقوله تعالى ( افعل ما تؤمر ) ولم يحصل ﴿ إن هذا هو البلاء المبين ﴾ الذي يتميز فيه المخلص عن غيره أو المحنة البينة الصعوبة إذ لا شيء أصعب منها ﴿ وفديناه بذبح ﴾ بما يذبح بدله فيتم به الفعل ﴿ عظيم ﴾ أى عظيم الجنة سمين أو عظيم القدر لأنه يفدى به الله نبياً ابن نبي من نسله سيد المرسلين قيل كان ذلك كبشاً من الجنة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه الكبش الذى قرب به هابيل فتقبل منه وكان يرعى في الجنة حتى فدى به إسماعيل عليه السلام وقيل فدى بوعل أهبط عليه من ثبير وروى أنه هرب من إبراهيم عليه السلام عند الجرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فبقى سنة في الرمي وروى أنه رمى الشيطان حين تعرض له بالسوسة عند ذبح ولده وروى أنه لما ذبحه قال جبريل عليه السلام الله أكبر الله أكبر فقال الذبيح لا إله إلا الله والله أكبر فقال إبراهيم الله أكبر والله الحمد فبقى سنة والفادى في الحقيقة هو إبراهيم وإنما قيل وفديناه لأنه تعالى هو المعطى له والامر به على التجوز في الفداء أو الإسناد ﴿ وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم ﴾ قد سلف بيانه في خاتمة قصة نوح عليه السلام ﴿ كذلك نجزي المحسنين ﴾ ذلك إشارة إلى إبقاء ذكره الجميل فيما بين الأمم لا إلى ما أشير إليه فيما سبق فلا تكرار وعدم تصدير الجملة يأنى للاكتفاء بما مر آنفاً ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ الراغبين في الإيمان على وجهه الإيقان والاطمئنان .

#### سلالة إبراهيم

﴿ وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين ﴾ أى مقصنيا بقبوته مقدراً كونه من الصالحين وبهذا الاعتبار وقعا حالين ولا حاجة إلى وجود المبشر به وقت الإشارة فإن وجود ذى الحال ليس بشرط وإنما الشرط مقارنة تعلق الفعل به لأعتبار معنى الحال فلا حاجة إلى تقدير مضاف يجعل عاملاً فيهما مثل وبشرناه بوجود إسحق بأن يوجد إسحق نبياً من الصالحين ومع ذلك لا يصير نظير قوله تعالى ( فادخلوها خالدين ) فإن الداخلين كانوا مقدرين تخلودهم وقت الدخول

واسحق عليه السلام لم يكن مقدرا نبوة نفسه وصلاحها حين ما يوجد ومن  
فسر الغلام باسحق جعل المقصود من الإشارة نبوته عليه الصلاة والسلام وفي  
ذكر الصلاح بعد تعظيم لشأنه وإيماء الى أنه الغاية لما انضمها معنى السجال  
والتكميل بالفعل على الإطلاق .

( وباركنا عليه ) على ابراهيم في أولاده ( وعلى اسحق ) بأن أخرجنا  
من صلبه أنبياء بنى إسرائيل وغيرهم كايوب وشعيب عليهم السلام أو أفضنا  
عليهما بركات الدين والدنيا وقرىء وبركنا ( ومن ذريتهما محسن ) في عمله  
أو لنفسه بالإيمان والطاعة ( وظالم لنفسه ) بالكفر والمعاصي ( مبين )  
ظاهر ظلمه وفيه تنبيه على أن النسب لا تأثير له في الهداية والضلال وأن الظلم  
في أعقابهما لا يعود عليهما بتهمة ولا عيب ( ولقد متنا على موسى وهرون )  
أى أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من النعم الدينية والدنيوية ( ونجيناهما  
وقومهما ) وهم بنو إسرائيل ( من الكرب العظيم ) هو ملكة آل فرعون  
وتسلطهم عليهم بالوان الذشم والعذاب كما في قوله تعالى ( وإذا أنجيناهم من آل  
فرعون ) وقيل هو الفرق وهو بعيد لأنه لم يكن عليهم كربا ومشقة .

( ونصرناهم ) أى أياهما وقومهما على عدوهم ( فكانوا ) بسبب ذلك  
( هم الغالبين ) عليهم غلبة لا غاية وراءها بعد أن كان قومهما في أمرهم وقسرم  
مقهورين تحت أيديهم العادية يسومونهم سوء العذاب وهذه التنجية وإن كانت  
بحسب الوجود مقارنة لما ذكر من النصر والغلبة لسكنها لما كانت بحسب  
المفهوم عبارة عن التخليص من المسكروه بدىء بها ثم بالنصر الذي يتحقق بدلوله  
بمحض تنجية المنصور من عدوه من غير تغلبه عليه ثم بالغلبة التوفية مقام  
الامتنان حقه بإظهار أن كل مرتبة من هذه المراتب الثلاث نعمة جليلة على  
حيالها ( وآتيناهما ) بعد ذلك ( الكتاب المستبين ) أى البليغ في البيان  
والتفصيل وهو التوراة ( وهديناهما ) بذلك ( الصراط المستقيم ) الموصل  
إلى الحق والصواب بما فيه من تفاصيل الشرائع وتفاريح الأحكام ( وتركنا  
عليهما في الآخرين سلام على موسى وهرون ) أى أبقينا فيما بين الأمم الآخرين

هذا الذكر الجميل والثناء الجزيل ﴿لنا كذلك﴾ الجزء الكامل ﴿نجزى المحسنين﴾ الذين هما من جعلتهم لاجزاء قاصرا عنه ﴿لأنهما من عبادنا المؤمنين﴾ سبق بيانه ﴿وإن إلياس لمن المرسلين﴾ هو إلياس بن ياسين من سبط هرون أخى موسى عليهم السلام بعث بعده وقيل لإدريس لأنه قرىء مكانه لإدريس وإدريس وقرىء إيليس وقرىء إلياس بحذف الهمزة ﴿إذ قال لقومه ألا تتقون﴾ أى عذاب الله تعالى .

﴿أتدعون بعلا﴾ أتعبدونه وتطلبون الخير منه وهو اسم صنم كان لأهل بك من الشام وهو البلد المعروف اليوم ببلبك قبل كان من ذهب طوله عشرون ذراعاً وله أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى أخذموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء فكان الشيطان يدخل جوفه ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وقيل البعل الرب بلغة اليمن أى أتعبدون بعض البعول ﴿وتذرون أحسن الخالقين﴾ أى وتتركون عبادته وقد أشير إلى المقتضى للإسكار المعنى بالهزة ثم صرح به بقوله تعالى ﴿الله ربكم ورب آبائكم الاولين﴾ بالنصب على البدلية من أحسن الخالقين وقرىء بالرفع على الابتداء والتعرض لذكر ربوبيته تعالى لا باتهم لتأكيد إنكار تركهم عبادته تعالى والإشعار بطلان آراء آبائهم أيضاً ﴿فكذبوه فإنهم﴾ بسبب تكذيبهم ذلك ﴿لمحضرون﴾ أى العذاب والاطلاق للاكتفاء بالقرائن على أن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرقاً ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ استثناء من ضمير محضرون ﴿وتركنا﴾ جليلة فى الآخرين سلام على الياسين ﴿هو لغة فى الياس كسيناء فى سينين وقيل هو جمع له أريد به هو وأتباعه كالملمين والخبيدين وفيه أن العلم إذا جمع يجب تفرقه كالمثابين وقرىء بإضافة آل إلى ياسين لأنهما فى المصحف مفصولان فيكون ﴿لنا كذلك﴾ نجزي المحسنين لأنه من عبادنا المؤمنين ﴿وإن لوطاً من المرسلين إذ نجينا﴾ أى اذكروا وقت تنجيننا لإياه ﴿وأهل أجمعين﴾ إلا يجوز أن فى الغابرين أى الباقين فى العذاب أو المساكين .

﴿ثم دمرنا الآخرين﴾ فإن في ذلك شراهد عل جليلة أمره وكونه من جملة المرسلين ﴿ولأنكم﴾ يا أهل مكة ﴿تقرءون عليهم﴾ على منازلهم في متاجرهم إلى الشام وتشاهدون آثار هلاكهم فإن سدوم في طريق الشام ﴿مصبحين﴾ داخلين في الصباح ﴿وبالليل﴾ أي ومساء أهم نهارا وليلا ولعلها وقعت بقرب منزل يمر بها المرتجل عنه صباحا والمقاصد له مساء ﴿أفلا تعقلون﴾ أنشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ وقرىء بكسر النون ﴿إذ أبق﴾ أي هرب وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه حسن لإطلاقه عليه ﴿إلى الفلك المشحون﴾ أي المملوء ﴿فسام﴾ فقارع أهله ﴿فكان من المدحضين﴾ غصار من المغلوبين بالقرعة وأصله المزلق عن مقام الظفر روى أنه عليه الصلاة والسلام لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل أن يأمره الله تعالى به فركب السفينة فوقفت فقال فيها عبد أبق فاقترعوا فخرجت القرعة عليه فقال أنا الأبق ورمى بنفسه <sup>(١)</sup> في الماء ﴿فالتقمه الحوت﴾ فابتلعه من اللقمة وهو حليم ﴿داخل في الملامة أو آت بما يلام عليه أو ملئم نفسه وقرىء ملئم بالفتح مبذيا من ليم كمشيب في مشوب﴾ فلولا أنه كان من المسبحين ﴿الذاكرين﴾ الله كثيرا بالتسبيح مدة عمره أو في بطن الحوت وهو قوله (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) وقيل من الظالمين فإنه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة في الرخاء ﴿للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ حيا وقيل ميتا وفيه حث على كثرة الذكر وتعظيم شأنه ومن أقبل عليه في السراء أحد بيده عند الضراء ﴿فتبذناه بالعراء﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه بالمكان الخالي عما يغطيه من شجر أو نبت روى أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس عليه السلام ويسبح ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر فلفظه سالما لم يتغير منه شيء فأسلموا وروى أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل واختلف في مقدار لبثه

فَقِيلَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا وَقِيلَ عَشْرُونَ وَقِيلَ سَبْعَةٌ وَقِيلَ ثَلَاثَةٌ وَقِيلَ لَمْ يَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ بَطْنِهِ بَعِيدَ الْوَقْتِ الَّذِي التَّقَمَ فِيهِ رَوَى عَطَاءٌ أَنَّهُ حِينَ ابْتَلَعَهُ أَوْحَى إِلَهُ تَعَالَى إِلَى الْحَوْتِ إِنِّي جَعَلْتُ بَطْنَكَ لِي سَجِينًا وَلَمْ أَجْعَلْهُ لَكَ طَعَامًا ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ عَمَّا نَالَهُ قِيلَ صَارَ بَدَنُهُ كَبَدَنِ الْغُلْفِ حِينَ يُولَدُ ﴿ وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ ﴾ أَيْ فَوْقَهُ مِظْلَةً عَلَيْهِ ﴿ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ وَهُوَ كُلُّ مَا يَنْبَسِطُ عَلَى الْأَرْضِ وَلَا يَقُومُ عَلَى سَاقٍ كَشَجَرِ الْبَطِيخِ وَالْقَنْاءِ وَالْحَنْظَلِ وَهُوَ يَفْعِيلُ مِنْ قَطْنٍ بِالْمَسْكَنِ إِذَا أَقَامَ بِهِ وَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّهُ الدَّبَاءُ غَطَتْهُ بِأَوْرَاقِهَا عَنِ الذَّبَابِ فَإِنَّهُ لَا يَقَعُ عَلَيْهِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّكَ تَحِبُّ الْقَرْعَ قَالَ أَجَلُ هِيَ شَجَرَةٌ أَخَى يُونُسَ وَقِيلَ هِيَ التِّينَ وَقِيلَ الْمَوْزُ تَغْطِي بِوَرَقِهِ وَاسْتَظَلَّ بِأَغْصَانِهِ وَأَفْطَرَ عَلَى ثَمَارِهِ وَقِيلَ كَانَ يَسْتَظِلُّ بِالشَّجَرَةِ وَكَانَتْ وَعَلَةً تَخْتَلِفُ إِلَيْهِ فَيَشْرَبُ مِنْ لَبْنِهَا ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ ﴾ هُمْ قَوْمُهُ الَّذِينَ هَرَبَ مِنْهُمْ وَهُمْ أَهْلُ نَيْنَوَى وَالْمُرَادُ بِهِ إِرْسَالُهُ السَّابِقِ أَخْبَرَ أَوَّلًا بِأَنَّهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ ثُمَّ أَخْبَرَ بِأَنَّهُ قَدْ أُرْسِلَ إِلَى أُمَّةٍ جَمَّةٍ وَكَأَنَ تَوْسِيطُ تَذْكِيرٍ وَقَدْ هَرَبَ إِلَى الْفَلَكِ وَمَا بَعْدَهُ بَيْنَهُمَا لِتَذْكِيرِ سَبِيهِ وَهُوَ مَا جَرَى بَيْنَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ مِنْ إِنْذَارِهِ إِيَّاهُمْ عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى وَتَعْيِينُهُ لَوْ قَدْ حُلُولُهُ وَتَعْلِيلُهُمْ وَتَعْلِيلُهُمْ لِإِيْمَانِهِمْ بِظُهُورِ أَمَارَاتِهِ كَمَا مَرَّ تَفْصِيلُهُ فِي سُورَةِ يُونُسَ لِيَعْلَمَ أَنَّ إِيْمَانَهُمُ الَّذِي سَيَحْكِي بِهِ لَمْ يَكُنْ عَقِيبَ الْإِرْسَالِ كَمَا هُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنْ تَرْتِيبِ الْإِيْمَانِ عَلَيْهِ بِالْغَاءِ بَعْدَ اللَّتْمِ وَالْقِي وَقِيلَ هُوَ إِرْسَالُ آخِرِ إِلَيْهِمْ وَقِيلَ إِلَى غَيْرِهِمْ وَلَيْسَ بِظَاهِرٍ ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ أَيْ فِي مَرَأَى النَّازِلِ فَإِنَّهُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ قَالَ إِنَّهُمْ مِائَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ وَالْمُرَادُ هُوَ الْوَصْفُ بِالْكَثْرَةِ وَقَرِئَ بِالْوَاوِ ﴿ فَآمَنُوا ﴾ أَيْ بَعْدَ مَا شَاهَدُوا عِلَامَاتِ حُلُولِ الْعَذَابِ إِيْمَانًا خَالِصًا ﴿ فَتَعْنَاهُمْ ﴾ أَيْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ قَدَرَهُ اللَّهُ مَبْجَاهًا ثُمَّ قِيلَ وَلَعَلَّ عَدَمَ خَتْمِ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَقِصَّةَ لُوطٍ بِمَا خَتَمَ بِهِ سَائِرَ الْقِصَصِ لِلتَّفَرِيقِ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ أَرْبَابِ الشِّرَائِعِ وَأَوَّلَى الْعِزِّ مِنَ الرِّسَالِ أَوْ اكْتِفَاءً بِالتَّسْلِيمِ الشَّامِلِ لِكُلِّ الرِّسَالِ الْمَذْكُورِينَ فِي آخِرِ السُّورَةِ .

## أكاذيب قریش

﴿ فاستفتهم ﴾ أمر الله عز وجل في صدر السورة الكريمة رسوله صلى الله عليه وسلم بتبكيك قریش وإبطال مذهبهم في إنكار البعث بطريق الاستفتاء وساق البراهين القاطعة النافذة بتحقيقه لا محالة وبين وقوعه وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب واستثنى منهم عباده المخلصين وفصل ما لهم من النعيم المقيم ثم ذكر أنه قد ضل من قبلهم أكثر الأولين وأنه تعالى أرسل إليهم منذرين على وجه الإجمال ثم أورد قصص كل واحد منهم على وجه التفصيل مبينا في كل قصة منها أنهم من عباده تعالى واصفا لهم تارة بالإخلاص وأخرى بالإيمان ثم أمره عليه الصلاة والسلام ههنا بتبكيكهم بطريق الاستفتاء عن وجه أمر منكر خارج عن العقول بالكلية وهي القسمه الباطلة اللازمة لما كانوا عليه من الاعتقاد الزائف حيث كانوا يقولون كبعض أجناس العرب جبهة وبني سلية وخزاعة وبني مليح : الملائكة بنات الله والفاء لترتيب الأمر على ما سبق من كون أولئك الرسل الذين هم أعلام الخلق عليهم الصلاة والسلام عباده تعالى فإن ذلك مما يؤكد التبكيك ويظهر بطلان مذهبهم الفاسد ثم تبكيكهم بما ينصحه كفرهم المذكور من الاستهانة بالملائكة يجعلهم إناثا ثم أبطل أصل كفرهم المنطوي على هذين الكافرين وهو نسبة الولد إليه سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ولم ينظمه في سلك التبكيك لمشاركتهم النصارى في ذلك أى فاستخبرهم ﴿ أربك البنات ﴾ اللاتي هن أوضاع الجنسين ﴿ ولهم البنون ﴾ الذين هم أربعهما فإن ذلك مما لا يقول به من له أدنى شيء من العقل وقوله تعالى ﴿ أم خلقنا الملائكة إناثا ﴾ لإضراب وانتقال من التبكيك بالاستفتاء السابق إلى التبكيك بهذا كما أشير إليه أى بل أخلقنا الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق وأبندهم من صفات الأجسام ورذائل الطبائع إناثا والأنثى من أخس صفات الحيوان وقوله تعالى ﴿ وهم شاهدون ﴾ استهزاء بهم وتجهيل لهم كقوله تعالى (أشهدوا خلقهم) وقوله تعالى (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) فإن أمثال هذه الأمور لا تعلم إلا بالمباشرة إذ لا سبيل إلى معرفتها بطريق العقل



وانتفاء النقل مما لا ريب فيه فلا بد أن يكون القائل بأنوثهم شاهداً عند خلقهم والجملة إما حال من فاعل خلقنا أى بل أخلقناهم لأننا والحال أنهم حاضرون حينئذ أو عطف على خلقنا أى بل أهم شاهدون وقوله تعالى :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ لِفَكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ ﴾ استئناف من جهته غير داخل تحت الأمر بالاستفتاء مسوق لإبطال أصل مذهبهم الفاسد ببيان أن مبناه ليس إلا الإفك الصريح والافتراء القبيح من غير أن يكون لهم دليل أو شبهة قطعاً ﴿ وَلَهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى قولهم ذلك كذباً بيننا لا ريب فيه وقرئ ولده الله على أنه خبر مبتدأ محذوف أى الملائكة ولده تعالى عن ذلك علواً كبيراً فإن الولد فعل بمعنى مفعول يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ إثبات لافكهم وتقرير لكذبهم فيما قالوا ببيان استنزاعه لأمر بين الاستحالة هو اصطفاؤه تعالى البنات على البنين والاصطفاء أخذ صفوة الشيء لنفسه وقرئ بكسر الهمزة على حذف حرف الاستفهام ثقة بدلالة القرائن عليه وجعله بدلاً من ولده الله ضعيف وتقدير القول أى لكاذبون فى قولهم اصطفى الخ تعسف بعيد ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ بهذا الحكم الذى يقضى بطلانه بديهة العقل ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ يجذف إحدى التاءين من تتذكرون وقرئ تذكرون من ذكر والفاء للعطف على مقدر أى ألا تلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلانه فانه مركز فى عقل كل ذكى وغبى

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴾ لضراب وانتقال من توبيخهم وتبكيتهم بما ذكر إلى تبكيتهم بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجود أصلاً أى بل ألكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بناته تعالى ضرورة أن الحكم بذلك لا بد له من سند حسى أو عقلى وحيث انتهى كلاهما فلا بد من سند عقلى ﴿ فَأَتُوا بِكُتَابِكُمْ ﴾ الباطق بصحة دعواكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيها وفى هذه الآيات من الإنباء عن النسخ العظيم والإنكار الفظيخ لأقاويلهم والاستبعاد الشديد لأباطيلهم وتقصيفه أحلامهم وتركيب عقولهم وأفهامهم مع استهزاء بهم وتعجيب من جهلهم والأولى يخفى على من تأمل فيها وقوله تعالى :

﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا﴾ التفت إلى الغيبة للايذان بانقطاعهم عن الجواب وسقوطهم عن درجة الخطاب واقتضاء حالهم أن يمرض عنهم وتحكى جنائياتهم لآخرين والمراد بالجنة الملائكة قالوا الجنس واحد ولكن من حيث الجن ومرد وكان شرا كله فهو شيطان ومن طهر منهم ونسك وكان خيرا كله فهو ملك وإنما عبر عنهم بذلك الاسم وضعا منهم وتقصيرا بهم مع عظم شأنهم فيما بين الخلق أن يبلغوا منزلة المناسبة التي أضافوها إليهم فجعلهم هذا عبارة عن قولهم الملائكة بنات الله وإنما أعيد ذكره تمهيدا لما يعقبه من قوله تعالى ﴿ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون﴾ أى وباللّٰه لقد علمت الجنة التى عظموها بأن جعلوا بينها وبينه تعالى نسبا وهم الملائكة أن الكفرة لمحضرون النار معذبون بها لكنذبهم وافترائهم فى قولهم ذلك والمراد به المبالغة فى التكذيب ببيان أن الذين يدعى هؤلاء لهم تلك النسبة ويعلمون أنهم أعلم منهم بحقيقة الحال يكذبونهم فى ذلك ويحكمون بأنهم معذبون لأجله حكما مؤكدا وقيل إن قوما من الزنادقة يقولون الله تعالى وإبليس أخوان فالله هو الخير الكريم وإبليس هو الشر اللّٰئيم وهو المراد بقوله تعالى ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا﴾ قال الإمام الرازى وهذا القول عندى أقرب الأقاويل وهو مذهب الجوسى القائلين بيزدان وأهرمن وقال مجاهد قالت قریش الملائكة بنات الله فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فمن أمهاتهم تبيكتنا لهم فقالوا سرات الجن وقيل معنى جعلوا بينه وبين الجنة نسبا جعلوا بينهما مناسبة حيث أشركوا به تعالى الجن فى استحقاق العبادة فعلى هذه الأقاويل يجوز أن يكون الضمير فى إنهم لمحضرون للجنة فالمعنى لقد علمت الشياطين أن الله تعالى يحضرهم النار ويعذبهم بها ولو كانوا مناسبين له تعالى أو شركاء فى استحقاق العبادة لما عذبهم والوجه هو الأول فان قوله ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ حكاية لنزبه الملائكة إياه تعالى عما وصفه المشركون به بعد تكذيبهم لهم فى ذلك بتقدير قول معطوف على علمت وقوله تعالى ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ شهادة منهم ببراءة المخلصين من أن يصفوه تعالى بذلك متضمنة لتبرئهم منه بحكم إدراجهم فى زمرة

المخلصين على أبلغ وجه وآكده على أنه استثناء منقطع من واو يصفون كأنه قيل واقد علمت الملائكة أن المشركين لمعذبون لقولهم ذلك وقالوا سبحان الله عما يصفونه به لكن عباد الله الذين نحن من جملتهم برآء من ذلك الوصف وقوله تعالى ﴿فأنكم وما تعبدون ما أتم عليه بفاتنين﴾ تعليل وتحقيق لبراءة المخلصين مما ذكر ببيان عجزهم عن إغوائهم وإضلالهم والإلتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام وما تعبدون عبارة عن الشياطين الذين أغوهم وفيه إيذان بتبرئهم عنهم وعن عبادتهم كقولهم بل كانوا يعبدون الجن وما نافية وأنتم خطاب لهم وللمعبوديهم تغليبا وعلى متعلقة بفاتنين يقال فتن فلان على فلان امرأته أى أفسدها عليه والمعنى فأنكم ومعبودكم أيها المشركون لستم بفاتنين عليه تعالى بافساد عبادته وإضلالهم .

﴿إلا من هو صال الجحيم﴾ منهم أى داخلها لعلمه تعالى بأنه يصير على الكفر بسوء اختياره ويصير من أهل النار لآعالة وأما المخلصون منهم فأنتم بمزل من إفسادهم وإضلالهم فهم لا جرم براء من أن يفتنوا بكم ويسلكوا مسلككم فى وصفه تعالى بما وصفتموه به وقرىء صال بضم اللام على أنه جمع محمول على معنى من قد سقط واوه لإلتقاء الساكتين وقوله تعالى : ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ تعيين لجلية أمرهم وتعيين لحيزهم فى موقف العبودية بعد ما ذكر من تكذيب الكفرة فيما قالوا وتنزيه الله تعالى عن ذلك وتبرئة المخلصين عنه وإظهار لقصور شأنهم وقامتهم أى وما منا أحد إلا له مقام معلوم فى العبادة وال انتهاء إلى أمر الله تعالى مقصور عليه لا يتجاوز ولا يستطيع أن يزل عنه خضوعا لعظمته وخضوعا لطيبته وتواضعا لجلاله كما روى فنههم راعى لا يقيم صلبه وساجد لا يرفع رأسه قال ابن عباس رضى الله عنهما ما فى السموات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلى أو يسبح وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال أعطت السماء وحق لها أن تسقط والذى نفسى بيده ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته ساجد لله تعالى وقال للبديعى إلا له مقام معلوم فى القرية والمشاهدة ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ فى

مواقف الطاعة ومواطن الخدمة ﴿ ولنا لنحن المسيحيون ﴾ المقدسون لله سبحانه عن كل مالا يليق بمجناب كبريائه وتحلية كلامهم بفنون التأكيد لإبراز أن صدوره عنهم بكال الرغبة والنشاط هذا هو الذي تقتضيه جزالة التنزيل وقد ذكر في تفسير الآيات الكريمة وإعراها وجوه آخر فتأمل والله الموفق .

﴿ وإن كانوا ليقولون ﴾ إن هي المخففة من الثقلية وضمير الشأن محذوف واللام هي الفارقة أي إن الشأن كانت قريش تقول ﴿ لو أن عندنا ذكرا من الأولين ﴾ أي كتابا من كتب الأولين من التوراة والإنجيل ﴿ لكننا عباد الله المخلصين ﴾ أي لأخلصنا العبادة لله تعالى ولما خالفنا كما خالفوا وهذا ( كقولهم ) لئن جاءنا نذير لنكونن أهدي من إحدى الأمم والفاء في قوله تعالى ﴿ فكفروا به ﴾ فصيحة كما في قوله تعالى ( فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق ) أي لجأهم ذكر وأي ذكر سيد الأذكار وكتاب مهيم على سائر الكتب والأسفار فكفروا به ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أي طيبة كفرهم وخاتمة ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ استئناف مقرر للوعيد وتصديره بالقسم لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه أي وبالله لقد سبق وعدنا لهم بالنصرة والغلبة وهو قوله تعالى ﴿ إنهم لهم المنصورون وإن جندنا ﴾ وهم أتباع المرسلين ﴿ لهم الغالبون ﴾ على أعدائهم في الدنيا والآخرة ولا يقدر في ذلك انهمزامهم في بعض المشاهد فإن قاعدة أمرهم وأساسه الظفر والنصرة وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة والحكم للغالب وعن ابن عباس رضي الله عنهما إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في الآخرة ونرى على عبادنا بتضمنين سبقت معنى حققت وتسميتها كلمة مع أنها كلمات لا انتظامها في معنى واحد وقرىء كلماتنا .

﴿ فتول عنهم ﴾ فأعرض عنهم واصبر ﴿ حتى حين ﴾ إلى مدة يسيرة وهي مدة الكف عن القتال وقيل يوم بدر وقيل يوم الفتح ﴿ وأبصرهم ﴾ على أسوأ حال وأظلم نكال حل بهم من القتل والأسر والمراد بالامر بأبصارهم الإيذان بغاية قرب كانه بين يديه ﴿ فسوف يبصرون ﴾ ما يقع حينئذ من

الأمور وسوف للوعيد دون التبديد ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ روى أنه لما نزل فسوف يبصرون قالوا متى هذا فنزل ﴿ فإذا نزل بساحتهم ﴾ أى فإذا نزل بالعذاب الموعود بفنائهم كأنه جيش قد هجمهم فأنارخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة وقطع دابرهم بالمرّة وقيل المراد نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح وقرىء نزل بساحتهم على إسناده إلى الجار والمجرور وقرىء نزل مبنيًا للمفعول من التنزيل أى نزل العذاب ﴿ فساء صباح المنذرين ﴾ فبئس صباح المنذرين صباحهم واللام للجنس والصباح مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب ولما كثرت منهم الغارة فى الصباح سموها صباحا وإن وقعت ليلا روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أتى خيبر وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحى قالوا لعمر بن الخطاب ورجعوا إلى حصنهم فيقال عليه الصلاة والسلام الله أكبر خربت خيبر أنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ﴿ وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون ﴾ تسليّة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لآثر تسليّة وتأكّدك لتوقع الميعاد غب تأكيد مع ما فى إطلاق الفعلين عن المفعول من الإيذان بأن ما يبصره عليه الصلاة والسلام حينئذ من فنون المسار وما يبصرونه من أنواع المضار لا يحيط به الوصف والبيان وقيل أريد بالأول عذاب الدنيا وبالثانى عذاب الآخرة ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ تنزيهه لله سبحانه عن كل ما يصفه المشركون به بما لا يليق بجنان كبريائه وجبروته بما ذكر فى السورة الكريمة وما لم يذكر من الأمور التى من جملتها ترك إنجاز الموعود على موجب كلمته السابقة لاسيما فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ينبى عنه التعرض لعنوان الربوبية المعربة عن التربية والتسكيل والمالكية السكلية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام أولا وإلى العزة ثانيا كأنه قيل سبحانه من هو مريبك ومملك ومالك العزة والغلبة على الإطلاق عما يصفه المشركون به من الأشياء التى منها ترك نصرتك عليهم كما يدل عليه استعجالهم بالعذاب وقوله تعالى :

﴿ وسلام على المرسلين ﴾ تشریف لهم عليهم السلام بعد تنزيهه تعالى عما ذكر وتنويه بشأنهم وإيدان بأنهم سالمون عن كل المسكاره فائزون بجميع المآرب وقوله تعالى ﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ إشارة إلى وصفه عز وجل بصفاته الكريمة الثبوتية بعد التنبيه على اتصافه تعالى بجميع صفاته السلبية وإيدان باستتباعها للأفعال الجميلة التي من جملتها إفاضته عليهم من فنون الكرامات السلية والكمالات الدينية والدنيوية وإسباغه عليهم وعلى من تبعهم من صنوف النعماء الظاهرة والباطنة الموجبة لمحمد تعالى وإشعار بأن ما وعده عليه الصلاة والسلام من النصرة والغلبة قد تحققت والمراد تنبيه المؤمنين على كيفية تسبيحه تعالى وتحميده والتسليم على رسله الذين هم وسائط بينهم وبينه عز وجل في فيضان الكمالات الدينية والدنيوية عليهم ولعل توسيط التسليم على المرسلين بين تسبيحه تعالى وتحميده لختم السورة الكريمة بحمده تعالى مع ما فيه من الإشعار بأن توفيقه تعالى للتسليم عليهم من جملة نعمه الموجبة للحمد . عن على رضي الله عنه من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه سبحانه ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ الصافات أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل جنى وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرىء من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمنا بالمرسلين .

## سورة ص

مكية ، وآياتها ست ، أو ثمان وثمانون آية

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( ص ) بالسكون على الوقف وقرىء بالسكسر والفتح لالتقاء الساكنين ويجوز أن يكون الفتح بإضمار حرف القسم في موضع الجر كقولهم الله لأفعلن بالجر وأن يكون ذلك نصباً بإضمار اذكر أو اقرأ لافتحاً كما مر في فاتحة سورة البقرة وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث لأنها علم للسورة وقد صرفها من قرأ صاد بالتنوين على أنه اسم الكتاب أو التنزيل وقيل هو في قراءة السكسر أمر من المصاداة وهي المعارضة والمقابلة ومنها الصدى الذي ينعكس من الأجسام الصلبة بمقابلة الصوت ومعناه طرأ القرآن بمصطلحه فاعمل بأوامره وانه عن نواهيهِ وتخلق بأخلاقه ثم إن جعل اسماً للحرف فسروداً على منهاج التحدى أو الرمز إلى كلام مثل صدق الله أو صدق محمد كما نقل عن كبار السلف أو اسماً للسورة خبراً لمبتدأ محذوف أو نصباً على إضمار اذكر أو اقرأ أو أمراً من المصاداة فالواو في قوله تعالى : ﴿ والقرآن ذى الذكر ﴾ للقسم وإن جعل مقسماً به فهي للعطف عليه فإن أريد بالقرآن كله فالمغايرة بينهما حقيقية وإن أريد عين السورة فهي اعتبارية كما في قولك مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة وأياً ما كان ففي التكرير مزيد تأكيد لمضمون الجملة المقسم عليها والذكر الشرف والنباهة كما في قوله تعالى ( وإنه لذكر لك ولقومك ) أو الذكرى والموعظة أو ذكر ما يحتاج إليه في أمر الدين من الشرائع والأحكام وغيرها من أقاصيص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأخبار الأمم الدارجة والوعد والوعيد وجواب القسم على الوجه الأول والرابع والخامس محذوف فهو ما ينبئ عنه التحدى والأمر والأقسام به من كون المتحدى به معجزاً

وكون المأمور به واجبا وكون المقسم به حقيقا بالإعظام أى أقسم بالقرآن أو بصادوبه لأنه لمعجز أو لواجب العمل به أو لحقيق بالإعظام وأما على الوجهين الباقيين فهو الكلام المرموز إليه ونفس الجملة المذكورة قبل القسم فإن التسمية تنويه بشأن المسمى وتنبيه على عظم خطره أى لأنه لصادق والقرآن ذى الذكر أو هذه السورة عظيمة الشأن والقرآن الخ على طريقة قولهم هذا حاتم والله ولما كان كل واحد من هذه الأجوبة منبئا عن انتفاء الريب عن مضمونه بالكيفية أبناء بينا كان قوله تعالى :

﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ اضرابا عن ذلك كأنه قيل لا ريب فيه قطعا وليس عدم اذعان الكفرة له لشائبة ريب ما فيه بل هم في استكبار وحمية شديدة وشقاق بعيدة تعالى ولرسوله ولذلك لا يدعون له وقيل الجواب ما دل عليه الجملة الإضرابية أى ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه بل الذين كفروا الخ وقرئ في غرة أى في غفلة عما يجب عليهم التنبه له من مبادئ الإيمان ودواعيه .

### وعيد الكفار

﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب من قبلهم من المستكبرين وكم مفعول أهلكنا ومن قرن تمييز والمعنى وقرنا كثيرا أهلكنا من القرون الخالية ﴿ فنادوا ﴾ عند نزول بأسنا وحلول نعمتنا استغاثة وتوبة لينجوا من ذلك وقوله تعالى : ﴿ ولات حين مناص ﴾ حال من ضمير نادوا واستغاثوا طلبا للنجاة والحال أن ليس الحين حين مناص أى فوت ونجاة من ناله أى فاته لا من ناص بمعنى تأخر ولاهى المشبهة بليس زيدت عليها ناء التأنيث للتأكيد كما زيدت على رب وثم ونخصت بنفى الأحيان ولم يبرز إلا أحد معموليها والأكثر حذف اسمها وقيل هى النافية للجنس زيدت عليها التاء ونخصت بنفى الأحيان وحين مناص منصوب على أنه اسمها أى ولا حين مناص وقرئ بالرفع فهو على الأول اسمها والآخر



محذوف أى وليس حين مناص حاصل لهم وعلى الثانى مبتدأ محذوف الخبر  
أى ولا أرى حين مناص كائن لهم وقرئ بالكسر كما فى قوله :  
طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أن لات حين بقاء  
أما لأن لات تجر الاحيان كما أن لولا تجر الضمائر فى نحو قوله :  
لولاك هذا العام لم أحجج

أو لأن أوان شبه ياذ فى قوله :

نميتك عن طلابك أم عمرو بمافية وأنت إذ صحيح  
فى أنه زمان قطع منه المضاف إليه وعوض التنوين لأن أصله أوان صلح  
ثم حمل عليه حين مناص تنزيلا لقطع المضاف إليه من مناص إذ أصله حين  
مناصهم منزلة قطعه من حين لما بين المضافين من الإتحاد ثم بنى الحين لإضافته  
إلى غير متمكن وقرئ لات بالكسر كجبر ويقف الكوفيون عليها بالهاء  
كالأسماء والبصريون بالتاء كالأفعال وما قيل من أن التاء مزيدة على حين  
لإتصالها به فى الإمام مما لا وجه له فإن خط المصحف خارج عن القياس  
(وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) حكاية لأباطيلهم المتفرعة على ما حكى من  
استكبارهم وشقاقهم أى عجبوا من أن جاءهم رسول من جنسهم بل أدون  
منهم فى الرياسة الدنيوية والمال على معنى أنهم عدوا ذلك أمرا عجيبا خارجا  
عن احتمال الوقوع وأنكروه أشد الإنكار لا أنهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا  
منه (وقال الكافرون) وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضبا عليهم  
ولإيداننا بأنه لا يتجاسر على مثل ما يقولونه إلا المتوغلون فى الكفر والفسوق  
(هذا ساحر) فيما يظهره من الخوارق (كذاب) فيما يسنده إلى الله  
تعالى من الإرسال والإنزال (أجمل الآلهة إلهها واحدا) بأن نفى الألوهية  
عنهم وقصرها على واحد (لأن هذا شئ عجاب) بليغ فى العجب وذلك لأنه  
خلاف ما ألفوا عليه آباءهم الذين أجمعوا على ألوهيتهم وواظبوا على عبادتهم  
كأبرأ عن كابر فإن مدار كل ما يأتون وما يذرون من أمور دينهم هو التقليد  
والإعتقاد فيعدون ما يخالفهم اعتقادوه عجيبا بل محالاً وأما جعل مدار تعجبهم

عدم وفاء علم الواحد وقدرته بالأشياء الكثيرة فلا وجه له لما أنهم لا يدعون أن لأهلهم علما وقدره ومدخلا في حدوث شيء من الأشياء حتى يلزم من نفى ألوهيتهم بقاء الآثار بلا مؤثر وقرئ عجاب بالتشديد وهو أبلغ ككرام وكرام روى أنه لما أسلم عمر رضى الله عنه شق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون من صناديدهم فأتوا أبا طالب فقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء وقد جئناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا ابن أخى هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك فقال صلى الله عليه وسلم ماذا تسألونى قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك فقال صلى الله عليه وسلم أرايتم إن أعطيتكم ما سألتهم أمعطى أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم قالوا نعم وعشرا فقال قولوا لا إله إلا الله فقاموا وقالوا ذلك .

﴿ وانطلق الملاء منهم ﴾ أى وانطلق الأشراف من قريش عن مجلس أبى طالب بعدما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد وشاهدوا تصلبه عليه الصلاة والسلام فى الدين وعزيمته على أن يظهره على الدين كله ويشسوا بما كانوا يرجونه بتوسط أبى طالب من المصالحة على الوجه المذكور ﴿ أن امشوا ﴾ أى قائلين بعضهم لبعض على وجه النصيحة امشوا ﴿ واصبروا ﴾ على آلهتكم ﴿ أى واثبتوا على عبادتها متحملين لما كسبته في حقها من القبح وأن هى المفسرة لأن الانطلاق عن مجلس النقاول لا يخلو عن القول وقيل المراد بالانطلاق الاندفاع فى القول وامشوا من مشى المرأة إذا كثرت ولادتها ومنه الماشية للتفاوض أى اجتمعوا واكثروا وقرئ امشوا بغير أن على إضمار القول وقرئ يمشون أن اصبروا ﴿ إن هذا لشيء يراد ﴾ تلميح للأمر بالصبر أو لوجوب الامتنان به أى هذا الذى شاهدناه من محمد صلى الله عليه وسلم من أمر التوحيد ونفى آلهتنا وإبطال أمرها لشيء يراد أى من جهته عليه الصلاة والسلام لا مضاهة وتنفيذه لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف

( ٣٦ - أبو السعود - تراجم )

يتنبه لاقول يقال من طرف اللسان أو أمر يرجى فيه المساعدة بشفاعته أو امتنان  
فأقطعوا أطعكم عن استنزاله من رأيه بواسطة أنى طالب وشفاعته وحسبكم  
أى لا تمنعوا من عبادة آلهتكم بالسكينة فاصبروا عليها وتحملوا ما تسمعون  
فى حقها من القدر وسوء القالة وقيل إن هذا الأمر لشيء يريد الله تعالى  
ويحكم بامضاءه وما أراد الله كونه فلا مرد له ولا ينفع فيه إلا الصبر وقيل إن  
هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكك لنا منه وقيل إن دينكم  
لشيء يراد أى يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه وقيل إن هذا الذى يدعيه من  
التوحيد أو يقصده من الرياسة والترفع على العرب والعجم لشيء يتمنى ويريده  
كل أحد فتأمل فى هذه الأقاويل واختر منها ما يساعده النظم الجليل ﴿ ما سمعنا  
بهذا ﴾ الذى يقوله ﴿ فى الملة الآخرة ﴾ أى الملة النصرانية التى هى آخر الملل  
فإنهم مثله أو فى الملة التى أدركنا عليها آباءنا ويموز أن يكون الجار والمجور  
حالا من هذا أى ما سمعنا بهذا من أهل الكتاب ولا الكهان كأننا فى الملة المتربة  
ولقد كذبوا فى ذلك أقبح كذب فإن حديث البعثة والتوحيد كان أشهر الأمور  
قبل الظهور ﴿ إن هذا ﴾ أى ما هذا ﴿ إلا اختلاق ﴾ أى كذب اختلقه .

﴿ أنزل عليه الذكر ﴾ أى القرآن ﴿ من بيننا ﴾ ونحن رؤساء الناس  
وأشرافهم كقولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ومرادهم  
إنكار كونه ذكرا منزلا من عند الله عز وجل كقولهم (لو كان خيرا ما سبقونا  
إليه) وأمثال هذه المقالات الباطلة دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد  
وقصر النظر على الخطأ الديوى ﴿ بل هم فى شك من ذكرى ﴾ أى من القرآن  
أو الوحى لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن النظر فى الأدلة المؤدية إلى العلم  
بحقيقته وليس فى عقيدتهم ما يبتون به فهم مذهبون بين الأوهام ينسبون تارة  
إلى السحرة وأخرى إلى الاختلاق ﴿ بل لما يذوقوا عذاب ﴾ أى بل لم يذوقوا  
بعد عذابى فإذا ذاقوه تبين لهم حقيقة الحال وفى لما دلالة على أن ذوقهم على  
شرف الوقوع والمعنى أنهم لا يصدقون به حتى يمسه العذاب وقيل لم يذوقوا  
عذاب الموعود فى القرآن ولذلك شكوا فيه ﴿ أم عندهم خزائن ربك

العزیز الوهاب ﴿ بل أعندهم خزائن رحمته تعالى يتصرفون فيها حسبما يشاءون حتى يصيبوا بها من شأوا ويصرفوها عن شأوا ويتحكموا فيها بمقتضى آرائهم فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم والمعنى أن النبوة عطية من الله عز وجل يفضل بها على من يشاء من عباده المصطفين لا مانع له فإنه العزیز أى الغالب الذى لا يغالب الوهاب الذى له أن يهب كل ما يشاء لكل من يشاء وفى إضافة اسم الرب المنبى عن الترية والتبليغ إلى السكال إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشریفه واللفظ به ما لا يخفى وقوله تعالى ﴿ أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ ترشيح لما سبق أى بل ألهم ملك هذه العوالم العلوية والسفلية حتى يتسكلموا فى الأمور الربانية ويتحكموا فى التداير الإلهية التى يستأثر بها رب العزة والكبرياء وقوله تعالى .

﴿ فليرتقوا فى الأسباب ﴾ جواب شرط محذوف أى إن كان لهم ما ذكر من الملك فليصعدوا فى المعارج والمناهج التى يتوصل بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وينزلوا الوحي إلى من يختارون ويستصوبون وفيه من التهمك بهم ما لا غاية وراءه والسبب فى الأصل هو الوصلة وقيل المراد بالأسباب السموات لأنها أسباب الحوادث السفلية وقيل أبوابها ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ أى هم جند ما من الكفار المتحزبين على الرسل مهزوم منكسور عما قريب فلا تبال بما يقولون ولا تكثرت بما يهدون وما مزيدة للتقليل والتحقير نحو قولك أكلت شيئاً ما وقيل للتعظيم على الهزء وهنالك إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم وقوله تعالى .

### من أحوال الكفار

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ﴾ الخ استئناف مقرر لمضمون ما قبله ببيان أحوال العلة الطغاة الذين هو لاء جند ماء جفودهم بما فعلوا من التكذيب وفعلهم بهم من العقاب وذو الأوتاد معناه ذو الملك

الثابت أصله من ثبات البيت المطنّب بأوتاده فاستعير لثبات الملك ورسوخ السلطنة واستقامة الأمر قال الأسود بن يعفر :

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة      في ظل ملك ثابت الأوتاد  
أو ذو الجموع الكثيرة سموا بذلك لأن بعضهم يشد بعضاً كالوتد يشد البناء  
وقيل نصب أربع سوار وكان يمد يدي المعضب ورجليه إليها ويضرب عليها  
أوتاداً ويتركه حتى يموت وقيل كان يمد بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل  
عليه العقارب والحيات وقيل كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه ﴿ وثمود  
وقوم لوط وأصحاب الأيكة ﴾ أصحاب الغيضة من قوم شعيب عليه السلام وقوله  
تعالى ﴿ أولئك الأحزاب ﴾ إما بدل من الطوائف المذكورة كما أن ذلك  
الكتاب بدل من ألم على أحد الوجوه وفيه فضل تأكيد وتنبية على أنهم الذين  
جعل الجند المهزوم منهم وقوله تعالى ﴿ إن كل إلا كذب الرسل ﴾ استئناف  
جاء به تقريراً لتكذيبهم وبياناً لكيفيته وتمهيداً لما يعقبه أي ما كل أحد من  
أحاد أولئك الأحزاب أو ما كل حزب منهم إلا كذب الرسل لأن تكذيب  
واحد منهم تكذيب لهم جميعاً لاتفاق الكل على الحق وقيل ما كل حزب  
إلا كذب رسوله على نهج مقابلة الجمع بالجمع وأياً ما كان فلا استثناء مفرغ من  
أعم العام في خبر المبتدأ أي ما كل أحد منهم محكوماً عليه بحكم إلا محكوم عليه بأنه  
كذب الرسل وقيل ما كل واحد منهم مخبراً عنه بخبر إلا مخبر عنه بأنه كذب الرسل  
وفي إسناد التكذيب إلى الطوائف المذكورة على وجه الإبهام أولاً والإيدان بأن  
كلامهم حزب على حباله تحزب على رسوله ثانياً وتبين كيفية تكذيبهم بالجملة  
الاستثنائية ثالثاً فنون من المبالغة مسجلة عليهم باستحقاق أشد العذاب وأفظعه ولذلك  
رتب عليه قوله تعالى ﴿ لحق عقاب ﴾ أي ثبت ووقع على كل منهم عقاب الذي كانت  
توجهه جنایاتهم من أصناف العقوبات المفصلة في مواقعها وإما مبتدأ وقوله تعالى  
﴿ إن كل إلا كذب الرسل ﴾ خبره بحذف العائد أي إن كل منهم الخ والجملة  
استئناف مقرر لما قبله مؤكداً لمضمونه مع ما فيه من بيان كيفية تكذيبهم والتنبية  
على أنهم الذين جعل الجند المهزوم منهم كافراً وقيل هو مبتدأ وخبر والمفعول

أن الأحزاب الذين جعل الجند المزموم منهم هم هم وأنهم الذين وجد منهم التكذيب فتدبر وأما ما قيل من أنه خبر والمبتدأ قوله تعالى (وعاد) الخ أو قوله (وقوم لوط) الخ فما يجب تنزيهه ساحة التنزيل عن أمثاله .

(وما ينظر هؤلاء) شروع في بيان عقاب كفار مكة إثر بيان عقاب أضرابهم من الأحزاب الذين أخبر فيما سبق بأنهم جند حقير منهم مهزوم عن قريب فإن ذلك مما يوجب انتظار السامع وترقبه إلى بيانه قطعاً وفي الإشارة إليهم بهؤلاء تحقير لشأنهم وتهوين لأمرهم وأما جعله إشارة إلى الأحزاب باعتبار حضورهم بحسب الذكر أو حضورهم في علم الله عز وجل فليس في حين الاحتمال أصلاً كيف لا والانتظار سواء كان حقيقة أو استهزاء وإنما يتصور في حق من لم يترتب على أعماله نتائجها بعد وبعد ما بين عقاب الأحزاب واستئصالهم بآخرة لم يبق مما أريد بيانه من عقوباتهم أمر منتظر وإنما الذين في مرصد الانتظار كفار مكة حيث ارتكبوا من عظام الجرائم وكبائر الجرائر الموجبة لأشد العقوبات مثل ما ارتكب الأحزاب أو أشد منه ولما يلاقوا بعد شيئاً من غوائلها أى وما ينتظر هؤلاء الكفرة الذين هم أمثال أولئك الطوائف المهلكة في الكفر والتكذيب (إلا صيحة واحدة) هي النفخة الثانية لا بمعنى أن عقابهم نفسها بما فيها من الشدة والهلول فإنها داهية يعم هولها جميع الأمم برها وفاقرها بل بمعنى أنه ليس بينهم وبين حلول ما أعد لهم من العقاب الفظيع إلا هي حيث أخرت عقوبتهم إلى الآخرة لما أن تعذيبهم بالاستئصال حسبما يستحقونه والنبي عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم خارج عن السنة الإلهية المبنية على الحكم الباهرة كما نطق به قوله تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) وأما ما قيل من أنها النفخة الأولى فما لا وجه له أصلاً لما أنه لا يشاهد هولها ولا يصحق بها إلا من كان حياً عند وقوعها وليس عقابهم الموعود واقعاً عقيباً ولا العذاب المطلق مؤخر إلا إليها بل يحل بهم من حين موتهم (ما لها من فواق) أى من ترفق مقتدر فواق وهو ما بين الخطبتين وقرىء بعضهم اللقاء وهما لغتان وقوله تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قطعت قبل يوم الحساب) بحكاية لما قالوه عند سماعهم

بتأخير عقابهم إلى الآخرة أى قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية عجل لنا  
قطنا من العذاب الذى توعدنا به ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذى مبدؤه  
الصيحة المذكورة والقط القطعة من الشيء من قطه إذا قطعه ويقال لصحيفة  
الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس وقد فسر بها أى عجل لنا صحيفة أعمالنا  
لننظر فيها وقيل ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد الله تعالى المؤمنين  
الجنة فقالوا على سبيل الهزء به عجل لنا نصيبتنا منها وتصدير دعائهم بالنداء  
المذكور للإيمان فى الاستهزاء كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهاال .

﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ من أمثال هذه المقالات الباطلة ﴿ واذكر ﴾ لهم  
﴿ عبدنا داود ﴾ أى قصته تهويلاً لأمر المعصية فى أعينهم وتلبسها لهم على كمال  
قبح ما اجتروا عليه من المعاصى فإنه عليه الصلاة والسلام مع علو شأنه  
واختصاصه بمعظائم النعم والكرامات لما ألم بصغيرة نزل عن منزلته ووبخته  
الملائكة بالتمثيل والتعريض حتى تفطن فاستغفر ربه وأتاب ووجد منه ما يحكى  
من بكانه الدائب وغمه الواصب وندمه الدائم فما الظن بهؤلاء الكفرة الأذلين  
من كل ذليل المرتكبين لأكبر الكبائر المصيرين على أعظم المعاصى أو تذكر  
قصته عليه الصلاة والسلام وصن نفسك أن نزل فيما كلفت من مصابرتهم  
وتحمل أذيتهم كيلاً يلقاك ما أقيه من المعاناة ﴿ ذا الأيد ﴾ أى ذا القوة يقال  
فلان أيد وذو أيد وآد بمعنى وايد كل شيء ما يتقوى به ﴿ انه أواب ﴾ رجاع  
إلى مرضاة الله تعالى وهو تعليل لكونه ذا الأيد ودليل على أن المراد به  
القوة فى الدين فإنه عليه الصلاة والسلام كان يصوم يوماً ويفطر يوماً  
ويقوم نصف الليل ﴿ لانا سخرنا الجبال معه ﴾ استئناف سيق لتعليل قوته  
فى الدين وأوابيته إلى مرضاته تعالى ومن متعلقة بالتسخير وإيثارها على اللام  
لما أشير إليه فى سورة الأنبياء من أن تسخير الجبال له عليه الصلاة والسلام  
لم يكن بطريق تفويض التصرف السكلى فيها إليه عليه الصلاة والسلام كالتسخير  
الريح وغيرها لسلطان عليه السلام بل بطريق التبعية له عليه الصلاة والسلام  
والإقتداء به فى عبادة الله تعالى وقيل متعلقة بما بعدها وهو أقرب بالنسبة إلى

إلى ما في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ يسبحن ﴾ أى يقدسن الله عز وجل بصوت يتمثل له أو بخلق الله تعالى فيها الكلام أو بلسان الحال وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال من الجبال وضع موضع مسبحات للدلالة على تجديد التسبيح حالا بعد حال أو استئناف مبين لكيفية التسخير ﴿ بالعشى والإشراق ﴾ أى وقت الإشراق وهو حين تشرق الشمس أى تضىء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى وأما شروقها فطلوعها يقال شرقت الشمس ولما تشرق وعن أم هانئ رضى الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام صلى صلاة الضحى وقال هذه الإشراق وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية .

﴿ والطير ﴾ عطف على الجبال ﴿ محشورة ﴾ حال من الطير والعامل سخرنا أى وسخرنا الطير حال كونها محشورة عن ابن عباس رضى الله عنهما كان إذا سبغ جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت وذلك حشرها وقرئ والطير محشورة بالرفع على الابتداء والخبرية ﴿ كل له أبواب ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله مصرح بما فهم منه إجمالاً من تسبيح الطير أى كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجاء إلى التسبيح ووضع الأبواب موضع المسبح لما لأنها كانت ترجع التسبيح والمرجع رجاء لأنه يرجع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع وإما لأن الأبواب هو التواب الكثير الرجوع إلى الله تعالى ومن دأبه لكثارة الذكر وإدامة التسبيح والتقديس وقيل الضمير لله عز وجل أى كل من داود والجبال والطير لله أبواب أى مسبح مرجع للتسبيح ﴿ وشددنا ملكه ﴾ قويناه بالهيبة والنهضة وكثرة الجنود وقرئ بالعشيدة للبالغة قيل كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مستبثم وقيل ادعى رجل على آخر بقرة ويجر عن إقامة البينة فأوحى الله تعالى إليه فى المنام أن اقلن المدعى عليه فتأخر فأعيد الوحي فى اليقظة فأعلمه الرجل فقال إن الله تعالى لم يأخذنى بهذا الذنب ولكن بأنى قتلت أباهم غيلة فقال الناس إن أذنب أخذ ذنباً أظهره الله تعالى عليه فقتلوه فيها بزة وعظمته هيبتهم فى القلوب ﴿ وأنبأه



الحكمة ﴿ النبوة وكال العلم وإتقان العمل وقيل الزبور وعلم الشرائع وقيل كل كلام وافق الحق فهو حكمة ﴾ (وفصل الخطاب) أى فصل الخاتم بتميز الحق عن الباطل أو الكلام الملتصق الذى ينبه المخاطب على المرام من غير التباس لما قد روعى فيه مضان الفصل والوصل والعطف والاستئناف والإظهار والإضمار والحذف والتكرار وإنما سمي به أما بعد لأنه يفصل المقصود عما سبق تمهيداً له كالجمد والصلاة وقيل هو الخطاب الفصل الذى ليس فيه إيجاز يخل ولا إطناب مل كما جاء في نعت كلام النبوة فصل لا زور ولا هذر ﴿ وهل أذاك نياً الخصم ﴾ استفهام معناه التعجيب والتشويق إلى استماع ما في حيزه لإيذانه بأنه من الأنبياء البديعة التى حقها أن تشيع فيما بين كل حاضر وباد والخصم فى الأصل مصدر ولذلك يطلق على الواحد وما فرقه كالضيف ومعنى خصمان فريقان.

﴿ إذ تسوروا المحراب ﴾ إذ تصعدوا سورة ونزلوا إليه والسور الحائط المرتفع ونظيره تسنمه إذا علا سلا سنامه وتذراه إذا علا ذروته وإذا متعلقة بمحذوف أى نبأ تحاكم الخصم إذ تسوروا أو بالنبا على أن المراد به الواقع فى عهد داود عليه السلام وأن إسناد الايتان إليه على حذف مضاف أى قصة نبأ الخصم أو بالخصم لما فيه من معنى الخصومة لا بأى لأن إتيانه الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن حينئذ وقوله تعالى ﴿ إذ دخلوا على داود ﴾ بدل مما قبله أو ظرف لتسوروا ﴿ ففرع منهم ﴾ روى أنه تعالى بعث إليه ملكين فى صورة إنسانين قيل هما جبريل وميكائيل عليهما السلام فطلبوا أن يدخلوا عليه فوجداه فى يوم عبادته فنهما الحرس فتسوروا عليه المحراب بمن معهما من الملائكة فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان ففرع منهم الأنهم نزلوا عليه بمن فوق على خلاف العادة والحرس حوله فى غير يوم الحكومة والقضاء قال ابن عباس رضى الله عنهما إن داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء يوماً للعبادة ويوماً للقضاء ويوماً للاشتغال بخاصة نفسه ويوماً للعطف والتذكير ﴿ قالوا ﴾ استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية فرعه بخلية الصلاة والسلام كأنه قيل فلما قالت الملائكة جند بشاهدتهم لفرعه بفعل قلوا لأن الالة القرع لا تحجب

خصمان) أى نحن فوجان متخاصمان على تسمية مصاحب الخصم خصما (بني  
بعضنا على بعض) هو على الفرض وقصد التعريض فلا كذب فيه (فاحكم  
بيننا بالحق ولا تشطط) أى لا تجر في الحكومة وقرىء ولا تشطط أى لا تبعث  
عن الحق وقرىء ولا تشطط<sup>(١)</sup> ولا تشاطط وكلها من معنى الشطط وهو مجاوزة  
الحد وتخطى الحق (واهدنا إلى سواء العرابط) إلى وسط طريق الحق بزجر  
الباغى عما سلكه من طريق الجور وإرشاده إلى منهاج العدل.

(إن هذا أخى) استئناف لبيان ما فيه الخصومة أى أخى فى الدين أو فى  
الصحة والتعرض لذلك تمهيد لبيان كمال قبح ما فعل به صاحبه (له تسع  
وتسعون نعمة ولى نعمة واحدة) هى الأثر من الضأن وقد يكنى بها عن المرأة  
والكنية والتعريض أبلغ فى المقصود وقرىء تسع وتسعون بفتح التاء ونعمة  
بكسر النون وقرىء ولى نعمة بسكون الياء (فقال أكفانيها) أى ملكنيها  
وحقيقته اجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدي وقيل أجعلها كفى أى نصيبى  
(وعزنى فى الخطاب) أى غابنى فى مخاطبته لإيادى محاجة بأن جاء بمحاجة لم  
أقدر على رده فى مغالته لإيادى أو فى الخطبة يقال خطبت المرأة وخطبها هو مخاطبتي  
خطابا أى غابنى فى الخطبة فعابنى حيث زوجها دونى وقرىء وعزنى أى غابنى  
وعزنى بهتخفيف الزاى طلبا للحنف وهو تخفيف غريب كأنه قيس على ظلت  
ومست (قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) جواب قديم محذوف  
قصد به عليه الصلاة والسلام المبالغة فى إنكار فعل صاحبه وتهجين طمعه فى  
نعجة من ليس له غيرها مع أن له قطيعا منها ولعله عليه الصلاة والسلام قال  
ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادعاه عليه أو بناء على تقدير صدق المبدع  
والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتمديته إلى مفعول آخر يالى لتضمنه معنى  
الإضافة والضم (وإن كثيرا من الخطاء) أى الشركاء الذين خلطوا أموالهم  
(ليبنى) ليعمدى وقرىء بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة وحذفها وبجذف  
الياء اكتفاء بالكسرة (ابعضهم على بعضى) غير مراعاة لحق الصحة والشمكة.

﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ منهم فإنهم يتعاملون عن البغى والعدوان ﴿وقليل ما هم﴾ أى وهم قليل وما من زيادة للإبهام والتعجب من قلتهم والجملة اعتراض ﴿وظن داود أنما فتناه﴾ الظن مستعار للعلم الاستدلالي لما بينهما من المشابهة الظاهرة أى علم بما جرى فى مجلس الحكومة وقيل لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ثم صعد إلى السماء خيال وجهه فعلم عليه الصلاة والسلام أنه تعالى ابتلاه وليس المعنى على تخصيص الفتنة به عليه الصلاة والسلام دون غيره بتوجيه القصر المستفاد من كلة أنما إلى المفعول بالقياس إلى مفعول آخر كما هو الاستعمال الشائع الوارد على توجيه القصر إلى متعلقات الفعل وقبوده باعتبار النفي فيه والإثبات فيها كما فى مثل قولك إنما ضربت زيدا وإنما ضربته تأديباً بل على تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام بالفتنة بتوجيه القصر إلى نفس الفعل بالقياس إلى ما ينفاه من الأفعال لكن لا باعتبار النفي والإثبات معاً فى خصوصية الفعل فإنه غير ممكن قطعاً بل باعتبار النفي فيما فيه من معنى مطلق الفعل واعتبار الإثبات فيما يقارنه من المعنى المخصوص فإن كل فعل من الأفعال المخصوصة ينحل عند التحقيق إلى معنى مطلق هو مدلول لفظ الفعل وإلى معنى مخصوص يقارنه ويقيده وهو أثره فى الحقيقة فإن معنى نصر مثلاً فعل النصر يرشدك إلى ذلك قولهم معنى فلان يعطى ويمنع بفعل الإعطاء والمنع فمورد القصر فى الحقيقة ما يتعلق بالفعل باعتبار النفي فيه والإثبات فيما يتعلق به فالمعنى وعلم داود عليه السلام أنما فعلنا به الفتنة لا غير قيل ابتليناه بامرأة أوريا وقيل امتحناه بذلك الحكومة هل يتنبه بها لما قصد منها وإيثار طريق التنبيل لأنه أبلغ فى التوبيخ فإن التأمل فيه إذا أداه إلى الشعور بما هو الغرض كان أوقع فى نفسه وأعظم تأثيراً فى قلبه وأدعى إلى التنبيه للخطأ مع ما فيه من مراعاة حرمة عليه الصلاة والسلام بترك المجاهرة والإشعار بأنه أمر يستحي من التصريح به وتصويره بصورة التحاكم لإلجائه عليه الصلاة والسلام إلى التصريح بنسبة نفسه إلى الظلم وتنبهه عليه الصلاة والسلام على أن أوريا بصدد الخصام .

﴿فاستغفر ربه﴾ إثر ما علم أن ما صدر عنه ذنب ﴿وخوفاً﴾ أى

ساجدا على تسمية الوجود ركوعا لأنه مبدؤه أوخر للسجود راكعا أى مصليا كأنه أحرم بركعتي الاستغفار ﴿وَأَنَاب﴾ أى رجع إلى الله تعالى بالتوبة . وأصل القصة أن داود عليه السلام رأى امرأة رجل يقال له أوريا قال قلبه إلیها فسأله أن يطلقها فاستحى أن يرده ففعل فتزوجها وهى أم سليمان عليه السلام وكان ذلك جازا فى شريعته<sup>(١)</sup> معتادا فيما بين أمتة غير غل بالمروءة حيث كان يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبتة وقد كان الانصار فى صدر الإسلام يواسون المهاجرين بمثل ذلك من غير تكبر خلا أنه عليه الصلاة والسلام لعظم منزلته وارتفاع مرتبته وعلو شأنه نبه بالتمثيل على أنه لم يكن ينبغي له أن يتعاطى ما يتعاطاه آحاد أمتة ويسأل رجلا ليس له إلا امرأة واحدة أن ينزل عنها فيتزوجها مع كثرة نسائه بل كان يجب عليه أن يغالب هواه ويقهر نفسه ويصبر على ما امتحن به وقيل لم يكن أوريا تزوجها بل كان خطبها ثم خطبها داود عليه السلام فأثر عليه السلام أهلها فكان ذنبه عليه الصلاة والسلام أن خطب على خطبة أخيه المسلم هذا وأما ما يذكر من أنه عليه الصلاة والسلام دخل ذات يوم محرابه وأعلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور فيبينها هو كذلك إذ جاءه الشيطان فى صورة حمامة من ذهب فمد يده لياخذها لابن صغير له فطارت فامتد إليها فطارت فوقمت فى كوة فتبعها فأبصر امرأة جميلة قد نقصت شعرها فغطى بدنها وهى امرأة أوريا وهو من غزاة البلقاء فكاتب إلى أيوب بن صوريا وهو صاحب بعث البلقاء أن أبعث أوريا وقدمه على الثابت وكان من يتقدم على الثابت. لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد ففتح الله تعالى على يده وسلم فأمر برزده مرة أخرى وثالثة حتى قتل وأثناء خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء وتزوج امرأته فأفلك مبتدع مكروه ومكر مخترع بشما مكروه تمجه الأسماع وتنفر عنه الطباع ويل لمن ابتدعه وأشاعه وتبأ لمن

(١) بل إن ذلك من خصائص النبي محمد صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يلجأ إليه  
أنظر لخصائص النبي لابن الملقن .

اخترعه وأذاعه ولذلك قال على رضى الله عنه من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلده مائة وستين وذلك حد القرية على الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم هذا وقد قيل إن قوما قصدوا أن يقتلوه عليه الصلاة والسلام فقتلوا المحراب ودخلوا عليه فوجدوا عنده أقواما فتصنعوا بهذا التحاكم فعلم عليه الصلاة والسلام غرضهم فهم بأن ينتقم منهم فظن أن ذلك ابتلاء له من الله عز وجل فاستغفر ربه بما هم به وأتاب ﴿ففغرنا له ذلك﴾ أى ما استغفر منه وروى أنه عليه الصلاة والسلام بقى ساجدا أربعين يوما وإيلة لا يرفع رأسه إلا للصلاة مكتوبة أو لما لا بد منه ولا يرقأ دمه حتى نبت منه العشب إلى رأسه ولم يشرب ماء إلا لثاء دمع وجهه نفسه راغبا إلى الله تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له إيشا على ملكه ودعا إلى نفسه فاجتمع إليه أهل الزبيغ من بنى إسرائيل فلما غضر له حارب به فهزمه ﴿وإن له عندنا لزلفى﴾ لقربة وكرامة بعد المغفرة ﴿وحسن مآب﴾ حسن مرجع فى الجنة ﴿يادادو إنا جعلناك خليفة فى الأرض﴾ إما حكاية لما خوطب به عليه الصلاة والسلام مبينة لزلفاء عنده عز وجل وإما مقول قول مقدر هو معطوف على غفرنا أو حال من فاعله أى وقتلنا له أو قاتلنا له يادادو الخ أى استخلفناك على الملك فيها والحكم فيما بين أهلها أو جعلناك خليفة من كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق وفيه دليل بين على أن حاله عليه الصلاة والسلام بعد التوبة كما كانت قبلها لم تتغير قط .

﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ يحكم الله تعالى فإن الخلافة بكلا معنييه مقتضية له حتما ﴿ولا تتبع الهوى﴾ أى هوى النفس فى الحكومات وغيرها من أمور الدين والدنيا ﴿فيضلك عن سبيل الله﴾ بالنصب على أنه جواب النهى وقيل هو مجزوم بالمعطف على النهى مفتوح لالتقاء الساكنين أى فيكون الهوى أو اتباعه سببا لضلالك عن دلائله التى نصبها على الحق تسكيونا وتشريعا وقوله تعالى ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله﴾ تعليل لما قبله ببيان غائله وإظهار سبيل الله فى موقع الإضمار لزيادة التقرير والإيدان بحال شناعة الضلال عنه

﴿ لهم عذاب شديد ﴾ جملة من خبر ومبتدأ وقعت خبراً لأن أو الظرف خبراً لأن وعذاب مرتفع على الفاعلية بما فيه من معنى الاستقرار ﴿ بما نسوا ﴾ بسبب نسيانهم وقوله تعالى ﴿ يوم الحساب ﴾ إما مفعول لنسوا فيكون تعليلاً صريحاً لثبوت العذاب الشديد لهم بنسيان يوم الحساب بعد الإشعار بعلة ما يستتبعه ويستلزمه أعنى الضلال عن سبيل الله تعالى فإنه مستلزم لنسيان يوم الحساب بالمرّة بل هذا فرد من أفراد أو ظرف لقوله تعالى لهم أى لهم عذاب شديد يوم القيامة بسبب نسيانهم الذى هو عبارة عن ضلالتهم ومن ضرورته أن يكون مفعوله سبيل الله فيكون التعليل المصرح به حيثئذ عين التعليل المضمرة به بالذات غيره بالعنوان ومن لم يتنبه لهذا السر السرى قال بسبب نسيانهم وهو ضلالتهم عن السبيل فإن تذكره يقتضى ملازمة الحق ومخالفة الهوى فتدبر ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ﴾ كلام مستأنف مقرر لما قبله من أمر البعث والحساب والجزاء أى وما خلقناهما وما بينهما من المخلوقات على هذا النظام البديع الذى تحار فى فهمه العقول خلقاً باطلاً أى خالياً عن الغاية الجليلة والحكمة الباهرة بل منطويّاً على الحق المبين والحكم البالغة حيث خلقنا من بين ما خلقنا نفوساً أودعناها العقل والتمييز بين الحق والباطل والنافع والضار ومكنها من التصرفات العلمية والعملية فى استجلاب منافعها واستدفاع مضارها ونصبتنا للحق دلائل آفاقية وأنفسية ومنعناها القدرة على الاستبصار فيها ثم لم نقهرهم على ذلك المقدار من الألفاف بل أرسلنا إليها رسلاً وأنزلنا عليها كتباً بينا فيها كل دقيق وجليل وأزحنا عللها بالكيفية وعرضناها بالكيفية للمنافع العظيمة وأعدنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالها ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما نفى من خلق ما ذكر باطلاً ﴿ ظن الذين كفروا ﴾ أى مظلونهم فإن جحودهم بأمر البعث والجزاء الذى عليه يدور ذلك تكوين العالم قول منهم بطلان خلق ما ذكر وخلوه عن الحكمة سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴿ فويل للذين كفروا ﴾ مبتدأ وخبر والفاء لإفادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم للباطل كما أن وضع الموصول موضع ضميرهم للإشعار بما فى خير الصلة

بعلية كفرهم له ولا تنافى بينهما لأن ظنهم من باب كفرهم ومن في قوله تعالى ﴿من النار﴾ تعليلية كما في قوله تعالى ﴿فويل لهم عما كتبت أيديهم﴾ ونظائره مفيدة لعلية النار لثبوت الويل لهم صريحا بعد الإشعار بعلية ما يؤدي إليها من ظنهم وكفرهم أى فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم وكفرهم .

﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ﴾ أم منقطعة وما فيها من بل للاضراب الانتقالي عن تقرير أمر البعث والحساب والجزاء بما مر من نفي خلق العالم غالبا عن الحكم والمصالح إلى تقريره وتحقيقه بما في الهمزة من إنكار التسوية بين الفريقين ونفيها على أبلغ وجه وأكده أى بل انجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين في أقطار الأرض كما يقتضيه عدم البعث وما يترتب عليه من الجزاء لاستواء الفريقين في التمتع بالحياة الدنيا بل الكفرة أوفر حظا منها من المؤمنين لكن ذلك الجعل محال فتعين البعث والجزاء حتما لرفع الأولين إلى أعلى عليين ورد الآخرين إلى أسفل سافلين وقوله تعالى ﴿ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ اضرب وانتقال عن إثبات ما ذكر يلزوم المحال الذى هو التسوية بين الفريقين المذكورين على الإطلاق إلى إثباته يلزوم ما هو أظهر منه استحالة وهو التسوية بين أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة وحمل الفجار على فجرة المؤمنين بما لا يساعده المقام ويجوز أن يراد بهذين الفريقين عين الأولين ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين هما أدخل في لإنكار التسوية من الوصفين الأولين وقيل قال كفار قريش للمؤمنين إنا نعطي في الآخرة من الخير ما تعطون فنزلت ﴿ كتاب ﴾ خبر مبتدأ محذوف هو عبارة عن القرآن أو السورة وقوله تعالى ﴿ أنزلناه إليك ﴾ صفته وقوله تعالى ﴿ مبارك ﴾ خبر ثانى المبتدأ أو صفة لكتاب جند من يجوز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح وقرئ مبارك على أنه حال من مفعول أنزلنا ومعنى المبالغة الكثير المنافع الدينية والدنيوية وقوله تعالى ﴿ ليديروا آياته ﴾ متعلق بأنزلنا أى أنزلناه ليتفكروا في آياته التى من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار التكوين والتشريع فيعبروا بآياتها من المعاني الفاتحة والتأويلات

اللائقة وقوى ليتدبروا على الأصل ولتدبروا على الخطاب أى أنت وعلما  
أمتك بحذف إحدى التاءين ﴿ ولتذكر أولو الألباب ﴾ أى وليتعض به ذوو  
العقول السليمة أو ليستحضروا ما هو كالمركز في عقولهم من فرط تمسكهم  
من معرفته لما نصب عليه من الدلائل فإن السكتب الإلهية مبينة لما لا يعرف  
إلا بالشرح ومرشدة إلى مالا سبيل للعقل إليه ﴿ وهبنا لداود سليمان نعم العبد ﴾  
وقرى نعم العبد أى سليمان كما ينهى عنه تأخير عن داود مع كونه مفعولا  
صريحا لوهبنا ولأن قوله تعالى ﴿ إنه أواب ﴾ أى رجاع إلى الله تعالى بالتوبة  
أو إلى التسبيح مرجع له تعليل للمدح وهو من حاله لما أن الضمير المجرور في  
قوله تعالى ﴿ إذ عرض عليه ﴾ راجع إليه عليه الصلاة والسلام قطعاً وإذ منصوب  
بأذكر أى أذكر ما صدر عنه إذ عرض عليه ﴿ بالعشى ﴾ هو من الظهور إلى آخر  
النهار ﴿ الصافات ﴾ فإنه يشهد بأنه أواب وقيل لنعم وتأخير الصافات عن  
الظرفين لما مر مرارا من التشويق إلى المؤخر والشافق من الخيل الذى يقوم  
على طرف سنبك يد أو رجل وهو من الصفات المحمودة فى الخيل لا يكاد  
يتفق إلا فى العراب الخالص وقيل هو الذى يجمع يديه ويسويهما وأما الذى  
يقف على سنبكه فهو المنخيم ﴿ الجياد ﴾ جمع جواد وجود وهو الذى يسرع فى  
جريه وقيل الذى يجود عند الركض وقيل وصفته بالصفون والجودة لبيان  
جمعها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية أى إذا وقفت كانت ساكنة  
مطمئنة فى مواقفها وإذا جرت كانت سراطا خفافا فى جريها وقيل هو جمع جيد  
روى أنه عليه الصلاة والسلام غزا أهل دمشق ونصيبين وأصاب ألف فرس  
وقيل أصابها أبوه من العمالة فورثها منه وقيل خرجت من البحر لها أجنحة  
فقعد يوما بعد ما صلى الظهر على كرسيه فاستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى  
غربت الشمس وغفل عن العصر أو عن ورد كان له من الذكر وقتئذ وتبينوه  
فلم يعلوه فاغتم لما فانه فاستردها فعقرها تقرر بالله تعالى وبقي مائة فما فى أيدي  
الناس من الجياد فمن نسلها وقيل لما عقرها أبدله الله خيرا منها وهى الريح  
تحرى بأمره .



﴿فقال إني أحببت حب الخير على ذكر ربي﴾ قاله عليه الصلاة والسلام عند غروب الشمس اعترافاً بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة وندماً عليه وتمييداً لما يعقبه من الأمر بردها وعقرها والتعقيب باعتبار أواخر العرض المستمر دون ابتدائه والتأكيد للدلالة على أن اعترافه وندمه عن صميم القلب لا لتحقيق مضمون الخبر وأصل أحببت أن يعدي بعلى لأنه بمعنى أثر لكن لما أنيب مناب أنبت عدى تعديته وحب الخير مفعوله كأنه قبل أنبت حب الخير عن ذكر ربي ووضعت موضعاً والخير المال الكثير والمراد به الخيل التي شغلته عليه الصلاة والسلام ويحتمل أنه سماها خيراً لتعلق الخير بها قال عليه الصلاة والسلام الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة وقرئ أني ﴿حق توارت بالحجاب﴾ متعلق بقوله أحببت باعتبار استمرار المحبة ودوامها حسب استمرار العرض أي أنبت حب الخير عن ذكر ربي واستمر ذلك حتى توارت أي غربت الشمس تشديداً لغروبها في مغربها بتوارى المخبات بحجابها وإضمارها من غير ذكر لدلالة العشى عليها وقيل الضمير لله افئات أي توارت بحجاب الليل أي بظلامه ﴿ردوها علي﴾ من تمام مقالة سليمان عليه السلام ومرى غرضه من تقديم ما قدمه ومن لم يقبض له مع ظهوره توهم أنه متصل بمضمر هو جواب لمضمر آخر كأن سائلاً قال فإذا قال سليمان عليه السلام فقبل قال ردوها فتأمل والفاء في قوله تعالى ﴿فطابق مسحا﴾ فصيحة مفصحة عن جملة قد حذفتم ثقة بدلالة الحال عليها وإيضاحاً بما يهتدي به سرعة الامتثال بالأمر أي فردوها عليه فأخذ يمسح السيف مسحا ﴿بالسوق والإعناق﴾ أي بسوقها وأعناقها يقطعها من قوتهم مسح علاوته أي ضرب عنقه عنه وقيل جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها حباً لها وإعجاباً بها وليس بذلك وقرئ بالسوق على وزن الوابض منها كما في أهو وقرئ بالسوق تنزيلاً لضممة السين منزلة ضمة الواو وقرئ بالساق اكتفاء بالواحد عن الجمع لأن الساق باللباس .

## فتنة سليمان

(ولقد فتنا سليمان وألقبنا على كرسیه جسدا ثم أناب ﴿﴾ أظهر ما قيل في فتنة عليه الصلاة والسلام ما روى مرفوعا أنه قال لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى ولم يقل إن شاء الله تعالى فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت يشق رجل والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون وقيل ولد له ابن فاجتمعت الشياطين على قتله فعمل ذلك فكان يغذوه في السحاب فما شعر به إلى أن ألقى على كرسیه ميتا ففتنه لخطئه حيث لم يتوكل على الله عز وعلا وقيل إنه غزا صيدون من الجزائر فقتل ملكها وأصاب بلثا له تسمى جرادة من أحسن الناس فاصطفاها لنفسه وأسلبت وأحبها وكان لا يرقا دمعها جزعا على أبيها فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولاندها يسجدن لها كعادتهن في ملكه فأخبره آصف بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائبا إلى الله تعالى باكيا متضرعا وكانت له أم ولد يقال لها أمينة إذا دخل للطهارة أو لإضابة امرأة يعطيها خاتمة وكان ملكه فيه فأعطاها يوما فتمثل لها بصورته شيطان اسمه صخر وأخذ الخاتم فتختم به وجلس على كرسیه فاجتمع عليه الخلق ونفذ حكمه في كل شيء إلا في نسائه وغير سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف وإذا قال أنا سليمان خشوا عليه الثراب وسبوه ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على ذلك أربعين صباحا عدد ما عبد الوثن في بيته فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان ثم طار اللعين وقذف الخاتم في البحر فابتلعت سمكه فوقعت في يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختم به وخر ساجدا وعاد إليه ملكه وجاب صخرة لصخر فجعله فيها وسد عليه بأخرى ثم أوتقهما

( ٣٧ — أبو السعود — رابع )

بالحديد والرصاص وقذفه في البحر وعلى هذا فالجسد عبارة عن صخر سمي به وهو جسم لا روح فيه لأنه تمثل بما لم يكن كذلك والخطيئة تغافله عليه الصلاة عن حال أهله لأن اتخاذ التماثيل لم يكن محظورا حينئذ وسجود الصورة بغير علم منه لا يضره (١).

(قال) بدل من أناب وتفسيره له (رب اغفر لي) أي ما صدر عني من الزلة (وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) لا يتسهل له ولا يكون ليكون معجزة لي مناسبة لحالي فإنه عليه الصلاة والسلام لما نشأ في بيت الملك والنبوة وورثهما معا استدعى من ربه معجزة جامعة لحكهما أولا ينبغي لأحد أن يسلبه من بعد هذه السلبه أو لا يصح لأحد من بعدي لعظمته كقولك لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال على إرادة وصف الملك بالعظمة لا أن لا يعطى أحد مثله فيكون منافسة وقيل كان ملكا عظيما يخاف أن يعطى مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله تعالى وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين جريا على سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين وكون ذلك أدخل في الإجابة وقرئ لي بفتح الياء (إنك أنت الوهاب) تعليل للدعاء بالمغفرة والهبه معا لا بالآخرة فقط فإن المغفرة أيضا من أحكام وصف الوهابية فقط.

(فسخرنا له الريح) أي فذللناها لطاعته إجابة لدعوته فعاد أمره عليه الصلاة والسلام إلى ما كان عليه قبل الفتنة وقرئ الرياح (تجري بأمره) بيان لتسخيرها له (رخاء) أي لبنة من الرخاوة طيبة لا تززع وقيل طيبة لا تمنع عليه كالأموال المنقاد (حيث أصاب) أي حيث قصد وأراد حكى الأصمعي عن العرب أصاب الصواب فأخطأ الجواب (والشياطين) عطف على الريح (كل بناء وغواص) بدل من الشياطين (وآخرين مقرنين في الأصفاد) عطف على كل بناء داخل في حكم البذل كأنه عليه الصلاة والسلام

(١) لا يخفى ما في هذه الأقوال من خرافة وبطلان.

فصل الشياطين إلى عملة استعمالهم في الأعمال الشاقة من البناء والغوص ونحو ذلك وإلى مردة قرن يعصمهم مع بعض في السلاسل لسكفهم عن الشر والفساد ولعل أجسامهم شفاقة فلا ترى صلابة فيمكن تقييدها ويقدرّون على الأعمال الصعبة وقد جوز أن يكون الإفزان في الأصناف عبارة عن كفهم عن الشرور بطريق التمثيل والصفد القيد وسمى به العطاء لأنه يرتبط بالمنعم عليه وفرقوا بين فعلهم ما فقالوا صفده قيده وأصفده أعطاه على عكس وعد وأوعد وقوله تعالى ﴿ هذا ﴾ الخ إما حكاية لميل خوطب به سليمان عليه السلام، مبينة لعظم شأن ما أوتي من الملك وأنه مفوض إليه تفويضا كلياً وإما مقول لقول مقدر هو معطوف على سخرنا أو حال من فاعله كما مر في خاتمة قصة داود عليه السلام أى وقتلناه أو قاتلناه له هذا الأمر الذى أعطيناك من الملك العظيم والبسطة والتسلط على مالم يسلط عليه غيرك ﴿ عطاؤنا ﴾ الخاص بك ﴿ فامنن أو أمسك ﴾ فأعط من شئت وامنع من شئت ﴿ بغير حساب ﴾ حال من المستمكن في الأمر أى غير محاسب على منه وإمساكه لتفويض التصرف فيه إليك على الإطلاق أو من العطاء أى هذا عطاؤنا ملتبسا بغير حساب لغاية كثرت له أو صلة له وما بينهما اعتراض على التقديرين وقيل الإشارة إلى تسخير الشياطين والمراد باليمن والإمساك الإطلاق والتقييد ﴿ وإن له عندنا لزلفى ﴾ أى فى الآخرة مع ما له من الملك العظيم فى الدنيا ﴿ وحنن مآب ﴾ هو الجنة قيل فتن سليمان عليه السلام بعد ما ملك عشرين سنة وملك بعد الفتنة عشرين سنة وذكر الفقيه أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى فى تاريخه أن سليمان عليه السلام ورث ملك أبيه فى عصر كينخسرو بن سياوش وسار من الشام إلى العراق فبلغ خبره كينخسرو فهرب إلى خراسان فلم يلبث حتى هلك ثم سار سليمان عليه السلام إلى مرو ثم إلى بلاد الترك فوغل فيها ثم جاز بلاد الصين ثم عطف إلى أن وافى بلاد فارس فنزلها أياماً ثم عاد إلى الشام ثم أمر ببناء بيت المقدس فلما فرغ منه سار إلى تامة ثم إلى صنعاء وكان من حديثه مع صاحبها ما ذكره الله تعالى ونحوا بلاد المغرب الأندلس وطنجة وغيرهما والله تعالى أعلم .

## ذكر الأنبياء والعبرة في حياتهم

(واذكر عبدنا أيوب) عطف عد اذكر عبدنا داود وعدم تصدير قصة سليمان بهذا العنوان لكمال الاتصال بينه وبين داود عليهما السلام وأيوب هو ابن عيص بن اسحق عليه السلام (إذ نادى ربه) بدل اشتمال من عبدنا وأيوب عطف بيان له (أنى) بأنى (مسئى الشيطان) بفتح ياء مسئى وقرىء بإسكانها وإسقاطها (بنصب) أى تعب وقرىء بفتح النون وبفتحيتين وبضميتين للتشكيل (وعذاب) أى ألم ووضب يريد مرضه وما كان يقاسيه من فنون الشدائد وهو المراد بالضرب فى قوله لى مسئى الضر وهو حكاية لسكلامه الذى ناداه به بعبارة وإلا لقليل إنه مسه الخ والإسناد إلى الشيطان إما لأنه تعالى مسه بذلك لما فعل يوسف وسسته كما قيل إنه أعجب بكثرة ماله أو استغاثه مظلوم فلم يغثه أو كانت مواشيه فى ناحية ملك كافر فداهته ولم يغزه أو لامتحان صبره فيكون اعترافا بالذنب أو مراعاة للأدب أو لأنه وسوس إلى أتباعه حتى رفضوه وأخرجوه من ديارهم أو لأن المراد بالنصب والعذاب ما كان يوسف وسوس به إليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه على الكراهة والجرع فالرجاء إلى الله تعالى فى أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق لدفعه وردة بالصبر الجميل وليس هذا تمام دعائه عليه الصلاة والسلام بل من جملة قوله (وأنت أرحم الراحمين) فاكتفى ههنا عن ذكره بما فى سورة الأنبياء كما ترك هناك ذكر الشيطان ثقة بما ذكر ههنا وقوله تعالى (اركض برجلك) الخ إما حكاية لما قيل له أو مقول لقول مقدر معطوف على نادى أى قلنا له اركض برجلك أى اضرب بها الأرض وكذا قوله تعالى (هذه مغتسل بارد وشراب) فإنه أيضا إما حكاية لما قيل له بعد امثاله بالأمر ونوع الماء أو مقول لقول مقدر معطوف على مقدر يفساق إليه الكلام كأنه قيل فضر بها فنبعت عين قلنا له هذا مغتسل تغتسل به وتشرب منه فيبرأ ظاهره وباطنك وقيل نبعت عينان حارة للاغتسال وباردة للشرب ويأباه ظاهر النظم

الكريم وقوله تعالى ﴿ ووهبنا له أهله ﴾ معطوف على مقدر مترتب على مقدر آخر يقتضيه القول المقدر آنفا كأنه قيل فاغتسل وشرب فكشفنا بذلك ما به من ضرر كما في سورة الأنبياء ووهبنا له أيضا أهله إما بإحيائهم بعد هلاكهم وهو المروى عن الحسن أو يجمعهم بعد تفرقهم كما قيل ﴿ ومن لهم معهم ﴾ عطف على أهله فكان له من الأولاد ضعف ما كان له قبل ﴿ رحمة منا ﴾ أى لرحمة عظيمة عليه من قبلنا ﴿ وذكر لأولى الأبواب ﴾ ولتذكيرهم بذلك ليصبروا على الشدائد كما صبر ويلجأوا إلى الله عز وجل فيما يحيق بهم كما لجأ ليفعل بهم ما فعل به من حسن العاقبة ﴿ وخذ بيدك ضعفنا ﴾ معطوف على اركض أو على وهبنا بتقدير قلنا أى وقلنا خذ بيدك الخ والأول أقرب لفظا وهذا أنسب معنى فإن الحاجة إلى هذا الأمر لا تمس إلا بعد الصحة فإن أمر أنه رحمة بذت افرأيم بن يوسف وقيل ليا بنت يعقوب وقيل ماصر بنت ميثا بن يوسف عليه السلام ذهبت الحاجة فأبطأت خلف إن يرى ليضر بها مائة ضربة فأمره الله تعالى بأخذ الضغث والضعف الحزمة الصغيرة من الخشب ونحوه وعن ابن عباس رضى الله عنهما قبضة من الشجر وقال ﴿ فاضرب به ﴾ أى بذلك الضغث ﴿ ولا تحنث ﴾ في يمينك فإن البر يتحقق به ولقد شرع الله سبحانه هذه الرخصة رحمة عليه وعليها الحسن خدمتها لإبائه ورضاه عنها وهى باقية ويجب أن يصيب المضروب كل واحد من المائة إما بأطرافها قائمة أو بأعراضها مبسوطة على هيئة الضرب ﴿ إنا وجدناه صابرا ﴾ فيما أصابه فى النفس والأهل والمال وليس فى شكواه إلى الله تعالى إخلال بذلك فإنه لا يسمى جزعا كتمنى العافية وطلب الشفاء على أنه قال ذلك خيفة الفتنة فى الدين حيث كان الشيطان يوسوس إلى قومه بأنه لو كان نبيا لما ابتلى بمثل ما ابتلى به وإرادة القوة على الطاعة فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان ويروى أنه عليه الصلاة والسلام قال فى مناجاته لإلهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ولم يتبع قلبى بهصرى ولم يهينى ما ملكت يمينى ولم آكل إلا ومعى يقيم ولم أبت شيعة ولا كاسيا ومعى جائع أو عريان فكشف الله تعالى عنه ﴿ نعم العبد ﴾ أى أيوب ﴿ إنه بأواب ﴾ تعليل لمدحه أى رجاء إلى الله تعالى :

(واذكر عبادنا إبراهيم وإسماعيل ويعقوب) عطف بيان لعبادنا وقرىء  
عبداً إما على أن إبراهيم وحده لما زيد شرفه عطف بيان وقيل بدل وقيل نصب  
ياضمار أعني والباقيان عطف على عبداً وإما على أن عبداً اسم جنس وضع  
موضع الجمع (أولى الأيدي والأبصار) أولى القوة في الطاعة والبصيرة في الدين  
أو أولى الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة فمير بالأيدي عن الأعمال لأن أكثرها  
تباشر بها وبالأبصار عن المعارف لأنها أقوى مبادئها وفيه تدريس بالجهلة  
البطالين أنهم كالزمنى والعامة وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع تمسكهم  
منهما وقرىء أولى الأيدى بطرح الياء والاكتفاء بالكسر وقرىء أولى الأيدى  
على جمع الجمع (إنا أخلصناهم بخالصة) تعليل لما وصفوا به من شرف العبودية  
وعلو الرتبة في العلم والعمل أى جعلناهم خالصين لنا بخالصة خالصة الشأن  
كما يتوهم عنه التشكيك التفتيحى وقوله تعالى (ذكرى الدار) بيان للخالصة بعد  
إبهامها للتفتيح أى تذكر للدار الآخرة دائماً فإن خلوصهم في الطاعة بسبب  
تذكرهم لها وذلك لأن مطمح أنظارهم ومطرح أفكارهم في كل ما يأتون  
وما يذرون جوار الله عز وجل والفوز ببقائه ولا يتسنى ذلك إلا في الآخرة  
وقيل أخلصناهم بتوفيقهم لها واللطف بهم في اختيارها ويعضد الأول قراءة من  
قرأ بخالصتهم وإطلاق الدار للإشعار بأنها الدار في الحقيقة وإنما الدنيا معبر  
وقرىء يا ضافة خالصة إلى ذكرى أى بما خلاص من ذكرى الدار على معنى أنهم  
لا يشوبون ذكراً بها آخر أصلاً أو تذكرهم الآخرة وترغبهم فيها وتزهدهم  
في الدنيا كما هو شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل ذكرى الدار الثناء  
الجميل في الدنيا ولسان الصدق الذى ليس لغيرهم .

(ولأنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) لمن المختارين من أمثالهم المصطفين  
عليهم في الخير والأخيار جمع خير كشر وأشرار وقيل جمع خير أو خير مخفف  
منه كأموات في جمع ميت وميت (واذكر إسماعيل) فصل ذكره عن ذكر  
أبيه وأخيه للإشعار بعراقته في الصبر للذى هو المقصود بالذكور (واليسع)  
هو ابن أخطوب بن العجوز استخلفه إلياس على بني إسرائيل ثم استنجد واللام

فيه حرف تعريف دخل على يسع كما في قول من قال « رأيت الوليد بن يزيد مباركا » وقرئ واللبس كأن أصله ليسع فيل من اللسع دخل عليه حرف التعريف وقيل هو على القراءتين علم أعجمي دخل عليه اللام وقيل هو يوشع ﴿وذا الكفل﴾ هو ابن عم يسع أو بشر بن أيوب واختلف في نبوته ولقبه فقيل فر إليه مائة نبي من بني إسرائيل من القتل فأواهم وكفلهم وقيل كفل بعمل رجل صالح كان يصلي كل يوم مائة صلاة ﴿وكل﴾ أى وكلهم ﴿من الأخيار﴾ المشهورين بالخيرية ﴿هذا﴾ إشارة إلى ما تقدم من الآيات الناطقة بمحاسنهم ﴿ذكر﴾ أى شرف لهم وذكر جميل يذكرون به أبداً أو نوع من الذكر الذى هو القرآن وباب منه مشتمل على أنباء الأنبياء عليهم السلام وعن ابن عباس رضى الله عنهما هذا ذكر من مضى من الأنبياء وقوله تعالى ﴿ولن للمتقين لحسن مآب﴾ شروع فى بيان أجرهم الجزيل فى الآجل بعد بيان ذكرهم الجميل فى العاجل وهو باب آخر من أبواب التنزيل والمراد بالمتقين إما الجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا وإما نفس المذكورين عبر عنهم بذلك متدحا لهم بالتقوى التى هى الغاية القاصية من الكمال ﴿جنات عدن﴾ عطف بيان لحسن مآب عند من يجوز تخالفهما تعريفا وتنكيها فإن عدنا معرفة لقوله تعالى ﴿جنات عدن التى وعد الرحمن عباده﴾ أو بدل منه أو نصب على المدح وقوله تعالى ﴿مفتحة لهم الأبواب﴾ حال من جنات عدن والعامل فيها ما فى للمتقين من معنى الفعل والأبواب مرتفعة باسم المفعول والرابط بين الحال وصاحبها إما ضمير مقدر كما هو رأى البصريين أى الأبواب منها أو الألف واللام القائمة مقامه كما هو رأى الكوفيين إذ الأصل أبوابها وقرئنا مرفوعتين على الابتداء والخبر أو على أنهما خبران لمحدوف أى هى جنات عدن هى مفتحة .

﴿متكئين فيها﴾ حال من ضمير هم والعامل فيها مفتحة وقوله تعالى ﴿يدعون فيها بغاكة كثيرة وشراب﴾ استئناف لبيان حالهم فيها وقيل هو أيضا حال بما ذكر أو من ضمير متكئين والاختصار على دعاء الفاكهة للإيذان بأن مطاعهم لمحض التفسك والتلذذ دون التخذى فإنه لتحصيل بدل المتحلل



ولا تحمل ثمة ﴿وعندهم قاصرات الطرف﴾ أى على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ﴿أتراب﴾ لذات لهم فإن التحاب بين الأقران أرسخ أو بعضهم لبعض لا عجوز فيهن ولا صبية واشتقاقه من التراب فإنه يمسهم فى وقت واحد ﴿هذا ما توعدون ليوم الحساب﴾ أى لأجله فإن الحساب علة للوصول إلى الجزاء وقرئ بالياء ليوافق ما قبله والالتفات أليق بمقام الامتنان والتكريم ﴿إن هذا﴾ أى ما ذكر من أنواع النعم والكرامات ﴿لرقتنا﴾ أعطينا كوه ﴿ماله من نفاد﴾ انقطاع أبدا ﴿هذا﴾ أى الأمر هذا أو هذا كما ذكر أو هذا ذكر وقوله تعالى ﴿وإن للطاغين لشر مآب﴾ شروع فى بيان أزداد الفريق السابق ﴿جهنم﴾ إعرابه كما سلف ﴿يصلونها﴾ أى يدخلونها حال من جهنم ﴿فبئس المهاد﴾ وهو المهد والمفرش مستعار من فراش النائم والمخصوص بالذم محذوف وهو جهنم لقوله تعالى ﴿لهم من جهنم مهاد﴾ ﴿هذا فليذوقوه﴾ أى ليذوقوا هذا فليذوقوه كقوله تعالى ﴿ولياى فارهون﴾ أو العذاب هذا فليذوقوه أو هذا مبتدأ خبره ﴿حميم وغساق﴾ وما بينهما اعتراض وهو على الأولين خبر مبتدأ محذوف أى هو حميم والغساق ما يغسق من صديد أهل النار من غسقت العين إذا سال دمعها وقيل الحميم يحرق بحره والغساق يحرق ببرده وقيل لو قطرت منه قطرة فى المشرق لتنت<sup>(١)</sup> أهل المغرب ولو قطرت قطرة فى المغرب لتنت<sup>(٢)</sup> أهل المشرق وقيل الغساق عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى وقرئ بتخفيف السين ﴿وآخر من شكله﴾ أى ومذوق آخر أو عذاب آخر من مثل هذا المذوق أو العذاب فى الشدة والفضاعة وقرئ وآخر أى ومذوقات آخر أو أنواع عذاب آخر وتوحيد ضمير شكله بتأويل ما ذكر أو الشراب الشامل للحميم والغساق أو هو راجع إلى الغساق ﴿أزواج﴾ أى أجناس وهو خبر لآخر لأنه يجوز أن يكون ضروبا أو صفة له أو للثلاثة أو مرتفع بالجوار والخبر محذوف مثل لهم .

(١) فى ١١ : لأننت أهل المشرق . . والمغرب .

﴿ هذا فوج مقتحم معكم ﴾ حكاية ما يقال من جهة الخزنة لرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار واقتحمها معهم فوج كانوا يتبعونهم في الكفر والضلالة والاقترحام الدخول في الشيء بشدة قال الراغب الاقترحام توسط شدة مخيفة وقوله تعالى ﴿ لا مرحبا بهم ﴾ من إتمام كلام الخزنة بطريق الدعاء على الفوج أو صفة للفوج أو حال منه أى مقول أو مقولا في حقهم لا مرحبا بهم أى لا أتوا مرحبا أو لا رحبت بهم الدار مرحبا ﴿ إنهم صالوا النار ﴾ تعليل من جهة الخزنة لاستحقاقهم الدعاء عليهم أو وصفهم بما ذكر وقيل لا مرحبا بهم إلى هنا كلام الرؤساء في حق أتباعهم عند خطاب الخزنة لهم باقترحام الفوج معهم تضجرا من مقارنتهم وتنفرا من مصاحبتهم وقيل كل ذلك كلام الرؤساء بعضهم مع بعض في حق الأتباع ﴿ قالوا ﴾ أى الأتباع عند سماعهم ما قيل في حقهم ووجه خطابهم للرؤساء في قولهم ﴿ بل أنتم لا مرحبا بكم ﴾ الخ على الوجهين الأخيرين ظاهر وأما على الوجه الأول فاعلمهم إنما خاطبوه مع أن الظاهر أن يقولوا بطريق الاعتذار إلى الخزنة بل هم لا مرحبا بهم الخ قصدا منهم إلى إظهار صدقهم بالمخاطبة مع الرؤساء والتحاكم إلى الخزنة طمعا في قضائهم بتخفيف عذابهم أو تضعيف عذاب خصمائهم أى بل أنتم أحق بما قيل لنا أو قلتم وقوله تعالى ﴿ أنتم قدمتموه لنا ﴾ تعليل لأحقيتهم بذلك أى أنتم قدمتم العذاب أو الصل لنا وأوقعتمونا فيه بتقديم ما يؤدي إليه من العقائد الزائفة والأعمال السيئة وتزيينها في أعيننا وإغرائنا عليها لا أنا باشرناها من تلقاء أنفسنا ﴿ فبئس القرار ﴾ أى فبئس المقر جهنم قصدوا بذمها تغليظ جناية الرؤساء عليهم ﴿ قالوا ﴾ أى الأتباع أيضاً وتوسطه بين كلامهم لما بينهما من التباين البين ذاتا وخطابا أى قالوا معرضين عن خصوصتهم متضرعين إلى الله تعالى ﴿ ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار ﴾ كقولهم ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ﴾ أى عذابا مضاعفا أى ذا ضعف وذلك بأن يزيد عليه مثله ويكون ضعفين كقوله ﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ وقيل المراد بالضعف الحيات والأفاعى.

﴿ وقالوا ﴾ أى الطاغون ﴿ ما لنا لا نرى رجلا كذا نعدم من الأشرار ﴾

يعنون فقراء المسلمين الذين كانوا يسترذلونهم ويستخرون منهم ﴿أتخذناهم سخرى﴾  
 بهمزة استفهام سقطت لأجلها همزة الوصل والجملة استئناف لا محل لها من  
 الإعراب قالوه إنكاراً على أنفسهم وتأنيداً لها في الاستسخرار منهم ﴿أم زأغت  
 عنهم الأبصار﴾ متصل باتخذناهم على أن أم متصلة والمعنى أى الأمرين فعلنا بهم  
 الاستسخرار منهم أم الازدراء بهم وتحقيرهم وإن أبصارنا كانت تزيف عنهم  
 وتقتحمهم على معنى إنكار كل واحد من الفعلين على أنفسهم توبيخاً لها أو على  
 أنها منقطعة والمعنى أتخذناهم سخرى بل أزأغت عنهم أبصارنا كقولك أزيد عندك  
 أم عندك عمرو على معنى توبيخ أنفسهم على الاستسخرار ثم الإضراب والانتقال  
 منه إلى التوبيخ على الازدراء والتحقير وقرئ اتخذناهم بغير همزة على أنه صفة  
 أخرى لرجالاً فقوله تعالى أم زأغت متصل بقوله ما لنا لا نرى والمعنى ما لنا  
 لا نراهم فى النار أليسوا فيها ولذلك لانراهم أم زأغت عنهم أبصارنا وهم فيها وقد  
 جوز أن تكون الهمزة مقدرة على هذه القراءة وقرئ سخرى بضم السين ﴿إن  
 ذلك﴾ أى الذى حكى من أحوالهم ﴿لحق﴾ لا بد من وقوعه البتة وقوله تعالى  
 ﴿تخاضع أهل النار﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة بيان لذلك وفى الإيهام أولاً  
 والتبيين تأنيهاً مزيد تقرير له وقيل بدل من محل ذلك وقيل بدل من حق أو  
 عطف بيان له وقرئ بالنصب على أنه بدل من ذلك وما قيل من أنه صفة له  
 فقد قيل عليه أن اسم الإشارة لا يوصف إلا بالمعروف باللام يقال بهذا الرجل  
 ولا يقال بهذا غلام الرجل .

### وظيفة الرسول

﴿قل﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول للبشر كين ﴿إنما  
 أنا منذر﴾ من جهته تعالى أنذركم عذابه ﴿وما من إله﴾ فى الوجود ﴿إلا الله  
 الواحد﴾ الذى لا يقبل الشراكة والكثرة أصلاً ﴿القهار﴾ لكل شيء سواء  
 ﴿رب السموات والأرض وما بينهما﴾ من المخلوقات فكيف يتوهم أن يكون  
 له شريك منها ﴿العزیز﴾ الذى لا يغلب فى أمر من أموره ﴿الغفار﴾ المبالغ

في المغفرة يغفر ما يشاء لمن يشاء وفي هذه النعوت من تفرير التوحيد والوعد للوحدين والوعيد للمشركين ما لا يخفى وتثنية ما يشعر بالوعيد من وصفي القهر والعزة وتقديهما على وصف المغفرة لتوفية مقام الإنذار حقّه ﴿ قل ﴾ تكرير الأمر للإيدان بأن المقول أمر جليل له شأن خطير لا بد من الاعتناء به أمرا وإتجارا ﴿ هو ﴾ أى ما أنبأتكم به من أنى منذر من جهته تعالى وأنه تعالى واحد لا شريك له وأنه متصف بما ذكر من الصفات الجليلة والأظهر أنه القرآن وما ذكر داخل فيه دخولا أوليا كما يشهد به آخر السورة الكريمة وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة ﴿ نأ عظيم ﴾ وارد من جهته تعالى وقوله تعالى ﴿ أتم عنه معرضون ﴾ استئناف فاع عليهم سوء صنيعهم به ببيان أنهم لا يقدرّون قدره الجليل حيث يعرضون عنه مع عظمتهم وكونه موجبا للإقبال الكلى عليه وتلقيه بحسن القبول وقيل صفة أخرى لنبا وقوله تعالى ﴿ ما كان لى من علم بالملا الأعلى ﴾ الخ استئناف مسوق لتحقيق أنه نأ عظيم وارد من جهته تعالى بذكر نأ من أنبأته على التفصيل من غير ما بقية معرفة به ولا مباشرة سبب من أسبابها المعتادة فإن ذلك حجة بينة دالة على أن ذلك بطريق الوحى من عند الله تعالى وأن سائر أنبيائه أيضا كذلك والملا الأعلى هم الملائكة وآدم عليهم السلام وإبليس عليه اللعنة وقوله تعالى ﴿ إذ يختصمون ﴾ متعلق بمحذوف يقتضيه المقام إذ المراد نفى عنه عليه الصلاة والسلام بحالهم لا بذواتهم والتقدير ما كان لى فيما سبق علم ما بوجه من الوجوه بحال الملا الأعلى وقت اختصاصهم وتقدير الكلام كما اختاره الجمهور تحجير للواسع فإن عليه عليه الصلاة والسلام غير مقصور على ما جرى بينهم من الأقوال فقط بل عام لها وللأفعال أيضا من سجود الملائكة واستكبار إبليس وكفره حسبما ينطق به الوحى فلا بد من اعتبار العموم في نفيه أيضا لا محالة وقوله تعالى :

﴿ إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين ﴾ اعتراض وسط بين إجمالى اختصاصهم وتفصيله تقريراً لثبوت عليه عليه الصلاة والسلام وتعييناً لسببه إلا أن بيان انتفائه فيما سبق لما كان متبئاً عن نبوته الآن ومن البين عدم ملاسته

عليه الصلاة والسلام بشيء من مبادئ المعهودة تعين أنه ليس إلا بطريق الوحي  
 حتماً فجعل ذلك أمراً مسلم الثبوت غنياً عن الإخبار به قصداً وجعل مصب الفائدة  
 والمقصود إخبار ما هو داع إلى الوحي ومصحح له تحقيقاً لقوله تعالى (إنما  
 أنا منذر) في ضمن تحقيق عليه الصلاة والسلام بقصة الملائكة الأعلى فالقائم  
 مقام الفاعل ليوحى إما ضمير عائد إلى الحال المقدر أو ما يعمه وغيره فالمعنى  
 ما يوحى إلى حال الملائكة الأعلى أو ما يوحى إلى ما يوحى من الأمور الغيبية التي  
 من جملتها حالهم إلا لأنما أنا نذير مبين من جهته تعالى فإن كونه عليه الصلاة  
 والسلام كذلك من دواعي الوحي إليه ومن موجباته حتماً وأما أن القائم مقام  
 الفاعل هو الجار والمجرور أو هو أنما أنا نذير مبين بلا تقدير الجار وأن المعنى  
 ما يوحى إلى إلا للإنذار أو ما يوحى إلى إلا أن أنذر وأبلغ ولا أفرط في ذلك  
 كما قيل فمع ما فيه من الاضطراب إلى التكلف في توجيه قصر الوحي على كونه  
 للإنذار في الأول وقصره على الإنذار في الثاني فلا يساعده سباق النظم الكريم  
 وسياقه كيف لا والاعتراض حيثئذ يكون أجنياً مما توسط بينهما من إجمال  
 الاختصاص وتفصيله فتأمل والله المرشد وقرئ إنما بالسكسر على الحكاية  
 وقوله تعالى :

((إذ قال ربك للملائكة) شروع في تفصيل ما أجل من الاختصاص الذي  
 هو ما جرى بينهم من التقاول وحيث كان تكليمه تعالى إياهم بواسطة الملك  
 صح إسناد الاختصاص إلى الملائكة وإذ بدل من إذ الأولى وليس من ضرورة  
 البدلية دخولها على نفس الاختصاص بل يكفى اشتغال ما في حيزها عليه فإن  
 القصة ناطقة بذلك تفصيلاً والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره  
 عليه الصلاة والسلام لتشريفه والإيذان بأن وحي هذا النبأ إليه تربية وتأيد  
 له عليه الصلاة والسلام والكاف وارد باعتبار حال الأمر لكونه أدل على  
 كونه وحياً منزلاً من عنده تعالى كما في قوله تعالى قل (يا عبادي الذين أسرفوا  
 على أنفسهم) الخ دون حال المأمور ولما لقليل ربى لأنه داخل في حيز الأمر  
 ((إلى خالق)) أي فيما سيأتي وفيه ما ليس في صيغة المضارع من الدلالة على

أنه تعالى فاعل له البتة من غير صارفت يلويه<sup>(١)</sup> ولا عاطف يثنيه ﴿بشراً﴾  
 قيل أى جسماً كشيئاً يلاقي ويباشر وقيل خلقاً بادى البشرة بلا صوف ولا شعر  
 ولعل ما جرى عند وقوع المحكى ليس هذا الاسم الذى لم يخلق مسله حيثئذ  
 فضلاً عن تسميته به بل عبارة كاشفة عن حاله وإنما عبر عنه بهذا الاسم عند  
 الحكاية ﴿من طين﴾ لم يتعرض لأوصافه من التغير والاسوداد والمسئولية  
 اكتفاء بما ذكر فى مواقع آخر ﴿فاذا سويته﴾ أى صورته بالصورة الإنسانية  
 والخلقة البشرية أو سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه ﴿ونفخت فيه من  
 روحي﴾ النفخ لإجراء الريح إلى تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها  
 وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وإنما هو تمثيل لإفاضة ما به الحياة بالفعل على المادة  
 القابلة لها أى فإذا كملت استعداداه وأفضت عليه ما يحى به من الروح التى هى  
 من أمرى ﴿فقعوا له﴾ أمر من وقع وفيه دليل على أن المأمور به ليس مجرد  
 الانحناء كما قيل أى اسقطوا له ﴿ساجدين﴾ تحية له وتكريماً .

﴿فسجد الملائكة﴾ أى تخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد له الملائكة  
 ﴿كلهم﴾ بحيث لم يبق منهم أحد إلا سجد ﴿أجمعون﴾ أى بطريق المعية  
 بحيث لم يتأخر فى ذلك أحد منهم عن أحد ولا اختصاص لإفادة هذا  
 المعنى بالحالية بل يفيد التأكيد أيضاً وقيل أكد بتأكيدين مبالغة فى التعميم  
 هذا وأما أن سجودهم هذا هل ترتب على ما حكى من الأمر التعليق كما تقتضيه  
 هذه الآية الكريمة والتى فى سورة الحجر فإن ظاهرهما يستدعى ترتبه عليه من  
 غير أن يتوسط بينهما شيء غير ما يفصح عنه الغاء الفصيحة من الخلق والتسوية  
 ونفخ الروح أو على الأمر التنجيزى كما يقتضيه ما فى سورة البقرة وما فى سورة  
 الأعراف وما فى سورة بنى إسرائيل وما فى سورة الكهف وما فى سورة طه  
 من الآيات الكريمة فقد مرت تحقيقه بتوفيق الله عز وجل فى سورة البقرة وسورة  
 الأعراف ﴿إلا إبليس﴾ استثناء متصل لما أنه كان جنياً مفرداً مغموراً بالوف

عن الملائكة موصوفاً بصفاتهم فغلبوا عليه ثم استثنى استثناء واحد منهم أولاً  
من الملائكة جنساً يتوالدون وهو منهم أو منقطع وقوله تعالى ﴿ استكبر ﴾  
على الأول استئناف مبين لكيفية ترك السجود المفهوم من الاستثناء فإن تركه  
يحتمل أن يكون للتأمل والتروى وبه يتحقق أنه للإباء والاستكبار وعلى الثاني  
يحوز اتصاله بما قبله أى لكن إبليس استكبر ﴿ وكان من الكافرين ﴾ أى وصار  
منهم بمخالفته للأمر واستكباره عن الطاعة أو كان منهم فى علم الله تعالى  
عز وجل ﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ أى خلقته  
بالذات من غير توسط أب وأم والثنية لإبراز كمال الاعتناء بخلقه عليه الصلاة  
والسلام المستدعى لإجلاله وإعظامه قصداً إلى تأكيد الإنكار وتشديد التوبيخ  
﴿ استكبرت ﴾ بهمة الإنكار وطرح همزة الوصل أى أتكبرت من غير  
استحقاق ﴿ أم كنت من العالين ﴾ المستحقين للتفوق وقيل استكبرت الآن  
أما لم تزل منذ كنت من المستكبرين وقرئ بحذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة  
أما عليها وقوله تعالى ﴿ قال أنا خير منه ﴾ ادعاء منه لشئ مستلزم لمنعه  
من السجود على زعمه وإشعار بأنه لا يليق أن يسجد الفاضل للمفضول كما  
يعرب عنه قوله ﴿ لم أكن لأسجد لشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾  
وقوله تعالى :

﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ تعليل لما ادعاه من فضله عليه عليه  
الصلاة والسلام ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر  
ووزل عنه ما من جهة الفاعل كما أنبأ عنه قوله تعالى ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ وما من جهة  
الصورة كما نبه عليه قوله تعالى ﴿ وفتخت فيه من روحي ﴾ وما من جهة الغاية وهو  
ملك الأمر ولذلك أمر الملائكة بسجودهم عليهم السلام حين ظهر لهم أنه أعلم  
منهم بما يدور عليه من أمر الخلافة فى الأرض وأن له خواص ليست لغيره  
﴿ قال فاخرج منها ﴾ الفاء لترتيب الأمر على ما ظهر من اللعين من المخالفة للأمر  
الجليل وتعليلها بالأباطيل أى فاخرج من الجنة أو من زمرة الملائكة وهو  
المراد بالأمر بالهبوط لا الهبوط من السماء كما قيل فإن وسوسته لأدم عليه

السلام كانت بعد هذا الطرد وقديين كيفية وسوسته في سورة البقرة وقيل اخرج من الخلقة التي كنت فيها وانسلخ منها فإنه كان يفتخر بخلقته فغضب الله خلقته فاسود بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسنا وأظلم بعد ما كان نورانيا وقوله تعالى ﴿ فإنك رجيم ﴾ تعليل للأمر بالخروج أي مطرود من كل خير وكرامة فإن من يطرد يرجم بالحجارة أو شيطان يرجم بالشهب ﴿ وأن عليك لعنتي ﴾ أي لإبغادي عن الرحمة وتقييدها بالإضافة مع إطلاقها في قوله تعالى ﴿ وأن عليك اللعنة ﴾ لما أن لعنة اللاعنين من الملائكة والثقلين أيضا من جهته تعالى وأنهم يدعون عليه بلعنة الله تعالى وإبعاده من الرحمة ﴿ إلى يوم الدين ﴾ أي يوم الجزاء والعقوبة وفيه إيدان بأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لجنايته بل هي أنموذج لما سيلقاه مستمرا إلى ذلك اليوم لكن لا على أنها تنقطع يومئذ كما يوهمه ظاهر التوقيت بل على أنه سيلقى يومئذ من ألوان العذاب وأفانين العقاب ما ينسى عنده اللعنة وتصير كالزائل ألا يرى إلى قوله تعالى ﴿ فأذن مؤذنينهم أن لعنة الله على الظالمين ﴾ وقوله تعالى ﴿ ويلعن بعضهم بعضا ﴾ .

﴿ قال رب فأظنني ﴾ أي أمهاني وأخوتي ، والفاء متعلقة بمحذوف ينسحب عليه الكلام أي إذ جعلتني رجما فأمهاني ولا تمنني ﴿ إلى يوم يعثون ﴾ أي أتهم وذريته للجزاء بعد فنائهم وأراد بذلك أن يجد فسحة لإغوائهم ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت بالسكينة إذ لا موت بعد يوم البعث .

﴿ قال فإنك من المنظرين ﴾ ورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعريض لشمول ما سألته لآخرين على وجه يشعر بكون السائل تبعا لهم في ذلك دليل واضح على أنه إخبار بالإنظار المقدر لهم ألا لا لإنشاء لإنظار خاص به وقد وقع إجابة لدعائه وأن استنظاره كان طلبا لتأخير الموت إذ به يتحقق كونه منهم لا لتأخير العقوبة كما قيل فإن ذلك معلوم من إضافة اليوم إلى الدين أي إنك من جملة الذين أخرت آجالهم ألا حسبا تقتضيه حكمة التكوين ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ الذي قدره الله وعينه لفناء الخلاق وهو وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذي هو المستول فالفاء ليست لربط نفس الانظار بالاستنظار بل لربط الإخبار المذكور به كما في قول من قال :



• فإن ترحم فأنت لذلك أهل •

فإنه لا إمكان لجعل الفاء فيه لربط ماله تعالى من الأهلوية القديمة للرحمة الحادثة بل هي لربط الإخبار بتلك الأهلوية للرحمة بوقوعها ، هذا وقد ترك التوقيت في سورة الأعراف كما ترك النداء والفاء في الاستنظار والأنظار تعويلاً على ما ذكره هنا وفي سورة الحجر وإن خطر ببالك أن كل وجه من وجوه النظم الكريم لا بد أن يكون له مقام يقتضيه مغاير لمقام غيره وأن ما حكى من اللعين إنما صدر عنه مرة وكذا جوابه لم يقع إلا دفعة فمقام الاستنظار والأنظار إن اقتضى أحد الوجوه المحكية فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال والبالغ إلى رتبة البلاغة ودرجة الإعجاز وأما ما عداه من الوجوه فهو بمنزل من بلوغ طبقة البلاغة فضلاً عن العروج إلى معارج الإعجاز فقد سلف تحقيقه في سورة الأعراف بفضل الله تعالى وتوفيقه ﴿ قال فبعتك ﴾ الباء للقسم والفاء لترتيب مضمون الجملة على الإنظار ولا ينافيه قوله تعالى فيما أغويتني وقوله رب بما أغويتني فإن إغواءه تعالى إياه أثر من آثار قدرته تعالى وعزته وحكمه من أحكام قهره وسلطنته فآل الإقسام بهما واحد ولعل اللعين أقسم بهما جميعاً لحكي نارة قسمه بأحدهما وأخرى بالآخر أى فأقسم بعزتك ﴿ لأغوينهم أجمعين ﴾ أى ذرية آدم بتزيين المعاصي لهم .

﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ وهم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمتهم من الغواية وقرى المخلصين على صيغة الفاعل أى الذين أخلصوا قلوبهم وأعمالهم لله تعالى ﴿ قال ﴾ أى الله عز وجل ﴿ فالحق وألحق أقول ﴾ برفع الأول على أنه مبتدأ محذوف الخبر أو خبر محذوف المبتدأ ونصب الثانى على أنه مفعول لما بعده قدم عايه للقصر أى لا أقول إلا الحق والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى فالحق قسمي ﴿ لأملأن جهنم ﴾ على أن الحق إما اسمه تعالى أو نقيض الباطل عظمه الله تعالى بإقسامه به أو فانا الحق أو فقولى الحق وقوله تعالى ﴿ لأملأن جهنم ﴾ الخ حيثند جواب لقسم محذوف أى والله

لأملأن الخ وقوله تعالى : ( والحق أقول ) على كل تقدير اعتراض مقرر على الوجهين الأولين لمضمون الجملة القسمية وعلى الوجه الثالث لمضمون الجملة المتقدمة أعنى فقولي الحق وقرنا منصوبين على أن الأول مقسم به كقولك الله لأفعلن وجوابه لأملأن وما بينهما اعتراض وقرنا مجرورين على أن الأول مقسم به قد أضمر حرف قسمه كقولك الله لأفعلن والحق أقول على حكاية لفظ المقسم به على تقدير كونه نقيض الباطل ومعناه التأكيد والتشديد وقرىء بجر الأول على إضمار حرف القسم ونصب التأكيد على المفعولية ( منك ) أى من جنسك من الشياطين ( ومن تبعك ) فى الغواية والضلال ( منهم ) من ذرية آدم ( أجمعين ) تأكيد للكاف وما عطف عليه أى لأملأنها من المتبوعين والأتباع أجمعين كقوله تعالى ( لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ) وهذا القول هو المراد بقوله تعالى ( ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ) وحيث كان مناط الحكم ههنا اتباع الشيطان انتضح أن مدار عدم المشبهة فى قوله تعالى ( ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ) اتباع الكفرة للشيطان بسوء اختيارهم لا تحقق القول فليس فى ذلك شائبة الجبر فتدبر ( قل ما أسألكم عليه ) على القرآن أو على تبليغ ما يوحى لى ( من أجر ) دنيوى ( وما أنا من المتكلفين ) أى المتصنعين بما لبسوا من أهله حتى أتعمل الشبهة وأنقول القرآن ( إن هو ) أى ما هو ( إلا ذكر ) من الله عز وجل ( للعالمين ) أى للتقلين كافة ( ولتعلن نبأه ) أى ما أنبأ به من الوعد والوعيد وغيرهما أو صحة خبره وأنه الحق والصدق ( بعد حين ) بعد الموت أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وفشوه وقيل من بقى علم بذلك إذا ظهر أمره وعلا ومن مات عليه بعد الموت وفيه من التهديد ما لا يخفى .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات وعصم أن يصر على ذنب صغير أو كبير  
١٢٨٠ ب أبو السعود - ( رابع )

وقال أبو أمامة عصمه الله تعالى من كل ذنب صغير أو كبير<sup>(١)</sup> والله أعلم .

\*\*\*

### سورة الزمر

مكية لإقوله ( قل يا عبادي ) الآية  
وآياتها خمس وسبعون أو اثنتان وسبعون

( بسم الله الرحمن الرحيم )

( تنزيل الكتاب ) خبر لمبتدأ محذوف هو اسم إشارة أشير به إلى  
إلى السورة تنزيلاً لها منزلة الحاضر المشار إليه لكونها على شرف الذكر  
والحضور كما مر مراراً وقد قيل هو ضمير عائد إلى الذكر في قوله تعالى ( إن  
هو إلا ذكر للعالمين ) وقوله تعالى ( من الله العزيز الحكيم ) صلة للتنزيل  
أو خبر ثان أو حال من التنزيل عاملها معنى الإشارة أو من الكتاب الذي هو  
مفعول معنى عاملها المضاف وقيل هو خبر لتنزيل الكتاب والوجه الأول  
أو في بمقتضى المقام الذي هو بيان أن السورة أو القرآن تنزيل الكتاب من  
الله تعالى لا بيان أن تنزيل الكتاب منه تعالى لا من غيره كما يفيد الوجه  
الآخر وقرئ تنزيل الكتاب بالنصب على إضمار فعل نحو اقرأ أو الزم  
والتعرض لوصفي العزة والحكمة للإيذان بظهور أثرهما في الكتاب بهريان  
أحكامه ونفاذ أوامره وتواحيه من غير مدافع ولا مانع وبإتناء جميع ما فيه  
على أساس الحكم الباهرة وقوله تعالى ( إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق )  
شروع في بيان شأن المنزل إليه وما يجب عليه إثر بيان شأن المنزل وكونه

(١) فيه إسماعيل بن عياش وقد تكلم فيه

من عند الله تعالى والمراد بالكتاب هو القرآن وإظهاره على تقدير كونه هو المراد بالأول أيضاً لتعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه والباء إما متعلقة بالإنزال أى بسبب الحق وإثباته وإظهاره أو بداعية الحق واقتضائه للإنزال وإما محذوف هو حال من نون العظمة أو من الكتاب أى أنزلناه إليك محقين فى ذلك أو أنزلناه ملتبساً بالحق والصواب أى كل ما فيه حق لا ريب فيه موجب للعمل به حتماً والفاء فى قوله تعالى : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ لترتيب الأمر بالعبادة على إنزال الكتاب إليه عليه الصلاة والسلام بالحق أى فاعبد الله تعالى محضاً له الدين من شوائب الشرك والرياء حسبما بين فى تضاعيف ما أنزل إليك وقرئ برفع الدين على أنه مبتدأ خبره الظرف المقدم عليه لتأكيد الاختصاص المستفاد من اللام والجملة استئناف وقع تعليلاً للأمر بإخلاص العبادة وقوله تعالى : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ استئناف مقرر لما قبله من الأمر بإخلاص الدين له تعالى ، ووجوب الامتثال به وعلى القراءة الأخيرة مؤكداً لاختصاص الذين به تعالى أى ألا هو الذى يجب أن يخص بإخلاص الطاعة له لأنه المتفرد بصفات الألوهية التى من جملتها الاطلاع على السرائر والخصائر وقوله تعالى :

﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ تحقيق لحقيقة ما ذكر من إخلاص الدين الذى هو عبارة عن التوحيد ببيان بطلان الشرك الذى هو عبارة عن ترك إخلاصه والموصول عبارة عن المشركين ومحل رفعه على الابتداء خبره ما سياتى من الجملة المصدرية بأن الأولياء عن الملائكة وعيسى عليهم السلام والأصنام وقوله تعالى ﴿ ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ حال بتقدير القول من وأو اتخذوا مبنية لكيفية إشراكهم وعدم خلوص دينهم والاستثناء مفرغ من أعم العمل وزلفى مصدر مؤكد على غير لفظ المصدر ملاق له فى المعنى أى والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى بل شابوها بعبادة غيره قائلين ما نعبدكم لشيء من الأشياء إلا ليقربونا إلى الله تعالى تقريباً ﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾ أى وبين خصماهم الذين هم المخلصون للدين وقد حذف لدلالة الحال عليه كما فى قوله تعالى (لا نفرق

بين أحد من رسله ) على أحد الوجهين أى بين أحد منهم وبين غيره وعليه قول النابغة :

فما كان بين الخير لو جاء سالما أبو حجر إلا ليال قلائل

أى بين الخير وبدنى وقيل ضمير بينهم للفريقين جميعا (فيما هم فيه يختلفون) من الدين الذى اختلفوا فيه بالتوحيد والإشراك وأدعى كل فريق منهم صحة ما اتبعه وحكمه تعالى فى ذلك إدخال الموحدين الجنة والمشركين النار فالضمير للفريقين هذا هو الذى يستدعيه مساق النظم الكريم وأما تجوز أن يكون الموصول عبارة عن المعبودين على حذف العائد إليه وإضمار المشركين من غير ذكر تعويلا على دلالة المساق عليهم ويكون التقدير والذين اتخذهم المشركون أولياء قائلين ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله إن الله يحكم بينهم أى بين العبد والمعبودين فيما هم فيه يختلفون حيث يرجو العبد شفاعتهم وهم يلعنونهم فبعد الإغضاء عما فيه من التعسفات بمنزل من السداد كيف لا وليس فيها ذكر من طلب الشفاعة واللحن مادة يختلف فيها الفريقان اختلافا محوجا إلى الحكم والفصل وإنما ذاك ما بين فريق الموحدين والمشركين فى الدنيا من الاختلاف فى الدين الباقى إلى يوم القيامة وقرئ قالوا ما نعبدكم فهو بدل من الصلة لا خبر للموصول كما قيل إذ ليس فى الإخبار بذلك مزيد مزية وقرئ ما نعبدكم إلا لتقربونا حكاية لما سخطوا به آلهتهم وقرئ نعبدكم اتباعا للباء (إن الله لا يهدي) أى لا يوفق للاهتمام إلى الحق الذى هو طريق النجاة عن المسكروه والفوز بالمطلوب .

(من هو كاذب كفار) أى راسخ فى الكذب مبالغ فى الكفر كما يعرب عنه قراءة كذاب وكذوب فإنهما فاقدان للبصرة غير قابلين للاهتمام لتغييرهما الفطرة الأصلية بالتمرن فى الضلالة والتماذى فى الفى والجملة لتعليل لما ذكر من حكمه تعالى (لو أراد الله أن يتخذ ولدا) الخ استئناف مسوق لتحقيق الحق وإبطال القول بأن الملائكة بنات الله وعيسى ابنه تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

ببيان استحالة اتخاذ الولد فى حقه تعالى على الإطلاق ليسخرج فيه استحالة ما قيل لهم راجعا لوليها أى لو أراد الله أن يتخذ ولدا (لا يخلق) أى لا يتخذ

(عما يخلق) أى من جملة ما يخلقه أو من جنس ما يخلقه (ما يشاء) أن يتخذ  
إذ لا موجود سواه الا وهو مخلوق له تعالى لا متنازع تعدد الواجب ووجوب  
استناد جميع ما عداه إليه من البين أن اتخاذ الولد منوط بالمماثلة بين المتخذ والمتخذ  
وأن المخلوق لا يماثل خالقه حتى يمكن اتخاذه ولذا فما فرضناه اتخاذ ولد لم  
يكن اتخاذ ولد بل اصطفاء عبد وإليه أشير حيث وضع الاصطفاء موضع  
الاتخاذ الذى تقتضيه الشرطية تلبيها على استحالة مقدمها لاستلزام فرض وقوعه  
بل فرض إرادة وقوعه انتفاء أى لو أراد الله تعالى أن يتخذ ولدا لفعل شيئا  
ليس هو من اتخاذ الولد فى شيء أصلا بل إنما هو اصطفاء عبد ولا ريب فى أن  
ما يستلزم فرض وقوعه انتفاء فهو ممتنع قطعا فكأنه قيل لو أراد الله أن يتخذ  
ولدا لا ممتنع ولم يصح لكن لا على أن الامتناع منوط بتحقيق الإرادة بل على  
أنه متحقق عند عدما بطريق الأولوية على منوال لو لم يخف الله لم يعصه وقوله  
تعالى (سبحانه) تقرير لما ذكر من استحالة اتخاذ الولد فى حقه تعالى وتأكيده  
له ببيان تنزهه تعالى عنه أى تنزهه بالذات عن ذلك تنزهه الخاص به على أن  
السبحان مصدر من سبح إذا بمد أو أسبحه تسبيحا لا نقا به على أنه علم للتسبيح  
مقول على السنة العباد أو سبحوه تسبيحا حقيقيا بشأنه وقوله تعالى (هو الله  
الواحد القهار) استئناف مبيح تنزهه تعالى بحسب الصفات لبيان تنزهه  
تعالى عنه بحسب الذات فأن صفة الألوهية المستتعبة لساير صفات الكمال النافية  
لسمات النقصان والوحدة الذاتية الموجبة لانتفاء المماثلة والمشاركة بينه تعالى  
وبين غيره على الإطلاق عما يقضى بتنزهه تعالى عما قالوا قضاء متقنا وكذا وصف  
القهار بما أن اتخاذ الولد شأن من يكون تحت ملكوت الغير عرضة للفناء  
ليقوم ولده مقامه عند فئانه ومن هو مستحيل الفناء قهار لكل الكائنات كيف  
ينصور أن يتخذ من الأشياء الغاية ما يقوم مقامه وقوله تعالى :

(خلق السموات والأرض بالحق) تفصيل لبعض أفعاله تعالى الدالة  
على تفرد بما ذكر من الصفات الجليلة أى خلقهما وما بينهما من الموجودات  
متبينة بالحق والصراب مشتملة على الحكم والمصالح وقوله تعالى (يكور الليل

على النهار ويكور النهار على الليل ﴿ بيان لكيفية تصرفه تعالى فيهما بعد بيان خلقهما فإن حدوث الليل والنهار في الأرض منوط بتحريك السموات أى يغشى كل واحد منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس أو يغيبه به كما يغيب الملفوف باللفافة أو يجعله كالأرض على كروها متتابعاً متتابعاً كالأرض على كروها متتابعاً متتابعاً جعلهما العمامة وصيغة المضارع للدلالة على التجدد ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ جعلهما متقادين لأمره تعالى وقوله تعالى ﴿ كل يجري لأجل مسمى ﴾ بيان لكيفية تسخيرهما أى كل منهما يجري لمنتهى دورته أو منقطع حركته وقد مر تفصيله غير مرة ﴿ ألا هو العزيز ﴾ الغالب القادر على كل شيء من الأشياء التى من جملتها عقاب العصاة ﴿ الغفار ﴾ المبالغ فى المغفرة ولذلك لا يعاجل بالعقوبة وسلب ما فى هذه الصنائع البديعة من آثار الرحمة وتصدير الجملة بحرف التنبيه لإظهار كمال الاعتناء بضمومها ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ بيان لبعض آخر من أفعاله الدالة على ما ذكر وترك عطفه على خلق السموات للإيدان باستقلاله فى الدلالة ولتعلقه بالعالم السفلى والبداءة بخلق الإنسان لعراقته فى الدلالة لما فيه من تعاجيب آثار القدرة وأسرار الحكمة وأصالته فى المعرفة فإن الإنسان بحال نفسه أعرف والمراد بالنفس نفس آدم عليه السلام وقوله :

﴿ ثم جعل منها زوجها ﴾ عطف على محذوف هو صفة لنفس أى من نفس خلقها ثم جعل منها زوجها أو على معنى واحدة أى من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها فشفعها أو على خلقكم لتفاوت ما بينهما فى الدلالة فإنهما وإن كانتا آيتين داليتين على ما ذكر لكن الأولى لاستمرارها صارت معتادة وأما الثانية فحيث لم تكن معتادة خارجة عن قياس الأولى كما يشعر به التعبير عنها بالجعل دون الخلق كانت أدخل فى كونها آية وأجلب للتعجب من السامع فعطفت على الأولى بـ ثم دلالة على مباينتها لها فضلاً ومزية وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخي فى الحال والمنزلة وقيل أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق منه حواء ففيه ثلاث آيات مترتبة خلق آدم عليه السلام بلا أب وأم وخلق حواء من قصيره ثم تشعب الخلق القانت للحصر منهما وقوله تعالى

﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ بيان لبعض آخر من أفعاله الدالة على ما ذكر أى قضى أو قسم لكم فإن قضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء حيث تكتب في اللوح المحفوظ أو أحدث لكم بأسباب نازلة من السماء كالأمطار وأشعة الكواكب (من الأنعام ثمانية أزواج) ذكرنا وأننى هى الإبل والبقر والغنم والمعز وقيل خلقها في الجنة ثم أنزلها وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما أخر فإن كون الإنزال لمنافعهم وكونه من الجهة العالية من الأمور المهمة المشوقة إلى ما أنزل لامحالة وقوله تعالى ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بطون أمهاتكم﴾ استئناف مسوق لبيان كيفية خلقهم وأطواره المختلفة الدالة على القدرة الباهرة وصيغة المضارع للدلالة على التدرج والتجدد وقوله تعالى ﴿خَلَقْنَا مِنْ بَعْدُ خَلْقًا﴾ مصدر مؤكد أى يخلقكم فيها خلقا كائنا من بعد خلق أى خلقا مدرجا حيوانا سويا من بعد عظام مكسوة لحما من بعد عظام عارية من بعد مضجع مخلقة من بعد مضجع غير مخلقة من بعد علاقة من بعد لطفة ﴿فِي ظِلَّاتٍ ثَلَاثٍ﴾ متعلق بخلقكم وهى ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة أو ظلمة الصلب والبطن والرحم .

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إليه تعالى باعتبار أفعاله المذكورة وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته تعالى في العظمة والكبرياء وعجبه الرفع على الابتداء أى ذلك العظيم الشأن الذى عددت أفعاله ﴿اللَّهُ﴾ وقوله تعالى ﴿رَبِّكُمْ﴾ خبر آخر أى مربيكم فيما ذكر من الأطوار وفيها بعدها وما لكم المستحق لتخصيص العبادة به ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ على الإطلاق في الدنيا والآخرة ليس لغيره شركة في ذلك بوجه من الوجوه والجملة خبر آخر وكذا قوله تعالى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ والفاء في قوله تعالى ﴿فَأَنى تَصْرَفُونَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما ذكر من شئونة تعالى أى فكيف تصرفون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها ودواعيها وانتفاء الصارف عنها بالسلبية إلى عبادة غيره من غير داع إليها مع كثرة الصوارف عنها ﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ به تعالى بعد مشاهدة ما ذكر من فنون نعمائه ومعرفة شئونه العظيمة الموجبة للإيمان والشكر .



﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِي عَنْكُمْ ﴾ أى فاعلموا أنه تعالى غفى عن إيمانكم وشكركم غير متأثر من انتفائهما ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ أى عدم رضاه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفع مضرتهم رحمة عليهم لا لتضرره تعالى به ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أى يرضى الشكر لأجلكم ومنفعتكم لأنه سبب لفوزكم بسعادة الدارين لا لانتفاعه تعالى به وإنما قيل لعباده لا لاسم لتعميم الحكم وتعليله بكونهم عباده تعالى وقرىء بإسكان الهاء ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ بيان لعدم سراية كفر الكافر إلى غيره أصلاً أى لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ ﴾ عند ذلك ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى كنتم تعملونه في الدنيا من أعمال الكفر والإيمان أى يجازيكم بذلك ثواباً وعقاباً ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى بمضمرات القلوب فكيف بالأعمال الظاهرة وهو تعليل للتنبيه ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ ﴾ من مرض وغيره ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ راجعاً إليه عما كان يدعو به في حالة الرخاء لعلبه بأنه يعزل من القدرة على كشف ضره وهذا وصف للجنس بحال بعض أفرادهم كقوله تعالى ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ ﴾ أى أعطاه نعمة عظيمة من لدنه<sup>(١)</sup> تعالى من التخول وهو التعهد أى جعله خائلاً مال من قوهم فلان خائلاً مال إذا كان متعهداً له حسن القيام به أو من الخول وهو الافتخار أى جعله يخول أى يختال ويفتخر ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ ﴾ أى نسى الضر الذى كان يدعو الله تعالى فيما سبق إلى كشفه ﴿ مِنْ قَبْلِ ﴾ أى من قبل التخويل أو نسى ربه الذى كان يدعو ويتضرع إليه إما بناء على أن ما يعين من كافي قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ وإما لإيداعنا بأن نسيانه بلغ إلى حيث لا يعرف مدعوه ما هو فضلاً عن أن يعرفه من هو كما مر في قوله تعالى ﴿ عَمَّا أَرْضَعْتِ ﴾ ﴿ وَجَعَلَ اللَّهُ أَنْدَادًا ﴾ شركاء في العبادة ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ الناس بذلك ﴿ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ الذى هو التوحيد

وقرىء ليضل بفتح الياء أى يزداد ضلالا أو يثبت عليه وإلا فأصل الضلال غير متأخر عن الجعل المذكور واللام لام العاقبة كما فى قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) خلا أن هذا أقرب إلى الحقيقة لأن الجاعل ههنا قاصد بجعله المذكور حقيقة الإضلال والضلال وإن لم يعرف لجهله أنهما لإضلال وضلال وأما آل فرعون فهم غير قاصدين بالتقاطهم العداوة أصلا (قل) تهديدا لذلك الضال المضل وبيانا لحاله ومآله (تمتع بكفرك قليلا) أى تمتعا قليلا أو زمانا قليلا (لأنك من أصحاب النار) أى ملازميها والمعذبين فيها على الدوام وهو تعليل لقلة التمتع وفيه من الإقنات من النجاة ما لا يخفى كأنه قيل إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة فمن حقت أن تؤمر بتركه لتذوق عقوبته .

(أمن هو قانت آناء الليل) الخ من تمام الكلام المأمور به وأم إما متصلة قد حذف معادها ثقة بدلالة مساق الكلام عليه كأنه قيل له تأكيدا للتهديد وتوهم كما به أنك احسن حالا ومآلا أمن هو قائم بمواجب الطاعات ودائم على أداء وظائف العبادات فى ساعات الليل حالى السراء والضراء لا عند مساس الضر فقط كدأبك حال كونه (ساجدا وقائما) أى جامعا بين الوصفين المحمودين وتلقين السجود على القيام لكونه أدخل فى معنى العبادة وقرىء كلاهما بالرفع على أنه خبر بغير خبر (يخفى الآخرة) بحال أخرى على الترادف أو التداخل أو استئناف وقع جوابا عما تنشا من حكاية حاله من القنوت والسجود والقيام كأنه قيل ما باله يفعل ذلك فليل يحذر عذاب الآخرة (ويرجو رحمة ربه) فينجو بذلك مما يخذره ويفوز بما يرجوه كما ينبى عنه التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى السكال مع الإضافة إلى ضمير الراجى لا أنه يحذر ضر الدنيا ويرجو خيرها فقط وأما منقطعة وما فيها من الإضراب للانتقال من التهديد إلى التبيكيت بتكليف الجواب الملجئ إلى الاعتراف بما بينهما من التباين البين كأنه قيل بل أمن هو قانت الخ أفضل أمن هو كافر مثلك كما هو المعنى على قراءة التخفيف (قل) بيانا للحق وتليها على شرف العلم والعمل (هل يستوى الذين يعملون) حقايق الأحوال فيعملون بموجب عليهم كالفائت المذكور

(والذين لا يعلمون) أى ما ذكر أو شيئاً فيعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم كدأبك والاستفهام للتنبيه على أن كون الأولين فى أعلى معارج الخير وكون الآخرين فى أقصى مدارج الشر من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد من منصف ومكابر وقيل هو وارد على سبيل التشبيه أى كما لا يستوى العالمون والجاهلون لا يستوى القاتنون والعاصون وقوله تعالى ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ كلام مستقل غير داخل فى الكلام المأمور به وارد من جهته تعالى بعد الأمر بما ذكر من القوارع الزاجرة عن الكفر والمعاصى لبيان عدم تأثيرها فى قلوب الكفرة لاختلال عقولهم كما فى قول من قال :

عوجوا فخيوا لنعمى دمنة الدار ماذا تحيون من نوى وأحجار  
أى إنما يتعظ بهذه البيانات الواضحة أصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وهؤلاء بمنزل من ذلك وقرئ إنما يذكر بالإدغام ﴿قل يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم﴾ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتذكير المؤمنين وحملهم على التقوى والطاعة لإثر تخصيص التذكر بأولى الألباب إيداناً بأنهم هم كما سيصرح به أى قل لهم قولى هذا بعينه وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة ومزيد اعتناء بشأن المأمور به فإن نقل عين أمر الله أدخل فى إيجاب الامتثال به وقوله تعالى ﴿لذین أحسنوا﴾ تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به وإيراد الإحسان فى حيز الصلة دون التقوى للإيدان بأنه من باب الإحسان وأنهما متلازمان وكذا الصبر كما مر فى قوله تعالى : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وفى قوله تعالى (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) وقوله تعالى : ﴿فى هذه الدنيا﴾ متعلق بأحسنوا أى عملوا الأعمال الحسنة فى هذه الدنيا على وجه الإخلاص وهو الذى عبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الإحسان بقوله عليه السلام أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ﴿حسنة﴾ أى حسنة عظيمة لا يكتنه عنها وهى الجنة وقيل هو متعلق بحسنة على أنه بيان لمكانها أو حال من ضميرها فى الظرف فالمراد بها حيثئذ الصحة والعافية ﴿وأرض الله واسعة﴾

فمن تعمس عليه التوفر على التقوى والإحسان في وطنه فليهاجر إلى حيث يتمكن فيه من ذلك كما هو سنة الأنبياء والصالحين فإنه لا عذر له في التفريط أصلاً وقوله تعالى ﴿إنما يوفى الصابرون﴾ الخ ترغيب في التقوى المأمور بها وإثارة الصابرين على المتقين للإيذان بأنهم حائزون لفضيلة الصبر كجوازتهم لفضيلة الإحسان لما أشير إليه من استلزام التقوى لهما مع ما فيه من زيادة حث على المصابرة والمجاهدة في تحمل مشاق المهاجرة ومتاعها أي إنما يوفى الذين صبروا على دينهم وحافظوا على حدوده ولم يفرطوا في مراعاة حقوقه لما اعتراهم في ذلك من فنون الآلام والبلايا التي من جعلتها مهاجرة الأهل ومفارقة الأوطان ﴿أجرهم﴾ بمقابلة ما كابدوا من الصبر ﴿بغير حساب﴾ أي بحيث لا يحصى ولا يحصى عن ابن عباس رضى الله عنهما لا يمتد إلى حساب الحساب ولا يعرف وفي الحديث أنه تنصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج فيؤتون بها أجورهم ولا تنصب لأهل البلاء بل يصب عليهم الأجر صبا حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل .

﴿قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ أي من كل ما ينافيه من الشرك والرياء وغير ذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان ما أمر به نفسه من الإخلاص في عبادة الله الذي هو عبارة عما أمر به المؤمنون من التقوى مبالغة في حثهم على الإتيان بما كلفوه وتمهيدا لما يعقبه مما خوطب به المشركون ﴿وأمرت لأن أكون أول المسلمين﴾ أي وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والآخرة لأن إحراز نصب السبق في الدين بالإخلاص فيه والعطف لمغايرة الثاني الأول بتقيده بالعلة والإشعار بأن العبادة المذكورة كما تقتضى الأمر بها لذاتها تقتضيه لما يلزمها من السبق في الدين ويجوز أن تجعل اللام مزيدة <sup>(١)</sup> كما في أردت لأن أقوم بدليل قوله تعالى ﴿أمرت أن أكون أول

من أسلم) فالمعنى وأمرت أن أكون أول من أسلم من أهل زمانى أو من قومى أو  
أكون أول من دعا غيره إلى ما دعا إليه نفسه ﴿ قل إني أخاف إن عصيت  
ربى ﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أتم عليه من الشرك (عذاب يوم عظيم)  
هو يوم القيامة وصف بالعظمة لعظمة ما فيه من الدواهي والأهوال ﴿ قل الله  
أعبد ﴾ لا غيره لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿ مخلصاً له دينى ﴾ من كل شوب  
أمر عليه الصلاة والسلام أولاً ببيان كونه مأموراً بعبادة الله تعالى وإخلاص الدين  
له ثم بالإخبار بخوفه من العذاب على تقدير العصيان ثم بالإخبار بامتناله بالأمر  
على أبلغ وجه وآكده إظهاراً لتصلبه في الدين وحسماً لأطماعهم الفارغة وتمهيداً  
لتهديدهم بقوله تعالى ﴿ فاعبدوا ما شئتم ﴾ أن تعبدوه ﴿ من دونه ﴾ تعالى  
وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم ما لا يخفى كأنهم لما لم يلتزموا عما نهوا عنه  
أمروا به كي يحمل بهم العقاب .

﴿ قل إن الخاسرين ﴾ أى الكاملين في الخسران الذى هو عبارة عن إضاعة  
ما يهيمه وإتلاف ما لا بد منه ﴿ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ﴾ باختيارهم  
الكفر لما أى أضاعوهما وأتلفوهما ﴿ يوم القيامة ﴾ حين يدخلون النار حيث  
عرضوهما للعذاب السرمدى وأوقعوهما في هلكة لا هلكة وراءها وقيل  
خسروا أهليهم لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم  
وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا إياب بعده وفيه أن المحذور  
فيهاب ما لو آب<sup>(١)</sup> لا تنفع به الخاسر وذلك غير متصور في الشق الآخر وقيل  
خسروهم لأنهم لم يدخلوا مدخل الذين لهم أهل في الجنة وخسروا أهليهم  
الذين كانوا يتمتعون بهم لو آمنوا وأياً ما كان فليس المراد بمجرد تعريف الكاملين  
في الخسران بما ذكر بل بيان أنهم هم لما يحمل الموصول عبارة عنهم أو عما هم  
مندرجون فيه اندراجاً أولياً وما في قوله تعالى ﴿ ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾  
من استئناف الجملة وتصديرها بحرف التنبيه والإشارة بذلك إلى بعد منزلة

المشار إليه في الشر وتوسيط ضمير الفصل وتعريف الخسران ووصفه بالمبين من الدلالة على كمال هولاء وفضاعته وأنه لا خسران وراءه ما لا يخفى وقوله تعالى ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار﴾ الخ نوع بيان لخسرانهم بعد تهويله بطريق الإيهام على أن لهم خبر لظلل ومن فوقهم متعلق بمحذوف قبل هو حال من ظلل والأظهر أنه حال من الضمير في الظرف المقدم ومن النار صفة لظلل أي لهم كائنة من فوقهم ظلل كثيرة متراكبة بعضها فوق بعض كائنة من النار ﴿ومن تحتهم﴾ أيضا ﴿ظلل﴾ أي أطباق كثيرة بعضها تحت بعض ظلل لآخرين بل لهم أيضا عند ترددهم في دركاتنا .

﴿ذلك﴾ العذاب الفظيع هو الذي ﴿يخوف الله به عباده﴾ ويحذرهم إياه بآيات الوعيد ليحذروا ما يوقعهم فيه ﴿يا عباد فاتقون﴾ ولا تعرضوا لما يوجب سخطي وهذه عظة من الله تعالى بالغة منطوية على غاية اللطف والرحمة وقرئ يا عبادي ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت﴾ أي البالغ أقصى غاية الطغيان فعلت منه بتقديم اللام على العين بنى للبالغة في المصدر كالرحوت والعظمت ثم وصف به للبالغة في النعت والمراد به هو الشيطان ﴿أن يعبدوها﴾ بدل الاشتغال منه فإن عبادة غير الله تعالى عبادة للشيطان إذ هو الأمر بها والمزين لها ﴿وأتأبوا إلى الله﴾ وأقبلوا إليه معرضين عما سواه إقبالا كلياً .

﴿لهم البشري﴾ بالثواب على السنة الرسل أو الملائكة عند حضور الموت وحين يحشرون وبعد ذلك ﴿فيشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ هم الموصوفون بالاجتناب والإجابة بأعيانهم لسن وضع موضع ضميرهم الظاهر تشريفاً لهم بالإضافة ودلالة على أن مدار انصافهم بالوصفين الجليلين كونهم تقاداً في الدين يمهزون الحق من الباطل ويؤثرون الأفضل فالأفضل ﴿أولئك﴾ إشارة إليهم باعتبار انصافهم بما ذكر من الدعوات الجليلة وما فيه من معنى البعد للإيدان بعلو رتبهم وبعد منزلتهم في الفضل وعمله للرفع على الابتداء خبره ما بعده من الموصول أي أولئك المتعوتون بالمحسنات الجليلة ﴿الذين هداهم الله﴾ للدين الحق ﴿وأولئك هم أولوا الألباب﴾ أي هم أصحاب

العقول السليمة عن معارضة الوهم ومنازعة الهوى المستحقون للهداية لا غيرهم وفيه دلالة على أن الهداية تحصل بفعل الله تعالى وقبول النفس لها ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار ﴾ بيان لأحوال أضداد المذكورين على طريقة الإجمال وتسجيل عليهم بحرمان الهداية وهم عبدة الطاغوت ومتبعوا خطواتها كما يلوح به التعبير عنهم بمن حق عليه كلمة العذاب فإن المراد بها قوله تعالى لإبليس ( لأملاّن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين ) وقوله تعالى ( لمن تبعك منهم لأملاّن جهنم منكم أجمعين ) وأصل الكلام أمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه على أنها شرطية دخل عليها الهمزة لإنكار مضمونها ثم الفاء لعطفها على جملة مستتبعة لها مقدرة بعد الهمزة ليتعلق الإنكار والتنفي بمضمونيهما معا أى أنت مالك امر الناس فن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه ثم كررت الهمزة في الجزاء لتأكيد الإنكار وتذكيره لما طال الكلام ثم وضع موضع الضمير من في النار لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد والتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقع في النار وأن اجتهاده عليه الصلاة والسلام في دعائهم إلى الإيمان سعى في إنقاذهم من النار ويجوز أن يكون الجزاء عذوفاً وقوله تعالى أفأنت الخ جملة مستقلة مسوقة لتقرير مضمون الجملة السابقة وتعيين ما حذف منها وتشديد الإنكار بتنزيل من استحق العذاب منزلة من دخل النار وتصوير الاجتهاد في دعائه إلى الإيمان بصورة الإنقاذ من النار كأنه قيل أولاً أفمن حق عليه العذاب فأنت تخلصه منه ثم شدد النكير فقبل أفأنت تنقذ من في النار وفيه تلويح بأنه تعالى هو الذى يقدر على الإنقاذ لا غيره وحيث كان المراد بمن في النار الذين قيل في حقهم ( لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ) استدرك منهم بقوله تعالى:

﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف ﴾ وهم الذين خوطبوا بقوله تعالى يا عباد فاتقون ووصفوا بما عدا من الصفات الفاضلة وهم المخاطبون أيضاً فيما سبق بقوله تعالى ( يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم ) الآية وبين أن لهم درجات عالية في جنات النعيم بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة في الجحيم أى لهم حظ من النعيم فوق بعض ( مينة ) بناء المنازل المبينة المؤسسة على الأرض في

الرصانة والإحكام (تجرى من تحتها) من تحت تلك الغرف (الأنهار) من غير تفاوت بين العلو والسفل (وعد الله) مصدر مؤكد لقوله تعالى لهم غرف النخ فإنه وعد وأى وعد (لا يخلف الله الميعاد) لاستحالة عليه سبحانه .

### مثل الدنيا

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) استئناف وارد إما لتمثيل الحياة الدنيا في سرعة الزوال وقرب الاضمحلال بما ذكر من أحوال الزرع ترغيبا عن زخارفها وزينتها وتحذيرا من الاغترار بزهرتها كما في نظائر قوله تعالى (إنما مثل الحياة الدنيا) الآية أو للاستشهاد على تحقق الموعود من الأنهار الجارية من تحت الغرف بما يشاهد من إنزال الماء من السماء وما يترتب عليه من آثار قدرته تعالى وأحكام حكمته ورحمته والمراد بالماء المطر وقيل كل ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة ثم يقسمه الله تعالى بين البقاع (فسلكه) فأدخله ونظمه (ينابيع في الأرض) أى عيوننا ومجارى كالعروق في الأجساد وقيل مياهها تابعة فيها فإن ينبوع يطلق على المنبع والتابع فنصبها على الحال وعلى الأول ينزع الجار أى في ينابيع (ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه) أصنافه من بزوشعير وغيرهما أو كيفياته من الألوان والطعوم وغيرهما وكلية ثم للتراخي في الرتبة أو الزمان وصيغة المضارع لاستحضار الصورة (ثم يهيج) أى يتم جفافه ويشرف على أن يشور من منابته (فتراه مصفراً) من بعد خضرته ونضرتة وقرى مصفاراً (ثم يحمله حطاماً) فتأثراً متكسرة كأن لم يغن بالأمس ولكون هذه الحالة من الآثار القوية علقبت بحمل الله تعالى كالإخراج (إن في ذلك) إشارة إلى ما ذكر تفصيلاً وما فيه من معنى البعد للإيدان ببعده منزله في الغرابة والدلالة على ما قصد يأنه (لذكرى) لتذكيراً عظيماً (لأولى الأبواب) لأصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وتفتيتها لهم على حقيقة الحال يتذكرون بذلك أن حال الحياة الدنيا في سرعة التفتت والانصرام كما يشاهدونه من حال الحطام كل عام فلا يغترون ببهجتها ولا يفتننون



بفتنتها أو يحزمون بأن من قدر على إزال الماء من السماء وإجرائه في ينابيع الأرض قادر على إجراء الأنهار من تحت الغرف هذا وأما ما قيل إن في ذلك لتذكيرا وتنبيها على أنه لا بد من صانع حكيم وأنه كائن عن تقدير وتدير لا عن تعطيل وإهمال فبمعزل من تفسير الآية الكريمة وإنما يليق ذلك بما لو ذكر ما ذكر من الآثار الجليلة والأفعال الجميلة من غير إسناد لها إلى مؤثر ما خيث ذكرت مسندة إلى الله عز وجل تعين أن يكون متعلق التذكير والتنبيه شؤنه تعالى أو شئون آثاره حسبما بين لا وجوده تعالى وقوله تعالى :

( أفمن شرح الله صدره للإسلام ) الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تخصيص الذكرى بأولى الآليات وشرح الصدر للإسلام عبارة عن تكميل الاستعداد له فإنه محل للقلب الذي هو منبع الروح التي تتعلق بها النفس القابلة للإسلام فأنشراحه مستدع لاتساع القلب واستضاءته بنوره فإنه روى أنه عليه الصلاة والسلام قال: إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح فقل فما علامة ذلك قال عليه الصلاة والسلام الإجابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله والكلام في المهمة والفاء كالذي مر في قوله تعالى ( أفمن حق عليه كلمة العذاب ) وخبر من محذوف لدلالة ما بعده عليه والتقدير أكل الناس سواء فمن شرح الله صدره أى خلقه متسع الصدر مستعدا للإسلام فبقى على الفطرة الأصلية ولم يتغير بالعوارض المكتسبة القاذرة فيها ( فهو ) بموجب ذلك مستقر ( على نور ) عظيم ( من ربه ) وهو اللطف الإلهي للفائض عليه عند مشاهدة الآيات التكوينية والتزلية والتوفيق للاهتمام بها إلى الحق كمن قسا قلبه وخرج صدره بسبب تبديل فطرة الله بسوء اختياره واستولى عليه ظلمات العي والضلالة فأعرض عن تلك الآيات بالكلية حتى لا يبتدكر بها ولا يغتنمها ( فويل للقياسية قلوبهم من ذكر الله ) أى من أجل ذكره الذي حقه أن تشرح له الصدور وتطعمن به القلوب أى إذا ذكر الله تعالى عندهم أو آياته أشعزوا من أجله وازدادت قلوبهم قساوة فكفوله تعالى ( فإذ هم يجلسون وجهاً لوجه يقرئون ) ذكر الله تعالى عن قلوبهم ( أو أولئك ) البغضاء

الموصوفون بما ذكر من قساوة القلوب ﴿ في ضلال ﴾ بعد عن الحق ﴿ مبين ﴾ ظاهر كونه ضلالا لكل أحد قيل نزلت الآية في حمزة وعلى رضى الله عنهما وأبى لهب وولده وقيل في عمار بن ياسر رضى الله عنه وأبى جهل وذويه .

﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ هو القرآن الكريم روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة فقالوا له عليه الصلاة والسلام حدثنا حديثا وعن ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما قالوا لو حدثتنا فنزلت والمعنى أن فيه ممدوحة عن سائر الأحاديث وفي إيقاع الاسم الجليل مبتدأ وبناء نزل عليه من تفخيم أحسن الحديث ورفع محله والاستشهاد على حسنه وتأكيده استناده إليه تعالى وأنه من عنده لا يمكن صدوره عن غيره والتنبيه على أنه وحى معجز ما لا يخفى ﴿ كتابا ﴾ بدل من أحسن الحديث أو حال منه سواء اكتسب من المضاف إليه تعريفا أو لا فإن مسامحة مجيء الحال من النكرة المضافة اتفاقا ووقوعه حالا مع كونه اسما لا صفة إما لاتصافه بقوله تعالى ﴿ متشابها ﴾ أو لكونه في قوة مكتوبا ومعنى كونه متشابها تشابه معانيه في الصفة والأحكام والابتداء على الحق والصدق واستتباع منافع الخلق في المعاد والمعيش وتناسب المقابلة في المناجاة وتجاوب نظمها في الإيجاز ﴿ مثاني ﴾ صفة أخرى لكتابا أو حال أخرى منه وهو جمع مثني بمعنى مردود ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبأته وأحكامه وأوامره ونواهيته ووعدته ووعيده ونوعاظته وقيل لأنه يثنى في التلاوة وقيل هو جمع مثني مفعول من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما في قوله تعالى ﴿ فارجع البصر كرتين ﴾ أى كرة بعد كرة ووقوعه صفة لكتابا باعتبار تفصيله كما يقال القرآن سور وآيات ويجوز أن ينتصب على التمييز من متشابها كما يقال رأيت رجلا حسنا شمالا أى شمائله والمعنى مؤشابهة مثانيه ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ قيل صفة لكتابا أو حال منه لتخصصه بالصفة وإلا ظهر أنه استئناف مسوق لبيان آثاره الظاهرة في سامعيه بعد بيان أوصافه في نفسه ولتقرير كونه أحسن الحديث والافتشعار التقبض يقال اقشعر الجلد إذا تقبض ( ٣٩ - أبو السعود - الزلم )

تقبضاً شديداً وتركيبه من القشع وهو الأديم اليابس قد ضم إليه الرأى ليكون رباعياً ودالاً على معنى زائد يقال اقشعر جلده وقف شعره إذا عرض له خوف شديد من منكر هائل دهمه بغتة والمراد إما بيان إفراط خشيتهم بطريق التمثيل والتصوير أو بيان حصول تلك الحالة وعروضها لهم بطريق التحقيق والمعنى أنهم إذا سمعوا القرآن وقوارع آيات وعيده أصابتهم هيبه وخشية تقشعر منها جلودهم وإذا ذكروا رحمة الله تعالى تبدلت خشيتهم رجاء ورهبتهم رغبة وذلك قوله تعالى ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ أى ساكنة معاشنة إلى ذكر رحمته تعالى وإنما لم يصرح بها لإيداناً بأنها أول ما يخطر بالبال عند ذكره تعالى ﴿ ذلك ﴾ أى الكتاب الذى شرح أحواله ﴿ هدى الله يهدى به من يشاء ﴾ أن يهدى بصرف مقدوره إلى الاهتداء بتأمله فيما فى تضاعيفه من شواهد الحقيقة <sup>(١)</sup> ودلائل كونه من عند الله تعالى ﴿ ومن يضل الله ﴾ أى يخلق فيه الضلالة بصرف قدرته إلى مبادئها وإعراضه عما يرشده إلى الحق بالسكينة وعدم تأثره بوعيده ووعدده أصلاً أو ومن يضل ﴿ فإله من هاد ﴾ يخلصه من ورطة الضلال وقيل ذلك الذى ذكر من الخشية والرجاء أثر هداه تعالى يهدى بذلك الأثر من يشاء من عباده ومن يضل أى ومن لم يؤثر فيه لطفه لقسوة قلبه وإصراره على لجوره فإله من هاد من مؤثر فيه بشئ قط ﴿ أفمن يتقى بوجهه ﴾ الخ استئناف جار مجرى التعليق لما قبله من تباین حالى المهتدى والضال والكلام فى الهمزة والفاء وحذف الخبر كالذى مر فى نظيره والتقدير أكل الناس سواء فمن شأنه أنه يتقى نفسه بوجهه الذى هو أشرف أعضائه ﴿ سوء العذاب ﴾ أى العذاب السوء الشديد ﴿ يوم القيامة ﴾ لكون يده التى بها كان يتقى المسكاره والمخاوف مذلولة إلى عنقه كمن هو آمن لا يعتريه مكروه ولا يحتاج إلى الاتقاء بوجه من الوجوه وقيل نزلت فى أبى جهل .

﴿ وقيل للظالمين ﴾ عطف على يتقى أى ويقال لهم من جهة خزنة النار وصيغة الماضى للدلالة على التحقق والتقرر وقيل هو حال من ضمير يتقى

بإضمار قد ووضع المظهر في مقام المضمحل للتسجيل عليهم بالظلم والإشمار بعة الأمر في قوله تعالى ﴿ ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ أى وبال ما كنتم تكسبونته في الدنيا على الدوام من الكفر والمعاصي ﴿ كذب الذين من قبلهم ﴾ استئناف مسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوى لإثربان ما يصبب السكل من العذاب الآخرى أى كذب الذين من قبلهم من الأمم السالفة ﴿ فأتاهم العذاب ﴾ المقدر لكل أمة منهم ﴿ من حيث لا يشعرون ﴾ من الجهة التى لا يحسبون ولا يخطر ببالهم إتيان الشر منها ﴿ فاذقهم الله الحزى ﴾ أى الذل والصغار ﴿ فى الحياة الدنيا ﴾ كالمسخ والخسف والقتل والسب والإجلاء ونحو ذلك من فنون النكال ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ المعد لهم ﴿ أكبر ﴾ لشدة وسرمدية ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أى لو كان من شأنهم أن يعلموا شيئا لعلوا ذلك واعتبروا به ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ﴾ يحتاج إليه الناظر فى أمور دينه ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ كى يتذكروا به ويتعظوا ﴿ قرآنا عربيا ﴾ حال مؤكدة من هذا على أن مدار التأكيد هو الوصف كقولك جاء فى زيد رجلا صالحا أو مدح له ﴿ غير ذى عوج ﴾ لاختلاف فيه بوجه منه الوجه فهو أبلغ من المستقيم وأخص بالمعاني وقيل المراد بالعوج التشكك ﴿ لعلهم يتقون ﴾ علة أخرى مترتبة على الأولى ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ﴾ لإيراد المثل من الأمثال القرآنية بلفظ: بيان أن الحكمة فى ضربها هو التذكر والاتعاظ بها وتحصيل التقوى والمراد بضرب المثل ههنا تطبيق حالة عجيبة بأخرى مثلها وجعلها مثلها كما مر فى سورة يس ومثلا مفعول ثان لضرب ورجلا مفعوله الأول آخر عن الثانى للتشويق إليه وليتصل به ما هو من تتمته التى هى العمدة فى التمثيل وفيه ليس بصلة لشركاء كما قيل بل هو خبر له وبيان أنه فى الأصل كذلك بما لا حاجة إليه والجملة فى حيز النصب على أنه وصف لرجلا أو الوصف هو الجار والمجرور وشركاء مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على الموصوف فالمعنى جعل الله تعالى مثلا للمشرك<sup>(١)</sup> حسبا يقود إليه

مذهبه من ادعاء كل من معبوديه عبوديته عبدا يتشارك فيه جماعة يتجاذبونه ويتعاورونه في مهماتهم المتباينة في تحييره وتوزع قلبه ﴿ورجلا﴾ أى وجعل للموحد مثلاً رجلاً ﴿سليماً﴾ أى خالصاً ﴿لرجل﴾ فرد ليس لغيره عليه سبيل أصلاً وقرىء سليماً بفتح السين وكسر ها مع سكون اللام والكيل مصادر من سلم له كذا أى خلص نعمت بها مبالغة أو حذف منها ذو وقرىء سالماً وسالم أى وهناك رجل سالم وتخصيص الرجل لأنه أفطن لما يجرى عليه من الضر والنفع ﴿هل يستويان مثلاً﴾ إنكار واستبعاد لاستوائهما ونفى له على أبلغ وجه وآكده وإيدان بأن ذلك من الجلاء والظهور بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما أو يتلعم في الحكم بتيانيهما ضرورة أن أحدهما فى أعلى عليين والآخر فى أسفل سافلين وهو السر فى إيهام الفاضل والمفضول وانتصاب مثلاً على التمييز أى هل يستوى حالهما وصفتهما والاقتصار فى التبيين على الواحد لبيان الجنس وقرىء مثلين كقوله تعالى (أكثر أموالاً وأولاداً) للإشعار باختلاف النوع أو لأن المراد هل يستويان فى الوصفين على أن الضمير للمثليين لأن التقدير مثل رجل فيه الخ ومثل رجل الخ وقوله تعالى ﴿الحمد لله﴾ تقرير لما قبله من نفى الاستواء بطريق الاعتراض وتنبية للموحدين على أن ما لهم من المزية بتوفيق الله تعالى وأنها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته أو على أن يبينه تعالى بهضرب المثل أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء صنع جميل ولطف تام منه عز وجل مستوجب الحمد وعبادته وقوله تعالى :

(بل أكثرهم لا يعلمون) إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور إلى بيان أن أكثر الناس وهم المشركون لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره فيقتون في ورطة الشرك والضلال وقوله تعالى ﴿إنك ميت وأنهم ميتون﴾ تمهيد لما يعقبه من الاختصاص يوم القيامة وقرئ مائت وجاءت من وقيل كانوا يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم موته أي إنكم جميعا بصدد الموت ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم﴾ أي مالك أموركم

(تختصمون) فتحتج أنت عليهم بأنك بلغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمراعاة التي من جعلتها ما في تضاعيف هذه الآيات واجتهدت في الدعوة إلى الحق حق الاجتهاد وهم قد لجؤا في المسكابة والعناد وقيل المراد به الاختصاص العام الجاري في الدنيا بين الأنام والأول هو الأظهر الأنسب بقوله تعالى : (فن أظلم من كذب على الله) فإنه إلى آخره مسوق لبيان حال كل من طرأ في الاختصاص الجاري في شأن الكفر والإيمان لا غير أى أظلم من كل ظالم من أفزى على الله سبحانه وتعالى بأن أضاف إليه الشريك والولد (وكذب بالصدق) أى بالامر الذي هو عين الحق ونفس الصدق وهو ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم (إذ جاءه) أى في أول مجيئه من غير تدبر فيه ولا تأمل (أليس في جهنم مثوى للكافرين) أى لهؤلاء الذين ائتمروا على الله سبحانه وسارعوا إلى التكذيب بالصدق من أول الأمر والجمع باعتبار معنى من كما أن الأفراد في الضمائر السابقة باعتبار لفظها أو لجنس الكفرة وهم داخلون في الحكم أوليا .

(والذي جاء بالصدق وصدق به) الموصول عبارة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه كما أن المراد في قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب لعلمهم بهتدون) هو عليه الصلاة والسلام وقومه وقيل عن الجنس المتناول للرسول والمؤمنين بهم ويؤيد قراءة ابن مسعود رضي الله عنه (والذين جاءوا بالصدق وصدقوا به) وقيل هو صفة لموصوف محذوف هو الفوج أو الفريق (أولئك) الموصوفون بما ذكر من المجيء بالصدق والتصديق به (هم المنقوتون) المنقوتون بالتقوى التي هي أجل الرغائب وقرى وضدق به بالتخفيف أى صدق به الناس فأداه إليهم كما نزل عليه من غير تغيير وقيل وصار صادقا به أى بسببه لأن ما جاء به من القرآن معجزة دالة على صدقه عليه الصلاة والسلام وقرى صدق به على البناء المفعول (لهم ما يشاؤون عند ربهم) بيان لما لهم في الآخرة من حسن المسآب بعد بيان ما لهم في الدنيا من محاسن الأعمال أى لهم كل ما يشاؤون من جلب المنافع ودفع المضار في الآخرة لا في الجنة فقط لما

أن بعض ما يشاؤنه من تكفير السيئات والأمن من الفرع الأكبر سائر أهوال  
القيامة إنما يقع قبل دخول الجنة ﴿ذلك﴾ الذي ذكر من حصول كل ما يشاؤنه  
﴿جزاء المحسنين﴾ أي الذين أحسنوا أعمالهم وقد مر تفسير الإحسان غير  
مرة وقوله تعالى ﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا﴾ الخ متعلق بقوله تعالى  
لهم ما يشاؤون لكن لا باعتبار منطوقه ضرورة أن التفكير المذكور لا يتصور  
كونه غاية لثبوت ما يشاؤون لهم في الآخرة كيف لا وهو بعض ما سيثبت لهم  
فيها بل باعتبار فحواه فإنه حيث لم يكن إخباراً بما ثبت لهم فيما مضى بل بما  
سيثبت لهم فيما سيأتي كان في معنى الوعد به كما مر في قوله تعالى وعد الله فإنه  
مصدر مؤكد لما قبله من قوله تعالى ﴿لهم غرف من فوقها غرف﴾ فإنه في معنى  
وعدهم الله غرفاً فاتصّب به وعد الله كأنه قيل وعدهم الله جميع ما يشاءونه<sup>(١)</sup>  
من زوال المضار وحصول المسار ليكفر عنهم بموجب ذلك الوعد أسوأ الذي  
عملوا دفعاً لمضارهم .

﴿ويجزئهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾ إعطاء لمناهم وإظهار  
الاسم الجليل في موقع الإضمار لإبراز كمال الاعتناء بمضمون الكلام وإضافة  
الأسوأ والأحسن إلى ما بعدهما ليست من قبيل إضافة المفضل إلى المفضل عليه  
بل من إضافة الشيء إلى بعضه - المقصد إلى التحقيق والتوضيح من غير اعتبار  
تفضيله عليه وإنما المعتبر فيهما مطلق الفضل والزيادة لا على المضاف إليه المعين  
بخصوصه كما في قولهم الناقص والأشج أعدا بنى مروان خلا أن الزيادة المعتبرة  
فيهما ليست بطريق الحقيقة بل هي في الأول بالنظر إلى ما يليق بمجالهم من  
استعظام سيئاتهم وإن قلت واستغفار حسناتهم وإن جلت والثاني بالنظر إلى  
لطف أكرم الأكرمين من استكثار الحسنة اليسيرة ومقابلتها بالثواب  
الكثيرة وحمل الزيادة على الحقيقة وإن أمكن في الأول بناء على أن تخصيص  
الأسوأ بالذكر لبيان تكفير مادونه بطريق الأولوية ضرورة استلزام تكفير

الأسوأ لتكفير السيئ لكن لما لم يكن ذلك في الأحسن كان الأحسن نظامهما في سلك واحد من الاعتبار والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل في صلة الموصول الثاني دون الأول للإيذان باستمرارهم على الأعمال الصالحة بخلاف السبيئة .

﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ إنكار ونفي لعدم كفايته تعالى على أبلغ وجه وأكده كان الكفاية من التحقق والظهور بحيث لا يقدر أحد على أن يتفوه بهما أو يتلعم في الجواب بوجودها والمراد بالعبد إما رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المجلس المنتظم له عليه السلام انتظاماً أولياً ويؤيده قراءة من قرأ عباده وفسر بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكذا قراءة من قرأ بكاف عباده على صيغة المبالغة إما من الكفاية لإفادة المبالغة فيها وإما من المكافأة بمعنى المجازاة وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما قالت له قرينش إنا نخاف أن تحبلك آلهتنا ويصيبك مضرنا لعيبك لإياها وفي رواية قالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون كما قال قوم هود (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) وذلك قوله تعالى ﴿ ويصوفونك بالذين من دونه ﴾ أي الآوثان التي اتخذوها آلهة من دونه تعالى والجملة استثناف وقيل بحال : ﴿ ومن يضل الله ﴾ حتى غفل عن كفايته تعالى وعصمته له عليه الصلاة والسلام وخوفه بما لا ينفع ولا يضر أصلاً ﴿ فما له من هاد ﴾ يهديه إلى خير ما ﴿ ومن يهد الله فما له من مضل ﴾ يصرفه عن مقصده أو يصيبه بسوء يضل بسوئه إذ لا راد لفعله ولا معارض لإرادته كما ينطق به قوله تعالى ﴿ أليس الله بعزیز ﴾ غالب لا يغالب منيع لا يمانع ولا ينازع ﴿ فدى انتقام ﴾ يلتقم من أعدائه لأوليائه وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ لوضوح الدليل وسنوح السبيل .

﴿ قل ﴾ تبكيئاهم ﴿ أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ﴾ أي بعد ما تحققتم أن عظماء العالم العلوي والسفلي



هو الله عز وجل فأخبروني أن آلهتكم إن أزداني الله بضر هل يكشفن عني ذلك الضر ﴿أو أزداني برحمة﴾ أى أو أزداني بنفع ﴿هل هن ممسكات رحمته﴾ فيمنعنا عني وقرىء كاشفات ضره وممسكات رحمته بالتنوين فيهما ونصب ضره ورحمته وتعليق إرادة الضر والرحمة بنفسه عليه الصلاة والسلام للرد في نحوهم حيث كانوا خوفوه معرفة الأوثان ولما فيه من الايذان بالمحاض النصيحة ﴿قل حسبى الله﴾ أى فى جميع أمورى من إصابة الخير ودفع الشر روى أنه عليه الصلاة والسلام لما سألهم سكتوا فنزل ذلك ﴿عليه يتوكل المتوكلون﴾ لا على غيره أصلا لعلمهم بأن كل ما سواه تحت ملكوته تعالى ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ على حالتكم التى أنتم عليها من العداوة التى تمسكنتم فيها فإن المسكنة تستعار من العين للمعنى كما تستعار هنا وحيث للزمان مع كونهما للمكان وقرىء على مكاناتكم ﴿لأنى عامل﴾ أى على مكانتى لحذف للاختصار والمبالغة فى الوعيد والإشعار بأن حاله لا تزال تزداد قوة بنصر الله عز وجل وتأيدته ولذلك توعدهم بكونه منصورا عليهم فى الدارين بقوله تعالى :

﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾ فإن خزى أعدائه دليل غلبته عليه الصلاة والسلام وقد عذبهم الله تعالى وأخزاهم يوم بدر ﴿وبحل عليهم عذاب مقيم﴾ أى دائم هو عذاب النار ﴿إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس﴾ لأجلهم فإنه مناط مصالحهم فى المعاش والمعاد ﴿بالحق﴾ حال من فاعل أنزلنا أو من مفعوله ﴿فمن اهتدى﴾ بأن عمل بما فيه ﴿فلنفسه﴾ أى إنما نفع به نفسه ﴿ومن ضل﴾ بأن لم يعمل بموجبه ﴿فإنما يضل عليها﴾ لما أن وبال ضلاله مقصور عليها .

﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ لتجبرهم على الهدى وما وظيفتك إلا البلاغ وقد بلغت أى بلاغ ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها﴾ أى يقبضها من الأبدان بأن يقطع تعلقها عنها وتصرفها فيها إما ظاهرا وباطنا كما عند الموت أو ظاهرا فقط كما عند النوم ﴿فيمسك التى قضى عليها الموت﴾ ولا يرددها إلى البدن وقرىء ثم قضى على البناء للمفعول ورفع الموت ﴿ويرسل

الآخرى) أى النائمة إلى بدنّها عند التيقظ ﴿إلى أجل مسمى﴾ هو الوقت المضروب لموته وهو غاية الجنس الإرسال الواقع بعد الإمساك لا لفرد منه فان ذلك بما لا امتداد فيه ولا كمية وما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن فى ابن آدم نفسا وروحا بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس هى التى بها العقل والتمييز والروح هى التى بها النفس والتحرك فتتوفيان عند الموت وتتوفى النفس وحدها عند النوم قريب بما ذكر ﴿إن فى ذلك﴾ أى فيما ذكر من التوفى على الوجهين والإمساك فى أحدهما والإرسال فى الآخر ﴿آيات﴾ عجيبة دالة على كمال قدرته تعالى وحكمته وشمول رحمته ﴿لقوم يتفكرون﴾ فى كيفية تعلقها بالأبدان وتوفيقها عنها تارة بالسكلية كما عند الموت وإمساكها بأقية لا تقضى بفنائها وما يعترىها من السعادة والشقاوة وأخرى عن ظواهرها فقط كما عند النوم وإرسالها حيناً بعد حين إلى انقضاء آجالها ﴿أم اتخذوا﴾ أى بل اتخذ قريش ﴿من دون الله﴾ من دون إذنه تعالى ﴿شفعاء﴾ تشفع لهم عنده تعالى .

﴿قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون﴾ الهمزة لإنكار الواقع واستقبحه والتوبيخ عليه أى قل اتخذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئا من الأشياء ولا يعقلونه فضلا عن أن يملكوا الشفاعة عند الله تعالى أو هى لإنكار الوقوع ونفيه على أن المراد بيان أن ما فعلوا ليس من اتخاذ الشفعاء فى شيء لأنه فرع كون الآوان شفعاء وذلك أظهر المحالات فالمقدر حيث قد غير ما قدر أولا وعلى أى تقدير كان فالواو للعطف على شرطية قد حذفته لدلالة المذكورة عليها أى أيشفعون لو كانوا يملكون شيئا ولو كانوا لا يملكون الخ وجواب لو محذوف لدلالة المذكور عليه وقد مر تحقيقه مرارا ﴿قل﴾ بعد تبكيهم وتجهيلهم بما ذكر تحقيقا للحق ﴿لله الشفاعة جميعا﴾ أى هو مالكها لا يستطيع أحد شفاعة ما إلا أن يكون المشفوع له من تعنى والشفيع مأذونا له وكلاهما مفقود ههنا وقوله تعالى ﴿لله ملك السموات والأرض﴾ تقرير له وتأكيد أى له ملكهما وما فيهما من المخلوقات لا يملك أحد أن يتكلم فى أمر من أموره بدون إذنه ورضاه ﴿ثم إليه ترجعون﴾ يوم القيامة لا إلى أحد من الوعاة

لا استقلالاً ولا اشتراكاً في فعل يومئذ ما يريد ﴿ وإذا ذكر الله وحده ﴾ دون آلهتهم ﴿ اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي انقبضت ونفرت كما في قوله تعالى ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ﴾ ﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ فرادى أومع ذكر الله تعالى ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ لفرط افتتانهم بها ونسيانهم حق الله تعالى ولقد بولغ في بيان حالهم القبيحتين حيث بين الغاية فيهما فإن الاستبشار هو أن يمتلي القلب سرورا حتى ينبسط له بشرة الوجه والاشمأزاز أن يمتلي غيظا وغما ينقبض منه أديم الوجه والعامل في إذا الأولى اشمأزت وفي الثانية ما هر العامل في إذا المفاجأة تقديره وقت ذكر الذين من دونه فاجأوا وقت الاستبشار .

﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ﴾ أي التجهى إليه تعالى بالدعاء لما تحيرت في أمر الدعوة وضجرت من شدة شكيمتهم في المسكارة والعناد فإنه القادر على الأشياء بحملتها والعالم بالأحوال برمتها ﴿ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي حكما يسلبه كل مكابر معاند ويخضع له كل حات مارد وهو العذاب الدنيوى أو الآخروى وقوله تعالى ﴿ ولو أن الذين ظلموا ما في الأرض جميعا ﴾ الخ كلام مستأنف مسوق لبيان آثار الحكم الذى استدعاه النبي صلى الله عليه وسلم وغاية شدته وفظاعته أى لو أن لهم جميع ما في الدنيا من الأموال والذخائر ﴿ ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ﴾ أى لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب الشديد وهيئات ولات حين مناص وهذا كما ترى وعيد شديد وإقناط كلى لهم من الخلاص ﴿ وبدا لهم من الله ما كانوا يحسبون ﴾ أى ظهر لهم من فنون العقوبات ما لم يكن في حسابهم وهذه غاية من الوعيد لا غاية وراءها ونظيره في الوعد قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ ﴿ وبدا لهم سيئات ما كسبوا ﴾ سيئات أعمالهم أو كسبهم حين تعرض عليهم صحائفهم ﴿ وحق بهم ما كانوا يستهزئون ﴾ أي أحاط بهم جزاؤه ﴿ فلإذا مس الإنسان ضر دعا نارا ﴾ لإخبار عن الجنس بما يفعله غالب أفرادها والفاء لترتيب ما بعدها من المناقضة والتعكيس على ما مر من

حالتهم الفبيحتين وما بينهما اعتراض مؤكد للإدكار عليهم أى أنهم يشتمون عن ذكر الله تعالى وحده ويستبشرون بذكر الآلهة فإذا مسهم ضر دعوا من أشمازوا عن ذكره دون من استبشروا بذكره ﴿ثم إذا خولناه نعمه منا﴾ أعطيناه إياها تفضلا فإن التخويل مختص به لا يطلق على ما أعطى جزاء ﴿قال إنما أوتيته على علم﴾ أى على علم منى بوجوه كسبه أو بأنى ساعطاه لما لى من الاستحقاق أو على علم من الله تعالى فربواستحقاقى والهاء لما أن جعلت موصولة وإلا فلنعمه والتذكير لما أن المراد شيء من النعمة ﴿بل هى فتنة﴾ أى عنة وابتلاء له أيشكر أم يكفر وهو رد لما قاله وتغيير السبك للبالغه فيه والإيدان بأن ذلك ليس من باب الإيتاء المنهى عن الكرامة وإنما هو أمر مبين له بالسكليه وتأنيت الضمير باعتبار لفظ النعمة أو باعتبار الخبر وقرىء بالتذكير .

﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن الأمر كذلك وفيه دلالة على أن المراد بالإنسان هو الجنس ﴿قد قالها الذين من قبلهم﴾ الهاء لقوله إنما أوتيته على علم لأنها كلمة أو جملة وقرىء بالتذكير والموصول عبارة عن قارون وقومه حيث قال إنما أوتيته على علم عندى وهم راضون به ﴿فأغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ من متاع الدنيا ويجمعون منه ﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا﴾ جزاء سيئات أعمالهم أو أجزية ما كسبوا وتسميتها سيئات لأنها فى مقابلة سيئاتهم وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴿والذين ظلموا من هؤلاء﴾ المشركين ومن للبيان أو للتبويض أى أفرطوا فى الظلم والعتو ﴿سيصيبهم سيئات ما كسبوا﴾ من الكفر والمعاصى كما أصاب أولئك والسين للتأكيد وقد أصابهم أى إصابة حيث قحطوا سبع سنين وقتل صناديدهم يوم بدر ﴿وما هم بمعجزين﴾ أى فائتين ﴿أو لم يعلموا﴾ أى أقالوا ذلك ولم يعلموا أو أغفلوا ولم يعلموا ﴿أن الله يسطر الرزق لمن يشاء﴾ أن يسطره له ﴿ويقدر﴾ لمن يشاء أن يقدره له من غير أن يكون لأحد مدخل ما فى ذلك حيث حبس عنهم الرزق سبعا ثم بسطه لهم سبعا ﴿إن فى ذلك﴾ الذى ذكر ﴿لآيات﴾ دالة على أن الحوادث كافة من الله عز وجل ﴿لقوم يؤمنون﴾ إذ هم المستدلون بها على مدلولاتها ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على

أنفسهم ﴿أى أفرطوا فى الجنائىة عليها بالإسراف فى المعاصى وإضافة العباد  
تخصصه بالمؤمنين على ما عرف القرآن الكريم .

﴿ لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ أى لا تياسوا من مغفرته أولا ولا تفضله  
ثانيا ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ عفوا لمن يشاء ولو بعد حين بتعذيب فى  
الجملة بغيره حسبما يشاء وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر كيف لا وقوله تعالى  
(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ظاهر فى الإطلاق  
فما عدا الشرك وما يدل عليه التعليل بقوله تعالى ﴿لأنه هو الغفور الرحيم ﴾  
على المبالغة وإفادة الحصر والوعد بالرحمة بعد المغفرة وتقديم ما يستدعى عموم  
المغفرة مما فى عبادى من الدلالة على الدلة والاختصاص المقتضيين للترحم  
وتخصيص ضرر الإسراف بأنفسهم والنهى عن القنوط مطلقا عن الرحمة فضلا  
عن المغفرة وإطلاقها وتعليله بأن الله يغفر الذنوب ووضع الاسم الجليل موضع  
الضمير لدلالته على أنه المستغنى والمنعم على الإطلاق والتأكيد بالجميع وما روى  
من أسباب النزول الدالة على ورود الآية فيمن تاب لا يقتضى اختصاص الحكم  
بهم ووجوب حمل المطلق على المقيد فى كلام واحد مثل أكرم الكاملين غير  
مسلم فكيف فيما هو بمنزلة كلام واحد ولا يخل بذلك الأمر بالتوبة والإخلاص  
فى قوله تعالى :

﴿ وأنبؤوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾  
إذ ليس المدعى أن الآية تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبق  
تعذيب لتغنى عن الأمر بهما وتنافى الوعيد بالعذاب ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل  
إليكم من ربكم ﴾ أى القرآن أو المأمور به دون المنهى عنه أو العزائم دون  
الرخص أو الناسخ دون الملة - وخ ولعله ما هو أنجى وأسلم كالإجابة والمواظبة  
على الطاعة ﴿ من قبل أن يأتكم العذاب بغيته وأنتم لا تشعرون ﴾ بمجيئه لتتداركوا  
وتتأهبوا له ﴿ أن تقول نفس ﴾ أى كراهة أن تقول والنسكير للتكثير كما فى  
قوله تعالى ﴿ هل ينظرون إلا الساعة أن يأتهم بغيبها وهم لا يعلمون ﴾ فإنه مسلك فيما يسلك عند إرادة التكثير  
والتهويل وقد مر تحقيقه فى مطلع سورة الحجر ﴿ يا حسرتنا ﴾ بالالف بدل لا من

ياہ الإضافة وقرىء يا حسرتاه بهاء السكت وقفاء وقرىء يا حسرتاى بالجمع بين  
العوضين وقرىء يا حسرتى على الأصل أى احضرى فهذا أوان حضورك  
(على ما فرطت) أى على تفريطى وتقصيرى (فى جنب الله) أى جانبه  
وفى حقه وطاعته وعليه قول من قال :

أما تتقين الله فى جنب وامق له كبد حرى وعين ترقق  
وهو كناية فيها مبالغة وقيل فى ذات الله على تقدير مضاف كالطاعة وقيل  
فى قر به من قوله تعالى (والصاحب بالجنب) وقرىء فى ذكر الله (وإن كنت لمن  
الساخرين) أى المستهزئين بدين الله تعالى وأهله ومحل الجملة النصب على الحال  
أى فرطت وأنا ساخر .

(أو تقول لو أن الله هدانى) بالإرشاد إلى الحق (لكنت من المتقين)  
الشرك والمعاصى (أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة) رجعة إلى الدنيا  
(فأكون من المحسنين) فى العقيدة والعمل وأو للدلالة على أنها لا تخلو عن  
هذه الأقوال تحسرا وتحيرا وتعللا بما لا طائل تحته وقوله تعالى (بلى قد جاءتك  
آياتى فى كنىيتى) واستكبرت وكنت من الكافرين (رد من الله تعالى عليه  
لما تبصينه قوله لو أن الله هدانى من معنى التيق وفصله عنه لما أن تقديسه يفرق  
القرائن وتأخير المردود يخل بالترتيب الوجودى لأنه يتحسر بالتفريط ثم يعمل  
بفقد الهداية ثم يتمنى الرجعة وهو لا يمنع تأثير قسرة الله تعالى فى فعل العبد  
ولا ما فيه من إسناد الفعل إليه كما عرفت وتذكير الخطاب باعتبار المعنى وقرىء  
بالتأنيث (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله) بأن وصفوه بما لا يليق  
بشأنه كاتخاذ الولد (وجوههم مسودة) بما يناههم من الشدة أو بما يتخيل عليها  
من ظلمة الجهل والجملة حال قد اكتفى فيها بالضمير عن الواو على أن الوؤية  
بصرية أو مفعول ثان لما على أنها عرفانية (أليس فى جهنم مثوى) أى مقام  
(للمتكبرين) عن الإيمان والطاعة وحق تقرير لما قبله من رؤيتهم كذلك  
(وينجى الله الذين اتقوا) الشرك والمعاصى أى من جهنم وقرىء ينجى من الإنجاء  
(بمفاضتهم) مصدر ميمى إمامن فاز بالمطلوب أى ظفر به والنجاء متعلق بـ حذف

هو حال من الموصول مفيدة لمقارنته تنجيهم<sup>(١)</sup> من العذاب لنيل الثواب أى  
ينجيهم الله تعالى من مشوى المتكبرين ملتبسين بفوزهم بمطالوبهم الذى هو الجنة  
وقوله تعالى :

﴿ لا يمسه سوء ولا هم يحزنون ﴾ إما حال أخرى من الوصول أو من ضمير مفازتهم مفيدة لكون نجاتهم أو فوزهم بالجنة غير مسبقة بمساس العذاب والحزن وإما من فاز منه أى نجا منه والباء للملابسة وقوله تعالى لا يمسه إلى آخره تفسير وبيان لمفازتهم أى ينجيهم الله تعالى ملتبسين بنجاتهم الخاصة بهم أى بنفى سوء والحزن عنهم أو للسببية إما على حذف المضاف أى ينجيهم بسبب مفازتهم التى هى تقوam كما يشعر به إيراد فى حيز الصلة وإما على إطلاق المفازة على سببها الذى هو التقوى وليس المراد نفي دوام المساس والحزن بل دوام نفيهما كما مر مراراً ﴿ الله خالق كل شئ ﴾ من خير وشر وإيمان وكفر لكن لا بالجبر بل بمباشرة الكاسب لأسبابها ﴿ وهو على كل شئ وكيل ﴾ يتولى التصرف فيه كيفما يشاء ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ لا يملك أمرها ولا يتمكن من التصرف فيها غيره وهو عبارة عن قدرته تعالى وحفظه لها وفيها مزيد دلالة على الاستقلال والاستبداد لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها وهو جمع مقلد أو مقلاد من قلده إذا أزمته وقيل جمع إقليد معرب كليلد على الشذوذ كما لهذا كير وعن عثمان رضى الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المقلد فقال عليه الصلاة والسلام تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير والمعنى على هذا أن الله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد وهى مفاتيح خبير السموات والأرض من تسلم بها أصابه ﴿ والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ﴾ متصل بمقابلته والمعنى أن الله تعالى خالق لجميع الأشياء

ومتصرف فيها كيفما يشاء بالإحياء والإماتة بيده مقاليد العالم العلوى والسفلى والذين كفروا بآياته التكوينية المنصوبة فى الآفاق والأنفس والنزيلة التى من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بذلك هم الخاسرون خسارانا لاخسار وراه هذا وقيل هو متصل بقوله تعالى وينجى الله وما بينهما اعتراض فتدبر ﴿ قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ﴾ أى أبعد مشاهدة هذه الآيات غير الله أعبد وتأمرؤنى اعتراض للدلالة على أنهم أمروه به عقيب ذلك وقالوا استلم بعض آلهتنا نؤمن بإهلك لفرط غباوتهم ويجوز أن ينتصب غير بما يدل عليه تأمرؤنى أعبد لأنه بمعنى تعبدوننى وتقولون لى أعبد على أن أصله تأمرؤنى أن أعبد فحذف أن ورفع ما بعدها كما فى قوله :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلى ويؤيده قراءة أعبد بالنصب وقرىء تأمرؤنى بإظهار النون على الأصل وبحذف الثانية ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك ﴾ أى من الرسل عليهم السلام ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ كلام وارد على طريقة الفرض لتهييج الرسل وإقنات الكفرة والإيذان بغاية شناعة الإشراك وقبحه وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره فهكيف بمن عداه وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد واللام الأولى موطئة للقسم والآخران للجواب وإطلاق الإحباط يحتمل أن يكون من خصائصهم عند الإشراك منهم لأن الإشراك منهم أشد وأقبح وأن يكون مقيداً بالموت كما صرح به فى قوله تعالى ( ومن یرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم ) وعطاف الحسران عليه من عطاف المسبب على السبب . . .

﴿ بل الله فاعبد ﴾ رد لما أمروه به ولولا دلالة التقديم على القصر لم يكن كذلك ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ إتمامه عليك وفيه إشارة إلى ما يوجب الاختصاص ويقتضيه ﴿ وما قدرُوا الله حق قدره ﴾ ما قدرُوا عظمته تعالى فى أنفسهم حق عظمته حيث جعلوا له شريكاً ووصفوه بما لا يليق بشئونه الجليلة وقرىء بالتشديد ﴿ والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات



مطويات يمينه) تنبيه على غاية عظمته وكمال قدرته وحقارة الأفعال العظام التي  
تتحير فيها الأوهام بالنسبة إلى قدرته تعالى ودلالة على أن تخريب العالم أهون شيء  
عليه على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين<sup>(١)</sup> حقيقة ولا مجازا  
كقولهم شابت لمة الليل والقبضة المرة من القبض أطلقت بمعنى القبضة وهي المقدار  
المقبوض بالكف تسمية بالمصدر أو بتقدير ذات قبضة وقرئ بالنصب على  
الظرف تشبيها للدوقت بالمهم وتأکید الأرض بالجميع لأن المراد بها الأرضون  
السبع أو جميع أبعاضها البادية والغائرة وقرئ مطويات على أنها حال والسموات  
معطوفة على الأرض منظومة في حكمها (سبحانه وتعالى عما يشركون)  
ما أبعد وما أعلى من هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم أو عما يشركونه من  
الشركاء (ونفخ في الصور) هي النفخة الأولى (فصعق من في السموات  
ومن في الأرض) أي خروا أمواتا أو مغشيا عليهم (إلا من شاء الله)  
قيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل فإنهم لا يموتون بعد وقيل حملة العرش  
(ثم نفخ فيه أخرى) نفخة أخرى هي النفخة الثانية وأخرى يحتمل  
النصب والرفع (فإذا هم قيام) قائمون من قبورهم أو متوقفون وقرئ  
بالنصب على أن الخبر (ينظرون) وهو حال من ضميره والمعنى يقلبون  
أبصارهم في الجوانب كالمهوتين أو ينتظرون ما يفعل بهم (وأشرقت الأرض  
بنور ربها) بما أقام فيها من العدل استعير له النور لأنه يزين البقاع ويظهر  
الحقوق كما يسمى الظلم ظلمة وفي الحديث الظلم ظلمات يوم القيامة ولذلك  
أضيف الاسم الجليل إلى ضمير الأرض أو بنور خلقه فيها بلا توسط أجسام  
مضيئة ولذلك أضيف إلى الاسم الجليل (ووضع الكتاب) الحساب  
والجزاء من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه أو صحائف الأعمال في أيدي  
العامل واكتفى بأهم الجنس عن الجمع وقيل اللوح المحفوظ يقابل به الصحائف  
(وجيء بالنييف والشهداء) للأمم وعليهم من الملائكة والمؤمنين وقيل

المستشهدون ﴿وقضى بينهم﴾ بين العباد ﴿بالحق وهم لا يظلمون﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب على ما جرى به الوعد .

﴿ووفيت كل نفس ما عملت﴾ أى جزاءه ﴿وهو أعلم بما يفعلون﴾ فلا يفوته شيء من أفعالهم وقوله تعالى ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا﴾ الخ تفصيل للثبوتية ويبان لكيفيتها أى سيقوا إليها بالعنف والإهانة أنواجاً متفرقة بعضها فى اثر بعض مرتبة حسب ترتب طبقاتهم فى الضلالة والشرارة والزمر جمع زمرة واشتقاقها من الزمر وهو الصوت إذ الجماعة لا تخلو عنه ﴿حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها﴾ ليدخلوها وحتى هى التى تحكى بعدها الجملة وقرىء بالتشديد ﴿وقال لهم خزنتها﴾ تقرىءاً وتوبيخاً ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ من جنسكم وقرىء نذر منكم ﴿يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ أى وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع من حيث أنهم علواً توبيخهم بإتيان الرسل وتبليغ الكتب ﴿قالوا بلى﴾ قد أتونا وأنذرونا ﴿ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾ حيث قال الله تعالى لا إبليس (لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين) وقد كنا من تبعه وكذبنا الرسل وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا تكذبون ﴿قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها﴾ أى مقدراً خلودكم فيها وإيهام القائل لتحويل القول ﴿فبئس مثوى المتكبرين﴾ اللام للجنس والمخصوص بالذم محذوف ثقة بذكره آنفاً أى فبئس مثواهم جهنم ولا يقدح ما فيه من الإشعار بأن كون مثواهم جهنم لتكبرهم عن الحق فى أن دخولهم النار لسبق كلمة العذاب عليهم فإنها إنما حقت عليهم بناء على تكبرهم وكفرهم وقد مر تحقيقه فى سورة الم السجدة .

﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة﴾ مساق إعزاز وتشريف للإسراع بهم إلى دار الكرامة وقيل سيق مراكبهم إذ لا يذهب بهم إلا راكبين ﴿زمرا﴾ متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم فى الفضل وعلو الطبقة ﴿حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها﴾ وقرىء بالتشديد وجواب إذا محذوف للإيدان بأن لهم حينئذ من فنون السكرامات ما لا يحصى به نطاق العبارات كأنه قيل حتى إذا جاؤوها (٤٠ - أبو السعود - الرابع)

وقد فتحت أبوابها ﴿وقال لهم خزنتها سلام عليكم﴾ من جميع المكاره والآلام ﴿طبتم﴾ طهرتم من دنس المعاصي أو طبتم نفسا بما أتبع لكم من النعيم ﴿فادخلوها خالدين﴾ كان ما كان مما يقصر عنه البيان ﴿وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده﴾ بالبعث والثواب ﴿وأورثنا الأرض﴾ يريدون المسكان الذى استقروا فيه على الاستعمارة وإيراثها تملكها مخلقة عليهم من أعمالهم أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه ﴿نتبوا من الجنة حيث نشاء﴾ أى يتبوا كل واحد منا فى أى مكان أراد من جنته الواسعة على أن فيها مقامات معنوية لا يتنازع واردها ﴿فنعم أجر العاملين﴾ الجنة ﴿وترى الملائكة حافين﴾ محذقين ﴿من حول العرش﴾ أى حوله ومن مزينة أو لا بداء الخوف ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ أى ينزهونه تعالى عما لا يليق به ملتبسين بحمده والجملة حال ثانية أو مقيدة للأولى والمعنى ذاكرين له تعالى بوصف جلاله وإكرامه تلذذا به وفيه إشعار بأن أقصى درجات العليين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق فى شؤنه عز وجل ﴿وقضى بينهم بالحق﴾ أى بين الخلق بإدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة أو بين الملائكة بإقامتهم فى منازلهم على حسب تفاضلهم ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ أى على ما قضى بيننا بالحق وأنزل كلامنا منزلته التى هى حقه والقائلون هم المؤمنون بمن قضى بينهم أو الملائكة وطى ذكرهم لتعيينهم وتعظيمهم . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله تعالى رجاءه يوم القيامة وأعطاه ثواب الخائفين وعن عائشة رضى الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزمر .

تم الجزء الرابع من تفسير العلامة أبى السعود  
وبليه الجزء الخامس وأوله سورة المؤمن

**فهرس موضوعى**  
**للجزء الرابع من تفسير**  
**أبو السعود بن محمد الهادى الحنفى**



## فهرس موضوعى

ص	الموضوع
٣	سورة الحج
٦	الرد على منكرى البعث
١١	الراسخون فى الكفر والمذبذبون فيه
١٦	الله يفصل بين الناس فى الآخرة
٢٠	إبراهيم وتشريع الحج
٣٠	تسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم
٣٤	إلقاء الشيطان فى أمنيات الرسل
٤٨	سورة المؤمنون
	من دلائل الإيمان
٥١	خلق الإنسان
٥٧	إهمال الأمم السابقة للاعتبار
٧٦	توبيخ الكفار
٨٩	سورة النور
٩٠	أحكام الزنا
٩٤	حكم قذف الزوجات
٩٦	قصة الإفك
١٠٧	أحكام اجتماعية
١١٢	من أحكام النكاح
١١٧	من طرائق معرفة الله
١٢٨	إشعار بمنزلة النبى صلى الله عليه وسلم
١٣٤	أحوال غير المهديين
١٥٤	سورة الفرقان

## ص الموضوع

- ١٦٨ من أباطيل الكفار  
 ١٩٣ سمات المخلصين من عباد الله  
 ٢٠٠ سورة الشعراء  
 تسليمة النبي صلى الله عليه وسلم  
 ٢٠٤ إعراض الكفار عن الأنبياء  
 ٢٢٩ إبطال مزاعمهم عن القرآن  
 ٢٤٢ سورة النمل  
 ٢٤٣ من أحوال الكفار  
 ٢٥٤ سليمان وبلقيس  
 ٢٩١ سورة القصص  
 عناصر كفر فرعون  
 ٣١٨ موسى وقارون  
 ٣٢٤ سورة العنكبوت  
 ٣٣١ الرد على منكبرى البعث  
 ٣٤٨ سورة الروم  
 ٣٧٢ سورة لقمان  
 ٣٧٦ من مواعظ لقمان  
 ٣٧٩ توبيخ المشركين  
 ٣٨٥ سورة السجدة  
 ٣٩٨ سورة الأحزاب  
 ٣٩٩ العلاقات الزوجية  
 ٤١٥ خطاب إلى أمهات المؤمنين  
 ٤٢٤ العلاقة بين الأزواج  
 ٤٣٣ واجبات أمهات المؤمنين  
 ٤٤٠ سورة سبا

ص	الموضوع
٤٤١	إسكار البعث
٤٤٥	فضل الله على داود
٤٥٠	أحوال سبأ
٤٦٩	سورة الملائكة
٤٧١	تذكير بالنعيم
٤٨٣	من فضائل القرآن
٤٩١	سورة يس
٥٢٥	سورة الصافات
٥٤٣	قصة الذبيح
٥٤٦	سلالة إبراهيم
٥٥١	أكاذيب قريش
٥٥٨	سورة ص
٥٥٩	وعيد الكفار
٥٦٣	من أحوال الكفار
٥٧٧	فتنة سليمان
٥٨٠	ذكر الأنبياء والعيرة في حياتهم
٥٨٦	وظيفة الرسول
٥٩٤	سورة الزمر
٦٠٧	مثل الدنيا



